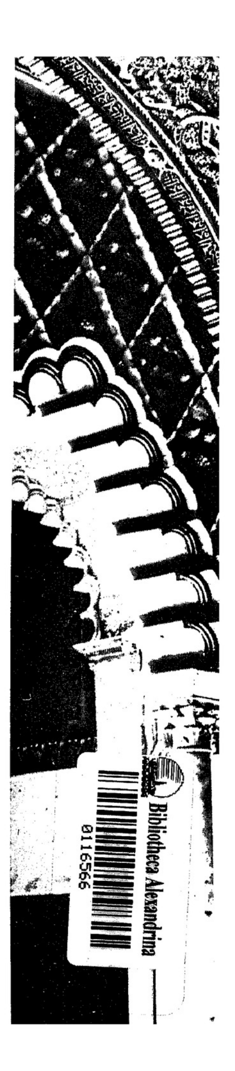
مالكوم كامرون ليونز

د. أ. ب. جاكسون

صلاح الدين



الأهلية للنشر والتوزيع


صلاح الدين

ملكوم كامرون ليونز

د. أ. ب. جاكسون



نقله إلى العربية

الدكتور علي ماضي

راجعه وحققه

الدكتور نقولا زيادة

الدكتور فهمي سعد

الأهلية للنشر والتوزيع

الأهلية للنشر والتوزيع

بيروت ١٩٨٨

بيروت، شارع الحمراء، بناية الدورادو، ص.ب ١١٣٥٤٣٣، هاتف ٣٥٤١٥٦/٣٥٤١٥٧، برقياً: شارادكوتا

CAMBRIDGE UNIVERSITY PRESS

المحتويات

تصدير

الغاية من وضع هذا المؤلف هي إعادة النظر في الذي بين أيدينا من معرفة عن حياة صلاح الدين، والإضافة إلى تلك المعرفة، حيث يمكن ذلك. وكل ذلك يرمي إلى توضيح الاطار الذي وضع فيه مترجمو صلاح الدين المحدثون أحكامهم وخلاصات آرائهم. ومن أجل تحقيق هذا الغرض فإن الاهتمام يتركّز على المصادر المعاصرة للفترة، وبشكل خاص على المراسلات الموجودة، السياسي منها والخاص. وهذا لن يزيد معرفتنا عن توصل صلاح الدين إلى السلطة في مصر، أو عن تاريخ الحملة الصليبية الثالثة، إلا قليلاً، إلا أنه ذو قيمة خاصة للفترة الرئيسية لحياته. فالمصادر تعنى أصلاً بالأعمال التي قام بها صلاح الدين بالذات وبتفسير هذه الأعمال، إلا أن هذه، بدورها، تعكس الاطار الأعم للقوى الفعالة في عصره.

والذي نأمله هو أن يكون في هذا الكتاب فائدة لغير أهل الاختصاص. ومن هنا فإننا اكتفينا بالاسم الأعم للشخصية التي نورد ذكرها. فأخو صلاح الملك العادل سيف الدين أبو بكر أحمد بن أيوب سنشير إليه باسم العادل فقط، والأخ الآخر، الملك المعظم شمس الدولة تورا نشاه بن أيوب يشار إليه باسم تورا نشاه فقط. أما فيما يتعلق بأسماء الأماكن فما كان منه معروفاً بصيغة أوروبية شائعة مثل القدس وعكا، احتفظنا به، وما كان غير معروف أوردناه باللفظ العربي، معتمدين نظام زامبور مع بعض التعديل.

وثمة مشكلات تتعلق بتواريخ الأحداث. فاستعمال التقويم الهجري في المصادر قد لا يمكن ضبطه تماماً بالمقابلة مع التواريخ الميلادية. إلا أننا بذلنا الجهد في سبيل التوفيق بين الأمرين، ويمكننا القول بأن الأخطاء جاءت قليلة جداً بشكل عام.

١ ـ المغامرات الأولى

إن تاريخ الإسلام وتاريخ حضارته في القرون الوسطى يثيران سلسلة من مشكلات التحديد والتفسير. غير أن المواد اللازمة لتحليلهما غير وافية بالمراد، على نحو عام. ومن الجائز أن تكون في هذا السياق سيرة صلاح الدين فريدة في نوعها، وذلك من جرّاء حجم البراهين المعاصرة.

والحكايات هنا، في الأغلب، معروفة تمام المعرفة[١]. فأعمال ابن شداد وهو أحد كتاب السير المعاصرين لصلاح الدين، كتب لها البقاء تامّة لم يمسها الأذى. غير أنه ضاع معظم «كتاب البرق الشامي» الضخم الذي ألفه عماد الدين الأصفهاني، غير أنه تم حديثاً نشر الملخص الذي وضعه له البنداري، بشكل جزئي[٢]. وتنتهي المخطوطة التي تستند إليها هذه الطبعة بنهاية سنة ٥٨٣ هـ/ ١١٨٥ م حيث تتداخل مع كتاب «الغيم القسي في الفتح القدسي». وتزودنا بالتالي، بتغطية كاملة لسيرة صلاح الدين يقدمها لنا عماد الدين. وهناك رأي أقل انحيازاً يعطيه معاصر آخر هو ابن الأثير[٣]، حيث يمكن ضبط الوقائع والمواقف بالرجوع إلى وليم الصوري وكتاب غربيين آخرين. و «لكتاب الروضتين»، بإقتباساته من المؤلف الضائع الذي وضعه ابن أبي طي، أهمية خاصة، كما أن هنالك تواريخ محلية تحتوي على بعض النقاط المفيدة، مثل «زبدة الحلب من تاريخ حلب»، تأليف ابن العديم.

لقد تمت دراسة هذه المصادر، باستثناء رئيس للملخص الذي وضعه البنداري، من قبل كتاب محدثين، في حين أن مجموعة قيمة من الرسائل المعاصرة

لم تلقَ حتى الآن ما تستحقه من الاهتمام. وتنسب هذه، بمجملها، إلى وزير صلاح الدين الإداري، وهو القاضي الفاضل[٤]، وتشتمل على رسائل شخصية بعثت من قبل الفاضل نفسه، كما تشتمل على رسائل أخرى أملاها صلاح الدين. واقتُبس بعضها من قبل المؤرخين الرواة، أو أنها وجدت في مؤلفات أخرى. فقد وجد ست وعشرون منها، بشكل كامل أو مجتزأ، متضمنة في طبعة القاهرة[٥]، إلا أن قسماً كبيراً منها ما يزال غير منشور. وقد أضيف إلى هذه المجموعة مخطوطة رسائل نسبت خطأً إلى عماد الدين[٦]، كما أضيف إليها كتابات وضعها أحد معاصري صلاح الدين الآخرين، وهو الافريقي الشمالي، الوهراني[٧]. إن مدى مواد هذه الرسائل هو، بطبيعة الحال، مدى محدود، بحيث لا تستطيع أن تعوّض تعويضاً كاملاً عن ندرة المستندات الرسميّة؛ إلا أنها، بالإضافة إلى التفاصيل التي تزودنا بها، فإن العديد منها يظهر المعاني والتفاسير التي رغب صلاح الدين نفسه بأن يحّملها أعماله، في حين كان بعضها الآخر يؤمّن هذا الأمر بواسطة تعليقات وشروح غير رسميّة.

ولقد أوضح كومبرخ (Gombrich) ، في مؤلفه في «البحث عن تاريخ حضاري»، ومشيراً إلى «السيرة ذات الطراز العتيق من نوع حياة وأعمال»، قائلاً: «نحن ندرك ضآلة ما نعرفه عن الكائنات البشرية، وضآلة ما لدينا من شواهد وبراهين يمكن أن ترضي عالم نفس، يهتم بطبائع الإنسان ودوافعه»[٨]. وانه بالتأكيد لصحيح أن شخصية صلاح الدين، بالرغم من الرسائل، تستطيع، في أفضل الحالات، أن ترى في لمحات خاطفة. وينبغي أن تكون الغاية من أية دراسة جديدة هي تزويدنا بالبرهان اللازم لإجراء تحليل لدور صلاح الدين ضمن إطار خلفيته. فبإمكانه أن ينظر إليه كبطل من أبطال الإسلام، أو كسياسي ذي عقلية سلطوية، أو كقائد مشدود بطوق الحرب، أو آلة تحركها القوى الخارقة، وانه لمن أجل التبصر الذي تعطيه المصادر لهذه الأسئلة، وتوسّعاً، التبصر في بنية المجتمع الإسلامي القروسطي، ينبغي أن يجري تقييم هذه المصادر.

وليس من المستغرب أن لا يكون هنالك أية إشارات في الرسائل إلى تاريخ ميلاد صلاح الدين وطفولته الباكرة، كما لا يمكن أن يضاف إلى الرواية المعروفة جيداً أي دليل أو برهان[٩]. وفاقاً لهذه الرواية، أتى العراق أخوان كرديّان من دوين قرب تفليس هما أيوب وشيركوه حيث عينّ أيوب حافظاً لقلعة تكريت. وقد

أورد أبو شامة رواية تقول: إن أيوب مدين بهذا المنصب للسلطان السلجوقي محمد بن ملكشاه، وبأنه ثبت فيما بعد في منصبه من قبل «المتولى» الشديد النفوذ، بهروز[١٠]. وفي هذا الوقت، وفيما كانت السلطة السلجوقية آخذة في الضعف، كان زنكي المناهض الكبير للصليبيين، يقيم لنفسه في الموصل والأقاليم المجاورة استقلالاً فعلياً. وقد استخدم أيوب منصبه في تكريت، وهي في منتصف الطريق تقريباً، بين الموصل وبغداد، (أنظر الخريطة رقم ٤)، من أجل مساعدة زنكي على أثر حملته الفاشلة ضد بغداد في سنة ٥٢٦/ ١١٣٢. وبدا هذا الاستقلال أنه تم بدون أن يصادف أي تحدّ. ولكن بعد مضي ستة أعوام، أي في سنة ٥٣٢/ ١١٣٨، طرد شيركوه أخاه من منصبه لقتله رجلاً في عراك شخصي. وقيل إن القتيل كان مسيحياً مما أغضب بهروز «صديق المسيحي»[١١]. وفي جميع الأحوال، كان أيوب وشيركوه قد أمرا بالرحيل. وأورد أبو شامة قصة أن هذا الأمر تزامن مع ولادة ابن لأيوب، هو يوسف[١٢]. الذي حرّف لقبه: صلاح الدين، من قبل الكتاب الغربيين، فأصبح سلادان Saladin.

التحق الأخوان الآن بخدمة زنكي الذي نصّب أيوب مسؤولاً عن قلعة بعلبك. وحين توفي زنكي في العام ٥٤١/ ١١٤٦ بقي شيركوه في خدمة أحد أبنائه وهو نور الدين، الذي استولى على مدينة حلب، في حين أصبح ولده الآخر سيف الدين، حاكم الموصل. أثناء ذلك وجد أيوب نفسه محاصراً في بعلبك من قبل جيوش أتت من مدينة دمشق التي كانت حينئذ تحت حكم مجيرالدين أبق البوري. ولما لم تأتِ إلى نجدته أية قوة منقذه سلم المكان وفقاً لشروط ملائمة ثم رحل مع عائلته إلى دمشق. وحين تقدم نور الدين للاستيلاء على المدينة في العام ٥٥٠/ ١١٥٤، كان أيوب مسؤولاً بصورة رئيسية عن إجراء الترتيبات اللازمة لتسليمها، ثم انضم بعد ذلك إلى المنتصرين.

ليس هنالك ما يثير العجب في الامتداد الجغرافي لسيرة الأخوين أو في تبديل وظائفهما. فالمرتزقة وطلاب العلم والحجّاج كانوا في حالة تنقل مستمر في العالم الإسلامي خلال القرون الوسطى مع ما ينتج عن ذلك من تكوّن نواة إدارية أو مدنية أو عسكرية بشكل سريع حول ثري كريم طموح.

ولقد روي عن صلاح الدين بأنه كان لديه شغف خاص بمدينة دمشق[١٣]

لكونها موطن صباه. إلا أن أيام حياته الباكرة كانت في معظمها أياماً غفلاً. وكانت المراهقة فترة يُحاول المجتمع المعاصر في تلك الأيام تقصيرها بقدر الإمكان بالتوكيد على الحاجة إلى النضوج المبكر. لهذا السبب أخبر الفاضل ابنه بألا يظهر أية صبيانية أو حماقة[١٤]. وكان في مكان آخر يطري صبياً لأنه كان «يشبه شيخاً في وقاره ورزانته»[١٥]، وكانت الرزانة مرتبطة ذهنياً بالصبا في احدى مدائح أولاد صلاح الدين ذاتهم[١٦].

وكتب صلاح الدين حول عملية التربية يقول: «يتربى الأولاد بالطريقة التي تربى بها آباؤهم»[١٧]، ولا يمكننا أن نغالي في التوكيد على تأثير المجتمع الإسلامي في هذه الطريقة التقليدية. لقد كان الإسلام، بالرغم من تشظّي مذاهبه، قوّة استيعابية هائلة، ولسبب ليس أقله أن القرآن كان في موضع القلب من التربية الإسلامية. ولا يُنكر أن الوهراني صوّر الرجل المتعلم بأنه الإنسان الذي يقدر على الإجابة عن أسئلة حول اقليدس، والماجسطي، والحساب والفرائض[١٨]، إلا أن ذلك كان مثالاً أكاديمياً. وما يبدو أكثر وضوحاً هو أن دراسة القرآن والعلوم الدينية هي التي كانت تربط صلاح الدين بمعاصريه. أضف إلى ذلك أنهم كانوا يشتركون في إرثٍ ثقافي عام، يرتكز بنوع خاص إلى التقاليد العربية. وقد قيل بأن صلاح الدين كان حافظاً لأنساب العرب، عارفاً بسيرهم وأحوالهم، حافظاً لأنساب خيلهم[١٩]. ولعل ما هو أكبر شأناً ما نسب إليه من أنه حفظ عن ظهر قلب «حماسة» أبي تمام[٢٠]. إن هذه المقتطفات الأدبية (الحماسة) تقدم لنا مجموعة جاهزة من قيم ومواقف إنفعالية وفي بعض الأحيان متناقضة، ترتكز في معظمها على المجتمع القبلي، والخلفية العربية لشعراء هذا المجتمع. ولا يتوافق هؤلاء، بالضرورة، مع أوامر الدين ونواهيه، ولكنهم يؤمّنون جميعاً إطاراً من التقليد أو العرف يتخطى الاختلافات العرقية.

وينبغي، بالطبع، أن تدعم الدراسة بالتدريب العملي. فقد أضاف الوهراني إلى شروط طالب العلم المثالي فن استخدام القوس والنبال، واستعمال الأسلحة[٢١]. وأفاد ابن جبير فيما بعد أنه في كل مساء كان أولاد صلاح الدين يخرجون من قلعة دمشق ليمارسوا رماية السهام وركوب الخيل ولعب الصولجة، ولا بد من أن يكون صلاح الدين نفسه قد فعل الشيء نفسه[٢٢]. وقد يؤدي مثل هذا التدريب، بالضرورة، إلى قيام فئات اجتماعية متباينة، إلا أن ما هو ليس واضحاً

تماماً هو المدى الذي اتسع به هذا التدريب ليرتبط ببنية طبقية. فبالنسبة إلى الفرنجة، لم يكن صلاح الدين متحدراً من أبوين نبيلين، «ولكنه لم يكن من طبقة العامّة المتدنية ومجهول النسب»[٢٣]، وكانت النظرة الهرمية في المجتمع شائعة، بالتأكيد، في ذلك الزمن. فلقد أطرى أسامة بن منقذ استعداد والدته لقتل أخته على أن «تراها أسيرة في أيدي الفلاحين»[٢٤]. ولا تعدم المصادر التي تدل على وجود الدهماء في أسفل السلم الاجتماعي. وكتب الفاضل عن «الأثاث والكتب الدينية والأدبية» التي كان يحتاج إليها أبناء الطبقات المتوسطة[٢٥] بينما كانت الطبقة العليا تزوّد بالأمراء والأمراء الصغار. ومع ذلك فقد ضارع هذا التصنيف العامودي، في الأهمية تقسيم أفقيٌ. وكان علما التاريخ والجغرافية مسؤولين عن عدد من التجمعات الحكويّة في المجتمع الإسلامي التي كانت تمثل ديانات الأقليات أو بقايا أجناس مغلوبة مقهورة. إلا أن هؤلاء لم يحصروا في ما كان في البدء أجزاءً غير عربية في الدولة الإسلامية. فالمثل العربي البديهي هو القبيلة البدويّة؛ وكان هذا النمط العشائري قد تكاثر في التنظيم الداخلي للمدن الإسلامية حيث كان للقبائل والأجناس والجماعات أحياء خاصة لها. وحتى حين لم يكن هنالك سبب واضح للتفتيت، كانت الاختلافات المذهبية في الإسلام نفسه توفّر بؤرة للتجمعات. ويمكن القول بأن ما يحدد العامل الحاسم في حياة الفرد هو جماعته وليست طبقته[٢٦]. فالأهلية هنا هي المدى الذي تبلغه الجماعة في تمثيل مجتمع مغلق. وما يمكن أن يطبق على قبيلة بدوية منفصلة إلى حد بعيد عن العالم الخارجي، ينبغي أن يُعدّل بالنسبة إلى مجتمعات أكثر تطوّراً. إن أهمية خلفية صلاح الدين الكرديّة يمكن أن تظهر من خلال سيرته، غير أن أيوب وشيركوه قد فصلا نفسيهما عن بيئة كرديّة بنوع خاص، وفي هذا النطاق كان تقويم الفرنجة لمكانتهما في المستوى الاجتماعي ذا علاقة واضحة بمرتبتهما.

ولا يبدو الأمر غير طبيعي، ذلك لأن سلطة معاصري صلاح الدين كانت مرتبطة مباشرة بالسلطة العسكرية التي كانت، بدورها، ترتكز بشكل أساسي على سلاح الفرسان. ونتيجة لذلك، رُقّي الجواد إلى مرتبة من الأهمية ليس كعامل عسكري فحسب، بل كعامل اجتماعي أيضاً. وبين السكان المقيمين، بالمقارنة مع القبائل من البدو الرحّل، كانت الخيول تقتنى من قبل أولئك الذين يستطيعون تأمين علفها، فضلاً عن ميزتها في التكتيك القتالي الإسلامي. كان ذلك التكتيك

الغارتي (Parthian) في الكرّ والفرّ، حيث لم يكن الجواد، في الأغلب سلاحاً للصدام، بل وسيلة نقل لرامي النبال الذي يكر على العدو فيرميه بغية فتح ثغرة في صفوفه أو إغرائه على ترك موقعه، ثم ينكفىء. ويتطلب هذا العمل مستوى عالياً من الفروسية. إلى أي حد كان جنود صلاح الدين فرساناً ذوي مستوى رفيع؟ لا يمكن الإجابة على هذا السؤال إلا تخميناً تقريبياً. إلا أن وليم الصوري يبدو أنه إتفق مع نابليون في تصنيف الفارس المسلم المحترف في مرتبة تسمو على مرتبة البدوي[٢٧]. فبالنسبة إلى البدوي، كان ركوب الخيل إنجازاً طبيعياً، إلا أن ذلك كان بالنسبة للمترفين شيئاً ينبغي أن يتكون بالتدريب وذلك من أجل غايات حربية محدّدة. فالتمارين العسكرية، والصيد والقنص، وألعاب الصولجان كانت جميعها تكـوّن أصول التدريب على الفروسية. أما الذين لا يستطيعون توفير الوقت اللازم لذلك فسيكونون من الخاسرين حين يقابلون أولئك الذين يستطيعون. في ظل هذه الأحوال لا يتوقع المرء أن يجد جيوشاً من المواطنين، بل، على الأغلب، علاقة مستخدَم بمستخدِم، حيث كان الجنود يُستأجرون ويُجهزون ويُدَربون من قبل قائد يقوى على تأمين هذه الخدمات. وكان وجود هؤلاء الجنود المحترفين يتقاطع مع الخطوط الطبقية، إلا أنه ساعد على توجيه إنتقال السلطة من حدود التجمعات العائلية. وكان يلزم القائد كثير من الخبرة وصواب الرأي كي يكسب الرضا من رجاله[٢٨]؛ وفي غياب البنية الآمرة الرسمية والفرص الملائمة للتدريب، كانت الطريقة الفضلى لإكتساب مثل هذه التدريبات، هي التعليم الذي كان يمارس في ساحة القتال. لقد أوضح أسامة بن منقذ هذه العملية إذ أنه لُقّن مبادىء في القتال بواسطة عائلته في حروب الفرنجة[٢٩]؛ كما أن صلاح الدين نفسه كتب يقول إنه قاتل جنباً إلى جنب مع والده وعمه في بداية مهنته، «مشاركاً في الانتصارات وقائداً الجيوش ضد الكفار»[٣٠].

لقد ساعد، إلى حد ما، تعليم صلاح الدين، على تماهيه مع بيئته الإسلامية، وكان إلى حد ما، قد أختير للقيادة. ومع ذلك ينبغي، أن يكون مجال القيادة قد بدا محدوداً في إطار الوضعية السياسية في ذلك الزمن. ومهما كانت تعقيدات القوى التي كانت تشكل أساس تلك الوضعية، فقد كانت ظاهرياً واضحة وضوحاً كافياً، إذ أنها أثرت في بيئة صلاح الدين. وكانت السلالة الزنكية الحاكمة، تحكم السيطرة على الموصل وسوريا. ولم تكن تواجه أي تحديات خطيرة باستثناء ما كان

يجري على جبهة الفرنجة. وإبان حكم نور الدين كانت الحرب ضد الفرنجة تمثل النشاط الرئيسي للدولة. ومن المحتمل أن أيوب وشيركوه لم يكونا، ضمن إطار سوريا نفسها أشد اتباع نور الدين نفوذاً[٣١]، ومع أن صلاح الدين كان يطمح للحصول على رتبة قائد في الحروب ضد الفرنجة فقد كانت طموحاته الباكرة طموحات عاقلة معتدلة إلى حد بعيد، كما نقل ذلك عماد الدين[٣٢].

هذا هو الوضع الذي كان سائداً حين وصل إلى دمشق وزير مصر المخلوع شاور في صيف عام ٥٥٨/ ١١٦٣ وكانت مصر في تقهقر[٣٣]. وقد سجل تأسيس القاهرة عام ٣٥٨/ ٩٦٩ بداية مرحلة التوسع الفرعوني تحت حكم الفاطميين الذين تحدوا الإسلام السني، مدّعين بأنهم من سلالة فاطمة بنت الرسول ﷺ. ولكن سلالتهم الحاكمة كانت قد ضعفت في أيام نور الدين فإنحدرت إلى ما وصفها به الوهراني: «عجوز محتالة، وطفلة مختالة، وكاعب فتانة وغادة مجانة»[٣٤]. وقد خسروا بسقوط عسقلان بيد بولدوين الثالث (ملك القدس) في العام ٥٤٨/ ١١٥٣ آخر معاقلهم في الشرق. ولم يعد للفاطميين في عزلتهم تلك أي تدخل ضروري في صراع القوى الدائر بين جيرانهم. ومع ذلك، فإن ثروة مصر وتواتر أخبار ضعفها المتزايد كانا أمرين شديدي الاغراء[٣٥]. لقد كانت «كالجارية الحسناء التي أبرزها الحجال وأسلمها الرجال»[٣٦]، بانتظار أول خاطب جريء.

لقد أشار مؤلف « التتمة » باللغة اللاتينية، إلى تاريخ وليم الصوري إلى أن المصريين عزوا فيضان النيل إلى سلطان الخليفة الفاطمي[٣٧]؛ إلا أنه يضيف بأن العاضد الذي أصبح خليفة في العام ٥٥٥/ ١١٦٠ في سن الحادية عشرة، ترك جميع شؤون المملكة لوزيره ـ وهذا انعكاس لتوزيع السلطة المصرية القديم بين الفرعون المقدّس ورئيس خدمه وكبير مساعديه. وكان الوزير، مع ذلك، في وضع مكشوف، بمعنى أنه لم يكن يتوقّع أية مساعدة من سيده الاسمي فقط. وكتب وليم الصوري أن الخليفة لم يكن معنياً ولا مهتماً بحالات التنافس على الوزارة[٣٨]، وأضاف ابن شدّاد، بشيء من التبرير، أنه «على عادتهم في وزرائهم في تقرير قاعدة من قوي منهم على صاحبه، فجزّت رقبته، وأنفذ رأسه إليهم»[٣٩]. وقد أدت الأخطار الكامنة في نظام كهذا إلى تدميره بالنهاية. لقد أخذ شاور وهو حاكم سابق لقوص، الوزارة من بني رزيك الأقوياء في محرم ٥٥٨ كانون الثاني/ شباط ١١٦٣. وفي غضون ستة أشهر تم طرده على يد ضرغام وهو أحد

أتباع بني رزيك . وفي هذه المرحلة سعى شاور إلى طلب المساعدة من نور الدين لاستعادة منصبه بالقوة .

وكان من الحكمة أن أخذ نور الدين وقته في الوصول إلى القرار . فالنجاح في مصر سوف يقوّي مركزه ضد الفرنجة ؛ وقيل بأن شاور منّاه بوعود كبيرة من المال والأرض[٤٠] . ومن جهة ثانية، فقد كانت الطريق الرئيسة إلى مصر هي الطريق الساحلية الطائفة حول شاطىء البحر المتوسط، تحت سيطرة الفرّنجة ، وكانت الطريق البريّة بخليج العقبة عبر صحراء سيناء محفوفة بالأخطار من قبل الحاميات العسكرية الفرنجية في الكرك والشوبك وايلة (الخريطة ٧) . فالقوّة الصغيرة جدّاً لن تكون فعالة ، وفشل حملة كبرى سوف تلحق بسوريا ضرراً كبيراً . أرسل ضرغام الذي خلف شاور بالقوّة، رسولاً إلى دمشق يطالب بإلحاح ، ومن المحتمل أنه قدم بعض الاغراءات ، بأن يصار إلى التخلّي عن شاور ؛ «فأظهر نور الدين القبول في الظاهر، وهو مع شاور في الباطن»[٤١] .

إذاً، يمكن أن يكون قد قرر بأن الفوائد التي قد تجنى تفوق الأخطار . وفي ربيع عام ٥٥٩/ ١١٦٤ تخلّى عن السرّيّة وعزم على القيام بحملة على مصر . وقيل بأن شاور كان يأمل بأن يكون القائد الأوحد، غير أن نور الدين عهد برجاله إلى شيركوه ، «لأنه لم يرسله في أمر إلاّ نجح ، ولم يولجه في مضيق إلا انفتح»[٤٢] «وعنده من الشجاعة وقوة النفس ما لا يبالي بمخافة»[٤٣] . وفيما كان نور الدين يراقب جبهة الفرنجة ، تقدّم شيركوه وشاور، في ٢٠ جمادي الأول/ ١٥ نيسان ١١٦٤ ، سالكين خط وادي الغور إلى رأس خليج العقبة ؛ وذهب معهم ، وفقاً لرواية ابن شداد، صلاح الدين الذي كان الآن قد بلغ السادسة والعشرين من عمره .

من المثير للدهشة أن صلاح الدين لم يأتِ على ذكر منفصل لهذه الحملة في رواية سيرته التي أرسلها فيما بعد إلى بغداد[٤٤] . وقد ذهب ابن الأثير إلى حد بعيد فروى حكاية إن صحّت سوف تبرهن أن صلاح الدين بقي في المؤخرة[٤٥] ؛ وفيما نرى أن ابن أبي طي يعطيه دوراً صغيراً في المراحل الأخيرة من الحملة[٤٦] ، نرى ابن الأثير يعزو هذا الدور إلى ضابطين صغيرين مجهولين[٤٧] . ولا يُنكر أن لحكاية ابن الأثير سمة الاختراع ، ولكن ما هو الأهم من ذلك هو أنه ليس هنالك أية إشارة

إلى صلاح الدين في الوصف المقتضب الذي ورد فيما أخذه البنداري من «البرق». ومن المعقول الالماح، مع ذلك، إلى أن ابن شداد الذي يمكن أن يُبرهن على أنه دّقق في النقاط التي كان يدور حولها الشك، هو أفضل الثقات في هذا السياق، وأن صلاح الدين كان بالتأكيد، يعتقد بأنه قد كسب من الخبرة ما يكفيه للحياز على القيادة المستقلة في حملة شيركو التالية؛ غير أن هنالك مسألة أساسية بقيت بدون جواب قاطع، في ضوء ما لدينا من المعلومات.

فهما كان الدور الذي لعبه صلاح الدين، لم تكن الحملة بنظر السوريين مرضية كل الرضا[٤٨]. لقد هزموا قوّة متقدمة بقيادة ملهم، شقيق ضرغام، في تل بسطه، على مسافة ١١ ميلاً (١٨ كلم) من بلبيس، ومنذ ذلك الحين فصاعداً بدا شاور بأنه تسلم المبادرة، فيما بقي شيركوه رديفاً. وكانت هنالك بعض المناوشات في أرض الطبّالة التي تقع إلى الشمال من القاهرة مباشرة (أنظر خريطة القاهرة). وقد أُجبر شاور على الانسحاب، وبعد أن دار حول القاهرة خيّم إلى الجنوب الشرقي من الفسطاط في بركة الحبش. وانتقل من هناك إلى تلّة الرصد التي تطل على الفسطاط، ثم استولى على الفسطاط ذاتها بدون أن يلاقي، على ما يظهر، أية مقاومة جديّة. بعد ذلك اتخذت قوته المهاجمة موقعاً لها في اللوق، في الزاوية الشرقية القريبة من القاهرة. ويبدو أنه قام بهجمات استطلاعية على الجهات الغربية والجنوبية والشرقية. وقد صمد حي اليانسيّة خارج باب زويلة، وهو البوابة الجنوبية الكبرى لمدينة القاهرة، ولكن حي الهلالية في الجهة الشرقية كان قد أخلى من السكان وأحرقت منازله في الجهة الغربية من باب سعادة إلى باب القنطرة. وقد سددت إلى عساكر ضرغام ضربات موجعة؛ ورفض الخليفة مساعدته. وفي ٢٨ جمادي الآخرة/ ٢٤ أيار قتل ضرغام وأخوه فيما كانا يحاولان الفرار.

وفي ٢٩ جمادي الثانية ٢٥ أيار أعيد شاور إلى مركزه السابق كوزير من قبل الخليفة. وقد وردت في كتاب تعيينه إشارة عابرة فقط إلى قوة شيركوه - «أولئك الذين استقدمتهم معك، آملاً بالانتقام»[٤٩]، غير أن شيركوه ذاته لم يكن لينبذ بسهولة واستخفاف. فقد قيل بأنه قد أرسل رسالة إلى شاور يقول فيها «قد طال مقامنا في الخيم، وقد ضجر العسكر من الحر والغبار»، مشيراً بوضوح إلى أنه لم يدخل الفسطاط[٥٠]. على أثر ذلك، أرسل له شاور ثلاثين ألف دينار، ولكنه طلب إليه أن يغادر البلاد، فرفض شيركوه قائلاً بأن نور الدين قد أمره بالبقاء، حيث كان

نور الدين قد أعطي وعداً بموجب شروط الاتفاقية المعقودة بينهما، بالحصول على ثلث مداخيل مصر من الحبوب. فرفض شاور أن يبقى أميناً على ذلك، وسار على سابقة خصمه ضرغام فكتب إلى أملرك (أموري)، ملك القدس، طالباً العون، مشيراً إلى المخاطر التي قد تهدد الفرنجة إذا ما استطاع شيركوه أن يثبت أقدامه في البلاد، وواعداً بإعطائهم ألف دينار عن كل مرحلة من مراحل زحفهم، بالإضافة إلى علاوة من الشعير طعاماً لخيولهم ومنحة خاصة للاستبارية. زحف أملرك من عسقلان إلى فاكوس، التي تقع على بعد ٢٦ ميلاً (٤٢ كلم) إلى الشمال الشرقي من بلبيس على طريق القوافل السورية. في هذا الوقت تراجع شيركوه، على أثر سماعه بتحرك أملرك، من القاهرة إلى بلبيس، حيث أمر صلاح الدين بأن يجمع المؤن، وفاقاً لما ذكره ابن أبي طي[٥١].

بدأ حصار بلبيس في ١١ رمضان ٥٥٩/ الأسبوع الثالث من شهر تموز ١١٦٤؛ حين كان شاور قد تقدم عندها من القاهرة للإنضمام إلى أملرك. ولم يكن لدى شيركوه، وفاقاً لابن الأثير، سوى جدار منخفض؛ كما لم يكن هنالك خندق يحميه من هجمتهما المتحدة[٥٢]. ولم يكن هذا الهجوم، مع ذلك، جزياً ولا مستعملاً. ولعل شاور كان يأمل في إثارة الفرنجة ضد السوريين؛ وقد قيل بأنه أخبر شيركوه بأنه كان يكبح الفرنجة بقصد وتعمّد[٥٣]. وكان في نفس الوقت عرض أن يقدم الأرض إلى شيركوه نفسه وإتباعه على أمل أن يجند بعضهم في خدمته[٥٤]. وبدا أملرك من جهته أنه لم يقم بمحاولة جديّة في أخذ المبادرة، ويمكن أن يكون قد اكتفى بانتزاع الإعانات المالية من شاور بدلاً من أن يخاطر برجاله. في تلك الأثناء، استغل نور الدين غيابه فاستولى على قلعة حارم وهي في منتصف الطريق بين حلب وأنطاكية (الخريطة ٣)؛ وفي ٢١ رمضان العاشر من آب سحق بوهيمند أمير أنطاكية وكان معززاً من ريموند أمير طرابلس وثوروس أرمينيا، بالإضافة إلى كتيبة بيزنطية كان قد أرسلها له الامبراطور مانويل. وبحلول شهر ذو الحجة/ تشرين الأول، وبعد ثلاثة أشهر من الورطة، بدا واضحاً أن لا أحد من الجيوش المتورطة أراد البقاء في بلبيس مدة أطول.

فليس بإمكان شيركوه أن يصمد إلى ما لا نهاية في وجه الأعداد المتفوقة. كما أنه كان على الفرنجة أن يحموا جبهاتهم الضعيفة، وأمل شاور في التخلص من حلفائه السابقين جميعاً. وكان الأمير شمس الخلافة الذي كان شيركوه وشاور قد

أسراه في تل بسطه يعمل الآن وسيطاً بينهما، بحيث توصلا إلى إتفاقٍ قضى بأن يغادر شيركوه مصر مقابل مبلغ ٣٠,٠٠٠ دينار أخرى، والمرور بأمان.

وأجرى الفرنجة إتفاقاً خاصاً بهم؛ أما المستفيد الوحيد من الحملة فكان شاور. وحتى هو، مع ذلك، كان قد دفع ثمن عودته إلى السلطة بأن ظهر ضعفه لكل من الفرنجة والسوريين.

ولربما كان جلياً أن دور صلاح الدين هنا يكتنفه الغموض، وذلك لأنه يشير إلى حقيقة أنه خلال السنوات الست والعشرين الأولى من حياته ليس لدينا عنه أية صورة على الإطلاق. فعمه، الصغير القامة والعنيف، الذي يُرى ممسكاً بالصولجان يراقب حامية جنوده تغادر بلبيس[٥٥]؛ ووالده الصموت، وهو الرجل الوحيد الذي كان يسمح له بالبقاء جالساً في حضرة نور الدين[٥٦]، كان لكل منهما شخصيته الواضحة؛ غير أن صلاح الدين لم يكن في هذه المرحلة سوى اسم. وكان له أخ أكبر يدعى شاهنشاه سقط قتيلاً في غارة شنها الفرنجة على دمشق[٥٧]. وثمة عبارة مقتبسة ليست بالضرورة صحيحة تشير إلى أن صلاح الدين كان مرشحاً لأن ينهض للقيام بخدمةِ أخٍ آخر أكبر منه هو تورانشاه[٥٨] ولكن لا شيء سوى ذلك يظهر دوره في محيط عائلته.. وليس هنالك إشارات إلى والدته أو أخوته الأصغرين: العادل، وبوري، وطغتكين، أو أخواته أو علاقاته مع أبناء عمومته[٥٩]. لقد تمت تنشئته في بيئة مضطربة خاضعة لسياسة القوة، اشترك فيها السلاجقة والزنكيون، والفاطميون، والفرنجة، إلا أن الرواة لم يضيفوا برهاناً جديداً ذا أهمية لشرحها. لقد كان من حسن حظه أن يتزامن مع فترة إنهيار الخلافة الفاطميّة، حين كان يمكن أن يتأثر هذا الخط بشكل حاسم بأعمال الأفراد مثل شاور وشيركوه؛ إلا أن تفاصيل حملتهما المصريّة لا تلقي ضوءاً كافياً على الأسباب الأساسية لهذه العملية.

لا شيء من هذا يدعو إلى الدهشة، ذلك لأنه يعكس إعتماد صلاح الدين في بدء سيرته على ما يقع خارج نطاق سيطرته، ليس غير. كان باستطاعته فقط أن يُعد نفسه لأي مناسبات سانحة قد تنشأ؛ وينبغي أن نذكر أن من الجائز أن تكون كفاءته هي السبب الذي جعل شيركوه يختاره لمنصب معاونه بدلاً من أولاده، بينما أعطاه نور الدين، في العام ٥٦٠/ ١١٦٥، خبرة إدارية أكبر وذلك بتعيينه في منصب شحنة دمشق[٦٠] (الذي عرفه ابن جبير باسم صاحب الشرطة)[٦١]. ولربما كان هنا

وضعه أكثر قرباً من بؤرة الاهتمام به كشخص. ولقد إتخذ الشاعر العرقلة قصة يوسف في القرآن الكريم وامرأة العزيز، فكتب:

رويدكم يا لصوص الشام فإني ناصح في مقالي
فإياكم وسمي النبي يوسف رب الحجا والحجال
فذاك مقطع أيدي النساء وهذا مقطع أيدي الرجال[٦٢]

ومن جهة أخرى، يمكن أن يكون أعداؤه هم الذين زودوا الفرنجة بأساس رواية بأنه: «تحت حكم نور الدين، سلطان دمشق، بدأ [صلاح الدين]، نفوذه بجمع جزية شائنة لنفسه من المومسات الفاسدات في تلك المدينة ولم يكن ليسمح لهن بممارسة مهنتهن إلا بعد الحصول على إجازة منه»[٦٣]. ثم وجد نفسه أيضاً في حالة خصام مع كمال الدين الشهرزوري، قاضي دمشق المثقف العالم العنيد الصلب، الذي يصوره الوهراني لنا بأن الملائكة وقد أعياهم العمل، ذهبوا إلى الله يوم «القيامة يشتكون بأنه يريد يوم قيامة لوحده»[٦٤]. لقد أخذ صلاح الدين بعضاً من صلاحياته، ودوّن عماد الدين بأنه كان «يعكس مقاصد صلاح الدين بالأحكام الشرعية»[٦٥].

لعل هذه التفاصيل ترسم لنا موجزاً قابلاً للتطابق مع فرد«في ريعان الصبا بحيث يمكن تشبيهه بيوسف الوسيم الذي وردت قصته في القرآن الكريم والذي اعتبره أخوته مغروراً بحسنه، وفي وضع يفرض الانتباه الايجابي أو السلبي بحكم حقه الشخصي. والصورة، مع ذلك، هي صورة منعزلة حيث أن صلاح الدين قد أعيد وبشكل مباشر تقريباً إلى خلفية الصورة بعيداً عن الأضواء فيما كان شيركوه هو الذي استمر في وضع الأسس لمجرى حياته.

لم تكن لدى شيركوه أية نية في ترك مصر لشاور، فباشر استعدادات هائلة دامت عامين. وعلم الفرنجة بأنه جمع «عدداً لا يحصى»[٦٦] من الرجال، من الشرق والشمال، وبأنه كتب لخليفة بغداد العباسي الذي أعطى تعليماته «لجميع قادة أتباعه»[٦٧] من أجل إرسال المعونة. علم شاور، وفاقاً لرواية ابن شدّاد، بهذه الاستعدادات فعزم على الرد عليها بدعوة الفرنجة إلى مصر مرّة أخرى[٦٨]. وأورد وليم الصوري، مع ذلك، أنه «كان فاتر الهمة في هذا الأمر وجاهلاً كل الجهل»[٦٩]؛ وقيل بأنه حصل على أنبائه الأولى حول تحرّك شيركوه برسالة تلقاها

من «أموري» أملرك[٧٠]. وفي الحقيقة، فقد كان شاور يعاني من متاعب داخلية. أولاً، كانت هنالك حسابات قديمة مع أعدائه يجب أن تحسم. ثم كان له خصم آخر هو يحيى بن الخياط الذي قام بمحاولة فاشلة للاستيلاء على الوزراة. ثم أشعل البرابرة من قبيلة لواطة، بالتعاون مع عدد من البدو القوصيين، ثورة كان لا بد من قمعها بواسطة أخيه نجم[٧١]. مع صعوبات كهذه ينبغي مكافحتها لم يترك له التهديد الآتي من شيركوه أي خيار آخر سوى أن يقدّم للفرنجة الشروط نفسها التي قدمها لهم من قبل.

أضاف نور الدين عدداً من خواص أمرائه إلى قوة شيركوه، معطياً عدداً قدره ابن الأثير[٧٢] بألفي فارس. وكتب صلاح الدين إلى بغداد قائلاً بأنه ذهب وعمه إلى مصر، «بجيوش كبيرة»[٧٣]، وقد قدر وليم الصوري فيما بعد أعداد شيركوه في ١٢٠٠٠ تركي بينهم ٩٠٠٠ بكامل العدة والعتاد، بينما كان الباقون من الرماة[٧٤]. وكان المؤرخون العرب في شك حول تسلسل الأحداث اللاحقة. فوفقاً لابن شداد، وصل شيركوه وأملرك في نفس الوقت، بينما نقل أبو شامة رواية تقول بأن أملرك قد انضم إلى قوات شاور في بلبيس، قبل أن يختار شيركوه الصحراء كلها، مجبراً إياه على الانعطاف نحو الجنوب[٧٥]. إن إتجاهه نحو الجنوب، أمر مؤكد، ولم يكن ذلك بالضرورة من أجل تفادي القوة الفرنجية المصرية المشتركة. وأضاف وليم الصوري بأن عاصفة رملية كانت قد هددت جيشه بالخطر[٧٦]، ولكن حتى بدون هذا الأمر، كان يأمل بعد إجتيازه الصحراء بتفادي المعركة حتى يأخذ رجاله وخيوله قسطاً من الراحة. وروي بأنه كان قد وصل إلى أطفيح على النيل على بعد ٤٢ ميلاً (٦٨ كلم) إلى الجنوب من القاهرة، وذلك في ٦ ربيع الآخرة ٥٦٢/ ٣٠ كانون الثاني ١١٦٧[٧٧]. وكتب وليم الصوري يقول بأن أملرك، قبل أن يغادر مصر، تقدّم حوالي ٦٥ ميلاً (١٠٥ كلم) جنوبي غزة على أمل أن يعترض السوريين في زحفهم، ولكن حين فشل هذا العمل، عاد إلى عسقلان فحشد رجاله ثم غادر ثانية سالكاً طريق الشاطىء، وذلك في نهاية كانون الثاني[٧٨] (الخريطة ٧).

وحين وصل الفرنجة خيّموا بالقرب من النيل، بين مدينتي القاهرة والفسطاط على ما يبدو، «حيث توجد إلى يسارهم المدينة النبيلة والرائعة المعروفة عادة باسم باب البون»[٧٩]. واتخذ شاور وأملرك قراراً بمهاجمة شيركوه فيما كان ما يزال إلى

الجنوب من القاهرة على الضفة الشرقية من النيل، ولكن حينما وصلا إلى معسكره وجدا أنه كان قد عبر إلى الضفة المقابلة. ولما كان النيل يحول بينهما وبين القيام بأية مطاردة، اتجها شمالاً نحو القاهرة وبدلاً من أن يجتاز الحلفاء النيل ويلحقوا به، عادوا أدراجهم من حيث أتوا.

تبع ذلك شيء من الجمود. إذ أن شيركوه لم يلحق حتى الآن أي ضرر بالجيوش الفرنجية والمصرية، ولا شكل أي خطر عليها، إلا أن هذه الجيوش بدورها لم تكن قادرة على الحؤول بينه وبين الذهاب إلى حيث أراد، كما لم يكن هنالك أي تأكيد بإمكان جرّه إلى المعركة. فقرر الفرنجة استغلال الوضع وهددوا بالعودة إلى فلسطين إذا لم يعطوا مبالغ إضافية من المال. وقد روي عن القاضي الفاضل الذي كان في ذلك الوقت في خدمة شاور قوله إنه كان وحده في خيمة مع شاور، بالإضافة إلى الكامل ابن شاور وأخيه نجم حين نوقش ذلك الأمر[٨٠]. وقد اتفق أفراد العائلة على ما يبدو على أنهم لا يستطيعون الاحتفاظ بمصر بدون مساعدة الفرنجة، وقرر الكامل الذهاب معهم إن هم غادروا، بينما صمم نجم على التغريب [إلى سليم وما وراءها]. أما شاور فهو الوحيد الذي عزم على البقاء والقتال، ولكن ما لبث أن انتهى الأمر سكت النقود وعقدت اتفاقية رسميّة أمرّها الخليفة الفاطمي نفسه.

لم تستطع هذه الاتفاقية، مع ذلك، أن تقرّب حلاً عسكرياً. فقد حصّن شيركوه نفسه في الجيزة على الضفة الغربية من النيل، قبالة الفسطاط تماماً. وإذا كان لا بد من تحطيم قوته العسكرية، لم يكن على الحلفاء أن يجتازوا النهر فحسب، بل، من الأفضل، أن يفعلوا ذلك بطريقة لا تمكنه من الهرب. وكان لشيركوه بدوره متاعبه ومصاعبه الخاصة. ويمكن أن نجادل في أن ميكوبر عسكرياً فقط يمكنه أن يقوم بمناورة(*): يجد نفسه بنتيجتها في وضع حيث يكون في مواجهة قوة متفوقة، ومنفصلاً عن قاعدته ومضطراً للاعتماد في تأمين ذخيرته ومؤنته على ما يستطيع جمعه من بلد يفترض أن يكون معادياً. إنه لمن المهم أن ندرك مع ذلك، أنه كان في هذا يتبع ببساطة تكتيك الغزو (غارات الاستنزاف)، وهو منهج

(*) ميكوبر هو إحدى شخصيات الكاتب البريطاني شارلز ديكنز في رواية ديفيد كوبرفيلد، يتأرجح بين الفوز والاحباط، والتشاؤم والتفاؤل، وخاصة الاعتقاد بأن شيئاً ما سيحصل في الأزمات الصعبة يخرج المحرج من الضيق (المترجم).

نموذجي في زمنه، والذي مارسه فيما بعد صلاح الدين نفسه. أنه تطور واضح ناجم عن الغارات المنتظمة التي كانت تقوم بها العشائر الغازية. وهدف هكذا غارات، في أبسط مفهومها، كان مجرد إحداث أكبر قدر من السلب والنهب بأدنى قدر من الخسارة. فضلاً عن أنها حين تتكرر كجزء من استراتيجية هجوميّة يكون هدفها مزدوجاً: ففي جزء منها يكون هدفها ربح الغنائم والأسلاب لتمويل الغارات المستقبلية؛ وفي جزئها الثاني تكون غايتها الاستطلاع عن مواطن الضعف التي، يمكن استخدامها، حين توجد، لتحطيم العدو.

لقد كان شيركوه في الجيزة في وضع حريز، إذا ما قيس معايير هذا المفهوم للحرب. إذ أنه كان محتمياً بالنيل. وحتى يقرر شاور وأملرك فعل شيء ما، يمكنه أخذ المبادرة بالابحار بإتجاه أعلى النيل أو أسفله. وكانت رؤية أعلامه المرفرفة على ضفة النهر المقابلة من شأنها أن تضعف سلطة شاور في عاصمته، وأن تجذب الفارين من خدمته الذين كان من بينهم، وفقاً للتقارير، زعماء ثلاث قبائل بدوية هي بنوطلحة والقرشيون وبنو جعفر[٨١]. في الواقع، ما تزال هذه القبائل موجودة اسمياً في خدمة شاور بعد الحملة[٨٢]، ويبدو أنها لم تتجاوز تقديم أكثر من مساندة الفريقين على نحو غير متحيّز؛ ولكن ما كان ذا مغزى أكبر هو نجاح معالجة شيركوه لموضوع الاسكندرية. فقد قيل إنه كتب إلى المدينة يطلب العون، بحجة أن شاور قد أتى بالفرنجة إلى دار الإسلام[٨٣]. وتفيد الرواية التي أوردها أبو شامة أن الاسكندريين ثاروا ضد شاور وأوكلوا أمر المدينة إلى نجم الدين بن مصال، وهو ابن وزير الخليفة الظافر، الذي قيل إنه كان يعيش هنالك مستخفياً. قد يكون في هذا بعض التفكير الرومنطيقي، غير أن الاسكندريين إما بسبب مساندتهم للإسلام السني وامّا بعقد الآمال في الحصول على فوائد ومنافع ماديّة، كانوا الآن مهيئين ليربطوا مصيرهم بالسوريين.

ثمة محاولة دبلوماسية أخرى غير ناجحة قيل إنها اتصال بشاور نفسه. لقد أرسل شيركوه رسولاً يقترح القيام بهجوم مشترك على الفرنجة، واعداً بأنه سيغادر مصر بعدئذ إلى الأبد، وبأنه لن يسمح لأحد بمهاجمتها[٨٤]. ولم يكن شاور ليأمل بأسعد من هذا الحل لمشكلاته، ولكن حتى لو كانت الرواية صحيحة، والاجراء تم، فمن المحتمل أن يكون شاور قد ارتاب بإخلاص وصدق هذا العرض. وبدلاً من الموافقة، عمد إلى قتل المبعوث ثم أطلع الفرنجة على مضمون الرسالة.

وفيما كان شيركوه يجرب المعالجة الدبلوماسية، كان الحلفاء يحاولون ببطء تضييق الخناق عليه. ففي اليوم الذي تلا إقرار الخليفة المعاهدة مع الفرنجة، بدأوا ببناء جسر من المراكب عبر النيل من جزيرة الروضة (أنظر خريطة القاهرة) إلى الجيزة؛ وقد بلغ هذا منتصف المجرى، وحينئذٍ، وفاقاً لما أورده وليم الصوري، حالت «الخشية من العدو» دون إتمامه[٨٥]. وما يبدو حماقة بالشروع في عملية لمقابلة العدو لم يكن بالإمكان إنجازها يخفي حقيقة أن هذا الجسر نصف المنجز كان قد شكل خطراً على حرية شيركوه في المناورة. فكان عليه إمّا أن يترك عدداً كافياً من الرجال يعملون على عدم إنجازه، وإما أن لا يتمكن فيغادر الجيزة.

وقد وصلت الآن التعزيزات الفرنجية بقيادة همفري صاحب تبنين وفيليب صاحب نابلس وانتهى الأمر بتكليف هوك صاحب ابلين بحراسة الجسر في حين كانت القوّة تتحرك نحو الشمال. وقد تحرك شيركوه، وفاقاً لما رواه وليم الصوري[٨٦]، بإتجاه مجرى النهر لمقابلتهم، وحتى لو كان هذا صحيحاً، فإن شيركوه لم يكن قد تخلى عن معسكره في الجيزة. لقد روى شاهد عيان هو الشريف الادريسي الذي أرسل من الاسكندرية لحمل رسالة من ابن مصال كيف أنه أمضى في الجيزة يومين حين وصل رسول ينذر بأن الفرنجة قادمون[٨٧]. فهجرت على الفور الخيام وقدور الطبخ والأمتعة الثقيلة واتجه السوريّون بعكس مجرى النهر لائذين بالفرار.

وعندها كتب شاور رسالة متفائلة منوّهاً بخدماته الخاصة التي بذلها في خدمة بيت الله وآل بيت النبي[٨٨]. وقد هب الرجال من كل مكان لنصرة أهل البيت الذين كانت راياتهم المظفرة قد تلقت المساعدة حتى من الصليب؛ وقد استخدم أحد أعدائه في مقاتلة أعدائه الآخرين، وقضى مرضٌ على مرضٍ آخر. ثم أضاف بأن شيركوه كان الآن قد طرد نحو مصر العليا.

في هذه المرحلة، قرر الحلفاء أن يوزعوا قواتهم؛ فبقي أوك صاحب ابلين والكامل، ابن شاور، ليقوما بحراسة القاهرة والجسر. وأرسلت قوة أخرى مصرية ـ فرنجية مشتركة إلى ضفة النيل الشرقية بينما لاحق إملرك وشاور شيركوه على الضفة الغربية. وقد ترك أملرك وراءه كتيبة مشاته توخياً للسرعة. واستمرت

المطاردة مسافة ما يزيد ١٨٥ ميلاً (٢٩٨ كلم) بإتجاه معاكس لمجرى النيل حتى وصل شيركوه إلى دَلْجَة على الضفة الغربية من ترعة بحر يوسف، كما عسكر الحلفاء على مسافة ١٢ ميلاً (١٩ كلم) إلى جهتها الشرقية في أشمونين (الخريطة ٦) وكان الادريسي لا يزال مع شيركوه؛ ويروي لنا كيف نهب السوريّون دلجة وكانوا يعلفون خيولهم في المساء حين أمر شيركوه بإضاءة المصابيح وبمتابعة الزحف، ثم أبطل الأمر فجأة، إذ دعي الرجال للرجوع، ثم عسكر شيركوه[٨٩]. وهذا لا يعكس إلا الفوضى العامة التي كانت ترين على سلسلة من الزحوف الإجبارية، وعلى تغيير أصيل في الخطة من قبل القائد، أو حتى، ربما، على محاولة لتضليل كشافة العدو. والواضح هو أنه مهما كانت الظروف التي أدت إلى القرار، فقد كان شيركوه الآن مهيأ للصمود والقتال.

وقعت المعركة في ٢٥ جمادي الآخرة/ ١٩ آذار. وكان أفضل وصف لأرض المعركة التي كان شيركوه قد اختارها هو ما قدمه وليم الصوري الذي استقى معلوماته من عدد من شهود العيان[٩٠]. لقد كانت على طرف الصحراء في أراضٍ وعرة تتقاطع فيها وديان صغيرة، وتأخذ اسمها: البابين، حيث أن الممر إليها كان يقع بين تلّتين. وقد احتل شيركوه التلتين واتخذ موقعه بينهما، كما روى وليم الصوري. وتتفق هذه الرواية مع ما رواه سبط بن الجوزي: كان صلاح الدين على الميمنة، ويضع قوّة من الأكراد على الميسرة، وشيركوه في القلب[٩١]. أما ابن الأثير فيضع شيركوه على الميمنة مع قوة مختارة؛ ويذكر أن صلاح الدين قد تمركز مع أمتعة الجيش في القلب، وقد تلقى أوامر بإيقاع الفرنجة في فخ وذلك بتظاهره بالانسحاب[٩٢]. ويوافق عماد الدين على أن أمتعة الجيش كانت في الوسط، غير أنه لا يوضح ما إذا كان المسلمون قد وزّعوا في قسمين أو ثلاثة، أو أين كان موقع صلاح الدين[٩٣]. ومع أن الادريسي انضم إلى ابن الأثير في وضع شيركوه على الجناح، فإنه يقول إن السوريين كانوا فرقتين يقود أحداهما صلاح الدين وكان عليها أن تهاجم الفرنجة من الخلف، ويضيف «فدخل الضعف من هذا الطريق»[٩٤]. وقد جاء في رسالة كتبت بعد مضي بضع سنين: «رتب أسد الدين [شيركوه] جنده بنفسه، والغز بأنفسهم، والبدو ومن كان معهم بأنفسهم. وكان يقابل المصريين في حين كان البدو يقابلون الفرنجة»[٩٥]. وهذا يدعم خط المعركة كما رسمه الإدريسي، غير أنه لم يوضح إلى أي مدى، فيما إذا كان ذلك قد تم، قد

جزئت الفرقتان وما المواقع التي شغلتهما. ومن المعقول أن نفترض، مع ذلك، أن خطة شيركوه كانت تكمن في إقناع الحلفاء بالانقضاض من خلال الثغرة بين التلّتين.

وحين نشبت المعركة هاجم الفرنجة بقوة موقع شيركوه «فقتل من أصحاب أسد الدين جماعة كبيرة وانهزموا»[٩٦] على ما رواه الادريسي. ويبينّ شاهد الرسالة بأنها توحي بأن هذا يجب أن يشير إلى البدو غير أن وضع شيركوه الشخصي لم يكن واضحاً أنئذٍ، ولعل كبرياء شيركوه كان وراء إحداث تغييرات في الوقائع. وقد أحرز الفرنجة بالتأكيد نجاحاً أوّلياً، إلا أن التلال المحيطة بالجانبين كانت رملية وشديدة الانحدار بحيث أعاقت الخيول وكان أوك صاحب قيسارية الذي كان يهاجم ما يراه وليم الصوري قوات صلاح الدين، قد ألقي القبض عليه وأسر. وكان هنالك قتال متفرق على جنبات الوديان الصغيرة إلى الجنوب من الموقع الرئيسي، وقد عاد المحور الإسلامي إلى الهجوم. وقام صلاح الدين بالهجوم من الخلف، كما أنه كان هناك عدد كاف من الرجال المتمركزين على التلال فاستولوا على القافلة التي كانت تنقل أمتعة جنود الفرنجة التي لا بد أن تكون قد تُركت إلى الجهة الشمالية منهم. واستناداً إلى عماد الدين، كان شاور نفسه مع أملرك (أموري)[٩٧]، غير أنه لم يكن هنالك أية بينات مفصلة لإنجازات رجاله، باستثناء إشارة إلى أن القاضي الفاضل أصيب بأذى في ظهره من جراء سقوطه عن حصانه[٩٨]. ولقد ترك أمر تحرير القوات المهاجمة إلى أملرك. وكان هو نفسه قد توجه إلى جنوب التلال، ولكن يبدو أنه لم يشترك في مطاردة محور شيركوه. وحين أسفر القتال المشوَّس عن عدم إمكان إحراز أي نصر رفع أملرك رايته على احدى القمم ليكون بمثابة نقطة لِلم شعث رجاله. وكان عليه آنذاك أن ينسحب بين التلال التي يسيطر عليها العدو. ويرى عماد الدين أنه كان يمكن أن يقع أسيراً في أيدي الأعداء لو أن السوريين لم يشاهدوا فرقة أخرى من الفرنجة ترتد إلى الوراء ثم تتوقف فجأة لمقاتلتهم. لقد أتاح هذا لقوة أملرك أن تصل إلى المخاضة في ترعة بحر يوسف، وتنسحب من هناك إلى منية ابن الخصيب التي تقع على بعد ٢١ ميلاً (٣٤ كلم) إلى شمال القاعدة في أشمونين، حيث تقدم من هناك نحو دلجة.

ويرى ابن الأثير أن هذا العمل الميداني الرئيسي الأول الذي عرف أن صلاح الدين قد اشترك فيه، قدم إلى شيركوه واحداً من أكثر الانتصارات روعة التي

سجلها التاريخ ـ «وهوان ٢٠٠٠ من الخيالة قدر لهم أن يهزموا جيوش مصر وفرنجة الساحل»[٩٩] . ومن جهة ثانية ، حدد وليم الصوري ، خسائر الفرنجة بمئة رجل ، وحدد خسائر شيركوه بألف وخمسماية[١٠٠] . ثم صوّر شيركوه بأنه جمع فلول جيشه وانسلّ بهم عبر الصحراء إلى الاسكندرية قبل أن يعلم الفرنجة بأمره . هنالك بعض التسويغ لوجهتي النظر كلتيهما . فلقد جاء شيركوه إلى مصر على رأس قوة قليلة الشأن ، وبَزّ بالمناورة أملرك وشاور ثم أغراهما بمهاجمته في ظروف لم يكونا فيها محظوظين في تفادي التحطيم والانكسار . فبالنظر إلى ما واجهه من صعوبات في بداية الحملة ، فإن هذا الانجاز كان عظيماً ، غير أنه قصرّ عن أن يكون انتصاراً كاملاً . فبالرغم من خسارتهما ، بقي أملرك وشاور في ميدان القتال ، وانضم إليهما الكامل على رأس قوة من الضفة الشرقية ، وجيرار دي بوجي ، وفرقة المشاة الفرنجية بقيادة جوسلان صاحب سميساط . لقد كسب شيركوه لنفسه الوقت والوجاهة . غير أن الرؤية المحايدة التي يرويها ساويروس بن المقفع ربما هي التعليق على المعركة نفسها والذي يتسم بأكبر قسط من التجرد والنزاهة : «عدة أشخاص من جيشه (شيركوه) قد ذبحوا ، وجمهرة كبرى من الفرنجة والمسلمين (أي المصريين) ذبحوا أيضاً وكل من الفريقين أخذ أسرى من الفريق الآخر»[١٠١] .

زحف شيركوه الآن بإتجاه الشمال . ولم يقم بأية مظاهرة عسكرية ضد القاهرة ، حيث كان جسر الجيزة ما زال مخفوراً ، ولكنه تابع سيره نحو الاسكندرية . لقد أظهرت دبلوماسيته الباكرة هنا قيمتها . فلو أن الاسكندرية وقفت ضده ، لم يكن ليأمل في إقتحامها بهجوم عاصف . كما كان يمكن له ، بسبب القوة العظمى التي تجمعت ثانية خلفه ، إما أن يستأنف الزحف والزحف المضاد على طول نهر النيل ، أو أن يعود إلى بلاده . وفي الواقع ، استقبلته المدينة بحفاوة ، وقدمت له الأموال والسلاح ووفرت له قاعدة يمكنها ، إذا تمت المحافظة عليها ، أن تضعف مركز شاور إلى حد كبير .

حين سمع الفرنجة والمصريون هذا النبأ ، وكانوا يعيدون تجمعهم في القاهرة ، عقدوا مجلساً حربياً بينوا فيه أن الاسكندرية كانت تعتمد في تموينها على النهر ، ويمكن بالتالي تجويعها[١٠٢] ، ثم انتقل أملرك وشاور إلى دمنهور الواقعة على مسافة ٣٠ ميلاً (٤٨ كلم) إلى الجنوب من الاسكندرية ؛ كما أرسلت دوريات لتنفيذ حصار بريّ ، وجرى إيقاف حركة النقل والمرور في النيل ، كما فتشت جميع

السفن. ولا بد من مضي بعض الوقت على هذه العملية قبل أن تصبح عملية فعّالة. إلا أنه، من جهة ثانية، إذا لم يفعل شيركوه أي شيء لفك الحصار فإن هزيمته مؤكدة في النهاية. فإذا ما مكث كي يواجه بالحصار، فإنه لن يستطيع أن ينتظر من الاسكندرانيين أن يتضوروا جوعاً إلى ما لا نهاية كرمى له. وكان بإمكانه أن يخرج للقتال، إلا أن المبادرة هذه المرة هي في أيدي الحلفاء، وكان بإمكان المرء أن يتوقع منهم أن يختاروا أرض المعركة. ومن جهة ثانية، إذا تخلّى عن الاسكندرية وهي ربحه الحقيقي الوحيد في مصر، فلن ينتظر سوى القليل من الدعم بعد اليوم. إزاء هذا الواقع، اتخذ قراره الجريء بتجزئة قواته في مواجهة الأعداد الغفيرة. فانتقل هو نفسه من الاسكندرية على رأس معظم قواته وزحف إلى الجنوب سالكاً طريقاً صحراوية ليتفادى حشود قوات الحلفاء. ولن يكون مثل هذا التحرك بحد ذاته سوى مضايقة للعدو، اللهم إلا إذا صمدت المدينة، وأوكلت هذه المهمة الصعبة والخطيرة إلى صلاح الدين.

كانت ردة الفعل الأولى لدى أملرك هي العودة إلى القاهرة. ولكن حين ظهر أن المدينة لم تكن مهددة بالخطر، ترك شيركوه يستعمل وسائله الخاصة، وعاد أدراجه بإتجاه الشمال. ويرى وليم الصوري أن مصرّياً كان قد أقنعه بتحويل عملية الحصار البري إلى حصار للمدينة وزعم أن باستطاعته تدبير أمر استسلام المدينة[١٠٣]، ولكن حتى بدون هذا العمل، كان إنسحاب شيركوه دعوة صريحة إلى الهجوم. ولم يبق في هذه المرحلة أية حجة لدى الفرنجة للشكوى من تخاذل شاور، وحين كانت المسألة هي استخدام أحد الأعداء لضرب عدو آخر، فلربما كان مستعداً للبقاء في الظل، أما الآن وقد أصبحت استعادة احدى مدنه في الرهان، حمل على منكبيه أعباء الحرب، وهيّأ وسائل وأدوات بناء المعيار ودفع نفقاته، ثم «انكب بنفسه على جميع الأمور»[١٠٤].

لقد أعطى هذا التصميم صلاح الدين اختباراً هائلاً. وكان عنده حامية سوريّة صغيرة فقط. كما كانت إتصالاته مع شيركوه قد انقطعت وخطوط تموينه قد أعتقت. ولم يكن لدى أهل المدن سوى القليل من المكاسب والكثير من الخسران بسبب دعمهم له، غير أن أمله الوحيد كان يكمن في تعاونهم معه. ولم يعط وليم الصوري أي رقم لأعداد المصريين التابعين لشاور، ولكنه قدر أعداد الفرنجة بحوالي ٥٠٠ فارس وبين ٤٠٠٠ و ٥٠٠٠ راجل[١٠٥]. ومن أجل تهيئة نفسه ضد

هذا العدو قدّر أن أكثر من ٥٠,٠٠٠ من المحاصرين يستطيعون حمل السلاح ثم علّق على الأعجوبة التي كان يشعر بها وهي أن مثل هذه القوّة الصغيرة يمكنها أن تسيطر على مثل هذه الأعداد الغفيرة وتوقفها خارج الأسوار. وفي الواقع، لم يكن موثوقاً عدد الاسكندرانيين الذين يستطيعون أو يرغبون في القتال مع صلاح الدين. فقد رأى المقريزي أنهم جهزوا له ٢٠,٠٠٠ فارس[١٠٦]، غير أن هذا لم يؤكده الكتاب المعاصرون لصلاح الدين. ومن الواضح أنه كان على صلاح الدين أن يقتصد في موارده. ويروي وليم الصوري أنه نادراً ما كان السوريون يهبون إلى العمل بسبب النقص في أعدادهم؛ أما الواقع فهو أنه لم يكن لديهم ثقة كبيرة بحلفائهم الاسكندرانيين. وحينما كانوا يقاتلون «لم يظهروا أية حيوية كبيرة، وكانوا يفعلون القليل ليشدوا من عزم الآخرين»[١٠٧].

عمد المحاصرون إلى قطع أشجار البساتين المثمرة لتوفير الخشب للآلات ثم بنوا برجاً ذا «ارتفاع هائل[١٠٨]، بحيث يستطيعون أن يروا منه المدينة بأسرها»، غير أن أسلحتهم الأكثر مضاء كانت الجوع والتدمير. وقد أرسل شاور رسلاً إلى المواطنين يعرض عليهم إعفاءات ضريبية كبيرة؛ وبحلول شهر رمضان/ تموز، أي بعد مضي ثلاثة أشهر على بدء الحصار، كانت المدينة تعاني من نقص في المواد الغذائية. ويروي أبو شامة أن عدداً كبيراً من الاسكندرانيين كان قد قتل[١٠٩]. ولاحظ وليم الصوري فيضاً من اللاجئين[١١٠]. ولقد كان إنجازاً رائعاً، سواء من الناحية الدبلوماسية أم من الناحية العسكرية، أن يحافظ صلاح الدين على مواقعه، إلاّ أنه من الواضح أنه لن يستطيع أن يصمد إلى ما لا نهاية، وكانت مسؤولية شيركوه بصفته قائد الحملة أن يعمل على إنقاذه.

كان شيركوه قد غادر الاسكندرية وسار إلى قوص، التي تقع على بعد ٤٢٥ ميلاً (٦٨٤ كلم) إلى جنوب القاهرة. ولعله الآن قد فقد الرجاء في الفتح، كما أنه كان يبدو وكأنه يرغب في الحصول على المال، وليس في الكسب العسكري. ويرى وليم الصوري أنه قد قام بمحاولة فاشلة في مهاجمة قوص هجوماً عاصفاً[١١١]، بينما يقول عماد الدين، على نحو غامض، بأنه قد «قوي بها»[١١٢]، ولربما يعني بهذا أن المدينة قد تخلّصت منه بشرائه بالمال. وقد عاد من هنا نحو الشمال مرّة ثانية. واصطحب معه عدداً كبيراً من البدو، إلا أنه قيل ان جيشه دب فيه الوهن من جرّاء «ما عانوه من الشدائد وعاينوه من الأهوال»[١١٣]. «وكان

شاور قد استمال جماعة من التركمان الذين كانوا معه بالدينار»[١١٤]. ثم إن الفرنجة تلقوا تعزيزات من البحر ولم يكونوا، على الأقل، أكثر ضعفاً مما كانوا عليه قبل معركة البابين. ولم يفض ارتداد الاسكندرية إلى أي تحرك عام ضد شاور في مصر، وكانت خيارات شيركوه بالنتيجة، خيارات محدودة الآن. كان بإمكانه مهاجمة القاهرة حيث كان أوك صاحب إبلين ما يزال يقوم بحراسة الجسر؛ وكان بإمكانه شق طريقه إلى مساعدة الاسكندرية، أو كان بإمكانه أن يعقد الصلح.

قام، وفقاً لاحدى الروايات[١١٥]، بتحرك ضد القاهرة، ولكن يبدو أن هذا لم يكن أكثر من تظاهرة. حيث أن منتهى أمله كان عقد صلح مربح، وكان هذا أيضاً في مصلحة شاور. فإذا ما تم تحطيم السوريين، فإن الفرنجة سيكونون في موقع قوي جداً، بينما تستطيع معاهدة الصلح أن تحرر مصر من التدخل الأجنبي. وقد شرع شيركوه في معالجة الأمر ودراسته مع أسيره هيو صاحب قيسارية. واشتملت الشروط المقترحة على تبادل الأسرى بين الفريقين، ورفع الحصار عن الاسكندرية، وجعل الطريق آمنة وسالكة أمام القوات السورية. وقد روي أن هيو كان متردداً في القيام بدور الوسيط لئلا يُظن بأنه يعمل لمصالحه الخاصة[١١٦]، فتمت العملية بواسطة أرنولف صاحب تريسل. ولم يجر أي تدوين لآراء أملرك. ولربما كان من الأفضل بالنسبة إليه أن يستولي على الاسكندرية ويحطم شيركوه، ولكنه من جهة أخرى لا تقل شأناً، لربما قد وجد أنه من الصعب الاحتفاظ بموقفه إذا ما رغب شاور في عقد الصلح، وتم بالنتيجة عقد اتفاقية.

ترك لنا وليم الصوري صورة عن رفع الحصار عن الاسكندرية. فقد خرج سكان المدنية «يستمتعون بالمحادثة مع الفرنجة. أما الفرنجة من جهتهم، فقد ذهبوا يشاهدون معالم المدينة[١١٧]. كما أن صلاح الدين نفسه قد أقام في معسكر أملرك حيث خصص له حارس يحميه من الشتائم»[١١٨]. وقيل إن السوريين قد رحلوا في الأسبوع الأول من شهر شوال/ آب، وفي نصف شوال/ ١٧ آب دخل شاور على قرع الطبول والزمور، وبعد أن ابتز «مبلغاً كبيراً من المال. . . عاد إلى معسكره بكل فخار»[١١٩]. ولم يكن من غير الطبيعي أن يرغب في الثأر. فجرى اعتقال قاضي الاسكندرية، ثم أفتدته عائلته فيما بعد. وصمد آخرون في منارة

الاسكندرية إلى أن تم العفو عنهم، واختبأ ابن مصال حتى استطاع الهرب إلى سوريا[١٢٠]. ولقد كان من شروط الهدنة، شروط غير مدونة، تعطي «الأمان لأهل الاسكندرية»، لأن صلاح الدين احتج عندها لدى أملرك الذي حذّر شاور بأنه كان ينقض بنود الاتفاقية[١٢١]. كما أن صلاح الدين طلب إلى أملرك أن يصار إلى نقل مرضاه وجرحاه إلى فلسطين عن طريق البحر. وكان بين الذين نُقلوا الإدريسي الذي اعتقل لفترة في معمل لاستخراج السكر في عكا ثم سمح له بالذهاب إلى دمشق. وقد عمد أملرك نفسه إلى حرق آلات حصاره، وجمع حاميته من القاهرة، ووصل إلى عسقلان حوالي آخر شهر آب، في حين وصل شيركوه وصلاح الدين إلى دمشق في ١٨ ذي القعدة/ الخامس من شهر أيلول.

كان هذه الحملة إيذاناً ببلوغ صلاح الدين أشدّه. ولم يعرف عنه قبلها سوى إشارته الخاصة إلى «إنتصاراته»[١٢٢]، وعلامة الاستفهام حول الحملة المصرية الأولى ودور صاحب الشحنة الثانوي. أما الآن فقد ظهر للعيان من هذا الخفاء النسبي ليقف وحده ضد أملرك وشاور. لقد قاد الجيوش في عمل حربي واضطلع بمسؤوليات الدفاع عن الاسكندرية، وهذا أكثر مما أنجزه أي واحد من معاصريه السوريين، كما أن خبرته ونجاحه دلا على أن مؤهلاته القيادية، إذا ما أعطي الفرصة الملائمة، لا يرقى إليها الشك، ولن تكون موضع تساؤل.

ولم يكن واضحاً، مع ذلك، فيما إذا كانت أي فرصة ستسنح. فبالرغم من التخطيط الذي قام به شيركوه، والذي قدر بعامين كاملين، وجيشه التام الاستعداد، وإنجازه في معركة البابين، أُجبر على الخروج من مصر للمرّة الثانية، مرغماً على التخلّي عن رفاقه في المدينة الوحيدة التي أيدت قضيته وآزرتها. ولم يبق له أي سبب في أن يأمل بأنه سوف يكون قادراً على إنزال الهزيمة بتحالف شاور والفرنجة، وكان شاور مهيأً تماماً لملاقاة أي تهديد منه أو من أملرك بتهديد معاكس بأن يقيم تحالفاً مع الآخر. ولم يكن موقف نور الدين إلا موضع تخمين. فهو وأبوه على السواء قد إتبعا سياسة التوسع. فقد كان ابن خلدون، مع ذلك، مصيباً في ملاحظته حول القوة المتماسكة للعصبية[١٢٣] (الشعور الجماعي) في تأمين بقاء واستمرارية الحكم العائلي. فكلما توسع، كلما أصبح لزاماً على هذه القوة أن تخف وتضعف.

كـان نور الدين قد ساعد شاور على العودة إلى السلطة مقابل وعود من هذا بإعطائه مالاً وأرضاً. كما كان قد دعم سياسة التوسع في مساندته محاولة الغـزو التي قام بها شيركوه، غير أن مدى التزامه الشخصي كان قليل الوضوح. فلم تكن العصبية داخلة مباشرة في الموضوع لأنه لم يكن يسعى إلى الحصول على مملكة لأي من أعضاء أسرته. ولو قدر لشيركوه أن يستولي على مصر، لكان حصل على قاعدة قوة تنافس قاعدة قوة الزنكيين أنفسهم. ومع أنه كان بالإمكان توقع الحصول على مكاسـب قصيرة الأمـد، فإن نور الـدين كان قادراً، بالتـأكيد، علـى رؤية المخاطر الممكنة.

ويرى عماد الدين أن نور الـدين لم يستخـدم سلطتـه بغية إعطـاء الأوامـر لشيركوه، إلا أنـه حاول تحـويل اهتمامـه بتبيان الصعوبـات ـ «قـد تعبـت مرتين واجتهدت، ولـم يحصل لك ما طلبـت» ـ ثم بإسنـاده إليه مسـؤولية جبهـة مدينـة حمص[١٢٤]. ومن البديهي أنه كان هنالك مجال واسع للمشاعر المختلطة. لقد قدم عماد الدين نفسه إلى صلاح الدين بنظم قصيدة تحضه على العودة مظفّراً إلى مصر، واستعادة الأمامة من أولئك الذين استولوا عليهـا «بالخيانـة»[١٢٥]. وليسـت آراء شيركوه مدونـة، غير أنـه روي عن صلاح الـدين أنـه قال ما يفيد: «لقـد قاسيت بالاسكندرية من المشاق ما لا أنساه أبداً»[١٢٦]، وكانه أخبر ابن شدّاد أنه لم تكن لديه أية رغبة في العودة إلى مصر[١٢٧]. وفي شتاء عام ٥٦٣/ ١١٦٧ ـ ١٨ قطعه نور الدين ضيعتين، احداهما من ضياع «كفرطاب» غربي حلب، «والأخرى من ضياع حلب» (خريطة ٣). وروى عماد الدين: «وزعم أنه بلغ به المنتهى من المنى»[١٢٨].

وفي الواقع، لم يكن شيركوه أو نور الدين هو من فتح له الطريق. ففي صيف ٥٦٣/ ١١٦٨ جاءت إلى أملرك هيئة من الممثلين الدبلومـاسيين من قبـل مانـويل الامبراطـور البـزنطـي. ويروي وليم الصـوري أن المبعـوثين رووا أنـه ورد الامبراطور تقرير بأن مصر التي كانت حتى ذلك الوقت بلداً ذات قوة عادية وثراء هائل، يحكمها الآن أشخاص ضعفـاء[١٢٩]. ولـم يبـد له أن مثـل هذه الأحـوال تستطيع الاستمرار. ومن أجل الحؤول دون وقوع البلاد في أيد أخرى اقترح القيام بهجوم مشترك يمكن، في رأيه، أن يلاقي نجاحاً سهلاً. فأرسل وليم الصـوري ذاته إلى القسطنطينة لمناقشة هذا الاقتراح، غير أن مانـويل كان مرتبطـاً بحملـة

أخرى. وحين عاد وليم إلى فلسطين وجد أن قراراً كان قد اتخذ، وان أملرك غادر إلى مصر.

لم يكن أي مؤرخ معاصر متأكداً من الأسباب المباشرة التي حملت على هذا التحرّك. فوليم الصوري، الذي كان في أفضل وضع لمعرفة تلك الأسباب، يرى أن أملرك ربما كان قد أُنذر بواسطة بعض التقارير بأن شاور كان على إتصال مع نور الدين[١٣٠]. ويبدو، فيما بعد، أن الفرنجة كانوا قد سمعوا إشاعة بأن صلاح الدين، والكامل بن شاور، كانا يخططان ليتزوج كل منهما أخت الآخر بغية، كما ظن آنذاك، تعزيز حلف مناهض للفرنجة[١٣١]. وكما يرى وليم أن أملرك يمكن أن يكون قد أقنعه سيد التمبلار «فرسان الهيكل» المتقلب الذي بدد الموارد المالية العائدة لجماعته، ورغب في التعويض عن خساراته بالاستيلاء على بلبيس وأراضيها التي كان أملرك قد وعده بها. ويزعم ابن الأثير أن أملرك، لم يكن للفرنج مذ ظهر بالشام، «مثله شجاعة ومكراً ودهاء»[١٣٢]، وقد استدعوه ليملك مصر، وحرضه الفرنجة الذين كان قد خلّفهم وراءه في القاهرة بعد الحملة الثانية. ويظهر ابن الأثير في كتاباته تعلقاً بخطب توكيديوس التي لم تستخدم للدقة التاريخية بل من أجل ثقل الحجج التي يعتقدها ملائمة، فيصور أملرك وكأنه يتكلم ضد الخطة على أساس أن شاور كان قد سبق له وأرسل إليهم مبالغ طائلة من المال، بينما ستقاومهم البلاد بأسرها في حال القيام بهجوم. حينئذ سيعمد المصريون إلى استدعاء نور الدين. وإذا وضعت مصر في عهدة رجل مثل شيركوه، «ففي ذلك هلاك الفرنج وإجلاؤهم من أرض الشام». أما الحجة المضادة فهي أن مصر ستكون قد سقطت قبل أن يتمكن نور الدين من حشد رجاله، «وعندها يتمنى نور الدين منا السلامة».

أما فيما يتعلق بسوريا فقد أحسن اختيار توقيت الهجوم الفرنجي على مصر. وكان نور الدين في خريف ٥٦٣/ ١١٦٨، يتطلع نحو الشرق. وكان البدو قد قبضوا على صاحب قلعة جعبر، وهي قلعة ذات موقع استراتيجي عند أحد تقاطعات الفرات الغربي (الخريطة ٨). وقد حمل إلى نور الدين الذي كان مهتماً حينئذ في إجبار قلعة جعبر ذاتها على الاستسلام. وقد وافت المنية أيضاً زين الدين على كجك بن بكتكين، الذي كان قد شغل وظيفة مدير إدارة لدى شقيق نور الدين قطب الدين صاحب الموصل الذي كان يملك عدداً من المدن والقلاع الهامّة بما

فيها إربل، وتكريت، وسنجار، وحرّان وقلعة الموصل ذاتها. قال ابن شدّاد عن نور الدين بأنه كان قد «حدث له طمع» بعد موت زين الدين[١٣٣]؛ وروى أبو شامة أن الفرنجة كانوا مدركين جيداً أنه كان منشغلاً «في البلاد الشمالية وعسكر الشام متفرق في كل بلدة، حافظ لما في يده»[١٣٤].

غادر أملرك عسقلان، وفقاً لتسلسل الأحداث عند عماد الدين، في الأسبوع الثالث من شهر تشرين الأول ١١٦٨/ منتصف محرم ٥٦٤ وهاجم بلبيس في أول صفر/ الرابع من تشرين الثاني[١٣٥]. وكان حظه الوحيد في النجاح يكمن في السرعة من أجل أن يحبط ردة الفعل من قبل نور الدين، في حين كان شاور يأمل في ربح الوقت بدفاعه عن بلبيس حيث كانت الحامية بإمرة ولده طي[١٣٦]. وقد قيل بأنه كان لدى طي من الجرأة والثقة بالنفس ما يكفي لسؤال أملرك: «أتحسب أن بلبيس جبنة تأكلها؟»، فأجابه أملرك بقوله: «نعم، هي جبنة، والقاهرة زبدة»[١٣٧]. كانت ثقة أملرك في ذلك الحين هي الثقة التي برّرتها الأحداث. فالمدينة التي صمدت لمدة ثلاثة أشهر لما كانت تحت حكم شيركوه، سقطت على الفور تقريباً حين هاجمها الفرنجة. وقد أضرمت النار في معظم بيوتها، وقتل الأهالي أو أخذوا عبيداً، واستبدلوا، وفقاً لما سمعه المؤرخون العرب «بعامة الشعب من بين فرنجة الساحل»[١٣٨]، الذين كان أملرك قد دعاهم للإقامة هناك. وروى أبو شامة أن أملرك حرّر من سكانها أولئك الذين كانوا من نصيبه كأسرى[١٣٩]، إلا أن وليم الصوري لم يؤكد ذلك، وقد قال ابن الأثير بأن المعاملة الفظّة التي عوملت بها بلبيس هي السبب الذي دفع سكان القاهرة والفسطاط إلى التصميم على المقاومة[١٤٠].

زحف الفرنجة بعد خمسة أيام من الانتظار في بلبيس نحو القاهرة حيث عسكروا هناك في ١٠ صفر/ ١٣ تشرين الثاني. وينتقد وليم الصوري بطء الزحف ويزعم أنهم أمضوا عشرة أيام ليجتازوا ما كان بالكاد يكوّن رحلة يوم واحد[١٤١]. وهذا قول مبالغ فيه، بالنظر إلى أن الأيام العشرة تشتمل على خمسة أيام استغرقها أملرك في إعادة تجميع جيشه، ولعلّه (وليم) على حق حين يضيف أن «أولئك الذين عرفوا أسرار هذه المسألة» فسروا التأخير بأنه يعود إلى مكائد شاور. ولا بد من أن يكون شاور قد بذل جهده في تأخير تقدم الفرنجة، إلا انها لم تكن خطوته الوحيدة. فخلال حملته الخاصة ضد ضرغام كان بإمكانه الاستيلاء على الفسطاط

دون مقاومة، مع أن هجومه الأول على القاهرة كان قد سُحق. وإذا حذا الفرنجة حذوه، فيمكن أن يثبت سقوط الفسطاط بما تستطيع توفيره من ذخائر وملجأ، بأنه أمر مهلك للقاهرة مرة ثانية، وقد اتخذ في ٩ صفر/ ١٢ تشرين الثاني الخطوة اليائسة في إضرام النار بالفسطاط. وروي إن ٢٠,٠٠٠ قارورة من النفط و١٠,٠٠٠ مشعلة قد استعملت(١٤٢). وتدفق سيل من الرجال والنساء والأطفال يغادرون المدينة، «وكأنما خرجوا من قبورهم إلى المحشر»(١٤٣). وقد راوحت اجرة الداية للرحلة القصيرة إلى القاهرة بضعة عشر ديناراً، في زمن كان يعتبر فيه الدخل الشهري الذي يبلغ ٢٠ ديناراً ثروة طائلة(١٤٤). أما السلع التي اضطر أصحابها إلى تركها وراءهم فقد نهبها بحارة الأسطول الفاطمي الذي كانت النيران قد اندلعت في سفنه(١٤٥)، والسودان (الزنوج) الذين كانوا يشكلون قسماً كبيراً من الجيش الفاطمي.

وكان أملرك من جهته قد طوّق القاهرة وعسكر بالقرب من بركة الحبش حيث قابله شمس الخلافة الذي أتاه بشروط لإقرار تسوية. وحين تبين أن هذه الشروط غير مقبولة زحف إلى باب البرقية في الجهة الشرقية من المدينة، وقام بهجوم، وفاقاً لرواية المقريزي(١٤٦)، كان من العنف بحيث أن أهل القاهرة «شعروا أنهم (زلزلوا) زلزالاً شديداً». وليس هنالك، مع ذلك، سوى شواهد ضئيلة على هذا الهجوم. وكان تغيير المعسكر يعتبر في أحسن الحالات محاولة من قبل أملرك لتقوية جانبه في المفاوضات. وأتى شمس الخلافة الآن مرة أخرى بعرض اختلفت الأقوال حوله، حيث بلغ ٤٠٠,٠٠٠ أو ١,٠٠٠,٠٠٠ أو ٢,٠٠٠,٠٠٠ دينار(١٤٧). وقد اتفقت المصادر الشرقية والغربية على أن مبلغ ١٠٠,٠٠٠ دينار قد تم دفعه فوراً، وعلى أن شاور قد طلب مهلة تتيح له جمع الباقي(١٤٨). عندها أطلق أملرك سراح ابنه طي، الذي كان قد اعتقل في بلبيس، وانسحب مسافة ٧ أميال (١١ كلم) إلى الشمال من القاهرة، إلى المطريّة. وبعد إنقضاء ثمانية أيام، كان وقد وردت خلالها «هيئات دبلوماسية متكررة ولكنها غير مجدية» من قبل شاور(١٤٩)، ذهب بعيداً إلى الشمال فبلغ سرياكوس الواقعة على مسافة ٢٠ ميلاً (٣٢ كلم) من القاهرة على الطريق إلى بلبيس. وكانت عمليته العسكرية الوحيدة هي إرسال همفري صاحب تورون ليجعل النيل سالكاً أمام مرور أسطول صغير قدره المقريزي بعشرين شونة(١٥٠) (سفينة شراعية كبيرة ذات مجاذيف ـ المترجم) كانت

تهاجم تينس، وأشموم، ومنية عمرو.

لقد أخبر موسى، ابن شمس الخليفة، ابن أبي طي أن شاور رفض التماس المساعدة من نور الدين[١٥١] وأن الخليفة العاضد هو الذي كتب، وفقاً لرواية أخرى في مناسبتين: مرّة بعد إحراق الفسطاط ومرّة أخرى بعد محاولة شاور لمشتراة أملرك بالمال[١٥٢]. ويكاد يكون هذا خطأ، لأن عماد الدين الذي كان في ذلك الحين موظفاً في ديوان نور الدين يفيد عن وصول فيض من الرسائل الواردة من شاور[١٥٣]. انه، بالطبع، لممكن أن يكون أملرك، وربما بحضّ من شمس الخلافة، قد قلل من شأن الخطر من سوريا لأنه كان يعتقد بأن شاور لن يدعو شيركوه إلى العودة إلى مصر. ويشير وليم الصوري أنه قُدّم له نصح سيء من قبل ميل دي بلانسي الذي أخبره بأن يكتفي بفدية يستطيع الاحتفاظ بها لنفسه بدلاً من أن يجهد من أجل الاستيلاء على القاهرة التي سيشاركه في غنائمها أفراد جيشه[١٥٤]. ويمكن، بالتأكيد، تفسير انسحابه من القاهرة كجزء من صفقة تقضي شروطها بأن ينتظر كي يجمع المال من قبل المصريين، إلا أن هذا بذاته لا يفسر تردده في تقوية موقعه. فليس هنالك حل نهائي للمسألة وكل ما يمكن قوله بنزاهة هو أن بطأه قد ضارعته سرعة نور الدين.

وفي حدود الشهر منذ مهاجمة أملرك بلبيس، كان جيش نور الدين في المعسكر جنوبي دمشق مستعداً للزحف. أما هو نفسه فكان في حلب حين ركب شيركوه من حمص لملاقاته، على أثر سماعه عن تحرك الفرنجة. وقد زوق ابن الأثير في سرد القصة[١٥٥] بجعل نور الدين يرسل صلاح الدين لجلب شيركوه من حمص وجعل العم وابن الأخ يلتقيان على مسافة ميل واحد من حلب. حينئذ أعطى نور الدين شيركوه مايتي دينار وأمر خازنه بتأمين أي شيء آخر تدعو إليه الحاجة. وتلكّأ صلاح الدين في العودة إلى مصر، ولكن بناء على حضّ من شيركوه أمره نور الدين بالانضمام إلى الحملة. ويروي عماد الدين أن نور الدين ذهب في هذه المرحلة للاستيلاء على قلعة جعبر، في حين تُرك شيركوه ليجمع قوّة من التركمان[١٥٦]. ووصل نور الدين إلى قلعة جعبر في ٢٠ محرم/ ٢٤ تشرين الأول وبما أن زحف أملرك من عسقلان يمكن أن يؤرخ في الأسبوع الثالث من تشرين الأول، فإن هذا يدل على أن السوريين أقاموا استعداداتهم لدى سماعهم بحشود الفرنجة بدون أن ينتظروا أية دعوة للمساعدة.

وحين عاد نور الدين إلى دمشق في ٢٩ صفر/ بداية كانون الأول، كان شيركوه معسكراً إلى الجنوب منها في رأس الماء. وكان قد جمع قوة قوامها ٥٠٠٠ فارس أو يزيد، أضاف إليها نور الدين ٢٠٠٠ فارس آخر، بالإضافة إلى بعض الأمراء «لمشاركته الهموم» كما قال وليم الصوري[١٥٧]. ولم يكن يقصد من مثل هذه الأعداد أن تمثل الحجم الاجمالي للقوات، لأنها أهملت ذكر الخدم والملتحقين بالمعسكر، وفي هذه الحالة نرى أن ابن الفرات يبالغ فقط في تعداد فوارس شيركوه الذين عدهم ٧٠٠٠ رجل، دون أن يحسب فرقة نور الدين العسكرية، ويجعل عدد رجال الحملة الكامل ٧٠,٠٠٠ بين خيال وراجل[١٥٨]. انه بلا ريب رقم ضخم جداً، غير أن القوة كانت، على نحو بيّن، قوة ذات بأس شديد. وكفعل نهائي ينم عن الكرم أعطى نور الدين كل فارس أجراً إضافياً مقداره ٢٠ ديناراً؛ وكما يروي وليم الصوري، زودهم أيضاً بعدد كافٍ من الجمال لحمل أمتعتهم إلى مصر.

كان أملرك (أموري) لا يزال في سرياكوس حين ورود نبأ بأن شيركوه قد زحف مع «حشد هائل من الأتراك»[١٥٩]. على أثر ذلك، انسحب قافلاً إلى بلبيس، التي أقام فيها حامية ولتكون قاعدة له؛ وبعد ذلك، في الأسبوع الرابع من شهر كانون الأول، أي بعد حوالي أربعين يوماً من وصوله أولاً إلى القاهرة، خرج زاحفاً لإعتراض السوريين في الصحراء. لقد فشلت المحاولة، وأعلمه كشافوه أن شيركوه وصل إلى النيل. ويقال إن شاور الآن كان قد دعا شيركوه لينضم إليه في هجوم على الفرنجة، حيث أجابه شيركوه أن هذا كان مخططه الشخصي في الحملة الثانية، حين يتيسر عزل الجيش الفرنجي غربي النيل[١٦٠]. وقد ترك أملرك، في الواقع، ممتلكاً خطاً للرجعة بعد أن تبخرت آماله بأي نجاح. فجمع قواته في بلبيس، ثم سار نحو فاقوس، وغادر في النهاية مصر في ٣ جمادي الآخرة ٥٦٥/ بداية كانون الثاني ١١٦٩.

يحدد وليم الصوري انسحاب أملرك من بلبيس بيوم سلخ ربيع الأول ٥٦٥/٢ كانون الثاني ١١٦٩[١٦١]، ولا يبدو أن شيركوه كان قد دخل القاهرة حتى ٥ ربيع الآخر/ ٨ كانون الثاني[١٦٢]. ومن الجائز أن يكون شيركوه قد تلكأ في الاقتراب كثيراً من شاور في حين كان ما يزال هذا يأمل بأن يسترجع الفرنجة كحلفاء. ومع أن الصورة معقدة في المصادر العربية بسبب حكايات المكائدالمتبادلة، فإن منطق

الوضع واضح. فلم يكن شاور يرغب في بقاء السوريين ولا في بقاء الفرنجة في مصر، وهو مستعد لأن يتحالف مع أية جهة تكون أقل خطراً عليه في أية لحظة معينة. ولم يكن الخليفة العاضد، من جهته، مهتماً بالتّبدلات التي تجري في الوزارة، وإذا ما كان شيركوه راغباً في خدمته، فلم يكن من المحتمل أن يعارض ذلك. فلقد كان السنة قد دخلوا في خدمة الفاطميين من قبل، وكانوا بالطبع أقل خطراً عليه من الفرنجة. أما فيما يختص بشيركوه، فقد كان واضحاً من أعماله السابقة ومن تفسيرها الذي يقدمه عماد الدين أنه كان قد عزم على تثبيت نفسه في مصر برضا شاور أو بعدم رضاه. لقد كان يعمل وفاقاً لأوامر نور الدين، ولكن من الخطل أن نبالغ في تقدير خضوعه أو تبعيته لنور الدين. فمن الناحية العملية، كان من الأفضل له أن يرى حين غادر سوريا هو وقواته كمغامرين مستقلين يلتمسون النجاح والثروة، من أن يروا كفرقة من الجيش السوري في حملة إلى بلاد أجنبية.

كان لشيركوه في ٧ ربيع الآخر العاشر من كانون الثاني لقاء مع الخليفة، وفي ١٥ ربيع الآخر/ ١٨ كانون الثاني قتل شاور. لقد حاول شاور أن يفوز بالحظوة لنفسه بإرسال الهدايا إلى شيركوه، ويبدو أنه قد نجح في ذلك إلى درجة أن المصادر اتفقت بصورة عامة على أن شيركوه لم يخطط لاغتياله[١٦٣]. وقد روى عماد الدين أنه أرسل إليه ضياء الدين عيسى يحذره من الخطر[١٦٤]. ولعل شيركوه نفسه كان راضياً بأن يشغل منصب قائد الجيش، تاركاً شاور يقوم بضبط الإدارة المدنية. ومع ذلك، لم يرض هذا الأمر رفاقه. ويقال إن صلاح الدين بخاصة قد لفت النظر إلى أنه «لا أمر لنا مع استيلاء شاور، ولا سيما إذا راوغ وناور»[١٦٥].

ولقد عمل عز الدين جُرْديك، وفاقاً لأكثر القصص شيوعاً[١٦٦]، على مساعدة صلاح الدين في انزال شاور عن صهوة جواده، حين امتطى جواده وخرج في يوم ضبابي ليقوم بزيارة إلى المعسكر السوري. لم يكن شيركوه هناك في ذلك الوقت، وعمل صلاح الدين وجرديك على إبقاء شاور في احدى الخيام لينتظر عودته (شيركوه). وقد كتب عماد الدين «لقد جاء رسول تلو الآخر من قصر الخليفة للمطالبة برأس شاور، ورفضوا بأن يغادروا المكان حتى حصلوا على ما كانوا يبتغون»[١٦٧].

أجرى عدد من الكتاب العرب محاولات لتفسير القتل وتبريره.

فوفقـاً لرواية نقلهـا أبـو شامـة، ناقش الخليفـة الأمـر مع شيركوه حين تقابلا[١٦٨]. وهناك إشاعة أخرى تقول بأن شاور خطط لإغتيال شيركوه في احدى الولائم الوهمية، إلا أن ولده الكامل حال بينه وبين ذلك[١٦٩]. ويؤكد أهرونكروتز على أهمية دور «مؤسسة القصر» التي خاب ظنهـا تمامـاً في العمـل الفـظيع الـذي ارتكبـه شاور[١٧٠]، وأشـار إلـى الوعـود التـي قطعـت لنـور الـدين، «والتـي قدرتها بعض الروايات بثلث الإنتاج الكامل لمصر» كما أشار إلى أنه بتعين شيركوه «أعطى الخليفـة عهـداً [إلـى نور الـدين] أنـه من الآن فصاعـداً سيكون القائـد الـذي يعينه السلطان، وليست الخلافة، هو المسؤول عن الالتزامات المالية لمصر في زمـن الحرب». من المعقول أن نفترض أنه كان هنالك عدد من مناصري السوريين في القصر. والقاضي الفاضل هو أوضح مثال على الرجل الذي يبّدل أسياده في هذه الفترة وفقاً لمصالحه الشخصية، ولكنه لم يكن الوحيد[١٧١]. إن الأخطار، وهدر الموارد المالية المصرية الذي سببه الصراع الطويل بين الفرنجة والسوريين كان يمكن أن يوضع لها حد لو أن قوة سورية مروّضة موالية للعاضد تمركزت في مصر واستمرت المحافظة على إرضائها بتقديم الهدايا من الأراضي لها، الأمـر الـذي يجعل من مصلحتها الدفاع عن تلك الأراضي ضد الوافدين جميعاً. وهذا لا يمكن الاعتراض عليه، كما لا يمكن إنكار الواقع بأن السوريين كانـوا القـوة الـوحيدة الأقـوى في مصـر. وإذا ما كان أملرك وشـاور معـاً قد وجـدا أنـه من الصعـب مضارعتها، فإن الخليفة، مع رماته الأرمن وفرقه السودان التي يُشك في فعاليتها، وبقايا جيش الوزير، لم يكن في وضع يفرض فيه إرادته. وكما هو بيّن من تفاصيل سيرة شاور ومؤكد من قبل الباحثين[١٧٢]، كانت عائدات الخليفة المالية، وعائدات الوزير منفصلة، ومع أن موارد القصر كان محكوماً عليها أن تتبع تقلّبات الاقتصاد المصري. فكائناً من كان ذلك الذي يجري اختياره وزيراً، ينتظر منه أن يتحمل أكلاف الإدارة. ونتيجة لذلك كانت الحاجة قليلة إلى مبادرة فاطمية، لأنه يصعب رؤية أية نهاية لوضعية كان البأس ونفاد صبر السـوريين فيها مقترنين بفقدان شاور القوّة وما كان معتبراً من قبل معاصريه ضعفاً من جانب العاضد. ولا يمكن الآن إلا أن يكتشف مدى المكائد. إلا أن شاور يستحق على الأقل مقداراً من العطف، إذ لم يكن له في أية مرحلة من مراحل سيرته ما يكفي من القـوة ليعامـل بهـا مع أعدائه. فاحتفظ بموقعه بالجرأة والمكر معاً، وعمل على تلقين صلاح الـدين الـدرس بأن

الثروة بدون القوة العسكرية هي أسوأ من عقيمة.

إتبع الخليفة الآن ما كان يوصف بالعادة المصرية، أي بالعمل على تثبيت شيركوه في منصبه(١٧٣). ومع ذلك فقد استبقى لنفسه سلاحاً بيده وهو إيواء ابني شاور في القصر لمدة وجيزة. وكان قد وعد، وفقاً لوليم الصوري، بأن يحميهما طالما استنكفوا عن عقد محادثات سريّة مع «الأتراك»(١٧٤)، وحينما اخلا بهذا الشرط، قتلا(١٧٥).

وما لم يكن واضحاً لشيركوه وللخليفة هو رد الفعل لدى القاهريين على تعيين وزير سوري. لقد روى ابن الأثير أنه حين دخل شيركوه المدينة لاستلام السلطة، هبت الجماهير إلى مناهضته ولم تكن فرسانه ليهابون شيئاً في العراء من رجال غير مدرّبين(١٧٦)، غير أنه كان للجماهير الغوغائية هذه ميزة على الفرسان في الشوارع الضيقة يمكنها أن تستغلها لفترة قصيرة، وإذا ما أثيرت ضد شيركوه فقد يكون في مصلحة الخليفة أن يقدّم وزيراً بديلاً. ومع ذلك، نجد في رواية ابن الأثير أن شيركوه فرّق الحشود بالطلب إليهم، بموجب صلاحية الخليفة، أن ينهبوا قصر شاور. وليس هناك أي تسجيل آخر للاضطرابات، إلا أن شيركوه كان تواقاً إلى إخلاء القاهرة من اللاجئين الذين قدموا من الفسطاط، والذين أمرهم بأن يعودوا إلى ديارهم. فسألوا بشكل وثيق الصلة بالموضوع عمّا يُفترض بهم أن يستخدموا كملجأ، فرد عليهم شيركوه «بتمنيتهم بوعود معسولة»(١٧٧)، وجرى تدريجيّاً ترحيلهم من القاهرة. وحين زار ابن جبير الفسطاط في نيسان ١١٨٣/ ذي الحجة ٥٧٨ كانت لا تزال آثار النيران الملتهبة، ولكنه كتب أن «وأكثرها الآن مستجد والبنيان بها متصل»(١٧٨).

وحينما سمع نور الدين «بفتح مصر»(١٧٩) أمر بإعلان النبأ وبأن تزيّن جميع مدنه. وسرت إشاعة قوية، مع ذلك، بأنه لم يكن مسروراً حين علم أن شيركوه كان قد قبل المنصب كوزير فاطميّ. وقد نسبت الإشاعة إلى شمس الدين علي الذي كان أخوه مجد الدين الأخ بالرضاعة لنور الدين. وروى شمس الدين أن نور الدين كان أبعد عن أن يكون مغتبطاً وكان يفضل لو أن مصر لم تؤخذ؛ وخطط لتحطيم قوة شيركوه وصلاح الدين، غير أنه لم يكن قادراً على أن يفعل ذلك؛ «وغالباً ما يجد المرء في رسائله إلى العاضد الماحات بأن شيركوه يجب أن يُرسل

بعيداً، ولو أنه يستطيع قول ذلك في العلن لفعل ذلك». وعلى سبيل التوكيد، اقتبست جملة كتب فيها نور الدين عن الحاجة التي شعر بها جيشه إلى وجود شيركوه في سوريا[١٨٠]. وقد تكثفت الإشاعات من هذا النوع حوالي نهاية حياة نور الدين، حيث كان هنالك تبرير لها أقوى. أضف إلى ذلك أنه في هذه الفترة الباكرة بالكاد كان يتوقع من شيركوه أن يتحدى سلطة الخليفة. ولعله كان يفضل بأن يترك شاور كرئيس صوري، ولكنه بالتأكيد لم يكن يرغب أن يعود رجاله من حيث أتوا ويتركوا مصر للفرنجة.

حتى لو أن شيركوه نفسه قد فكر بعزل الخليفة، فلم يكن لديه سوى فرصة ضئيلة، لأنه مات في الشهر الثالث من ولايته، أي في ٢٢ جمادي الآخرة/ ٢٣ آذار، وبشكل مفاجىء بما يكفي للسماح إلى مدوني الأحداث بأن يشيعوا أنه مات مسموماً. وكانت هنالك تفسيرات أخرى أكثر بساطة. كان لديه ولع بأكل ما سماه ابن شداد «باللحوم الغليظة»[١٨١]، وكتب أبو شامة بأنه كانت لديه شهية مشرهة[١٨٢]، وكان «يحب أكل اللحم، مثابراً على فعل ذلك في الليل وفي النهار»[١٨٣]. وقد أفضى هذا إلى سلسلة من الأمراض وسقط في النهاية ميتاً على أثر وصفة لجوفنال تؤدي لموت مفاجىء، ألا وهي حمّام ساخن بعد الأكل. وخلف وراءه خمسمئة من مماليكه، هم الأسديّة، بالإضافة إلى مبلغ كبير من المال، وخيول ودوابّ نقل، كما أنه أورث إلى كل من خلفه في السلطة فرصة ملائمة لتغيير نمط السلطة في مصر.

أخبر صلاح الدين برسالة تعزية بعث بها إلى ناصر الدين بن شيركوه، أن أملرك ترجّل عن فرسه لدى سماعه النبأ ليقدّم الشكر لله وأنه قال: «اليوم سأبدأ بالرحلة إلى مصر»[١٨٤]. وفي الواقع، لم يكن الفرنجة مستعدين للزحف مرة أخرى، إلا أنهم والمصريون معهم كانوا لا بد تواقين إلى رؤية كيف سيكون رد فعل السوريين على موت قائدهم. فلم تكن القوة السوريّة متجانسة ولا منتظمة تنظيماً صارماً، وذات سلسلة قيادية واحدة. فالتجمعات العرقية الرئيسة كانت تجمعات الأتراك والأكراد. وكان شيركوه قد جند بعض العساكر، ففقدوا الآن سيدهم ودافع رواتبهم. وكان مماليك شيركوه، من الناحية النظرية، جزءاً من ملكيته؛ ومع أن النظام المملوكي يدل ضمناً على العبوديّة، فلم يستلزم استسلاماً ذليلاً، وكان بالإمكان اعتبارهم قيمين على مصالحهم الخاصة. أضف إلى ذلك

أنه كان هنالك الأمراء الذين قدمهم نور الدين. فقد عُهد بقيادتهم إلى شيركوه، غير أنه ليس هنالك قواعد ثابتة لسوابق تفرض ما ينبغي حدوثه لدى وفاته. وتبدو مثل هذه الحالة للوهلة الأولى حبلى بالكوارث، إلا أن عواملها المسببة للخلاف والشقاق كانت متوازنة بالفائدة الذاتية الجماعية. فقد كان السوريون على حافة الثروة، وكانت المكاسب ضخمة إلى حد كبير، وواضحة إلى درجة تسمح بقيام منافسة طويلة الأمد.

وبالرغم من أن أمراء نور الدين يستطيعون، من الناحية النظرية، تعيين قائد جيش يخصهم ليحل مكان شيركوه، فقد كانت الوزارة من شأن الخليفة. ولم يميّز المؤرخون المعاصرون، من حيث الممارسة، تمييزاً واضحاً بين المنصبين[١٨٥]. فلقد جعل سقوط شاور الأمر واضحاً؛ بحيث أن السوريين في الوقت الحاضر، كانوا يشكلون القوّة العسكريّة المسيطرة في مصر، وكان من المعقول الافتراض بأن خليفة شيركوه سيقوم بدوريه، بالرغم من أنه قد تكون هنالك دوافع وأسباب للخلاف حول كيفية تعيينه، ومن هو الذي سيعيّنه. ويروي ابن الأثير، وهو يدوّن مرّة أخرى الحجج التي يعتقدها ملائمة، أن الخليفة نفسه اختار صلاح الدين، بعد أن أخبره مستشاروه: «بأن لا أحد أضعف أو أصغر من يوسف»[١٨٦]. وأردف: «لا أحد من الأمراء الذين التمسوا المركز لأنفسهم أطاعوه أو خدموه»، ولكنه، وفقاً لهذه الرواية، وبعد بعض المساومة، كان في النهاية قد قبلته الأكثرية. قد يكون مثل هذا التفسير قابلاً للتصديق إذا ما قبلت المقدمة المنطقية بأن صلاح الدين، بالرغم من البابين والاسكندرية، كان يمكن أن يعتبر، على نحو معقول، الأضعف بين الأمراء السوريين. وليس ما يدعو إلى الدهشة في أن لا يكون هذا قد قُدّم من قبل مادحيه ومؤنبيه. لقد كتب الوهراني بعد وفاة شيركوه «أجمع الناس بعد موته على تخليدها في أهل بيته، لما يعلمون من رياستهم وحسن سياستهم وما يخبرون عن سماحهم وطول رقامهم»[١٨٧]. وعماد الدين هو الأقل إطراء، والأكثر تفصيلاً. فقد كتب: «لما فرغ العسكر بعد ثلاثة أيام من التعزية اختلفت آراؤهم واختلطت أهواؤهم، وكاد الشمل لا ينتظم والخلل لا يلتئم، فأجمع الأمراء النورية ... وعقدوا لصلاح الدين وقالوا: هذا مقام عمه وألزموا صاحب القصر بتوليته»[١٨٨]. وكان هنالك عدد من المرشحين الآخرين للمركز، يقودهم خال صلاح الدين، شهاب الدين الحارمي، والأمير التركي عين الدولة الباروقي،

الذي كان الأعلى مقاماً ويملك حاشية كبيرة من الأتباع . والمرشحان الباقيان وهما سيف الدين المشطوب وقطب الدين خسرو، كانا كرديين . وروى ابن الأثير الذي يتفق مع عماد الدين على أسماء المرشحين أن دور الوسيط كان قد لعبه كردي آخر، هو ضياء الدين عيسى .

انه، بالطبع، لمن الممكن أن يكون مستشارو العاضد قد اختاروا صلاح الدين مسبّقاً على أمل أن يشقوا صفوف السوريين . ومع ذلك، فلا يمكن أن يكون البرهان أفضل من قيل وقال، وتطابق الحجج التي يمكن الدفاع عنها . ولا بد من القبول بأنه على الرغم من أن المنصب قد تعقد بسبب المنافسات الفرديّة، فإن معظم السوريين لا بد وأنهم كانوا يريدون قائداً كفوءاً يمكنه تأييد قضيتهم .

هنا، كان صلاح الدين مرشح حل وسط واضحاً . فقد كانت مؤهلاته العسكرية بفضل سجله في الحملة المصريّة الثانية، خالية من الأخطاء أو العيوب . وكان بالإمكان إثارة شهاب الدين وعين الدولة الواحد ضد الآخر . وكان المشطوب وخسرو الكرديان دونهما منزلة ويمكن إقناعهما بدعم رفيقهما الكردي صلاح الدين بدلاً من عين الدولة، في حين أن شهاب الدين سيساند بطبيعة الحال ابن أخيه إن لم يستطع هو الحصول على المنصب لنفسه . وفي النتيجة، ومهما كان الموقف الفاطمي، فلا يمكن لعماد الدين أن يجانب الصواب في إشارته إلى أنه بعد المفاوضات كان هنالك دعم بالإجماع تقريباً لصلاح الدين بين السوريين . وكان أكثر الاستثناءات بروزاً عين الدولة الذي غادر إلى سوريا قائلاً: «لن أكون أبداً في خدمة يوسف»[١٨١] .

٢ - وزير مصر

إن تعيين صلاح الدين وزيراً للخليفة الفاطمي في بلد ليس له به صلة ، ان من حيث مولده أو تربيته، أبرز للعيان، بنحو مقبول، إتحاد حسن طالع صلاح الدين وقدرته السياسية وهو لا يزال في مطلع سيرته. وكان أيوب ونور الدين قد أحيلا إلى الظل: فقد لعب شيركوه وشاور، كممثلين مساندين، دوريهما التمهيدين ورحلا. وكان هذا هو الدور الذي لُمح إلى صلاح الدين بأن يلعبه، إلا أنه بقي بنظر المراقب أكثر بقليل من صورة ظلّية. فصفاته القياديّة، واهتمامه بمرضاه وبحلفائه، وممانعته المزعومة في العودة إلى مصر، واعتقاله القاسي لشاور، يمكن لهذه الأفعال جميعاً أن توضع الواحدة منها إلى جانب الآخر، ولكن لا يمكنها أن تؤلف صورة موّحدة. إذ لا يوجد له رسم واضح وضوح اللوحة التي قدمها هيو صاحب قيسارية للعاضد: المديد القامة الداكن البشرة، بوجهه الصبوح وأول زغب الرجولة في خديه[١]. وليس هنالك أي صورة على الإطلاق للرجال الذين كانوا يحيطون به. كان الأمراء المصريون، في نظر الفرنجة، «تافهين مخنثين»[٢]، في حين كان السوريون يذكرون بصورة رئيسة لعنفهم. وحتى عماد الدين كتب فيما بعد عن «أصحاب صلاح الدين الغلاظ»[٣]؛ ولاحظ المؤلف المسيحي سويروس بن المقفع سلبهم ونهبهم خلال حملة شيركوه الأولى[٤]. وبالرغم من إمكان إعتبارهم كأناس واقعيين الذين قبلوا القوة القاهرة كمبدأ عمليّ صالح فلم يثوروا أو يتمردوا على الحكام الناجحين، فقد كان صلاح الدين في هذه المرحلة من حياته كمن يمسك ذئباً من أذنه. ومهما كان من ظلمات في الظل، فقد كانت

الوضعية المباشرة كافية الوضوح. فتعقيد القوى التي أثرت على مصر بوضعها كدولة إسلامية، وقوة بحر متوسطية، ومركز لكثافة السكان، ومصدر للثورة... جميع هذه عملت على مستوى كان صلاح الدين لم يبلغه بعد. كان يتمتع بقوة أكبر واستقلالٍ ظاهري في عمله أكثر من أي وقت مضى، إلا أن أفقه كان بالضرورة محدوداً بحكم مشكلاته الخاصة. فقد كان في خدمة نور الدين السنّي والعاضد الشيعي كليهما، ولكنه كان النصير الفعال للسوريين مباشرة. وقد لا تكون لملاحظته الخاصة - «لا علاقة مع شاور، ولا سيما إذا راوغ وناور»[٥] - ملاحظة حقيقية إلا أنها تحمل في أساسها واقع أن السوريين كانوا يسعون، على نحو يمكن ملاحظته، إلى موقع مسيطر في مصر. ويتضمن هذا الأمر، في أبسط حالاته، مجرد إستبدال فريق من الأمراء والإقطاعيين بفريق آخر. حتى أنه لا يستلزم بالضرورة تدمير الخلافة الفاطمية، غير أنه يتطلب عملاً سريعاً من أجل تركيز العداء بواسطة التنافر الديني.

نصب صلاح الدين وزيراً في ٢٥ جمادي الآخرة/ ٢٦ آذار. ووفقاً للمصادر[٦] العربية، «تاب عن الخمرة، وعدل في اللهو وتقمص بلباس الدين»[٧]. أما بالنسبة للغربيين فقد وضعت هذه الميزة على نحو ينتقص من قدرة: «حامي العاهرات الدائم ذاك، الذي كانت سلطته بين المواخير، وحملاته في حانة، ودراسته بين النرد والثوم، ارتفع فجأة إلى فوق؛ انه يجلس بين الأمراء، وحتى انه أعظم من الأمراء»![٨] لقد تلي أمر تعيينه، على الأمراء المصريين والسوريين، وحتى انه اعتلى مقعده في منصب الوزير. وفي محاولة لاسترضاء هؤلاء الخصوم المتنافسين أضيفت إشارة إلى المصريين تقول: «هؤلاء هم مساعدو الخليفة في الغرب شأنهم شأن جنودك في الشرق وكلا الفريقين يكونان جماعة واحدة في خدمته ضد أولئك الذين يقاومونهم»[٩]. ولم يستطع هذا أن يخدع أحداً، وليس عجباً ان أرسلت الرسائل إلى سوريا تعبر عن الحنين للوطن. فقد كتب عماد الدين: «إن أصحابنا، وان ملكوا ونالوا مقاصدهم وادركوا، حصلوا بين أمة لا يعرفونها، بل ينكرونها ولا يألفونها ورأوا وجوها هناك بهم عابسة»[١٠].

وفيما بعد اعطى صلاح الدين وصفاً منمقاً لمصاعبه وأساليبه في رسالة بعث بها إلى بغداد. فقال إن الشعب المصري يتخذ موقفاً وديّاً منه بسبب نصرته للدين الحق، ولواقع أنه خلّصه من العبودية، إلا أن البلاد تحتوي على جيوش غنية

وموحدة عديدة وهي أشد خطراً على المسلمين من الكفار، ولقد حرّفت الشريعة السماوية «بالتأويل» والشك المموّهين تحت اسم آخر. إن هنالك قوّة كبيرة من الأرمن المسيحيين، وأكثر من مئة ألف من السود الذين لا يعترفون بآله آخر سوى الخليفة (الفاطمي). فالسرية والدهاء هما أمضى سلاح يستخدم ضدهم من القرار الصريح ويجب التعامل معهم تدريجياً، لأن حد السيف يفلّه المبرد[١١].

كان صلاح الدين هنا مهتماً بتصوير مصاعبه بأكثر الألوان كتابة، غير أنه كان يشعر بلا ريب بالحاجة إلى أن يعمل بعناية وحذر، فلذلك لم تحمل الأشهر القليلة الأولى من وزارته سوى القليل من الأحداث العنيفة أو الممتعة. لقد حاول أن يكسب ود الشعب المصري، منفقاً من أجل ذلك الأموال التي كان شيركوه قد جمعها، «وساس الرعية وأظهر لهم من العدل ما لم يعلموه»[١٢]. وقد قيل بأنه شرع في ترحيل الجنود الفاطميين عن القاهرة، بادئاً بفرق المشاة[١٣]. ولكنه شعر انه في حاجة إلى دعم أكثر وتوقاً مما كان بالإمكان الحصول عليه من المنافسين المحتملين بين الأمراء السوريين، فكتب إلى نور الدين «يطلب أنّ يرسل اخوته وأهله»[١٤] من سوريا.

في هذه المرحلة عادت الاشاعات حول عداء نور الدين. فقد علم أبن أبي طي من والده أن نور الدين امتعض من تعيين صلاح الدين وزيراً، وقال: «كيف أقدم صلاح الدين أن يفعل شيئاً بغير أمريء»[١٥]. وقد حرر نور الدين عدة رسائل بهذا الخصوص، وفقاً لتلك الرواية، غير أن صلاح الدين لم يعر أي التفات بما قال، بدون أن يتخلّى مع ذلك عن ولائه. ويضيف أبو شامة: «والذي انكره نور الدين هو افراط صلاح الدين في تفرقة الأموال واستبداده بذلك من غير مشاورته»[١٦]. لقد ذهب نور الدين بعيداً وفقاً لابن الفرات، إلى درجة أنه أصدر أمراً للأمراء السوريين في مصر بأن يرحلوا عنها[١٧]. ثم إن انتزاع اقطاعات حمص ورحبة (الخريطة ٨) من ناصر الدين بن شيركوه، سجل لعلامة أخرى عن عدم رضاه.

ويمكن إثبات جزء على الأقل، من الأسس الواقعية لهذه الشائعات. فقد خسر ناصر الدين فعلاً إقطاعات أبيه التي حصل على تل باشر كبديل مؤقت لها. ثم اعيدت اليه الرحبة فيما بعد، غير أنه ليس من الواضح متى تم ذلك. اضف إلى ذلك أنه كان من الطبيعي أن لا يعهد بمكان هام مثل حمص إلى رجل غير مجرّب،

فجزأ نور الدين، في الواقع، المسؤولية، بإعطاء المدينة إلى الأمير فخر الدين بن الزعزاني، وترك أحد ضباطه هو مستولياً على القلعة. وقد غادر بعض الأمراء السوريين مصر فعلاً، ولوحظ أن عين الدولة الباروقي عاد إلى وطنه في خيبة أمل، فاعتبر نور الدين ذلك «في غير مصلحته»[١٨]. وغادر أيضاً قطب الدين خسرو وهو أحد المتنافسين على الوزارة، وكذلك فعل عز الدين جرديك الذي كان قد ساعد صلاح الدين على اعتقال شاور. ويمكن أن يكون نور الدين، بالطبع، مرتاباً بصلاح الدين. ففي ١٠ شوال/ ٧ تموز أرسل تورانشاه، وهو الأخ الأكبر لصلاح الدين، من دمشق[١٩]، فوصل القاهرة في ٣ ذي القعدة/ ٢٩ تموز. وبعيد وصوله اتخذ صلاح الدين خطوته الحاسمة الأولى.

كان القصر الفاطمي يشكل مكاناً ممتازاً لحبك المؤامرات، فلم يكن مستغرباً أن يكون مركز المكائد خلال مرحلة التنازع على الوزارة التي ربحها صلاح الدين[٢٠]. إن الرواية الرسمية للمؤامرة الأولى (المدونة أخبارها) ضد صلاح الدين هي أن جماعة من المصريين الساخطين بما فيهم جنود وامراء، تشكلت حول الخصي مؤتمن الخلافة وهو أحد المدنيين الأقوياء المتحكمين في القصر[٢١]. وقد قيل بأنهم أحسوا بأثر الاجراءات التي اتخذها صلاح الدين بتحويل الأرض إلى السوريين، فقرروا نتيجة لذلك دعوة الفرنجة للعودة، فيزحف عندها صلاح الدين من القاهرة لملاقاة القوة المهاجمة، فيتمكن المتآمرون حينئذٍ من تدمير حاميته والانقضاض عليه من الخلف. فكتبوا بذلك إلى الفرنجة، غير أن تركمانياً يقظاً، وهو أحد رفاق صلاح الدين لاحظ في بلبيس رجلاً يرتدي أسمالاً بالية ولكنه يحمل نعلين جديدين. ألقي القبض على الرجل، ووجدت الرسالة مخبأة في الصندل. وقد أرشد خطها المحققين إلى كاتب يهودي، لم يجد صعوبة في التخلي عن دينه أثناء التحقيق، واعتنق الاسلام ثم كشف المؤامرة. اخفى صلاح الدين علمه بالمؤامرة بغية تهدأة شكوك المؤتمن. وبقي المؤتمن في القصر لبعض الوقت، ثم أنزل بعدها عدد حراسه، وذهب لزيارة ملكية يقتنيها على مسافة ١٠ أميال (١٦ كلم) إلى الجهة الشمالية من القاهرة، وقتل هناك على أيدي رجال صلاح الدين، وكان ذلك في ٢٥ ذي القعدة/ ٢٠ آب.

هنالك شكوك حول صحة هذه الرواية. أما وقد قوي صلاح الدين الآن بتورانشاه فلا بد أن يكون قد اعتقد بأنه آن الأوان لتنظيف القاهرة من أعدائه. فحكاية النعلين

وارتـداد اليهـودي عن دينـه لها مسحـة حكايات ألف ليلـة وليلـة، وإشارة صلاح الدين نفسه إلى الدهاء الذي عليه أن يتصرف به توحي بأنه لم يكن بعيداً عن تلفيق الدليل. ولكن، وكما بيّن فيما بعد، فقد كان مقتنعاً بالنقطة الأساسية وهي أنه إذا اضطر إلى الخروج من القاهرة ليواجه هجوماً، فإن أعداءه سيعلنون العصيان وراءه.

كانت الفرق السودانية الفاطمية من أشد اعدائه هولاً ورعباً. وقد قدّر عماد الدين عددهـا الذي بلغ نصف العدد الذي خمنه صلاح الدين، فجعلهم ٥٠,٠٠٠ رجل، وذكر دورهـم في إثـارة الشغـب في القاهـرة، و«إنهـم كانـوا إذا قامـوا على وزير قتلوه»[٢٢]. ثم أضاف: «فحسبوا أن كل بيضاء شحمة وكل سوداء فحمـة»[٢٣]. لقد استغلوا الوضع المضطرب لينشروا طريقتهم الخاصة من الفوضى. وقـد ذكر الأرمني المسيحي أبو صالح بأنهم ازدادوا «وقاحة وعنفاً»؛ «وقد امتدت أيديهـم وطالـت حتى قطعـوا الطرقـات واستولـوا علـى أمـوال المسافـرين، وأراقـوا دماءهم»[٢٤].

وفي اليوم الذي تلا وفاة المؤتمن اتخذوا لأنفسهم موقعاً في الساحة الكبرى في القاهرة بين القصرين الغربي والشرقي. وقيل إنه هناك انضم اليهم عدد إضافي من أعداء صلاح الدين بما فيهم أمراء مصريون، وناس من عامة الشعب[٢٥]. وكان صلاح الدين قد حشد قوته في بلاط الوزير إلى الجهة الشمالية الشرقية من القصر الشرقي. وكان الآن يواجه احتمال القتـال علـى أرض معـركة لم يكن هو الـذي اختارها، وتطل على جناحي جيشه أبنية يحتلها جنود القصر الذين يمكن في أي وقت أن يشتركوا في القتال ضده. ولم يكن لديه خط رجعة آمن، كما كان يقابل اعـداداً هائلـة. ولمـا كان، من جهـة ثانية، قد عَجَّـلَ في حدوث الثـورة بقتلـه المؤتمن، كان من الممكن الافتراض بأنه لا بد قد قام بالاستعدادات الكافية، وقد تبين فيما بعد أنه كان لديه من الرجال ما يكفي لصد هجوم أماميّ، ولأن يطوّق أعداءه. ولعله قصد استبقاء نفسه في الاحتياط، من أجل القيام بهذه المناورة.

ولقد جاء تورانشاه، وفقاً لرواية متأخرة، يخبره أن العبيد كانوا على وشك القيام بالهجوم، فأغضبه صلاح الدين بانتظاره رؤية ما سيفعله الخليفة[٢٦]. وقـد

يكون صحيحاً أن صلاح الدين كان يراقب موقف القصر، ولكن من المحتمل أن تقديراً تكتيكياً وليس تأخراً[٢٧] هو ما جعله يترك تورانشاه، أو، وفقاً لروايات أخرى، أبو الهيجاء البدين، مسؤولاً عن القتال الذي انفجر الآن في الساحة. استمر القتال يومين، وقيل إنه في نهايتها قام عدد من رماة الخليفة من الأرمن برمي السوريين من نقطة مؤاتية في القصر[٢٨]. وربما كان هذا ما شكل أزمة المعركة، لأن رمي النار على طول خط الجند من أسوار القصر يمكن أن يعرض الموقع السوري للخطر. فصدر الأمر إما من تورانشاه أو من صلاح الدين لرمي الأرمن بالشعل النفطية، وفي هذا الوقت خرج أحد ضباط الخليفة (زعيم الخلافة) ليبلغ تورانشاه رسالةً تقول «دونكم والعبيد الكلاب، أخرجوهم من بلادكم». فاجأ هذا الأمر العبيد لأنهم ظنوا، وليس بدون وجه حق، أن الخليفة سيكون بجانبهم، كما أن ذلك انقذ السوريين من خطر هجوم جانبي[٢٩]. ولم يكن بإمكان الزنوج الآن الصمود في العراء، فأجبروا على الاندفاع في طريق القاهرة الرئيسة، أي قصبة القاهرة التي تمتد من الساحة نزولاً إلى باب زويلة (أنظر خريطة القاهرة). وصمد احتياطو صلاح الدين في رؤوس الشوارع الجانبية لمنع العبيد من الالتفاف وتفادي الملاحقة. وقد توقفوا في سوق (السيوفية) حوالي ٦٠٠ ياردة (٥٥٠ م) قبل باب زويلة، إلا أن هذا الملجأ دمّر حرقاً فاندفعوا إلى باب زويلة نفسه الذي أغلق من دونهم. وقد أرسل صلاح الدين في وقت ما خلال هذا القتال رجالاً كي يحرقوا حي المنصورة حيث كانوا يقطنون. وقد أجهز هذا العمل على معنوياتهم وأخذوا يطلبون الرحمة في الابقاء على حياتهم. ويتفق المؤرخون العرب على أن طلبهم قد استجيب ومن الصعب أن نرى كيف أنهم بخلاف ذلك استطاعوا أن يجلوا عن القاهرة، ولكن إما أن تكون هنالك حلقة مفقودة من القصة وإما أن يكون السوريون قد تصرفوا بطريقة تخلو من الرحمة. لأنه، حينما انسحب الزنوج من القاهرة إلى الجيزة، لحق بهم تورانشاه عبر النيل وأبادهم عن بكرة أبيهم بحيث لم ينج منهم إلا القلة القليلة. ومهما كان تبرير هذا العمل فقد كان من النجاح بحيث أن صلاح الدين لم يعد أبداً مضطراً إلى مواجهة أي تحدٍّ عسكري في القاهرة.

إنتهى عصيان الزنوج في ٢٨ ذي القعدة/ ٢٣ آب[٣٠]، إلا أن صلاح الدين كان على موعد مباشر تقريباً مع خطر آخر. إذ أن الأمبراطور مانويل، كما روى الرواة،

الـذي دفعـه، وفقـا لما أورده نيكيتـاس[٣١]، تعطشـه إلى المجـد في غـير أوانه، ان اقترح غزواً مشتركاً لمصر بين الفرنجة والبيزنطيين. فأرسل بعثة دبلوماسية إلى مصر، وفقاً لما أورده يوحنا كيناموس، لتطلب إتاوة، وهدد بالحرب إذا ما رفض طلبه[٣٢]. وما أن شارف صيف ٥٦٥/ ١١٦٩ على الانتهاء حتى كان اسطوله في عرض البحر بأمرة اندرونيكوس كونتستيفانوس. فأرسلت ستة مراكب حربية إلى فلسطين، مع أموال «فرسـان القدس»[٣٣]. وأبحر اندرونيكوس مع بقية الأسطول إلى قبرص، حيث قابل على مبعدة من شواطئها دورية مصرية مكونة من ست سفن. فأسر منها سفينتين، غير أن السفن الباقية فرت تحمل النبأ إلى مصر. ورفض املرك دعوة بالمجيء إلى قبرص، وبعد بعض التأخر اعاد الاسطول البيزنطي كله تشكيله من جديد، مبحراً أولاً إلى صور حيث وصلها في نهاية أيلول، ثم بعد ذلك إلى عكا. قدر نيكيتـاس عددهـا بما يزيد عن ٢٠٠ مركب[٣٤] بينما حسبهـا وليم الصوري ١٥٠ مركباً حربياً ذا مجـاذيف، و٦٠ طريدة «ذات أبـواب في مؤخراتهـا» لنقل الخيول، و ١٢ مركباً شراعياً ضخماً محملاً بالذخيرة والمؤن وآلات الحصار[٣٥]. أما صلاح الدين فبالغ في العدد وكتب أن ١٠٠٠ سفينة وصلت إلـى الشواطـىء المصرية[٣٦].

كان أموري قد قرر أخذ الطريق البرية. وقد ترك بعض الجنود لمراقبة نور الدين الذي كان يرمم بسلام أحد المساجد خارج دمشق،[٣٧]، وحشد باقي الجيش في عسقلان، في حين ابحر البيزنطيون قدماً. كان الوقت الآن في منتصف شهر تشرين الأول وكان معروفاً تقليدياً أن فصل الابحار في البحر المتوسط ينتهـي في الأسبوع الأول من كانون الأول[٣٨]. وكان هدف الحملة الأول دمياط، وقد جرى اختيارها، كما افترض ابن شداد، لأنه يمكن مهاجمتها من البر والبحر[٣٩]. وبالنسبة لاملرك، على الأقل، لم يكن هذا سوى بداية، ذلك لأنه قد سبق له ووعد البيزيين في شهر محرم/ أيلول بإعطائهم امتيازات في القاهـرة والفسطـاط[٤٠]. وفـي ٢٥ تشرين الأول / مستهل صفـر وصل إلى الفرما، وبعد مضي يومين اثنين وصل إلى دمياط، وعسكر إلى الشمال بين المدينة والبحر (خريطة ٧). وكان البيزنطيون قد سبقوه، وانعكس فساد التحالف في اشارة كسيناموس إلى أنه تأخر عن سابق قصد كي يؤمّن أنهم سيضطرون إلى تحمل شـدة القتال وحدهم[٤١].

ولعل صلاح الدين كان يتوقّع هجوماً، إلا أنه لم يكن واثقاً اين سيقع. وقد

أورد وليم الصوري أن دمياط كانت خالية من الجند تقريباً، ويمكن أن تسقط في هجوم مبكر، غير أن ثلاثة أيام انقضت ولم يحصل أي هجوم، فضاعت الفرصة السانحة[٤٢].

ويظهر أن صلاح الدين نفسه كان قد قرر عدم مغادرة القاهرة رغم انتصاره في ذي القعدة/ آب، فأرسل فيضاً من التعزيزات برئاسة ابن أخيه تقي الدين، وتضم خاله شهاب الدين الحارمي. وقيل بأن نفقات الجنود الذين أرسلوا من القاهرة قد بلغت ما يزيد على ٥٥٠,٠٠٠ دينار[٤٣] وروي عن صلاح الدين بأنه أطرى كرم الخليفة لارساله له خلال الأزمة ١,٠٠٠,٠٠٠ دينار، بالإضافة إلى هدايا أخرى[٤٤]. لقد أحدثت الأموال نتائج فعالة، وكتب وليم الصوري يقول بأنه وصل عدد هائل من الجنود المسلحين تسليحاً جيداً بحيث أن المسلمين كانوا قادرين على الاحتفاظ بجنودهم ليس وراء أسوار المدينة فحسب، بل في العراء أيضاً[٤٥]. وقد أرسل نور الدين معونة من سوريا، ضمت قطب الدين خسرو، خصم صلاح الدين السابق. وكتب عماد الدين يقول: «ان للنجدة، قليلة كانت أو كثيرة، حيث يورث شمل العدو ثبثيثا. وحبل ذي العثو تبثيثا»[٤٦]. ونرى تلميحاً إلى هذا في إشارة نيكيتاس إلى الإشاعات الخاصة «بالعرب المشرقيين والاعداد الكبرى من الخيول الاشورية المأجورة التي هي في متناول اليد»[٤٧]، التي أزعجت المحاصرين في نهاية الحصار.

أخذ البيزنطيون والفرنجة يلومون بعضهم البعض. ففي نظر الفرنجة، كان حلفاؤهم «أضعف منهم بالطبع»[٤٨] في حين أن البيزنطيين استاؤوا من «الفرسان الفلسطينيين المتغطرسين المستبدين[٤٩]». ويقول نيكيتاس إن اندونيكوس كان قد رغب في القيام بهجوم سريع يستخدم فيه السلالم لتسلق الجدران، إلا أن املرك ألح على الانتظار ريثما يتم الانتهاء من بناء برج للحصار[٥٠]. وقد كان جزء من السور قد تهدّم بفعل ضربات المنجنيق، غير أن وليم الصوري يزعم أن قصفهم كان موجّهاً توجيهاً خاطئاً[٥١]. وكانت الحصص من المؤن المخصصة للأسطول البيزنطي محسوبة، وفقاً لرواية نيكيتاس، لفترة ثلاثة أشهر تبدأ في آب، وكانت الآن موشكة على النفاد[٥٢]. وحين طلب القادة البيزنطيون قروضاً ليدفعون منها رواتب لرجالهم ويشترون الطعام، رفض الفرنجة طلبهم. فاضطر الجنود البيزنطيون لأكل جذور النبات. واستمر الحصار «الفارغ والأحمق»[٥٣] حوالي

خمسين يوماً. وأخيراً، كما يرى وليم الصوري، جرى ترتيب شروط الصلح بواسطة الجهود التي بذلها الفرنجة و«مقدمو الأتراك»، وخصوصاً شهاب الدين[٥٤]. واعتبر هذا الصلح غلطة اقترفها أملرك. فقد زعم أن الهجوم اليائس الذي قام به اندرونيكس كان على وشك النجاح حين عمد املرك إلى ايقاف القتال[٥٥]. وبعد مهلة قصيرة تلاقى خلالها المحاصرون والمحاصرون وتاجروا مع بعضهم البعض، أحرقت المعدّات وفي ٢١ ربيع الأول / ١٣ كانون الأول غادر الحلفاء عائدين إلى ديارهم. وكانت الضربة الأخيرة أن هبت العواصف على الاسطول البيزنطي فشتتت سفنه واغرقت العديد منها.

وحكى وليم الصوري أنه كانت هنالك شروط سريّة ملحقة بمعاهدة السلام[٥٦]؛ وروى نيكيتاس أن المسلمين أرسلوا بعثة دبلوماسية لعقد الصلح تحمل الهدايا للامبراطور مانويل[٥٧]. إلا أن نتف الذرائع لا يمكنها أن تعوّض عن فشل الحملة التي وفرت لصلاح الدين النجاح الذي كان يحتاج إليه لتوطيد مكانته. وقد كتب فيما بعد أنه قابل عدويّن، أحدهما خفياً والآخر ظاهراً، هما الخثناء والكفار؛ وقد هزم ٢٠٠,٠٠٠ فارس وراجل «وحطم آمال المصريين والفرنجة والإمبراطور البيزنطي والجنوبيين وأعراق الروم» - ومن المفترض أن يكونوا البيزيين والبنادقة[٥٨]، والعدو المتخفي كان المصريين والخبثاء، وهذه الإشارة تؤيد قول المقريزي بأن صلاح الدين إستغلّ الحصار لينفذ حكم الإعدام بعدد من القادة المصريين لارتيابه بخيانتهم[٥٩]. وكان قد قوي أيضاً بالتعزيزات التي أرسلها نور الدين. وقيل بأن العاضد كان قبلاً قد طلب إلى نور الدين أن يسحب رجاله، تاركاً فقط صلاح الدين وأتباعه الخصوصيين وقد أجاب الآن نور الدين: «إن قنطاريات الفرنج ليس لها إلا سهام الأتراك»[٦٠] وقد إضطلع السوريون مرّة ثانية بدور المنقذين لمصر.

وصل إلى مصر، بعد مضي بضعة أشهر على نهاية حصار دمياط، أيوب والد صلاح الدين. ويروي ابن الأثير بأن صلاح الدين طلبه من نور الدين[٦١]. ومن جهة ثانية روى ابن أبي طيّ أن الخليفة العباسي، المستنجد قد إنتقد نور الدين لتأخره في إصدار الأمر بخلع منافسه الفاطمي، وأن نور الدين قد أرسل أيوب ليلح بهذا على صلاح الدين بإعتباره أمراً مستعجلاً[٦٢]. كلا القصتين يمكن أن تكونا صحيحتين، إلا أن عماد الدين الذي هو المرجع الذي يعوّل عليه أكثر من أي مرجع

آخر في هذا السياق يلاحظ أنه في ربيع ٥٦٥/ ١١٧٠ طلب أيوب الأذن بمغادرة سوريا وقد منحه نور الدين ما طلب، ولكي يدلّل على صداقته له ترك نور الدين نفسه دمشق ليرافقه حتى رأس الماء[٦٣]؛ هذا ما رواه عماد الدين ليس غير. ويشير ابن الأثير أن نور الدين حينئذ إنصرف إلى مهاجمة الكرك ليحوّل إنتباه الفرنجة[٦٤]. غير أنه، في الواقع، وصل أيوب إلى القاهرة في ٢٧ رجب/ ١٦ نيسان في حين أن هجوم نور الدين لم يحصل إلا بعد العشرين من نيسان. أثناء ذلك، وكدلالة على إحترام غير إعتيادي، قابل الخليفة نفسه أيوب خارج بوابة القاهرة الشمالية وهي باب الفتوح، وأنزله في قصر اللؤلؤة[٦٥]. وقد عرض صلاح الدين الوزارة لأبيه، إظهاراً لتكريمه، لكن هذا العرض رفض.

كان أفراد عائلة صلاح الدين قد تجمعوا بشكل قوي في مصر. فخاله شهاب الدين، وشقيقه تورانشاه، وابن أخيه تقي الدين كانوا هناك من قبل. وقيل إن شقيقاً آخر هو طغتكين قد وصل مع تورانشاه[٦٦]، وشقيقاً ثالثاً هو العادل إضافة إلى ابن أخ ثانٍ هو فرّوخ شاه وجدا في مصر بعد ذلك بفترة وجيزة، بالرغم من أن تاريخ وصولهما يلابسه الشك[٦٧]. ثم إن أخ زوجته زين الدين عمر جاء ينضم إليه، كما يبدو، في وقت متأخر من السنة[٦٨]، وزيادة في عدد أفراد الأسرة ولد ابنه البكر في سلخ رمضان/ ١٧ حزيران.

لقد إجتازت وزارة صلاح الدين بنجاح أولى العواصف التي هبت عليها. إلا أنه كلما إزداد صلاح الدين أماناً وإطمئناناً، كلما أصبح محط إهتمام نور الدين. فرغم دعم هذا الأخير له فانه لن يطلق له العنان. فقد يأمره، كإجراء حاد، بالعودة إلى بلاده. ولكن أقل من هذا سيكون الحاح نور الدين في إتخاذ إجراءات مثل الإطاحة بالخلافة الفاطمية. وكانت هذه الإجراءات ضد رأي صلاح الدين أو عكس رغباته. وما زال صلاح الدين من جهته، ميالاً إلى تلمس سبيله بحذر وعناية، وكان من حسن حظه أن إهتمام نور الدين الآن قد تحوّل إلى مكان آخر.

عسكر نور الدين، بعد إنسحابه من الكرك بالقرب من تل عشترا الواقع على مسافة ٢٠ ميلاً (٣٢ كلم) إلى الشمال من درعا (الخريطة ٨) على طريق الشام. وقد وصف عماد الدين الذي كان معه في خيمته في ذلك الحين، كيف أنه أحس فجأة في صباح ١٢ شوال/ ٢٩ حزيران، بالأرض تميد من تحته كبحر هبت عليه

عاصفة[٦٩] هوجاء. ويبدو أن المركز السطحي للزلزال كان في شمالي سوريا. ولم تتأثر دمشق كثيراً، غير أن قلعة بعلبك كانت مهددة بخطر الإنهيار، وقد تضررت حمص وحماة تضرراً بالغاً، وقيل إن نصف مدينة حلب أصبح ركاماً من الأطلال. وانتقل الحلبيون إلى الخيام خارج مدينتهم وكانت الجثث ما زالت تستخرج من بين الأنقاض بعد مضي سنة على الحادث. وقد رأى ميشال السوري في هذا الحادث عقاباً إلهياً لقاء ما أنزل من آلام بالسجناء المسيحيين الذين لم يسمح لهم بالدخول إلى الكنائس في حلب إلاّ أيام الآحاد[٧٠]، في حين أن عماد الدين كتب في رسالة إلى بغداد أن العزاء الوحيد كان أن المسيحيين تحملوا العناء الأكبر لأنهم كانوا في كنائسهم أثناء وقوع الحادث يحتفلون بيوم من أيام أعيادهم[٧١]. كان ذلك اليوم، في الواقع، عيد القديسين بطرس وبولس، وقد كتب وليم الصوري أن لا أحد يستطيع تذكر مثل ذلك الزلزال العنيف، «فلقد دكت إلى الأرض أعظم المدن السورية والفينيقية المشهورة عبر العصور»[٧٢]. وكان الفرنجة والمسلمون معاً قد أصيبوا، وكما قال وليم، بينما كان كل إنسان يخشى غضب الديان، كانوا يخافون أن يصيبوا الآخرين بأذى، فتقيدوا بهدنة قصيرة.

زحف نور الدين شمالاً منطلقاً من عشترا في اليوم الذي تلا الزلزال، وكان قد إنشغل لبعض الوقت بأعمال إعادة البناء. وبعدئذ توفي أخوه قطب الدين الذي كان في حوالي الأربعين من العمر، وكان ذلك في ٢٣ ذي الحجة/ ٦ أيلول، في مدينة الموصل. ولم يكن لصلاح الدين أي يد في هذه الأحداث، إلا أن ما جرى ساعد على تحديد مستقبله. وكان عماد الدين زنكي، وهو أكبر أبناء قطب الدين، قد تزوج من ابنة نور الدين، وعين خليفة لوالده، ولكنه استبدل بعد ذلك بأخيه سيف الدين غازي. وقيل بأن هذا العمل كان نتيجة مؤامرة دبرتها والدة سيف الدين، وهي ابنة تيمورطاش أمير أرتقيي ماردين[٧٣]، والخصي عبد المسيح، وهو المدير الإداري لدى قطب الدين. وكان نفوذ عبد المسيح يثير الحسد، غير أن المنصب حمل المتاعب لصاحبه المسيحي. وقد زعم نور الدين بأنه تلقى «آلاف الشكاوى عنه»[٧٤]، ولذا قرر أن ينتقل إلى الموصل كي يسوي الأوضاع حسبما يشتهي. فإجتاز الفرات عند قلعة جعبر ووصل إلى الرقّة في أول محرم ٥٦٦/ ١٤ أيلول. وكانت هذه قد قاتلت ضده لفترة قصيرة، وبعد أن استولى عليها زحف بعكس مجرى نهر الخابور متجهاً شمالاً إلى نصّيبين، حيث وصل قبل

مطلع صفر/ ١٤ تشرين الأول ببعض الوقت. كان عماد الدين قد أرسل الآن إلى بغداد لشرح أعمال سيده للخليفة - «إني قصدت بيتي وبيت والدي» ليس غير، وذلك من أجل إعادة الأمور إلى نصابها[٧٥] - حيث عاد بعد ذلك ليجد نور الدين وقد تعزّز بجنود من حصن كيفا، يحاصر سنجار التي سقطت في بداية كانون الأول.

سار نور الدين بعدها إلى شمالي الموصل حيث إجتاز جنوده نهر دجلة في مخاضة منظومين كخيطٍ واحد وراء دليل تركماني[٧٦]. وكان سيف الدين وعبد المسيح قد طلبا معونة من الدغز الهمداني ولكن بعد أن اجتاز نورالدين النهر، عزلت المدينة من الناحية الشرقية. فلم يكن هناك أي قتال، ووضعت شروط الصلح بسرعة. ونحي عبد المسيح ثم أرسل فيما بعد شمالاً إلى سواس. ولربما بدا هذا العمل لبعض الكتاب المسلمين بأنه عقاب غير مناسب لمضطهد الأتقياء. وروى أحد المصادر غير الموثوقة أنه إعتنق الإسلام وتغيّر إسمه من «عبد المسيح» إلى «عبدالله»[٧٧]. غير أن القرار الحاسم بالنسبة لوظيفة صلاح الدين كان أن الموصل ينبغي أن تترك إلى سيف الدين، في حين أن أخ زوجة نور الدين زنكي كان عليه أن يكتفي بمدينة سنجار التي هي أقل منها شأناً. وقد نقل عن القاضي كمال الدين الشهرزوري انه أخبر نور الدين أن هذا سيدمر بيته بسبب أن زنكي الأكبر لن يخضع لسيف الدين وأن سيف الدين وهو الملك لن يطيع زنكي[٧٨]. أضف إلى ذلك أن نور الدين لم يثن عن عزمه، فزحف بعد توقف قصير عائداً إلى الغرب ووصل إلى حرّان في ١٥ جمادي الآخرة/ ٢٣ شباط وبلغ حلب في ٥ رجب/ ١٤ آذار. وفي شهر رمضان/ أيار كان في دمشق، ولم يكن هنالك أي إشارة إلى أن أوامر قد أرسلت إليه من مصر، قبل شهر شوال/ حزيران.

وفي نفس الوقت كان صلاح الدين يحكم قبضته على مصر، ويوسع قواعد دعم نظامه. فأعطى والده إقطاعي الإسكندرية ودمياط، وكان تورانشاه في مصر العليا، قد عهد إليه بميناء عيذاب، على البحر الأحمر بالإضافة إلى أسوان وقوص (خريطة ٦)، حيث عين الأمير شمس الخلافة نائباً له، وهو أحد الناجين من موءامرات شاور[٧٩]. وفي القاهرة أمر صلاح الدين بهدم موقع ليبني عليه كلية للمالكين، وهي أقدم المذاهب الأصولية في مصر، وفي نفس الوقت حُوّل سجن في الفسطاط ليصار إلى إستخدامه من قبل الشافعية، مذهب صلاح الدين نفسه.

ولا بد من أن يكون وراء بناء هاتين المؤسستين غرض في إضعاف موقع الفاطميين. غير أنه كان عملاً يدل على الحكمة العامة لدى الحكام المسلمين لأجل كسب استحسان الفقهاء وطلاب العلم. ولم تكن السلطة المنظمة للكنيسة المسيحية منقولة في الإسلام، إلا أن الوظائف التي تعتمد على التفقه في علوم الدين، والشرائع الدينية كانت تجذب الرجال القادرين الصالحين. وكانت وظائفهم الرئيسة إنخراطاً في سلك القضاء والإداريين، غير أنهم كانوا يستطيعون، على نحو أقل واقعية، أن يكونوا همزة وصل بين العسكريين والدولة الإسلامية المثالية.

كان الإسلام، نظرياً، حكومة دينية يقودها أحد خلفاء النبي، الخليفة. ويرى فيه المؤرخون المسلمون نظيراً للبابا، غير أنه كان في الأصل أقرب إلى الأمبراطور البيزنطي القيصري ـ بابوي. وكان جميع المسلمين يكونون مجتمعاً دينياً واحداً، هو الأمّة، التي كانت تتجسد فيها سلطة الإسلام. وكان إتفاق جماع الرأي فيها المرشد إلى العمل المعصوم عن الخطأ. وكمفهوم، وكمدافع عام، وعلى صعيد فردي، كان لهذه الفكرة صحتها، غير أن «الأمّة»، بالمعنى السياسي فكانت إما طوباوية أو غير ذات صلة بالموضوع. وبالكاد استطاعت فكرة الخلافة كنظير للبابوية ـ القيصرية أن تصمد بعد الأيام الأولى للإسلام، وبانهيار أهمية الخلافة، وبتفتتها وتفككها، كان لزماً على القوى التي ستحفظ النظام الإجتماعي أن تُعنّى عبر وحدات إدارية، أصغر، وعملية أكثر.

وكانت هذه الوحدات، على نحو مميّز، قد جرى تأمينها من قبل سلسلة من العائلات أو العشائر، إلا أنه كان هنالك أسس وأسباب واضحة لتحدي سبب أو مبرر مثل وجود هؤلاء الوسطاء في دولة دينية حيث يمكن أن يعتبر بعضهم أو جميعهم كطفيليين فيها. ولكي تتم مقاومة هذا التحدي كان الحكام يحتاجون إلى مساعدة دعاوة دينية وثقافية. فإذا تمكن، مثلاً، أساس حكمهم أن يرتبط إلى أحد أصوليي الإسلام فلن يكون موقعه، حينئذٍ، ضمن الإطار الإسلامي في حاجةٍ إلى تبرير إضافي. هذا هو الدرس الذي علّمه نور الدين بالقدوة في أن حكمه إرتبط في الممارسة وفي الدعاوة بالمفهوم الإسلامي للحرب المقدسة. وقد أظهر صلاح الدين الآن بأنه تأثر بهذا الدرس تأثيراً عميقاً. فقد جمع جنده خارج القاهرة في شهر ربيع الأول/ تشرين الثاني من العام ١١٧٠، حاشداً، كما علم الفرنجة، قوى «من

جميع الأنحاء المصرية ومن أقاليم دمشق، ومضخماً قواتهم المسلحة بعدد من العوام، ومن رجال من الطبقات الدنيا»[٨٠]. وقد تحرّك الجيش، كما ورد في إحدى الرسائل التي حررها الفاضل، من معسكره في بركة الجب التي تقع على مسافة ١١ ميلاً (١٨ كلم)، من القاهرة، وكان ذلك في يوم الخميس ١٥ ربيع الأول/ ٢٦ تشرين الثاني، وفي يوم الثلاثاء الواقع فيه ٢٨ ربيع الأول/ ٨ كانون الأول كان قد وصل إلى جنوبي فلسطين[٨١]. وفي اليوم التالي هاجم هذا الجيش داروم (دير البلح) الواقعة على مسافة ٩ أميال (١٤ كلم) جنوبي غزّة. وكان أملرك قد بنى هناك قلعة صغيرة، واجتذب إليها عدداً من المقيمين، كما روى ذلك وليم الصوري، لأنه كان أسهل على الناس ذوي الوسائل المحدودة أن يكسبوا عيشهم هناك منه في المدن[٨٢]. وكانت إقامتهم قد حدثت في اليوم الأول للهجوم الإسلامي، وكان المسلمون حينئذٍ قد هاجموا بالمنجنيق القلعة نفسها، كما استخدموا النقابين (الخبراء بالألغام) الحلبيين لدكّ أحد أبراجها. وكانت المعركة قد بدأت يوم الأربعاء الواقع فيه ٢٩ ربيع الأول/ ٩ كانون الأول، وفي يوم الجمعة ١٠ ربيع الآخرة/ ١١ كانون الأول ورد نبأ يقول بأن أملرك كان يزحف من غزة متجهاً نحو الجنوب.

تحرّك صلاح الدين الآن نحو الشمال على رأس قوّة قدرها وليم الصوري بأربعين ألف فارس، مرتّبين في ٤٢ «كتيبة»[٨٣]. وقد إعتبر المسلمون، في قتالهم الفرنجة، أنه من الضرورة إعتماد تكوين مرن قائمٍ على وحدات صغيرة ذات اكتفاء ذاتي بحيث أنه إذا إنقض الفرنجة على واحدة منها إستطاعت الأخرى أن تتحرك دونما أي إضطراب أو تشويش فتهاجم جناحي الفرنجة وتضرب مؤخرتهم[٨٤]. وكانت الوحدة التكتيكية هي الطُلْب التي كانت تحدد بأنها فرقة لا تحتوي على أكثر من ٢٠٠ فارس بقيادة أحد الأمراء[٨٥]. فإذا ما حسبت كتائب وليم الصوري بمايتي فارس فإن ذلك سيعطي رقم ٨٤٠٠ فارس، ولا يشمل هذا العدد الخدم والأتباع. إن أرقام وليم هي خاطئة، إلا أنها توضح على الأقل أن المسلمين كانوا يتفوقون عددياً بشكل خطير على أملرك الذي عدّ له وليم ٢٥٠ خيال و٢٠٠٠ من المشاة.

حاصر المسلمون الفرنجة المتقدمين، وفقاً لرواية الفاضل، وانتظروا المعركة المرتقبة التي لم تحصل[٨٦]. ويشرح وليم الصوري أن الفرنجة رهبوا

جانب جحافل العدو، فرصوا صفوفهم. وقام المسلمون بالهجوم بغية شق صفوفهم، إلا أنهم تراصوا أكثر فأكثر وتابعوا زحفهم نحو داروم. وقد أعاق المسلمون تقدمهم حتى مساء يوم الجمعة، ولكن حين لم يقم أملرك بأي قتال أو يستدرج إلى المعركة، تركه صلاح الدين وزحف يوم السبت لمهاجمة غزّة. ويقال هنا بأن مايلز دوبلنسي الذي كان وليم الصوري قد لامه لإعطائه نصيحة سيئة في مصر، قد رفض السماح للمواطنين أن يحتموا في القلعة[٨٧]، فقبض المسلمون على عدد منهم أو قتلوا بعضهم، بالإضافة إلى أخذ بعض الجياد والماشية والذخيرة، وتحرير عدد من سجنائهم. وعاد صلاح الدين إلى داروم في نفس اليوم، ولما كان أملرك لم يحرّك ساكناً، غادر إلى مصر يوم الأحد. ووصل الجيش إلى القاهرة في ٢٦ جمادي الآخرة/ ٢٢ كانون الأول، فاستقبله الخليفة بالترحيب.

لم تكن الحملة على داروم الجهد الوحيد الذي بذله صلاح الدين خلال الشتاء، وهو فصل الحملات في العام ٥٦٦ - ٥٦٧/ ١١٧٠ - ١١٧١، وبالرغم من أن التاريخ والتفاصيل ليسا واضحين، فإنه من المعروف أن صلاح الدين قد هاجم أيضاً واحتل حصن أيلة. وكان هذا الحصن مبنيّاً على جزيرة تقع على بعد حوالي سبعة أميال ونصف الميل (١٢ كلم) من رأس خليج العقبة، والمحاذية لشاطئه الغربي (الخريطة ٧)، ويمر الطريق الجنوبي من سوريا إلى مصر نزولاً عبر التلال الشرقية في رأس الخليج، ويجتاز الأرض المنبسطة في طرفها ثم يصعد خلال ممر منخفض نحو أرض سيناء الخلفية. ولم يكن الحصن الذي كان يعتمد في تأمين المياه على الصهاريج وعلى نافورة في البر الرئيسي، قادراً على تزويد حامية ضخمة بالمياه، كما انه لم يكن، لا في أثناء حملات شيركوه، ولا زمن زحف أيوب على مصر، قد ذكر بأنه يشكل خطراً على مرور المسلمين.

أضف إلى ذلك أنه من البديهي أنه كان يمكن أن يهدد بالخطر فرقاً صغيرة، فعزم صلاح الدين على أن يجعله طريقاً له آمناً وسالكاً.

ونقل عن الفاضل أنه قال ان صلاح الدين أمر بجعل السفن قطعاً تحملها الجمال[٨٨]. وقد واكبتها قوة عسكرية من القاهرة، وهوجم الحصن من البر والبحر. وقيل ان الحصن قد سقط في ١٠ ربيع الآخرة/ ٣١ كانون الأول، بعد أن قتل أفراد الحامية أو أسروا، ثم إحتله صلاح الدين بحامية تابعة له. ولقد ناقضت هذه

القصة، جزئياً، رسالة كان القلقشندي يحتفظ بها، والتي تشير إلى أن الحصن كان قوياً إلى درجة هائلة ولم يكن بالإمكان إحتلاله إلا بعد حصار طويل، ولكن حين عسكر المسلمون قرب شاطىء البحر، طالبت حاميته بالإبقاء على حياتها واستسلمت[٨٩]. ومن المشكوك به أن يكون صلاح الدين نفسه قد كان هنالك في ذلك الوقت. كان من الممكن أن يكون قد غادر القاهرة فور عودته من داروم ووصل قبل ١٠ ربيع الآخرة/ ٣١ كانون الأول، أو أنه كان قد إجتاز سيناء عبر الطريق الساحلي إلى مصر دون أن يعود إلى القاهرة مطلقاً. في الحالتين كليهما، مع ذلك، لا بد من ترقب بعض الروايات في محفوظات المصادر العربية. وفي الواقع، فقد إعتقد عماد الدين أنه كان لصلاح الدين حملتان، إلا أنه أدخل تشويشاً إلى القضية بتأريخه نهاية الحملة الأولى في ١١ ربيع الأول/ تشرين الثاني[٩٠]، وبربطه الثانية بوصول القافلة التي كانت تنقل أعداداً إضافية غير محددة من أفراد عائلة صلاح الدين إلى القاهرة، التي يعود تاريخها أفضل ما يعود إلى جمادي الآخرة/ شباط ١١٧١[٩١]. ولقد ألمح إلى أن أيلة كانت في الواقع الهدف الرئيسي لصلاح الدين[٩٢]، ولكن إذا كان هجومه على الساحل هجوماً مضلّلاً، يصعب أن نرى لماذا سمح إذن لأملرك بالمرور من داروم إلى إيلة قبل أن يكون الحصن قد سقط. ويمكن الإتفاق مع ذلك، على أنه حين كان هو نفسه يزحف على داروم، قد يكون أرسل إلى أيلة قوة معيقة. وإذا ما كانت رسالة القلقشندي صحيحة، فلا بد أن صلاح الدين كان يفكر بحصار طويل، يشترك فيه هو نفسه فيما بعد. أما إذا كان الحصن حينئذٍ قد استسلم بسرعة، فقد يكون قد عزم على أن يزوره حينما أتاحت له الفرصة ذلك، ليشرف على تركيز الحامية، ويمكنه أن يكون قد جمع بين هذا العمل ومهمة مواكبة عائلته إلى القاهرة.

إن حملة ناجحة ووصول تعزيزات عائلية أكبر شجعته على إجراء تغييرات إضافية في مصر، ومع أن الخطى قد تسارعت، فإنه لم يتحرك بتهور. أولاً عمل على ضبط دفاعاته. فقد غادر تورانشاه، حوال منتصف جمادي الآخرة/ شباط، متجهاً إلى مصر العليا في حملة ضد البدو النهابين، والتي استمرت حتى ١٠ رمضان/ منتصف شهر أيار. وقد قام صلاح الدين بنفسه بالزيارة الأولى بعد توليه الوزارة إلى الإسكندرية، حيث أمر بتقوية التحصينات. وعمل على تحسين موقع الإسلام السني بطرد جميع القضاة الشيعة في مصر وباستبدالهم بقضاة

شافعيين. وقد أعطى، بنوع خاص، مركز قاضي القضاة، في القاهرة والفسطاط إلى الشافعي الأشعري صدر الدين بن درباس، وهو كردي جمع في رأي الوهراني، إلى «العقل الرصين والرأي الحصين» «التنزه عن الرشا والولائم»[٩٣]. وقد أسس تقي الدين، ابن أخ صلاح الدين، كلية شافعية أخرى في نصف شعبان/ نيسان. ورأى المقريزي أن «الناس قد أعلنوا عقيدة ابن مالك والشافعي منذ تلك السنة فصاعداً، وأن العقيدة الشيعية احتجبت وتوارت حتى أتى عليها النسيان في مصر»[٩٤].

ومع ذلك فقد بقي مركز التشيع الفاطمي في القصر سليماً لم يمس. وقد مر ذكر رواية سابقة بأن الخليفة العباسي المستنجد الح على الإطاحة بخصمه. وقد اغتيل المستنجد في ٨ ربيع الآخر/ ٢٠ كانون الأول ١١٧٠ في الوقت الذي كان فيه نور الدين متجهاً نحو الموصل، غير أن خليفة المستنجد المستضيء، تبنى الأمر نفسه. وقد قال ابن أبي طي الذي كان يستسيغ الخلاف بين نور الدين وصلاح الدين، بأن تأخر صلاح الدين أدى بنور الدين إلى «أن يشك به ويلعنه»[٩٥]. ولقد كان باستطاعة صلاح الدين من الناحية النظرية، أن يثير العاضد ضد نور الدين لو أنه استدعي من مصر، وهي نقطة لا بد وأن تكون قد مرت بخاطرهما معاً. ولكن في الواقع، يتفق تاريخ تحركاته تماماً مع قوله لبغداد انه كان عليه أن يعمل ببطء وبدهاء في تكسير قاعدة السلطة الفاطمية. وقد كان هنالك خط تاريخي غير مريح موازٍ لموقعه الخاص إبان حكم الخليفة الفاطمي الثامن المستنصر، حين كان الحكم الفاطمي مهدداً بإعلان الولاء للعباسيين من قبل ناصر الدولة ابن حمدان الذي كان في شمالي مصر. أما ما حدث فهو أن الخليفة استمر في البقاء وناصر الدولة هو الذي قتل. فكان من التعقل أن يتحرك صلاح الدين بحكمة ليتفادى الوقوع في الخطأ عينه.

لقد رأى عماد الدين أن نور الدين كتب إلى صلاح الدين في شهر شوال ٥٦٦/ حزيران ١١٧١ يخبره بأن يقيم الخطبة العباسية في مصر، وأن صلاح الدين تريث لمدة شهرين لينسق خططه[٩٦]. هنالك القصص الإعتيادية حول التردد والتآمر[٩٧]. فقد قيل بأن صلاح الدين كان يطلب النصح من أمرائه، الذين إنقسمت آراؤهم فيما يتعلق بمسألة تغيير الخطبة، «غير أنه لم يكن ممكناً عمل أي شيء سوى إطاعة أوامر نور الدين»[٩٨]. وقيل أيضاً بأنه طالب باتخاذ قرار بخصوص شرعية الطلب، وأن الفضل يعود إلى الفقيه الشافعي نجم الدين

الخابوشاني الذي دفع القضية بقوة مطردة ضد الفاطميين[٩٩]. وروي أن صلاح الدين شن هجوماً على الأمراء المصريين الذين كانت منازلهم قد حوصرت من قبل الجنود السوريين. وأخبر العاضد بأن «الأمراء الذين نقتلهم هم رجال تمردوا عليك»[١٠٠]. سقط العاضد مريضاً. وتحكي إحدى الروايات بأنه تناول سمّاً، بينما تقول رواية أخرى بأن أذى أصابه بسبب سقطة[١٠١]. وطلب أثناء مرضه إلى صلاح الدين أن يزوره؛ وروى أحد أبنائه، أنه حين جاء صلاح الدين طلب إليه أن يهتم بأبنائه «الذين كانوا جميعاً ما يزالون صغاراً»[١٠٢]. أما القصة الأكثر شيوعاً فهي أن صلاح الدين الذي خشي الغدر رفض الذهاب. وندم على ذلك فيما بعد[١٠٣].

إنه ليصعب تمييز ما في هذه الروايات من صدق وصحة. فقد كان ينتظر من صلاح الدين أن يسبر غور مشاعر كل من أمرائه ورؤساء الدين. واختلفت الروايات حول علاقاته مع العاضد. فمن جهة قيل بأنه كان يعمل طوال حياة العاضد على تدمير سلطته بأخذ جميع ممتلكاته بما في ذلك الجياد، حائلاً بذلك دون تمكينه من الظهور أمام الناس في الإحتفالات الرسمية[١٠٤]، في حين تقول رواية أخرى بأن الإثنين كانا على وفاق تام إلى درجة أن صلاح الدين كان يختفي في القصر لعدة أيام في كل مرّة، وحيداً وبدون مواكبة[١٠٥]. ومهما كانت مشاعر صلاح الدين الخاصة، فقد كان العاضد، مع ذلك، مصدر خطر محتمل عليه وعلى أفراد عائلته وعلى جنوده. ويمكن أن يكون توقيت تحركه قد تأثر بمرض العاضد، غير أن منطق سياسة النفوذ قد أوضح بأن الخليفة الفاطمي لن يستطيع البقاء على قيد الحياة بعد اليوم.

وفي يوم أول جمعة ٧ من المحرم من السنة الهجرية (٥٦٧) الجديدة الموافقة ١٠ أيلول ١١٧١ بعد الميلاد، أدخلت الخطبة العباسية في الفسطاط[١٠٦]. ويقول ابن الأثير ان أحد الأمراء الفرس الذي يذكر أنه رآه في الموصل، ذهب إلى منبر الوعظ قبل الواعظ والقى خطبة للمستضيء[١٠٧]. وقال ابن أبي طي أن صلاح الدين عهد بالمهمة إلى أبيه خشية ما يمكن أن يحصل وهدد أبوه الواعظ بالقتل إذا هو ألقى خطبة الجمعة باسم العاضد. عندها لم يذكر الواعظ أي إسم في الصلاة واجداً لنفسه العذر على أساس أنه لا يعرف ألقاب المستضيء. وسأل العاضد لمن ألقيت

الخطبة فأخبر أنه لم يذكر إسم أحد فيها. فقال: «الجمعة القادم ستكون باسم شخص مسمّى»[١٠٨].

وهنا أيضاً، ومهما كانت صحة هذه التفاصيل، يبدو أن صلاح الدين عزم على التحرك على مرحلتين، سائراً خطوته الأولى في ٧ محرم/ ١٠ أيلول ومختبراً ردة الفعل عليها، قبل أن يدخل الخطبة العباسية إلى القاهرة ذاتها[١٠٩]. وفي ٨ محرم/ ١١ أيلول استعرض ١٤٧ من أصل ما مجموعه ١٦٧ سرّية خيالة من جيشه عبر شوارع القاهرة أمام جماهير إشتملت على مبعوثين من الفرنجة والبيزنطيين. وقد كتب الفاضل: «إن أولئك الذين شهدوا هذا الإستعراض ظنوا بأن أي ملك من ملوك الإسلام لم يكن يملك جيشاً يضاهي هذا الجيش»[١١٠]. وبعد إنقضاء يومين، وفي يوم عاشوراء الإثنين ١٣ أيلول، مات العاضد. وبالرغم من أنه بقي في الخلافة لمدة إحدى عشرة سنة ونصف السنة، فقد قيل إنه كان ما يزال في حاجة إلى عشرة أيام ليكمل ميلاده الحادي والعشرين يوم وافته المنية.

٣ ـ سيد مصر

في يوم الجمعة الثاني من شهر محرم للعام الهجري ٥٦٧/ ١٧ أيلول ١١٧١ ميلادي، كانت خطبة الجمعة العباسية تلقى في الفسطاط والقاهرة. وقد وصف صلاح الدين رد فعله لموت العاضد في رسالة إلى مجد الدين مبارك بن منقذ، وهو الحاكم العسكري لمصر العليا، فشدد على اخلاصه. وتصرّف بأعلى درجات الاحترام تجاه موت الخليفة مشيّعاً جثمانه حتى حافة الضريح، ومواسياً أولاده، ومؤمّناً إقامتهم في قصره؛ وكانت الشؤون تسير على ما يرام ولم يكن هنالك أي اضطراب. ثم أصدر الأوامر من أجل أن تلقى خطبة الجمعة في إقليمه باسم «الحاكم الذي يقود الطاعة الموحدة للإسلام» وهو الخليفة العباسي المستضيء، «الذي يجب أن يذكر اسمه ولقبه بوضوح»، وكل من تسوّل له نفسه أن يثير الناس قولاً أو فعلاً، أو أن يتدخل في شؤون «من كان قد ولّى ومن كان ثابتاً في مكانه» فسوف ينزل به العقاب؛ «وبقدر ما نستطيع أن نرى، فإن العالم في أمان»[١].

وعلى الرغم من إشارة صلاح الدين اللطيفة إلى إقامة أولاد العاضد في القصر، فلا بد أن يكون من الواضح أن الأسرة الفاطمية الحاكمة قد انتهت الآن. وإن جميع من بقي من الفاطميين قد «أبعد عنهم النساء لئلا يتناسلوا»[٢]، ولكنهم زوّدوا بالأموال لشراء الغذاء والكساء. وقد ذكر عماد الدين حين كتب في أواخر أيام صلاح الدين أنهم كانوا لا يزالون هناك «وهم إلى اليوم محصورون. . . وقد نقص عددهم»[٣]. أضف إلى أن موت العاضد كان محطة ولم يكن نقطة تحوّل؛ ومع أن

القصر يمكن أن يكون مركزاً للمشاعر المعادية للسوريين، إلا أن العاضد نفسه كان صفراً. وكان لا يزال لصلاح الدين اعداء في مصر كما أنه لم يزل تحت ظل نور الدين. ومع ذلك، فإن التاريخ الباكر لسيرته في مصر هو، على اقل من الناحية السطحية، تاريخ رد فعل للأخطار الخارجية. وكان الصراع من أجل أحكام السيطرة السورية في مصر يعطيه تماسكاً، غير أن صلاح الدين كان المنفذ ولم يكن المهندس للسياسة التي كانت بحد ذاتها انعكاساً بسيطاً للرأي القائل بأن شيركوه كان قد «فتح» مصر. أما وقد زال الآن بعض الضغط على الأقل، فقد اتسع مجاله. ويمكن أن يجادل في أنه الآن وللمرة الأولى قد حصل على الفرصة الملائمة لفرض نمطه على الأحداث بدلاً من أن يستجيب للاستفزازات الخارجية فحسب.

وكان عمله الأول الظهور بمظهر المدافع عن الإسلام. وبحسب رواية عماد الدين، فقد اتفق مع نور الدين على شن هجوم مشترك على الكرك والشوبك لفتح الطريق الشرقية بين سورية ومصر[٤]. وينبغي لهذه الاتفاقية، في أحسن الظروف، أن تكون من جهة صلاح الدين اتفاقية مبدئية، وذلك بسبب التوقيت المقترح لها، وذلك لأنه لم يستطع أن يكون واثقاً مما إذا كانت الخطبة العباسية سوف تؤدي إلى قيام اضطرابات في القاهرة أم لا. ومع ذلك، فقد اتاح له نجاحه في أن يغادر المدينة في ٢٢ محرم / ٢٥ أيلول وسار بطريق بلبيس في حملة استمرت حتى أواسط شهر ربيع الأول/ تشرين الثاني، ويبدو أنها لم تؤد إلى اية نتيجة، فيما خلا، استناداً إلى ابن الأثير، إلى أنها تسببت في إفساد العلاقات بينه وبين نور الدين. وقد أفاد ابن الأثير بأنه حين كتب صلاح الدين إلى نور الدين يخبره بأنه سيغادر القاهرة، تحرّك نور الدين نفسه من دمشق باتجاه الجنوب. وكان صلاح الدين ناجحاً في هجومه على الشوبك إلى درجة طلبت معها الحامية الأمان، مع امهالها عشرة أيام قبل أن يكون على القلعة أن تستسلم. وقد أشير الآن على صلاح الدين بأنه إذا كان سيهاجم الساحل من جهة واحدة في حين يكون نور الدين قائماً بالهجوم من الجهة الأخرى، فإن مملكة الفرنجة ستتداعى، وسيكون مركزه هو في مصر في خطر. والأمر المباشر الذي قد يحصل، إن هو قرر أن يلاقي نور الدين في الشوبك، فإنه سوف يمنع من العودة إلى مصر. ونتيجة ذلك، زحف صلاح الدين عائداً إلى مصر، زاعماً بأنه وردته أخبار حول قيام

الفاطميين بمؤامرة «غير أن نور الدين لم يقبل هذا العذر»[٥].

ومما لا ريب فيه أن هذه القصة مبالغ فيها. فالافتراض بأنه أشير له بأن الخطر عليه سيأتي من نور الدين هو افتراض ساذج. ذلك أن وليم الصوري، الذي لم يتردد في اعطاء التفاصيل عن صعوبات الفرنجة وخساراتهم، لم يشر إلى عرض باستسلام الشوبك، ولكنه كتب بأن صلاح الدين قضى هنالك بضعة أيام ثم غادر بعد أن رأى أنه لم يحرز أي تقدم[٦]. غير أن الشائعات لا يمكن أن تبدّد كليّة. حتى أن عماد الدين الوفيّ المخلص، الذي يهمه دائماً أن يظهر صلاح الدين في أفضل صوره، يدون ببساطة وغموض انه «اتفق للاجتماع عائق» حال دون لقائه مع نور الدين، وأضاف بأن صلاح الدين كان قد «عدم خيلاً وظهرا وعدة» في الطريق[٧]. ولعل هذه الخسارات ومناعة الشوبك التي لم تؤخذ قط من الفرنجة غلاباً، كانت أسباباً كافية لانسحاب صلاح الدين. إلا أن لواقع عدم التقائه بنور الدين أبداً بعد شهر ربيع الأول/ كانون الأول من عام ٥٦٤/ ١١٦٨ بعض الدلالة. ولو أن نور الدين أراد استبداله أو لجم قوته لكان سقوط الفاطميين قد اعطاه الفرصة المناسبة لذلك. أضف إلى أنه لا بد من الافتراض بأن رحيل صلاح الدين عن القاهرة بعد اسبوعين اثنين من موت العاضد كان قد اعتبر بصورة رئيسة بادرة كريمة متكلفة؛ وبالنظر للحاجة إلى توطيد مكانته في مصر فلم يكن بإمكانه التطلع إلى القيام بحصار طويل. وكان مرسومه بإلغاء الضرائب في الفسطاط والقاهرة قد صدر اثناء غيابه، وكان توّاقاً إلى تقدير الاشاعة التي زعمت ضخامة كنوز القصر الفاطمي.

إن وفرة غنى البلاط الفاطمي، وفخامة مواكبهم العامّة، وعطاياهم الرائعة، أدت بالطبع إلى الاعتقاد بأن ثراءهم لا حد له ولا نهاية. ويبدو أنه حين تسلّم صلاح الدين القصر، أظهرت الحقيقة شيئاً من خيبة الأمل. كانت هنالك كنوز من أصناف مختلفة، بما في ذلك جرّة من حجر تحتوي على ٧٠٠ مجوهرة، وزمرّدة ضخمة، و ١٠٠ خزانة من الثياب الفاخرة، وضلعان من «سمكة ضخمة» التي حين توضعان بشكل منتصب يمكنهما أن يحجبا فارساً. غير أن هذه هي تحفاً نادرة ممتعة أكثر منها مطلباً لاغناء خزانة صلاح الدين المالية. ويلاحظ أبن أبي طي أنه لم يعثر على كثير من المال بسبب المبالغ التي كان شاور قد أعطاها إلى الفرنجة[٨] ـ وكان بإمكانه أن يضيف المليون دينار المعطاة إلى صلاح الدين أثناء حصار دمياط. وما يدفع إلى

الاعتقاد بأن صلاح الدين قد خاب ظنه هو ما تؤكده الشائعات المستمرة حول الأسرار غير المكتشفة. فاستناداً إلى رواية شيعية، أخضع أحد الرجال للتعذيب إذ كان يعتقد أن هذا الرجل يعرف أين كان يخبأ الكنز السرّي، وذلك بأن الصقت الخنافس في جمجمته - «وإن الانسان لا يطيق الصبر عليها ساعة إلا وتنقب دماغه»[٩]. وتتمة الحكاية أن عملية التعذيب أخفقت لأن الضحيّة كان قد حمل رأس الشهيد الحسين بن علي، حين أحضر من عسقلان إلى مصر لاعادة دفنه هناك، فلم تؤذه الخنافس. غير أن الوجود المبكر للشائعات نفسها، أمر أكده عماد الدين الذي قال عن ابن عيد القوي الذي صلبه صلاح الدين في العام ٥٧٩/ ١١٧٤ بأنه كان يعرف أسرار القصر وكنوزه الدفينة، إلا أنه مات بدون أن يكشف عنها[١٠].

وسواء أوجدت الكنوز أم لم توجد، كان صلاح الدين، مع ذلك، قد اتخذ التدابير اللازمة لتثبيت شعبيته بإلغاء المكوس في الفسطاط والقاهرة[١١]. ولقد كانت الضرائب في أيام الاسلام الأولى مركّزة على الأشخاص والملكية، إلا أن توسّعها جعل العرب يحتكون بضرائب (مكوس) خدمات عديدة مضى على تأسيسها حين من الدهر. ولما لم يكن لهذه سابقة إسلامية، فقد اعتبرت بحزم ضرائب غير شرعية. ولما لم تكن ترمي، من جهة ثانية، إلى تحمل نفقات الخدمات المرتبطة بها، إن لم يكن تغطيتها، فكان يعاد إلى العمل بها بعد كل إلغاء دوريٍّ لها.

وقُرىء مرسوم صلاح الدين القاضي بإلغاء المكوس[١٢]، على المصلّين في يوم الجمعة الواقع في ٣ صفر/ ٦ تشرين الأول. وكان يشمل «القاهرة والفسطاط وجميع التجار الزائرين فيهما»؛ وكان مسموحاً لهؤلاء الرجال بالذهاب والإياب، وبترك الأموال، وبجلبها أو اقراضها، وبالاتجار براً وبحراً بالسفن أو على ظهور الخيل بالسر والعلانية، دون أن يكون عليهم أن يكشفوا عمّا أخفوه، وبدون أن يسألوا عما كانوا يصدّرون أو يستوردون، وبدون أن يعترض سبيلهم في الطريق. «فمن قرأه أو قرىء عليه من كافة ولاة الأمر، من صاحب سيف وقلم ومشارف أو ناظر فليمثل ما مثل من الأمر، وليمضه على ممر الدهر». وقدرت قيمة المكوس الملغاة بـ : ١٠٠,٠٠٠ دينار سنوياً. وبالرغم من أن الشك أو التساؤل يمكن أن يحوم حول التوقيت، فإنه لمن الواضح أن صلاح الدين رمى إلى وجوب إلغاء الضرائب المشابهة عبر مصر بأسرها. وكان قد كتب في رسالة غير موقعة موجهة إلى

إخميم في مصـــر العليا: «لقـــد بلـــغ مسامعنـــا عدم الغـــاء المـكوس في اخميم، وإنها تفرض على القادمين والمسافرين والمقيمين، ولم يذوقوا بعد حلاوة كرمنا، كما أن شعب اخميم لم تلحقهم الامتيازات التي كنا أمرنا بها. فالأغنياء يتـأذون والفقراء يرهقون [بالضرائب].. إن مثل هذه الضرائب هي عقاب لمن يتلكأ في دفع الزكاة والذي يتبع شهواته».

وفرضت قراءة المرسوم القاضي بالإلغـاء في الجامـع القـديم في اخميم؛ وكان على جميع الناس من سكان ومسافرين أن يحاطوا به علماً كي لا يبقى لديهم أي شك؛ ولن يسمح لأحد بفتح سجل لتغطية مثل هذه الضرائب في المستقبل «أو نصب ميزان» (الـوزن المدفوع). ووافـق صلاح الـدين على التعـويض على أصحاب الاقطاعات الذين كانوا يفيدون من الضرائب، وكان عليهم أن يطيعـوا الأمر في الحاضر وفي المستقبل [١٣].

وكتب القلقشندي أن صلاح الدين استبدل المكوس «بما حازه من الغنائم من البلاد والأقـاليم»[١٤]، غير أن هذا لم تثبت صحته في أية فترة من حياته. وربما كان لديه بعض الآمال في موازنة الخسارة الأولى مع كنوز القصر. وواقع أنه عمد إلى إزالة الزخارف الفضية من مساجد القاهرة والفسطاط عند عودته إلى القاهرة، الأمر الذي يبرهن على أنه كان يحاول التعويض عن نقص الكنوز[١٥]. أضف إلى أن الاعتماد على رزق يأتي من الغيب سيكون بديهياً سياسة غير حكيمة، وكان سبق له أن اتخذ إجراءات لجمع الموارد المالية من ضريبة اسلامية الأصل، تلك كانت «الزكاة» أو ضريبة «الصدقة» وهي الضرائب المفروضة حسـب قيمة بعض أصناف السلع والممتلكات. والـزكاة شرعـاً، فرض على جميع المسـلمين، على عكس «الصدقة» التي يعطيها المسلمون خياراً.

ومن الوجهة النظرية يستطيع الفرد توزيع زكاته بنفسه. غير أنه كانت هنالك صعوبات عملية، فكان بمقدور صلاح الدين معالجتها كضريبـة حكومية دون أن يلاقي انتقاداً شرعياً. وحين يجمع المال لا يكون بكليته في تصرّف الحاكم. كما أن البنود التي يمكن أن تدفع أمـوال الـزكاة بموجبهـا، قد نصت عليهـا أحـكام الشريعة. فكانت نسبة مئوية معينة تدفع إعانات اجتماعية للفقراء وابنـاء السـبيل ولدواعٍ حسنةٍ أخرى. أما الباقي فيمكن للدولة أن تنفقه بموجب بنود يمكن التوسع

فيها بحيث تتلاءم مع حالات الحرب والدبلوماسية والإدارة .

واستناداً إلى رواية الفاضل، أخذت خزينة الدولة في أول عملية توزيع للزكاة التي حصلت في ربيع الأول/ تشرين الثاني ١١٧١، نصف المبلغ الاجمالي(١٦). ودوّن ابن جبير الذي كان يزور الاسكندرية في ذي الحجة ٥٧٨/ ١١٨٣ أن حصة الخزينة أنئذ بلغت ثلاثة أثمان(١٧). ووقع ابن حمدان الذي كان مستخدماً في دائرة الزكاة موازنة العام الهجري ٥٨٨/ ١١٩٢ والتي يتبين منها أن مبلغ الموازنة الإجمالي كان ٥٢,٠٠٠ دينار(١٨). ولسوء الخط، ليس واضحاً ما إذا كان هذا الرقم يمثل المبلغ الإجمالي المحصّل أو يمثل حصة الخزينة، حيث في هذه الحالة الثانية يمكن أن يناقش بأن الزكاة كانت أكثر من أن تعوض عن الخسارة المقدرة الناجمة عن إلغاء الضرائب.

ويمكن ، طبعاً، الاعتراض على أن صلاح الدين كان قد استبدل فقط عبئاً بعبءٍ آخر على حساب ما يمكن أن نتبينه من رسالة إخميم بأنه مضايقة ادارية هائلة. وإن الاشارات التفاؤلية في مرسومه إلى حرية المرور المعطاة للتجار يجب أن تقارن بشكاوى ابن جبير حول المعاملة السيئة المستمرة التي كان يعاني منها التجار والحجاج في «أمكنة مثل إخميم وقوص ومنية ابن الخصيب»(١٩). ولقد كتب ابن جبير في موضوع جباة الزكاة:

«وأمر المسلمون بتنزيل أسبابهم وما فضل من أزودتهم، وعلى ساحل البحر أعوان يتوكلون بهم، وبحمل جميع ما أنزلوه إلى الديوان. فاستدعوا واحداً واحداً وأحضر ما لكل واحد من الأسباب، فوقع النفيس لجميع الأسباب ما دق فيها وما جل . . . وأدخلت الأيدي إلى أوساطهم بحثاً عما عسى أن يكون فيها، ثم استحلفوا بعد ذلك، هل عندهم غير ما وجدوا لهم أم لا».

إن هذا الربط بين الزكاة والمكوس يمكن أن يؤخذ برهانا على فشل تحرك صلاح الدين لو لم يضف ابن جبير قائلاً: «لو علم صلاح الدين بهذا لوضع له حداً»(٢٠). وكان الإسلام يهتم بالانعاش الاجتماعي، وبجمع المال وانفاقه بهذا السبيل بأساليب مشتقة بوضوح من الشريعة الدينية التي تحدد علاقة النظام بالمبادىء الاسلامية الأصولية. واللوم في التقصير والنقص يلقى على عاتق التابعين، وبذلك يقوى مركز الحاكم.

إن لاهتمام صلاح الدين بربط نفسه ببيئته الاسلامية تطبيقاً واسعاً على إدارته

لمصر. وكان هنالك مقولة شعبية «لو ضرب بينها وبين غيرها من البلاد سور، لغني أهلها بها عما سواها، ولما احتاجوا إلى غيرها من البلاد»[٢١]. وكان بإمكان مصر في زمن صلاح الدين، بصرف النظر عن حاجتها لبعض الاستيراد الاستراتيجي كالأخشاب بنوع خاص من أجل بناء السفن، أن تعيش بالمستوى الأدنى من الاعتماد على العالم الخارجي. إن هذا يعني أن حاكماً قوياً يكون اهتمامه الأساسي بمصر نفسها يستطيع أن يبني دولة فرعونية تكون علاقاتها الخارجية خاضعة لمصالحها الخاصة بها. وإذا كانت مصر، من جهة ثانية، معتبرة فقط بلد عبور أو قاعدة لبعض المشاريع الكبرى، حينئذٍ يمكن التوقع لحاجاتها بأن تحتل مكاناً ثانوياً.

وبالرغم من أن السياسة المعلنة والمتبناة تركز على: مصر ـ أولاً[٢٢]، فإن صلاح الدين بالاشتراك مع الأكراد والأتراك الذين يكوّنون معظم قواته المسلحة، لا بد وأن يكون قد فكر، طبعاً، بمركز ثقل إسلامي يقع بعيداً في الشرق. وكانت مصر، من ناحية الدعاوة الدينية، كنانة الإسلام، وقاعدة للجهاد. ولكن هذه القاعدة لم تكن ملائمة ملاءمة سورية، أضف إلى ذلك أن الدرس المباشر المتعلّم من سقوط الفاطميين كان أن مصر قد برهنت أنها من الضعف إلى درجة لا تمكنها من الوقوف وحدها. ويمكن أن يفسر هذا كنتيجة طارئة للاضطراب السياسي، في حين أنه قد يكون بالنسبة لابن خلدون بيّنةً لانحلال حتمي على أثر تخفيف وضعف العصبية. وباللغة الاقتصادية، مع ذلك، يمكن أن يعني أنه بدون الانماء، تكون الادارة والدفاع حتماً غير مستقرين في هذه الحقبة. وبصورة أوسع، إنه، بالنظر إلى العوامل الاجتماعية، تكون الحاجة إلى الأنماء أقوى، وذلك من أجل امتصاص الطاقات التي خلاف ذلك تصبح ذات تدمير ذاتي أو انحرافاً نحو اللامبالاة. فإلى أي حد يمكن لأيٍّ من هذه النقاط أن تبرر في إطار هذا السياق؟ ان ذلك يجب أن يرى من خلال الفترة المتأخرة من سيرة صلاح الدين. . وإنه لمن الواضح بشكل مباشر أنه أثناء استيلاء نور الدين على سوريا كان صلاح الدين مرغماً على التفكير بلغة مصريّة، ولكنه كان يركز تبريره لأعماله باستمرار على الاسلام. وحالما كان يجد ذلك فرصة، كان يلتفت إلى التوسع رابطاً بين هذا التوسع وبين الضرورات الأساسية للسياسة الاسلامية.

وليس هنالك من سياسة متماسكة ممكنة، مع ذلك، بدون قوّة. وسبق

لصلاح الدين أن علم من شاور مساوىء الشراء بدون دعم عسكري. غير أن العكس أيضاً يصح في أن القوّة العسكرية لا تمكن المحافظة عليها بدون ثروة، ويمكن لهذه الثروة أن تكتسب بالغزو، وفي هذه الحالة يمكن أن يعتبر الجيش منتجاً وليس مجرّد مستهلك. غير أن تاريخ صلاح الدين يظهر كم كان الغزو، نسبيّاً، عملاً غير منتج، وأن العائدات المالية للدولة، في جزء كبير منها، كانت تعتمد على الانتاج الأولي الأساسي(٢٣). وكانت أهمية الانتاج، بالطبع، أمراً واضحاً في مصر، التي تعتمد عائداتها مباشرة على الفيضان السنوي لنهر النيل. إلا أنه كان على صلاح الدين أيضاً أن يأخذ علماً ببنية السلطة التي تتحكم بذلك الانتاج. وهنا أعطت العوامل الاقتصادية والاحصاءات السكانية أكثر المنتجين تواضعاً وبدائية قسطاً من الأهمية. لقد لاحظ المؤرخ بريو في كتابته عن فرار الفلاحين من قراهم في مصر في عهد البطالمة أن هذا الأمر نجح كوسيلة لأحداث ضغط في ظروف معينة حيث أن «أولئك الذين هجروا مهماتهم لم يكن بالإمكان استبدالهم مباشرة»(٢٤). وذكر النابلسي، في وصفه الفيوم وضع بعد انقضاء حوال خمسين سنة على وفاة صلاح الدين، أن النقص في زراعة الحقول الناجم عن خلاء اليد العاملة، هو أمر لا يمكن معه اعادة الزراعة «دون الخوف من دفع السكان إلى اللجوء إلى الفرار»(٢٥). ولو كان هنالك قوة قابلة للقياس في أدنى طرف سلم المنتجين، لكان بالإمكان الافتراض بأن العلاقة الكاملة بين القوّة والثروة كانت معقدة إلى درجة يصعب معها أن تعالج بسهولة أو على نحو استبدادي من قبل أي كان.

والحيلة الواضحة في مثل هذه الحالات حيث تكون المصالح الرئيسة للحاكم في مكان آخر، كانت في أن يقايض الأرض مع مسؤولية ادارتها، مقابل الدعم والمساندة. لقد عزا المؤرخون المسلمون الفضل في إدخال فكرة تقديم المنح المتمثلة بحق الانتفاع بالأراضي والقرى عوضاً عن المال، إلى نظام الملك الذي قيل بأنه فكر بأن هذا العمل سيؤمن افضل طريقة لإدارة العقارات في امبراطورية واسعة. واتبع صلاح الدين الاسلوب ذاته في مصر حيث سجل حكمه، استناداً للمقريزي، «منذ كانت أيام صلاح الدين إلى يومنا هذا، فإن اراضي مصر كلها تقطع للسلطان وأمرائه واجناده»(٢٦). وسجل المقريزي أيضاً تغييراً آخر أعاد تاريخه، على نحو تضميني، إلى هذه الحقبة حيث كتب يقول بأنه

لا في زمن الفاطميين ولا في العهود السابقة لهم حصل الجيش على النوع من الاقطاعات التي كانت تشاهد في أيامه. ففي السابق كانت الأراضي تؤجر لأيٍ من الأمراء والأشخاص البارزين أو العسكريين الذين كانوا يرغبون فيها، وذلك مقابل ضمانات ومبلغ من المال مكفول يدفع إلى صندوق الخزينة. وفي زمنه، بالمقارنة، أصبح المزارعون «عبيداً قناً لمن أقطع تلك الناحية، إلا أنه لا يرجو قط أن يباع ولا أن يعتق، بل هو من ومن ولده كذلك»[٢٧] - ومن المحتمل أن يكون ذلك بسبب استبدال نظام التأجير بمنحة دائمة أو ذات أجل طويل. وينبغي ألاّ يؤخذ هذا النص، مع ذلك، برهاناً على أن صلاح الدين نفسه أحدث تغييرات دراماتيكية ومنتظمة في الاقطاعات الفاطمية. إن المصادر المعاصرة، في الأغلب، صامتة حول هذه النقطة. ومن الواضح أنه ليس هنالك انتظامية أو تناسقية. يذكر ابن ممّاتي اراضي مؤجرة بكفالة وبدون مسح على الضفة الغربية لنهر النيل، والتي يقارنها بأراضي الضفة الشرقية المؤجرة بطريقة ضريبة المساحة الأكريّة بعد مسحها[٢٨]. وبالاضافة إلى التأجيرات اعطيت منح ذات أجال طويلة هي عبارة عن أراضٍ والتي لا بد أن تكون بالتأكيد قد شجعت مالكي الاقطاعات على محاولة استبقاء فلاحيهم ومزارعيهم مرتبطين بالأرض. ولكن بالرغم من هذا فإن الملاحظة التي نقلت سابقاً عن مسح الفيوم تبرهن على أن أسلحة الفلاحين، وهي الهروب، كانت لا تزال ذات فعالية[٢٩].

لقد أضافت التعقيدات المميّزة للادارة المصرية مصاعب أخرى إلى مصاعبهم الخاصة. فمصر تعتمد على النيل. ومن أجل السيطرة على فيضان النيل وضبطه لا بد من وجود نظام من الأقنية والسدود حيث تتطلب صيانتها تنظيماً من اليد العاملة واسع النطاق. ونتيجة لذلك كانت مصر تحكم التقليد بيروقراطية مركزية. فإذا ما سمح للآلة البيروقراطية في أن تصبح عديمة الفعالية سوف تعاني البلاد، وسيخسر الحاكم عائدات مالية. وتقدم الروايات المعاصرة مجموعة ضخمة من التفاصيل المذهلة حول تشابك العمليات اليومية الجارية التي كانت في مجملها موروثة من عصر الفراعنة. وكان فيضان النيل يطمس العلامات التي تبين حدود الأرضين ويغير حالة التربة الأمر الذي يعني أن الأراضي الزراعية ينبغي أن يعاد مسحها كل سنة. والموكب الذي كان ينطلق عادة للقيام بهذه المهمة يشمل على مشرف وعامل وماسح وشاهد ومرشدين وكبار الفلاحين والرجال الذين يحملون حبال

المقياس [٣٠]. ولم يكن عليهم أن يثبّتوا المساحة الاكرية فحسب، بل عليهم توخي التدقيق في حال الأراضي. وهنا يسجل ابن ممّاتي ثلاثة عشر وضعاً كانت تحدد الضرائب على أساسها[٣١]. وكان تفريغ السفينة من حمولتها يحتاج إلى نفس النوع من تعدد العاملين. وهؤلاء يشتملون على الشخص الذي يحمل مفتاح [دار الصناعة] مكان بناء السفن وتجهيزها، والشخص الذي يزن السلع، والأشخاص الذين يخرجونها من صناديقها، وأمين المخزن لوضعها في أحد المخازن، وشخصاً آخر يكون مسؤولاً عن فتح المخزن واغلاقه، وحرّاساً للسفينة، ومفتشين عند أبواب الحوض، وحراساً لحماية السلع، وأطقم العبور، وحمّالين لنقلها[٣٢].

ولم تكن هذه، بالطبع، سوى مظاهر. وما تدل عليه هو وجود اساليب البيروقراطية التي يمكن أن تزوّد مصر باقتصاد موجه، حيث يمكن للزراعة التي تعتمد إلى حد بعيد على أجهزة ري تشرف عليها الدولة مضبوطة بنسب ضرائبية متغيّرة بغية انتاج المحاصيل اللازمة، وبحيث تستطيع المؤسسات الاحتكارية للدولة تنظيم المنتجات التجارية الرئيسة بالإضافة إلى الاعتمادات المالية. وفي الواقع، أدى نظام الضرائب هذا إلى أن شمل مصر برمتها، فلم يقتصر على الأحياء وحدهم، بل شمل الأموات أيضاً، إذ أن جماعة دفن الموتى لم يكونوا ليقوموا بأعمال الدفن، في زمن صلاح الدين، إلا بعد أن يحاط الديوان المختص علماً بذلك. وإذا كان للمتوفي ورثة، تؤجر الملكية لهم، أما إذا عادت الملكية للدولة نفسها حينئذ يتكفل الديوان بنفقات الدفن[٣٣]. ولم يكن غير المسلمين من المصريين مسؤولاً قانونياً عن أية ضريبة خاصة. وكان يطلب إلى الكتبة الحكوميين أن يدخلوا في السجلات ليس اسماءهم فحسب، بل أيضاً «كل ما لا يتغيّر مع الأيام، مثل الطول أو القصر، أو البياض أو السواد»[٣٤]. وقد سجل في الفيّوم في السنة الهجرية ٦٤١/ ١٢٤٣ ـ ٤ أنه من أصل ١١٤٢ غير مسلم، كان ثمة ٨٣٩ مقيمين، و ١٣٩ كانوا في الجنوب و ١٥٤ كانوا في الشمال. وكانت اسماء الجنود وأوصافهم تدوّن في السجلات العسكرية، حيث أنه على الكتبة أن يقتفوا أثرهم أثناء مدة خدمتهم لمراقبة دفع رواتبهم ومراقبة معداتهم. فإذا ماتوا أو سرحوا من الخدمة فيجب أن تعاد المعدات التي أمنتها الدولة إليها إلا إذا كان الشخص قد قضى أثناء الخدمة الفعلية. حينئذٍ لا يدّعى عليه بشيء ثم توضع علامة × أمام اسمه في السجلات[٣٥].

إن تشعب الرقابات، مع ذلك، لم تكسف|واقع أن صلاح الدين قد تبنى اقتصاداً مختلطاً. ويظهر نمط الانعاش الاجتماعي المخصص للفقراء والممول بالزكاة أنه لم يكن مستعداً لتحمل فحسب، بل في أدنى المستويات، لتشجيعه بتأمين الاعتمادات المالية للتجارة الخاصة.

إذ أن موظفي الدولة، مثل الفاضل، تاجروا لحسابهم الخاص مع شمالي أفريقيا ومع الهند. وتعهدت مشاريع استصلاح الأراضي مؤسسات خاصة، فدوّن ابن ممّاتي أن الدولة ضيّعت المال بإعطائها تأجيراتٍ ذات آجال طويلة لأرضٍ للبناء، يستطيع أن يجني منها المستثمرون ربحاً يبلغ ٣٠٠ بالمئة[٣٦].

وكانت وظائف مختلف الدواوين التي تدير هذه الرقابات قد سُجلت ودُرست[٣٧]، إلا أنه يصعب تحديد درجة فعاليتها. وتشير وقائع الرسائل إلى الفوضى التي سببتها أزدواجية الدواوين الخاصة والرسميّة. إذ أن البيروقراطيين حاولوا توسيع رقعة نفوذهم متصرّفين على نحو مستقل عن أسيادهم على أن تجري مراقبتهم بواسطة إجراء شكاوي غريب على نحو ظاهر، تحول بموجبه الشكاوى إلى صلاح الدين نفسه بواسطة أعضاء في بلاط. وهكذا، ينبغي أن ترسل الرسالة إلى موظف رسمي تطلب إليه بالا يتصرف بخشونة أو يستخدم التهديد حين يقوم بقياس الأراضي الخاصة بأحد الأمراء المتوفي ذلك لأن ابن ذلك الأمير لم «يتخل عنه صلاح الدين أو تجاهله»[٣٨]. وتحذر براءة هبة أرض إلى مستفيد آخر «صاحب الديوان بالا يعارضه» في حين طلب إلى «ألسنة موظفية» الا تتحدّى وصفه لأرضه، وبمعنى الا يلحوا على القيام بمسح تلك الأرض[٣٩]. ففي حالة ابن الصالح بن رزّيك، حيث وضع موظفون في مصر العليا اليد على معصرة يملكها هناك وصادروا الاثباتات الخطية لملكيته، في حين كان الحاكم والمشرفون في أسوان قد أخذوا ثمره وقطنه وقمحه وشعيره ومراكبه، أمروا بأن يعيدوها جميعها إليه[٤٠].

إن الصعوبة التي واجهها صلاح الدين في حفظ أصحاب الوظائف تحت المراقبة الفعالة قد ازدادت بسبب ندرتهم النسبية. فلم يكن يوجد سوى عدد قليل من المسلمين يمكن استخدامهم. كتب المخزومي يقول إن الكتبة في ديوان

الحرب كانوا عادة من اليهود، في حين كان كتبة الضرائب من المسيحيين الأقباط. وأضاف: «لما كان المسيحيون واليهود غير قادرين على المساهمة في الحكم مع المسلمين، فقد اشتركوا معهم في ادارة الشؤون العامة، فزودوا [الدواوين] بكتبة للضرائب، وكتبة وأطباء للجيش. استطيع فقط أن أظن بأن هذا بلاء أنزله العلي القدير بالمسلمين ليبلوهم». ولاحظ أن غير المسلمين هؤلاء قد توارثوا مهنهم أباً عن جد، مضيفاً أن المسلمين الشباب الذين نُشئوا على حفظ القرآن ودراسة الأدب العربي، فقد رغبوا، طبعاً، في أن يحصلوا على بعض المكاسب مما تعلموا، فلم يرضوا بالتالي أن يدرسوا على يد غير المسلمين. ونتيجة لذلك، وبالرغم من أن الكتبة من غير المسلمين كانوا عرضة للانتقاد بصورة مستمرة، فلم يكن بالإمكان استبدالهم بشكل ملائم(٤١).

ولعل المدى الذي بلغه صلاح الدين نفسه في الاهتمام بالادارة المدنية لا يمكن أبداً أن يجري تقويمه على نحو عادل. فلا يمكن أن يظهر بأنه قام بأية جهود صادقة من أجل أحكام سيطرة الدولة بتقوية الأسس البيروقراطية لاقتصاد منظم في مصر. كان يهتم بخلط أوراقه المتعلقة بالحكم العائلي بحيث كان ينقل أفراد عائلته من مركز إلى آخر؛ كما كان مهتماً أيضاً بترتيب الاقطاعات الهامّة. وكان مهتماً بشغف والحاح في الأمور المالية حيث أنه، بدون مال، لا يستطيع الاحتفاظ بقواته، كما كان أيضاً المحكمة الاستئنافية النهائية. غير أنه في المستوى الأدنى لا بد أن يكون التسيير الفعال لادارته معتمداً إلى حد بعيد على وزن الرجال الذين اختارهم.

والاسم الأكثر تداولاً في هذا السياق هو القاضي الفاضل الذي له بعض الحق في أن يُظن بأنه أكثر معاصري صلاح الدين من المسلمين شهرة. كان شاعراً وأديباً وإدارياً ورجل دولة، وتكوّن رسائله أحد أكثر المصادر الاعلامية فائدة، ليس حول سيرة صلاح الدين فحسب، بل بما يتعلق أيضاً بالعصر الذي عاش فيه. ترك عبد اللطيف البغدادي وصفاً له: «دخلنا عليه، فرأيت شيخاً ضئيلاً كله رأس وقلب، وهو يكتب ويملي على اثنين، ووجهه وشفتاه تلعب الوان الحركات بقوة حرصه في اخراج الكلام، وكأنه يكتب بجملة أعضائه»(٤٢). وكان أكبر سناً من صلاح الدين بحوالي ثلاث سنين؛ وكان قد أرسل إلى مصر من عسقلان حيث كان أبوه قاضي

المذهب الشافعي، بغية الانخراط في خدمة الفاطميين. عيّن في البدء في ديوان الانشاء في القاهرة، ثم انتقل لفترة من الزمن إلى الإسكندرية. وحين عاد إلى القاهرة، خدم أولاً في ديوان الحرب، ثم خدم مرة ثانية في ديوان الانشاء. وحين أصبح شيركوه وزيراً ثنى على اقتراح بالحاق الفاضل بدائرته، وذلك وفاقاً لاقتراح خبيث، على أمل أن يتورط فيسقط مع سيده الذي كان يتوقع له السقوط. وبعد موت شيركوه انتقل إلى خدمة صلاح الدين. كتب مؤلف سوق الفاضل: «لم يعرف أي كاتب بأنه تسنّم منصباً بالنسبة إلى سيده يضاهي ذلك المنصب الذي بلغه الفاضل مع صلاح الدين. فلقد قيل ان البلاد لم تفتح بجيوش صلاح الدين، بل بقلم الفاضل»[٤٣]. والكاتب المثالي، استناداً إلى ابن مماتي، يجب عليه أن يهتم ليس باعطاء الانطباع بأن مستخدمه هو في حاجة إليه[٤٤].
انه نُقل عن الفاضل بأنه خالف هذه القاعدة وكتب الرسائل التي حررها لصلاح الدين[٤٥]:

وعريبةٍ قد جئت فيها أولاً ومن اقتفاها كان بعديَ الثاني
فرسوليَ السلطانُ في إرسالها والناسُ رسْلُهُمُ إلى السلطانِ

لم يكن للفاضل ولا لصلاح الدين أية جذور في البلاد التي يحكمونها. وتاريخ وزارة صلاح الدين لم يوضح مدى أهمية هذه الوزارة بالنسبة لتفسير مجتمعهما. فمن جهة هناك صورة الاسلام كبنية ذات وحدة متراصة وانسجام كلي. وهذه تنعكس، في أبسط معانيها، في منظر صلاح الدين كمجدِّدٍ للدين الصحيح، ويمكن صقلها بالألماع إلى أنه بفضلِ وحدة مؤسسات العالم الإسلامي في القرون الوسطى، فبالكاد يجد فيه اجزاء قابلةً للتبادل بعضها ببعض. بناء على ذلك، فإن اتباع صلاح الدين من جنود واداريين وقادة روحيين وجّهوا القوى اللازمة للتحكم بالمجتمع، وكانوا جزءاً لا يتجزأ من البلاد تماماً كما أولئك الذين حلّوا محلّهم. اضف إلى ذلك أنه بالمقابل يمكن أن ترى مصر كمجتمع خلوي حيث التجمعات العرقية مثل تجمعات الأتراك والأكراد والأرمن والزنوج والبدو كانت موضوعة جنباً إلى جنب بشكل غير مريح. وقد وفرت لهم الفروقات الدينية انقساماتهم الفرعية من مذاهب مسيحية وإسلامية ويهودية، في حين أضافت التسوية بين الاقتصاد الموجه والاقتصاد المختلط تفتيتها الاداري الخاص. وكان بإمكان اتباع صلاح الدين من السوريين أن يتلاءموا مع هذا النمو

كفريق حربي وجد بلداً قادراً على إعالته فقام فقط بالقسط من السيطرة اللازم لتأمين مصلحته الخاصة . إن مثل هذا الفريق يمكن أن يكون نفسه خلية توحد بين أعضائه العصبية ، أو يمكن أن ينظر إليه كوحدة من طبقة مهنية متحركة تخدم البلاد التي تختارها أو تستغلها . ويمكننا أن نضاعف هذه الأسئلة كما نشتهي ونختار ؛ وليس هنالك من أجوبة بسيطة عليها ، ولن تكون بالضرورة محصورة أو مقصورة على شخص أو جماعة ما . في هذا الجو المزدحم أوجد صلاح الدين لنفسه مكاناً خاصاً بارزاً إلى أن يصبح حاكم مصر القوي .

٤ ـ ظل سورية

بعد عودة صلاح الدين إلى القاهرة في ربيع الأول ٥٦٧/ تشرين الثاني ١١٧١ كان لديه بعض الوقت لتركيز إهتمامه على المشكلات الإدارية دون أن تعوقه عن الهاءات خارجية. فلزم مركزه القديم في قصر الوزير. وكان والده ما يزال يقيم في قصر اللؤلؤة؛ وكان القصر الشمالي قد أعطي لعدد من الأمراء السوريين. أما وقد سقط الفاطميون الأن، فقد سكت النقود المعدنية في مصر تحمل على أحد وجهيها إسم الخليفة العباسي المستضيء، وإسم نور الدين على الوجه الآخر. وأرسل نور الدين شرف الدين بن أبي عصرون الذي كان يوصف بالرجل الذي لم يخطيء ولم يرتش أبداً[1] لحمل النبأ الرسمي بوفاة العاضد إلى بغداد. وعاد شرف الدين بالخلعة لكل من نور الدين وصلاح الدين. وأحضرهما الرسل الذين وصلوا إلى القاهرة في ١٩ رجب/ ٧ آذار؛ وفي ٢٠ رجب/ ٨ آذار زار عدد من أعيان القاهرة خيمته. وزينت شوارع المدينة؛ وفي ٢١ رجب/ ٩ آذار لبس صلاح الدين الخلعة وسار على صهوة جواده عبر القاهرة إلى باب زويلة.

لم يكن ثمة ما يستحق الإحتفال به في ما تبقى من العام الذي يبدو أنه تميّز بملاحقة أتباع الفاطميين. وقال ابن أبي طي: «وإذا وجد أحد الأتراك مصرياً، أخذ ثيابه»[2] «وزاد الأمر حتى صار كل من استحسن داراً أخرج منها صاحبها وسكنها»[3]. وأشار المقريزي إلى وجود الجيش النوبي على الجبهة الجنوبية وانتشار الفئران في بساتين قصب السكر. وفي ربيع عام ٥٦٧/ ١١٧٢ أتلفت المحاصيل موجة هائلة من البَرَد[4]. وأضاف أنه كان هنالك شغب في القاهرة في

صيف العام نفسه، في حين كتب ابن صالح عن «الدمار الذي حل بالأرمن»[٥] الأمر الذي دفع بطريركهم إلى مغادرة مصر إلى القدس في ربيع الثاني/ تشرين الثاني من عام ٥٦٨/ ١١٧٢. واستناداً إلى المقريزي، هُربت كميات كبيرة من الذهب والفضة من البلاد[٦]. وعلّق صلاح الدين في رسالةٍ إلى بغداد على الإتفاقات غير العادلة المعقودة مع إتحاد الأوروبيين[٧]. وفي ربيع ١١٧٢ ناقش خطة للتوسع غرباً إلى برقة لأنه «كان يشكو قلة المال والرجال».

لقد تبيّن له أن الثروة والقوة العسكرية مترابطتان تعتمد الواحدة منهما على الآخرى وأن أي خلل في التوازن بينهما يمكن أن يكون مدمّراً. فإذا كان لديه عدد كبير من الرجال فلا بد وأن تكون مصر قد جذبت الناس إليها. والآمال في الحصول على المكاسب يمكن أن تحقق باديء ذي بدء بالقيام بالنهب المحلّي كما وصف ذلك ابن أبي طي وأكده الأرمني أبو صالح مع المسيحي ساويروس بن المقفع. إلا أنه حين ينظر إلى هذه الأطماع على أنها سياسة إدارية ضمن إطار الموارد المحدودة، كان لا بد من نموّ خارجي. وكان لا بد أيضاً من النظر إلى هذا الأمر من خلال الأوضاع الاجتماعية السائدة، لا سيما في ما خص نظم الزواج، حيث كان باستطاعة الرجل أن يزيد عدد أولاده بسرعة. لم يكن صلاح الدين نفسه قد أنجب أولاداً قبل أن يبلغ سن الثلاثين. حينئذٍ، وبعد أن استقر في مصر، أصبح أباً لأربعة أبناء قبل صيف عام ٥٦٨/ ١١٧٣. كتب الفاضل عنهم فيما بعد يقول: «لديهم أبناء من صلبهم وقد أشاع السلطان الآمال لهم... فقال لهم: انجبوا، وسوف أمنح الإناث الهبات، وأجعل الرجال أغنياء»[٨]، ودون بشكل عام حول أتباع صلاح الدين: «كل من ينجب أولاداً ويزيد في حجم عائلته إنما يأمل بفضل وكرم السلطان»[٩]. إن هذا لقول بين عن الوضع التوسعي؛ وإن تطبيقه على صلاح الدين في مصر لا يمكن أن يعمى عنه معاصروه. وكلما أصبح إحتياجه إلى النماء ملحاً كثيراً، كلما أصبح من العسير التوفيق بينه وبين تبعتيه الأسمية لنور الدين. ولم يكن مفاجئاً أن تصبح العلاقات بين سوريا ومصر خلال العامين التاليين، علاقات غير مستقرة.

لقد وردت أنباء، كما أشرنا من قبل، تفيد بأن هنالك جيش نوبي على الحدود المصرية. كان هذا في صيف ٥٦٧/ ١١٧٢، فكتب الفاضل يخبر بغداد أن اللاجئين الأرمن إنضموا إلى النوبيين. كما إنضم إليهم أيضاً «جنود مطرودون»

آخرون وعدد من عامة الشعب[١٠]. وقررت هذه القوة، إستناداً لأبن أبي طي، «على قصد أسوان وحصارها»[١١] ونهب قراها. وعانت البلدان المحيطة التي كانت أراضي بدوية من أعمال النهب التي قام بها النوبيون أثناء حملاتهم، فأرسل الأمير كنز الدولة وهو من القبيلة البدوية ربيعة، إلى صلاح الدين يطلب النجدة. فاستجاب صلاح الدين وأرسل تعزيزات بأمرة الشجاع البعلبكي؛ حينئذ إنسحب النوبيّون. ولم يكن القتال الذي تبع ذلك قتالاً حاسماً، فأرسل تورانشاه الذي كان سبق له أن عسكر في الجنوب عام ٥٦٧/ ١١٧١، للمرة الثانية في كانون الأولى ١١٧٢ وكانون الثاني ١١٧٣/ جمادي الأولى ـ جمادي الثانية ٥٦٨. تقدم إلى ما بعد أسوان. وكتب الفاضل يصف العدو يقول: «كانوا كالنمل لوناً وطرقاً إلاّ أن الله حطمهم بسليمانه»[١٢]. أعطى تورانشاه الأمان «إلى عامة الناس والمزارعين»، وهي دلالة على الندرة القيمة للفلاحين بالنسبة للدولة المصرية. وبعد ذلك هاجم واستولى على المدينة النوبية إبريم الواقعة على بعد ٣٤ ميلاً (٥٥ كلم) إلى الشمال من أبي سمبل (الخريطة ٦) و ٧٢٨ ميلاً (١١٧٢ كلم) عن القاهرة.

تبذل المصادر العربية بعض الجهد من أجل أن ترسم صورة للأحوال البدائية في النوبة[١٣]. فقد نقل بأن حامية إبريم لم يكن لديها دفاعات ضد السهام. ولم تكن العاصمة النوبية دنقلة حيث أرسل تورانشاه مبعوثاً، سوى مجموعة من الأكواخ، ولم يكن فيها بناء كبير سوى القصر[١٤]. وكانت رقعة الأرض ضيقة، فلم يكن هنالك محاصيل غير الذرة. وتكونت هدية الملك إلى مبعوث تورانشاه من الدقيق. ونبه ابن الأثير إلى الإفتراض بأن صلاح الدين كان يبحث عن ملجأ يمكن أن يقيه من نور الدين. وفسر عودة تورانشاه بأن البلاد لم تكن من الغني بحيث تجتذبه إليها[١٥]. وفي الواقع، فقد أكدت الصعوبات الجغرافية وبخاصة حاجز الشلالات بأنه لم يكن ثمة سوى القليل مما يمكن إنجازه في النوبة غير القيام بحملات تأديبية، إلا إذا بذلت جهود جبارة. وحاول الأيوبيون أن يجعلوا لهم موطيء قدم في إبريم فلم ينجحوا إلا في الصمود فيها لسنتين إثنتين، ثم أخلوها ليعود النوبيون ويحتلوها من جديد.

لا يوجد لدينا تثبيت نعتمد عليه لتحركات صلاح الدين الخاصة. لقد ذكر فيما بعد بأنه قام بحملات ضد الفرنجة في كل سنة من تلك الحقبة. وهنالك بعض

الغموض في روايات كل من وليم الصوري وعماد الدين؛ وقد تخفي هذه الروايات بعض المناوشات التي جرت خلال موسم الحملات من العام ٥٦٨/ ١١٧٢. أضف إلى ذلك أنه لم يكن بالإمكان أن يُظهر بأنه عاد إلى التحرك من جديد بشكل قاطع، إلا بحلول عام ٥٦٩/ ١١٧٣. وكان قد مر تسعة عشر شهراً منذ وفاة العاضد، لم يأت خلالها نور الدين بأي عمل بالنسبة لمصر. ولكنه من الواضح أنه توقع بعض العوض عما أنفقه. واستناداً إلى الأرقام التي أوردها عماد الدين نرى أنه زود شيركوه بمبلغ ٢٠٠,٠٠٠ دينار، يمكن أن يضاف إليها مبالغ أخرى أنفقها على رجاله[١٦]. واختار صلاح الدين في طريق عودته نخبة من كنوز الفاطميين تشتمل على «غرائب المصنوعات»[١٧] وبعض المجوهرات و ٦٠,٠٠٠ دينار وحمار من أحسن الأنواع، وفيل. وغادر القاهرة إما في رمضان أو شوال ٥٦٨/ نيسان أو حوالي نهاية أيار ١١٧٣. وفي ٢١ ذي القعدة/ تموز كان نور الدين في مرعش (الخريطة ٣) الواقعة على بعد نحو من ١١٠ أميال (١٧٧ كلم) إلى الشمال من حلب، فتلقى حينئذٍ الكنوز ولكن الفيل لم يكن قد وصل. وهذا ما يؤكد تاريخ خروج صلاح الدين في رمضان/ نيسان ويشير إلى أن الكنوز أرسلت إلى دمشق، ولربما بعد أن ووكبت إلى ما بعد مدينة الكرك، على أن يلحق بها الفيل، وربما بأمتعة ثقيلة أخرى.

وعلى ما رواه عماد الدين، فإن نور الدين شكر لصلاح الدين هديته، ولكنه قال: «ما كانت بنا حاجة إلى هذا المال... فهو يعلم انا ما أنفقنا الذهب في ملك مصر وبنا فقر إلى الذهب»[١٨]. ومع ذلك فلا يمكن أخذ هذه الملاحظة على علاتها. فقد قال عماد الدين في مكان آخر: «كان نور الدين منذ مُلكت مصر، يؤثر أن يقدر له فيه مال للعمل يستعين به على تحمل كلف الجهاد... وهو سينتظر أن صلاح الدين يبتدىء من نفسه بما يريده، وهو لا يستدعي منه ولا يستزيده»[١٩]. ولدى وصول هدايا صلاح الدين إلى نور الدين وقبل أن يغادر هو نفسه إلى الجبهة الشمالية قرر أن يجري تدقيقاً في حسابات موارد مصر المالية. ومن الجليّ أنه لم يكن يتطلع إلى الهدايا مهما كانت غريبة، بل يرغب في الحصول على مدفوعات منتظمة تكون من زاوية الإقتصاد المصري إعانة مصرية سنوية لسوريا.

وفي الوقت نفسه وبعد أن رأى قافلته أخذت طريقها، عمد صلاح الدين إلى مهاجمة الأراضي الفرنجية. أما أملرك الذي كان يخشى أن يجبر على ترك الساحل

بدون حماية بسبب مناورات فاقته براعة، عمد إلى العسكرة في جنوب خليل الرحمن على نشز في جبال القدس، يطل على البحر الميت[٢٠] حيث يستطيع الإلتفاف حول طرفها الجنوبي فيزحف إلى نجدة الكرك والشوبك إذا كانتا في خطر (الخريطة ٧). غير أن صلاح الدين لم يستعجل معركة ضد القلعتين، فاكتفى بإكتساح الريف. وأخبر نور الدين بأن أحد أهدافه الرئيسة هو طرد البدو الذين كانوا يعيشون في أراضي الفرنجة. وكتب إليه يقول: «علم الملوك بما يؤثره المولى بأن يقصد الكفار بما يخص اجنحتهم ويقلل أسلحتهم ويقطع موادهم ويخرب بلادهم. وأكبر الأسباب المعينة على ما يرومونه من هذه المصلحة أن لا يبقى في بلادهم أحد من العربان... إلى أن صار العدو اليوم، إذا نهض لا يجد بين يديه دليلاً»[٢١].

كان البدو يقومون بأعمال الإستكشاف لصالح الفرنجة ويزودونهم بالمؤن، غير أن رفضهم لتغيير نمط حياتهم بحيث يتلاءم مع رغبات الحكم المستقر جعلهم غير مرغوب فيهم من كلا الطرفين. ووصف الفاضل البدو بأنهم «كالحنظل؛ كلما زيد سقياً بالماء العذب، أفرطت مرارة ثمرته»[٢٢]. وعلق وليم الصوري على غدرهم: «طالما أن نتيجة المعركة غير واضحة فإنهم يرقبون من بعيد. ثم ينضمون إلى المنتصرين ويطاردون المغلوبين كما لو كانوا أعداء، وذلك لإغناء أنفسهم من غنائمهم»[٢٣]. وفي الواقع، كان البدو أوضح مثل على الخلية المستقلة التي تكون الإنماط السياسية الخارجية بالنسبة لها غير ذات صلة بالموضوع إلى حد بعيد. وكانت محاولة صلاح الدين في طردهم من الكرك واحد من عدد من المحاولات التي قام بها. ومما لا ريب فيه انها كانت ذات هدف عسكري صحيح. أضف إلى أنه في هذا الوقت لا بد أن يكون قد سمع من نور الدين عن استلام هداياه، بالإضافة إلى النية بإجراء التدقيق المصري لحسابات الدولة. ويمكن أن ننسب له بعض المكر غير الضار في نقله المشكلات الإدارية وما يتصل بها من نفقات إلى سيده، فكتب يقول: «ولو كان هؤلاء العربان يرغبون في الديار المصرية لكان يحمل كلهم و... ولكن هو أهم في الشام ورغبتهم في بلاده دون غيرها من بلاد الإسلام، ولو أن المولى خلّى لهم إقليماً وأقطعهم إقطاعاً عظيماً ليقلعهم عن الكفر وبلاده»[٢٤].

لقد أساء ابن الأثير فهم حملة صلاح الدين فاعتبرها جزءاً من خطة أخرى

لهجوم على الفرنجة متفق عليه بين مصر وسوريا. وصوّر هدايا صلاح الدين بأنها «تحل عن الوصف» - وبأنها حملت إلى دمشق بواسطة ضياء الدين عيسى ليعتذر عن رحيله [إلى مصر][٢٥]. ومن الواضح، مع ذلك، إنه في هذا الوقت لم يكن لدى نور الدين نية في توريط نفسه في حصار طويل للكرك وذلك لأنه كان منشغلاً في شؤون الشمال.

لقد كان الشمال يعاني من مشاكل قديمة تتعلق بشؤون الحدود والسياسة. فكان البيزنطيون يشتركون في حدود غير مستقرة مع سلاجقة الروم. وكان لدولة أرمينية الصغرى المسيحية موطىء قدم في كل من الجبال وسهل كيليكيا. واحتفظت السلالات الإسلامية من الدنشمدية والأرتقية بسيطرتها على عدد من المدن الإستراتيجية.

وكان للارتقيين القابعين في ماردين وحصن كيفا أهمية خاصة في النزاعات التي تدور حول الموصل. وقد سبق أن رأينا، أن نور الدين تلقى إمدادات من حصن كيفا أثناء زحفه على الموصل في ٥٦٦/ ١١٧٠. والآن، واستناداً إلى رواية ابن الأثير، كان صاحب سيواس الدنمشندي (الخريطة ١) هو الذي أعطاه الحجة للزحف شمالاً بعد أن إدعى بأن قلج أرسلان كان قد هاجم بلاده[٢٦].

ولم يكن لدى قلج أرسلان، سلطان سلاجقة الروم، أي دور مباشر في شؤون نور الدين إلا أنه من حيث سياسة التسلط وفي إطار الجهاد ضد الفرنجة، كان يعتبر خصماً محتملاً. ومن الناحية الجغرافية، كان يتمتع بموقع دفاعي منيع. فالقبائل التركمانية التي كانت ترعى مواشيها في أراضيه كانت تكوّن مصدراً ملائماً لمد الجيوش المحاصرة بالرجال[٢٧]. وبخلاف نور الدين الذي لم يكن لديه سوى ابن واحد، كان لقلج أرسلان أحد عشر ولداً وهو إغراء واضح بالتوسع. وكان يشارك نور الدين القول بأن الإسلام شرّفه بأن يكون في معركة المواجهة مع الكفار.

وعزم نور الدين على إستخدام الشكوى التي تلقاها. فارتحل من قاعدته في حلب نحو مرعش، قرب نهر جيحان، وهاجمها في ٢٠ ذي القعدة ٥٦٨/ ٢ تموز ١١٧٣. وبعد أن تم استسلام المدينة، اتجه نحو الشرق واستولى على بهسني الواقعة بين جيحان والفرات. ثم استولى بالقوة على قلاع ومدن صغيرة أخرى أو

بعضها صلحاً. وما إن دخلت السنة الهجرية ٥٦٩ (١٢ آب) حتى بدا أنه أشرف على إنهاء حملته. وقلـج أرسلان، وهو رجل وصفه نيكيتاس بأنه: «لا يبدو دائماً بأنه يعمل بحذر وبرويّة»[٢٨] لم ينتقل إلى حدوده. ولو أن نور الدين مد خطوط إتصالاته مسافة أطول، لكان عرّض نفسه إلى مخاطرة كبيرة.

من المستغرب أن عماد الدين لا يذكر لنا شيئاً عن أي إتفاقية سلام، ولكنه يكتب أن نور الدين «ملك تلك البلاد وأقطعها الأجناد»[٢٩]، ولا يأتي على ذكر سيواس، التي استعيدت مؤقتاً. ويبدو أنه يقترح بأن الحملة ستتوقف، بكل بساطة، عندما ينضب زخمها. أنكر هذا ابن الأثير الذي كتب يقول بأن نور الدين أرسل فرقة من الخيالة إستولت على سيواس، الأمر الذي دفع قلج أرسلان إلى طلب الصلح[٣٠]، ونور الدين الذي سمع أخباراً عن الفرنجة مزعجة كان مستعداً ليقبل هذا الطلب، فأشير إلى رسالة تضمنت شروطه[٣١]. وكان على قلج أرسلان أن يزوج إبنته إلى سيف الدين غازي صاحب الموصل؛ كما كان عليه أن يجدد إعلان إسلامه. وثمة ملاحظة تشير إلى أنه «كان يتهم بإعتقاد مذاهب الفلاسفة»؛ وقد اتهم بأنه تخلى عن الجهاد ضد البيزنطيين فأمر بأن يرسل جنوداً، كلما طلب إليه ذلك، لمقاتلة البيزنطيين أو الفرنجة. والواقع بأن هذه الشروط التي كانت تروق لعماد الدين والتي يذكرها البنداري في ملخصه تحملنا على أن نرتاب فيها. أضف إلى أنه تبدو ذات أهمية لجهة أنها تدل على المدى الذي أحس به المدافعون عن نور الدين بأنه كان عليهم تدمير المكانة الرفيعة التي كان قلج أرسلان يأمل في الحصول عليها نتيجة لدفاعه عن الشمال ضد البيزنطيين.

هدد نور الدين الآن المدينة الأرمنية قلعة الروم (الخريطة ٨) ولكنه رضي بالتخلي عنها مقابل ٥٠٠٠ دينار، وعاد من حلب إلى دمشق وهو مريض[٣٢]. وحدث في نفس الوقت في مصر، أن والد صلاح الدين، أيوب، قد تعرض في ١٨ ذي الحجة/ ٣١ تموز لحادث أثناء ركوبه الخيل، ثم توفي في ٢٧ ذي الحجة/ ٩ آب. وحوّر ابن الأثير القصة بقوله إن صلاح الدين قدم إلى نور الدين حجة إعتلال صحة والده كي لا يقابله في الكرك، وإنه حين عاد إلى مصر علم بوفاته. وأضاف: «لا وكلمة تقول لقائلها دعني»[٣٣]. وتاريخ ابن الأثيرمشوّش هنا، وذلك لأن نور الدين لم يكن حينئذ متقدماً نحو الكرك، غير أنه قد يكون موت أيوب تدخّل بخطة ما للقيام بحملة خريفيّة. ولم تزودنا المصادر العربية بتاريخ دقيق لعودة صلاح الدين

إلى مصر. ووليم الصوري يجعله يتأخر في المنطقة الفرنجية حتى «حوالي نهاية أيلول»[٣٤]. لم يكن صلاح الدين يواجه مشكلات ملحة عند موت أيوب، غير أنه يتوقع أن يكون قد قفل راجعاً ليبحث شؤون أملاكه وإقطاعاته كلما سمحت بذلك الظروف العسكرية.

كان نور الدين الآن مستعداً لتنفيذ خطته المتعلقة بإجراء التدقيق الكامل في حسابات العائدات والموارد المالية المصرية، بما في ذلك ما أُخذ من القصر. ولهذه الغاية انتدب أحد موظفية القياديين الموفق بن القيسرانس. لم يُعط أي تاريخ أكيد لوصول الموفق إلى مصر. وبما أنه كان قد غادر مرّة أخرى إلى سوريا في ٢٠ شوال ٥٦٩/ منتصف أيار ١١٧٤ فيفترض أنه لا بد أن جاء خلال شتاء ٥٦٩/ ١١٧٣ - ٧٤ على أبعد تقدير. واستناداً إلى ابن أبي طي، فإن الرغبة في إجراء تدقيق الحسابات قاد صلاح الدين إلى التفكير بشق عصا الطاعة، إلا أنه غير رأيه وأتاح لموفق الدين بأن يرى ما يرغب في رؤيته بما في ذلك سجلات جنوده مرفقة بلوائح بالإقطاعات المختلفة والرواتب[٣٥]. ونقل عنه عماد الدين مشيراً إلى نفقات الإدارة المصرية قائلاً: «ما يضبط هذا الإقليم إلاّ بالمال العظيم»؛ وأن «أكابر الدولة» إعتادوا السعة والدعة على نعمائها؛ ولا يمكن أن تؤخذ منهم الأمكنة التي يسيطرون عليها، كما لا يمكن إيقاف تدفق وارداتهم المالية[٣٦]. هنا بدا واضحاً أن نور الدين سيطلب من مصر تقدمة سنوية ليوافق على هذه التنازلات المالية لصالح «الأكابر» وأنه ستكون هنالك أزمة خطيرة إذا لم تكن هذه التقدمة قريبة المتناول.

كان بين «أكابر الدولة» أخ لصلاح الدين هو تورانشاه، وهو رجل ذو كرم فياض. والذي قيل انه عند وفاته خلّف وراءه ديوناً بلغت ٢٠٠,٠٠٠ دينار. واضطر القاضل، مرّة، أن يدافع عنه لدى صلاح الدين، فكتب يقول: «وأما المولى المعظم... لا يحاسبه فيما يعطيه، فإنه إذا أعطاه، فقد جعله واسطة بينه وبين سائليه»[٣٧]. إن هذا النوع من الدفاع الخاص كان، مع ذلك، في غير محله في وقت كان فيه المال عزيزاً. ولا بد أن يكون قد نظر إلى تورانشاه بأنه عبء على مصر حيث قيل «كان إقطاعه بمصر لا يقوم بفتوته ولا ينهض بمروته»[٣٨]. ولم يرغب في أن يستقر في الجنوب، وكان من الواضح أن مصلحة صلاح الدين هي أن يجد مكاناً، في الخارج ملائماً يمكن أن يُرسل إليه. فوقع الإختيار على اليمن.

فسّر صلاح الدين نفسه الهجوم على اليمن بأنه حثت عليه السيرة السيئة لعبد النبي، حاكم زبيد (الخريطة ٥). فقد اتهم عبد النبي بأنه كان زنديقاً ضلل المسلمين، وجدف على الإسلام بتسمية ضريح والده بالكعبة، واستولى بغير وجه حق على ثروة تابعيه. ودوّن صلاح الدين أن عبد النبي إستعبد النساء الورعات وباعهن بأثمان بخسة[٣٩]. وقال ابن أبي طي الذي شدد على الدوافع الشخصية التي كانت وراء الحملة، بأن تورانشاه كان يحثه الشاعر عمارة اليمني، وأنه حصل على وعد بالدعم من قبل أحد أعداء عبد النبي، وهو هاشم بن غانم من بني سليمان الذي كان يملك زمام السلطة في ظفار وصعدة وتعز[٤٠]. واستشهد أبو شاقة بأبيات من قصائد كتبها عمارة فيها هذين البيتين:

أمامك الفتح من شام ومن يمن فلا تردّ رؤوس الخيل باللجم
فاخلق لنفسك ملكاً لا تضاف به إلى سواك وافر والنار في العلم[٤١]

أما بالنسبة لابن الأثير، فلم تكن اليمن سوى ثغرة أيوبية أخرى للفرار يلجأ إليها في حال وقوع هجوم يقوم به نور الدين[٤٢].

إن هذه الدوافع، سواء أكانت قيمة أم لم تكن، يمكن أن يكون لها جميعها بعض الصلة بالموضوع، غير انها يجب أن توضع في دائرة حاجة صلاح الدين للنمو. فاليمن كانت الهدف المثالي لإستراتيجية الغزو. كتب القلقشندي يقول: «وصاحب اليمن لا عدو له، لأنه محجوب ببحر زاخر وبرّ منقطع»[٤٣]. ولكن حملة مصرية تستطيع، في الواقع، أن تحشد جيشها بأمان في مكة ثم تزحف نحو الجنوب. وإذا صادفت مصاعب فبإمكانها العودة إلى الحرم نفسه، وتبقى قاعدتها في مصر طوال ذلك الوقت بمأمن من كل خطر.

كانت اليمن نفسها تحتوي على خليط من الرقي والتخلّف. وصف ابن جبير رجال القبائل اليمنيين الذين شاهدهم يجلبون المواد الغذائية لمقايضتها بالثياب في مكة بأنهم بدو بسطاء، لم تمسهم الحضارة. وكتب: «وأما صلاتهم، فلم يذكر في مضحكات الإعراب أظرف منها»، حيث لا يرى المصلون أي شكل من الطقوس المألوفة الإنتظامية إلا أنهم «أهل إعتقاد للإيمان صحيح»[٤٤]. غير أن اليمن كانت مركزاً لواحد من الطرق التجارية الرئيسة للشرق. وكانت عدن، كما ذكر ابن الأثير، ميناء الهند والساحل الأفريقي والحبشة وعمان وكرمان وقيش

وفارس وهذه اللائحة تغطي كلاً من تجارة المحيط الهندي والتجارة الأفريقية الشمالية والجنوبية، والطرق التي تمر عبر الخليج إلى بلاد الفرس[٤٥]. (الخريطة ٤).

ولعل الأفراد المصريين قد رغبوا في تقوية مكانتهم التجارية على هذه الطرق. ولكن على الرغم من أن ديون تورانشاه يمكن أن توحي بالإعتماد على التجار الذين يقرضون المال، فليس هنالك من دليل على أن المشاريع التجارية الخاصة كانت وراء تلك الحملة. ولم يكن صلاح الدين نفسه بحاجة إلى بعض التشجيع. فاليمن بالنسبة له «بيت المال»[٤٦]. وبمهاجمتها يستطيع نشر قواته، ويبقى أخاه منشغلاً، ويأمل في الحصول على فوائد جمة مقابل مخاطرة غير حقيقية، وإلى ذلك يستمر تطبيق ما يعلنه من خدمة الإسلام. فليس مستغرباً أن يمد يد العون لإعداد الحملة. وسمح لتورانشاه بأن يحتفظ بعائدات سنة واحدة من مداخيل قوص لإنفاقها في شؤونه الخاصة، وزوده صلاح الدين بعدد إضافي من الرجال والمؤن. وغادر تورانشاه في غرة شهر رجب من العام الهجري ٥٦٩ (٥ شباط ١١٧٤)؛ وفي ٣ شعبان/ ٩ آذار كان يكتب لصلاح الدين من ينبع، وهو ميناء المدينة المنورة[٤٧] على الشاطيء الشرقي من البحر الأحمر. ومن هناك سار إلى مكة المكرمة.

وتبع تحركه إكتشاف ما وصف بأنه مؤامرة فاطمية أخرى، وأن خروج تورانشاه، حسب رواية غريبة، إنما كان بتحريض من عمارة اليمني ليتم هذا الأمر[٤٨]. وقيل إنه تورطت في هذه المؤامرة فئات مختلفة من مناصري الفاطميين وفيهم موظفون رسميون وجنود وزنوج وأرمن وغلاة الإسماعيلية، وكلهم كانوا يشكون قطع أرزاقهم والإستيلاء على ممتلكاتهم. وزُعم أنهم كانوا على صلات بالفرنجة الذين إعتادوا إرسال رسول إلى القاهرة يحمل رسائل ودٍّ لصلاح الدين. وكان هذا الرجل يخرج في الليل على ظهر جواده، أو يتظاهر بأنه ذاهب إلى الكنيسة وذلك من أجل التستر على إجتماعاته مع «حاشية القصر وخدامه»، وأمراء مصريين وجماعة من المسيحيين واليهود «وكلابهم وكتابهم». واختاروا موسم الحصاد الربيعي الذي كان يقع في آذار ونيسان وأيار، في مصر العليا، حيث يكون العديد من رجال صلاح الدين مشغولين بالعمل في إقطاعاتهم. وإذا ما أرسل أسطول فرنجي، فإنه يمكن شن هجوم مشترك. وقيل إن المتآمرين طلبوا نجدة من

سنان صاحب الحشاشين في سوريا الذي كان هو نفسه قد قام بمفاتحة الفرنجة بالموضوع في عام ٥٦٨/ ١١٧٢. غير أنه ظهرت صعوبات قبل أوانها. وهي الخلاف في عملية إختيار خليفة ووزير لإدارة المملكة الفاطمية المعادة. واستناداً إلى ما رواه عماد الدين، فإنه تم كشف هذه المؤامرة بواسطة «أحد أفراد الجيش». وقال ابن الأثير بأن مسيحياً استخدمه صلاح الدين عميلاً سرياً كشف عنها. واستناداً إلى رواية أخرى فإن نجم الدين بن مصال الذي كان قد ساعد صلاح الدين في حصار الإسكندرية كان عضواً في المؤامرة ثم تنكب عنها، فيما أشارت رواية أخرى إلى أن الخائن هو زين الدين علي الذي طلب الحصول على ملكية أحد رفاقه المتآمرين معه كمكافأة له على الإفشاء بسرها[٤٩]. وتم توقيف القادة بمن فيهم عمارة وابن عبد القوي وهو الرجل الذي قيل بأنه يعرف أسرار القصر، ثم أعدموا في رمضان/ ٦ نيسان.

كانت هذه المؤامرة الرئيسة الثانية التي وجهت ضد صلاح الدين من قبل أعدائه المصريين. وكما كانت الحال مع المؤامرة السابقة، فإنها تثير بعض التساؤل، رغم توقع تمرد مناصري النظام القديم كلما رأوا فرصة للنجاح في ذلك. وكان عمارة الذي استمر في مدح بني رزيك بعد أن أزالهم شاور، قد واصل دعمه للقضايا الخاسرة وذلك بنظم قصائد يتحسر فيها على أيام الفاطميين. وقد وصل أسطول صقلّي إلى الإسكندرية في ذي الحجة ٥٦٩/ تموز. وأورد ابن الأثير أن أموري لم يتحرك، بعد أن سمع بفشل المؤامرة بينما لم يسمع الصقليون بفشلها. ومن جهة ثانية، لا يمكن لتاريخ تموز أن يتلاءم مع خطة الحصاد الربيعي. فقد عرفت مصر مسبقاً استعدادات الصقليين، وكان يمكن القيام بعصيان يتزامن مع هجومهم دونما حاجة إلى تبادل الرسائل. وكان صلاح الدين يومها على درجة من القوة لا تقل عما كانت عليه أثناء حملة دمياط، التي كان يمكن لفشلها أن يثبط همة المتآمرين، ما لم يكونوا بائسين. وإن ورود إسمي ابن مصال وزين الدين علي لأمر مثير. لقد روي عن صلاح الدين انه قال عن ابن مصال عند وفاته: «لن يكون لي صديق مثله بعد اليوم»[٥٠]. ومن غير المحتمل أيضاً أن يكون زين الدين علي من المتآمرين. كان دمشقي المولد وعلى علاقة ودية مع الفاضل، وجرى إختياره فيما بعد من قبل صلاح الدين لشرف الخطبة في القدس بعد الإستيلاء عليها[٥١]. وكان ابن مصال قد زوّج إحدى جواريه من عبد الكريم ابن زين الدين[٥٢] وهو تدبير يتضمن علاقة مولى بسيده. وإذا كان أحدهما أو كلاهما يعمل لدى

صلاح الدين كعميل محرض، فإن الرابط بينهما يمكن أن يساعد على تفسير روايات متعددة.

إن السبب الرئيسي للظن بأن صلاح الدين ينبغي أن يكون، على الأقل، قد جعل المؤامرة تبلغ أوجها هو توقيتها. وكما في المناسبة السابقة، تزامن ذلك تماماً مع حاجاته. ففي عام ٥٦٥/ ١١٦٩ هدده الأسطول البيزنطي. فاخلى القاهرة من مثيري الشغب المحتملين، وهو الآن يرى أنه يفضل نفس الشيء تحت وطأة الخطر الذي يأتيه من الهجوم الصقلي. والأمر المباشر أنه في رمضان/ نيسان كانت بعثة الموفق إلى مصر قد بلغت نهايتها وكان على وشك أن يعود بتقريره إلى نور الدين. ولم يكن صلاح الدين مطمئناً إلى ردة فعل نور الدين، وإن الحديث مباشرة عن مؤامرة خطرة سيساعد على توكيد دقة الوضع في مصر، كما سيؤكد الصعوبات والمسؤوليات المتعلقة بمكانته بالذات.

شوهد نور الدين في بداية صيف ٥٦٩/ ١١٧٤ يحشد رجاله. وكان قد بعث بطلب الجنود من الموصل وديار بكر والجزيرة. وغادرت طليعة جيش الموصل بقيادة كمشتكين الخصي، في منتصف شهر شوال/ أيار. وأكد ابن الأثير أن الهدف كان مصر[٥٣]. وفي رأيه، أن صلاح الدين توانى في هجماته على الفرنجة. وأدرك نور الدين الذي كانت الحرب المقدسة هي همه الأوحد، إن ذلك يعود إلى رغبته في أن تقوم دولة فرنجية بدور الحاجز بينه وبين سوريا.

كان ابن الأثير قد نقل في وقت سابق خبراً متصلاً عن مجلس للعائلة الأيوبية دعي إلى مناقشة خطر نور الدين[٥٤]. وكان أيوب إنتقد تقي الدين علانية لإلقائه كلمة عدائية، غير أنه أسرّ إلى صلاح الدين بأن يعامل بلباقة مع إظهار الطاعة، ولكنه «إن أراد قصبة من السكر، لقاتلته عليها». وأكد صلاح الدين لابن شداد «بلغنا عن نور الدين أنه ربما قصدنا وكانت جماعة أصحابنا يشيرون بأن نشق عصاه ونلقي عسكره، وكنت وحدي أخالفهم»[٥٥] ولقد «صبر منه على مثل حز المدى ووخز الابر»، الأمر الذي كان يشكو منه بالإضافة إلى «الأشياء التي لا يصبر على مثلها»[٥٦] التي وردت في رسائل نور الدين، والتي «قد تكون وسيلة لها إلى منابذتي». وفي حين كان نور الدين يستدعي تعزيزاته، كان صلاح الدين يجمع جنوده في بركه الجب خارج القاهرة.

والتوضيح الذي أرسله فيما بعد إلى سوريا أنه في السنة الفائتة لاحت له فرصة النجاح في الكرك، وأنه كان الآن يخطط من أجل الإنضمام إلى نور الدين في القيام بهجوم مشترك ضدها[٥٧]. وينبغي ألا يقبل هذا بمعناه الظاهري. وكان ابن الأثير على حق في روايته، إذ كان بالإمكان رؤية حشود صلاح الدين أنها على إستعداد للدفاع عن مصر. ومن جهة ثانية، لم يكن الموفق قد وصل بعد إلى دمشق. وكان مصحوباً بضياء الدين عيسى، مبعوث صلاح الدين، بالإضافة إلى الهدايا والمال وكشف حساب بأموال مصر. وحتى إذا كانت العلاقات قد بلغت حد القطيعة، فيمكن أن يفسح بوضوح في المجال للدبلوماسية. ويمكن الاعتقاد بأن صلاح الدين كان يكشر عن أنيابه على سبيل التحذير، خصوصاً وأنه عرض في هذا الوقت بالذات إرسال تعزيزات إلى تورانشاه في اليمن (١١ شوال/ منتصف أيار)[٥٨]. وينبغي أن يوحي هذا أن ابن الأثير كان يفسر الأحداث قبل وقوعها. فلو أن نور الدين طلب علاوة من مصر، لكان صلاح الدين وجدنفسه بين حاجته إلى النمو وبين تأكده من أن نور الدين لن يتحمل أن يرفض طلبه. وستكون الحرب الجواب المنتظر. ولكن رسالته لا توحي بأن ليس لدى صلاح الدين أية مخاوف حتى الآن.

والذي حدث أن نور الدين لم يتلق أبداً تقرير الموفق. فقد أقيمت بدمشق الإحتفالات يوم الأحد في أول شوال/ ٥ أيار بمناسبة ختان ولده الوحيد الصالح. وفي ٢ شوال/ ٦ أيار أخذته سورة من الهيجان غير العادي حين كان يمارس لعبة الصولجان فعاد إلى قلعة دمشق حيث وقع طريح الفراش. وأراد الأطباء أن يفصدوه، غير أنه قال لهم: «ابن ستين لا يفتصد»، «ولما كان رجلاً يوحي بالرهبة، لم يلحوا عليه بذلك»[٥٩]. وتوفي في يوم الأربعاء في ١٦ شوال/ ١٥ أيار، فكتب عنه وليم الصوري انه كان «أشهر مضطهدي المسيحيين، ولكنه كان حاكماً عادلاً، ذكيّاً بهيّ الطلعة؛ كما كان رجلاً متديناً»[٦٠].

٥ - الاستقلال

تصعب المبالغة في التوكيد على تأثير نور الدين على تربية صلاح الدين السياسية، وعلى سيرة حياته. لقد كان نور الدين نصير سياسة التوسع القائمة على المثل الأعلى للجهاد، مستغلاً الدعاوة الدينية، وحاكماً أظهر أنه يضع قيمة الرجال فوق المال. وبموته وموت أيوب أزيلت مظاهر فتوة صلاح الدين البارزة. وكان أيوب نفسه قد مات دون أن يقيم ميزاناً للقوى أو يبدل، على ما يبدو، نمط حياة صلاح الدين. إلا أن نور الدين، تركه وهو على طريق الاستقلال السياسي الحقيقي. ولعل حقيقة صلاتهما لن تكتشف أبداً. وكل ما بقي لا يعدو الشائعة المرتكزة، على نحو يمكن مناقشته، إلى الكراهية المتبادلة بين نور الدين وصلاح الدين. وما لا يمكن دحضه هو أن صلاح الدين عاش في ظل نور الدين. وكانت مصر كما ترى من سوريا، غزو أنفقت عليه أموال سورية. وكانت سياسة صلاح الدين التوسعية إما سياسية غير صحيحة أو هدراً للموارد المالية التي كان يمكن استخدامها خلاف ذلك من قبل سوريا. ولا شك في أن مصر كانت قاعدة للحرب المقدسة. غير أنه من الملاحظ حتى هذه الفترة أنه لم يكن قد أعد مشروع هجوم كماشة على فلسطين. ومن الناحية الاقتصادية بقي البلدان منفصلين بدون أية محاولة مدّونة جرت لجمع مواردهما المالية في خزانة مشتركة. وقضى موت نور الدين على كل أمل بتقديم سوريا أية إعانة مالية فورية، وتركت القاهرة ودمشق في وضع ليس لأحداهما فيه أية ارتباطات لازمة مع الأخرى.

وهذا يعني أن صلاح الدين استطاع أن يحدد سياسته الخاصة. وإذا كان

بالإمكان أن نثق بالبينات والدلائل[1]، فمصر كانت خلال السنين الأولى من حكمه شبكة استيراد للرجال. وكان صلاح الدين يعاملهم فقط كمناصرين للأيوبيين ويحاول إعادة تصدير عدد منهم إلى أفريقية الشمالية واليمن. وليس هنالك أي دليل على أنه كان يعتقد بإمكان زيادة قدرة مصر على استيعابهم. غير أن بالإمكان أن نجادل مع ابن الأثير، أن سياسته المتعلقة بالتوسع الخارجي قد تحددت، بجزء منها على الأقل، في ضوء الحاجة للتوسع إلى مدى لا يستقيم معه أي ضبط ممكن. وبموت نور الدين أصبح خيار صلاح الدين حراً، ويمكن إحياء الامبراطورية الفاطمية المرتكزة على القاهرة، كدولة أيوبيّة. والبحر المتوسط، والبحر الأحمر، والنيل أو ثلاثتها معاً تتيح له تشكيل خططه، أو يمكن إخضاعها، كما في السابق، إلى سياسة مركزها سوريا. والتي كانت غايتها، أو وسيلتها، الجهاد، بحيث يأخذ صلاح الدين دور نور الدين.

الظاهرة الوحيدة هنا هو أنه لم يكن بالإمكان استخدام سوريا كعامل في حسابات صلاح الدين إلى أن انقشع غبار الاضطرابات. وكأن نور الدين في موته لا يزال يلقن صلاح الدين درساً.

فالدولة، كما برهن على ذلك، يمكن تسييرها بنجاح بواسطة رجل واحد ينال طاعة أفراد عائلته، ويسيطر على فريق من الأتباع الذين يجب أن لا تحدد مكانة الواحد منهم بالنسبة للآخر. أضف إلى أنه بالنسبة للسلالة الحاكمة تحتاج بنية الحكم إلى توضيح بحيث يمكن نقل السلطة بسهولة من جيل إلى جيل آخر. وحين توفي نور الدين كان ابنه «الصالح» يبلغ من العمر احدى عشرة سنة. وكان عماد الدين زنكي أكبر أبناء أخيه وصهره، غير ذي سلطة نسبياً في سنجار، في حين كان سيف الدين غازي، في الموصل، غير قادر على الاعتماد على ولاء زنكي. غير أنه لم يكن لسنجار ولا للموصل ولا لصالح الصغير في سوريا من الموارد المالية والخبرة التي تضارع موارد وخبرة مصر وصلاح الدين القائد المجرّب والإداري الخبير.

كان سيف الدين قد أظهر إبتهاجه بموت عمه بأن سمح بشرب الخمرة علناً في الموصل، وبتوسيع حدوده حتى نهر الفرات[2]. ومن سيواس جاء عبدالمسيح، مدير إدارته السابق، للإنضمام إليه، ونصحه بأن يبتلع سوريا أيضاً، ولكنه لم

يقتنع بنصحه فعاد إلى بلده. وفي سوريا كان الصالح أصغر من أن يتمكن من تسلم زمام سلطة فعلية. وكان هناك أقوى تجمع عائلي فريد هو تجمع الأخوة المعروفين ببني الداية. وكان أكبرهم مجد الدين وهو رضيع نور الدين، قد مات في العام ٥٦٥/ ١١٧٠، ولدى موت نور الدين كان الباقون منهم يبدون متمركزين على نحو حصين في مدينة حلب وحولها. وكان علي، الموصوف بأعظم أمراء النورية، مستولياً على شيرز؛ وعثمان مستولياً على قلعة جعبر وتل باشر، في حين كان حسن مستولياً على حارم[٣] (الخريطة (٨).

تحرّك علي الآن إلى قلعة حلب، غير أنه كان رجلاً مريضاً، في حين كانت مدينة حلب نفسها تعاني من الاضطرابات حيث كان المسلمون السنة يدعمون بني الداية، إلا أن الطائفة الشيعية القوية كانت تتبع قيادة ابن الخشاب. وكان في نفس الوقت في دمشق عدد من الموظفين الرسميين التابعين لنور الدين بما فيهم ريحان «أكبر الخدم»[٤]، والوزير العدل بن العجمي، وإسماعيل، خازن بيت المال، فاضطلعوا بقدر من الاستقلال. تحالفوا بأن يعملوا معاً، وعينوا ابن المقدم مقدم العسكر. وكان باستطاعة ابن المقدم أن يستدعي حامية دمشق، إلا أن المصلحة الرئيسة للمجموعة كانت تكمن في واقع أن الصالح الذي مكث في دمشق، كان تحت سيطرتهم.

وقام الفرنجة برد فعل رجوا أن يتم لهم به الأمر. فجمع أملرك قوة عسكرية فرنجية وهاجم بانياس عبر المياه الرأسية في الأردن التي كان نور الدين قد أخذها منه في عام ٥٥٩/ ١١٦٤. استناداً إلى وليم الصوري، عملت أرملة نور الدين «مبدية قوةً أكثر من القوة الأنثوية» بدلاً من زوجها فحاولت شراء هدنة[٥]. فاستمر أملرك بالحصار لمدة ١٤ يوماً على أمل أن يحصل على شروط أفضل؛ إلا أنه توقف عنه فجأة حين وجد أن معنويات الحامية آخذة في التحسن في حين كانت صحته هو في تدهور. ووافق على الشروط التي تقدم بها المسلمون وانسحب إلى طبرية. ولم تذكر المصادر العربية شيئاً عن الدور الذي لعبته أرملة نور الدين، بل ذكرت أن ابن المقدّم تحرّك نحو بانياس وراسل الفرنج في الحصول على هدنة، وخوفهم بتحرك صلاح الدين من مصر قاصداً بلادهم[٦].

كان صلاح الدين العامل المجهول في المعادلة. فقد كتب ابن أبي طي أنه

بعد موت نور الدين أقسم الأمراء السوريون على مخاصمة صلاح الدين وقبض على أصحابه الذين بالشام[٧]. واستناداً إلى ابن الأثير فإن كمال الدين الشهرزوري حثهم على استشارة صلاح الدين في الشؤون السورية ـ «دعونا بأن لا نطرده من بيننا، لئلا يطرد نفسه من ولائه لقضيتنا؛ فإنه أقوى منا». وفي الواقع، كتب عماد الدين مباشرة بعد موت نور الدين رسالة إلى صلاح الدين باسم الصالح، وأشار فيها إلى واقع أن جميع الأمراء السوريين وافقوا على البيعة للصالح. «من هنا ما يشغل السر غير شغل الفرنج خذلهم الله». ووجهت دعوة مستترة إلى ولاء لصلاح الدين؛ فإن نور الدين قد وثق به وأدخره «لمثل هذا الحادث الكارث»[٨].

وكتب صلاح الدين نفسه [عند وفاة نور الدين] من معسكره في بركة الجب إلى أمير سوري لم يسمّه، فقال، على نحو ملغز، «ورد خبر من جانب العدو اللعين عن المولى نور الدين» وأنه يأمل بأن يكون نبأ كاذباً، ولكنه إن صح، حينئذ «ما رتب الملوك ممالكها إلاّ لأولادها»؛ إنه سبق أن أوصاه نور الدين بأن يخلفه الصالح على أن يكون كمشتكين (بين يديه) (مديره الإداري). فإن كانت الوصية ظهرت وقبلت، والطاعة في الغيبة والحضور أديت، وإلاّ فتحن لهذا الولد «سيف على من عاداه». وحذر السوريين «فالعداوة محدقة بكم من كل مكان»، ووعد بأنه إذا ما قام الفرنجة بأي هجوم، فسوف يزحف لملاقاتهم؛ وإذا لم تصح الأنباء، فإن «جيوش نور الدين» سوف تهاجم الكرك كما تم ترتيب ذلك[٩].

وفي ٤ ذي القعدة/ ٦ حزيران، أي بعد إنقضاء ستة أسابيع على وفاة نور الدين، أرسل صلاح الدين رسالة تعزية رسمية إلى الصالح. وأشار فيها إلى «الزلزالة التي أحدثتها هذه الفاجعة؛ لقد فقد الإسلام اسكندره، إلا أن يدي «العبد» الاثنتين هما في خدمة ابنه، واحدة تمسك بقبضة السيف، وأخرى مبسوطة توزع السخاء؛ وإذا ما قام الأعداء بهجوم، فسوف يطاردهم كما يلحق الليل بالنهار». وأرخت الرسالة لأول يوم جمعة ألقيت فيه الخطبة في مصر باسم الصالح، وأنهيت بالدعاء إلى الله بأن يحفظ مملكته إلى الأبد[١٠].

وفي ٣ ذي الحجة/ ٥ تموز، أي بعد إنقضاء حوالي أربعة أسابيع على رسالة صلاح الدين للتعزية، وبعد إبرام إتفاقية الهدنة مع أملرك، كتب عماد الدين مرة

ثانية من دمشق جواباً، على ما يبدو، على رسالة تأنيب لم تحفظ، فقدم الأعذار لجهة أن صلاح الدين لم يبلغ باستمرار عن الوضع قائلاً انه لم يكن هنالك متسع من الوقت للكتابة ثانية «وظننت الأولى كافية». ولعله كان يلتمس الأعذار لغموض رسالته السابقة حيث أضاف: «فأخبار الكفار ليست بخافية». ثم شرح الحاجة إلى الهدنة بقوله إن الفرنجة قد جلبوا قوة هائلة من المشاة والفرسان في وقت كانت فيه حامية بانياس غير متيقظة وتنقصها المؤن والذخائر[١١].

وبعد مرور أسبوع كتب صلاح الدين إلى القاضي ابن أبي عصرون من فاقوس الواقعة على الطريق الساحلية إلى فلسطين (الخريطة ٧). فلدى سماعه بتقدم الفرنجة من حاكم بانياس تقدم أربعة مراحل بجيشه، ففاجأته أنباء الهدنة التي كانت عمل معصية لله ورسوله ولجميع المسلمين الأتقياء الصالحين؛ وكانت شروطها (الهدنة) تشمل دمشق وحدها[١٢]:

«وإن أتممنا [الزحف] ظُنّ بنا غير ما نريد، وإن قعدنا فالعدو من بقية الثغور التي لم تدخل في الهدنة غير بعيد، وإن فرّقنا العساكر لدينا فإجتماعها بعد افتراقها شديد. فرأينا أن سيرنا إلى حضرة الأمير شمس الدين أبي الحسن علي وأخوته [بني الداية] يعرفهم قدر خطر هذا الارتباك، وقد منعنا عساكرنا أن تفترق خوفاً أن يقصد العدو ناحية حارم بالمال الذي قويت به قوته . . . فإنه ما دام يعلم أنا مجتمعون، وعلى طلبه مجمعون، لا يمكنه أن يزايل مراكزه ولا يبادر مناهزه»[١٢].

لقد واجه صلاح الدين قراراً صعباً. كان بإمكانه أن يجمع بين سياسة محض مصرية والاهتمام بالحرب المقدسة. فامّا أن يتحرك على نحو مستقل ضد الفرنجة وإما أن ينتظر في مصر حتى يدعى من قبل الصالح كي يهب إلى نجدته. وان وضعه، مع ذلك، وهو يستند إلى الموارد المصرية، كان أقوى من وضع أيّ من التجمعات السورية، ويجب أن يتسلم زمام الأمور في البلاد، وفاقاً لمنطق توسع السلالي الملكي، قبل أن تقع في أيدي خصم محتمل. واستطاع أن يؤكد ـ وقد فعل ذلك ـ بأن سوريا كانت، من أجل الجهاد، قاعدة أفضل من مصر. ولكنه لم يكن يتوقع بعد أن يكون مقبولاً كنصير الإسلام الذي يجب أن تعطى له كحق من حقوقه. كما أن الاحتكام إلى الإسلام سيبدو نفاقاً في حال مهاجمة أراضي سيده السابق: تلك كانت نقطة ملاحظاته إلى ابن أبي عصرون حول الشبهات التي ستثار

إن هو تقدّم. من الناحية المثالية أو النظرية، كان يحتاج إما إلى دعوةٍ إلى سوريا وإما إلى حجةٍ كفوضى مثلاً أو خطرٍ من الفرنجة. وإن تحركا من جانب أملرك ضد حارم، والتي كان قد أشار إليها، قد يخدم غايته. غير أنه ما انتهى من كتابة رسالته حتى كان الخطر قد تبدد.

اشتكى أملرك (أموري) من وعكةٍ صحية خلال الهجوم على بانياس. وحين عاد إلى طبريا، أصيب بمرض الديزنتاريا ومات في ٩ ذي الحجة/ ١٤ تموز. وكتب صلاح الدين إلى ابن أخيه فروخ شاه أن أنباء عن موت الملك أموري موثوقاً بها قد وردت من داروم. «لعنه الله ونقله إلى عذاب كاسمه مشتقاً، وأقدمه على نار تلظفى لا يصلاها إلاّ الأشقى [الليل: ١٥] نقدم الشكر الجزيل لله لأن هذا هو أقصى ما تمنيناه من انجاز»[١٣]. وخلف بولدوين المنبوذ أملرك؛ فأرسل له صلاح الدين كتاباً رسمياً يعزيه: «إن رب البيت لا يمكنه إلا أن يحزن لخسارة جيرانه... وعلى الملك أن يعلم أن لدينا عاطفة مخلصة له، كما كان لدينا عاطفة مماثلة نحو والده... فليعتمد علينا»[١٤].

ويمكن أن يؤخذ هذا القول على مجمل الدبلوماسية أكثر منه رياء، إلا أن هنالك بعض المتسع للمشاعر المتكافئة الضدّيين. فموت أملرك قد أزاح حجراً قوياً عن رقعة الشطرنج للحروب الصليبية، إلا أن ذلك بالنسبة إلى مناورات صلاح الدين الدبلوماسية قد يعمل على إعاقة سير التقدم. فإذا كان الفرنجة لا يبدون نشاطاً، فسوف يكون لدى الأمراء السوريين متسع من الوقت كي يرتبوا شؤون بيتهم، وأي زحف مصري على دمشق سيبدو موقفاً غير قابل للتبرير اسلامياً. ومن جهة ثانية، فبموت أملرك ونور الدين، رأى صلاح الدين أعظم قائدين عسكريين أزيحا من طريقه. أخبر فروخ شاه بأنه سمع بأن الفرنجة لم يتفقوا بعد على خليفة أملرك، وأن أنباء وردت عن وفاة شمس الدين علي ـ الذي كان، في الواقع، ميتاً حيّاً ـ وان سكتة دماغية أبقت قلج أرسلان عاجزاً عن الحركة[١٥]. إن هذا التنظيف الظاهري للساحة لا بد أن يكون قد أغراه إغراء شديداً بأن يتحرك دون دعوة. غير أن القرار سيتأجل بالنظر إلى أنه كان على مصر نفسها أن تواجه خطر غزو آخر.

واستناداً إلى رواية صلاح الدين، فإنه بعد فشل الفرنجة والبيزنطيين في

دمياط في العام ٥٦٥/ ١١٦٩، عزم ملك صقلية على إظهار قوته، فأمضى خمس سنين في بناء أسطول وتجهيزه. وجرى تحذير صلاح الدين بذلك من قبل الامبراطور مانويل نفسه، الذي كان يظن بأن بلاده مهددة، كما روع به الموحدون في المغرب[٦٦]. وبالرغم من التحذيرات، كانت حامية الاسكندرية، مع ذلك، قد أخذت على حين غرة حين وصل الصقليون يوم الأحد في ٢٦ ذي الحجة/ ٢٨ تموز، ولم يكن هنالك سوى قوة صغيرة للوقوف في وجههم. وكتب صلاح الدين: «كان ذاك على حين غفلة من الموكلين بالنظر، لا على حين خفاء من الخبر»[١٧]. وظهرت السفن الصقلية للعيان أكثر فأكثر طوال عصر يوم الأحد، غير أنهم لم يحاولوا النزول إلى اليابسة.

وفي يوم الاثنين كان الأسطول يرسو بعيداً بعض الشيء عن شاطىء الاسكندرية. وظُن بأن صده عن النزول إلى اليابسة لم يكن ممكناً، وأنه، إذا ما جرت محاولة أية مقاومة مباشرة، فإن سكان المدينة قد يقعون في الفخ على الشواطىء. وأشار «جماعة من عقلاء الأتراك»[١٨]، لعلهم من موظفي صلاح الدين، بأن ينسحبوا إلى الوراء ويتمركزوا قرب أسوار المدينة. واستناداً إلى المقريزي، فقد نزل الصقليون من على متن سفنهم وانتقلوا إلى البر الرئيسي قرب المنارة[١٩]، الأمر الذي بدا أنه يعني أنهم أرسوا سفنهم في حمى القراصنة وهو الخليج المقابل للشمال، حيث كانت تقع جزيرة المنارة. ثم قاموا بعدئذ بالهجوم نزولاً إلى شبه الجزيرة حيث أصبحت هذه مرتبطة بالبر الرئيسي. فأجبر المسلمون على اللجوء إلى أسوارهم. وانتقل الأسطول الصقلي مجذّفاً حول الميناء، غير أن المسلمين أدعوا بأنهم حرموا الصقليين من الحصول على غنائم وذلك إما بخرق سفنهم الخاصة التي كانت راسية هناك أو إحراقها. واستمر قتال يوم الاثنين حتى المساء حين نصب الصقليون ٣٠٠ خيمة، ثم أتوا يوم الثلاثاء بثلاثة مجانيق ضخمة مزودة بقذائف حجرية سوداء من صقلية.

ويبدو أن أنباء الهجوم كانت تصل صلاح الدين متباطئة، وكان ما يزال في المعسكر في فاقوس على بعد ١٢٠ ميلاً (١٩٣ كلم). واستناداً إلى روايته هو، فقد ورد الخبر يوم الثلاثاء على جناح الطائر[٢٠]. ولعل حاكم الاسكندرية انتظر ليرى ما إذا كان الصقليون جادّين، أو أنهم كانوا يخادعون ليرغموا صلاح الدين على التركيز على الاسكندرية قبل أن يقوموا بالهجوم في مكان آخر. وفي الواقع أن

صلاح الدين لم يغامر، فعزز دمياط كما أرسل نجدة إلى الاسكندرية. وقام المسلمون في الاسكندرية نفسها بهجوم عنيف يوم الأربعاء في ٢٩ ذي الحجة/ ٣١ تموز وأحرقوا المجانيق الصقلية. وبدأ الصقليون يضعفون. وفي عصر ذلك النهار وصل إلى المدينة رسول يحمل نبأ زائفاً ولكنه يشد العزائم وهو أن صلاح الدين نفسه قد أصبح على بعد ٢٠ ميلاً فقط (٣٢ كلم) إلى الشرق. حينئذٍ قام المسلمون بهجوم مسائي ناجح، فقتلوا أو أسروا عدداً من الأعداء بما في ذلك قوة من ٣٠٠ فارس كانوا قد استطاعوا عزلهم فتطويقهم. وعلى أثر هذه النكسة بدأ الأسطول بالرحيل ثانية يوم الخميس في ٣٠ ذي الحجة/ أول آب. ولم يعرف أحد وجهة سيره، غير أن صلاح الدين قال في رسالته بأن الأسطول أقلع من الثغر «ولا بقية فيه لحرب ولا قتال»[٢١].

وحدث في أعقاب الهجوم الصقلّي شغب أكثر في مصر العليا. إذ تجمع هناك جيش آخر من الزنوج والبدو «وأهل الأقاليم» بقيادة شخص يدعى عباس بن شادي، وهاجم مناطق قوص منطلقاً من قاعدة في طود على بعد حوالي ١٢ ميلاً (١٩ كلم) إلى جنوب الأقصر[٢٢] (الخريطة ٦). ولم يكن هذا بحد ذاته أكثر من واحدة من جملة حركات متفرقة قام بها مناصرو الفاطميين الذين استغلوا بعد القاهرة ووعورة الريف ليقوموا بغاراتهم. وما يستلزم التعليق هو أنه في هذا الوقت ضم كنز الدولة الناقمين، وهو حاكم أسوان الذي كان قد طلب في العام ١١٧٢ نجدة من صلاح الدين لصد النوبيين. ولم يُعطَ أي تفسير لهذا التغيير المفاجىء في الموقف الذي يمكن، بالطبع، أن يكون ظاهرياً أكثر منه حقيقياً. ويمكن أن يكون الكنز، وهو بدوي مسلم، معادياً للنوبيين المسيحيين، ولكنه ليس معادياً لمناصري الفاطميين الذين كان قد انضم إليهم. وعلى الرغم من قيمة البحث عن عمل معّين يمكن أن يكون قد أثار العداء في نفسه، إلا أنه ليس هنالك أي دليل على ذلك.

إذاً، لم يكن الشغب جدياً. قتل المتمردون أخاً لأبي الهيجاء السمين، وتحرّك أبو الهيجاء نفسه نحو الجنوب. وكان يدعمه عز الدين موسك، ابن خال صلاح الدين، الذي كان آنئذٍ شبه حاكم لقوص. كما كان يدعمه العادل، وهو أخ لصلاح الدين. وكتب ابن شداد عن قوة العادل العسكرية التي كانت تضم عسكراً من الذين ذاقوا حلاوة ملك الديار المصرية، وخافوا على فوات ذلك منهم[٢٣]، فأصاب المتمردين الفشل أمام مصالحهم الخاصة العنيدة، وقتل كل من عباس،

وكنز الدولة. ودون تاريخ هزيمة كنز الدولة بأنها حصلت في ٧ أيلول. وفي ٧ صفر ٥٧٠/ ٢٨ أيلول عاد العادل إلى القاهرة[٢٤].

في هذا الوقت كان صلاح الدين نفسه على وشك الرحيل. فأتاحت له الأخطار الخارجية والداخلية فرصة أن يرجىء لفترة من الزمن إتخاذ القرار الحاسم بشأن الزحف على سوريا بدون دعوة أو عذر واضح، أو عدم القيام بهذا الزحف. وبالرغم من المغامرة الخطيرة المحتملة التي قد تصيب سمعته بالأذى، كان من الواضح، للفاضل على الأقل، بأنه لا بد من القيام بذلك التحرّك، عاجلاً أم آجلاً. وفي رسالة إلى تورانشاه، أشار إلى رحلة تورانشاه من سوريا إلى مصر لملاقاة أخيه في العام ٥٦٤/ ١١٦٩، وأضاف بأنه «يوماً ما» سوف تثني تلك الرحلة برحلة أخرى، ولكن من اليمن إلى سوريا هذه المرّة[٢٥].

أما السوريون أنفسهم فأمنوا فرصة جزئية ملائمة على الأقل. إذ أن عماد الدين الذي كان في هذا الوقت في دمشق، ترك لنا رواية عن المكائد التي شاهدها. واستناداً إليه، فقد كانت الثقة مفقودة بين القادة. وعانت الإدارة كثيراً إذ أن القرارات التي كانت تؤخذ اليوم تنقض غداً. وأرسل عثمان، وهو أحد بني الداية، من قبل أخيه الأكبر، علي، للإتيان بالفتى الصالح من دمشق إلى حلب حيث سيكون في حماية علي وكمشتكين معاً، وهو تدبير انطبق على ما إدعاه صلاح الدين بأن تلك كانت رغبة نور الدين. أضف إلى أن عثمان الذي كان «بعيداً عن الدهاء، غير خبير بتدبير الأحكام والايهام» قد فاقه العدل بن العجمي - أحد أعضاء فريق القادة الدمشقيين - براعة في المناورات. والعدل وهو رجل لم يكن نور الدين يحبه بل يخشاه بوضوح، رتب أمر الذهاب إلى حلب مع الوفد العائد من أجل أن يبحث وضع الصالح. وحين استأذن عماد الدين من عثمان بالمغادرة خارج دمشق، حاول أن يبيّن له بوجوب إتخاذ الحيطة، «فإذا هو أعجمي لا توقظه العبارة». حينئذٍ تكلم عماد الدين معه على إنفراد، ولكن عثمان نقل إليه ما قاله للعدل. وفي حلب قدم العدل خدماته إلى علي الذي «لطهارة دينه يعتقد طهارة دينه»، وحينئذٍ تم الاتفاق رسمياً على أنه يجب الإتيان بالصالح إلى حلب، حيث سيتخلى علي بموجب ذلك عن أراضيه الخاصة ويعمل كمدير له (أتابكه).

والآن عاد العدل الذي كان حانقاً على عماد الدين بسبب تطفله، إلى دمشق بصحبة عثمان وكمشتكين. وفاتح عماد الدين كمشتكين[٢٦] بقوله:

«أعتقد أنه صديق الدهر... فقال كمشتكين: «انقطع عني حتى أصلح أمرك»... فعرفت أنهم أدخلوا رأسه في المخلاة... ولم أجد بداً من المسالمة والموادعة لأن لي تجملاً وثروة وخيلاً وعدة، لو تركتها ونجوت بنفسي لكسفت في الأخذ بالجزم شمسي، لكني أوهمتهم أني معهم، حتى وصلت إلى حلب في صحبتهم».

غادر الصالح دمشق في ٢٣ ذي الحجة/ ٢٥ تموز. وتخلّف عن الذهاب ابن المقدّم، وريحان قائد الجيش، والي القلعة، والقاضي كمال الدين الشهرزوري. وذهب كمشتكين، والعدل، واسماعيل الخازن، مع الصالح الذي رافقه عثمان. وحين وصلوا إلى تل السلطان، وهي محطة بريدية على الطريق من حلب إلى حماة، التقوا برسلٍ من قبل علي. حينئذٍ أدلجوا ليلاً فوصلوا إلى حلب عند الفجر. وكان علي مريضاً جداً فلم يستطع مغادرة القلعة، فخرج أخوه حسن لإستقبال الصالح. وعلى الفور، ألقي القبض على حسن وعثمان. وقبل أن يبلغ عليّاً الخبر كان الدمشقيون قد دخلوا القلعة حيث كان والي القلعة شاذبخت «وهو معهم في الباطن»[٢٧] واعتقلوا الأخوة الثلاثة: علي وعثمان وحسن وأودعوهم السجن. كما قتل بن الخشاب، مقدم الشيعة.

وبالرغم من رواية عماد الدين، فإن هنالك غموضاً في تفاصيل ودوافع هذه المؤامرة. فاستناداً إلى أحد التقارير، قتل ابن الخشاب على يد بني الداية قبل سقوطهم[٢٨]. وقالت رواية أخرى إن مجموعة تضم العدل دفعت المال من أجل إغتياله وان الرجل الذي استأجروه للقيام بذلك كان عز الدين جرديك، وهو مساعد صلاح الدين في عملية القبض على شاور[٢٩]. ويبدو، طبعاً، أن جرديك لعب دوراً ما، حيث دبر أمر مقاومة كمشتكين وبني الداية معاً. وجعل ابن الأثير كمشتكين يذهب مرتين إلى دمشق، وقال إنه صُد في المرة الأولى من قبل جنود أرسلهم ابن المقدم[٣٠]. وكانت دوافع المؤامرة، جزئياً، واضحة. فبنو الداية الذين أضعفهم موت مجد الدين ومرض علي، كانوا أهدافا بديهية للحسد. غير أن العلاقات بين دمشق وحلب لم تكن واضحة. فالانتقال بالصالح إلى حلب

له غاية تكتيكية هي خداع بني الداية وفتح الطريق إلى القلعة. وقد يكون وجود الصالح في حلب، كما قيل بان علياً أدعى ذلك، سوف يجعل ابن عمه سيف الدين صاحب الموصل، أقل رغبة في التدخل في شؤون سوريا[٣١]. وكان بطبيعة الحال على مسافة بعيدة من صلاح الدين. أضف إلى أن إبعاده جعل التحرك ضد دمشق من قبل صلاح الدين أقل خطورة ووقعاً. وينبغي التساؤل عما إذا كان ابن المقدم شريكاً في المؤامرة، وإذا كان كذلك، ينبغي التساؤل أيضاً عمّا إذا كان شركاؤه في التآمر يعتمدون عليه في ضبط الحدود.

تلقي هنا الرسائل التي استشهد بها عماد الدين بعض الضوء. فقد كتب صلاح الدين إلى ابن المقدم يعبر عن غضبه من جراء القبض على بني الداية: «كيف اجترأوا على أعضاء الدولة وأركانها، بل أهلها وأخوانها». ولم يكن لدى ابن المقدم صعوبات في ترجمة الدوافع الكامنة وراء هذه النقمة، فأجاب: «لا يقال عنك أنك طمعت في بيت من غرسك، فما يليق بحالك ومحاسن أخلاقك»[٣٢]؟ فإذا لم يكن عماد الدين مخطئاً في الاستشهاد بهذا القول كرد على شكوى صلاح الدين بشأن بني الداية، فلا بد أن يكون ابن المقدّم في هذه المرحلة، بالطبع، إلى جانب المتآمرين. ثم كتب صلاح الدين مرة أخرى:

«إننا لا نؤثر للإسلام وأهله إلا ما يجمع شملهم، وللبيت الأتابكي إلا ما يحفظ أصله وفروعه... فالوفاء إنما يكون بعد الوفاة[٣٢]. أنا في وادٍ، والظانون ظن السوء في وادٍ... فلو سرنا على غير هذا السبيل لما سلكنا مراجعة الخطاب ومطالعة الكتاب»[٣٣].

ويصعب أن يكون الادعاء بهذه النية الحسنة كافياً بحد ذاته لجعل ابن المقدّم يغير رأيه، غير أنه، في الواقع، عادى حلب على نحو قاطع وكافٍ لكي يكسب الفضل في أن يكون أول من دعا صلاح الدين إلى سوريا. وأحد الأسباب المقترحة لذلك هو أن الأمراء الدمشقيين، بما فيهم، ربما، ابن المقدم نفسه، والذين خشوا من أن يعاملوا بما عومل به بنو الداية، قدموا المدينة إلى سيف الدين صاحب الموصل الذي رفضها[٣٤]. ومفاتحة صلاح الدين بالموضوع كانت مرتبطة بإتفاق عقد بين كمشتكين وسيف الدين، والذي يتضمن أنه بعد رفض سيف الدين قد يكون الدمشقيون قد أملوا في الحصول على الاستقلال وذلك بإثارة حلب ضد

الموصل، وكانوا بالتالي مربكين بميثاق حلب ـ الموصل المرتقب ولم يكن الصالح الفتي المحاط بحاشية ذات مصالح شخصية في وضع يمكنه من ممارسة سلطته. وألغى المسيطرون عليه بعضهم بعضاً، بسبب سوء ظنونهم المتبادلة. وسيف الدين كان يفتقر إلى القوة وبعد النظر والطموح، فلم يكن لديه منها ما يكفيه لكي يوسع حدوده غرباً نحو الفرات. وبفضل موت أملرك لم يكن الفرنجة يشكلون تهديداً مباشراً. غير أن الخطر الذي كان يطرح حوله السؤال، كان قريباً من دمشق إلى درجة لا يمكن معها تجاهله. ويصعب التفكير بكيفية ازدهار المدينة (دمشق) مدة طويلة في سوريا المنقسمة المضطربة. وكان صلاح الدين واثقاً تقريباً من أنه سيزحف، سواء أدعي أم لم يدع. أما ابن المقدم الذي كان يبدو رجلاً عنيداً، ولكنه ليس طموحاً أو بارعاً، فلعله، ببساطة، كان ضائعاً لا يعرف ماذا يفعل في وضعية صعبة. ومهما كانت دوافعه المباشرة، فقد كان التغيير الكامل والمفاجىء في مسلكه متكيّفاً بلا ريب مع الحقائق السياسية والعسكرية للموقف.

٦ـ من مصر إلى سورية

من المفترض أن يكون صلاح الدين قد عاد إلى القاهرة من فاقوس بعد تفرق الأسطول الصقلي. واستناداً إلى عماد الدين، خرج إلى منطقة معسكره في بركة الجب في مستهل صفر ٥٥٧/ أيلول[١]. وخلال بقية هذا الشهر، كان العادل الذي كان صلاح الدين ينوي تركه نائباً له في مصر يعالج تمرد كنز الدولة في الجنوب. ولم يبدأ صلاح الدين زحفه إلا في حلول ربيع الأول/ تشرين الأول. وبلغته الدعوات إلى سوريا ليس من ابن المقدم فحسب، بل من شمس الدين صديق صاحب بُصرى أيضاً. ولم يكن شمس رجلاً ذا نفوذ كبير وكان ذا سمعة محليّة في حوران بانه حاكم ابتزازي. غير أن بصرى التي تقع على بعد نحو من ٧٠ ميلاً (١١٣ كلم) عن دمشق كانت قاعدة ملائمة حيث يستطيع صلاح الدين حشد تعزيزات ويختبر ردود فعل السوريين قبل التورط في أي هجوم.

ا

وإستناداً إلى تاريخ ذكره أبو شامة، سار صلاح الدين من بركة الجب إلى بلبيس في ١٣ ربيع الأول/ ١٢ تشرين الأول[٢]. وفي ٢٤ ربيع الأول/ ٢٣ تشرين الأول كان قد وصل بُصرى. ورحلة تسعة أيام من صُدر، التي تقع على مسافة يومين من القاهرة، إلى الكرك كانت تعتبر رحلة سريعة[٣]. وإذا ما صح التاريخ الذي ذكره ابو شامة فان جيش صلاح الدين لا بد وأن يكون قد تحرّك بسرعة كبيرة. وهذا بحد ذاته يميل إلى تأكيد الرواية بأنه لم يأخذ معه سوى ٧٠٠ فارس[٤]. ويتضح أنه كان يتوقع الحصول على تعزيزات من سوريا نفسها. ويوم وصوله إلى

بُصرى كتب يخبر ابن أخيه فروخ شاه بأنه قد انضم إليه «الأمراء والأجناد الأتراك والأكراد والعربان»، «وعواطفهم القلبية بادية على وجوههم». وقال إن رسالة تلو أخرى وردت من دمشق تقول ان البلاد ممكنة للقياه مذعنة إلى المراد؛ وكان هو نفسه يخطط لمغادرة بُصرى يوم الخميس ٢٥ ربيع الأول (٢٤ تشرين الأول)، وهيّأ زاداً من الضمانات لتساعده على شق طريقه إلى دمشق. لم يكن من أنباء جديدة عن حلب حيث ما زال امراء الصالح منشغلين في حزازاتهم الداخلية. أما في ما يتعلق بالفرنجة، فافاد «أننا في هذه السفرة المباركة نزلنا في بلادهم نزول المتحكم»[٥].

وإستناداً إلى رسالة أخرى، ترك صلاح الدين، في الواقع، بصرى يوم الأربعاء في ٢٤ ربيع الأول/٢٣ تشرين الأول، يرافقه شمس الدين صديق[٦]. كانت سرعة سيره هذه المرّة أبطأ، ثم عسكر في جسر الخشب التي تقع على بعد حوالى ٦٠ ميلاً (٩٧ كلم) من بصرى و١٠ أميال (١٦ كلم) إلى جنوبي دمشق، ذلك يوم السبت في ٢٨ ربيع الأول/ ٢٧ تشرين الأول، وكان قد انضم إليه في اليوم السابق سعد الدين ابن أنر وناصر الدين محمد بن شيركوه. وكان والد سعد الدين قد ضبط دمشق لمصلحة السوريين، ومنه أخذها نور الدين ثم تزوج حينئذٍ أخته. ولا بد أن يكون ابن عم صلاح الدين، ناصر الدين محمد، قد أمل في تحسين تل باشر التي أعطيت له بديلاً عن إقطاعات والده السورية ثم حوّلت فيما بعد إلى عثمان من بني الداية وهي الآن تحت نفوذ حلب. وسرت شائعات بانه هو نفسه لم يكن على علاقة حسنة مع صلاح الدين وأنه ادعى، كابن لأبيه، بان له الحق الأكبر بسلطنة مصر[٧]. والرسالة الوحيدة المدونة والمرسلة منه إلى صلاح الدين في مصر لا تبدي أية دلائل على الأحترام، مع انها رسالة على جانب من التهذيب[٨]؛ وربما كان يتوقع أن يكسب فائدة أكبر عن طريق نجاح أبيه. ومع ذلك كانت آماله المباشرة في الوقت الحاضر معلّقة على نجاح صلاح الدين. وعبر ابن الأثير عن أخطار الوضع في نقله حديثاً قيل إنه جرى بين شمس الدين صاحب بصرى والفاضل، إذ علّق شمس الدين على الجيش الصغير لصلاح الدين بالقول: «لو منعكم من به ساعة من النهار أخذكم أهل السواد. أما إن كان لديك مال، سهل الأمر». فقال الفاضل: «هنا مال كثير يكون خمسين ألف دينار». فضرب شمس الدين على رأسه وقال: «هلكتم وأهلكتمونا». وأضاف ابن الأثير في الواقع: «وجميع ما كان معهم عشرة آلاف دينار»[٩].

وكتب صلاح الدين انه حين توقف في جسر الخشب، جاء العسكر أفواجاً من دمشق للانضمام إليه، ولم يحجم عن ذلك سوى الذين منعهم عنه ما ظنوه حكمة وتعقلاً[١٠]. ثم بدا يناقض نفسه بالافادة بانه في يوم الأثنين ٢٩ ربيع الأول (٢٨ تشرين الأول)، حين زحف على المدينة، «عرض دون الدخول عدد من الرجال [الدمشقيين] فدعستهم عساكرنا». ويبدو أن ابن المقدّم، إما أن يكون اكتفى بالبقاء في الظل، وإما أنه لم يكن يملك سيطرة كافية على جنوده ليحول دون ظهور المعارضة[١١]. أضف إلى إنه لم يكن هنالك، على الشكل المشار إليه، أية مقاومة جدية، فكتب الفاضل عن الدمشقيين بانهم «فعلموا أن الهشيم تذروه الرياح»[١٢]. وانسحبوا لائذين بأسوارهم ثم طلبوا الأمان، فاعطي لهم ودخل صلاح الدين المدينة.

يبدو، للوهلة الأولى، انه خالف القواعد الاستراتيجية للغزو بالايغال في التورط بقوة صغيرة في موقع يكون فيه خط الرجعة محفوفاً بالأخطار إذا لم تسر الأمور على ما يرام. وهذا يبدو غير منسجم مع سياسة الحيطة والحذر التي كان قد اتبعها منذ جاء إلى السلطة في مصر، ولعل المفتاح إلى ذلك، كما كتب وليم الصوري، كان المال بالتأكيد. كتب وليم بأن صلاح الدين دعي من قبل قادة دمشق اثناء كان «سيدهم الشرعي» في حلب. وانه، بعد أن أسرع باجتياز الصحراء، استولى على المدينة. ثم تابع يقول: «كان رجلاً حكيماً في المجلس، نشيطاً في الحرب، وذا سخاء أكثر من اعتيادي، وهي النقطة التي كانت تسبب قلقاً خاصاً لدى أكثرنا بعد نظر. لأنه ليس هنالك اليوم أي رابط يستطيع أن يمتلك قلوب الاتباع وحتى الرجال الآخرين ويكسبهم إلى جانب القادة... أقوى من رابط السخاء»[١٣]. وكان ابن شداد يشير إلى المبالغ الطائلة من المال التي وزعها صلاح الدين في دمشق[١٤]، وكتب الفاضل فيما بعد بأنه انفق ثروة مصر على غزو سوريا[١٥]. ولو انه كان واثقاً من القدرة على شراء المساعدة، لبان ساعتئذٍ معنى اختياره قوة عسكرية صغيرة تجنبه الاحتكاك بالفرنجة خلال زحفه السريع من مصر، ثم مهاجمة سوريا قبل أن يصبح بالامكان اتخاذ اجراءات معاكسة. ولا يناقض هذا، بالضرورة، ملاحظة ابن الأثير حول مبلغ العشرة الآف دينار. لا بد أنه كان يأمل في الاستيلاء على الأموال العامة في دمشق، وكما يمكن رؤية ذلك في نواحٍ أخرى من سيرته فقد استخدم في حملاته نوعاً من الحوالات المالية تعطى بموجبها

كمبيالات تخول حامليها الحصول على دفعات مالية في مكان آخر[١٦].

في هذه الأثناء، كان ريحان، وهو أحد زملاء ابن المقدّم السابقين، قد حبس نفسه في قلعة في دمشق، فارسل صلاح الدين يوم الثلاثاء أخاه طغتكين لتطويقها «ببحر من الفولاذ»[١٧]. ثم فتح باب المفاوضات مشيراً إلى أنه جاء «فقط ليخدم البيت النوري»[١٨] وفي هذه الحالة وافق ريحان على الشروط. وأكد صلاح الدين على حرارة استقباله: «طلعنا على الناس كالنور الساطع في الظلام الدامس»[١٩]؛ «أندفع الناس نحونا قبل وبعد ان دخلنا المدينة في الابتهاج [بمجيء] حكمنا... ولو أننا لم نسرع في المجيء إليهم، لاسرعوا هم إلينا»[٢٠]. وكان أول ما فعله هو الصلاة في مسجد أميّة. وأعيد فتح الأسواق التي كانت قد أغلقت، واذيعت البلاغات بمنع أعمال السلب، وإلغاء المكوس، وتطمين أولئك الذين «تابوا عن معارضتهم»[٢١]. لم تهرق الدماء. ولم يُخرج النسوة من القلعة، أو «يفعل ما يعمل عادة حين تستسلم الأمكنة»[٢٢]؛ وقيست فضائل حكم صلاح الدين في دعاواته بأضدادها من الشرور التي كانت من قبل. كانت هنالك ممارسات غير قانونية بما فيها فرض الاقطاع بالالتزام في الضرائب على الخمرة؛ وكان الناس يعاملون معاملة سيئة وأجور الجنود وعلاواتهم منخفضة[٢٣]. «ونظرنا في أحوال البيت النوري، فإذا هو قد أطفئت مصابيح نوره»[٢٤]. وسارع صلاح الدين في تبيان القاعدة الاخلاقية، وربط ما سوف يراه أعداؤه من توسع غير مقبول في العقيدة الاسلامية وكتب يقول بانه لم يستولِ على دمشق بدافع الجشع الشخصي، ولكن بدافع الحرص عليها[٢٥]. كان ذلك خطوة على الطريق إلى فتح القدس «وإن الإحجام عن القيام بواجب الحرب المقدسة» ـ كما اتهم اخصامه بفعله ـ «هو جريمة لا تغتفر»[٢٦].

بذل صلاح الدين في رسائله جهداً واضحاً من أجل رسم صورة للتقدم المظفّر في قضية عادلة. فهو لم يصادف معارضة جديّة، كما لم يكن هنالك وحشية في تنفير الدعم. فقد قام بزيارة إلى الخصم القديم لأيام العداوة والخصام القاضي كمال الدين، من أجل تهدئة أية مخاوف محتملة. وهذا الاضطلاع المسالم يتناقض مع المكائد العنيفة التي يقوم بها أمراء صلاح الدين في حلب. ولكنه لم يستطع الركون إلى أمجاده فينام على حرير. إن ملاحظة ابن الأثير حول الأخطار التي واجهت حملته يمكن أن يكون مبالغاً فيها، ولكنها تؤكد التداعي

السريع لمكانة الحكام المدعين الذين ليس لهم أكثر من علاقات سطحية مع اتباعهم. علاوة على ذلك، فإذا تمكن من الحد من طموحه على نحو خطير، فالنجاح بدوره يفرض قيوده على عملية الاختيار. والاعتماد على التجنيد المحليّ يفتح الطريق إلى دورة التوسع، إذ أن الانتصارات تجتذب الرجال؛ ولكي تنفق عليهم تحتاج إلى انتصارات أكثر تستدعي بدورها تجنيداً أكبر. وكانت دمشق، من وجهة النظر الاستراتيجية المفتاح إلى سوريا الجنوبية وقاعدة ممتازة للقيام بالعمليات ضد المملكة اللاتينية. وعليه، فإن لم تكن محميّة من الشمال فسوف يكون وضعها معرّضاً للخطر بواقع أنه لا بد من الدفاع عنها ضد جيرانها المسلمين كما ضد الفرنجة. وأخيراً، وفي الحرب الكلاميّة، كان صلاح الدين يقول انه إنما جاء إلى سوريا من أجل إعادة الصالح إلى مكانته الصحيحة. ولم يستطع أن يوفق بين هذا الكلام والاستيلاء الصريح على عاصمة نور الدين السابقة. وبدلاً من ذلك وجد نفسه مجبراً على متابعة الطريق في الصدام مع حلب من أجل أن يظهر نفسه منقذاً للصالح من مستشاريه الأشرار.

وفيما كان صلاح الدين ما يزال في دمشق، استقبل بعثة دبلوماسية من حلب. وكان يرأس هذه البعثة قطب الدين ينال أحد الأمراء الذين كان نور الدين قد أرسلهم إلى مصر في بعثة شيركوه الثالثة، وحمل رسالة من أمراء حلب استناداً لابن أبي طي، «أرعدوا فيها وأبرقوا»(٢٧). ثم قال قطب الدين مخاطباً صلاح الدين: «هذه السيوف التي ملكتك مصر، (وأشار إلى سيفه)، هي التي تردك». وجواباً على ذلك، قال صلاح الدين بأنه قدم إلى الشام لجمع كلمة الاسلام وتهذيب الأمور وتربية نور الدين، وانقاذ أخيه مجد الدين. ولم يقبل هذا الكلام فقال الأمراء: «أنت تريد الملك لنفسك، فارجع من حيث جئت»(٢٨). ولعل تبادل الكلمات هذا لم يرم إلى أكثر من تحديد المواقف. فقد كان هم حلب أن تظهر صلاح الدين معتدياً خدع سيده، بينما كان صلاح الدين يشدد على أنه يعمل من أجل مصلحة الاسلام. وكان الطرفان كلاهما يبحث عن فائدة دعاويّة، غير أن صلاح الدين كان السبّاق في التحرك نحو تقوية مكانته في الساحة.

وفي يوم الأحد في ١١ جمادي الأولى ٥٧٠/ كانون الأول عام ١١٧٤، بعد انقضاء أربعين يوماً على استسلام قلعة دمشق، عسكر صلاح الدين خارج حمص التي تقع تقريباً على منتصف الطريق في رحلة المائتي ميل (٣٢٢ كلم) من دمشق

إلى حلب ـ علماً بأن المسافات الدقيقة تتغير بالنسبة للطرق التي تسلك (الخريطة ٨). وكان صلاح الدين نفسه يسلك عادة طريق بعلبك عبر وادي البقاع بين سلسلتي جبال لبنان الشرقية والغربية. وفي هذه المناسبة لا يشير، مع ذلك، إلى بعلبك، التي كانت تقيم فيها حامية معادية ويمكن التخمين بأنه تحرّك إلى الشرق عبر سلسلة جبال لبنان الشرقية.

لم يكن صلاح الدين يتطلع إلى القيام بمحاصرات ولكنه كان يرمي إلى حملة سريعة تكسب له دعماً شعبياً. وكانت أعداده تنمو. وكتب إلى أخيه العادل يقول: «قد اجتمع عندنا إلى هذه الغاية ٧٠٠٠ فارس، وكبر الجيش إلى درجة لا يمكن معها حصر أعداده»[٢٩]. وفي اليوم الذي تلى عسكرته قرب مدينة حمص، انضم إليه أحد أمراء نور الدين القياديين وقائد الجيش السابق فخر الدين بن الزعفراني الذي كان يملك اقطاع حمص عند وفاة نور الدين[٣٠].

وبالرغم من هذا الدعم كانت ما تزال هنالك مقاومة في حمص. ولما لم يستطع صلاح الدين أن يصل إلى فرض اتفاقية سلام على أثر محاولة فاشلة لهذه الغاية، كان عليه أن يقوم بالهجوم يوم الثلاثاء في ١٣ جمادي الأولى/ ١٠ كانون الأول. وجرى الاستيلاء على المدينة بدون صعوبة، فكتب إلى زين الدين علي في مصر، مكرراً ما قاله سابقاً: «لم يكن تحركنا من أجل انتزاع ملك لانفسنا، ولكن لنعلي راية الجهاد المقدس. لقد أصبح هؤلاء الرجال أعداء يحولون دون انجاز غايتنا بالنسبة لهذه الحرب». وأضاف بأنه لم يقصد الحاق الضرر بالمدينة، «مدركاً كم كانت قريبة من المشركين»، ثم ختم بالقول بأنه أعطى أوامره المعتادة بصدد الممارسات الشاذة[٣١].

وفي رسالة مماثلة إلى قطب الدين النيسابوري في دمشق تحدث عن رسائل توفيقية كان قد بعث بها دون أن تثمر في المدينة إلى أن «احتدمت نار الغضب»؛ حينئذٍ، وبعد أن رأى أهالي حمص «الموت فاغراً فمه»، وافقوا على شروط الاستسلام التي رفضوها في السابق، وأعطي الجميع الأمان[٣٢]. وتبدو نبرة التبرير الذاتي أقل وضوحاً في رسالة أرسلها إلى ابن أخيه فروخ شاه. ولاحظ بأن التعامل العادل كان «مفتاحه إلى البلاد» وانتقد «النفوس الضعيفة» لدى أهالي حمص، ولكنه سمح لنفسه بتعليقات دنيوية حول المناخ الشتوي الذي هو «في هذه

الأماكن أكثر من أن يستطيع الجسد تحمله». وكان أيضاً واضحاً حول هدفه الحقيقي؛ «وإن شاء الله ستكون أنباء انتصارنا الكامل آتية قريباً». ثم أضاف، متلاعباً على الكلمة العربية لاسم حلب: «ليس علينا إلا أن نقوم بالحلب، فتصبح حلب ملكاً لنا»[٣٣].

وتبين أن تفائله كان مبنيّاً على أسس ضعيفة. فما لم يذكره في رسائله هو أن مدينة حمص وحدها هي التي استسلمت، وما زالت القلعة صامدة، غير أن صلاح الدين علق آماله على الانهيار السريع للمقاومة في حلب، ولم يترك سوى قوة عسكرية ليخفي الحقيقة عن الأنظار. وبالتالي أمضى ثمانية عشر يوماً آخر يعالج مشكلة حماه التي تقع على مسافة نحو من ثلاثين ميلاً (٤٨ كلم) إلى الشمال على الطريق المباشر إلى حلب. وهذا التأخر، الذي لم يعط له تفسير من قبل عماد الدين أو يدون في أي رسالة من رسائل صلاح الدين الموجودة فعلاً، قيل بأن سببه يعود إلى المحاولات الدبلوماسية. وكانت قلعة حماه في قبضة عز الدين جرديك المساعد السابق لصلاح الدين. واستناداً إلى ابن إبي طي، حين وصل صلاح الدين إلى الرستن على العاصي الواقع على مسافة حوالي ١٣ ميلاً (٢١ كلم) شمالي حمص، خرج جرديك لملاقاته؛ وبعد يوم وليلة من المحادثات اتضح أنه تم الاتفاق على أن تسلّم مدينة حماه، ولكن ليس قلعتها[٣٤]. وترك جرديك هذا الأمر بعهدة أخيه في حين ذهب هو نفسه إلى حلب ليحاول ترتيب صلح مع صلاح الدين وحين وصل إلى هناك، مع ذلك، القي القبض عليه وحبس مع بني الداية الذين روى ابن أبي طي ان أحدهم هدد بقتله حين كان يُلقى به في حبس بالقلعة[٣٥]. لماذا عومل جرديك كذلك؟ إنه أمر غامض غموض معظم المكائد التي كانت تحاك في بلاط الصالح. غير أن القاء القبض عليه أفقد حلب قاعدة مفيدة. وكان صلاح الدين قد تحرّك إلى الشمال من حماه ثم قفل راجعاً حين سمع بالنبأ فسلمه أخو جرديك القلعة في مستهل جمادي الآخرة/ ٢٨ كانون الأول.

وبعد مرور يومين وصل صلاح الدين إلى حلب وهي المفتاح إلى سوريا الشمالية، لا يستطيع بدونها أن يتابع سياسة توسع الحكم العائلي في الشرق ولا أن يستمر في الجهاد المقدّس بصدق واخلاص. وتقع مدينة حلب القديمة إلى الشرق من نهر صغير. هنالك تلال منخفضه في جوارها، غير أنه يشرف على المدينة نفسها قلعتها الضخمة المبنية على ما وصفها ابن جبير بأنها «فائدة من الأرض

مستديرة» والتي يبلغ ارتفاعها حوالي ١٦٠ قدماً (٤٩ متراً)[٣٦]. وأرسل صلاح الدين من معسكره رسالة يخبر بها فروخ شاه بوصوله: «نرجو الله سبحانه وتعالى أن يجعل الأمور تسير بسلام دونما حاجة إلى الحرب»[٣٧]. ولم تمض مدة طويلة حتى كتب ثانية إلى فروخ شاه يقول بأنه كان يستخدم خلال ثمانية أيام سطح شفرة حسامه وليس حدها، وكان يحاول أخماد نار الحرب؛ وإنه استقبل بالترحاب من قبل الجنود وأناس آخرين في حلب الذين هرعوا للاحتماء به، غير أن المدينة والقلعة كانتا منيعتين ويلزم بعض الوقت قبل أن يصبح بالامكان «تليين صلابتهما»[٣٨].

ولم يكن في نية حلب، في الواقع، أن تستسلم، بالرغم من التخلي عنها من قبل الهاربين منها. وأحضر الصالح الفتى نفسه ليخاطب الناس ويدعوهم إلى القيام بالحماية، وقد انفجر باكياً في منتصف خطابه. واستناداً إلى ابن أبي طي «وقع الناس تحت تأثير سحره»[٣٩]، وثُبِّت السحر بالتالي بموجب صفقة اعادة عدد من الامتيازات إلى الشيعة، التي كانت قد الغيت من قبل نور الدين. كانت تلك ضربة قاسية لصلاح الدين الذي لم يعد ينبغي عليه أبداً أن يواجه مدينة كان فيها الناس والحامية عدائيين بعزم وتصميم. أضف إلى ذلك أن الحلبيين، كما أشار إلى ذلك ابن الأثير، الذين عاشوا قرب الحدود الفرنجية كانوا مقاتلين متمرسين[٤٠]، فاعتادوا على الخروج إلى مهاجمة المحاصرين. وكانت فرصة صلاح الدين الوحيدة والأكيدة بالنجاح تكمن في قطع ارتباطهم بالصالح، أو في كسب مديري الصالح إلى جانبه.

كان وضع الصالح آمناً على نحو معقول، غير أن امراءه لم يكونوا قانعين فقط بإبقاء صلاح الدين في وضع حرج، فحاولوا تسديد ضربة موفقة تطيح به نهائياً؛ وفاتحوا بالأمر رشيد الدين سنان الذي كان اتباعه من الاسماعيليين يتحصنون في جبال النصيرية إلى الغرب من حماة. وفيما كان صلاح الدين في المعسكر خارج حلب اقترب فريق من هؤلاء الرجال من خيمته إلا أنهم اكتشفوا من قبل خمارتكين صاحب بوقبيس التي تتاخم حدود بلادهم، فقتل خمارتكين، وهاجم، اثناء الضربات المتبادلة التي تلت، أحد الاسماعيليين صلاح الدين، إلا أن رأس المهاجم قطعت بضربة من سيف أحد الأمراء. وأضاف عماد الدين «وما قتل الباقون حتى قتلوا جماعة»[٤١]. وكتب صلاح الدين ينبىء فروخ شاه بما حصل: أدرك الحلبيون أنهم لا يقدرون على مقاتلته مواجهة فاتخذوا هذه

الخطوة غير المعقولة باللجوء إلى الاسماعيليين؛ واثناء الوجبة المشتركة، قام ثلاثة عشر رجلاً منهم مسلحين بالمدى بشن الهجوم؛ كان هو نفسه محمياً بمماليكه وأصدقائه وأمرائه، إلا أن خمارتكين قضى في المعركة. وأحيط فروخ شاه نفسه علماً باتخاذ جانب الحذر في نومه وتغطته، في الليل وفي النهار، في الحل وفي الترحال؛ وينبغي أن يستخدم فقط الرجال الذين يثق بانتمائهم الديني، أو الذين يكفلهم أولئك الذين لهم العذر في أن يخشوا عاقبة الغدر والخيانة «لأن المدى وزعت» ومبالغ ضخمة من المال قسمت بين الاسماعيليين. واضاف صلاح الدين بأنه كان يكتب من خارج حلب حيث الخيام لم يكن بإمكانها منع مياه الشتاء والنار لم تستطع طرد البرد، غير أن «نفوس الرجال تصلبت بتوقع النصر». ودعى فروخ شاه إلى المجيء إلى سوريا «إن هنا أفق يمكنك أن تبزغ فيه»[٤٢].

وفي رسالة سابقة أشار فروخ شاه إلى نفقات دمياط التي كانت في ذلك الوقت بعهدته، والتي استدعي إليها عدد إضافي من الجنود[٤٣]. وبالإشارة إلى ذلك، كتب صلاح الدين يقول: «ليس لدينا شك في أنك ستتحمل النفقات بنفسك»، ولعل هذا دليل على أن موازنته المالية الخاصة كانت في تدهور. فإن الاحتفاظ بقوة عسكرية كبيرة مرابطة خارج حلب كان عملاً مكلفاً. وبالرغم من ملاحظته حول توقع النصر، فإنه أمل كان ضعيفاً. كان ريموند صاحب طرابلس قد جمع قوة عسكرت قرب «النهر الكبير» وهو نهر يتبع خط الوادي الصغير بين حمص وطرابلس، حيث كان موقعه صالحاً للتحرك ضد المنطقة الإسلامية. وادعى المؤرخون العرب أن الحلبيين اتصلوا به لطلب النجدة[٤٤]. وقال وليم الصوري ان عروضاً قدمت من حامية قلعة حمص. وكانت رهائن الفرنجة ما تزال محجوزة في حمص بانتظار التسوية النهائية حول فدية كل من ريموند نفسه ورينولد شاتيون اللذين كان نور الدين قد أسرهما وأفرج عنهما بفترة قصيرة قبل موته. وأمل الفرنجة باستعادة هذه الرهائن وفي أن يعطوا أيضاً مالاً «ان هم قدموا المساعدة ضد هذا الرجل الخطر». وبنتيجة ذلك، زحفوا على حمص، ولكنهم وجدوا، استناداً إلى وليم الصوري، أن ليس هنالك جدية في الوعود، وأن حامية القلعة كانت الآن تأمل في أن تنقذ بواسطة قوة ترسل من قبل سيف الدين صاحب الموصل[٤٥]. شوش وليم الصوري القضية بالافتراض بأن سيد الموصل «وهو أقوى الفرس على الاطلاق»[٤٦] كان ما يزال أخو نور الدين قطب الدين، الذي

كان قد توفي في العام ٥٦٥/ ١١٧٠، ولكن لم يرتكب أخطاء حول التفسير الموصلي لوضع صلاح الدين. فصلاح الدين «داس على شرائع الإنسانية؛ ونسي حالته الخاصة، وثار ضد سيده، غير مبد أي اعتراف بالجميل لما اغدق عليه والد الصبي [الصالح] من فوائد ومنافع». ومن أجل القيام بعمل مضاد لهذا النوع من الدعاوة اظهر صلاح الدين فضيلةً جديدة وانسحب من حلب قائلاً مرّة أخرى بأنه يحمي الإسلام من الفرنجة. وعاد إلى حماه. وكتب الفاضل من خارج المدينة رسالة شخصية إلى فروخ شاه: تحرك صلاح الدين برحيل اضطراري من حلب تاركاً الضعفاء والمشردين يتدبرون أمرهم بأنفسهم، وكان لمشقات الرحلة آثارها على قوة الفاضل الشخصية، والفرنجة، مع ذلك، بالرغم من اعدادهم الغفيرة، أجبروا على الانسحاب بعد أن هدروا أموالهم وخابت توقعاتهم[٤٧]. وكتب صلاح الدين نفسه إلى العادل بأنه حين وصل إلى حماه وبدأ في حشد رجاله استعداداً للمعركة، تقهقر الفرنجة إلى حصن الأكراد (الخريطة ٣) «وهذا فتح تفتح له أبواب القلوب»[٤٨].

لكن هذا لم يفتح الطريق إلى قلعة حمص. غادر صلاح الدين حلب في أول رجب ٢٦ كانون الثاني ١١٧٥ وفي ٨ رجب ٢ شباط أفيد بأنه كان في حماه. أما قلعة حمص فلم تسقط إلا في ٢١ شعبان/ ١٧ شباط. واستناداً إلى عماد الدين، أمضى صلاح الدين شهراً يحاصرها[٤٩]. ولعله كان خلال الأسبوعين اللذين بقيا دون الافادة عن مكانه. فهو إما كان ينتظر تحرّكاً فرنجياً آخر، أو كان يحاول التأثير دبلوماسياً. وحين لم يحصل أي شيء، وجد لزاماً عليه نصب المناجيق والبدء بالحصار. والقلعة التي وصفها في احدى الرسائل بكونها «مثل هودج على تلّة»[٥٠]، ووصفها في رسالة أخرى بأنها «هامة لها الغمامة عمامة»[٥١]، كانت تقوم على رابية تقع على ارتفاع يبلغ حوالي ٢٠٠ قدم (٦١ متراً) وكان هو يراقب القتال من نقطة ذات موقع ممتاز في غرفة في أعلى الكلية الوحيدة في حمص. وعلى الرغم من أنه أنكر فيما بعد خساراته، فإن كلا الطرفين تكبد الخسائر. وقد قام في آخر الأمر عدد من المحاصرين بهجوم فاشل على باب القلعة فوقعوا في الأسر. ويبدو أن هذا النجاح حث الحامية، مع ذلك، على الاستفادة من الفرصة السانحة للوصول إلى تفاهم. وروى صلاح الدين بأن نقابيه وضعوا ألغامهم تحت الأسوار، ودمّرت مناجيقه الدفاعات حتى «فتحت الأبراج فكانت أبواباً»[٥٢]. ولكنه منح المدافعين الأمان «لأجل الرجال المقبوضين عليهم»[٥٣]. وكتب إلى

قاضي القضاة في مصر ليخبره عن هذا الانتصار الذي مُنحه هو خاصة، والشعب والإسلام عامة(٥٤). وفي رسالة إلى بغداد هنأ نفسه على أن القلعة قد أُخذت بطريقة سلمية، فأبقي على الأحياء والنساء؛ «فوجوه أصدقائنا باشّة وضاحكة مستبشرة، لأنه لم يُفقد أحد منهم»(٥٥).

في هذا الوقت لم تكن قوة النجدة الموصلية بعيدة، إلا أنها كانت أضعف مما ينبغي أن تكون عليه من قوة، وتحققت النبوءة التي ذُكرت لنور الدين حول خراب بيته. فقد دعا سيف الدين غازي صاحب الموصل أخاه الأكبر عماد الدين زنكي للإنضمام إليه، غير أن زنكي رفض ذلك. وعُزي إلى صلاح الدين نصيب في توسيع الشقة بين أفراد العائلة وذلك بتشجيع زنكي وحتى بتقويته بالتعزيزات العسكرية(٥٦). ونتيجة لذلك، وفيما كانت الحملة الحاسمة قائمة في سوريا في شهري شعبان ورمضان ٥٧٠ آذار ونيسان ١١٧٥، كان سيف الدين نفسه منشغلاً بمهاجمة زنكي في سنجار، بينما أرسل أخوه الأصغر عز الدين مسعود غرباً على رأس الفرقة الوحيدة من الجنود التي كان يمكن أن تُوفَّر. وكان يرافقه زلفندار وهو أمير يعزو إليه ابن الأثير سلسلة كاملة من الأخطاء التي خرّبت القضية الموصلية خلال هذه الفترة. وبعد أن زحف إلى حلب حيث انضم إليه عدد من جنود الصالح قاد قوته المشتركة جنوباً ضد حماه.

كان صلاح الدين نفسه قد سار من حمص متجهاً جنوباً إلى وادي البقاع، حيث استولى على بعلبك بدون قتال، وذلك في ٤ رمضان ٢٩ آذار (الخريطة ٨). وحين تقدم الموصليون نحو حماه ـ استناداً إلى روايته الخاصة ـ أرسل دفقاً مستمراً من رجاله لتعزيزها(٥٧)، فأجبر الموصليون على الانسحاب والتراجع. وعندها بعثوا برسالة إلى قائده هناك علي بن أبي الفوارس، يقولون فيها أنهم يرجون الحصول على الصلح وجمع الكلمة، فنقلت هذه الرسالة إلى صلاح الدين في بعلبك. فتحرك بسرعة على رأس قوة وكان في ٨ رمضان ٢ نيسان خارج حمص. كان هنالك الآن متسع للتفاوض. وكان كمشتكين والعدل يقومان بالتفاوض لحساب حلب والموصل. واستناداً إلى عماد الدين الذي كان الآن قد انضم إلى صلاح الدين، فقد وافق هذا الأخير على إعادة «القلاع» ـ لعلها حمص وحماة وبعلبك ـ إلى حلب، والاحتفاظ بدمشق فقط حيث ستلقى خطبة يوم الجمعة

باسم صلاح الدين. وذهب عماد الدين إلى الإيحاء بأن سهولة إنقياد صلاح الدين، وكونه لم يأت على رأس قوة كبيرة من الرجال، جعل الحلفاء يقللون من شأنه ـ «ما خبره صحيح، وأن الذي يعرض به من عجزه غير صريح»[٥٨]. فطلبوا الرحبة الواقعة على الفرات، ولكن طلبهم لم يستجب بحجة أنها ملك لناصر الدين محمد بن شيركوه. حينئذٍ رحلوا غاضبين. وبالرغم من أن صلاح الدين أرسل وراءهم رسلاً، إلا أنهم رفضوا العودة.

تثير هذه الرواية بعض التساؤل. فإذا كان صلاح الدين راغباً في التخلّي عن حمص وحماه وبعلبك بعد أقل عن ثلاثة أشهر بعد ما كتب عن آماله بإنتصار نهائي، فإن ذلك يوحي بأنه كان ينظر إلى فشله في حلب نظرة جدية. وكان من المعقول أن يجادل بأنه إذا لم يستطع أخذ حلب بسرعة، فإنه لن يقدر، ربما، أن، يأخذها أبداً في المستقبل القريب، وذلك لأن القوة الحاضرة ستكون معرّضة دائماً للهجوم من قبل الموصليين أو الفرنجة ومن قبلهما معاً. ولعل التسوية السلمية ستسمح له على الأقل بأن يستخدم دمشق قاعدةً، وإن هي انكسرت فسوف تعطيه فائدة دعاوية بتجديد الحرب. وإن إلحاح عماد الدين على صغر قوته لأمر مثير للدهشة. فخلال سير الحملة، حكى صلاح الدين ذاته عن أعداده الخاصة الهائلة[٥٩]. وذكرت كثرة هذه العساكر أيضاً في ملاحظة ابن أبي طي حول الاستيلاء على بعلبك[٦٠]. ولعله من المعقول أن يكون قد ترك وراءه جزءاً كبيراً من جنوده، حين سار هو نفسه شمالاً على أمل أن يتوصل إلى تسوية سلمية. غير أن بعلبك لا تبعد أكثر من ٩٠ ميلاً (١٤٥ كلم) عن حماه بخطٍ مستقيم، ولا تتضح الأمور إلا بعد مضي أسبوعين على سقوطها. كما أن مسألة الرحبة هي أيضاً أمر غامض. فلا يبدو هنالك أي سبب للشك في الرواية الموجودة عند أبي شامة عن أن نور الدين انتزعها من ناصر الدين محمد بعد وفاة شيركوه[٦١]. لعلّه، طبعاً، استعادها في هذا الوقت، علماً بأنه ليس هنالك أية إشارة إلى ذلك، ولكن من الممكن أيضاً أن يكون صلاح الدين قد شوّش المفاوضات عن قصد.

ويتضح من رسائله أنه رأى في الفرنجة المفتاح إلى المشكلة. فكتب إلى بغداد يشتكي إلى الخليفة حول الاتفاقية التي عقدت بين الحلبيين والموصليين من جهة والفرنجة من جهة ثانية. وقال بأن لديه مستنداً خطياً يستطيع أن يدحض به حجتهم إن هم حاولوا إنكار ذلك. وتم الاتفاق على أن يطلق سراح عدد من سجناء

الفرنجة، وعلى أن يسلّم الحلفاء إلى الفرنجة المقبوض عليهم من مناصري الأيوبيين بحيث يستطيع الفرنجة استخدامهم للمبادلة برجالهم الذين كانوا في أسر صلاح الدين؛ واتفق على أن تُسترد حارم ومناطق بالإضافة إلى مغارة قلعة شقيف الواقعة في التلال المتاخمة لسهل صيدا، والتي استولى عليها المسلمون في العام ٥٦٠/ ١١٦٥؛ وأعطي الفرنجة رهائن بينهم أخو كمشتكين، وابن صاحب منبج (الذي كان عدو صلاح الدين قطب الدين ينال)، بالإضافة إلى ابن شقيق «الصديق القديم» لصلاح الدين «كما وصف بذلك فيما بعد»[٦٢]، وهو علم الدين سليمان، وأحد أبناء الأمير فخر الدين ابن الزعفراني الذي كان قد انضم إلى صلاح الدين قبل سقوط حمص[٦٣].

وفي اليوم الذي تلى توقف المفاوضات، تقدم عز الدين مسعود إلى الضفة الشرقية لنهر العاصي بالقرب من شيزر، على مسافة حوالي ١٦ ميلاً (٢٦ كلم) إلى الشمال من حماه، ثم نقل صلاح الدين نفسه خيامه شمالاً إلى سفح التلال المعروفة باسم قرون حماه. وفي جماد الثاني/ كانون الثاني كتب إلى فروخ شاه يدعوه إلى سوريا. وجرى التأكيد على هذه الدعوة في رسالة الفاضل التي أرسلت حول الزحف على حمص، والتي أضاف إليها جملة تقول: «يجب أن تلبي رغبات صلاح الدين»[٦٤]. ولا بد من أن تكون أرسلت أيضاً رسائل إلى تقي الدين وشهاب الدين الحارمي، ذلك لأن ثلاثتهم كانوا قد وصلوا إلى سوريا وكانوا يميلون إلى الالتقاء في حماة في أواخر شعبان/ بداية شهر نيسان. أضف إلى أنه اتضح أن الجواب الحقيقي لصلاح الدين حول توقع هجوم مشترك من قبل أعدائه كان محاولة كي يصل هو نفسه إلى تفاهم مع الفرنجة. وليس هنالك أي تدوين لهذا الأمر من قبل معاصريه من كتاب السير. وحرص على أن لا يذكره في رسائله الساخطة إلى بغداد. غير أنه كتب إلى فروخ شاه «الله يعلم أننا كارهون عقد اتفاقية هدنة مع الفرنجة، ولكننا تواقون فقط إلى تأمين رفاهية ومصالح الشعب الإسلامي[٦٥]، ولكننا مصابون بأناس أشبه ما يكونون بالفراش أو أخف عقلاً»[٦٦].

تقدم هذه الرسالة بالذات أبلغ الافادات عن الوضع المباشر قبل التقاء الجيوش. إذ قال صلاح الدين لفروخ شاه أنه بينما كان يحرر رسالته كانت الفرق الحلبية عائدة باتجاه جيشه، وعليه أن يخرج لملاقاتها: كان بين عدوين -

لعلهما جيش الفرنجة، وجيش عز الدين مسعود ـ اللذين لم يكن قد قضى بعد على أي منهما. وكان أرسل إلى شهاب الدين وتقي الـدين[٦٧] يقـول بأنـه إذا كانـت الرحلة شاقة عليهما، ويرغبان في الحصول على متسع من الوقـت، فعليهمـا أن يرسلا بجيوشهما لتعزيز قواته. وأما فيما يتعلق بفـروخ شاه بالـذات «الله ربي اجعله لا ينتهي من قراءة هذه الرسالة دون أن يكون قد وضع رجله في الركاب». وتتوقف الرسالة في هذا المكان كي تعطي نبأ وصول خبر بواسطة الحمام الزاجل مفاده أن الفرنجة قد وافقوا على شروط الصلح؛ ولن تعرف التفاصيل إلا عند عودة مبعوث صلاح الدين، وهو على يقين بأن الفرنجة سيطلبون أكثر من العرض المتفق عليه والمعاد إليهم. ويستفاد بوضوح من أنه سيجري التصـديق علـى أية تسـوية كانت. وتنتهي الرسالة بالتأسف على الحاجة إلى مثل هذه الهدنة، وبالكتابة عن الحلفاء من الحلبيين والموصليين الذين اقترفوا من أعمال الغدر والخيانة أكثر مما تنشقوا من أنفاس.

إن هذه الصورة للنشاط المحموم الدبلوماسي منه والعسكري، مع إندفـاع اللحظة الأخيرة إلى إرسال التعزيزات العسكرية والرسائل الحـامية، . . إن هذه الصورة تطرح مشكلة واضحة. كان صلاح الدين، باعتراف الجميع، يحمي حماه من أي هجوم، ولكنه كان قبل ذلك مهيّأ لترك حاميتها تهتم بنفسها فيما كان يستولي على بعلبك. وإذا كان في حاجة شديدة إلى التعزيزات، كان باستطاعته التحـرك جنوباً لملاقاتها، بدلاً من أن يبقى في موقع معرّض على غير طائل. ومن جهة ثانية، فإن تم تدمير القوة العسكرية لعز الـدين مسعـود في مكان بعيد عن ملجـأ أسـوار حلب، فسوف يستعيد صلاح الدين مكانة مرموقة، ولربما استطاع أن يأمل في أن يستسلم الصالح. وقد يشجع عز الدين مسعود فيدفع إلى القتال باعثين مشتركين: ضعف جيش صلاح الـدين، والمساعـدة الفـرنجية المرتقبـة. ولـكن تسـوية غير ناضجـة يجريهـا صلاح الـدين مع الفرنجـة، أو وصـول تعـزيزات مصـرية كان بإمكانهما أن تنفّراه. والتفسير بأن صلاح الدين كان ينصب فخاً عن قصد وتصميم هو وحده ما يغطـي التـوقيت المـذكور في الرسالـة، وأنـه ليغـري بتطبيقـه علـى المفاوضات نفسها. وكان صلاح الدين قد بينّ فيما كتبه أن هدفـه كان استـلام سوريا. فكان من الأفضل له أن يربح معركة من أن يوافق على صلح سوف يعيق آماله في التوسع. وينبغي أن يكون هنالك اشتباه قويّ بأنه أراد للمفاوضـات أن تخفـق.

وأقل ما يقال في ذلك إنه تفوّق على أعدائه في المناورات استراتيجياً وتكتيكيّاً معاً، بحيث أغراهم بطرح مصالحهم جانباً والقيام بمهاجمته.

وقعت المعركة يوم الأحد في ١٩ رمضان/ ١٣ نيسان. وقدر صلاح الدين عدد الرجال المشتركين في القتال من الجانبين بحوالي ٢٠,٠٠٠[٦٨]. وكان هو نفسه في القلب من جيشه، والتعزيزات المصرية في الجناحين. أما عماد الدين الذي كان يقف وراء الصفوف فكان يشاهد الغبار ويستمع إلى الضجيج[٦٩]. وبعد فترة من الوقت رأى أن الغبار كان يرتد إلى البعيد وأضاف يقول، دون أن يعطي تفاصيل أكثر، بأن صلاح الدين أخرج الحلفاء بعيداً عن «أثقالهم وأحمالهم ودوابهم ورجالهم». في الواقع، كانوا قد منوا بهزيمة تامة منكرة. ولام ابن الأثير زلفندار على جبنه وجهله بالحرب. وقال إن عز الدين مسعود بقي لفترة من الوقت في وضعية مستحيلة، مما دفع صلاح الدين أن يصرخ قائلاً: «إما أن هذا شجع الناس، أو أنه لا يعرف أمر الحرب»، ثم كان أن طرد مسعود من ساحة المعركة[٧٠]. وكتب صلاح الدين نفسه يقول إنه كسر العدو كما يكسر الزجاج، وأنه لم يُفقد رجل واحد «معروف أو غير معروف»[٧١]. ولعل هذا القول مبالغ فيه، ولكنه يدل على أنه لم يكن هنالك مقاومة فعليّة. وجرى كلام حول تبادل رشاوى[٧٢]. وربما كانت هذه هي السبب، أو ربما كان السبب الخوف من الغدر، في أن الحلبيين والموصليين بدوا غير راغبين في القتال بغية تخليص أنفسهم من وضعية صعبة طالما أن صلاح الدين قد ترك لهم مجالاً للإنسحاب.

ويمكن أن لا يكون لصلاح الدين أية مصلحة في انتصارٍ دامٍ[٧٣]. وأفضل فرصة لديه بالنجاح في حلب كانت لا تزال في دخولها بدعوةٍ إليها. وكلما كان عدد رجالها الذين يقتلهم كبيراً، كلما زاد إسهامه في إقامة حامية في سوريا الشمالية ضد فرنجة أنطاكية. أضف إلى ذلك أن الجنود المحترفين في ذلك الزمن كانوا يقاتلون إلى جانب أسيادهم الذين يدفعون لهم الرواتب وكانوا يرضون بنقل ولاءهم حين تتغيّر الظروف. وقلما يدهش المرء برؤية جنديّ في حامية يتحول إلى خدمة أخرى حين تنتقل ملكية قلعته إلى شخص آخر[٧٤]. وكان من المألوف رؤية جنود مسلمين يقاتلون لمصلحة حكام مسلمين كانوا في السابق يعارضونهم. وكان باستطاعة صلاح الدين أن يأمل، لو أتيح له الوقت والنجاح، في أن يخدم أعداؤه الحاليون تحت إمرته. فليس من المستغرب أنه كان يصدر

الأوامر بأن لا يقتل أي فارّ أو جريح. وكان الأسرى يسرّحون. أما رجال صلاح الدين فكانوا يكتفون بنهب معسكرات العدو. كتب صلاح الدين إلى بغداد يقول بأنه قرر أن لا يلاحق المهزومين، أو يأخذ أسرى، أو يرفض إعطاء الأمان إلى أولئك الذين يلتمسونه لديه[٧٥]. وأخبر زين الدين علي في مصر، بأنه أخلى سبيل أسراه احتراماً لمبادىء الإسلام؛ وبأن رجاله استولوا على أعتدة وخيول؛ «لم يكن هنالك من راكب بين خيالتنا لم يجر أحصنته إلى جانبه، ولا جندي من مشاتنا لم يستطع أن يبز الفرسان بفضل العديد من الأحصنة التي أخذها». كان يوماً مشهوداً أعطى وعداً بالسعادة في المستقبل؛ وأكد وأضاف بأنه أعطى الأمان ونشر الخوف. وأنهى رسالته يناقض ما كان كتبه إلى بغداد، مخبراً زين الدين انه كان يلاحق العدو المنهزم على أمل فصل الأعداء عن قاعدتهم[٧٦].

وعلى الرغم من أنه قد يكون أمل بتحاشي إراقة الدماء بتركه للأعداء خطاً آمناً للفرار من ميدان المعركة، فلا بد أنه رغب في الوصول إلى حلب في أقرب وقت ممكن بغية استغلال نجاحه. وكان يخطط، استناداً إلى عماد الدين، للقيام بحصار آخر[٧٧]. ولكنه في الواقع عسكر فقط إلى الغرب من المدينة مخبراً بغداد بأنه كان يحاول فصلها عن أي اتصال مع الفرنجة[٧٨]. وعلى هذا استمر. وقطع الأمراء الحلبيون ولاءهم للفرنجة وطلبوا الصلح. ويمكن رؤية أثر المعركة من خلال الشروط المعروضة. وأوحي الآن بأن على صلاح الدين أن يحتفظ بجميع فتوحاته، على أن يترك للصالح فقط شمالي سوريا حتى حماه. وفي المقابل يحتفظ باسم الصالح منقوشاً على النقود المعدنية، ويذكر اسمه في خطبة الجمعة طوال مدة حكم صلاح الدين[٧٩]. وحسّن صلاح الدين الصفقة بالإلحاح على أن يعطى معرّة النعمان الواقعة على مسافة ٣٥ ميلاً (٥٦ كلم) إلى الشمال من حماه، وفي حدود ٥٠ ميلاً (٨٠ كلم) عن حلب. وأضاف ابن أبي طي الذي قال انه رأى توقيع صلاح الدين على مستند الإتفاقية، بأن أحد شروطها كان أن يأتي صلاح الدين شخصياً لنجدة الصالح في حال تعرّضه لأي هجوم[٨٠]. أسقط صلاح الدين هذا الشرط من تقريره الذي رفعه إلى بغداد وأعطى نقيضه الذي كان بأنه على الجنود الحلبيين أن يحاربوا إلى جانبه في الجهاد المقدس[٨١]، ويجب أن يطلق سراح الأمراء «النورية والمماليك». وبقي على قيد الحياة عز الدين جرديك فضلاً عن عثمان وحسن صاحب بنو الداية. ولكن علي المريض يمكن الإفتراض إلى حد ما

بأنه مات في السجن. واشترط المفاوضون الحلبيون أن على صلاح الدين أن يقيم صلحاً مع سيف الدين صاحب الموصل، وتدخل هو بالذات مرة أخرى في منازعات عائلة أتابك بالإشتراط على سيف الدين بأن يقيم صلحاً مع أخيه زنكي ويرفع الحصار عن سنجار. وادعى عماد الدين فيما بعد بأن على الحلبيين أن لا يقوموا بأي عمل بدون إستشارة صلاح الدين(٨٢). ومع أن صلاح الدين يمكن أن يكون رغب في هذا الأمر، إلا أنه هو نفسه لم يطلبه من بغداد كجزء من الإتفاقية. وفي أول شوال/ ٢٥ نيسان إحتفل بعيد الفطر خارج حلب. وفي ١٢ شوال/ ٦ أيار جرى التوقيع على الإتفاقية، وعاد صلاح الدين إلى حماه، وتفرّق جيش الفرنجة.

٧ ـ الحرب والدبلوماسية

حدَّدت معاهدة السلام مع حلب نهاية المرحلة الأولى من حملة صلاح الدين السورية. وعلى الرغم من انتصاراته أخفق في هدفه المعلن بوضوح والرامي إلى الاستيلاء على حلب. وتغيرت طبيعة حملته، على نحو قابل للمناقشة، نتيجة لذلك. وكان قد انجذب إلى سوريا بفعل فراغ في السلطة أكثر منه بسبب أي تهديد خارجي. وإن حجم القوة التي أخذها معه يؤكد بأن ذلك لم يكن غزو عسكري ومدني ضخم، إذا أنه كان يعتمد على تجنيد العساكر والموظفين الإداريين الذين كانوا يشكلون جزءاً من الطبقة المهنية المتحركة، وتوحي الأرقام المدونة أن جيشه زاد خلال شهره الأول بعامل عشرة. وإنه خلال الحصار الشتوي لمدينة حلب وجدت الطلبات الأولى المسجلة مرسلة إلى فروخ شاه ليحضر. وعند حلول نيسان ٥٨٠/ ١١٧٥ كان المناصرون السوريون لصلاح الدين قد تقووا بالروابط العائلية والعصبية. ولم يتضح بعد إلى أي مدى يمكن لهذه النقطة أن تمتد، إلا أنها يمكن أن توحي بالشك في إستمرار وتيرة النمو في تدفق الرجال؛ أو، بواقعية أقل، برفض قبول البعض للدور الذي اختاره صلاح الدين لنفسه. فهو متهم بعدم ولائه لسيده المتوفي رغم نفيه لهذا الأمر وتشديده على خدمته للإسلام. وقال في معاهدة السلام بأنه تلقى ترحيباً شعبياً، واتهم الحلبيين والموصليين بإساءة معاملة الفلاحين «وسل سيف التحريض على الفتنة والعصيان»(١)، غير أنه لم يكن مقبولاً بعد كقائد وحيد في الجهاد، أو معترفٍ به بعد كصاحب حق في الحكم باسم الصالح، وكان يصُد في كل مكان تتوافق فيهما مصالح الشعب والفريق الحاكم، كما حصل في حلب. وبمعاهدة السلام حسم

الوضع العسكري كمأزقٍ رسميّ، غير أن الصراع الأساسي بين سياسة صلاح الدين الرامية إلى النمو، ومحاولة الزنكيين الإحتفاظ بسياستهم الخاصة لم يكن قد سوّي، كما لم يوضع حد لدعاوة الحرب.

لخّص صلاح الدين موقعه في رسالة طويلة مرسلةٍ إلى الخليفة في بداية غزوه لسوريا، والتي كرر فيها خدماته للإسلام وبرر تحرّكه: إن مصر بعيدة إلى درجة لا يمكن استخدامها قاعدة لإستعادة القدس، في حين يمكن القيام بهجوم عليها من سوريا بجيوش جرارة وبخيول لم يُتعبها عبور الصحراء[٢]. وإن له الحق في العناية بتربية الصالح أكثر من أولئك الذين كانوا يدعون القيام بخدمته بإخلاص ولكنهم في الحقيقة يلتهمون العالم بإسمه. وبناء عليه، طلب إلى الخليفة أن يعطيه وثيقة رسمية لا تخوله السلطة على مصر واليمن والمغرب فحسب، بل أيضاً على سوريا «وجميع الأراضي التي تسلْمها الدولة النورية بالإضافة إلى كل شيء يمكن الإستيلاء عليه من أجل القضية العباسية بسيوفنا وجيوشنا»[٣].

وأتى رد الفعل على ذلك بعد الهدنة التي أبرمها مع حلب حين عاد إلى معسكره خارج حماه. وجرت هنا مقابلة بينه وبين مبعوث الخليفة شهاب الدين بشير الذي أتاه بخلعة وطوق وثيقة تمنحه السلطة على البلاد التي سبق له واستولى عليها[٤]. كان الخليفة قد اتخذ موقفاً محايداً. وأرسل أيضاً خلعة إلى الصالح، فشكى صلاح الدين فيما بعد من الفائدة الدعاوية التي أعطاها ذلك إلى الحلبيين وقيل لصلاح الدين بأن يحافظ على علاقات ودية مع الصالح. واستثنيت مدينة حلب وأعمالها من الأراضي التي منحتها الوثيقة في مصر واليمن وسائر سوريا. وتابعت الرسالة قائلة لصلاح الدين «لا عذر لك في ترك الجهاد». وجرى تذكيره بالحاجة إلى حراسة ساحل مصر، «إن العدو هو جارك الأدنى»، وأخبر بأن «أمير المؤمنين يريد أن تقصد البلاد التي في يده قصد المستنقذ لا قصد المغير، وعلى الخصوص البيت المقدس». وجواباً على ذلك كتب صلاح الدين يقول: «طلع الفجر على ليل الإنتظار». ولم يقم بأي إنتقاد صريح لحذف حلب، إلا أنه شعر بالحاجة، بصورة واضحة، إلى القيام بالرد المعاكس على الدعاوة الموصلية: «إن سيد الموصل قد أساء إلى خادم الخليفة، واستخدم ضده لسانه وقلمه لأن يده أثبتت عدم قدرتها». ففي إحدى رسائله سمّاه بالخارجي [الزنديق، العاصي]، مع

أنه كان سيف الخادم هو الذي «قتل به الله الخوارج». ثم تابع بعد ذلك سرد تفاصيل إنتصاره وغدر الحلبيين والموصليين، ولم ينس مرة أخرى التذكير بأن هدفه الوحيد كان «إعلاء منابر الدين»[٥].

ومع أن صلاح الدين لم يحاول إعادة فتح موضوع حلب، إلا أنه كان حريصاً في التشديد على متاعبه كلها. وختم كلامه قائلاً بأنه مرغم الآن على التحرّك ضد قلعة بعرين (الخريطة ٨). وتقع هذه القلعة على مسافة حوالي ١٥ ميلاً (٢٤ كلم) إلى جنوبي - غربي حماه. وكان فخر الدين بن الزعفراني يضع يده عليها بواسطة أحد ضباطه. وكان فخر الدين قد انضم إلى صلاح الدين مع قوة ضخمة قبل الهجوم على حمص، آملاً، كما قيل، أن يعاد تعيينه قائد جيش، وربما توقع أيضاً عودة إقطاعه السابق لمدينة حمص. ولم يكن لدى صلاح الدين، مع ذلك، أية نيّة في التخلّي عن قيادة جيشه، وكان لعائلته الآن المطلب الأول في الحصول على الإقطاعات الكبرى. فأعطيت حمص لأبن عمه ناصر الدين محمد، وأعطيت حماه لعمه شهاب الدين. وبعد ذلك غادر فخر الدين الذي قيل بأن صلاح الدين لم يعره إهتماماً حين كان هناك، غير أنه كان منزعجاً بارتداده. فأخبر الخليفة بأن فخر الدين كان معتمداً على الاسماعيليين والفرنجة: كانت بعرين أحد المواقع الأمامية للإسلام، «وليس هنالك من مصلحة للإسلام والمسلمين في أن تبقى هذه القلعة تحت سيطرته... وكثيراً ما كان يتكلم عن إنتزاعها من الإسلام وتسليمها إلى الكفار». واستسلم المكان لصلاح الدين بموجب أمان وانضم فخر الدين نفسه إلى قوات الموصل، ثم وُجد بعد ذلك في شرقي الفرات حيث أعطي الرّها.

زحف صلاح الدين الآن جنوباً إلى دمشق ماراً بحمص وبعلبك، ثم تلا ذلك بضعة شهور من الهدوء النسبي[٦]. وفي مستهل المحرم ٥٧١/ ٢٢ تموز قابل خارج دمشق رسل الفرنجة، وكان بينهم مبعوث هنفري صاحب تبنين. واستناداً إلى ما رواه عماد الدين فإن الفرنجة قدموا للتفاوض حول عقد اتفاقية هدنة ووافقوا على طلبات صلاح الدين جميعها[٧]. وهذا التفسير سوف يتيح لصلاح الدين إنتقاد حلب والموصل لشرائهم الدعم من المشركين. ولم يذكر عماد الدين، مع ذلك، مفاوضات صلاح الدين مع الفرنجة قبل معركة حماه. ويبدو أن البعثة الدبلوماسية لم تكن، في الواقع، تفاوض بشأن إتفاقية مع دمشق، حيث أن الهدنة

السابقة التي انتقدها صلاح الدين كانت ما تزال سارية المفعول، ولكنها كانت تضع اللمسات الأخيرة على إتفاقية حماه، أو ربما كانت تمدد العمل بها. واستناداً إلى ما ذكره وليم الصوري، أتاح ذلك لصلاح الدين مهاجمة الصالح وحلفائه دون تدخل من الفرنجة وذلك مقابل إعادة رهائن الفرنجة المسجونين في قلعة حمص. وكلف هنفري صاحب تبنين الذي قيل بأنه كان على إرتباط مع صلاح الدين «بعلاقات وديّة إلى درجة كبيرة»[٨]، بالوساطة في تلك المفاوضات. وأشار وليم، بحق واعتدال، إلى أن ذلك كان ضد مصلحة الفرنجة الذين ينبغي أن يقوموا بأي عمل ممكن لمنع صلاح الدين من أن يصبح أشد بأساً.

بعد برد الشتاء وأمطاره، كانت سوريا الآن تعاني من القحط. وعمل صلاح الدين ما بوسعه ليخفف الأعباء على البلاد وذلك بإعادة بعض تعزيزاته المصرية. ومكث شهاب الدين في حماه وعين تقي الدين حاكماً لدمشق مكان طغتكين. أضف إلى أن فروخ شاه عاد إلى مصر برفقة الفاضل فكانت المرة الأولى التي تغيّب فيها عن خدمة صلاح الدين منذ تسنم هذا السلطة. وقد ترك فراغاً يجب أن يملأ، فكتب عماد الدين يقول: «كان صلاح الدين مع شدة رغبته فيّ متوقف»[٩]. وأشار المنتقصون من قدر عماد الدين إلى أن «شغله الكتابة، وهي منصب الأجل الفاضل». إلا أن العماد وجد له نظيراً في نجم الدين بن مصال الذي كان قد ذهب مع صلاح الدين إلى سوريا. وأكد الفاضل أن ممالك صلاح الدين كانت الآن منتشرة وأنه هو نفسه لا ينه التواجد في كل مناسبة؛ ولذا فهو يقترح تعيين عماد الدين نائباً له وتم له ذلك.

قد يكون عماد الدين هو الذي سطر رسالة التفاؤل من صلاح الدين إلى فروخ شاه فأخذ صلاح الدين بالإقتراح إرضاء للفاضل. وأرسلت الرسالة من دمشق في ١١ شوال/ ٢٤ تشرين الأول وفيها يقول: «إن الأمور تسير على ما يرام. وأفئدة الرجال متحدة لمصلحتنا، وأوامرنا مطاعة». والشك الوحيد كان يتعلق بالفرنجة: «فلا ندري ما إذا كانوا سيحافظون على هدنة دمشق أم سينقضونها، يختصرون مدتها أم يمددونها». وأعطى الأمر إلى فروخ شاه بمغادرة دمياط التي لم تعد بحاجة إلى الحراسة بعد إنتهاء موسم الابحار، وبالرحيل إلى المقاطعة الشرقية لمصر لحمايتها ضد غارات محتملة من سيناء. ويأتي أهم جزء من الرسالة في مقطع يطلب إلى فروخ شاه بأن يجمع الضرائب من غير المسلمين (الجوالي) في المقاطعة الغربية ويرسل مالاً إلى صلاح الدين الذي

«غاص في بحار وأنهار من النفقات». وتابع صلاح الدين يقول بأنه إذا لم يقم فروخ شاه بالمساعدة، أو أنه إذا تأخر في تسديد القروض ـ لعلها أعطيت له من خزينة الدولة ـ حينئذٍ «ستتظاهر الآذان بالصمم، مع أن الألسنة كانت قد أجابت الطلبات، وستفرق الحشود»[١٠].

عرف فروخ شاه للحال لماذا كان صلاح الدين في حاجة إلى المال. ففي الوقت الذي تم فيه تحرير الرسالة، كان سيف الدين غازي قد تحرّك غرباً إلى نصيبين التي تقع على مسافة نحو ١٢٠ ميلاً (١٩٣ كلم) من الموصل. وبموجب شروط إتفاقية حلب، كان عليه وعلى صلاح الدين أن يقيما صلحاً. وأرسل صلاح الدين مبعوثاً إلى الموصل في حين أتى مبعوث من قبل سيف الدين إلى حلب أولاً ثم إلى دمشق. واستناداً إلى ما رواه عماد الدين، كان الرسول الموصلي قد دعي لمقابلة صلاح الدين فمد يده إلى كمه ليخرج نسخة الرأي، ولكنه بدلاً من ذلك أخرج خطأ، نص معاهدة بين حلب والموصل. حدّق صلاح الدين فيها، وتأملها واطلع على ما اتفقوا عليه وردها إليه، وقال: قد تبدلت. وحين فطن الرسول إلى غلطته، سأله صلاح الدين: «كيف حلف الحلبيون للمواصلة، ومن شرط أسمائهم انهم لا يعتمون أمراً إلا بمراجعتهم لنا واستئذانهم؟».

وأضاف عماد الدين: «وعرف [صلاح الدين] منذ ذلك اليوم أن العهد منقوض، والوفاء مرفوض»[١١]. وأعيد سرد الحادثة في رسالة بعث بها صلاح الدين إلى بغداد:

«وعاد رسول [صاحب الموصل] ليسمع من اليمين، فلما حضر وأحضر نسختها أومى بيده ليخرجها، فأخرج نسخة يمين كانت بين الموصليين والحلبيين مضمونها الإتفاق على حزبنا، والتداعي إلى حربنا.. وقد حلف بها كمشتكين الخادم بحلب وجماعة معه يميناً نقضت الأولى»[١٢].

يصعب علينا معرفة ما نصنع بمثل هذه الحكاية. في ظاهرها لا تبدو أكثر من عذر عرضي مدروس من جانب صلاح الدين بغية التوقف عن المفاوضات. وتظهر سيرته اللاحقة كم كان مصمماً على إضعاف الثقة بالموصليين وتحطيم نفوذهم. ومن جهة ثانية، لم يكن سيف الدين قد استخدم بعد كامل قوته، ولعله كانت له

مصلحة في تدبير معطل . وأخيراً، لا بد أن تكون الشكوك لدى الطرفين كليهما قوية بحيث أن أية غلطة كان يمكن ان تترجم بحق أم بغير حق، بأنها جزء من مؤامرة.

ومهما كانت مصداقية القصة، فسيف الدين يظهر الآن بأنه رحل إلى نصيبين. وينتقد ابن الأثير توقيته ويشير إلى أن رجاله الذين كان بإمكانهم، على نحو طبيعي، أن يتوقعوا قضاء فصل الشتاء في ديارهم حجزوا في نصيبين من الخريف حتى الربيع، فلم يكونوا ساخطين فحسب، بل مفتقرين إلى المال أيضاً[١٣]. ولم يكن سيف الدين قائداً ميدانياً مجرّباً، غير أنه من الصعب أن نصدق أن ذلك كان ببساطة غلطة ارتكبها. لقد تكشف الأمر عن أنه كان يتطلع إلى الحصول على مساعدة من ماردين وحصن كيفا وكلاهما أقرب إلى نصيبين منهما إلى الموصل. ويمكن أنه كان يأمل في القيام بحشد سريع يتيح له أن يسدد ضربة إلى صلاح الدين في غياب تعزيزاته المصرية. وكان صلاح الدين، مع ذلك، حذراً من أن يقع في ظرف غير مؤاتٍ. وليس هنالك من ذكر لتحرك سيف الدين في رسالة شوال/ تشرين الأول إلى فروخ شاه، غير أن أخباره لا بد أن تكون وردت بعد ذلك بفترة قصيرة فقيل لعماد الدين بأن يبعث بكلمةٍ إلى العادل[١٤]، وكان عليه بدوره أن يصدر التعليمات إلى الأمراء يطلب إليهم أن يستعدوا إلى العودة إلى سوريا. في الوقت نفسه أرسل صلاح الدين ذاته رسالة شكوى إلى بغداد. طلب إلى الخليفة المواقف الشريفة النبوية «مستخرجة الأوامر إلى الموصلي إمّا بكتاب مؤكد بأن لا ينقض عهد الله من بعد ميثاقه، واما أن تكون الفسحة واقعة لنا [صلاح الدين] في تضييق خناقه».

ثم طلب أيضاً، وربما كان يفكر بحصن كيفا وماردين، بأنه ينبغي أن تصدر الأوامر إلى جميع «ملوك الأطراف» بأن يعينوه ضد الفرنجة في فتح القدس، فإن لم يرغبوا في ذلك، «فلا أقل من ألاّ يكونوا أعواناً عليه، يلفتونه عن قصده»[١٥]. وفي رسالة أخرى أخبر الخليفة، متهماً الأمراء الحلبيين بالخيانة والغدر، وبأنه يعيد إليه وشاح الشرف الثاني الذي أرسل إليه على ما يبدو بغية إرساله إلى الصالح؛ وأنه كان قد أخبر الأمراء الحلبيين بوصوله [الوشاح] غير أنه علم بعدئذٍ بأنهم كانوا يتهيأون للتخلي عن حلفهم معه «ويقدمون الإدعاءات ذاتها حول هذا الوشاح، كما فعلوا بشأن الوشاح الأول الذي استغلوه بالجور. . . كانوا يطالبون بالإستقلال لهذا الطفل ولا يطيعون الأمر العالي الذي جعل من الخادم [صلاح

الدين] حاميه ونصيره»، وانه، نتيجة لذلك، فكر صلاح الدين بأنه من الصواب أن يعيد الوشاح إلى بغداد «لأنه كان هو [وليس الصالح] المقصود [من قبل الخليفة] بأن يستفيد منه»[١٦].

ليس هنالك تدوين لجواب من بغداد، غير أنه من الواضح أن لا شيء كان يستطيع أن يسوي الخلاف بين الجانبين اللذين كانا مصممين على الحرب. عبر سيف الدين نهر الفرات في ناحية ألبيرة الواقعة على مسافة حوالي ٧٥ ميلاً (١٢٠ كلم) شمالي شرقي حلب، وكان ذلك في بواكير ربيع عام ٥٧١/ ١١٧٦. وقبل أن يستمر في زحفه كان مهتماً بالوصول إلى تفاهم مع كمشتكين والصالح. ولعل ذلك كان بقصد اقتسام الغنائم فيما إذا طرد صلاح الدين من سوريا. وهذا التفاوض، لعدم نضجه أفضى إلى مواجهة الصعوبات. واستناداً إلى ابن شداد هدد سيف الدين مرات عديدة بالعودة إلى بلاده، إلا أن الأمور سويت في النهاية وفاقاً لما يشتهي[١٧]. فتحرك جنوباً وعسكر خارج حلب. وحين خرج الصالح لإستقباله ذرف الدموع وتعانق الإثنان. وكان صلاح الدين في دمشق حين علم بأن الموصليين وصلوا إلى حلب فزحف شمالاً في شهر رمضان (آذار/ نيسان ١١٧٦). وفي ٢٥ رمضان/ ٧ نيسان وصل إلى مرج بوقبيس، وهو مرعى في الطرف الجنوبي من الغاب، إلى الشمال من مدينة حماه.

وكتب من مكان توقفه الأسبق في الغسولة، جنوبي حمص، إلى تورانشاه الذي كان الآن قد ترك اليمن ووصل إلى سوريا[١٨]. وليس السبب في هذا التحرك سبباً موثوقاً. تشير رسالة مؤرخة في صفر ٥٧١/ آب ١١٧٥ إلى مرض خطير أصاب تورانشاه الذي مات ابنه فلم يذق بعد ذلك طعاماً لمدة خمسين يوماً[١٩]. كانت هنالك «صدمة تلو أخرى» عانى منها الكثير، ولا بد أن تكون جميعها سببت له كراهية اليمن، حسب ما حكى عنه ابن أبي طي[٢٠]. وربما شعر أيضاً أنه سيكون الآن أكثر نفعاً في سوريا. استهل صلاح الدين رسالته بآية قرآنية من سورة يوسف (آية ٩٠): «أنا يوسف وهذا أخي»، ثم تابع يقول: «الحمد لله الذي أزال الغم عنا، ووهبنا من لدنه نعمة واسعة، وروى سوريا بسحابة آتية من اليمن». وفي رسالة خاصة به ردد الفاضل هذا القول يشبه وصول تورانشاه بالماء للعطشان، وبزوغ الشمس للمسافر ليلاً الذي ضل به الطريق. وتابع يقول بأنه قد عاد هو نفسه من مصر حين بدأ الأعداء يتحركون بعد أن حنثوا بعهدهم؛ وليس هنالك من ريب في

أن محاربتهم كانت حقّاً «ونرجو لله العلي القدير أن يمد البيت الأيوبي نصره المعتاد»[٢١].

وصل تورانشاه إلى دمشق في ٧ شوال/ ١٩ نيسان. ولم ينتظره صلاح الدين إذ كان قد إجتاز نهر العاصي. وأفاد ابن شداد بأن صلاح الدين كان قد أنفذ في طلب جنود مصريين «وهؤلاء يتأخرون في أمورهم وتدابيرهم، وهم لا يشعرون أن التأخير تدمير»[٢٢]. غير أن ذلك يبدو إما أن يكون مبالغة في القول وإما أن يكون خلطاً بينها وبين حملة ٥٧٠/ ١١٧٥. وتثبت رسالة الفاضل أنه على الأقل، كان بعض المصريين مع صلاح الدين خلال زحفه من دمشق، وليس هنالك إشارة من قبل عماد الدين إلى حصول أي تأخر في الإمداد. على العكس، لقد أشار إلى أنه بالرغم من أن صلاح الدين لم يكن لديه سوى ٦٠٠٠ رجل، قرر التقدّم، وكان هو نفسه لا يتوقع تعزيزات إضافية. وأحصى عماد الدين قوة سيف الدين العسكرية بعشرين ألف فارس بالإضافة إلى اتباع معسكرهم. وزعم بأنهم كان لديهم تعهد بالحصول على نجدة من الفرنجة[٢٣]. ورفض ابن الأثير تقديرات عماد الدين لقوة سيف الدين فقال: «إنني وقفت على جريدة العرض وترتيب العسكر، وكان المتولي لذلك أخي مجد الدين، ولم يكن العدد كما ذكره عماد الدين، إنما على التحقيق يزيدون على ٦٠٠٠ فارس وأقل من ٦٥٠٠ فارس».

وأضاف يقول: «كم هي الموصل وأعمالها إلى الفرات حتى يكون لها وفيها عشرون ألف فارس؟ يا ليت شعري»[٢٤]. في هذا السياق يبدو المؤلفان كلاهما مخادعين. فابن الأثير يترك جنود حلب خارج حساباته بالرغم من أن الصالح نفسه كان مع الجيش؛ وعماد الدين يفسر واقع أن صلاح الدين رحل دون أن ينتظر تورانشاه تفسيراً محرّفاً. ومن المؤكد أنه بالإمكان الافتراض بأن تورانشاه كان قد جلب معه جنوداً من اليمن. وليس هنالك أي شيء في ما تلى من الرواية حول القتال يوحي بأن أياً من الجانبين كان يفوق الآخر عدداً بشكل كبير. ويبدو أنه من العدل أن نستنتج أن عماد الدين كان مبالغاً، وأنه ربما أضاف عدد الخدم إلى عدد رجال سيف الدين.

بعد مضي حوالي أسبوع تقريباً على وصول صلاح الدين إلى مرج بوقبيس (أول شوال/ ١٣ نيسان)، كان لا يزال باقياً في معسكره يحتفل بعيد الفطر. حينئذٍ

علم بأن الحلفاء قطعوا مسافة حوالي ٢٣ ميلاً (٣٧ كلم) جنوبي حلب في طريقهم إلى تل السلطان. وعلى أثر هذا النبأ إجتاز نهر العاصي عند شيزر وأعاد عتاده الثقيل إلى حماه. وكان عليه أن يجتاز حوالي ٥٠ ميلاً (٨٠ كلم) كي يصل إلى تل السلطان، فكلفه ذلك مسيرة يومي الثلاثاء والأربعاء في ٨ و ٩ شوال/ ٢٠ و ٢١ نيسان. وشاهد كشافة سيف الدين خيالة صلاح الدين مبعثرة تروي أحصنتها وذلك مساء يوم الأربعاء، ويلوم ابن الأثير زلفندار لتقديمه النصح بعدم الإيصار إلى القيام بهجوم فوري[٢٥]. وهناك دليل ضعيف جداً على أن صلاح الدين كان في خطر من أن يفاجأ، ولكن يمكن أن يكون قد إعتمد على قيادة العدو التقليدية التي تتطلب مقداراً كافياً من ضوء النهار من أجل القيام بمعركة منسقة ومحكمة التخطيط. وفي يوم الخميس في ١٠ شوال/ ٢٢ نيسان، احتشد الجيشان في تشكيلات تقليدية، كل منهما يشتمل على قلب وجناحين. وكانت قوة القلب في صف صلاح الدين وراء تل يخفي وراءه قواته الإحتياطية. وكان يقود مسيرة جيشه شمس الدين صديق صاحب بصرى أما قائد الميمنة فلم يذكر بالإسم، ويمكن أن يكون فروخ شاه الذي لوحظ بأنه لعب دوراً بارزاً في المعركة[٢٦]. وكان سيف الدين في المركز المتحد مع زلفندار. وكان يقود جناحه الأيمن مظفر الدين كوكبوري وهو ابن الإداري الموصلي السابق زين الدين علي كوجك؛ أما قائد الجناح الأيسر فلم يذكر بالإسم.

حين احتدمت المعركة انهزم الجناح الأيمن على كلا الجانبين. وقتل اثنان من أمراء صلاح الدين، حين حاولا على ما يبدو أن ينجدا رجال شمس الدين، إلا أن سيف الدين واجه مصاعب أشد خطراً حين حاول مساعدة جناحه الأيسر. ولعل هذا الأمر اعتبر على ما يبدو مرتبطاً بهجوم عديم التنظيم قام به قلب جيشه الذي بدأ فرسانه، استناداً إلى عماد الدين، بالخروج أبكر مما ينبغي: «يصلون متسابقين متفرقين . . . وكانت حملتهم قدام الألوف مئون، وأمام المئين عشرات، وقد سبقتها آحاد . . .»[٢٧]. حينئذٍ أطلق صلاح الدين رجال فرقة خيالته الخاصة ضد هذا التشكيل المخلخل ورد أفراده إلى الخلف. واستناداً إلى ما رواه ابن أبي طي، حين تحرك سيف الدين لدعم مسيرته ظن رجاله بأنه هُزم[٢٨]. كما أن ابن الأثير يلاحظ أيضاً أنه كان هنالك فوضى وتشويش في صفوف الحلفاء ويضع اللوم في هذا الإضطراب على واقع أن زلفندار كان قد رفع البيارق حيث لا يمكن رؤيتها

إلا من مكان قريب[٢٩]. وزعم ابن الأثير أنه لم يقتل سوى رجل واحد. ويبدو من المؤكد أنه ما أن يفقد سيف الدين السيطرة على الوضع حتى يفقد القتال الجدي. فالحلفاء طردوا من معسكرهم ولم يقوموا بمحاولة لم شعثهم. وكتب الفاضل يقول: «كتبت هذه الرسالة في تل السلطان، حيث أنا في رفقة صلاح الدين... إن أشجار رماح صلاح الدين تحمل ثمراً، في حين أن أشجار الأعداء لا تلقي ظلاً»[٣٠].

واكتفى صلاح الدين، كما فعل في قرون حماه، بانتصاره ولم يحاول تحطيم قوة الأعداء. ومرة أخرى منح الأمان، وأمضى رجاله ما تبقى من النهار ينهب معسكر الحلفاء. وأعطيت خيمة صلاح الدين نفسه إلى فروخ شاه مكافأة له على خدماته في المعركة. ووصف عماد الدين كيف أنه بالإضافة إلى خزائن المال، والخمر والآلات الموسيقية والمغنيات حمل سيف الدين معه مجموعة من طيور القماري والبلابل والهزار والببغاء في الأقفاص، والتي أعادها صلاح الدين، مرفقة برسالة حملها رسول خاص إليه وقال له: «عد إلى اللعب بهذه الطيور، فهي سليمة لا توقعك في المحذور»[٣١]، وأخذ الأمراء الأسرى بمن فيهم عبد المسيح، إلى حماه، ثم أطلق بعد ذلك سراحهم. واستناداً إلى ابن أبي طي، عادت جيوش حلب «عراة حفاة فقراء، يتلاومون على نقض الإيمان والعهود»[٣٢]. ولعل تلك هي إشارة إلى الشكوك بالغدر والخيانة. ولاحظ ابن الأثير أن عز الدين مسعود، وهو أخو سيف الدين، إنضم إليهم في حلب، ولكن يظهر أن سيف الدين نفسه قد تخطى المدينة وذهب توا إلى بزاعة التي تقع على مسافة حوالي ٢٣ ميلاً (٣٧ كلم) إلى الشرق منها، ومن هنالك رحل عبر الفرات في طريق عودته إلى الموصل[٣٣].

لم يقم صلاح الدين بأي تظاهرات خطيرة ضد حلب، مع أن ابن أبي طي يفيد بأنه عسكر خارجها لبضعة أيام[٣٤]. ولم يكن لدى المدينة أية نية بالإستسلام. ووجه صلاح الدين إهتمامه إلى قطع وسائل إتصالاتها، وإلى الإستيلاء على القلاع المجاورة، فاستولى أولاً على بزاعة، التي استسلمت في ٢٢ شوال/ ٤ أيار. وترك أحد رجاله الأكراد مسؤولاً عنها ثم تقدم إلى شمالي شرقي منبج التي كانت في ذلك الحين في قبضة عدوه قطب الدين ينال الذي زعم عماد الدين بأنه كان واحداً من أولئك المسؤولين الرئيسيين عن جر سيف الدين إلى سوريا[٣٥].

وفي ٢٩ شوال/ ١١ أيار استسلم ينال. ومن الغريب أن صلاح الدين ساومه على الولاية، مقابل السماح له بالإحتفاظ بمحتويات القلعة، التي ذكر عماد الدين أن قيمتها تبلغ ٣٠٠,٠٠٠ دينار[٣٦]. ومع ذلك، لم يكن ينال لِيُظفر به، ففضل بدلاً من ذلك أن يلتحق بخدمة سيف الدين.

توجه صلاح الدين الآن نحو الغرب، مقيماً على بعد يساوي نفس المسافة تقريباً عن حلب. وفي ٣ ذي القعدة/ نهاية الأسبوع الثاني من أيار قام بمحاصرة عزّاز. لاحظ وليم الصوري بأن عزاز كانت تقع نقطة وسطاً في الرحلة من إنطاكية إلى الرها، وكانت عزاز إقطاعية من أمارة الرها الفرنجية[٣٧]. وادعى صلاح الدين بأنه يخشى أن تعود إلى الفرنجة، ولكن عماد الدين أضاف ببساطة يقول: «إن حصارها [عزاز] حصار حلب على الحقيقة»[٣٨]، والقلعة، التي تقع على تلة إصطناعية، كانت منيعة ومحميّة جيداً ومزودة بالمؤونة والذخيرة تزويداً حسناً. نصب صلاح الدين المناجق وتكبد الجانبان الخسائر. وبعد ذلك، وفي ١١ ذي القعدة) ٢٢ أيار هاجمه الاسماعيليون مرة أخرى وجرح أحدهم خده بسكين، فقتل الرجل على يد سيف الدين يازكوج المملوك السابق لشيركوه. وصُرِع اسماعليان آخران في الحال، وقطّع المتفرجون الرجل الرابع إرباً إرباً. ومات فيما بعد أحد الأمراء الذين أنجدوا صلاح الدين متأثراً بجروحه. أما صلاح الدين نفسه فعاد إلى سرادقه ودرعه مثقوب، والدم يسيل من خده. وقال ابن الأثير بأنه كان كالمذعور[٣٩]. وذكر ابن أبي طي بأن «اضطرب العسكر وخاف الناس بعضهم من بعض»[٤٠]. وكتب عماد الدين كشاهد عيان بأن خيمة صلاح الدين كانت الآن «محمية بحاجز من خشب الخركاه، واحترز واحتجب، وما صرّف إلاّ من عرفه»، «وإذا ركب وأبصر في موكبه من لا يعرفه أبعده ثم يسأل عنه، فإن كان مستعفاً أو مستعداً أسعفه وأسعده»[٤١]. وأرسلت إلى العادل في مصر رسالة تطمين: «لم ينله من الحشيشي الملعون إلا قطرات منه قطرات دم خفيفة . . وليس في الأمر ما يشغل سراً»[٤٢]. واستمر الحصار.

وبعد إنقضاء خمسة أسابيع ونصف الأسبوع (٣٨ يوماً)، نسفت أسوار عزاز فاستسلمت في ١١ ذي الحجة/ ٢١ حزيران. وزحف صلاح الدين بشكل نصف دائرة حول حلب، فصادف نجاحاً غير منقطع. ولم يكن سوى أثناء حصار عزاز أن حكى عماد الدين، وللمرة الأولى، عن ضجر المقاتل[٤٣]. وشكى عماد

الدين نفسه من قطع الطرق والسبل[٤٤]. ففيما يخصه كانت الطرق مقطوعة ولم يستطع الحصول على مال من دمشق لسد حاجاته. ولم تكن الروح المعنوية لدى الجنود الحلبيين منهارة، وكانوا يحاولون إصطياد صلاح الدين بعيداً عن الحرس. لقد قص عماد الدين حكاية كاشفة عن أحد فرسان حلب وقع في الأسر والذي قرر صلاح الدين، بعد أن إستشار «أصحاب الموثورين» أن يعامله معاملة اللص فقطع يده وزعم عماد الدين أنه بسبب تدخله الشخصي فقال: «هذا لا يحل، وقدرك بل دينك عن هذا يجل»[٤٥]. وهذا الأمر يؤكد مشكلة واضحة. ولم يكن بالإمكان أن يُزعم جدّياً أن الحلبيين كانوا يخالفون أي قانون شرعي من أجل الدفاع عن الصالح. فإذا ما عوملوا بقسوة فإن سمعة صلاح الدين ستتأثر، ومع ذلك، فإن هو غادر المدينة متابعاً نحو الجنوب، فلن يمكنه أن يأمل بالإحتفاظ بفتوحاته الحديثة التي ستكون معزولة بين حلب وأراضي سيف الدين.

بعد ذلك قرر الرحيل من عزاز إلى حلب نفسها، فكان أثر هذا الرحيل أن أخذ كمشتكين على حين غرة. إذ أن كمشتكين إفترض بأن الهجوم سوف يستمر حول المحيط المحصّن لمدينة حلب، وبأن الخطر التالي سيكون على إقطاعه في حارم على الطريق إلى إنطاكية، فذهب إلى هناك ليدافع عن المكان نفسه، وهو تحرّك أساء عماد الدين، بلا ريب، تمثيله عن قصد في قصيدة كتب فيها يقول:

وحلب تنفي كمشتكينها كما إنتفت بغداد من قيمازها[٤٦]

وحين وصل صلاح الدين إلى حلب منتقلاً عبر مرج دابق، حاول كمشتكين التكفير عن خطئه بطلبه إذناً في الرجوع إلى المدينة كي يرتب أمر الصلح مع الحلبيين. ووافق صلاح الدين لتقديره، على أن إتفاقاً سوف يعقد فوراً. وتوحي رواية أبي شامة بأنه جرى تبادل ايداع الرهائن لدى الطرفين[٤٧]. غير أن عماد الدين الذي كان قد أرسل إلى حلب مع مبعوث صلاح الدين إلى بغداد شمس الدين بن أبي المضاء زعم أنه كان يقوم بدور المبعوث وأنه كان على الحلبيين فقط إرسال الرهائن[٤٨]. وكان عماد الدين، على نحو واضح، غير قادر على فهم الموضوع فترك رواية مشوشة وناقمة لما حدث: «أبعدوا عنا الغلمان وأفردوني في مكان ضيق بغير أسراج ولا مرفق ولا بساط ولا كساء ولا خبز ولا ماء وبتنا ليلة في أنكرعيش، ونحن جياع عطاش ولا لحاف ولا فراش، وعندنا جماعة يحرسون

يشمتون». وفي الصباح مثلوا في حضرة الصالح وعز الدين مسعود، أخو سيف الدين، «وأحضر لنا نسخة يمين [المتعلق بمعاهدة السلام]، صُرفنا دون أن يُلتفت إلينا»[٤٩]. ولعل المستند الذي أعطي إلى عماد الدين كان يحتوي على شروط لا يمكن قبولها لدى صلاح الدين، فاتضح أن تلك كانت خديعة للمجيء بكمشتكين إلى حلب. وكتب عماد الدين يقول: «لم يزل كمشتكين منافقاً مداهناً، وعاتبني السلطان وغضّب بي جرمهم». واستمرت هذه المفاوضات الفاشلة لبعض الوقت. وكتب صلاح الدين من حلب، في ٢٢ ذي الحجة/ ٢ تموز، يقول:

«يحيط بنا الأمان والحظ الوفير. . . لشهر كامل، قبل الاستيلاء على [عزاز] وبعده، وقبل هجوم [الحشاشين][٥٠] وبعده، كنا نتلقى النصح، ونستمع إلى عروض السلام. . . كنا قريبين غير بعيدين، وناعمين غير خشنين، ووافقنا على التنازل عن جزء مما نملك ومما كنا قد أعطيناه إقطاعات لجيشنا. . . غير أننا كل مرة كنا نقدم فيها عرضاً جيداً، كانوا يرفضون، تمشياً مع عادتهم السابقة»[٥١].

بعد الإنتقال إلى حلب «كتبوا إلينا مراتٍ عديدة، سرّاً وعلانية يزعمون انهم يريدون السلام. . . وفي كل مناسبة، كنا نوافق على ما كانوا يطلبون. . . أو على معظمه. . . راسمين خطاً فقط عندما كنا نعرف بأنهم ينوون إستخدامه سبباً للأذى. طلب إلى متلقي هذه الرسالة وهو عالم ديني لم يُذكر إسمه، أن يسرّب هذه المعلومات بين أفراد محيطه كما لو أنها رواية صحيحة عن الوضع، ولم تكن سوى كلمات مرصوفة بعضها إلى بعض»[٥٢].

وأثناء سير هذه المحادثات لم يستعجل صلاح الدين هجوماً، بل أرسل بدلاً من ذلك، عملاء يجمعون الواردات المالية من العقارات الحلبية واتحد الشيعة والسنة داخل المدينة، مع ذلك، على دعم الصالح. واستناداً إلى رواية ابن العديم كانوا تواقين لأخذ موقف الهجوم[٥٣]. وهؤلاء كانوا «عامة الشعب» الذين أظهرهم ابن الأثير كمهاجمين لجنود صلاح الدين موقعين الخسائر في صفوفهم وعاملين على ايقافه عن الإقتراب من المدينة[٥٤]. وقد يكون ابن الأثير مغالياً بعض الشيء، إلا أن صلاح الدين كان في وضع صعب. إن سياسته السليمة تجاه المغلوبين في قرون حماه وتل السلطان لم تثمر أي نتائج واضحة، وكلما أصبحت المعارضة متحدة كلما قل شأن قوله الشخصي بأنه كان يعمل لمصلحة الصالح

وخف وزنه . وخسارة بزاعة منبج وعزاز يمكن أن تكون أضعفت حلب في حينه ، ولكن بزاعة ومنبج وعزاز لم تكن في الأمد القريب أكثر من ورقة مفاوضة نافعة . وإذا كان جنوده ضجرين خلال حصار عزاز، فسوف يكون من الحمق إجبارهم على البدء بحصار أشد صعوبة وأكبر كلفة . ومن جهة الحلبيين فإنهم يستطيعون أن يصمدوا في مدينتهم وأن يأملوا في الحصول في الوقت المناسب، على دعم من الموصل . غير أنهم في الوقت الحاضر لا يستطيعون القيام بشيء لطرد صلاح الدين من ديارهم .

وليس من المستغرب أن يؤدي هذا المأزق مرة أخرى إلى السلام، فتخلى صلاح الدين عن مطلبه أن يكون الصالح في رعايته، وثبت الصالح في ملكيته لحلب ومناطقها. ويبدو أن صلاح الدين إحتفظ بمنبج وبزاعة إلا أن عزاز أعيدت. وحكت رواية رومانسية عن لقاء مسائي بين صلاح الدين وطفلة لنور الدين بعد أن تم الصلح؛ فقام صلاح الدين «وقبل الأرض وبكى على نور الدين»، عندها طلبت الطفلة عزاز[٥٥]. ثم أن عماد الدين كتب اتفاقية السلام أوحى بأن إعادة عزاز كانت متضمنة بين شروطها[٥٦]. وشمل اتفاق الصلح حلب والموصل وديار بكر.

وذكر ابن الأثير ان تاريخ الإتفاقية هو ٢٠ محرم ٥٧٢/ ٢٩ تموز[٥٧]. ورحل صلاح الدين من حلب في ٢٢ محرم/ ٣١ تموز. كان ما يزال لديه بعض الحسابات يصفيها، فاختار الزحف على حصن سنان مقدم الاسماعيليين، في مصياف الواقعة على بعد مسافة ٩٠ ميلاً (١٤٥ كلم) في خط مستقيم عن حلب في حمى جبال النصيرية . وأعطى هنا الإنطباع بأنه على وشك البدء بحصار، ونصب مناجيق في حين إنتشر رجاله لينهبوا ما يستطيعون من بلاد الاسماعيليين. وعند حلول ٢ صفر/ ١٠ آب توقف الهجوم تماماً وكان صلاح الدين بعيداً مسيرة يوم في حماه . فإذا خصص ثلاثة أيام للسير من حلب، ويوم لنصب المناجق، ثم يوم آخر للرحيل إلى حماه، فيبقى ستة أيام على أبعد حد يجري خلالها الهجوم الذي كان من الواضح أنه أمر غير ملح. وتفسير عماد الدين هو أن الحشاشين أرسلوا تهديدات وإغراءات إلى عم صلاح الدين، شهاب الدين الحازمي صاحب حماه، فكانت نتيجة ذلك أن اقنع صلاح الدين بالرحيل[٥٨]. وروى ابن الأثير بأنهم هددوا بقتل شهاب الدين نفسه وجميع أهل صلاح الدين وأمرائه، وقال أيضاً إن عسكر صلاح

الدين قد ملوا الحرب على أثر حملته[٥٩]، في حين أن ابن أبي طي يربط الإنسحاب بخطر الغارات الفرنجية[٦٠].

وحين كان صلاح الدين في مصياف تسلم عدداً من السجناء الفرنجيين الذين ألقي القبض عليهم في البقاع، غير أن الأنباء التي وردت من الجنوب لم تكن مطمئنة. وفي شهر محرم/ تموز رأى الفرنجة أن دمشق كانت «بدون جند وبلا حاكم». وكان خليفة أموري بغدوين المنبوذ، قد اجتاز أعالي المياه في الأردن، وجاوز غابة بانياس وأغار على داريّا وهي قرية في حدود ٦ أميال (١٠ كلم) من دمشق[٦١]. وفي ٢٣ محرم/ أول آب شن هجوماً جديداً بعد أن رأى أن صلاح الدين ما زال منشغلاً. وزحف هو نفسه على وادي البقاع من صيدا في الجنوب في حين هاجم ريموند صاحب طرابلس من منطقة جبيل في الشمال. وسلك بغدوين طريق صيدا ـ دمشق المعتادة، ماراً بمحاذاة جبل نيحا وواصلاً إلى مشغرة وعلى منحدراتها الشرقية. ثم تحرك بالتالي إلى البقاع حيث وجد أرضاً «تتدفق لبناً وعسلاً كما يقول المثل»[٦٢]، في حين سار ريموند بمحاذاة مجرى نهر أدونيس (نهر إبراهيم) ليجتاز قمة سلسلة جبال لبنان في المنيطرة شمالي بعلبك. وعزي إلى ابن المقدم الذي كان يحكم بعلبك الفضل بتحطيم فرقة فرنجية مغيرة[٦٣]، ولكنه أخفق في الإتصال مع تورانشاه الذي كان يقود جنوده فوق الطريق من دمشق. وقد وضع المؤرخون العرب المعركة التي تلت في عين الجر من جهة دمشق في عمق البقاع بالقرب من طريق دمشق بيروت الرئيسية[٦٤]. وروى وليم الصوري أنه بعد أن وصل بغدوين إلى عنجر إجتاح رجاله الريف مجبرين الأهالي على اللجوء إلى التلال أو دفع مواشيهم لإيوائها في المستنقعات[٦٥]. بعدئذٍ تحرك بغدوين شمالاً لملاقاة ريموند ومن المفترض أن تكون القوة العسكرية المشتركة قد عادت لمجابهة تورانشاه. وكانت قوة تورانشاه العسكرية قد عززت بقوات مجنّدة محلّية، غير انه هزم هزيمة منكرة وأجبر على الإنكفاء إلى التلال، بعد أن مني بخسارة «العديد من القتلى، والكثير من الجرحى، وعدد هائل من الأسرى»[٦٦]. وعاد بغدوين وريموند بالأسلاب والغنائم، والخسارة الوحيدة التي ذكرها وليم الصوري كانت عدداً من التائهين الذين كانوا ينهبون المستنقعات فعزلوا وانقطعت أخبارهم[٦٧].

واستناداً لرواية ابن الأثير شجعت معركة عين الجر الفرنجة على تحدٍّ

أكبر(٦٨). ولكن بالعودة الوشيكة لجيش صلاح الدين من الشمال، لم يعد هذا الوضع يشكل خطراً جدياً على تورانشاه أو صلاح الدين. ولم يبق تورانشاه لحراسة دمشق، بل انه لا بد أن يكون قد رحل إلى حماه مباشرة بعد الهزيمة التي مني بها، حيث قابل صلاح الدين للمرة الأولى منذ بدء حملته اليمنية. وفي هذا الوقت وفد زائر آخر إلى حماه هو الشاعر أبو حسان الضرير الذي جاء يشكو حاكم تدمر؛ والذي نظم قصيدة بيّن فيها أنه يعتقد الآن تماماً بأن صلاح الدين كان في طريق العودة إلى مصر وأنه لم يبق لديه سوى قوة عسكرية صغيرة(٦٩).

عاد صلاح الدين ببطء إلى دمشق التي وصلها في ١٧ صفر/ ٢٥ آب. وكان كمال الدين الشهرزوري، قاضي نور الدين في دمشق قد توفي في ٦ محرم/ تموز. وحل في مركز القاضي مؤقتاً أحد نوابه الأوحد داود. ولكن بعد بعض التفاوض أعطي المركز إلى ابن أبي عصرون الذي كوفيء من أجل تركه حلب للإلتحاق بخدمة صلاح الدين. وخسر صلاح الدين أيضاً رسوله إلى بغداد شمس الدين بن أبي المضاء الذي توفي في ١٢ صفر/ الأسبوع الثالث من آب. ولاحظ عماد الدين صداقته المفيدة مع ظهير الدين بن العطار الرجل النافذ في بلاط المستضيء، مما سهل تقديم بعض الخدمات لصلاح الدين(٧٠). وحين أرسله في مهمة إلى بغداد، «قصده الشعراء، فأكثر خلعهم وجوائزهم . . . وربما عاد وعليه ديون» فعين بعده ضياء الدين الشهرزوري. وكإيماءة أخيرة نحو الماضي والحاضر كليهما، اقترن صلاح الدين بعصمة الدين خاتون، أرملة نور الدين وشقيقه سعد الدين بن أنر، الذي كان قد انضم إليه قبل إستيلائه على دمشق في عام ٥٧٠/ ١١٧٤، «فأي السلطان أن يحلي عطل الملك»(٧١). بعدئذٍ عين تورانشاه نائباً له في سوريا. واستناداً إلى رواية الأثير، رحل في ربيع الأول/ ١٠ أيلول إلى مصر شاعراً بالأمان بسبب ما أحرز من إنتصارات، وما أبرم من معاهدات(٧٢).

٨ ـ الفترة المصرية الفاصلة

ليست ملاحظة ابن الأثير حول شعور صلاح الدين بالأمان ملاحظة مقنعة. فلم يكن هنالك حتى الآن معاهدة بين الفرنجة ودمشق. كما أنه لم يكن ليعتز بما فعله. وفي الواقع، كان الجهاد المقدس الآن لا يزال في الدرجة الثانية من أوليات الأسرة الأيوبية. وإذا كان لصلاح الدين الفضل في طرد ريموند صاحب طرابلس من حمص، غير أنه هو نفسه لم يقم بأية معركة. كما أنه لم يقم بالهجوم في أية مناسبة ضد الفرنجة. وإذا كان قد انتقد أخصامه لشرائهم الدعم الفرنجي إلا أنه عاد وعقد معهم صفقته الخاصة، مؤجلاً طلب الخليفة بوجوب العمل على استعادة القدس. لا شيء من هذه الأمور يدل بالضرورة على التنكر للقضايا الأساسية، ولكنه يدل على أن قتال الفرنجة مؤجل حالياً، أمام عمليات صراع النفوذ الداخلي وتجميع القوى.

والحق أن الظروف الملائمة، لم تتوفر لمعالجة قضايا مصر والجهاد ونمو الأسرة الأيوبي، وباتت جميعها قضايا عالقة بدون حلول نهائية. كان صلاح الدين قد نقل الأموال المصرية معه إلى سوريا. ثم أرسل يطلب المزيد، كما هو مبينّ في رسالته إلى فروخ شاه. هذا فيما كانت سوريا تدخل دورة طويلة من السنوات العجاف، مما يعني أنها لا يمكن أن تأمل بمساعدة مصرية طويلة الأمد. وكان قد انتهى النمو الذي كانت فيه غنائم الحرب تمول الحرب التالية. ولعله بالإمكان رؤية أعراض المصاعب التي نجمت عن ذلك في الإشارات إلى التململ بين صفوف جيش صلاح الدين والنقص الذي طرأ على أعداده.

كان صلاح الدين يفضل الرجال على المال، أنّى كان ذلك ممكناً، كما يستدل على ذلك من محاولته استرضاء قطب الدين ينال. وهذا يعكس نظرة المتفائل بأن دورة توسعية يمكن أن تستمر حتى تصل إلى بعض التوازن. وبكلام أعم وأشمل، هنالك بالتأكيد نبرة تفاؤلية في الرسائل التي تغطي هذه الحقبة. وتظهر هذه الرسائل وروايات عماد الدين، على نحو سطحي، حماس صلاح الدين واقتناعه بالفوائد التي سوف يجنيها، واعتقاده بضرورة فتح حلب، وإنزعاجه من دناءة تعامل الحلبيين مع الفرنجة والحشاشين، ويرتد إلى السخط والغضب حين يعترض سبيله عائق. ويمكن صرف النظر عن هذه المقولة باعتبارها تحريفاً للحقائق، غير أن آمال صلاح الدين ذاتها، والجهد الذي بذله من أجل شرح أفعاله والدفاع عنها يبقى أمراً واضحاً.

وما هو أقل وضوحاً، السؤال: لمن كان الدفاع موجهاً في الأصل؟ فلم تكن بغداد في هذه الفترة خصماً عسكريّاً جدياً لدمشق والقاهرة؛ ولم يكن الخليفة كالبابا يتمتع بدعم التنظيم الديني ذي التسلسل الهرمي. ومع ذلك، فإن الخليفة وحده، نظرياً، هو الذي يستطيع منح بلاد الإسلام لحكامها. وفي «قصة الظاهر بيبرس» يبدو الخليفة أنه هو الذي يعطي مصر إلى الأيوبيين بسبب الخدمات التي أدوها له. وكان القصد من هذا، طبعاً، إعطاء مادة للإستهلاك الشعبي. ولعل صلاح الدين قصد، جزئياً، توجيه دعاوته إلى عامة الشعب الذين كانوا يستخدمون «سلاح الصلاة»[1] الماضي. وكانت الأهداف الممكنة الأخرى هي التجنيدات وبخاصة رجال الإدارة الذين كان يطلب أن يكون أحد مؤهلاتهم الإرتباط ببيئتهم الإسلامية. ونحتاج إلى بينات أكثر حول هذا الموضوع. غير أنه من الواضح على الأقل أن صلاح الدين، مهما كانت دوافعه، حافظ في محاولته التغلب على تناقض أساسي، على أن يعترف بالمبدأ الوراثي في الممارسة الإسلامية - «يرعى الملوك نمو ممالكهم لأجل أولادهم»[2] - وإنه رغب في القانون الإسلامي لكي يتجاهله في حالة الملك الصالح. ورحل عن سوريا دون أن يجد حلاً للمشكلة، وبدون أن يكون لديه خط واضح في السياسة المستقبلية. ولم يكن هنالك من فائدة في أن يتورط بهجوم على حلب مرة أخرى إلا إذا كان لديه حظ بالنجاح. ومن جهة ثانية، إذا قبل الوضع في سوريا، لن يكون لديه مجال للتوسع في الشرق، ويمكن أن يتوقع، عاجلاً أم آجلاً، هجوماً معاكساً زنكياً آخر.

في هذا الوقت بعث برسالة إلى عضد الدين، وزير الخليفة، شارحاً ما قام به وملمحاً إلى الخطط المستقبلية. واستهل رسالته بالإشارة إلى رسالة سابقة كان قد أرسلها عند عودته إلى دمشق وكرر روايته للتسوية مع حلب. وافق على الصلح في الشمال، وإعادة المناطق التي أخذت من الصالح بحد السيف، آملاً بهذا أن يحظى بعطف الخليفة وتأييده؛ «أصحاب الأطراف» - إشارة، ربما، إلى ماردين، وحصن كيفا - سبق لهم أن بعثوا برسائل يطلبون إليه أن يتوصل إلى ترتيب مع سيف الدين، ولكنه طرد مبعوثيهم، مذكراً بما فعله سيف الدين في الماضي. وحينئذٍ، في النهاية، وافق على تسوية شرط أن تساعده جيوش الموصل في حروبه. في هذا الموقع بدأ صلاح الدين تحضير بغداد لحملة شمالية أخرى في عام ١١٧٧ فأخبر الوزير أن «طاغية الروم الأصغر»، (صاحب أرمينيا)، قد إقترب من ديار الإسلام وكان يعتزم القيام بهجوم في الربيع؛ وأمير صقلية جهز هو الآخر أسطولاً قوياً ووعد بأن يساعد فرنجة الساحل. أما في ما يتعلق بتحركه، «فإنه من المعروف جيداً بأن سوريا كانت تعاني من القحط هذه السنة.. وهذا ما دفع خادم الخليفة ورجاله للخروج من البلاد». ولاحظ بأنه واكب في رحلته إلى مصر عدداً ضخماً من التجار المسلمين، عاملاً على إنقاذهم من دفع ضرائب فادحة كان عليهم أن يدفعوها عن سلعهم لو أنهم مروا عبر المناطق الفرنجية. وأنهى كلامه بمدح إدارة العادل لمصر: كان الناس هادئين، والطرقات آمنة، والثغور محميّة، والعدل مقام. وكان هو نفسه يستعرض جنوده، ويجهز مخزونات من الأسلحة والمؤن إستعداداً للربيع؛ وكان يعتزم بعدئذٍ أن يرسل لا جيشاً فحسب، بل الأسطول المصري أيضاً بحيث «يطحن الكافرين كما بالمبرد من الجانبين» البر والبحر[٣].

وشرع صلاح الدين بإقامة تحصيناته. وشرح عماد الدين بأن أسوار القاهرة والفسطاط كان يظن بأنها ضعيفة، وبأنه يحتاج إلى حاميتين منفصلتين للدفاع عنها[٤]. وعوضاً عن تقوية كل سور بمفرده، أمر صلاح الدين الآن بإنشاء سور واحد حول المدينتين، وتشييد قلعة. وفي ١٣ ربيع الأول ٥٧٣/١١ شباط ١١٧٧ كتب إلى تورانشاه في سوريا يخبره عن العمل الذي أنجز من أجل تحسين تحصينات دمياط الدفاعية، ولبناء قلعة في تنيس؛ وذكر رجلاً لم يسمه، ربما كان فروخ شاه، كان قد أنفق مبالغ طائلة من المال على ذلك، مدخراً للمستقبل كنزاً

في الجنة. وكان صلاح الدين نفسه عازماً على القيام بزيارة لكلا المكانين، وإلى الاسكندرية أيضاً، حيث خلال أكثر من سنة بقليل أنفق مبلغ ٤٠,٠٠٠ دينار على إصلاحات لسور المدينة. وكان فرنجة الساحل يأملون في الحصول على نجدةٍ من بلاد ما وراء البحار، ولكنه هو نفسه كان ينوي فرض معركة، وحدد زمناً لحشد جنوده. وضمّن رسالته إشارة إلى مخاطر الطريق من سوريا، وإلى صعوبة المراسلة. وحُذّر تورانشاه بألاّ يرسل إلا الأخبار التي إن وقعت في أيدٍ غريبة لا تحدث أي أذى: «سبق لنا أن عبرنا عن رغبتنا في أن تكون رسائله خالية من أي شيءٍ قد يكون ضاراً لو كشف». وكان لا بد من استخدام مصطلح خاص في الرسائل الهامة[٥].

وفي ٢ شعبان ٢٣ شباط ترك صلاح الدين القاهرة للقيام بالزيارة الموعودة إلى البحر الأبيض المتوسط مصطحباً معه ولديه الأكبر سناً: الفاضل، ويبلغ من العمر سبع سنين، وعثمان، الذي كان في الخامسة. وبعد أن فتش دمياط تابع سيره إلى الاسكندرية حيث قام بزيارة إلى الشيخ أبو طاهر الأصفهاني واستمع إلى أحاديث الرسول لمدة ثلاثة أيام في الأسبوع الأول من رمضان/ الأسبوع الأول من آذار. وكان قد تحدث في رسالته السابقة إلى عضد الدين عن خطته في مهاجمة الفرنجة في البر والبحر، واستغل زيارته للقيام بتفتيش الأسطول. واستناداً إلى ما رواه ابن أبي طي، فإنه وجد «الأسطول وقد اخلفت سفنه وتغيرت آلاته»، فأمر بتعمير الأسطول وأن تجمع له الأخشاب والصناع[٦]. وكان بانحلال الدولة الفاطمية قد استخدم الأسطول المصري كأداة لا تزيد إلا قليلاً عن وسيلة لتجارة العبيد. ولاحظ عماد الدين بهذه المناسبة أن عدداً كبيراً من السبي قد جُلب إلى دمياط والذي وهب جارية من بينهم دفع ثمنها صلاح الدين[٧]. ولقد كان الأسطول يعاني من نقطتي ضعف اثنتين إذا كان سيستخدم في مهمات أكثر خطورة، إحداها نقص في المواد وبخاصة الخشب المناسب الذي كان لا بد من استيراده من أوروبا. وكانت محاولات مستمرة قد جرت لمنع هذه التجارة، فكتب صلاح الدين يقول: «إن المسلمين جدّوا في طلب هذه الأشياء ولكن الروم أعاقوا تصديرها»[٨]، في حين أعطى تعليماته في رسالة أخرى لإرسال مبعوث إلى جنوى ليبذل جهده في شراء وإرسال أي شيء كان يحتاج إليه الأسطول[٩]. وكانت المشكلة الخطيرة الثانية اليد العاملة. فلم تكن الخدمة البحرية شائعة ولا محترمة. وشكا صلاح الدين فيما بعد من «الجماعات المجهولة»[١٠] التي

استخدمت في إدارة سفنه. وذكر المقريزي بأن منادة الرجل يا «أسطولي» كانت إهانة في مصر[11]. أضف إلى أن أسطولاً مصرياً قوياً كان يمكن أن يكون ذا استراتيجية هامة. وكتب وليم الصوري عن الذعر الذي شعر به الفرنجة من وراء توقع أعداد كبيرة من السفن قادمة من مصر لمهاجة الساحل لدعم أي جيش[12]. وأضاف يقول: ما كان أشد باعث على الخوف هو أن أسطولاً مصرياً قد يتدخل أو يعوق كلياً مرور التعزيزات الفرنجية التي تأتي بشكل حجاج من أوروبا[13].

غادر صلاح الدين شاطىء البحر المتوسط في ٢٤ رمضان/ ١٦ آذار وكتب في ٢٧ رمضان/ ١٩ آذار يخبر تورانشاه بأنه عاين الأسطول وتجهيزه بالرجال وراقب السرعة في بناء السفن: «جمع الرجال الذين كانت الإدارة الفاسدة قد فرقتهم في الماضي، وكان بينهم عدد من المغاربة الذين يخشى العدو بأسهم»؛ أما فيما يتعلق بسائر مصر فكان هناك ازدهار وحصاد طيب: «ونحمد الله أنه لم يكن هنالك ظلامة إلا كشفت في البلاد». و «قلوب السكان وألسنتهم تتحدث في الثناء على النظام»[14]. وأضاف بأنه كان يتوقع بأن يهاجم من قبل الفرنجة. ولما كان تورانشاه قد وعده بأن يقدم له حصاناً فريداً من نوعه، فقد كتب إليه طالباً ألا يرسل هذا الحصان طالما أن الخطر ما زال ماثلاً. وكان تورانشاه نفسه أثناء ذلك يحاول التفاوض مع الفرنجة لعقد هدنة. ولم يكن صلاح الدين متحمساً لذلك، ولكنه كتب يقول إن «الحاضرين يرون ما لا يراه الغائبون»؛ ولن يكون هنالك اعتراض إن غطت الهدنة جزءاً فقط (دمشق وليس مصر)، ولم تحتو على ضرر للمسلمين، أضف إلى أنه ينبغي أن يسمح للجيوش السورية بأن تنتقل إلى مصر حين تدعو الحاجة دون أن تتهم بنقضٍ للاتفاق.

وتابع صلاح الدين يثير مشكلة التجارة الإسلامية التي تمر عبر المناطق الفرنجية. وفي تقريره إلى بغداد عن عودته إلى مصر في ٥٧٢/ ١١٧٦ أشار إلى الضرائب التي فرضها الفرنجة على عبور البضائع، كتب يقول:

«لم يردنا أي رد على رسالتنا في شأن الحاجة إلى توفيق مرور القوافل الإسلامية... وربما كان هذا قد ضاع بسبب أعمال العدو فلم يصل أبداً. إن مرض القوافل يثبت أنه عسير على التسكين والمعالجة، وأن شفاءه صعب. وهؤلاء

التجار يجازفون بحياتهم وسمعتهم وبضائعهم، كما أنهم يجازفون بتقوية العدو. وفي كل مرةٍ نقرر فيها إنزال العقاب الصارم بأولئك الذين يصلون إلى هنا. . . تكون الجراح التي أثخنهم بها الفرنجة ما تزال تنزف . . . وكل واحد يدافع عنهم ويقول: لا تزد ألمهم ألماً».

وشدد على أهمية الرأي العام بالنسبة إلى قراراته وذلك بالإلحاح بأن «الناس المجانين»، يجب أن يوضع لهم حد من قبل تورانشاه في دمشق:

«وإلا، كيف تضع لهم حداً هنا؟ فإذا نحن منعناهم من مغادرة مصر، فسوف يقال: هؤلاء الرجال يريدون أن يعودوا إلى ديارهم وأولادهم، أو إذا منعناهم من الدخول، سيقال لنا: هؤلاء هم رجال عانوا كثيراً على أيدي أعداء الإسلام»(١٥).

وربما كان للإتحاد السياسي بين القاهرة ودمشق دور في تشجيع التجارة. ولكن الصادرات السورية إلى مصر التي عدّها المقريزي، هي في معظمها منتوجات زراعية ثانوية ليس فيها كبير أهمية للإقتصاد المصري(١٦). ويمكن أن يكون التجار الذين يشكو منهم صلاح الدين ينقلون سلعاً أكبر قيمة من أقاصي الشرق، والتي كان يفضل أن يرسلوها عبر مينائه الخاص في عدن، غير أن ملاحظاته يمكن أن تؤخذ بشكل معقول بمعناها الظاهري وعلى الافتراض بأنه لم يرد أن تتراكم لدى الفرنجة أية منافع من التجارة الخارجية لمقاطعاته.

وتحتوي نفس الرسالة على إشارة إلى مستند التعهد الذي قال بأنه لم يصل إلى القاهرة. وكتب يقول بأنه لولا كرهه لرفض أي طلب يتقدم به تورانشاه، لما رغب في توقيع هذا بنفسه، إذ أن توقيع تورانشاه سيكون كافياً. وقد تكون هذه إشارة إلى تسوية حلب. واستناداً إلى عماد الدين كان صلاح الدين قبل أن يرحل إلى القاهرة، قد أرسل مبعوثه سعد الدين أبا حامد إلى الموصل وديار بكر من أجل أن يحلف اليمين الذي يثبت المعاهدة(١٧). وعاد سعد الدين بصحبة ممثلين من الموصل وماردين وحصن كيفا، واستحلف الرسل تورانشاه في دمشق. وبعد ذلك عاد رئيس وفد الموصل وهو ابن القاضي كمال الدين الشهرزوري، إلى بلده، ولكن الآخرين أُقنعوا بمتابعة السفر إلى مصر. وقرر سعد الدين بألا يأخذهم بالطريق الجانبية الطويلة إلى شرقي الكرك بل يجتازون المنطقة الفرنجية، فان قطعوه في يومين على غرّة منهم نجوا. وفشلت الخطة. إذ ألقي القبض على مبعوثي

حصن كيفا وماردين، ونجا الباقون بصعوبة.

وفي ٢ ذي الحجة/ بداية حزيران كان صلاح الدين في بركة الجب خارج القاهرة، وبنهاية الشهر سار مسافة أبعد في طريق القوافل إلى فلسطين، ثم كان في معسكر فاقوس (الخريطة ٧). وقد أزعجته صعوبات الاتصالات التي أكدتها بلادة المبعوثين المشرقيين. وكتب من معسكره يعلق على واقع أنه لم يكن في رسالة وصلت للتو من تورانشاه أية إشارة إلى وصول أية رسالة من رسائله الخاصة من مصر؛ فهو نفسه وصلته أخبار، ولكن لم تكن كلها لتصدّق، وكانت هنالك شائعات لم تعمل سوى إن زادت ثقته «بأن الله لن يسمح بسوء استعمال الإسلام»؛ والدليل الوحيد على أن العدو كان يخطط لهجوم بحري كان واقع أنه لم تصل أية سفينة تجارية رومية إلى مصر في تلك السنة ـ ولعل ذلك بعد افتتاح موسم الإبحار في آذار؛ ومع ذلك، «إن هدفنا الوحيد هنا وغايتنا الوحيدة في هذه الحياة التي أعيرت لنا هي القتال ضد الكافرين، سواء أصدقونا في ذلك أم لم يصدقوا». وكان واضحاً أن تورانشاه كان يرسم صورة للمعاناة والفقر في سوريا. وعلق صلاح الدين بأنه لم يشأ بأن يجبر على الذهاب إلى هناك بنفسه «لئلا تجلب تحركه مجاعة أخرى للسكان». ومن أجل إعطاء مثل على المصاعب، كان تورانشاه قد تكلم عن الأزمة المالية الشديدة التي يعاني منها أصحاب الاقطاعات. وكتب صلاح الدين يقول: «إن كان قصده [تورانشاه] جعلنا نعلم بذلك، إذن، أخذنا علماً به. . . أما إذا أرادنا أن نعطي الرجل إقطاعة أخرى على سبيل المبادلة، في حين أن سوريا تعاني ضنكاً شديداً هذه السنة بسبب الجفاف العام، فإن ذلك باب، إن فتح، فسوف يدخل منه العديدون». في الواقع، كان هو نفسه في هذه المرحلة، وبالتالي مصر، إما غير راغب في تقديم العون المالي لسوريا وإما غير قادر على ذلك. وأضاف على سبيل التفسير يقول: «ليس هنالك تاجر معروف لدينا في مصر يأخذ منا مالاً بشكل حوالة تدفع من قبل نوابنا في دمشق»[١٨].

كان المصدر الرئيسي لهموم صلاح الدين هو كونت فلاندرز، الذي كان قد أتى ليقوم بفريضة الحج، في حين وصل أيضاً مبعوثون من القسطنطينية إلى القدس الأمر الذي أوحى بهجوم مشترك على مصر. وتبع هذا مباحثات مطوّلة، فكتب صلاح الدين رسالة أخرى بينما كان لا يزال ينتظر الأخبار، وقال: «حتى تحرير هذه الرسالة لانزال موجودين في معسكرنا وقد تجمعت قواتنا وتوطدت عزيمتنا على

الإغارة على العدو بحراً وبرّاً، ذاهبين إليه إن هو لم يقم بهجوم». وتابع يقول بأن جنوده أخذوا قسطهم من الراحة وزودوا بالمال تزويداً حسناً؛ والموانىء محصنة تحصيناً قوياً، وحالة الأسطول المالية مريحة؛ وغاراته كانت ناجحة، ما عدا في حالة واحدة حيث نزل أحد القادة إلى اليابسة للتزود بالماء، «بسبب العطش الشديد»، فأخذ على حين غرّة. وليس هنالك أخبار يعتمد عليها فيما يخص الأسطول الصقلي؛ فالبعض قال بأنه تأخر، بينما قال البعض الآخر بأنه كان على وشك الهجوم على مصر. وبشكل مماثل، كانت هنالك روايات مختلفة حول أسطول [بيزنطي]آخر، «والعيون ساهرة والآذان صاغية لتسقط أخباره»[١٩]. وبعد مضي بعض الوقت على هذا حلت محل الاشاعات أخبار مؤكدة. وكتب صلاح الدين يخبر تورانشاه أن أخباراً وردت من أحد مخبريه على الساحل أن حشداً عسكريّاً افرنجيّاً قد هيء، وأن الملك ونبلاءه رحلوا (إلى عكا) لتفقد السفن البيزنطية. وهم لم يستطيعوا اختيار وقت أنسب من وجهة نظره، كما قال، لأن جيوشه كانت قوية ومجهّزة تجهيزاً جيداً؛ وكان على تورانشاه أن يعد العدة لحشد الجيوش السورية بحيث يكونون على استعداد للتحرك بإتجاه مصر وفاقاً للخطة التي سبق أن وضعت: «نكتفي بنقل الأخبار ولا نرغب في الإسهاب في التأكيد على الإجراءات التي يتطلبها الوضع»[٢٠].

وفي النهاية، لم يخرج الفرنجة. واستناداً إلى وليم الصوري، لم يكن كونت فلاندرز راغباً في التحرّك ضد مصر[٢١]. لقد سمع بالمصاعب التي سببها فيضان النيل، وحذره الناس من ذوي الاطلاع الحسن على حالة البلد بأن ذلك الوقت لم يكن الوقت المناسب للقيام بهجوم. وقيل له أيضاً: «كان «عدد كبير من الأتراك» قد تجمع هناك، وأنه بالرغم من تقدمة ٦٠٠ من الجمال، كان يخشى من نقص في المؤن أثناء الرحلة. وبعد إنقضاء بعض الوقت أقنع بتغيير رأيه. وكان البيزنطيون قد عادوا في ذلك الوقت إلى بلادهم. واتهم بعضهم بوهموند صاحب أنطاكية وريموند صاحب طرابلس بتدبير هذا التوقف التام عن قصد وتصميم بغية تأمين نجدة كونت فلاندرز لأنفسهم.

وحين كان صلاح الدين يراقب جبهاته، كان بلاطه في حالة استرخاء وبخاصة عماد الدين الذي كان يستمتع بزيارته الأولى إلى مصر. كان واجبه الأول كتابة الرسائل إلى سوريا، «ولم يكن ذلك بشكل مستمر»[٢٢]، فإن في كل ديوان

كتّاباً. ووصف حياته بأنها كانت حياة الاستماع إلى الأغاني وزيارة المدارس ورواية الأحاديث النبوية والبحث في مواضيع أدبية وفقهية. وأدعى بأنه كان على اتصال مع صلاح الدين كل عشيّة للتشاور في شؤون الدولة، ثم تابع يقول:

«كان صلاح الدين شغوفاً بمجالسة خواصه من العقلاء ومؤانسة ذوي اختصاصه من الفضلاء. فإذا أراد الانصراف بعد هزيع من الليل، قام إلى صلاة العشاء. . . ورفع الشمع. فإن كان له حاجة إلى إنشاء كتاب أو البوح بسرّ صواب أجلسني وأملى علي مقاصده وقمت وسهرت تلك الليلة لتحرير الكتب، ثم أبكر إليه وأعرضها إليه».

قام عماد الدين في وقت فراغه بزيارته الأولى إلى الأهرام حيث عسكر مع أصدقائه وجلس في ضوء القمر يتفرج على الأهرام. وعلى الطريق بعد الجيزة رأى حلقة من الرجال يرتدون الطيالس (العباءات) التي تشبه عباءات الفقهاء العراقيين أو السوريين. وحسبهم طلاّباً، ولكنهم فروا هاربين، «وقيل لي انهم كانوا يشربون المِزْر [البيرة]»[٢٣]. وكانت المكتبة الفاطمية ما زالت قيد التصفية حيث تباع الكتب فيها مرتين في الأسبوع. وخزائنها مرتبة مقسمة الرفوف مفهرسة بالمعروف. غير أن قرقوس متولي القصر - «وهو تركي لا خبرة له»[٢٤] - أشير عليه من قبل الدلاّلين بأن يخرج الكتب من بيوت الخزانة إلى أرضها، من أجل تهويتها ونفضها. وبعدها يلجأ الدلالون إلى أن يوكسوها ويعكسوها، وحين يجدون مؤلفاً يحتوي على أكثر من مجلد واحد يعمدون إلى فصل الأجزاء فرادى ويبيعونها إلى عملائهم بثمن بخس ثم يعودون فيجمعونها. وكتب عماد الدين يقول: «فلما رأيت ما الأمر، حضرت القصر واشتريت كما كانوا اشتروا»[٢٥].

هذه الرواية عن وقت الفراغ الجليل لعماد الدين، مع ما لها من معانٍ إسلامية إضافية، ينبغي أن تقارن مع الصور الشنيعة التي رسمها الهجاء الأفريقي الشمالي، الوهراني، وهو رجل وصفه صلاح الدين بالزنديق ورفض أن يصدق حجة إسلامه، فيقول له صلاح الدين «لو رأيتك تمشي على الماء ما رأيتك إلا في صورة زنديق»[٢٦]. كتب الوهراني عن المغنى، معشوق العماد الأصفهاني[٢٧]، وعن اللهو المعربد، حيث كان المضيف يبقى عرياناً على أربعة، وينبح ألواناً من النباح، وعن الخمرة تحتسى من سرر المغنيات[٢٨]. ووصف المساجد وقد «نسخ

العنكبوت على بابها»، و «عشش الحمام في محرابها»، ومساجد أخرى كانت تستخدم «مخازن وأفران»[٢٩]. واتهم قاضي صلاح الدين الجديد في دمشق، ابن أبي عصرون، بأنه «لا يصدق بالرجعة»[٣٠] مضيفاً يشير بالمثل إلى أتباعه «من استرعى الذئب ظلم»[٣١]. وبطريقة مماثلة، كتب يقول بأن قاضي القاهرة صدر الدين بن درباس عين قضاة كانوا «لا يعيشون إلا من اللصوصية وسرقة الحمير والبقر»[٣٢].

إن تفاصيل من هذا النوع ينبغي ألا تؤخذ بمعناها الحرفي. فالإشارة إلى مفلس كتب إلى أمه بأنه كان يعتاش من سرقة «لوالك» الأحذية من الجوامع يرهنها عند اليهود الخمارين، على النبيذ في المواخير[٣٣]، إن هذه الإشارة لا يقصد منها إلا الدعابة. وهي دعابة كانت مقبولة في أعراف ذلك الزمان. وينبغي أن نلاحظ أن تفاصيل اللهو المعربد أرسلت في رسالة إلى ابن شقيق صلاح الدين، هو تقي الدين، والتي كانت كلماتها «أحلى من الضرب بشبشب المومس». وينفع هذا كعمل تصحيحي للصورة ذات الوجه الواحد التي عرضها عماد الدين، وهو وجه المديح العربي المصاغ بشكل رسمي، بينما يتّبع الوهراني نمط الهجاء المتخذ شكلاً رسمياً على حد سواء. ويقضي التقليد الأدبي بأن كلا الصيغتين مسموح بهما، مهما كانت علاقتهما بالواقع، غير أنه فيما يختص بالهجاء فقد كانت هنالك حدود سياسية ترسمها الفئة الحاكمة فقط.

وكان أحد أفضل الشعراء المعروفين في عهد صلاح الدين، وهو ابن عنين، قد طرد من دمشق لأنه ظُنّ بأنه تعدى الحدود. ويقول البيت المشهور الذي نسب إليه، واصفاً حكم صلاح الدين في دمشق، ما معناه: «سلطاننا أعرج، وكاتبه أعشى البصر، ووزيره محدّب»[٣٤]. ووصف رأس الفاضل خارجاً من عنف ردائه كرأس فأر يطل من حجره[٣٥]. وسخر من ابن أبي عصرون لذهابه في حملة مع صلاح الدين، ملاحظاً بأن قوس تسريح القطن ليس صالحاً لرمي النبال[٣٦]. إن خطر طريقته، بالمقارنة مع مبالغة الوهراني، يكمن في أنها تبدو مرتكزة على شعور بالتفوّق. فقد كان ابن عنين فخوراً بأسلافه العرب وشتم أتباع صلاح الدين المصريين في دمشق بمساواتهم بأعدائهم السابقين من الزنوج، كاتباً يقول: «لو كنت أسود ذا رأس كالفيل، وساعدين ضخمين، وقضيب هائل إذن لسهرتم على إشباع حاجاتي، ولكن الواقع أنني أبيض»[٣٧]. ولم يكن متأثراً بنجاحات

صلاح الدين فكتب عن إفتقاره للمعارضة الحقيقية: «لا تفرح بفتوحاتك، فالزمان غافل»[٣٨]. كان هذا الانتقاد لاذعاً أكثر مما ينبغي لإدارة كانت تتطلع إلى دعم شعبي. وكان ابن عنين منفياً، فكتب في ذلك يقول: «لماذا أبعدت رجلاً صادقاً لم يرتكب جرماً ولا سرقة؟ إنفِ المؤذنين للصلاة من بلادك إذا كنت مبعداً جميع أولئك الذين يقولون الحق»[٣٩].

إن المستوى المزدوج للمديح والهجاء أمر هام لفهم موقع صلاح الدين الخاص في ذلك الوقت. لقد نسب إليه كتابه للسيرة من العرب الفضائل البطولية العربية المتعلقة بالشجاعة والوفاء والجود.

ومن وجهة نظر عدائية، مع ذلك، يمكن تصويره كشخص ماكر، محمول على القيام بسياسة توسعية أنانية. والتي تبدو مضامينها مقبولة بشكل مألوف في ذلك الوقت إلى درجة أن الوهران استطاع، في رسالة إلى نجم الدين بن مصال، أن يضيف دارا إلى لائحة الأمكنة التي تأثرت بحملات صلاح الدين[٤٠]، علماً بأن صلاح الدين لم يصل إليها إلا بعد إنقضاء أربع سنوات على وفاة ابن مصال. وكانت الإدارة الداخلية لصلاح الدين في نظر المادحين في أفضل تعاليم الإسلام، أما بالنسبة للهجائين فكانت تدار من قبل ضعفاء مغرورين، أو مجرمين حقيرين. وينبغي ألا يقبل بأي من الوجهتين هاتين، ولكن يجب أن يكون واضحاً أنه في هذه المرحلة من سيرة صلاح الدين فإنه لم يكن قد وطد مكانته بعد في أعين معاصريه، بالرغم من ازدياد نفوذه وموارده المالية. ولم تكسب له براعته في التعامل مع القوة في سوريا القبول حتى من مثل أولئك المعاونين القدامى كعز الدين جرديك إذا تجاوزنا عن ذكر المناصرين المتورطين بعمق في معاضدة الأسرة الزنكية. وإذا كان عليه أن يحتفظ برباط بين موقعه التوسعي والمبدأ الإسلامي، أو أن يقوي هذه الصلة، فإنه في حاجة ماسة إلى إنتصار آخر على الفرنجة.

٩ ـ الهزيمة والمصاعب

انتهت عطلة عماد الدين السارة في شهر ربيع الثاني ٥٧٣/ تشرين الأول. ولما لم يقم الفرنجة بهجوم على مصر حافظ صلاح الدين على وعده بالقيام بالهجوم هو نفسه. وربط وليم الصوري هذا الأمر بتهديد الفرنجة للشمال حيث كان كونت فلاندرز يستعد لهجوم على شمالي سوريا[١]. وهذا ما تؤكده رسائل غير مؤرخة، قال صلاح الدين في واحدة منها بأنه تحرك لأن العدو كان يشتهي أحد الثغور، لعله حارم التي يمكن لصلاح الدين أن يدافع عنها، بالرغم من أنها ليست من أراضيه. «فإذا ما دخل العدو من هذا الباب . . . فسوف يدخل البيت»[٢]. والرسالة الثانية هي واحدة من سلسلة من الرسائل موجهة إلى تورانشاه. وأشار صلاح الدين فيها إلى نية العدو في مهاجمة بلاد غير محددة، مضيفاً بأنه أمل في أن يرسل رسالته التالية من حدود المناطق الفرنجية؛ فاذا تحرك الفرنجة (ضد الشمال)، يستطيع أن يهاجم هو من الخلف، وإذا ظلوا حيث هم، «فسوف يكون رأس الرمح في صدورهم». واقترح تورانشاه أن يعود صلاح الدين نفسه إلى سوريا بعد أن تكون الحملة قد انتهت، ثم يسير «مرة أخرى» عبر وسط فلسطين ويستمتع بربيع ثانٍ هناك[٣].

غادر صلاح الدين القاهرة في ٣ جمادي الأولى/ ٢٨ تشرين الأول؛ وفي ٥ جمادي الأولى/ ٣٠ تشرين الأول عسكر خارج بلبيس وترك عماد الدين تقريراً عن نصيبه الخاص في الاستعدادات اللاحقة. كان لديه، أو كما قال «استشعرت نفسي من عاقبه ندم». وزعم أنه كان مجهزاً تجهيزاً رديئاً ـ «والطريق كله في الرمل،

وجمالي وبغالي لا تقوى على الحمل [ما كنت احتاج إليه]». ومن بلبيس كتب إلى «أصــدق صديق»، القاضي شمس الدين محمد بن الفرّاس ليسأله ماذا ينبغي عليه أن يفعل. وأجاب شمس الدين: «رافقه ولا تفارقه: فإنه يعرف حقك». وكتب عماد الدين ابياتاً ساخطة يعبر بها عن عدم موافقته على هذه النصيحة. وتقول الرواية: «قال صلاح الدين: أنت معنا أو عزمت أن تدعنا؟ فقلت: الأمر للمولى وما يختاره لي فهو أولى. فقال: تعود وتدعو لنا».

لقد سوّغ حذر عماد الدين على نحو سريع بلغة التجارة. فكتب يقول: «فركبت إلى سوق العسكر للاستياع، وقد أخذ السعر في الارتفاع، فقلت للغلام: قد بدا لي، وقد خطر الرجوع من الخطر ببالي، فأعرض للبيع احمالي، وانتهز فرصة هذا السعر العالي»[٤].

لم يذكر أي تاريخ لبدء الحملة، غير أن عماد الدين كتب بضعة أبيات من الشعر، من المعسكر، في ٢٠ جمادي الثاني/ ١٤ تشرين الثاني حين كانت الاستعدادات قد شارفت على الانتهاء. وسار صلاح الدين عبر طريق العريش حيث ترك جزءاً من امتعته الثقيلة تحت الحراسة. ومن هناك، وبعد أن تجاوز داروم وغزة وصل إلى عسقلان يوم الأربعاء في ٢٩ جمادي الأول/ ٢٣ تشرين الثاني (الخريطة ٧). وحذر بلدوين حول تحركه فجمع ما تيسر له من قوات. وضعف موقعه بغياب مئة فارس كانوا يساعدون الحملة الشمالية لكونت فلاندرز حيث انضم إليهم الاستبارية ومعظم فرسان الهيكل (الداوية) الذين حبس من تبقى منهم في غزة. وقدّر وليم الصوري قوات صلاح الدين بـ ٢٦,٠٠٠ فارس «ولم يحسب أولئك الذين كانوا يمتطون البغال والجمال» ومنهم ٨٠٠٠ كانوا من الطواشية، وهم زبدة الفرسان المحترفين، و ١٨,٠٠٠ قراغولامية[٥]. وبينت لائحة الجيش المصري ما مجموعه فقط ٦٩٧٦ طواشي و ١٥٥٣ قراغولامية[٦]. وكان صلاح الدين، كما رأينا من قبل، يكتب طوال السنة عن قوة جيوشه، ويمكن مناقشة القول بأنه جند عدداً من العساكر الاضافيين من أجل هذه الحملة. حتى أن الأرقام التي أعطاها وليم الصوري، بالنسبة للجنود المحترفين في مقابل الخدم، كانت أرقاماً مبالغاً فيها. وكان من الواضح، مع ذلك، أن قوات بلدوين كانت أقل عدداً. فسحب عساكره خارج عسقلان ولكنه نُصح بألا يجازف بالقيام بمعركة. وبعد القيام ببعض المناوشات لجأ في المساء إلى أسوار المدينة.

وأدى امتناع بلدوين عن اعلان القتال، إلى اندفاع صلاح الدين في الحكم على الموقف بسرعة. فاتبع استراتيجية الغزو التقليدي وذلك بالسماح لعساكره بالانطلاق في غارات نهب، اتسعت حتى الشمال في أعالي السهل الساحلي حتى بلغت كيليكيا قرب أرسوف (الخريطة ٢) وهو جمت الرملة واللد. واقتبس وليم الصوري من كتاب المراثي: «كيف أن الرب حفظ ابنة جبل صهيون بسحابة من غضبه»[٧]. إلا أن تطبيق هذه الاستراتيجية اعتمد الافتراض بأن ليس بالإمكان تحدي القوات الاسلامية جدياً. ومشى الآن بلدوين الذي لم يكن مستعداً لرؤية بلاده مدمَّرة، خارجاً من عسقلان، وكان ذلك في أول جماد الثاني/ ٢٥ تشرين الثاني. وانضم إليه فرسان الهيكل من غزه؛ وبدلاً من أن يهاجم داخل البلاد حيث يمكنه أن يتوقع الالتقاء بالغزاة من رجال صلاح الدين، اتبع خط الساحل ليحتفظ قدر الامكان بعنصر المباغتة.

من الصعب تحديد مكان التقاء الجيوش. فالمصادر العربية تتكلم عن معركة الرملة، ويذكر وليم الصوري «تل جزر Mont Gisart»[٨]. وقد يكون المكان محدوداً بتلة، ويقع نهر على مقربة منه. اضف إلى أن بلدوين الذي كان يأمل في القيام بهجوم مباغت، ويمكن أن يفترض بأنه سار يوم المعركة نفسه، فلا بد من أن يكون في حدود مسيرة نصف يوم من عسقلان. وتل جزر الذي سبق وعرِّف بـMont Gisart، هو على الأقل على بعد حوالي ٢٥ ميلاً (٤٠ كلم) من عسقلان، ومن المفترض بالتالي أن يكون بعيداً إلى درجة لا يمكن معها تحديده، وكذلك شأن محيط الرملة. أضف إلى ذلك أن عماد الدين يذكر نهراً «عليه تل الصافية»[٩]. وتل الصافية نفسه يقع إلى الغرب من وادي السنط والسهل الذي ينبسط حوله يقطعه عدد من مجاري الأنهار. والتل نفسه هو موقع لقلعة الحرس الأبيض Blanchegarde، التي لم تذكر في أية رواية عن المعركة؛ وفي أي مكان إلى الشرق منها يبدو خط قريب جداً لا بد أن يكون زحف صلاح الدين قد اعترضه تلال سفحية. وبالرغم من عدم إمكانية البرهنة على هذه النقطة، فإن موقعاً غريباً مثل موقع المستعمرة الحالية لِـ كفار مناحيم، الواقع على مسافة حوالي ١٦ ميلاً (٢٦ كلم) من عسقلان[١٠]، يمكن أن يكون المكان المقصود.

كان لدى صلاح الدين ما يكفي من التحذير من جراء تقدم الفرنجة ليسعى

إلى جمع أولئك الجنود الذين كانوا على مرمى السمع وذلك بالنفخ بأبواقه وقرع طبوله. ومع ذلك فقد كان رجاله متفرقين، وكان يعاني صعوبات في نقل أمتعته. ويدوّن كل من عماد الدين وابن الأثير أن قافلة الأمتعة سببت الازدحام لدى اجتيازها النهر عن تل الصافية[١١]. وكتب صلاح الدين بأنه لم تكن الأمتعة قد اختلطت بفرق الفرسان فحسب، بل أن عدداً من رجاله كانوا سيّئي الإعداد بحيث كان عليهم أن يذهبوا ليجمعوا الأسلحة والدروع. وعقب صلاح الدين أيضاً على التشكيل المرصوص للفرنجة. وكتب وليم الصوري أن القوات الفرنجية بأسرها، «كلهم توق إلى الانتقام لمظالمهم، ومندفعين دينياً إلى شجاعة حقة بالنيران التي استطاعوا أن يروها على جميع الجهات، وبالتقارير التي وردتهم عن ذبح أهلهم، فهبوا كرجل واحد»[١٢]. وقبل أن تشن المعركة، بدل صلاح الدين تشكيل جيشه. وشرح فيما بعد أنه بناء على نصيحة أمرائه أعطى الأوامر إلى الجناح الايمن أن يقترب من الجناح الأيسر، وأمر الجناح الأيسر أن يتحرك نحو القلب، بحيث يكون التل الذي كانوا يسيرون بجانبه يصبح خلف ظهورهم حين تبدأ المعركة[١٣]. وهو قد أمر بهذا التشكيل الذي يحتوي على جناحين متقدمين وقلب متأخر مع تل إلى الخلف اليميني، كي يواجه نصف الشمال. وهذا يتلاءم على نحو معقول مع الافتراض أن صلاح الدين كان يتحرك غرباً لمقابلة بلدوين (بغدوين) الذي يتقدم من عسقلان. وكان التكتيك الإسلامي الاعتيادي، لمواجهة الانقضاض الفرنجي هو افساح المجال في نقطة التصادم ثم المهاجمة حول الجناحين والخلف. غير أن مناورة صلاح الدين كان بإمكانها أن تحجب بسهولة قلب جيشه مؤقتاً بأحد جناحيه بحيث يجعل من المستحيل على رجاله أن يتقدموا على خصومهم بالسباق من أجل استيعاب الهجوم.

ولاحظ وليم الصوري أن المسلمين لم يعطوا خيولهم أي فرصة للراحة منذ رحيلهم عن مصر[١٤]. وهذا ما أكده أيضاً صلاح الدين الذي قال إن بعض رجاله قد أرهقوا مطاياهم. ومع أن ذلك لم يكن في مصلحته إلا أنه كان ما يزال لديه كثافة في الأعداد إلى جانبه. واستناداً إلى رواية وليم الصوري لم يكن مصير المعركة في البداية معروفاً. وقد برز في القتال أخ صلاح الدين، تقي الدين. فدون ابن الأثير بأنه تقدم إلى الخط الأمامي في الجبهة الإسلامية[١٥]. وربما لأنه كان قائداً لأحد الأجنحة المتقدمة. وقال عماد الدين بأنه صمد في وجه

الهجوم[١٦]. وانقض ابنه أحمد على العدو. ثم أعاده أبوه ليقوم بهجوم ثان فقتل[١٧]. وفيما كان القتال يهدأ، كان الفرنجة قد تغلبوا، فتفرق المسلمون خلف أمتعتهم. وبينا كان جيش صلاح الدين الآن منهزماً، كان على صلاح الدين نفسه أن يُنقذ بواسطة حراسه من هجمة عليه قام بها ثلاثة من فرسان الفرنجة.

تتطلب استراتيجية الغزو أن تكون القوة المغيرة قادرة دائماً على جعل انسحابها عملاً مضموناً إما بالاحتفاظ بخط آمن مفتوح لها، وإما بقدرتها على الافلات من المطاردة. وقد أحرز الفرنجة انتصاراً مفاجئاً ليس بفضل روح القتال لدى رجالهم فحسب، بل بفضل ثقة صلاح الدين المفرطة أيضاً. وبقي أن نرى ما إذا كانت اخطاؤه قد عرّضت انسحابه للخطر. بدأت المعركة في باكورة بعد الظهر، فدوّن وليم الصوري أن المطاردة وصلت إلى عيون القصبة Cannetum Esturnellorum حيث أوقفها هبوط الظلام[١٨]. وإذا ما اعتبرت Cannetum Esturnellorum بأنها هي عيون القصابة نفسها، وإذا ما كانت المعركة نفسها قرب مستعمرة كفر مناحيم الحالية Kefar Menahem فإن ذلك يعطينا مطاردة بلغت مسافتها حوالي ١٧ ميلاً (٢٧ كلم). وفي مدى هذه المسافة لا بد لقوة منتصرة ذات موارد كافية لاجراء عملية منظمة لمطاردة وتدمير، من أن نتوقع لها أن تقضي على عدد مهزوم قضاء تاماً. ويظهر أن بغدوين، مع ذلك، لم يكن واقعاً تحت أية أوهام حول قدراته. فعاد هو نفسه إلى عسقلان، تاركاً المطاردين يوقعون التائهين في العجز التام، دون أن يقوم بأي محاولة جدية لتحدّي صلاح الدين نفسه الذي علم بأنه أنسحب على مراحل قصيرة وعلى أمل أن يعيد حشد رجاله وتشكيلهم. ويبدو أن أشد الصعوبات التي واجهها صلاح الدين في هذه المرحلة قد سببها النقص في المؤن، وواقع أن قواته المبعثرة لم تعد في حالة تمكنها من السير كوحدة منظمة. وأفاد وليم الصوري أنه ابتداء من ٢ ذي الحجة/ ٢٦ تشرين الثاني وهو اليوم الذي تلا المعركة، وعلى مدى عشرة أيام، كان هنالك مطر وبرد شديدان إلى درجة أنه «يمكن الاعتقاد بصدق بأن العوامل الجويّة قد تآمرت ضد العدو»[١٩]. وحين وصل المسلمون بعد ذلك إلى الصحراء كان عليهم أن يكافحوا ضد النقص في الماء؛ ونفق العديد من جيادهم المرهقة. وأشار عماد الدين في إحدى رسائله إلى عدم وجود الماء والعلف والمرشدين[٢٠]. واستأجر الفاضل، الذي ربما بقي في العريش، بدواً وذهب معهم إلى الصحراء حيث ساعد على إخراج صلاح الدين

نفسه منها. وجرى الغدر بضياء الدين عيسى صديق صلاح الدين، وبأخيه وصحبه، من قبل دليلهم الذي وشى بهم إلى الفرنجة فأخذوه أسيراً، في حين أفيد بأن الآخرين سلموا أنفسهم برضاهم مفضلين ذلك على أن يموتوا جوعاً. ودوّن وليم الصوري أن البدو «ذلك الجنس الغادر» سببوا هلعاً لمؤخرة الجيش بالعريش وذلك بنشرهم أنباء عن الهزيمة. وبعد ذلك طاردوا المشتتين، فعلق وليم على ذلك بقوله: «ما تركه الجراد، أكلته القادحة»[٢١] (وهي يرقة ضارة بأوراق الأشجار وغيرها ـ المترجم).

عاد صلاح الدين إلى القاهرة في ١٥ جمادي الثانية/ الاسبوع الثاني من كانون الأول. وسبق ذلك مجيء الرسل، وسرت شائعات متفائلة. وكتب عماد الدين يقول: «ركبت لأسمع حديث النجابين [السعاة بالأخبار] وكيف نصر الله المسلمين وإذا هم يقولون: ابشروا، فإن السلطان وأهله ساعون، وانهم واصلون غانمون». وعرف عماد الدين تفاصيل الأسلوب الرسمي في التعبير، فتابع يقول: «ما بشر بسلامة إلاّ وقد تمت كسرة»[٢٢].

من الواضح أن صلاح الدين كان قلقاً من جرّاء ما لحق بسمعته من ضرر. وإن أي شيء يضر بمعنويات جنوده ومناصريه كان يمكن أن يؤدي إلى حصول شغب. وفي ١٥ جمادي الآخرة/ ٩ كانون الأول كتب بعض الأمراء: «قتل من العدو اضعاف المقتولة من المسلمين». وقد «كانت البادرة للكافر والعاقبة كما وعد الله المتقين»[٢٣]. وانعقد مع البعير المسافة وفقد الماء القفز وعدم الادلاء.. إلا نفر قليل ليس منهم من لاسمه في الأسماء شهرة. وعدنا فحملنا الضعيف والمنقطع ورفعنا في السير حتى لحق المفترق بالمجتمع». وطلب إلى الأمير بأن يقرأ الرسالة على «بياض الثغر وذوي هيئاته»، بحيث يشاركوا في شكر الله، «ليسكنوا إلى أن الأمور قائمة، والعساكر سالمة، والغزوات تتصل ولا تنقطع. وعلى العموم، فإنه يصرف النظر عن إخفاء خبر وقوع عيسى في الأسر». لا تنتهك التفاصيل المعطاة في هذه الرسالة القاعدة القلقشندية التي تقضي بوجوب تحاشي الكذب القابل للإكتشاف في التقارير المتعلقة بالهزائم[٢٤]، غير أن صلاح الدين شرد بعيداً في رسالة بعث بها إلى وزير الخليفة حيث كتب فيها يقول: «فإذا كان مئة من المسلمين قد استشهدوا، فإن الآلاف من الكفار قتلوا... فالناس قالوا إنها هزيمة، إلا أنها

كانت بمباركة الخليفة نصراً»[٢٥]. وفي رسالة ثالثة إلى أحد الفقهاء الذي طلب إليه أن ينقل محتواها إلى بطانته، تكلم عن نعمة الله ورحمته التي قادت المسلمين عبر صحاري قاحلة لا ماء فيها؛ لم يمت من لاسمه شهرة، ولكن الحيوانات فقط ماتت من العطش أو التعب. وكان صلاح الدين قد أعطى الأوامر بأن يلاقي الجنود بالمؤن على حدود مناطقه، وما أن تم تحرير الرسالة حتى كان الجيش يعاد تشكيله[٢٦].

وبالرغم من هذه المحاولات الرامية إلى التقليل من شأن الخسائر، فإن واقعاً واحداً لم يستطع صلاح الدين اخفاءه وهو أن بلدوين أوقفه لبعض الوقت عن لعب أي دور فعال في الدفاع عن سوريا الشمالية. وكانت الحالة في سوريا نفسها غير مشجعة. فالبلاد أضعفها القحط ولم يثبت تورانشاه بأنه قائد كفوء في دمشق. واستناداً إلى رواية عماد الدين «فهو غائص في بحر ملاذه، ودفع للفرنج ما امنت به البلاد وسلمت الغلات من غاراتهم»[٢٧]؛ وبالرغم من أحوال المجاعة في سوريا، فقد صدّر ١٠٠٠ إردبٍّ من الحنطة إلى الفرنجة. وبالرغم من أن صلاح الدين أعرب عن موافقته على هذا العمل إلاّ أنّه كان يتمنى لو أنه حصل على صفقة أفضل[٢٨]. وتابع عماد الدين يقول إن كل أمير كان يتصرف في أراضيه على هواه، فأبصر الفرنجة ضعف البلاد. وفي الشمال البعيد، في حلب، عملت المشاحنات الداخلية مرة أخرى على إضعاف مكانة الصالح. وكان العدل [بن العجمي] وزيراً له، وبدا بأنه تفوق في معركة الصراع على النفوذ ضد خصمه الأكبر كمشتكين، ولكن العدل اغتيل على أيدي الاسماعيليين في ٤ ربيع الأول/ ٣١ آب. كان كمشتكين قد «انبسط بعد انكماشه واغتر بوفور ريشه ورياشه»، غير أن أخصامه حمّلوه مسؤولية الاغتيال، وقالوا للصالح: «أنت السلطان. وهذا كمشتكين يحتقرك». فأوقف كمشتكين في ٥ ربيع الأول/ ٥ أيلول وأجبر على الكتابة إلى حاميته آمراً أفرادها بتسليم حارم للصالح. فرفضوا ذلك. وعلى الرغم من أن كمشتكين عذب حتى الموت، إلاّ أن نوابه واصلوا الدفاع عن أنفسهم في القلعة كعُصاة ضد سلطة الصالح[٢٩].

عندها كان للفرنجة سبب في أن يشعروا بارتياح إلى فرص القيام بهجوم. فوصل كونت فلاندر [فيليب] مع ريموند صاحب طرابلس إلى حماه في ٢٠ جمادي الأولى/ ١٤ تشرين الثاني. كانت حماه اختياراً جيداً كهدف لأن الصالح لم يكن

يتوقع منه مساعدة حامية صلاح الدين بإرساله أية قوة منجدة من الشمال . وحصل أن كان شهاب الدين، خال صلاح الدين، ووالي المدينة، مريضاً. وحدث آنئذ مع ذلك أن سيف الدين علي المشطوب الذي كان في الجوار، جاءها بتعزيزات؛ وبعد انقضاء أربعة أيام انسحب الفرنجة . ويرى وليم الصوري أنهم لم يقوموا إلا بمجرد استعراض، «ليس بدون تكبيد العدو خسائر»، وكانوا الآن في طريقهم إلى الشمال لينضموا إلى بوهمند صاحب انطاكية[٣٠]، غير أنه من الواضح أن المدينة كانت تتعرض لشيء من الخطر. علم صلاح الدين بخبر الهجوم من المشطوب، فكتب إلى بغداد «عن الأخبار السارة التي وردتنا من مقاطعاتنا في سوريا» . ولكي يضيف شيئاً من السخط إلى الرواية، اتهم الفرنجة بأنهم نقضوا اتفاقية الهدنة ، مشيراً بذلك إلى المعاهدة التي أبرمها مع ريموند صاحب طرابلس في عام ٥٧٠/ ١١٧٥ . كانت تلك قضية عابرة كما بيّن ذلك عماد الدين الذي سجلّ مشيراً إلى كونت فلاندر، بأنه إذا وصل ملك أو كبير افرنجي وجب على هؤلاء أن يعاونوه، إذا عاد، عادت الهدنة كما كانت[٣١]. وتابع صلاح الدين يقول بأن الفرنجة وصلوا إلى حماه يوم الاثنين وقاموا بهجوم يوم الثلاثاء؛ وكان فرسانهم يقاتلون راجلين . وأخبره المشطوب أن القتلى من الفرنج تزيد على ألف رجل، ثم انسحبوا بعد ذلك، بسبب اتصال جيوش دمشق وحمص وبعلبك بعضها ببعض وكانت تخطط للهجوم على معسكرهم . وأضاف صلاح الدين بأن الغارة الفرنجية كانت فسخاً لعقد كان محكماً، كما كانت محاولة لاستغلال سوريا حين «كان يعضها الجوع»[٣٢].

وعلى أثر الانسحاب الفرنجي، توفي شهاب الدين في ١١ جمادي الآخرة/ ٥ كانون الأول، أي بعد انقضاء أربعة أيام على موت ابنه . وكتب عماد الدين: «واتفق ذلك وقت وقعة الرملة، وكان هذا شهراً وبيلاً»[٣٣]. وفي الوقت نفسه تحركت القوة الفرنجية إلى حارم . وكانت قلعة حارم تقوم على تلة منعزلة في سهل تحت جبال أمانوس على مسافة ٤٠ ميلاً (٦٤ كلم) إلى الغرب من حلب، و ٢٠ ميلاً (٣٢ كلم) إلى الشرق من انطاكية (الخريطة ٣) . وكان نور الدين قد استولى عليها، وسوف يكون استردادها ذا قيمة خاصة بالنسبة لانطاكية. وسجل ابن العديم عدداً من النقاط لصالح المهاجمين بينها حقيقة أن أفراد الحامية كانوا متمردين، والصالح ما يزال صبياً، وصلاح الدين كان في مصر[٣٤]. وقبل أن يصل

الفرنجة، كان الصالح قد أرسل قوة عسكرية بقيادة الأمير طمان الذي بقي، بعد أن فشل في اقناع الحامية بالاستسلام، يراقب الفرنجة، ولكنه لم يكن قادراً على تحديهم علناً. والفرنجة من جهتهم حاصروا القلعة، غير أن النجاح المتوقع لم يحصل. وانتقد وليم الصوري كونت فلاندر الذي حيّر المحاصرين وأحب المحاصرين بحديثه المتكرر عن الرجوع إلى الوطن. كانت انطاكية، السهلة المنال، نعمة مختلطة. فالمؤن يمكن أن تجلب بسهولة. غير أن وليم كتب عن المحاصرين الذين «انغمسوا في الملذات وأعطوا اهتماما أكثر للمقامرة وللملذات المؤذية الأخرى مما أعطوه للانضباط العسكري والقوانين التي يتطلبها العمل الحربي». «فكانوا يسارعون باستمرار في الذهاب إلى انطاكية حيث يطلقون العنان لملذاتهم بالاستمتاع بالحمامات والمآدب والسكر والملذات الفاسقة الأخرى»[٣٥]. غير أن الحصار استمر طوال فصل الشتاء وكان ما يزال مستمراً في رمضان ٥٧٣/ شباط ١١٧٨.

وكان صلاح الدين في الوقت ذاته في مصر يعيد تجهيز جيشه. وكتب عماد الدين يقول بأنه كان «اهتم بإفاضة الجود وافتقاد الناس بالوجود، مفتدياً أكبر عدد ممكن من الاسرى، وتعويض ما نفق من الدواب، حتى حصلوا على أجود منها». ولا بد أن يكون أنفق مالاً جليلاً. فقد وجد في مرحلة لاحقة يدفع بين ١٠٠ و ١٥٠ ديناراً تعويضاً عن كل حصان مفقود[٣٦]، أي أنه في هذه النسبة يكلفه إرجاع ٤٠٠ حصان أكثر مما كلفته نفقات السنة السابقة على أحكام أسوار الاسكندرية. ومن جهة أخرى لم يكن بقادر على أن يرى نفسه مصاباً بتقهقر كبير، الأمر الذي قد يمنعه من التدخل في سوريا إما كبطل أوحتى كمدافع عن حدوده الخاصة. وما أن أطل يوم ٢٦ شعبان/ ١٧ شباط حتى توجه من القاهرة إلى بركة الجب حيث انتظر أكثر من شهر، فبقي هناك حتى عيد الفطر/ ٢٣ آذار. في هذا الوقت أصبح الوضع في حارم شبه هادىء بين حلب والفرنجة. وسقطت حامية حارم من اعتبازها قوة منفصلة بوصولها إلى تفاهم مع قائد الصالح، طومان الذي أرسل رجالاً مختارين عبر الخطوط الفرنجية لتعزيزها[٣٧]. وكان واضحاً، مع ذلك، أنه لو اتيحت لصلاح الدين الفرصة لكسر المأزق والقيام بنجدة القلعة فلن يكون ذلك في مصلحة أي من الطرفين، لأنه كان سيحتفظ بها لنفسه. فكانت النتيجة أن رتبت شروط التفاهم التي أدت إلى شراء الفرنجة بدفع الأموال لهم. وذهب كونت فلاندر إلى

القدس لقضاء عطلة الفصح ، وأبحر بعد ذلك إلى اللاذقية، تاركاً وليم الصوري يسجل للكونت قلة فعاليته. وحاول عماد الدين أن يعطي صلاح الدين فضلاً مباشراً، إذ كتب يقول بأن الفرنجة لم يتخلوا عن الحصار إلا حين غادر صلاح الدين مصر[٣٨]. ولكن ابن شداد ذكر بأن التحرك الفرنجي تم في ١٩ رمضان/ ١١ آذار[٣٩]. ويبدو أن صلاح الدين أول ما تلقى نبأ ذلك في داروم من يوسف الطرابلسي، الأمر الذي يعني أنه كان ما يزال في مصر أو قريباً منها. وكتب يعلم فروخ شاه بأن يوسف حذره من إمكانية وقوع هجوم آخر من قبل الحشاشين. كما أخبره بأن الفرنجة انسحبوا، «مع أن كيفية ذلك الانسحاب لم تكن واضحة»[٤٠].

وفي ٧ شوال/ ٢٩ آذار كان صلاح الدين في الحد الغربي من سيناء. ومع حلول ١٠ شوال/ الأول من نيسان كان قد اجتاز ايله ووصل إلى دمشق في ٢٤ شوال/ ١٥ نيسان. وتقابل مع تورانشاه الذي كان قد أرسل له بعض الأشعار التي كتبها عماد الدين. وحرص عمادالدين على أن يسجل: «أني في تنقلي وإقامتي ما خلوت ممن يقترح زناد قريحي»[٤١]. وتقابل أيضاً في دمشق مع رسل من بغداد حيث وافق الخليفة على تشفعه لمحميّه عز الدين آقبوري الذي فر إلى سوريا على أثر اضطراب سابق حصل في بغداد. وصادف، مع ذلك، أن وزير الخليفة عضد الدين «وهو من ذرية لم تزل قاتلة أو مقتولة»، قد أغتيل على أيدي الاسماعيليين في أول ذي القعدة/ ٢١ نيسان. ويظهر أن آقبوري كان يعتمد على مساعي عضد الدين. وبعد أن بدأ رحلته إلى بغداد، قفل راجعاً حين سمع النبأ. ولا بد أن تكون تلك ضربة أضافية لصلاح الدين في فصل مخيب للآمال ، ليس فقط، لأنه، استناداً إلى الفاضل، «تحمّل قساوة آقبوري، لأنه كان يعرف أنه سليم الطويّة»[٤٢] بل لأنه لا بد أن يكون أيضاً قد رغب في أن يراه مستعيداً مكانة نافذة في بلاط الخليفة. إلا أنه عُوض عن هذه الحَدبة عندما عُين ظهر الدين بن العطار، ويُعد رجل على علاقة طيبة بصلاح الدين وزيراً خلفاً لعضد الدين.

واستناداً إلى عماد الدين، تضمنت رسالة الخليفة عرضاً لتقديم «المال والرجال»[٤٣]. ويظهر من إجابات صلاح الدين أن العرض كان مربوطاً بشرط قوامه القيام بحملة ضد الفرنجة، فسارع إلى الدفاع عن نفسه ضد أية اشارة ممكنة إلى توانيه. وقبل أن تصل أنباء وفاة عضد الدين إلى دمشق، كان صلاح الدين قد كتب

إليه يقول أن المجاعة في سوريا بلغت درجة لا يستطيع معها حشد جيش كبير أو حتى يجمع الجنود الذين سبق أن حطوا رحالهم هناك[٤٤]. وتوسع حول هذه النقطة في رسالة أخرى كتب فيها أن سنوات القحط جعلت الأمور تفلت من اليد في سوريا. فلا يمكن حشد أي جيش هناك لأن ذلك سيكون ضربة ساحقة للسكان. وفي مصر، مع ذلك، قوّى دفاعاته، وتحرر الآن من القلق على البلاد، وأمر الاسطول المصري بالهجوم على القواعد الفرنجية. وإذا ما انتهى القحط فإن الربيع القادم سيشهد إن شاء الله الاستيلاء على القدس[٤٥].

كان الفاضل الذي عزم على القيام بفريضة الحج إلى بيت الله الحرام في مكة، قد تُرك في مصر مع العادل، وجرى هناك تبادل مستمر للأخبار والشائعات والآراء بينه وبين مراسليه في سوريا. وهنالك إشارة في الرسالة الأولى من سلسلة الرسائل التي استشهد بها عمادالدين، إلى غارة فرنجية على «صدر» وربما ثبوت رحيل صلاح الدين إلى دمشق. واستناداً إلى الفارين من الخدمة العسكرية، فكر الفرنجة حتى في مهاجمة قاعدة صلاح الدين السابقة في فاقوس، ولكنهم اقلعوا عن الفكرة بسبب النقص في أعدادهم. ويبدو أنهم شموا رائحة ضعف في مصر، وقيل إنهم كانوا يخططون للقيام بالهجوم مرّة أخرى. ووردت رسالة من منبج تنبىء بالنقمة التي يُخمّن أنها كانت موجهة ضد صلاح الدين في حلب والموصل[٤٦]، فكتب الفاضل يقول: «إن ما ينقله سيد منبج من أنباء حلب والموصل لم يكن سوى مجرّد افتراض، أو إشاعة... لقد كرسوا أيامهم للملذات، وحماهم صلاح الدين من أعدائهم[٤٧]». لكن صلاح الدين والفاضل كانا مقتنعين بوضوح بأن حلب والموصل لم تعودا عدائيتين، وأن معاهدة سنة ١١٧٦ ركزت الوضع بشكل فعّال. وأشار صلاح الدين نفسه في رسالة أخرى إلى تقرير أفاد بأن الحلبيين تصرّفوا ضد مناصر له لم يذكر اسمه. ورفض تصديق ذلك قائلاً بأنه لم يصدق بأنهم خرقوا اتفاقيتهم؛ «إن يدنا قوية والحمد لله»[٤٨]. يمكن الافتراض، إذن، أن ملاحظته في هذا الوقت حول الاستيلاء على القدس يمكن أن تحمل على محمل الجد طالما أنها كانت تعني أن الصالح وسيف الدين غازي، برأيه، لن يشكلا عقبة في سبيل أي هجوم على الساحل في عام ١١٧٩. وقبل أن يتمكن من التركيز على هذا الأمر كانت هنالك، مع ذلك، مشكلات أخرى يجب أن

توجد لها الحلول .

رسم عماد الدين صورة للانحلال الحكومي في سوريا تدعم الملاحظات التي وردت في رسالة من صلاح الدين كان قد كتب فيها ظاهرياً عن إدارة تورانشاه : «يمكن للمرء أن يتغاضى عن الأخطاء الصغيرة ويحتفظ بالصمت حول الأمور التافهة ، ولكن حين تكون البلاد بأسرها متآكلة . . . فإن ذلك يهز دعائم الاسلام»[٤٩] . إن عماد الدين يعبر الآن عن الوضع بطريقة لبقة ويكتب عن السلطة التي مارسها تورانشاه ، وعن معاملته المخلصة والعطوفة نحو الصالح ، مضيفاً بأنه حين يعود صلاح الدين ، «سيقصر همه على متابعة ملذاته وستنتهي سلطته عند هذا الحد»[٥٠] . وقد رغب بصورة ليست غير معقولة ، على الحصول على مدينة خاصة به وحده ، ولما لم يُضف أي شيء جديد للدولة الايوبية منذ النجاح الأول لصلاح الدين في سوريا ، فقد كان اختياره مصمماً على إبطال الترتيبات الراهنة . وفي هذه الحالة طالب بمدينة بعلبك حيث تربى وترعرع صبيّاً . وكانت بعلبك في عهدة ابن المقدم الذي لم يكن أميراً رفيع المقام فحسب ، ولكنه كان الرجل الذي سبق الناس جميعاً إلى دعوة صلاح الدين إلى سوريا بعد وفاة نور الدين . والواضح أن نية تورانشاه عرفت قبل أن يصل صلاح الدين ، ودون عماد الدين أن ابن المقدم لم يأت إلى دمشق ليقدم احتراماته كالمعتاد ، وذلك لأنه «عرف بأنه إن أتى فإنه سيجد صعوبة في العودة»[٥١] . وأرسل الرسل سراً وعلانية ، وقُدّم إلى ابن المقدم إقطاعة أكبر ، إلا أنه رفض مغادرة بعلبك . وأحس صلاح الدين ، على ما يبدو ، بأن عليه أن يعطي تورانشاه ما أراد ، ولكنه كان غير راغب في المجازفة بسمعته بمعاملة اتباعه معاملة خشنة . واعطي تورانشاه الاذن بعد مضي زمن قصير ، استناداً إلى عماد الدين ، بالزحف على بعلبك ، إلا أنه لا يوجد تفسير أكثر ؛ وإذا كان تورانشاه قد تحرّك إلى بعلبك ، فإن تحركه لم يلق أي نجاح .

كان هذا أمراً بالغ الأهمية بالنسبة لصلاح الدين ولكنه لم يكن في حال من الأحوال المشكلة الوحيدة . في هذه المرحلة ذكر الفاضل ديون تورانشاه ونفقاته الباهظة قائلاً لصلاح الدين بالا يحمله مسؤولية سخائه وجوده[٥٢] . وسجل أسباباً أخرى لعدم الرضا ؛ فسوريا كانت تعاني من ارتفاع الاسعار . وفي مصر كان صلاح الدين قد اعطى أوامره بمنع الأعمال المسيئة للإسلام[٥٣] ؛ ونقل العادل الرسالة إلى أحد ضباطه مشفوعة بتأنيب رسميّ إلا أن الضابط أشار إلى

«بعض الجهات» التي كانت تحمي بيوتاً ذات سمعة سيئة قائلاً: «إذا استقام الخشب، لن يكون الظل ملتوياً»؛ واتهم العادل نفسه بأنه كان شريكاً في هذا العمل. وكان المعنى المتضمن أن الدولة كانت تفتقر أيضاً إلى العائدات المالية بما فيه الكفاية مما أجبرها على أخذ الضرائب من بيوت الدعارة. ومع ذلك، كانت الشؤون الخارجية ترى في ضوء أكثر تفاؤلاً. فقد علّق الفاضل على واقع أن مبعوث صلاح الدين استقبل استقبالاً حسناً من قبل الموصليين الذين قدّموا خدماتهم للعمل ضد اعداء الإسلام، وكان الاسماعيليون يمدون يد التعاون والسلام، ولم يكن ملك النوبة يستحق أكثر من القامه حجراً واحداً لايقافه عن النباح. وفي ملاحظة عائلية أسف الفاضل لمرض ابن صلاح الدين، عثمان، الذي كان قد ذهب مع والده إلى سوريا، وحذره من أكل الفاكهة أو اللحوم المستوردة في دمشق. واضاف، إن المياه الأخرى تشرب، أما مياه دمشق فتؤكل[٥٤].

أرسل صلاح الدين الآن فروخ شاه إلى حوران ليدفع غارات الفرنجة، في حين رحل هو نفسه إلى حمص، وعسكر على نهر العاصي بالقرب منها. والمجاعة في سوريا ومشكلة بعلبك التي لم تحل كانتا تعنيان أنه لم يكن في موقع يساعده على أكثر من مراقبة حدوده، فكان على الفاضل أن يواسيه عن عدم قدرته على مواصلة الجهاد، وذلك بالكتابة إليه قائلاً: «لا يسأل الله الفاعل عن إنجاز فعله، ولكن عن نيته»[٥٥]. وعلى الجبهة الفرنجية لم يقم أي نشاط عسكري خطير، ولكنّ زمرة من الفرنجة «والذئاب الكافرة التي انضمت اليهم»[٥٦]، مشيراً بذلك إلى المسيحيين المشرقيين، كانوا يقومون بغارات حول حماه، حيث كانت حاميتها النظامية، استناداً إلى عماد الدين، تعد أقل من ١٠٠ رجل. وهزم المغيرون في النهاية، وأُتي بالسجناء إلى صلاح الدين، فأمر بأن يجري قتلهم على أيدي «رجال اتقياء». ثم استدعي عماد الدين، فظن بأنه دعي للقيام «بمهمة ذات شأن لا يستطيع أن ينجزها أحد سواه».

وصادف أن كان السجين الذي اختير لقتله صبياً، فطلب بأن يسمح له بالابقاء على حياته وأتخاذه عبداً له. حينئذ قرر صلاح الدين بأن يقايضه بسجين مسلم محتجز لدى الفرنجة، وقال لعماد الدين بأنه يستطيع أخذ أحد الأسرى الذين قبض عليهم الأسطول المصري، ولم يكن عماد الدين مستعداً لأن يعزوا إلى نفسه أي شفقة على الضحية، ولكنه كتب: «تحوّلت عن ذلك العمل لئلا يهزأ مني الصحب

كما هزئوا من الآخرين»[٥٧]. ولم يبتكر صلاح الدين هذا الشكل من تنفيذ الحكم بالاعدام بواسطة غير المحاربين حيث كان السجناء يقتلون بمشاهد مسليّة[٥٨]، غيّر أن هذه الطريقة لم تحرز استحساناً عالمياً، فكتب الفاضل يقول: «قتل السجين ويداه مكبلتان، عمل غادر. . . ولا بد من أن تكون نفوس الرجال دائماً ميالة بطبعها للاكتشاف بأنه أمر مقزز للنفوس»[٥٩].

في آب كتب الفاضل يقول بأنه لم يكن هناك أي حل سلمي أو عسكري لمسألة بعلبك[٦٠]. وما زال صلاح الدين غير متخذٍ خطوة حاسمة، ولكنه بقي في معسكره على العاصي. بعدئذٍ، واستناداً إلى عماد الدين، حين كانت أوراق الأشجار تتساقط فتذروها رياح الخريف، أراد الأمراء أن يتفرقوا، فقالوا له: «لقد أزفت ساعة الرحيل». وأشار صلاح الدين، مع ذلك، إلى أنه: «إذا نحن تجاهلنا قضية ابن المقدم فقد تثير شهية الفرنجة ضدنا، ويظهر الشر المستتر إلى العلن. . . إن دينه قوي. . . وربما لن يرغمنا على التورط في شأن طويل»[٦١]. وفي الواقع، لم يكن صلاح الدين قد أنجز شيئاً منذ أن رحل إلى سوريا في الربيع، وإذا سمح بتحدٍّ ناجح لسلطته فيمكنه أن يتوقع اكتشاف صعوبة متزايدة في جذب الدعم له. وقبل أن يرحل من حمص كتب إلى وزير الخليفة يقول بأن ابن المقدم جمع قوة «من حثالة المجتمع الجاهلة» في بعلبك، فكان عليه هو نفسه أن يرسل جنده إلى هناك ليحرس المحاصيل ويحمي المناطق من الفرنجة[٦٢]. فسار بعد ذلك بجيوشه عبر البقاع. واستناداً إلى عماد الدين راح «يتملق ابن المقدم رغم كبر سنه كأنه طفل صغير»، وعندما لم يجد ذلك نفعاً، وجد نفسه مضطراً لأن يعسكر خارج بعلبك في رأس العين. لم يكن هنالك قتال جدّي، فكان يخرج كل صباح للصيد والقنص. وتساقطت الثلوج فكان على المحاصرين أن يتحلقوا حول كوانينهم كأنهم «في صوامع العباد»[٦٣]. وخلال الحصار، كتب صلاح الدين مرة أخرى إلى بغداد ليقول انه اشتبه بأن ابن المقدم كان يراسل الفرنجة؛ وأنه هو نفسه، لو شاء ذلك، لتمكن من أخذ بعلبك بالقوة وجعله عبرة لمن اعتبر، ولكنه كان يتصرف برحمة واعتدال فيما كان ابن المقدم يتصرف بحمق وطيش[٦٤].

وفي العشر الأخير من رجب ٥٧٤/ بداية شهر كانون الثاني لعام ١١٧٩ عاد صلاح الدين إلى دمشق، ولكنه ركز قوة محاصرة في بعلبك بقيادة طغرل الجاندار. وبقي الفاضل الذي كان الآن في عيذاب في طريقه إلى الحجاز

(الخريطة ٥) يكتب إلى عماد الدين عن «الشأن العسير» لبعلبك الذي كان يرجو أن لا يشغل صلاح الدين عن الجهاد المقدس أو يتيح للفرنجة الفرصة المناسبة. وشدد على أنه ينبغي على صلاح الدين أن يتغاضى عن عصيان ابن المقدم[٦٥]. وكان ابن المقدم، في الواقع، في وضع يائس. إذا أن صلاح الدين لم يترك لنفسه مجالاً لتغيير في الرأي. وحتى لو أنه احجم عن استخدام القوة، فبإمكانه أن يقضي على حامية بعلبك جوعاً، عاجلاً أم آجلاً. وبنتيجة ذلك وافق ابن المقدم، في وقت ما من فصل الربيع، على اجراء مبادلة، فتخلّى، في النهاية، عن بعلبك مقابل الحصول على قلعة وأراضي بعرين ومدينة كفرطاب وأعيان نواحٍ وقرى من معرّة النعمان (الخريطة ٨).

وأدى كرم هذا الاتفاق إلى تسوية ذات البين، فبقي ابن المقدم على ولائه لصلاح الدين طيلة ما تبقى من حياته. ومع ذلك فقد أصاب الضرر أمكنة أخرى. فسلسلة الانتكاسات التي لحقت بصلاح الدين، وانكشاف تردده شجعا أعداءه. كما أن الثقة التي أعرب عنها هو والفاضل بالنسبة للعلاقات مع حلب والموصل قد تبددت الآن، فاتهم صلاح الدين مرة أخرى، في الرسالة التي بعث بها من بعلبك إلى بغداد أعضاء قيادتهما بتركهم طريق الدين، وبأنهم قاموا باتصالات مع الحشاشين والفرنجة[٦٦]. أما الفرنجة فاستغلوا من جهتهم انشغاله، فتحرك بلدوين في تشرين الأول، «مع كل قوة المملكة»[٦٧] إلى الأردن حيث كانت الأشغال في بناء حصن الأحزان قد بدأت. وكان الهدف من الحصن ضبط أحد الطرق الرئيسة إلى دمشق قرب جسر بنات يعقوب. والحصن كان في بداية طريق الأردن عبر التلال المنخفضة التي تعوق الطرف الجنوبي لبحيرة الحولة (الخريطة ٢). والموقع نفسه ليس منيعاً بشكل خاص، غير أن له أهمية استراتيجية هائلة.

واستناداً إلى عماد الدين، فقد حذر صلاح الدين بأنه «متى أحكم هذا الحصن تحكم من الثغر الإسلامي الوهن... فإن بينه وبين دمشق مسافة يوم». ثم قال: «إذا أتموه، رحلنا إليه وهدمناه إلى الأساس» «وهو صابر بقوة دينه»[٦٨]. ويمكن أن يكون ذلك اختياراً صعباً أجبرته عليه الصعوبات مع ابن المقدم، غير أنه قد يكون أحس بأنه، نظراً لمشكلاته، من الأفضل الاكتفاء بالحصار، حيث لن يجازف بأكثر من توقف إن هو فشل، من أن يهاجم بلدوين مرة أخرى في مكان حيث يمكن أن تكون هزيمة ثانية أمراً مفجعاً.

١٠ ـ اندماج وتوسع

حدد نقل السيطرة على بعلبك نهاية حقبة بطيئة وغير سعيدة في تطور حكم صلاح الدين. لم يعد القائد الذي لا ينازع أو الحاكم الاداري الذي تدعمه موجة من التأييد الشعبي. ومنذ غياب الفاضل بسبب ذهابه إلى الحج، يمكن الاستدلال على وضع راهن مجمّد في الادارة الداخلية والسياسة الخارجية. وطالما أن حلب والموصل تحافظان على اتفاقية الصلح لعام ٥٧٢/ ١١٧٦، فلن يكون بمقدور صلاح الدين خلق الأعذار للتوسع شمالاً أو شرقاً، وبنتيجة ذلك، أصبح مجال خياراته، محصوراً.

وعلى الصعيد الشخصي كان متصلباً في الاستمرار بالاستعداد لجعل الأسرة الحاكمة تنمو كلما سنحت الفرصة بذلك. واستناداً إلى المعلومات التي أعطاها إلى عماد الدين، كان أباً لخمسة صبيان قبل مغادرته مصر في ٥٧٠/ ١١٧٤[١]. ويستشهد برسالة حفظها القلقشندي بأن داود، المولود في ٢٣ ذي القعدة ٥٧٣/ أيار ١١٧٨، كان ابنه الثاني عشر[٢]، في حين يظهر أنه السابع في اللائحة التي وضعها عماد الدين. وبين هؤلاء، ولد مسعود في ربيع الأول ٥٧١/ أيلول ـ تشرين الأول ٧٥، أي بعد تسعة أشهر من نزول صلاح الدين على حلب. ولعل أم يعقوب المولود في مصر في ربيع الثاني ٥٧٢/ تشرين الأول ١١٧٦، رافقت صلاح الدين لدى عودته من سوريا. وبصرف النظر عن الاشارات إلى أرملة نور الدين، عصمت الدين خاتون، التي تزوجها في ربيع الأول ٥٧٢/ أيلول ١١٧٦، ليس هنالك تفاصيل عن زوجاته أو جواريه اللواتي ولدن له ذرية. غير أن بعضهن، على

الأقل، بقين معه عدداً من السنين. وولدت له أم أكبر بنيه، الافضل، الذي ولد في ٥٦٥/ ١١٧٠، ابناً آخر في السنة الهجرية ٥٧٣/ ١١٧٧ - ٧٨ م؛ وولدت شمسة[٣]، أم عثمان المولود في ٥٦٧/ ١١٧٢، يعقوب في شهر تشرين الأول ١١٧٦؛ وولد غازي وداود، من الأم نفسها عام ٥٦٨/ ١١٧٣ وعام ٥٧٣/ ١١٧٨ على التوالي. وأم اسحق المولود في ربيع الأول ٥٧٠/ ١١٧٤، ولدت ابناً آخر في ربيع الأول ٥٧٨/ تموز ١١٨٢.

وأنجب العادل وتقي الدين كلاهما أيضاً ذرية كبيرة. وحتى لو أن معاصري الأيوبيين لم يكونوا راغبين فى التنازل لهم عن أي موقع ممتاز كأبطال للاسلام، فان أساس «العصبية» لدعمهم بات، قوياً.

ومع ذلك، كان الجهاد ما يزال المبرر الأفضل لموقع صلاح الدين في سوريا. لدى بداية الموسم الجديد للحملات في (شوال وذو الفعدة وذو الحجة ٥٧٤) ربيع عام ١١٧٩، أعلمته دائرة الاستخبارات أن الفرنجة كانوا يخططون للقيام بغارة[٤]، فأمر فروخ شاه الذي كان لديه أقل من ألف رجل يدافع بهم عن جبهة دمشق، أن يراقب الهجوم ثم ينسحب بعد ذلك متحاشياً التورط في معركة، وأن يشعل نيران التحذير على التلال، فيسير هو نفسه عند رؤيتها إلى المعركة. أما الفرنجة فلم يكونوا متوقعين مواجهة مقاومة. لقد أُخبروا أن قطعان الماشية كانت منتشرة في المراعي إلى الشرق من مرتفعات الجولان دون أن يقوم أحد على حراستها. ولما لم يريدوا أن تنجو منهم فريستهم، تسلقوا المرتفعات أثناء الليل لشن هجوم مباغت في الصباح. كان فروخ شاه بانتظارهم، ولكن يبدو أنه لم يفكر بأنهم سيتحركون في الظلام، فوقع حرسه الأمامي في القتال قبل أن يتسنى لأفراده الانسحاب. ولم يكن لدى الفرنجة، مع ذلك، أية فكرة عن خطورة موقعهم، فانتشر البعض يسلبون وينهبون، في حين تقدم بلدوين (بغدوين) الذي كان يقود الغارة، بشكل متهور جداً؛ وربما كان تقدمه من أجل مطاردة حراس فروخ شاه. أما هذا فقد ركز قواته في تل الحارة الواقعة على مسافة حوالى ١٢ ميلاً (١٩ كلم) جنوبي شرق القنيطرة (انظر خريطة رقم ٢)، وكان حجمها محجوباً بواسطة الصخور الكبيرة المنتشرة في تلك الأرض الريفية أو ربما بواسطة التل نفسه. واشتبكت مماليكه مع الفرقة الملكية يطلقون النار على أفرادها، فأدى ذلك إلى قتل عدد كبير من الخيول وإحداث أضرار جسيمة. فأجبر الفرنجة على الفرار بعد أن عمت الفوضى في

صفوفهم. وتلقى صلاح الدين الذي استدعي بواسطة الحمام الزاجل، نبأ الانتصار. وعادالفرنجة حاملين جرحاهم معهم. واستناداً إلى عماد الدين، لم يدرك المسلمون مدى نجاحهم إلا عندما «وصل أحدهم وكان قد شاهدهم [الفرنجة] في ديارهم»، وأفاد بأن جميع فرسانهم كانوا بين الجرحى[٥] كما جرح همفري صاحب تبنين، حاكم القلعة، الذي سقط جريحاً حين كان يدافع عن بغدوين، ومات بعد أن نقل إلى قلعته هونين.

بعد هذا الانتصار السهل، عزم صلاح الدين على استقدام عدد إضافي من الجنود. وعلى الرغم من هطول بعض الأمطار، ما زالت سوريا غير قادرة على تحمل أعباء قوات كبيرة، فاكتفى صلاح الدين بالطلب إلى العادل أن يرسل له ١٥٠٠ فارس من مصر، لتبديلهم مع تورانشاه. وشرح في رسالة إلى العادل بأنه معيد تورانشاه أولاً «للتخفيف عن الشام في مثل هذا العام»؛ وثانياً لردع الأسطول الصقلي عن القيام بهجوم، وأيضاً على أمل أن يعطي هذا الأمر العادل نفسه حرية أكثر في التحرك[٦]. واستناداً إلى عماد الدين، أُغري تورانشاه على الذهاب «بما زاده من الديار المصرية في قصدها، وانه يجدد بسعده جدها»، وهي جملة إذا أضيفت للتلميح إلى وجوده في القاهرة يمكن أن تعني أن إقطاعة الاسكندرية التي أعطيها في النهاية، كانت لا تزال خاضعة للتفاوض. وكان توليه بعلبك قصير الأمد فيما كانت المصاعب التي أحدثها طويلة العمر. وترك عملاءه هناك، ولكنه خسر المدينة لصالح فروخ شاه في نهاية العام؛ وربما كان ذلك جزءاً من صفقة الاسكندرية. وفي ٢٤ ذي القعدة/ ٣ أيار رحل عن دمشق، مصطحباً قافلة من التجار والنساء والأطفال. وفي ٢٨ ذي القعدة/ ٧ أيار غادر بصرى، فظُنّ بأنه سيستقبل الجنود الآتين من مصر في أيلة أو بالقرب منها. وكتب الوهراني بأنه احتفل بوصوله إلى مصر بتوزيع حوالى ١٧٠,٠٠٠ دينار على «المسافر والقوادين» ـ «كأنما وقعت في بئر»[٧].

كان صلاح الدين نفسه ما زال منشغل البال على الجبهة السورية. فأُرسل تقي الدين إلى حماه حيث عُزّز بابن المقدم والمشطوب، في حين حكم ناصر الدين محمد حمص. كان كل واحد «رابض في مكانه»[٨] جاهز لصد الهجمات. كان عليهم بنوع خاص أن يعملوا على تجنيد الرجال. وحصل نزاع بسبب الرعي بين التركمانيين والبدو طرد فيه عدد من التركمانيين[٩]. ولما كانوا

ذوي قيمة لجهة إمكان تجنيدهم ، فقد أنفذ صلاح الدين الرسل في محاولة لتسوية ذات البين ، ولاقناعهم بالعودة . وكان صلاح الدين مهتماً أيضاً بتقوية موقعه في الشمال الأعلى . وكانت هنالك اضطرابات قائمة بين قليج ارسلان ونور الدين محمد الارتقي صاحب حصن كيفا . وفي رسالة حررت في هذه الفترة قال صلاح الدين أن أسياد ديار بكر كانوا يخشون قلج ارسلان ، فأرسلوا رسلاً إلى دمشق يطلبون الحماية . وذكر في الرسالة ذاتها وصول مبعوث من قبل قلج أرسلان نفسه يحمل رسالة ولاء وعاطفة ، وأنهى رسالته بتكرار القول : «وقد توفر اجتهادنا على أن نستميل كلاً إلى الجهاد»[١٠] .

كان الهدف المباشر لقلج أرسلان هو استعادة الأماكن التي أخذها منه نور الدين في الحملة الشمالية لعام ٥٦٩/ ١١٧٣ ، وزعم أن الصالح كان راغباً في أن يعيد إليه رعْبان ، وكانت هذه حجة غير مريحة لصلاح الدين . فان حقه في ملكية رعْبان التي كانت في قبضة نوّاب ابن المقدم ، كان يرتكز إلى التملك أكثر منه إلى القانون . وليس هنالك أي سند مدون لدحض مزاعم قلج أرسلان وحسم الأمر بالقوة . إذ أن أرسلان أرسل جنوداً فرد عليه صلاح الدين بقوات نجدة بقيادة تقي الدين . وحاول تغطية عمله بالادعاء بأن رجال قلج أرسلان كانوا ينهبون البلاد ، وبان قلج أرسلان نفسه عقد معاهدة سلام مع البيزنطيين ، وقدم الهدايا إلى الفرنجة ، وبأن همه الخاص كان متجهاً نحو سكان المناطق وأنه أرسل تقي الدين «للضرورة»[١١] . ومهما كانت مبررات التحرك ، فانه كان ناجحاً . إذ أن تقي الدين فاجأ جيش قلج أرسلان وهزمه شر هزيمة . كانت قوات تقي الدين تعد بحوالي ٨٠٠ إلى ١٠٠٠ فارس ؛ أما جيش قلج أرسلان ، فتضاربت الروايات حول عدده ، فقيل ٣٠٠٠ وقيل ٢٠,٠٠٠ أو ، كما ورد في رسالة من صلاح الدين إلى الموصل ، ٣٠,٠٠٠[١٢] . كانت معركة حاسمة لأن همة قلج أرسلان ثُبِّطت الآن ولن يحاول التوسع جنوباً على حساب صلاح الدين . وأصبح دور صلاح الدين من الآن فصاعداً ، هجومي .

كان صلاح الدين في الوقت الحاضر منشغلاً بالفرنجة . فقام بعمليتي استكشاف لقلعة بيت الاحزان حيث أتاح في العملية الأولى لأحد مبعوثي الخليفة أن يراها . وغادرها هذا المبعوث إلى بغداد في ذي القعدة/ نيسان ثم عاد إليها في ٧ ذي الحجة/ ١٦ أيار حيث مكث فيها خمسة أيام . وقام هذه المرة ببعض

الهجمات الرامية إلى جس النبض. واستناداً إلى وليم الصوري، رحل جيشه مرعوباً لأن أميراً هاماً صرع بنبلة قوس[١٣]. وشرح عماد الدين الوضع قائلاً بأن صلاح الدين وجد القلعة «سهلة المنال»، غير أنه لم يشأ توريط نفسه في محاصرتها قبل أن تصله التعزيزات من مصر[١٤]. بعد ذلك رحل إلى المراعي الواقعة شرقي جبل حرمون، وحين استنفد الكلأ هناك دار حول الجبل ثم هبط إلى المياه الراسية في الأردن ماراً ببانياس.

ان القمح والشعير اللذين يزرعان في سوريا في فصل الشتاء يحصدان في شهر أيار. وكان هذا هو الفصل الذي اعتاد فيه بدو المناطق الصحراوية الشرقية على المجيىء للتزود بالحبوب. وقد شكل وصولهم في هذه السنة مشكلة لصلاح الدين الذي لم يرغب في معاكستهم ولا في رؤية المؤن السورية تستنفد. فحاول حل المشكلة بارسالهم لغزو بلاد صيدا وبيروت، ولكن ذلك، استناداً إلى عماد الدين، لم يكن عملاً ناجحاً كل النجاح، بمعنى أن البدو المغيرين غير المدعومين لا يستطيعون التوغل بعيداً في المناطق الفرنجية. ونقل عن صلاح الدين أنه عقد في تلك الأثناء مجلساً قال فيه: «قد علمتم غلاء القلات وقلة الأقوات، وظهور اعراب البادية وخفاء الأعشاب في البادية. وما كان بالقرب من غلات العدو وزرعه استجناه واجتحناه. ولم يبق الأ أن ننهض عساكرنا بالنوبه ونقيم بقوتها إلى حين الأوبة»[١٥].

وهذا يتفق مع الرواية التي قدمها وليم الصوري بصرف النظر عن واقع أن وليم عزا، في الظاهر، إلى صلاح الدين نفسه الهجوم على المناطق الصيداوية قبل أن يستقر في معسكر بين بانياس ونهر دان[١٦]. ويمكن أن يكون هجوم صلاح الدين على صيدا مؤكداً برسالة غير مؤرخة وردت من الفاضل ينتقده فيها لأنه لم يغتنم الفرصة للاستيلاء على المدينة، ويضيف إلى ذلك قوله: «بأنه من غير المفيد أن يشغل نفسه في حرب تشن ضد أخوانه المسلمين» ـ لعله يقصد بذلك قلج أرسلان[١٧].

في الوقت الراهن، لم يكن لدى صلاح الدين متسع من الوقت ليشغل نفسه بحروب اسلامية، لأن غاراته قد دفعت الفرنجة الآن إلى العمل، فتحرك بلدون (بغدوين) شمالاً قادماً من طبريا على رأس قوة هائلة. وبدلاً من سلوك

الطريق المنخفضة بعد جسر بنات يعقوب إلى رأس بحيرة الحولة، دار غرباً عبر التلال ماراً بصفد وتبنين، وخارجاً من نقطة في سلسلة التلال الحدودية الغربية المطلة على سهل مرجعيون. ومن هناك، كما دون وليم الصوري، كان بالامكان مشاهدة «جذور لبنان» فوق المنطقة المنخفضة بكاملها، وكان بامكان الفرنجة أن يراقبوا معسكر الأعداء وتحركاتهم[١٨]. وفي الواقع، فانهم أخذوا صلاح الدين على حين غرّة. وربما كان التفافهم حول الجبال قد أخرجهم من مجال عمل الكشافة الذين كانوا يراقبون الممرات الجنوبية. وصادف أن كان المسلمون على وشك التحرك. إذ كانت المؤن في الجوار تتناقص، فتم القرار على وجوب تحرك الجيش بأسره شمالاً إلى البقاع. وفي ليل أول محرم ٥٧٥/ ٩ - ١٠ حزيران، الذي عسكر خلاله الفرنجة على التلال الآنفة، أرسل فروخ شاه للقيام بغارة نهائية. ولو ان بغدوين، (بلدوين) كان على اطلاع أفضل، أو تيقظ أكثر فأدرك ما كان يجري، لكان ركز هجومه إما على قوات فروخ شاه المغيرة، أو على قاعدة صلاح الدين. وحدث أن سار برجاله صباح الأحد في ٢٣ محرم/ ١٠ حزيران نزولاً من التل بخطوة كانت سريعة بشكل متعب لفرق مشاته فتوقفوا «لبضع ساعات»، للتفكير في ما ينبغي أن يفعلوا، على ما أورده وليم الصوري.

في الوقت نفسه، وصل التحذير بالخطر إلى كل من فروخ شاه وصلاح الدين[١٩]. وكانت مرجعيون، حيث توقف الفرنجة، محجوبة عن معسكر صلاح الدين في تل القاضي بواسطة أراضي تلال المطلة المرتفعة. والتقى صلاح الدين نفسه الذي كان خارجاً في رحلة على صهوة جواده بصحبة والي بانياس، ببعض الرعاة الذين أخبروه بأنهم شاهدوا قوات فرنجية. ولم يصدق في البدء أن جواسيسه يمكن أن يخذلوه إلى هذه الدرجة، ولكن حين تأكدت الأنباء، عاد إلى تل القاضي فأرسل متاعه الثقيل إلى مخبأ بانياس، وأخرج رجاله في تشكيلة قتالية. وكان فروخ شاه إلى جهة الفرنجة من نهر الليطاني الذي يجري قرب هذه النقطة متجهاً جنوباً قرب قلعة الشقيف قبل أن ينعطف بحدة غرباً باتجاه البحر.

وقرر أن يحاول الانضمام إلى صلاح الدين، واستناداً إلى وليم الصوري، اجتاز قسم من قواته النهر ثانية، وكان بالامكان اجتياز النهر هناك في فصل الصيف، فتم القضاء على هذه القوة على أيدي الفرنجة. وذكر عماد الدين أن المسلمين «لم يستطيعوا الصمود في وجه الفرنجة، فتركوا أمتعتهم»، التي قام

بنهبها مشاة الفرنجة. وعاد فروخ شاه نفسه، استناداً إلى أحد مرافقيه، إلى النهر بأقل من ٣٠ رجلاً فشاهد ٦٠٠ راكب فرنجياً على احدى التلال في الجهة النائية. ففكر بأنه إذا توقف فان الفرنجة سوف يجتازون النهر ويقضون على قواته قضاء تاماً، وهكذا خاض النهر بحفنة من الرجال. فشجع هذا العمل سائر رجاله الذين كانوا ما يزالون، على ما يظهر، محجمين. وما أن وصل إلى الفرنجة حتى كان لديه قوة كاملة. لا توجد إشارة في هذه الرواية إلى أمتعته التي لا يفترض أن تكون قد أعيدت في هذا الوضع الواضح الخطر. وربما يكون التفسير لاشارة عماد الدين اما أن تكون قافلة أمتعته قد عادت سابقاً قبل أن يتم الادراك إلى أي حد كان الفرنجة قريبين، أو أن ما التقى به الفرنجة كان عتاداً منقولاً من معسكر صلاح الدين استعداداً للرحيل إلى البقاع.

كانت نتيجة الانتصار الفرنجي الأولي انشطار القوات الفرنجية. فالمشاة عسكروا، بعد أن نهبوا الأمتعة التي اعترضوا قافلتها، إلى جانب النهر. وتسلق فريق كان بين أفراده سيد فرسان الداوية وريموند صاحب طرابلس - ربما كان الفرسان الذين رآهم فروخ شاه - على تلة قرب النهر. ولعلهم فعلوا ذلك بغية التمكن من مراقبة العدو، غير أنه يبدو أنه لم تكن لديهم فكرة حقيقية عن خطورة موقعهم، لا سيما وانهم قد فقدوا الآن فرصة المفاجأة. ويلمح وليم الصوري إلى أنهم ظنوا أنهم ربحوا المعركة، الأمر الذي يعني أنهم أخطأوا كليًّا في حسابهم لأعداد جيش صلاح الدين. فحدث أنهم بدلاً من أن يكونوا قادرين على توقيت هجماتهم بحيث يقضون على قوات موزّعة، وجدوا أنفسهم الآن متورطين في أبسط أنواع الفخاخ. وفيما أجتاز فروخ شاه النهر ليتحداهم من الغرب، وصل صلاح الدين من الجهة الجنوبية - الشرقية. وكانت المقاومة سيئة التنسيق وعديمة الفعالية. فبعد هجمتين اثنتين عزلت فرقة الخيالة فوق تلة فقتل العديد من أفرادها أو أسروا. فتفرّق جنود المشاة، فذهب بعضهم عبر الليطاني ولجأوا إلى قلعة الشقيف أو ساروا بمحاذاة النهر صوب صيدا. ونجا ريموند طرابلس، فيما وقع سيد فرسان الداوية وهيو صاحب طبريا في الأسر. وسمع المسلمون بأن أحد خدام الملك حمله من المعركة وخبأه تلك الليلة ثم فرّ به في اليوم التالي فنجيا معاً. جلس عماد الدين إلى جانب صلاح الدين ليدوّن أسماء الأسرى في أحد السجلات، فكتب: «ومن ألطاف الله، أنا وخواصه [صلاح الدين] لم نزد

على عشرين والأُسرى قد أنافوا على سبعين»، ثم تابع يقول بأنه بالاضافة إلى هؤلاء كان هنالك ٢٧٠ أسيراً من الفرسان المقدمين، سوى من لا يُذكر من الأتباع.

وكان هذا هو النجاح الثاني على التوالي الذي قدّم إلى صلاح الدين بسبب حماسة الفرنجة لاستراتيجية هجومية مصحوبة بأخطاء تكتيكية. وخلّفهم فشلهم في حالة ظاهرة من الضعف، غير أن صلاح الدين بدا غير ميّال إلى متابعة الاستفادة من نجاحه حتى النهاية، فانتظر حوالى سبعين يوماً لتقوية موقعه قبل أن يتحرّك ضد بيت الأحزان. وكان تقي الدين قد انضم الآن إلى الجيش بعد ارتياحه من رعبان، وفعل ذلك أيضاً ناصر الدين محمد الذي لم يعد في حاجة إلى الدفاع عن حمص ضد أي خطر مداهم من طرابلس. وكتب صلاح الدين إلى بغداد يقول إن «ذيل جيشه قد طال»، وانه جند تركمانيين وبدواً وزودهم بالطعام والعلف والمال على الرغم من «اتساع النفقات التي أصبحت أكثر مما يطاق»[٢٠].

وفي ١٣ ربيع الأول/ ١٨ آب انطلق من معسكره وتوقف في ناحية قريبة من بيت الأحزان في ١٩ ربيع الأول/ ٢٤ آب. ولعل أمتعته أجبرته على السير ببطء، وربما كبح خطاه حتى تصله التعزيزات، غير ان من الممكن أيضاً أنه كان ينتظر أخباراً عن الفرنجة. وكان بلدوين في مرجعيون قد عوض عن خسائره تعويضاً حسناً بوصول التعزيزات من أوروبا، وكان بينها هنري صاحب شامبانيا. وأخبر صلاح الدين بغداد أن الفرنجة، لدى سماعهم بحشوده، قاموا هم أنفسهم بحشد قواتهم. وفي الواقع، تحرّك بغدوين (بلدوين) إلى طبريا. وفي ٢٠ ربيع الأول ٢٥ آب، نظم صلاح الدين جيشه استعداداً للمعركة، في اليوم الذي تلا وصوله إلى بيت الأحزان، ثم زحف جنوباً باتجاه طبريا ماراً في سفح التلال المرتفعة التي تكون الحدود الغربية لبحيرة الحولة، والتي تقوم في طرفها الجنوبي قلعة صفد. ولم يجلب هذا الاستعراض أي استجابة من قبل بلدوين (بغدوين)، فأغار المسلمون على أراضي صفد فقطعوا الأشجار المثمرة والعرائش والدوالي التي يمكن أن تستعمل جذوعها في بناء الستائر النقالة أو للاحراق في خنادق الألغام. وفي ظهر يوم ٢٠ ربيع الأول/ ٢٥ آب عاد صلاح الدين إلى بيت الأحزان.

كان الحصن يقوم في ناحية قريبة من الضفة الغربية لنهر الأردن الذي يبلغ اتساعه في هذه النقطة حوالى ٨٠ قدماً (٢٤ متراً). ويصف وليم الصوري منطقتها

كَتَلَّةٍ «ذات ارتفاع معتدل»[٢١]، ولكنها في الواقع أكبر من هضبة ضخمة بقليل، وتطل عليها الأرض الأكثر ارتفاعاً والمحيطة بجانبي الأردن عندما يعيد تشكيل مسيرته عبر سلسلة التلال إلى بحيرة طبرية. وكان لدى صلاح الدين الخيار إما بمحاولة الاستيلاء عليها بسرعة وبدون إعاقة، أو القيام بحصار يطيله عن قصد من أجل إجبار بغدوين (بلدوين) على عمل ميداني آخر حيث يمكن أن تكون الغنيمة تدمير جيش الفرنجة. وفي الواقع، وعلى الرغم من نجاحه في مرجعيون ووصول التعزيزات، فإنه فضل محاولة القيام بعمل سريع. ومع أن الأرض المرتفعة خلف القلعة أمّنت قاعدة طبيعية للمناجيق فانه عزم، بناء على اقتراح عز الدين جاولي على القيام بمحاولة هجوم. وقدر محيط هضبة القلعة بحوالي نصف ميل (٨٠٠ متر). وتشغل القلعة نفسها جزءاً من قمة الهضبة، ويشغل الجزء الآخر مستوطنة تحجب تحتها أسواراً. وكان عماد الدين قد رأى أمام هذه الأخيرة «شاباً من العوان، عليه قميص خلق»، يقود المهاجمين من المسلمين في المرتفعات التي وصفها صلاح الدين بأنها منحدرة إلى درجة لا بد معها من حفر مواطىء الأقدام بواسطة الفؤوس. ونجح هذا الهجوم، وانسحبت حامية فرسان الداوية إلى القلعة نفسها. وخشي صلاح الدين أنه إذا بقي رجاله حيث كانوا أن تفاجئهم الحامية بهجوم ليلي، غير أن الفرنجة كانوا يركزون على الدفاع، وأشعلوا النيران وراء بواباتهم في حال اندفع المسلمون عبرها. وكانت النتيجة أن تمكن رجال صلاح الدين من اللغامين (النقابين) من العمل بدون انقطاع في محاولة لنسف أسوار القلعة. لم يكن هذا العمل في البداية ناجحاً، فكان لا بد من اعادته ثانية. فجرى تفجير ألغام كبيرة في ليلة الأربعاء - الخميس ٢٣ - ٢٤ ربيع الأول/ ٢٨ - ٢٩ آب. وفي يوم الخميس، وبينما كان عماد الدين يراقب - «ونحن ننتظر وقد طال الانتظار» - انهار قسم من السور، فأشعلت الحامية النار في الحطب المكوم خلف الثغرة، غير أن اللهب هبَّ مرتداً صوبهم. وكتب صلاح الدين فيا بعد يقول «إن القلعة كانت تشبه سفينة غارقة في بحر من النار». بعد ذلك طلب الفرنجة الأمان، فرفض طلبهم ودخل المسلمون بالقوة. وقدر صلاح الدين عدد رجال الحامية الاجمالي بما يفوق ١٥٠٠ رجل، أسرمنهم أكثر من ٧٠٠. وقيل بأنه استجوبهم بنفسه. وجرى قتل المرتدين من المسلمين بناء على أوامره، بالاضافة إلى النبّالين الذين جعلتهم كفاءتهم موضع كره المسلمين. وأضاف عماد الدين أن معظم

الرجال الآخرين جرت تصفيتهم بدون أوامر، على أيدي «الغزاة المطوعة والرعاع المجمعة» من الجيش الاسلامي، في حين أطلق سراح ١٠٠ من السجناء المسلمين الذين كانوا قد استخدموا في قطع الحجارة وأشغال البناء[٢٢].

كانت خسارة بيت الأحزان، كما رآها وليم الصوري، «اضطراباً أعظم تكدّس فوق خسارة سابقة»، واستشهد بالقول: «إن أحكام الديّان معمعان سحيق». والدرس العسكري كان واضحاً، إذ أن القلاع لم تكن فعّالةً إلا بالاقتران بجيش ميداني، تؤمن له قاعدة هجومية أو ملجأً، أو يمكنها أن تكسب له الوقت. والجيش بدوره ينقذها إن هي هوجمت. وتحصينات القلاع بحد ذاتها كانت ذات قيمةمحدودة، وبخاصة بالنظر إلى مهارة المسلمين في النسف بالألغام. ولم يكن صلاح الدين ليتمكن من تدمير المملكة اللاتينية إلا بواسطة العمل الميداني. ولكن الفرنجة، من جهتهم، لم يكونوا قادرين على الدفاع عن أنفسهم إلى ما لا نهاية بتجنب التحديات. وفي المحاولة الأخيرة كانوا معتمدين على الرجال وليس على الأسوار.

دمر صلاح الدين القلعة وكتب إلى بغداد ليقول بأنه انتزع حجارة الأساس بيديه. أعجب المسلمون بعمق بئر القلعة الذي استوعب جثث رجال الحامية وبهائمهم. وبقي فيه أيضاً متسع ليملأ بالتراب والكلس؛ كما أعجبوا بسماكة الأسوار التي شبهها عماد الدين بأسوار يأجوج وماجوج[٢٣]. وعلى الرغم من ذلك، قال صلاح الدين بأنه لم يقض سوى ثلاثة أيام في أعمال التدمير، زحف بعدها للاغارة على أراضي طبريا وصور وبيروت. وعاد إلى دمشق في ٩ ربيع الثاني/ ١٣ أيلول، ونزلت به حينذلك نكسة غير متوقعة، إذ أن أكثر من عشرة أمراء ـ وربما عدد متناسب من الجنود العاديين ـ ماتوا بمرض ظنه عماد الدين ناجماً عن الطقس الحار وفساد الجثث في بيت الأحزان. وسقط وأصيب تقي الدين وناصر الدين محمد بهذا المرض؛ ومع أنهما شفيا منه، إلا أن الخسارة كانت أكثر خطورة من أية خسارة سجلت في معارك صلاح الدين حتى ذلك التاريخ.

وضع اقتراب فصل الشتاء الآن حداً لأي قتال برّي جدي. واستناداً إلى رسالة استشهد بها أبو شامة، زاد الأسطول المصري اعداد قطعه إلى ٦٠ سفينة شراعية كبيرة ذات مجاذيف وعشرين طريدة، ثم أنهى موسم غاراته بهجوم في شهر تشرين الأول على ميناء عكا حيث قيل ان عدداً من السفن الفرنجية قد دمّر خلال

يومين من القتال[٢٤]. وكانت تلك الغارة الثانية للأسطول في تلك السنة، إذ أنه كان قد أبحر من الشاطىء في آخر ذي القعدة أيار وعاد في ١٠ محرم/ ١٧ حزيران بعدد إجمالي من الرقيق بلغ الألف. وقال الوهراني: إن قوة فرنجية مؤلفة من ٤٠ شينياً (سفينة شراعية كبيرة ذات مجاذيف) اقتربت في ذلك الحين من الاسكندرية «فلما اشرفوا على البلد ورأوا كثرة من خرج إليهم انصرفوا»[٢٥]. وبصرف النظر عن هذه الانتصارات كان هنالك، مع ذلك، صيف قاس في مصر. فقد انخفض مستوى نهر النيل حتى ظهرت آثار المجلس الذي كان يجلس فيه فرعون، أو على ما قال المقريزي، بات قبر يوسف مكشوفاً[٢٦]، وتأخر فيضانه حتى شنعوا «أن ملوك الحبشة صرفوا النيل»، وان «ملوك الأحباش حولوا مجاري ديار مصر إلى بلاد الزنج». وارتفعت الأسعار بسبب تأخر الفيضان. وفي ربيع الأول/ آب ـ أيلول جرت محاولة لقطع المساعدات المالية التي كانت تدفع على شكل إعانة للفقراء من الحكومة. ولم يوافق صلاح الدين على ذلك، فأعيد ثلاثة أرباع من المدفوعات الأساسية، إلا أن الموظف المولج بذلك أصرّ على أن المستفيدين لم يكن لهم أي حق شرعي بالمال الذي يقبضونه، وهم يتوقعون قطع البقية. وبالمقابل، أقام الأمير عز الدين موسك وليمة للاحتفال بختان أبنائه، ذبح فيها ٧٠٠ خروف، وفرش الحرير تحت حوافر فرس العادل. ثم أقامت زوجته مأدبة أخرى لا تقل عن الأولى فخامة، في حين جرى الاحتفال في شهر جماد الثانية/ تشرين الثاني بختان عدد من أبناء صلاح الدين وأبناء العادل «بالتجمّل العظيم». والعادل نفسه الذي حُرر بسبب وصول تورانشاه إلى القاهرة، قضى معظم فصل الصيف في المقاطعة الشرقية، التي شُنّت منها سلسلة من الغارات البدوية ضد المنطقة الفرنجية. ومرض أخوه طغتكين، وقد تاب وأناب «يسمع الحديث ويناظر الفقهاء في داره كل ليلة» ثم إن الله تعالى «منّ عليه بالعافية وأعاد إليه كامل قواه العقلية». وفي أول جماد الآخرة/ تشرين الثاني ذهب تورانشاه إلى الاسكندرية، وفي طريقه إلى هناك هرب من جنده نحو ٣٠٠ فارس ورحلوا إلى برقة[٢٧].

وتضاف إلى المشكلات المالية في مصر شكاوى صلاح الدين الشخصية حول نفقات جيشه، وصعوباته السابقة المتصلة بالحصاد في سوريا. وكما سبق وأشرنا فإنه أخبر الخليفة عن آماله في القيام بهجوم على القدس، ولكن، على الرغم من إنتصاراته يمكن القول بأنه لم يكن بعد قد أصبح قوياً من الناحية

الاقتصادية بما يكفي للقيام بحملةٍ كبرى. وفي هذه الحالة ربما كان بالإمكان توقع عودته إلى مصر. ومن المدهش، مع ذلك، أن تدل رسائله على أنه لم يكن يركز الآن على الجهاد. على المشكلات الإدارية بمقاطعاته، بل على خصومته مع قلج - أرسلان. وكان قد ختم رسالته إلى بغداد حول بيت الأحزان بهجوم على قلج - أرسلان، الذي «كسر رمح الإسلام»؛ عمله الأثيم في إثارة المشاغبين يجب ان يوضع له حد. وطلب صلاح الدين إلى الخليفة أن يرسل له الأوامر؛ فإن هو عصاها، فسوف يكون قد ارتكب جريمة تجعل القتال ضده عملاً شرعياً. وتابع صلاح الدين يشرح أنه بالنظر إلى انتقاداته السابقة للموصل وحلب، بأنه لن يستطيع أن يتغلب على قلج - أرسلان والفرنجة معاً. ومن أجل أن تطلق يده لا بد له من عقدمعاهدة هدنة مع الفرنجة[٢٨].

جاءت الإشارة التالية إلى هذه الهدنة في رسالة من الفاضل الذي كان قد جاء من مكة إلى دمشق بعد أن أدى فريضة الحج في ٥٧٤/ ١١٧٩. وفي شوال/ آذار من العام ٥٧٥/ ١١٨٠ ذهب إلى الحج ثانية، قاصداً هذه المرة العودة إلى القاهرة. وقبل أن يرحل بعث برسالة غير مؤرخة إلى فروخ شاه، هي إلى حدٍّ ما لائحة لمصاعبه الشخصية. وكان صلاح الدين وفرُّوخ شاه يعسكران، ربما في الغرب من الجبهة الفرنجية. وكان صلاح الدين قد بعث إلى الفاضل بعدد من الرسائل من مصر تحتوي جميعها على طلبات، ولكنه لم يحوِّل إليه أية رسالةٍ من أنصاره أو أي صديق حميم. وخشي صلاح الدين أن يكون مراسلوه يخفون عنه أموراً مفجعة أو أن تكون رسائلهم قد أُخفيت من قبل أناس أرادوا أن يجنبوه الأخبار السيئة، أو أن تكون الرسائل قد وقعت في أيدٍ مهملة فضاعت. وطلب فروخ شاه من الفاضل أن يأتي لزيارته غير أنه كره الذهاب بسبب أخطار الطريق - «هذا أمر يؤثر على الطرقات جميعها، وتلوكه جميع الألسنة»؛ أضف إلى أن جميع صحبه كانوا مرضى فأصبح بيته مستشفى ودكان عقاقير. والبهائم التي كانت معدة لنقل أمتعته كانت مستخدمة لنقل الشعير، لأن الأسعار برهنت على أن العام القادم سيكون مليئاً بشدائد هائلة؛ وأنه أنفق ٢٠٠ دينار في مدة ١٥ يوماً، وكان يخشى من تحميل نفسه أعباء سترغمه على بيع أحد بيوته في مصر. وتأتي الهدنة الفرنجية في تلك اللائحة من الكوارث في إشارة إلى واقع أنه عرف أن المعاهدة تمت الموافقة على شروطها، وأنه خشي أنه إذا غادر دمشق سيصل إلى المعسكر حين يكون كل إنسان

آخر قد غادره، وأنه ربما أضاع فرصة المواكبة العسكرية له في رحلته إلى الجنوب. ثم ينتقل من صعوباته الشخصية ليناقش الوضع السياسي: هنالك شائعات كبيرة في دمشق حول حركات في حلب والموصل، ولكنه لا يزال هو نفسه يعتبر أن الأعداء المحتملين هناك كانوا شديدي الضعف ويفتقرون إلى الأعداد اللازمة، الأمر الذي لن يقلق صلاح الدين. وخفف أيضاً من أهمّيّة الشائعات حول تجمع الزنوج الذين قيل بأنهم كانوا ينهبون مصر العليا غير أنه كان من الضروري لصلاح الدين أن يعود إلى مصر ليعالج المشكلات المالية، ولهذا السبب كان لعقد الصلح مع الفرنجة فائدة مؤكدة. ولم يستطع أن يفهم، على نحو ظاهر، لماذا كان صلاح الدين ما يزال في سوريا. ولم يشر إلى قلج أرسلان، غير أنه كتب يقول بأنه إذا كان الانشغال بحلب يؤخر الآن التحرك، فينبغي أن يلاحظ أن حلب كانت الآن في أضعف حالاتها، وأن «العدو الذي يجب أن يُخشى من قوته»، وهو الفرنجة، كان مرتبطاً بمعاهدة هدنة؛ وإذا شعر صلاح الدين بأنه لم يستطع الرحيل في ظل هذه الظروف، فماذا سيحصل إذا ما عززت حلب؟[٢٩]

وعلى الرغم من أن المناقشات حول الحاجة إلى هدنة فرنجية كانت ما تزال مستمرة منذ ربيع الثاني ٥٧٥/ أيلول ١١٧٩، فلم تعقد تلك الهدنة إلا في مطلع ٥٧٦/ بواكير صيف عام ١١٨٠. وينبغي أن يعود تاريخ رسالة الفاضل إلى شوال ٥٧٦ آذار ١١٨٠ على الأقل. وفي ١٨ ذي القعدة/ ١٥ نيسان قام فروخ شاه على رأس رجال من بانياس والمناطق المجاورة، بغارةٍ على صفد[٣٠]. وأفاد وليم الصوري أن صلاح الدين نفسه كان معسكراً قرب بانياس الأمر الذي يتفق مع ملاحظات الفاضل، وأنه قام بهجوم فاشل على طبريا[٣١]. ويبدو أنه لم تكن لديه أية نية في العودة إلى مصر. واستناداً إلى عماد الدين، كان يتفاوض خلال هذه الفترة مع سيل من المبعوثين أرسلوا من قبل نور الدين محمد صاحب حصن كيفا، الذي كان في خصام مع قلج أرسلان[٣٢]. وكان مبعوثه، ضياء الدين الشهرزوري في بغداد في آذار. واستناداً إلى ما ورد في رسالة بيت الأحزان، يمكن الافتراض أنه كان يطلب من الخليفة أن يوافق على قيامه بحملةٍ شمالية.

أما فيما يتعلق بالفرنجة، فلم يكن لدى صلاح الدين أي حاجةٍ في الاستعجال؛ فمملكة القدس كانت تواجه اضطرابات داخلية، وأي تأخر يمكن أن يؤدي إلى كسب شروط أفضل. واستناداً إلى وليم الصوري فإن كل يوم تصبح فيه

أعراض الجذام عند بلدوين أكثر وضوحاً[٣٣]. وقيل إن زيارة قام بها بوهيمند صاحب أنطاكية وريموند صاحب طرابلس اللذان أتيا بمواكبة عسكرية، أدخلت الرعب إلى قلبه فاستعجل زواج شقيقته سبيلاً، أرملة وليم دو مونتفرّات، بغي دولوزينيان. حينئذٍ أرسل مبعوثون فرنجيون إلى صلاح الدين الذي كان ما يزال في بانياس، وأبرمت إتفاقية هدنة في البر والبحر وفق شروط وصفها وليم الصوري بأنها «كانت متواضعة بما يكفي من جانبنا». وتابع وليم، الذي لم يكن يدري أي شيء عن إنشغال صلاح الدين بالشمال، يقول مضيفاً بأن صلاح الدين وافق على عقد هدنة ليس لأنه كان لديه أي خوف من الفرنجة، ولكن، بكل بساطة، كان ذلك بسبب القحط الذي نزل بسوريا لمدة خمس سنوات تقريباً، فسبب نقصاً في الطعام والعلف من جميع الأنواع في منطقة دمشق بلغ درجة أصبح معها لزوم عقد أي نوع من التسوية أمراً ضرورياً.

وفي حين كانت هذه المفاوضات جارية، وفيما كان ضياء الدين الشهرزوري لا يزال في بغداد، تغير الوضع فجأة هناك بوفاة الخليفة المستضيء في مستهل ذي القعدة/ ٢٩ آذار. وتولى عقد المبيعة الوزير ظهر الدين بن العطار لخلفه، الناصر، إلا أنه ما عتم أن توفي. وتحدث عماد الدين بأنه سقط فريسة للمرض وحسب[٣٤]، غير أن ابن الأثير أفاد بأنه كان قد أوقف خمسة أيام بعد وفاة المستضيء، ثم لم يعرف عنه بعد ذلك شيء حتى أُخرج جثمانه ليوارى الثرى، فإنقضّت عليه الغوغاء، متبعة بذلك تقاليد بغداد في القرون الوسطى، وسحلته في الشوارع قبل أن تمزقه إرباً إرباً. وكان ذلك، كما أضاف ابن الأثير، بالرغم من المعاملة الطيبة التي عاملهم بها[٣٥]. واستُبدل ظهير الدين، الوزير، بمجد الدين بن الصاحب، وأرسل الخليفة الجديد على الفور مبعوثاً هو صدر الدين، شيخ الشيوخ، ليؤكد حقه في القيادة الدينية، وربما أيضاً من أجل تقصي حقائق الوضع السياسي.

ذهب صدر الدين أولاً إلى البهلوان حاكم همذان وأصفهان وبلاد خرسان (الخريطة ٤). وأفيد أن البهلوان أظهر في البدء عدم الرضا عن جعل خطبة الجمعة تلقى باسم الناصر. غير أن صدر الدين قال لجنوده حينئذٍ بأنه ليس عليهم أن يطيعوه قبل أن يخطب للناصر. وتلك دلالة على الأقل، على سلطة الخليفة المفترضة[٣٦]. وقد يكون صلاح الدين أسف على خسارة ظهير الدين المستعد للمساعدة غير أنه لم

يكن لديه أي كسب في إبداء المعارضة، فسارع إلى تبديل الخطبة في جميع أنحاء مقاطعاته. وسمع الفاضل بمهمة صدر الدين حين كان في مكة أثناء حجه الثاني، فأرسل له رسالة من الفسطاط بعد عودته إليها في تموز ١١٨٠. وأكد في هذه الرسالة على فضائل صلاح الدين، مشيراً مرّة أخرى إلى إبطاله المكوس، ومشدّداً على إتساع امبراطوريته التي تمتد من شاطىء اللؤلؤ والعنبر في اليمن إلى برقة في إفريقيا الشمالية؛ أما فيما يختص بسوريا فقد حرر صلاح الدين الإسلام هناك من الجزية التي كان يدفعها الحكام السابقون خوفاً من الفرنجة «في الوضع الفاسد المعروف بالهدنة». فقد قلبت الطاولة الآن على رؤوس الفرنجة وأرغموا بحد السيف على عقد الصلح بدلاً من رشوتهم بغية القيام بذلك. وأضاف الفاضل بأن المبعوثين الصقليين جاؤوا يطلبون صلحاً، ورجا أن يكون صلاح الدين نفسه الآن قادراً على الذهاب إلى الحجاز والقيام بواجباته الإسلامية في أداء فريضة الحج[٣٧].

وكان الفاضل يضع بذلك الهدنة الفرنجية تحت أفضل ضوءٍ ممكن، مهملاً كل إشارة إلى السبب الذي جعلها ضرورية. وكان بإمكانه عرض وجهة نظر وليم الصوري حول الوضع المزري في سوريا، غير أنه سبق لصلاح الدين أن سوّى الجدل بحل وسط وذلك بتحدثه عن حاجته إلى فسح الطريق أمامه للقيام بزحف إلى الشمال.

وفي الأسبوع الأول من المحرم ٥٧٦/ بداية حزيران ١١٨٠ ظهر الأسطول المصري على مقربة من شواطىء بيروت، حيث علم بأنه جرى التوقيع على هدنة مع (بلدوين)، فحافظ على الالتزام بشروط إتفاق الهدنة التي حمت البحار بنوع خاص، وأبحر شمالاً لمهاجمة بلاد طرابلس، سائراً على خطى صلاح الدين. ولم تعطِ المراجع العربية أي صورةٍ دقيقة لتفاصيل تحركات صلاح الدين، غير أن وليم الصوري يبرهن على أنه مهتم، بأن يقوم بعرض قوةٍ ضد ريموند صاحب طرابلس[٣٨]. وكان ريموند قد عسكر في عرقة إلى الشمال من طرابلس، وحبس الاسبتاريون أنفسهم في حصن الأكراد، في حين سار جيش صلاح الدين بينهم، قاطعاً بذلك طريق إتصالاتهم. ويشير ذلك إلى أن صلاح الدين جاء شمالاً إلى البقاع، ثم استدار غرباً عبر فرجة حمص طرابلس حيث يُطلّ على طرفها الشرقي حصن الأكراد. وقيل إن ريموند كان مستعداً لخوض معركة، غير أن صلاح الدين

لم يكن يتطلع إلى انتصارات إضافية، فعقد إتفاقية هدنة أخرى بعد أن كان رجاله قد نهبوا البلاد. وأفاد وليم الصوري بأن صلاح الدين عاد حينئذٍ إلى دمشق، ولكن في الواقع، بدا من المؤكد أنه تابع سيره باتجاه الشمال. وفي نهاية حزيران كان يعسكر، قرب نهر كوك سو، الذي يصب في الفرات على بعد ٣٠ ميلاً (٤٩ كلم) إلى الشمال من ألبيرة، وعلى نحو ٣٠٠ ميل (٤٨٣ كلم) في خط مستقيم من دمشق (الخريطة ١).

كان السبب الظاهري لهذا الزحف خصومة زوجية، إذ أن نور الدين محمد، حاكم حصن كيفا الأرتقي تزوج من ابنة قلج أرسلان. ولكنه، استناداً إلى عماد الدين، كان رجلاً «مقبلاً على الغانيات»، فأصبحت إحداهن زوجته المفضلة. ولم تكن ابنة قلج أرسلان، «وهي سلجقية النّجار، سلطانية الفخار»، مستعدة للقبول بخنوع، فهدد والدها نور الدين محمد الذي لجأ إلى صلاح الدين يلتمس مساعدته. ويظهر أن صلاح الدين بدوره عرض وساطته. ورفض قلج أرسلان العرض وعدد نواقص صهره، ثم ألحّ على إعادة الأرض التي سُلّمت إلى نور الدين عند عقد المصاهرة. تلك كانت نقطة يصعب حلها، فكتب عماد الدين يقول ببساطة: «فأجبناه بأنه لا سبيل له إلى قصده وقد عاهدناه»[٣٩]. وكان موقع صلاح الدين، في الواقع، ضعيفاً بالنسبة لأي تبرير إسلامي ممكن إلى درجة أن ابن شداد فضل تجاهل الحادث برمته. غير أن الشائعات التي نقلها الفاضل حول الاضطرابات في الموصل وحلب، ومهما حاول أن يقلل من شأنها، أكدّت على واقع أن الأرتقيين كانوا من الأهمية، كحلفاء محتملين، إلى درجة يصعب معها التخلي عنهم. وحين انضم نور الدين وأخوه أبو بكر إلى صلاح الدين في كوك سو أقام لهما حفلة استقبال وقدم لهما هدايا ثمّنها عماد الدين بأكثر من ١٠٠,٠٠٠ دينار. ولا بد أن يكون هذا البذخ قد حُسِبَ ليس من أجل تمتين التحالف الأرتقي فحسب ولكن للتأثير على الأمراء الصغار وعلى الأعداء والأصدقاء المحتملين على السواء.

وصل صلاح الدين، كما أشرنا سابقاً، إلى منطقة كوك سو في ٤ صفر ٥٧٦ آخر حزيران وكان ما يزال هناك في جماد الثانية/ مستهل تشرين الأول. وأوجز عماد الدين المرحلة الواقعة بين فترتين فأفاد فقط بأن «اختيار الدين الحسن»، أحد أمراء أرسلان القياديين، جاء يعرض خضوع سيده، فتم على أثر ذلك عقد

إتفاق[٤٠]. واستناداً إلى ابن الأثير كان صلاح الدين في رعبان التي تقع في ناحية إلى الغرب ليست بعيدة عن كوك سو، حين تقابل مع رسول يحمل شكوى أخرى من قليج أرسلان حول معاملة ابنته. هنا استشاط غضباً وهدد بمهاجمة ملطية الواقعة على مسافة حوالي ٧٥ ميلاً (١٢١ كلم) إلى الشمال، وقال: «وبيني وبينها يومان، ولا أنزل عن فرسي إلاّ في البلد». وأوجس قليج أرسلان خيفة من التهديد، فقرر القيام بالمفاوضات. ونقل ابن الأثير أيضاً حججاً كانت مناسبة إن لم تكن بالضرورة صحيحة. لقد جُعل رسول قليج أرسلان يؤنب صلاح الدين - «وهو أعظم السلاطين» - لأنه عقد صلحاً مع الفرنجة، وجمع جيشاً من هنا وهنالك وأنفق مبالغ طائلة من المال، وكل ذلك من أجل مغنيّة: «ما يكون عذرك عند الله تعالى، ثم عند الخليفة وملوك الإسلام؟». واعترف صلاح الدين بأن رسول قليج أرسلان كان على حق، ولكنه قال بأنه لا يستطيع التخلي عن نور الدين محمد الذي لجأ إليه. فتم الاتفاق بالنهاية بأن تُبعد المغنية خلال مدة أقصاها عام، وأنه إذا قصّر نور الدين محمد عن القيام بذلك فإن صلاح الدين سيتخلى عن دعمه[٤١]. وليس هنالك ما يؤكد التفاصيل التي أوردها ابن الأثير، ما خلا الاعتراف بأن ملطية لعبت بالتأكيد دوراً ما في هذا الشأن. وتذكر رسالة من الفاضل بدون تاريخ ولا عنوان «مشكلة ملطية» في سياقٍ يدل على أنه كان يتكلم عن حملته. لقد أشار إلى النيل بأنه بلغ فيضانه مستواه، وحصل ذلك في ٢٦ ربيع الأول/ ٢٠ آب من هذا العام[٤٢]، ثم تابع يقول مشيراً إلى ملطية، بأنه يرى إرسال مبعوث (ربما إلى قليج أرسلان) يحمل رسالة ملّطفة اللهجة. وأضاف معلقاً على الحملة إجمالاً: «نرجو الله تبارك وتعالى أن يجنبنا ضرورة شن حرب يكون فيه الانتصار النهائي تقريباً مدعاة للندم، وأن يؤلف بين قلوب المسلمين»[٤٣].

وكان أحد العوامل الخفية التي أثر على خطط صلاح الدين موت سيف الدين صاحب الموصل في ٣ صفر/ نهاية حزيران على أثر مرض ألم به. وكان حكم سيف الدين الذي دام عشر سنين ناجحاً على الأقل في المعنى السلبي بحيث أنه بعد حملة تل السلطان في العام ٥٧١/ ١١٧٦ لم يكن هنالك أي إنقطاع علني في العلاقات الودية بينه وبين أخيه زنكي، وأنه لم يفقد أية أراضٍ لمصلحة صلاح الدين. وقيل انه كان يرغب في أن يخلف الموصل لابنه سنجرشاه البالغ من العمر اثني عشر عاماً[٤٤]، إلا أن مستشاريه قد خشوا، بحكمةٍ، مما كان صلاح

الدين يمكن أن يفعل. فكانت النتيجة أن خلفه على الموصل عز الدين مسعود، أخو سيف الدين، في حين أُعطي سنجرشاه مدينة جزيرة ابن عمر الواقعة على ٩٠ ميلاً (١٤٥ كلم) إلى الشمال من الموصل على نهر دجلة؛ وأعطي أخوه الأصغر ناصر الدين قلعة عقر الحميدية. وكان على زنكي أن يرضى مرّة أخرى بسنجار. كان خطر صلاح الدين وشيك الحدوث. وأرسل فخر الدين بن الدهان وهو رجل متعدد الجوانب الثقافية، إليه مبعوثاً من قبل عز الدين مسعود، فأبرز نسخة عن الاتفاقية التي أثبتت معاهدة الصلح بين صلاح الدين وسيف الدين. واستناداً إلى عماد الدين، سأل الرسول صلاح الدين: «بأي تأويل تقبض ما في يديه [عز الدين]؟» فأجاب صلاح الدين بأن العهد يُطبق فقط خلال فترة حياة الفريقين المتعاقدين، وبأنه سيستشير بغداد[٤٥]. إن صيغة الحاضر «تقبض» ربما تكون لمسةً خطابية، لأنه ليس هنالك دليل على أن صلاح الدين قام بأي عمل من هذا القبيل، ولكنه يمكن أن يكون بالتأكيد قد بدأ يتقدّم بالتشديد على مطالبه.

كانت المطالب ذاتها كبيرة ومتسعة[٤٦]. كان صلاح الدين يطالب بمثلث من المدن: سروج والرها وحرّان ضمن قطر يبلغ طوله ٦٠ ميلاً (٩٧ كلم) إلى الشرق من نهر الفرات في البيرة وضمن إطار حوالي ١٢٠ ميلاً (١٩٣ كلم) من حلب. كانت الرها، من بين هذه المدن، قد سلمها قطب الدين ينال إلى نور الدين في عملية تبادل إقطاعي شملت سروج، واستولى عليهما كليهما سيف الدين في العام ٥٧٠/ ١١٧٤، بعد وفاة نور الدين. وفي الوقت نفسه استرجع سيف الدين مدينة حرّان التي كانت قد فُصلت عن إقطاعات الموصل بواسطة نور الدين أثناء حملته الشتوية في عام ٥٦٦/ ١١٧٠ - ٧١. وطالب صلاح الدين أيضاً بثلاثة أمكنة أخرى شاركت في التاريخ نفسه في أنها خضعت لنور الدين في حملته الشتوية ثم استرجعها سيف الدين في عام ٥٧٠/ ١١٧٤. وتلك الأمكنة الثلاثة هي الرقّة التي تقع قرب تقاطع نهر الفرات على مسافة حوالي ١٠٥ أميال (١٦٩ كلم) إلى الشرق من حلب؛ والخابور وكانت في تلك الحقبة مدينة تقع على نهر الخابور الذي يتصل بالفرات في نقطة تقع على مسافة حوالي ١٠٠ ميل (١٦١ كلم) في إتجاه مجرى النهر من الرقة؛ ونصيبين، وتقع في منتصف الطريق تقريباً بين حرّان والموصل (الخريطة ٨). وإذا ما استولى صلاح الدين على هذه المدن فإنه في الواقع سيفصل الموصل عن حلب. لقد قال للمبعوث

الموصلي بأنه سبق للخليفة أن منحه إياها، فتركها في عهدة سيف الدين بشرط أن ترسل جيوش الموصل لتعزيزه إذا ما دعت الحاجة إلى ذلك. وكانت هذه صيغة قياسية يستخدمها صلاح الدين في معظم إتفاقات الصلح التي عقدها، ولا مكان للشك في أن صيغة ما من التعاون وضعت في معاهدة عام ٥٧١/ ١١٧٦. ومع ذلك فإن مطالبة صلاح الدين بتلك البلاد هي أكثر من مشكوك فيها. إذ ليس لها ذكر في براءة تقليد المنصب التي أرسلت إليه من بغداد عام ٥٧٠/ ١١٧٥ والتي منحته مصر، واليمن، وسوريا، إضافة إلى حلب ومقاطعاتها[٤٧]. ويجوز القول ان عبارة «سوريا» تغطي تقريباً جميع الأراضي التي كانت تحت حكم نور الدين، بما فيها تلك الأراضي الواقعة إلى الشرق من نهر الفرات، غير أنه لا يمكن دعم هذا القول بأية رسائل معاصرة. كما أن القول بأن الخليفة كان ينوي إعطاء صلاح الدين مدينة في بعد نصيبين إلى الشرق في العام ٥٧٠/ ١١٧٥ يبدو قولاً غير قابل للتصديق. ومع ذلك فقد بذل صلاح الدين وسعه في قضية ضعيفة. وتدل رسالة إلى شيخ الشيوخ على الحجج والاسنادات المستخدمة لذلك الغرض، وتكرر مرّة أخرى ذكر خدمات صلاح الدين للخلافة. فأشير إلى أن مصر ما زالت غير بعيدة عن الخطر، داخلياً من أنصار الفاطميين، وخارجياً من الأعداء الغرباء؛ وتطلب الوضع جيشاً كبيراً لحمايتها، ولكن الجيوش المصرية كانت ملزمة بحماية سوريا أيضاً، حيث سببت لهم الأسعار الباهظة ما قيمته خمس سنوات من الضائقة والأكلاف؛ وكانت الحاجة إليهم هناك قائمة لأن المدن التي كان ينبغي لها أن تزوّد سوريا بحامية، كانت قد «فصلت عنها» ونقلت جيوشها ـ وهذه محاولة واضحة لإستبدال الحدود السياسية، بصيغة صلاح الدين الخاصة للجغرافية الاستراتيجية[٤٨]. ولم يسجل الجواب الذي ورد من بغداد ولكن يمكن أن نرى أنّ حججه لم تقبل. فتركت المدن في عهدة عز الدين مسعود، وصرف صلاح الدين، في الوقت الحاضر، النظر عن القضية.

واستناداً إلى ابن شداد، فإن نهاية إقامة صلاح الدين قرب الفرات تميزت بمعاهدة عامة تشمل أراضي قلج أرسلان بالإضافة إلى ديار بكر والموصل[٤٩]. وهذا ليس مذكوراً في عبارات محدّدة من قبل كتاب السيرة الآخرين المعاصرين لصلاح الدين، غير أنه ليس هنالك من ريب في أن مفاوضاته المزدوجة أفضت إلى شكل ما من الاتفاق. أما فيما يختص بالموصل، فلم يكن بالإمكان رؤيته بأنه

كسب فائدة مباشرة من وفاة سيف الدين، غير أنه على الأقل سد الطريق على قلج أرسلان ووضع الأرتقيين تحت الفضل والمنّة. وبخاتمة إسلامية لحملته، التفت الآن بإختصار متوّجهاً ضد الأرمن. فمنذ سقوط مليح، عميل نور الدين، الذي حدث فور وفاة سيده، أصبح الأرمن بقيادة روبن الثالث (ابن لاون) معادين للمسلمين. وكان روبن الآن متهماً بأنه هاجم التركمانيين بطريقة غادرة حين دعاهم للرعي في مراعيه. وبصورة عامة، «كثرت شكاوى المسلمين من نكايته»[٥٠]. وكانت معاهدة ابن شداد للصلح مؤرخة في ١٠ جمادي الأول ٥٧٦/ ٢ تشرين الأول، وتحرك صلاح الدين حينئذٍ من الفرات إلى النهر الأسود وهو نهر ينبع من سفوح المنحدرات الشرقية لجبال الأمانوس. وكانت قلعة على هضبة يستعد عساكر روبن لإخلائها قد تم الاستيلاء عليها قبل أن يصار إلى تدمير مخازنها، فعرض روبن آنئذٍ إطلاق سراح المساجين المسلمين «وبذل من مجهوده في الاسترضاء والاستعطاف ما كان ممكناً». ولم تدم المخازن التي تم الاستيلاء عليها طويلاً، فوجد المسلمون صعوبة في الحصول على المؤن. وعقد الصلح، فكتب عماد الدين يقول: «كان من لطف الله إذعان الأرمني حتى عجّلنا رحيلنا بالنصر السنّي والعز الهنيّ»[٥١]. ولكن صلاح الدين عاد إلى حماه في العشر الأوسط في جماد الآخرة/ بواكير تشرين الثاني.

ومن حماه انتقل الجيش جنوباً إلى حمص، حيث عسكر قرب نهر العاصي. وكان هنا أن سمع صلاح الدين خبر وفاة أخيه تورانشاه. وقيل إن مناخ الاسكندرية لم يلائم تورانشاه، وأنه أصيب بنوبات مغص معوي متكررة، مات من واحدة منها[٥٢]. وخلف وراءه سمعة طيبة في السخاء والكرم سجلها له الشعراء بمحبة وإعزاز. كما خلف أيضاً ديوناً قيل انها بلغت ما يزيد على ٢٠٠,٠٠٠ دينار، سددها عنه صلاح الدين[٥٣]. وعرف عنه عدم مصداقيته مع كل من السلطة والمال، كما رشح من رسائل الفاضل. وأثبت أنه لم يكن إدارياً ناجحاً في سوريا، وكان شريكاً متعباً، كما يتبين من خصامه مع ابن المقدم. ولعل الشعور بعدم المسؤولية كان يثيره الحسد. وقيل بأنه تعوّد أن يقول كلاماً ضد صلاح الدين حين يكون في حالة من السكر[٥٤]. وضمن إطار وحدود شخصيته يمكن أن يقال عنه، مع ذلك، بأنه أدى خدمات جيدة للعائلة الأيوبية الحاكمة سواء في المعركة مع الزنوج في عام ٥٦٤/ ١١٦٩ أو في غزو اليمن. وحين سمع صلاح الدين بوفاته أمضى اليوم

مختلياً بنفسه واستناداً إلى عماد الدين، استدعى كتباً في «المراثي متألماً يتأملها»[٥٥].

لقد ذُكرت تواريخ مختلفة لوفات تورانشاه، كان أحد أواخرها ٥ صفر/ أول تموز[٥٦]. وبما أن عماد الدين كان مع صلاح الدين في الحملة، فإن إفادته بأن صلاح الدين لم يسمع بها إلا في رجب/ تشرين الثاني بالكاد يمكن الاعتراض عليها. وبالطبع يمكن أن يكون التأخير أمراً عرضياً أو مخططاً له لتحاشي التشويش، غير أن أبسط تفسير لذلك هو أن صلاح الدين بوجوده عند نهر العاصي كان فعلاً منقطعاً عن الاتصال بمصر. وهذا، بطبيعة الحال، هو وضع، غير عادي لقائدٍ عسكري في حملةٍ بعيدة، غير أنه يعيد طرح المسألة فيما إذا كان صلاح الدين، أو أصبح، قائداً حربياً في المقام الأول أو يجب أن ينظر إليه كحاكم إقليمي. وفي هذه الحالة تكون لوسائل الاتصال والآلة الإدارية الأهمية الأولى. وتبدو تفاصيل غزوه لسوريا كأنها تسقط نظرية الارتباط بالحرب، في أبسط أشكالها على الأقل. ويفرز ذلك واقع أنه حينما كان في سوريا كان ما يزال يُشغل نفسه إلى حدٍّ ما بالشؤون المصرية. فالرسالة التي تذكر تدخله بإجتزاء المعونات التي كانت تعطى للفقراء في مصر، تشير أيضاً إلى الشائعات بأنه كان يقترح طرد القاضي صدر الدين بن درباس[٥٧]. وهناك بينة أخرى، ووجه آخر للمشكلة، يظهران في رسالة من الفاضل كتب فيها أنه وهو في طريق عودته من مكة مر بمدينة إخميم الواقعة على مسافة حوالي ٣٢٠ ميلاً (٥١٥ كلم) إلى جنوب القاهرة. وهناك تقدم السكان إليه يشكون حاكمهم ويطرون على سلفه الذي طالبوا بان يعاد إليهم[٥٨]. إن هذا الأمر بحد ذاته شيء مألوف، غير أن النقطة الملفتة هي أن الفاضل وجد أنه من المجدي أن يطلب رسالة دعم من فروخ شاه في سوريا. وليس من الواضح ما إذا كان صلاح الدين أو العادل الذي كان ينتظر منه أن يصدر القرار النهائي. غير أن الفحوى هي أن الجهاز الإداري المصري كان عاجزاً. وكان ينبغي أن تطلب المعونة من أشخاص تعتمد سلطتهم على مكانتهم في الفريق المحيط بصلاح الدين، مهما صادف أن كانوا بعيدين جداً في ذلك الوقت. ومع أن هذه النواة الإدارية المتجولة لم تكن عصبة حربية وحيدة، فإن روابطها الاقليمية كانت، على نحو واضح، أضعف بكثير من روابط الأنظمة غير التوسعية.

استقبل صلاح الدين، لدى عودته إلى دمشق من الشمال، مبعوثي الخليفة،

شهاب الدين بشير وشيخ الشيوخ. وأقنع شيخ الشيوخ بمصاحبته إلى مصر، مع أنه، لسبب من الأسباب، وضع شرطاً بأن لا يدخل القاهرة، وبأن يقضي يومين اثنين في «التربة الشافعية»، ويغادر بعد ذلك إلى مكة[٥٩]. وعاد شهاب الدين بشير إلى بغداد مع ضياء الدين الشهرزوري، وأرسل مبعوث من قبل صلاح الدين إلى الموصل. وترك فروخ شاه مسؤولاً عن سوريا، وانطلق صلاح الدين من دمشق في ٨ كانون الأول فوصل إلى القاهرة في ٢ كانون الثاني ١١٨١.

١١ - فرصة سانحة

حين ذهب صلاح الدين إلى سوريا في شعبان ٥٧٣/ شباط ١١٧٨، كان يخيم عليه ظل هزيمته على يد بلدوين. وكانت سوريا تعاني من القحط والإدارة العاجزة معا. وعلى الرغم من هزيمة الفرنجة في حارم، فإنهم ما زالوا يشكلون خطراً على الجبهات. وكان الصالح في حلب، وسيف الدين في الموصل يحافظان على الإلتزام بشروط صلحهما، فلا يعطيان صلاح الدين أي عذر للتوسع. وكان قلج أرسلان ومن ورائه الإنتصار على البيزنطيين في ميريوسفالوم في موقع يخوله حق المطالبة بالأسبقية في الجهاد. وفي نهاية فترة مكوث صلاح الدين، كان بعض هذه الغيوم الملبدة قد إنقشع. إذ أنه نجا من الصعوبات التي نجمت عن إرتداد ابن المقدّم، ورسّخ تفوقه العسكري على الفرنجة والمسلمين معاً. وأتاح موت كل من سيف الدين والمستضيء الفرصة، على الأقل، بإمكانية تغيير الأنماط والسياسات. وفي الوقت الراهن، مع ذلك، وبعد الإستقرار في الشمال، لم يكن هنالك توقعات بالتقدم أكثر مما كان في العام ٥٧٣/ ١١٧٨. ومع أن وضع صلاح الدين كان أقوى فإنه لم يتغير تغيّراً جذرياً.

إن ما يظهر للعيان من رسائله خلال هذه الحقبة هو العناد الذي تشبث به في تبرير أعماله. فبالرغم من الضغوطات المالية، وصعوبات الإتصال، والمشكلات الإدارية، ركز على مطلبه في أن يكون بطل الجهاد، وينبغي أن يتم التخلي له عن المناطق والأقاليم خدمة للإسلام. وبذل وسعه لإضعاف أي مطلب من قبل قليج أرسلان قد يرمي إلى مشاركته هذا الدور، واحتفظ لنفسه بحق التقرير متى وكيف

يجب أن تعلن الحرب. فإلى أي حد كان ناجحاً في هكذا أمر؟ هـذا، قابل للجدل والمناقشة بالطبع. فكان بالإمكان إتهامه بالأنانية أو الدفاع عنه على أساس أنه رغم تفاؤله حول الهجوم على القدس في العام ٥٧٤/ ١١٧٩، فإنه لم يكن بعد من القوة بما يكفي للقيام بحملة كبرى. وفي الواقع، إن ما تحمله الرسائل هو الوضوح في الموجز، والغموض في التفاصيل. فالجهاد هو المفهوم المسيطر، ولكن بقيت كيفية متابعته أمراً غـير واضـح. وينتقل صلاح الـدين إلى الأمـور التـي لا علاقـة لها بالموضوع. وقد يكون في هذا نوعاً من التمويه يخفي تحتـه طموحـاً توسـعيّاً أو مصاعب إدارية تحمل أعباء ثقيلة مرهقة. وقد تكون أيضاً إنعكاساً لصعوبة أصيلة. ومهما استطاعت صورة الجهاد أن تنقل اعتدال ومثل العليا الخاصة بصلاح الدين، فإنها كانـت تبسيطـاً زائـداً عن اللـزوم إزاء الحاجـة لسياسـة متماسـكة تكون عملية ومباشرة. وكان وضع الصالح حجر عثرة على نحو واضـح لمثـل هذه السياسـة. وطالما أنه كان بالإمكان معاملته كطفل، فإن التنافس بين أمرائه والمخـاوف من عمه في الموصل كان بإمكانها أن تترك حلب معزولـة وضعيفـة، ولـكن إذا كبر وأنجب أبناء فيمكن أن يتوقع صلاح الدين ضغطاً مستمراً من أجل إستعادة الصالح جنوب سوريا. وفي هذه الحال، فقد لا يكون بإمكانه أبداً شن هجوم واسع النطاق على الفرنجة إنطلاقاً من دمشق، ولعل هذه المشكلة بدت مستعصية على الحل.

واستناداً إلى أبي شامة، نوى صلاح الدين على قضاء معظم شهر رمضـان (١٩ كانون الثاني ـ ١٧ شباط) في مصر، ثم تأدية فريضة الحج في مكة. واستشهد أبو شامة برسائل إلى الحكام الأيوبيين في اليمن التي ورد فيها الأوامر إليهم من أجل القيام بالإستعدادات اللازمة لقدومه وذلك بإرسالهم المال والمؤن وأوشحة الشرف إلى مكة بكميات تفوق الكميات المعتادة[1]. ومع ذلك، ولسبب ما، فقد غير رأيه، وشوهد يخرج ممتطياً جواده من تحصيناته الجديدة قرب المقس وذلك بغية الإطلاع على الأحوال في ضفتي النيل في ٢٤ محرم ٥٧٧/ حزيران[2]. وتورّط من جديد مع البدو. فقد قيل إنه ألغى ثلثي إقطاعاتهم المصرية لإستخدامها تعويضاً لأصحاب الإقطاعـات في الفيّوم التـي عزم علـى الإسـتيلاء عليهـا[3]. فليس من المستهجن إذن، أن تكون هنـالك روايات عن إضطرابـات. وفـي بداية السنـة الهجرية ٥٧٧ (أيار/ حزيران ١١٨١) اتُّهم البدو في المقاطعة الشرقية بالإتجار مع الفرنجة؛ فصودرت حبوبهم وأجبروا على الرحيل غرباً[4]. وفي الفترة المتأخرة من

السنة أرسلت السفن الحربية للقتال ضد قراصنة الأنهار من البدو الذين كانوا ينهبون شواطيء بحيرة تنيس وكان لهم ملاجيء حصينة لا تخرق بين مساكب الغزّار والأجمات(٥). ووردت أوضح صورة للمشاعر ضد البدو في رسالة من الفاضل إلى فروخ شاه الذي كان عليه أن يتغلّب على بدو سوريا، حيث كتب يصف أعمالهم الآثمة التي جعلت منهم «عدوّاً داخل الضلوع»؛ لو كان الفرنجة أقوياء، لكان البدو يداً يضربون بها، وفي أوقات ضعفهم كان البدو عينا للتجسس. لقد أدى صلاح الدين لهم خدمات كان أقلها كافياً لجلبهم إلى جادة الصواب لو أن هذا كان يمكن أن يتم باللطف والإنسانية، غير أن الحنظل المر لا يمكن له أن يحلّى بالماء العذب. ففي الحملات الفرنجية كانوا يقدمون بدور المرشدين، ويساعدون في تأمين الماء والنقل، ويسعفون سجناء الفرنجة الفارّين؛ وكانوا يسحبون العلاوات لرجال وهميين كانت أسماؤهم مدونة في لوائح الديوان ولكنهم لم يؤدوا يوماً أي خدمة للدولة(٦)، ويهملون واجباتهم في جمع المعلومات وحماية الطرق التي من أجلها أعطوا إقطاعات. أخذ صلاح الدين إقطاعات من «الأتراك» ليعطيها للبدو والسوريين مقابل وعد بأن يرحلوا عن الداروم؛ لكن عدداً قليلاً من قادتهم قد رحل، بينما ترك معظم شعبهم في أراضي الفرنجة واختبأوا وراء روايات لا تصلق. كان من المفروض أن يزودا صلاح الدين بعدد من الخيالة يبلغ ٥٥٠٠ راكب، ولو أنهم فعلوا، لأُخليت الداروم، ولعجز الفلاحون في الأراضي الفرنجية عن القيام بأشغال أراضيهم، ولكان على المسلمين الذين يعيشون هناك أن يرحلوا. وقد لخص الفاضل بدائل فروخ شاه، الذي كان باستطاعته إما أن يعطيهم منحة كبيرة مقابل الأقاليم التي اعتادوا أخذ محاصيلها، أو أن يحتجز قادتهم؛ وحجزهم لا ينتهك إتفاقية إمتياز المرور بأمان، لأن هذا يغطّي الحياة والممتلكات وكلاهما سيحفظ، ولكن ينبغي القيام بذلك فقط إذا أمكن جمع معظم القادة والقاء القبض عليهم، مرّة واحدة وفي نفس الوقت(٧).

ويمكن أن تكون مرارة هذه المشاعر قد زادت بسبب الخطر الذي قد ينجم عن حملة ضد المدن المقدسة في جزيرة العرب يقوم بها رينالد دو شاتيللون (أرناط) صاحب الكرك. ويلمح المقريزي إلى أن صلاح الدين تلقى إنذاراً مسبّقاً بهذا في محرم / حزيران(٨)، كما أشار الفاضل إلى رسالة من حصن إيلة أفادت بأن الحامية كانت في حالة خطر(٩). إن الطريق البرّية من الكرك إلى مكة

والمدينة تتجاوز تبوك التي تقع على مسافة ١٢٠ ميلاً (١٩٣ كلم) في خط مستقيم من رأس خليج العقبة، ثم تيماء التي تتقدم ١٣٠ ميلاً (٢٠٩ كلم) آخر، والمسافة من تيماء إلى المدينة تفوق ٢٠٠ ميل (٣٢٢ كلم). (الخريطة ٥). فإذا كان لدى الفرنجة أية نيّة صادقة بمهاجمة شبه الجزيرة من البر، فسوف يكونون دون ريب، في حاجة إلى دعم البدو. وفي حملة جرت فيما بعد عرف عن رجال أرناط بأنه كان لديهم مرشدون من البدو. وملاحظات الفاضل حول الأساليب التي ساعدوا فيها الفرنجة بالماء والنقل والمعرفة المحلية هي ملاحظات ذات صلة بموضوع الحالة الراهنة بصورةٍ أكيدة. وفي الوقت الحاضر، مع ذلك، لم يحصل أي أذى في أي من الجانبين. وليس هنالك من تواريخ يعوّل عليها لبداية تحرك أرناط، غير أن هذا لا يمكن أن يكون حصل قبل فصل الأمطار، لأن عماد الدين يسجّل بأنه أُعين بواقع أنه كان هنالك عشب في الصحراء هذه السنة[١٠]. ترك عماد الدين قوة في العقبة لتحمي الحامية الإسلامية في ايلة وتقدّم نحو تبوك. أما فروخ شاه فجمع جنده، واستناداً إلى ابن الأثير، قام بإجتياح أراضي الكرك. ويقول عماد الدين بأنه بقيّ قبالة القوة الفرنجية في الصحراء[١١] وهي مجابهة عرفت بأنها حصلت في شعبان/ كانون الأول. وأما رينالد الذي لا بد أنه، كما يبدو، لم يكن راغباً في ترك جيش مسلم في مؤخرته، وجد نفسه مجبراً على الإنسحاب. وبما أنه لا بد أن يكون قد توقع تحرك فروخ شاه، يبقى السؤال وارداً ما إذا كان قصد أكثر من القيام باستكشاف بالقوّة العسكرية.

كان عماد الدين أثناء ذلك يستمتع مرة أخرى بحياة هادئة في مصر. ففي ٥٧٦/ ١١٨١ دعي إلى زيارة الأمير مجد الدين مبارك الذي كان ينوب عن تورانشاه في المدينة اليمنية زبيد وهو مركز خلفه فيه أخوه حطان. وكان لمجد الدين عذبة خارج القاهرة ذهب إليها عماد الدين «برفقة أعيان الدولة»، وقضوا اليوم الأول مكرّمين بحفاوة ملكية، وفي اليوم التالي أخذهم الأمير في رحلة بقوارب في النيل «محمّلة بالأشياء الطيبة». وحين عادوا نحر لهم الخراف، وأخلدوا بعد ذلك إلى قيلولة. واستفاقوا على ضجة، فوجدوا حدائق الأمير مطوقة بقوة عسكرية يقودها قراقوش المسؤول السابق لصلاح الدين عن القصر والذي جاء لإلقاء القبض عليه. وقع عماد الدين وصحبه في حالة من الإضطراب بالرغم من مكانتهم الرفيعة وأهميتهم، واهتم كل منهم بسلامته الخاصة ولم «يمسك أحد منهم بيد

الآخر»، إلى أن وصلوا عائدين إلى القاهرة. وهنالك أطلق أصحابهم النكات على حسابهم، إذ أخذوا يسألونهم «ما إذا كانوا اشتركوا مع الأمير في بعض الأعمال الأثيمة». وتبيّن فيما بعد أن المقربين من صلاح الدين كانوا قد اتهموا مجد الدين باختلاس العائدات المالية لزبيد[١٢]. واستناداً إلى عماد الدين، أجاب صلاح الدين على التهمة بأن ليس هنالك من دليل عليها، ولكنهم أشاروا إلى الإستعدادات التي قام بها لإقامة حفلته، والتي أوّلوها بأنها إشارات إلى فرار وشيك الوقوع. وبعد توقيف مجد الدين أدرك صلاح الدين الخطأ فأطلق سراحه، غير أن هذا كلفه ٨٠,٠٠٠ دينار توجبت عليه لصلاح الدين، ومبالغ أخرى طالب بها العادل وشخص آخر من أخوة صلاح الدين هو تاج الملوك بوري[١٣].

وبين «رجال» عماد الدين «الأعيان» موفق الدين حمزة الذي عاد من فترة وجيزة من بعثة إلى الموصل، وشمس الدين بن الفرّاش الذي كان قاضي العسكر لدى نور الدين والذي عهد إليه صلاح الدين بأعمال ذات أهمية بالغة، ولكنهم بالرغم من العلاقات التي كانت تربطهم بصلاح الدين فلم يكونوا من بطانة مستشاريه. ولا يمكن أن نغالي في مضامين حادثة واحدة. فهي لا تدل على ما إذا كان هذا الفريق في الأصل هو الفريق الحربي أم أفراد العائلة، وإن كان ذكر العادل والبوري يمكن أن يشير إلى الفئة الثانية، كما لا يمكن الحكم على مدى تأثيرها من خلال حادث وحيد. وما هو واضح، مع ذلك، هو أنه كان ممكناً للفريق بين الفينة والفينة، إن لم يكن السيطرة على صلاح الدين فعلى الأقل حثه على المضي وفاقاً لما يختاره من خطوط ضارباً عرض الحائط بالمسوغ القانوني، ومستخدماً النفوذ لمنافعه الذاتية.

وبعبارة أوضح، كان الإخفاق التام في عملية توقيف مجد الدين جزءاً من السخط المرتبط بآثار غزو تورانشاه لليمن. وحين رحل تورانشاه إستمر عملاؤه في إرسال الأموال له، غير أن السلطة المركزية كانت مفقودة وكانت هنالك مشاحنات، بين حِطّان والي زبيد وعز الدين عثمان والي عدن بنوع خاص. وكتب صلاح الدين في رسالة إلى العادل يقول: «هذا اليمن هو ثروة ... غزوناه، ولكن حتى هذا اليوم لم نحصل منه على عائدات ولا على فائدة، ولم يكن هنالك سوى نفقات لا حصر لها ولا عدّ، وإرسال للجنود... وتوقعات لم تثمر ما كان

يؤمل به في النهاية»[١٤]. فليس من المستغرب إزاء هذا الموقف، أن يرتاب صلاح الدين في أنه كان عرضة للإختلاس من قبل الحكام المحليين. ووجد الفاضل يكتب في رسالة غير مؤرخة مرسلة إلى عثمان في عدن يذكّره بأنه مدين بمركزه لعادة صلاح الدين بإعطاء الأرض التي يغزوها «إلى الغرباء بدلاً من الأقرباء»، وبأن صلاح الدين لم يأخذ شيئاً لنفسه، و «حتى انه لم ينظر إلى ما كان الآخرون يمدون أيديهم لأخذه»، وانه أنفق أموالاً على اليمن ولم يحصل على مقابل. وعثمان الذي يبدو أنه طلب إعانات مالية لإنفاقها على حملة جديدةٍ ما، طَلب إليه أن يؤمّن مبالغ من عائداته بحيث «يمكن للحجة أن تقوم على أساس من الصدق». وأرسل صلاح الدين بعثة «تبحث عن مصادر الثروة» و «تفتش عمّا كان مخبأً». وعرض، بنوع خاص، أن يترك في زبيد وعدن كتبةً يستطيع الإعتماد على أمانتهم، وحيث سيكونون مسؤولين تجاهه وليس تجاه الحكام[١٥]. وأرسل فيما بعد، كتحرّك أشد صرامة، أحد الحكام السابقين للقاهرة، هو «صارم الدين قُتلُغ» إلى زبيد، وأخيراً ذهب طغتكين، أخو صلاح الدين، في صيف عام ٥٧٨/ ١١٨٢، لإعادة توطيد المراقبة الأيوبية المباشرة.

أضف إلى أن المشكلات في كل من مصر واليمن قد حجبها الوضع في سوريا عن ذهن صلاح الدين. ففي ٩ رجب ٥٧٧/ ١٨ تشرين الثاني من العام ١٨١١ وقع الصالح في حلب فريسة المرض. وفي ٢٣ رجب/ ٢ كانون الأول أقفلت بوابات الحصن، وفي يوم الجمعة ٢٥ رجب/ ٤ كانون الأول توفي الصالح بعد مرض دام سبعة عشر يوماً، وكان في ذلك الوقت قد بلغ من العمر ما يقارب سن ١٩ عاماً، «وهو أكثر الرجال وسامة»، وفاقاً لما ذكره ابن أبي طي[١٦]، يؤازره جميع ميزات سمعة والده. وقد تعهد ورع أبيه وتقاءه بالرعاية إلى درجة أنه رفض شرب الخمر خلال مرضه الأخير بالرغم من نصيحة أطبائه. وكسب ولاءً كبيراً من أهل حلب. ولو أنه عاش مدة أطول إستطاع خلالها ضبط شؤونه الخاصة لكان مستقبل صلاح الدين بالإضافة إلى النمط الكلي للعلاقات السورية المصريّة تقريباً قد تبدل بالتأكيد وبشكل ملحوظ. وفي بعض النواحي كانت وفاته، بين سلسلة الوفيات التي حدّثت في الوقت المناسب والتي أثرت في مسار حياة صلاح الدين العملية، أسعد تلك الوفيات حظاً في أنها فتحت ما ربما كان الطريق الوحيد الذي كان بإمكان التوسع والجهاد أن يتحدا فيه معاً في خطة معقولة كبيرة. وليس من غير المألوف أن

يكون هنالك كلام عن السم، وذُكر اسما علم الدين سليمان وياقوت الأسدي كشخصين مشتبه بهما[١٧]. ويبدو أن ياقوتاً كان شخصاً موجوداً في الوهم فقط، ولكن علم الدين سليمان حصل فيما بعد على مهنةٍ مربحةٍ في دائرة صلاح الدين. أضف إلى أنه علاوة على ذلك، وبصرف النظر عن أي إعتبار آخر، فإن ترتيبات صلاح الدين غير المتقنة تذهب شوطاً بعيداً لتدلّل على أنه مهما كان سبب وفاة الصالح فلا يتحمل هو نفسه أية مسؤولية عنها.

ولقد ظهرت خططه المباشرة في رسالة كتبها إلى فروخ شاه بعد أن سمع بخبر مرض الصالح «وبواقع أنه لم يكن ليسمح بمقابلته»[١٨]. فأمر بتسيير خط إتصال مزدوج؛ وطلب إلى تقي الدين وناصر الدين محمد أن يرسلا حماماً زاجلاً يحمل بريداً إلى حلب من حماه وحمص حيث كان في هاتين المدينتين كليهما حمام دمشق منتظراً؛ ومن دمشق كان على الخطين أن يتصلا، وطلب إلى فروخ شاه أن يرسل حمام بصرى إلى دمشق في حين أرسل صلاح الدين نفسه سعاة بريد ينتظرون في بصرى؛ وفي أثناء ذلك كان على فروخ شاه أن يرسل جنوداً لتعزيز تقي الدين، وذلك على ما يبدو بسبب خصام آخر تورطت فيه ديار بكر، وكان على تقي الدين نفسه أن يتحرّك إلى الشمال الشرق، من حماه إلى منبج لحراسة نهر الفرات وعزل حلب عن الشرق. وكتب صلاح الدين يقول: «إننا نحكم القبضة على بالس، وقلعة جبير، ومنبج تقاطع قلعة نجم كما يحرس تل باشر تقاطع البيرة» (الخريطة ٨). وفي حين كان تقي الدين يحكم القبضة على الفرات، كان صلاح الدين نفسه يخطط لضربة في حلب، وقال لفروخ شاه: «إذا صح نبأ وفاته، سنصلك أسرع من أي جواب... الجنود في راحة... والمصلحة في التحرّك واضحة».

كانت هذه الخطة عاثرة الحظ في توقيتها. فلم يكن فروخ شاه في وضع يمكنه من تقديم العون لأنه أجبر على الذهاب إلى الصحراء لمجابهة رينالد (أرناط)، وأثناء هذه الفترة الحرجة حين لم يستطع تقي الدين أن يتوقع أية تعزيزات، إجتاز عز الدين مسعود صاحب الموصل نهر الفرات. وقيل إن عدداً من الأمراء الحلبيين كانوا يناصرون جانب أخيه زنكي، وذُكر للصالح أثناء مرضه الأخير بأن نور الدين كان قد أحبّ زنكي وتولى رعايته وتربيته، غير أن الصالح أدرك أن زنكي لم يكن له الدهاء والوسيلة للإحتفاظ بحلب، وأن عز الدين وحده يستطيع أن يصمد أمام صلاح الدين[١٩].

إن هذه الحجة التي هي تركيبة أخرى من تركيبات ابن الأثير، لا تبدو في بنائها الراهن، مقنعة في أن الصالح نفسه كان في موقع أضعف من موقع زنكي، غير أن أمراء قد يكونون قد شعروا بأنهم سيكونون آمن إن عملت قوة الموصل وسلطته على حمايتهم. وفي ٣ شعبان/ ١٢ كانون الأول، وبعد مرور إثنتي عشر يوماً على وفاة المصالح، وصل مبعوثو عز الدين إلى حلب ليحلّفوا يمين الولاء. فرحل عز الدين نفسه مع مجاهد الدين قايماز، وهو الرجل الإداري الرئيسي لديه، إلى البيرة حيث دعي الأمراء الحلبيّون لمقابلته. واستناداً إلى ابن العديم فكر تقي الدين في محاولةٍ للتدخل، غير أنه نصح بعدم التدخل من جانب بعض رجاله[٢٠]. وكان تل باشر الذي كان يمكن أن يُسَدَّ منه الممر في البيرة، في يد بدر الدين دلدريم حليف صلاح الدين، ولكن لم يكن متوقعاً منه أن يتصرّف بمفرده. وبنتيجة ذلك وصل عز الدين بدون أية معارضة للإستيلاء على حلب، وكان ذلك في ٢٠ شعبان/ ٢٩ كانون الأول.

وبسبب المسافات، إستغرق صلاح الدين بعض الوقت كي يدرك أن خططه قد أخفقت. وفي سلخ شعبان/ ٧ كانون الثاني وقبل أن يتمكن من معرفة ما حصل، كتب إلى صاحب الراوندان وهي مدينة تقع على مسافة ٥٠ ميلاً (٨٠ كلم) عن حلب إلى الغرب من تل باشر يقول ما مفاده أنه سبق له بعد موت أمير حلب أن ترك المدينة في يدي الصالح ليدير شؤونها. أما الآن فقد تغير الوضع. وبما أن تقي الدين قريب منها على رأس جيش كبير فإنه، أي صلاح الدين لن يهب لنجدتها «فليأتي الأمير بنفسه ومعه رجاله. فليتصرف كما يتصرف الرجال حفاظاً على مصالحهم»[٢١].

وبعد أن إنقضت الفرصة السانحة للقيام بهجوم سريع، أفاد أحد التقارير أن صلاح الدين تخلّى عن الأمل في الإستيلاء على حلب، غير أن هذا لا يجد له سنداً في رسائله التي تُظهر بأنه كان قد بدأ حملة دعاويّة جديدة. وفي منتصف رمضان كتب إلى وزير الخليفة ماجد الدين بن الشاحب يقول: «كان سيد الموصل يشتهي حلب فمد باع الظلم ليستولي عليها. لقد حنث بيمينه»[٢٢]. وكرر إدعاءه بأن حلب أعطيت له منحةً من الخليفة المستضيء؛ وتابع يقول بأن السبب الوحيد الذي مكّن عز الدين من الوصول إليها هو أن فروخ شاه كان «في أبعد طرف من المناطق الفرنجية في بداية صحراء الحجاز»، حيث كان أحد طغاة الفرنجة يهدد تيماء بالخطر، «وهي المدخل إلى المدينة المنورة». «إنه لأمر عجيب أن نكون مجبرين

على الدفاع عن قبر الرسول . . . في حين يحاول سيد الموصل أن يأخذ بعضاً من أراضينا بيد الظلم . . . والموصليون يصادقون الكافرين بدلاً من المسلمين ويحملون إليهم الكنوز». وذكر صلاح الدين في هذا السياق أن عز الدين أرسل مبعوثين إلى الفرنجة وإنهم تحرّكوا ضد حارم في حين كانت عساكر من حلب قد هاجمت الراوندان؛ وإن لم يعلن عز الدين بأنه كان على خطأ فإن ذلك سيؤدي إلى الحرب لأنه سيكون بذلك قد عصى أوامر الخليفة، مع أن صلاح الدين يفضل أن يمضي حياته القصيرة في مهاجمة الكافرين. «الذين جعلوا من القدس مكاناً للتدنيس». وفي رسالة أخرى اتهم صلاح الدين الموصليين بأنهم كانوا على إتصال مع الحشاشين ووعدوا بإعطائهم قلاعاً وملكيات عقارية، متخذين منهم سماسرة بينهم وبين الفرنجة «هذا ليس إفتراءً» ـ كان مبعوثهم مع سنان، وكان مبعوث سنان مع الكونت، ومبعوث الكونت مع الملك؛ وكان لصلاح الدين الحق الأولي بحلب ومطلبه قائم على أساس من الحق؛ «فالدخول إلى أحد المنازل لا يعطي الداخل الذي يستولي عليه حق الملكية». وأساس الإتفاق بين صلاح الدين وحلب والموصل كان يقضي بالاّ يهاجم أحدهم بلاد الآخر، وبأنهم يجب أن يتحدوا في صد من ينكث بالعهد. وكرر صلاح الدين مرة أخرى بأنه إذا لم يتخلّ الموصليون عن حلب، فإن رفضهم إطاعة أوامر الخليفة سيسوّغ له مهاجمتهم «أو بالأحرى يسحقهم دون رحمة». واقترح بأن يأمرهم الخليفة، كاختبار لوفائهم، بالتخلّي عن قرية واحدة، ويأمره بالتخلي عن مقاطعة كاملة. وادعى بأن لديه رسائل تثبت تعاملهم مع الحشاشين والفرنجة وأنه قد أرسل أحدثها إلى بغداد[٢٣].

من الصعب الحكم على فعالية هذه الحجج والبراهين. فإدعاء صلاح الدين بأن حلب مشمولة ببراءة الملكية التي في حوزته، يتناقض مع المستند الذي يحتفظ به القلقشندي، والذي ينص على منحه كل سوريا باستثناء حلب والمناطق التي يحكمها الصالح. ويمكن أن توحي المغالطات بأنه حين توفي الصالح لم يعد الإستثناء مطبّقاً وأن سوريا بكاملها هي ملك لصلاح الدين. أضف إلى أنه سواء أكان معتمداً على مثل هذه الحجة أم على براءة أخرى غير معروفة، فإن من الجليّ الواضح أن ادعاءه القانوني كان أضعف من أن يؤخذ على محمل الجد في حلب، لأنه خلاف ذلك فإن بعض الإشارة إليه لا بد أن تكون متوقعة في التقارير المفصلة حول تحويل السلطة. فإذا لم تكن ملاحظة صلاح الدين حول المعاهدة الثلاثية

غير ذات صلة متعمّدة بالموضوع، فلا بد أن يكون من المفترض انه رمى إلى أن الصالح كان بطريقة ما أعلن حقه بحلب كجزء من بنود الإتفاقية التي لم تكن غير مسجلة فحسب بل لا يصدّق بأن يكون ابن نور الدين قد عملها. وكانت التقارير المتعلقة بزحف الفرنجة على حارم تقارير مزيفة. ولما كان صلاح الدين قد حثّ سيد الراوندان على مهاجمة حلب فبالكاد يمكنه أن يشكو إذا ما رد الحلبيون بالإنتقام.

ومن الواضح أن إتهامات من هذا النوع هي موضوع دعاوي ضعيفة بحيث أنها، سواء أكانت صحيحة أو خاطئة، لا تستطيع أن تؤثر على بغداد. وكانت النقطة الحرجة هي ما إذا سيقبل الخليفة أم لا بحجة صلاح الدين الأخيرة والأكثر بساطة: «إذا استمرت المشاركة في سوريا فإنها ستؤدي إلى إضعاف الوحدة»[٢٤]. كان هذا بديهياً، إذ أن الضعف يمكن أن يعرّض للخطر فرص إستعادة القدس. ومن جهة ثانية، طُلب إلى الخليفة أن ينحاز في حالة يكون فيها لصلاح الدين، وهو الفريق الأقوى، الإدعاء الأضعف على نحو يمكن إثباته، سيّما لأنه كان يطالب بأرضٍ لم يحكمها هو ولا أحد من أفراد عائلته. وكان بإمكان صلاح الدين أن يلح ضمناً، على أنه استحق حلب لكونه بطل الإسلام، غير أن هذا لم يكن مقبولاً بعد ولا مُثبتاً على نحو مقنع. فالنصف المفقود من الإثبات، وهو الرسائل الموصلية المرسلة إلى بغداد، ربما يستطيع تفسير بساطة طريقته. إذ أن صلاح الدين وُجد يشير بازدراء إلى «الهدايا المفترضة»[٢٥] التي قدمها الموصليون، ويمكن أن يُنظر إلى رد فعله، على نحو قابل للجدل، كرد فعل دفاعي أكثر منه هجومياً. ويمكن أن يكون في الواقع، أنّ ما كان يأمله كلا الفريقين، في أفضل الحالات، هو قدر من الحياد من جانب بغداد، وأن كلاً منهما كان في الأصل مهتماً في إبطال إدعاءات الطرف الآخر.

وفيما كانت الطلقات المسدّدة الخاصة بالحملة الدعاوية تطلق، كان صلاح الدين يسوّي شؤونه في مصر. وكان قد تخلّص من الخوف من هجوم صقلّي آخر لأن الأسطول الصقليّ ذهب في رحلة مفجعة إلى جزر البليريز. ومع ذلك قام برحلة تفقدية للساحل، في أوائل ذي القعدة/ آخر شباط قبل بداية فصل الإبحار. وفي الإسكندرية وجد متسعاً من الوقت ليس ليتفحص الأسوار فحسب، بل ليدرس أيضاً «موطأ» مالك، ثم عاد بعدئذٍ إلى القاهرة عبر دمياط[٢٦]. وبالنسبة له كان أمراً

هاماً أن يخلّف وراءه سكاناً مسلمين راضين. فكان تَحَرُّكُ في هذا الإتجاه زهيد الأكلاف هو أنه وضع موضع التنفيذ أمراً بمنع غير المسلمين، حتى الأطباء والكتبة، من ركوب الخيول أو البغال[٢٧]. وفي ٩ ذي الحجة/ ١٦ آذار، وكإجراء أكثر إيجابية، أعطى الأوامر لفتح مستشفى في القاهرة. وكان ينبغي أن يؤمّن لهذا المستشفى دخل شهري مقداره ٢٠٠ دينار يدفع من موازنة الدولة، بالإضافة إلى مقدار من الحبوب من الفيّوم. كما كان ينبغي أن يزوّد بالخدم والمشرفين والأطباء والجراحين. فاتخذت ترتيبات لإعادة فتح مستشفى الفسطاط القديم الذي أعطي مدخولاً شهرياً مقداره ٢٠ ديناراً[٢٨]. وفي ١١ ذي القعدة/ ١٨ آذار خرج صلاح الدين من القاهرة ليعسكر في بركة الجب حيث إنضم إليه العادل. وفي ٢٤ دي القعدة/ نهاية آذار تمت تقوية الروابط بين أفراد العائلة المالكة بترتيب عقود زواج بين أربعة من أبناء صلاح الدين وأربع من بنات العادل.

وفي نفس الوقت لم تكن الأمور في حلب تسير على ما يرام، إذ لم يكن الأمراء الحلبيون ميّالين إلى مراعاة الموصليين واحترامهم، وبخاصة المدير الاداري لدى عز الدين، مجاهد الدين قايماز. وأفاد ابن شداد أنهم كانوا يعتبرون، وليس على نحو غير معقول، أنهم اختاروا عز الدين. وعلى هذا الحساب فإنه هو الذي كان مديناً لهم[٢٩]. اضف إلى أنه كان هنالك صدع في صفوفهم[٣٠]؛ فحسام الدين طومان الذي دعم زنكي، تورّط في خصام مع عساكر الموصل في شأن قرية كان قد ضمن سلامتها. فاراد الموصليون أن ينهبوها، مما جعله يهدد بالذهاب إلى الفرنجة، فأدى ذلك إلى توقيفه. وفيما بعد أطلق عز الدين سراحه فبقي وفياً للبيت الأتابكي. ولكن المناصر الرئيس الآخر لزنكي، علم الدين سليمان، فرّ إلى صلاح الدين. وأثناء ذلك إقترح زنكي نفسه، مبادلة حلب بمدينته سنجار. وحين رفض عز الدين هذا الإقتراح، قيل إن زنكي هدد بتسليم سنجار إلى صلاح الدين[٣١]. ولكن حتى بدون ذلك، كان يمكن أن يكون لدى عز الدين نيات أخرى. فقد أفيد بأنه رفض أن يشن هجوماً على دمشق[٣٢]، ولكن حلب نفسها أثبتت انها غير مربحة. أضف إلى ذلك، أنه لو ترك أياً من حلب أو الموصل لأحد أتباعه فإنه، في الواقع، سيخلق لنفسه منافساً ممكناً آخر. فليس من المستغرب أن يكون غير رأيه فقبل العرض الذي قد تقدّم به زنكي. ولكي يعطي نفسه كل ما إستطاع من المكانة والمكسب تزوج من والدة الصالح وأفرغ قلعة حلب من

الأسلحة والذخائر المخزنة في مستودعاتها. بعدئذٍ، وفي ١٥ شوال/ ٢٢ شباط ذهب لمقابلة زنكي على نهر الفرات في الرقة. وفي ٢٠ شوال/ ٢٧ شباط تم التوصل إلى اتفاق فأرسل الاجراء لإجراء الترتيبات من أجل انتقال الحكم في حلب وسنجار. وخلال فترة تعليق الحكم، ظهر عدم الولاء الذي شجع عليه الوضع، حين قام مظفر الدين الذي ظل مسؤولاً عن حلب، بهجوم فاشل على القلعة، غير أن شاذبخت[٣٣] أحبط خطته وهزمه. حينئذٍ أرسل زنكي إبنه قطب الدين إلى حلب، واتبعه بزوجته التي كانت ابنة نور الدين. فثبت امتيازات الشيعة وأُفيد بأنه عامل الناس معاملة حسنة. غير أنه في الوقت الذي وصل فيه إلى المدينة في ٨ أيار، كان صلاح الدين قد سبق له أن غادر مصر.

وبعد وصوله إلى بركة الجب في ذي القعدة/ آذار، كان على صلاح الدين أن ينتظر ٥٤ يوماً قبل أن يذهب إلى سوريا. وقبل ذلك ببعض الوقت، غرقت سفينة حجاج فرنجية على مسافة من شاطىء دمياط. وأحصى وليم الصوري عدد الحجاج برقم بلغ ١٥٠٠ حاج[٣٤]، بينما جاء عدد ركاب السفينة وفاقاً لاحصاء عماد الدين ٢٥٠٠ شخص، انقذ منهم ١٦٧٦ فأسروا، وغرق الباقون[٣٥]. وقُصد بشروط معاهدة الهدنة «في البر والبحر» التي أبرمت في ٥٧٦/ ١١٨٠ أن تشمل وضعيات كهذه[٣٦]، ولكن وليم أسقف صور أفاد بأنه لم يكن لدى صلاح الدين أية نية في السماح لغنيمة كبيرة كهذه بأن تفلت من يده. فأرسل بعثة دبلوماسية إلى بغدوين تحمل طلبات مستحيلة، وحين رفضت هذه الطلبات عمد إلى نقض اتفاقية الهدنة. وفي الواقع، قد سبق لوليم أن دون أنّ الهدنة كانت لفترة سنتين تبدأ في أواخر ٥٧٦/ أيار ١١٨٠، غير أن المصادر العربية بما فيها رسائل صلاح الدين تشير فقط إلى أنها كانت مشرفة على نهاية مدتها. ومما لا ريب فيه أن صلاح الدين كان ملوماً في قضية سفينة الحجاج، وقدم ما يمكن اعتباره عذراً حين كتب أن الفرنجة أنفسهم سبق أن قاموا بعمل غادر حين قبضوا على عدد من التجار وآخرين في البحر[٣٧]. وكان مع ذلك بصورة عامة، حساساً بالنسبة لاتهامه بالنكوث بالعهد. ولربما كان أحد أسباب تأخره في بركة الجب هو رغبته في مهاجمة الفرنجة مرتاح الضمير. والتاريخ الذي ذكر لرحيله هو ١٤ محرم/ ١١ أيار. وقيل أن نصف الجيش المصري ذهب معه في حين بقي النصف الآخر لحماية البلاد[٣٨]. وكان على العادل أن يبقى ليكون نائباً لصلاح الدين، أما قراقوش فأمر بأن يعمل على انجاز

سور القاهرة ـ الفسطاط. وجلس صلاح الدين مع صحبه عشية رحيله يتحدث عن النسيم العليل وعن رائحة الزهور. ونقل المدرس الخصوصي لأحد أبنائه بيتاً من الشعر:

تمتـع من شميم عرار نجد فمـا بعـد العشية من عرار[٣٩].

واعتبر هذا القول نذير شؤم. وفي الواقع، لم ير صلاح الدين مصر بعد ذلك أبداً.

أخـذ صلاح الدين معه، إضافة إلى الجيش المصري، عدداً كبيراً من غير المحاربيين لا يشتمل على تجار فحسب، بل يشتمل أيضاً على لاجئين كانوا قد رحلوا عن سوريا بسبب المجاعة والذين أرادوا الآن أن يعـودوا إلى ديارهـم. وجمع مقداراً كبيراً من المؤن، وعدداً ضخماً من بهائم النقل. وفي رسالـة إلى بغداد أعلن أعجابه لمواكبته بمثل هذا العدد الضخم في مثل هذه الرحلة الطويلة، مقدراً معدل الوقت الذي يستغرقه اجتياز المسافة بين مصر وسوريا للذين يسيرون بخطىء معتدلة، بثلاثين يوماً[٤٠]. وصلت الحملة إلى ايلـة بعـد خمس ليالٍ، ثم وردت أنباء تفيـد بإن الفرنجـة حشـدوا قواتهـم في الـكرك. وكل جانـب، في الحقيقة، كان مطلعاً تماماً على أحوال الجانب الآخر. فعرف الفرنجة الوضع في حلب، وسمعوا بحشود صلاح الدين، وبحاشيته الكبيرة من المدنيين. واستناداً إلى وليم الصوري «كل قوة المملكة» تجمعت في الكرك، ولكنه أضاف أن ريموند صاحب طرابلس الذي لم يكن على علاقة طيبة مع بغدوين، كان موجـوداً هنـاك بالرغم عنه. وكان الاحساس أن الملك كان مقتنعاً أكثر مما ينبغي في مساعدة رينالد دوشاتيللون (أرناط) على الدفـاع عن الـكرك في حين ترك سائـر أراضيه مشرّعـة للهجـوم عليهـا[٤١]. وفـي الواقـع، كان التجمـع الفرنجـي صحيحـاً من النـاحية الاستراتيجية، شرط أن يكونوا عازمين على شن معركة وليس على مجرد الدفاع عن الكرك. وقد تعاني البلاد التي تركت بدون حراسة قدراً كبيراً، غير أن أفضل حماية ذات أمد طويل تقدم للمملكة هي جعل صلاح الـدين نفسـه يسقـط في وضـع غير مؤاتٍ.

ومن أيلة تحرك صلاح الدين مبتعداً عن وادي رفت عبـر التـلال الشـرقية، سالكاً خط الطريق الحديث من معان إلى العقبة (الخريطة ٧) وتوقف قرب سلسلة تلال المناطق الفرنجية في القريتين. واستناداً إلى عماد الدين، مكث هناك عشرة

أيام يغير على الأراضي الفرنجية، وبعدئذ قال: إن مؤننا لا تسمح لنا بالبقاء [اطول من ذلك] لأن معنا هذا العدد الكبير من النبلاء والعامة معاً. ثم عمد إلى شطر رجاله إلى قسمين، فأرسل المدنيين بحراسة أخيه بوري عبر منعطف آمن نحو الشرق فيما تقدم هو إلى الكرك[٤٢]. واستناداً إلى وليم، توقف صلاح الدين في جربة وهو اسم مشتق من وادي جربة الذي يقع على مسافة حوالي ١٠ أميال (١٦ كلم) من الحد الجنوب من قلعة الشوبك التي وصل إليها بعد عشرين يوماً[٤٣]. وزعم وليم أيضاً أنه لو منعه الفرنجة من الوصول إلى الماء الذي وجده هناك لكان عليه أن ينسحب لأن «اعداد المدنيين المرافقة» كانت كبيرة بحيث انهم يفتقرون إلى ما يكفيهم من الماء[٤٤]. ويوجد هنا تناقض، لأنه بالنسبة لرواية عماد الدين، لا بد أن تكون قواته قد سبق لها أن انقسمت، ولكن مجموع العشرين يوماً معقول. وصحح اسم القريتين باسم القُرين[٤٥]، وتقع على مسافة حوالي ٦ أميال (١٠ كلم) إلى شمال ممر عشتار على طريق معان ـ العقبة، الواقع على مسافة آكثر من ٣٠ ميلاً (٤٨ كلم) إلى الجنوب من الشوبك و ٥٠ ميلاً (٨٠ كلم) من العقبة. ومن المعقول إعطاء صلاح الدين ٥ أيام للقيام برحلته إلى ايلة و ٤ إلى القريتين/ القرين، و ١٠ للقيام بالغارات ويوم واحد للانتقال إلى جربة.

والأمر الذي دعا وليم إلى الاشمئزاز هو أن الفرنجة لم يكونوا مستعدين لتحدي صلاح الدين لا في جربة ولا في تقاطع وادي حسا الواقعة على مسافة حوالي ١٥ ميلاً (٢٤ كلم) إلى الجنوب من الكرك. وكتب صلاح الدين يخبر عز الدين عثمان في عدن أن الفرنج خرجوا ليسدوا عليه الطريق، ولكنهم انسحبوا بعد ذلك وكانوا فقط مستعدين للقتال من وراء التحصينات[٤٦]. ومن الممكن أن يكونوا أملوا في أن يستغلوا وجود المدنيين معه، ولكنهم عمدوا إلى اتخاذ جانب الدفاع حين تبين لهم أن قواته انشقت. وكان وليم على خطأ حين ألمح إلى أن الجيش الاسلامي برمته يمكن أن يكون قد عاد إلى جربة. ولكن الأمر ينسجم مع رسالة صلاح الدين إذ كان الفرنجة استكشفوا هذا الجزء ثم انسحبوا حين رأوه منظّماً للقيام بمعركة. ومع ذلك، فليس هذا سوى مجرد حدس. وما هو واضح هو أن القيمة الاستراتيجية لحشدهم ذهبت سدى. ولم يهاجم صلاح الدين الكرك ذاتها، بل انضم إلى بوري بأمان في القصر الازرق الواقع على مسافة حوالي ٥٠ ميلاً (٨٠ كلم) إلى الشرق من عمان. وفي نفس الوقت شُنّ هجوم على الضفة الغربية من نهر الأردن التي لم تكن محمّية.

فقد استغل فروخ شاه في دمشق انتهاء فترة الهدنة ليشن غارة. واستناداً إلى وليم الصوري جرى تعزيزه بجنود من بصرى وبعلبك وحمص، وقام باستعداداته بشكل سريع بحيث لا يضيّع ميزة المفاجأة. واثناء وجود الفرنجة في الكرك، اجتاز نهر الأردن وهاجم دبورية (الخريطة ٢) الواقعة في سفح المنحدرات الغربية لجبل طابور. كان الوقت موسم الحصاد. وكان الرجال قد جاؤوا من المناطق المجاورة ليشاركوا في العمل. واستيقظ السكان ذات صباح ليجدوا المدينة مطوّقة. ومع أنه كان لديهم متسع من الوقت ليلوذوا بالبرج، فقد دك البرج بسرعة وجرى أسر ٥٠٠ رجل منهم[٤٧]. ووصف صلاح الدين المكان بأنه كان فيه حصن منيع ومستوطنة بحجم مدينة. وقال إن فروخ شاه أرسل مغيريه فتوغلوا حتى بلغوا أراضي عكا، وقتل أو أسر ١٠٠٠ رجل وامرأة، وطرد ٢٠,٠٠٠ رأس ماشية بقربة، وثيران حراثة[٤٨].

كان نجاح فروخ شاه الرئيسي الآخر استيلاءه على القلعة المغارة حبيس جلدك الواقعة على مسافة ١٤ ميلاً (٢٣ كلم) إلى الشرق من بحرية طبرية. وتتكون هذه القلعة من عدد من الحجرات المفرّغة في جانب جُرُفٍ يطل على وادٍ يجري جنوباً إلى نهر اليرموك. والريف المجاور، كان خصباً، والاستيلاء على حبيس جلدك يؤمن لهم، بالاضافة إلى قيمتها العسكرية، نصيباً من محاصيل حبوبها. واشتبه الفرنجة الخائبون، في البداية، أن فروخ شاه اشترى استسلام القلعة بالرشوة، ونقلوا اللوم بعدها ليضعوه على «السوريين»[٤٩]، الذين كانت الحامية بأمرتهم والذين استسلموا حين استولى رجال فروخ شاه على أكثر الحجرات انخفاضاً ثم شرعوا يشقون طريقهم عبر النفق نحو الحجرات الأخرى. وثبتت هذه الرواية جزئياً من قبل صلاح الدين الذي كتب يقول إن المكان أُخذ بالنسف بالألغام، ثم تابع قائلاً بأن فروخ شاه ترك «حامية كبيرة» لتتولى حمايتها[٥٠].

ذهب فروخ شاه بعد القيام بغاراته، ليقابل صلاح الدين في بصرى، ومنها انتقل صلاح الدين إلى دمشق التي وصلها في ٧ صفر ٥٧٨/ ٢٢ حزيران، أي بعد ٤٢ يوماً من مغادرته مصر. وبعد انقضاء أقل من ثلاثة أسابيع عاد إلى التحرّك من جديد، لا يجد راحة، وفقاً لرواية عماد الدين، إلا في العمل[٥١]. كانت لديه قوة عسكرية مشتركة من المصريين والسوريين قسمها إلى ثلاث فرق، الميمنة بأمرة تقي الدين، والميسرة بأمرة فروخ شاه، والقلب بأمرته هو[٥٢]. وغادر دمشق في ٧

ربيع الأول/ ١١ تموز، وفي مساء ٨ ربيع الأول/ ١٢ تموز عسكر على الضفة الشرقية من الأردن عند أسفل البحر الميت، في موقع يهدد منه مدينة طبرية المجاورة. وكان ريموند صاحب طرابلس الذي تزوج من سيدة طبرية، مريضاً، ولكن تعزيزات استدعيت من قلعتي صفد في الشمال وكوكب في الجنوب، ودخلت هذه التعزيزات المدينة ليلة ٨ ـ ٩ ربيع الأول/ ١٢ ـ ١٣ تموز. وسمع صلاح الدين بذلك في ٩ ربيع الأول/ ١٣ تموز. ولما كان يأمل في القيام بمعركة، فقد أرسل ميسرته بقيادة فروخ شاه لتجتاز إلى غرب الأردن. فلم يكن من رد فعل، فأخبر بغداد بأنه وجد نفسه ينادي أذن صمّاء. وبدلاً من أن يشن هجوماً على طبرية نفسها، قرر اجبار الفرنجة على الخروج، وذلك بقيامه بزحف في الاتجاه المعاكس انحداراً إلى الأردن للقيام بمهاجمة بيسان المواقعة على مسافة حوالي ١٥ ميلاً (٢٤ كلم) نقطة بعيدة في الجنوب. ورحل مساء ٩ ربيع الأول/ ١٣ تموز، وفي اليوم التالي صدرت الأوامر إلى فروخ شاه كي يبدأ الهجوم على بيسان، بينما كان صلاح الدين ينتظر قوة مساندة في طبريا. وبعد نهب المدينة، شرع فروخ شاه في تلغيم الحصن، ولم يثنه عن ذلك، وفقاً لوليم الصوري، سوى المقاومة الشرسة التي ابداها أفراد الحامية. وفي الواقع، لم يصل هجومه إلى غايته، لأن أنباء وردت الآن تفيد أن الفرنجة بدأوا تحركهم.

تقدمت القوة المساندة نزولاً عبر وادي الأردن، وكان النهر إلى يسارها، والتلال التي تقوم عليها كوكب إلى يمينها. ولم يحدث أي قتال جدي خلال زحف اليومين الأولين. وفي المساء عسكر الفرنجة على جانب الهضبة بدلاً من أن يغامروا في التعرّض لهجوم مفاجىء ان هم بقوا في قعر الوادي. وفي مستهل ربيع الأول/ ١٥ تموز، ولما كان «الفجر قد طلع عليهم بغضب، واستل الشرق سيفه في وجههم»، رآهم المسلمون ينحدرون من التلال. وكتب وليم الصوري يقول انهم وصلوا إلى السهل بين بيسان والطيبة حديثاً، وقال صلاح الدين أنهم كانوا ينوون الزحف على جبل طابور. ويمتد وادي يارود من بيسان باتجاه الغرب بين الجبال الجنوبية، وفي الشمال لسان عريض من الأرض المرتفعة التي تتابع على الخط الممتد باتجاه الاردن. وتقع كوكب على الرأس الشرقي لهذه السلسلة من التلال مطلةً على وادي الأردن، وعلى مسافة ٧ أميال (١١ كلم) إلى الشمال من بيسان. ولا بد أن يكون الفرنجة، في زحفهم من طبرية، قد تجاوزوها وعسكروا في نقطة أكثر قرباً من بيسان في الزاوية الجنوبية الشرقية من التلال، حيث يتصل وادي

يـارود بوادي الأردن. وإذا صح ظن صلاح الدين حول خطـة زحفهـم، فمـن المفروض أنهم عزموا على جـر المسلمين وذلك بقيامهم بالتحرك غرباً بمحاذاة وادي يارود، ثم الانعطاف شمـالاً خلف الجبـل حيث يتيح لهـم اجتياز الأرض العالية الظهور باتجاه طابور.

لم يعط صلاح الدين تقديراً لأعداد قوته العسكرية، غير أن وليم الصـوري كتب يقول إن صلاح الدين كان لديه ٢٠,٠٠٠ مقاتل، وهـي أكبـر قوة عسـكرية إسلامية رآها الفرنجة منذ مجيئهم الأول إلى سوريا. ولكي يقابـل الفرنجـة تلك القوة، لم يكن لديهم سوى ٧٠٠ رمّاح وعدد غير محدد من المشاه. وحينما نزلوا من منحدر التل رأوا جناح تقي الدين عن بعد، وقلب الجيش الإسلامي متوقفاً ينتظر قدوم صلاح الدين الذي كان مشغـولاً بتنسيق خطتـه التـكتيكية. وحين أدرك أن الفرنجة كانوا عازمين على التحرك نحو الغرب أصدر أوامره إلـى فروخ شاه لسـد الطريق في وجههم وكانت ميمنة تقي الدين تحرس، على ما يبدو، وادي الأردن في حال ارتد الفرنجة إلى الوراء سائرين بمحاذاته إلى طبرية. كان الآن جاهـز التـنظيم، وكان الفرنجـة مطوّقـين من جهـات ثلاث، حيث كان فروخ شاه في الجهة الغربية، وتقي الدين في الجهة الشرقية، وصلاح الدين في الجهة الجنوبية. وقام الخيالة من الفرنجة بالمهاجمة فاستخدم صلاح الدين العدد الاضافـي من رجالـه لاحتوائهم ولمهاجمة المشاة الذين كانوا ينتظرون خلفهم. وكان وليم الصـوري على حق في تفكيره بأن المسلمين كانوا يحاولون تطويق القوة الفرنجية، ومع أن صلاح الدين ذكر أن المشاة تفرقوا على جانب الهضبة، فإن محاولة التطويق لم تنجـح. وبعـد قتـال قاسٍ بعض الشـيء، تمكنـت القـوة الفـرنجية بكاملهـا من الانسحاب إلى أعلى المنحدر وإلى قلعة الطيبة الواقعة على مسافة أربعـة أميال ونصف الميل (٧ كلم) إلى الغرب من كوكب، تاركين صلاح الدين يشكو من أن حر الظهيرة سرق منه الانتصار الكامل. وردد وليم الصوري ملاحظته حول الحر كاتباً يقول إن من ماتوا من ضربة الشمس من كلا الجانبين يساوون عداً من ماتوا في ساحة المعركة. ثم تابع يقول ان عدداً قليلاً من الفرسان، ولكن عدداً كبيراً من عامة الناس، من الجانب الفرنجي قد سقطوا في المعركة. وعمد المسلمون إلى دفن موتاهم أثناء الليل ليخفوا خسائرهم. ولكن قدرت هذه الخسائر بحوالي ١٠٠٠ رجل. ولم يشر صلاح الدين إلى الاصابات، ولكن عماد الدين كتب يقول إنه «في هذه المجابهـة الشرسـة... المحطمـة

للعدو. . . استشهد عدد من المسلمين». وامضى المسلمون ليلة المعركة، أي ليلة ١١ ـ ١٢ ربيع الأول/ ١٥ ـ ١٦ تموز، معسكرين قرب الطيبة. غير أن صلاح الدين بدا غير راغب في دفع الأمور إلى حد أبعد. وفي ١٤ ربيع الأول/ ١٨ تموز عاد فاجتاز الأردن، وعسكر في الفوار في حوران.

لم يبق الجيش طويلاً في الفوار الذي تبّين أنه موبوء بالافاعي والضفادع، وحيث كان «الماء ثقيلاً، والهواء وبائياً»[٥٣]، و «سوق الأطباء يمارس تجارة مزدهرة»[٥٤]. وانتقل صلاح الدين إلى مناطق صحيّة في رأس الماء التي تقع على مسافة ٣٥ ميلاً (٥٦ كلم) إلى الجنوب من دمشق، ومن هناك ذهب شمالاً إلى البقاع. ولم يكن الفرنجة، الذين تجمعوا الآن في صفوية إلى الجنوب من تلال الناصرة، واثقين من نياته[٥٥]. فاعتقد البعض أنه كان يستعد لمهاجمة بيروت، وناقش البعض بأنه كان منشغلاً بقضية حلب، وظن عدد من المستشارين الحسني الاطلاع أن حرباً ستقع مع الموصل لأنه أفيد بأن عز الدين مسعود سيحاصر المدن الايوبية في منطقة الفرات. وفي الواقع، كانت كل من هذه النظريات صحيحة. إذ أن صلاح الدين أرسل من وادي البقاع دوريات إلى أعالي سلسلة جبال لبنان حيث يمكنها من هناك أن تراقب الاسطول الذي أرسل في طلبه من مصر. وحين جاء هذا الأسطول، اجتاز هو نفسه الجبال وهاجم بيروت، بينما كان العادل في الجبهة الجنوبية قد جلب عساكر مصريين ليقوم بغارات حول داروم وغزة. وبدت هذه المعركة جديّة ومنسقة تنسيقاً جيداً[٥٦]. كان لدى المصريين ثلاثون سفينة شراعية كبيرة ذات مجاديف، وفاقاً لرواية وليم الصوري، وأربعون، وفاقاً لرواية صلاح الدين[٥٧]. وكانت السفن الفرنجية ما زالت تُجّهزُ في عكا وصور. ولم يكن لدى بغدوين عدد كافٍ من الرجال يسمح له باعتراض العادل وصلاح الدين معاً. ومن أجل أن يوقف تحرك أي قوة منجدة إلى بيروت أصدر صلاح الدين أوامره إلى فرقة من الخيالة للاحتفاظ بالطريق الساحلية، حيث أفيد بأن الفرنجة كانوا يسدون الممرات الضيقة بالحجارة. اضف إلى أن صلاح الدين نفسه لم يجلب قافلة حصار، الأمر الذي دفع الفرنجة إلى التساؤل عمّا إذا كان شديد التفاؤل أو أنه كان يعتقد بأن ليس لديه متسع من الوقت ليستخدمها. ولكن يتضح من الوصف الذي قدمه وليم الصوري أن هجومه على بيروت لم يكن مجرد تظاهرة. لقد استخدم اعداده الكبرى ليقوم بضغط مستمر لا يسمح للحامية بأن ترتاح. «فإنهالت سهامه

على المدينة والأسوار كحب البرد»[٥٨]، وسعى لغامّوه جهدهم ليلغموا الأسوار. وحفرت الحامية، مع ذلك، خنادق الغام مضادة ناجحة. وجرى التخلي عن محاولة القيام بالهجوم بواسطة سلالم التسلق حين جرح الأمير الذي اقترح القيام بهذا الهجوم. أثناء ذلك، كان بغدوين الذي قرر تجاهل العادل، قد وصل إلى صور في طريقه إلى الشمال. وبعد ثلاثة أيام من الهجمات سحب صلاح الدين رجاله. وامضى اليوم الرابع ينزل ما وسعه من الاضرار ببلدٍ محاصر، ثم اختفى فوق الجبال[٥٩]. وكتب ابن شداد يقول إنه «لم ينل منها غرضاً»[٦٠]. وشرح عماد الدين بأنه أدرك أن حصار بيروت سيكون عملاً طويلاً[٦١]، وانه هو نفسه أخبر بغداد بأنه انسحب بنية العودة حين يتخلص من الهموم الأخرى.

إن الاستيلاء على بيروت، لو تم، لكان انتصاراً رائعاً، ولكن صلاح الدين بالكاد يستطيع أن يأمل في الاحتفاظ بها لو أنها سقطت في يده. وربما كان قد ترك خياراته، عن قصد، مفتوحة، إما لشن غارة إذا سنحت الفرص، أو لنهب الريف والانسحاب. إلا أن الامكانية الأخرى كانت أنه غير خططه خلال الحصار ذاته لأنه، حدث الآن، بالاستناد إلى ابن الأثير، أن تلقى مظفر الدين كوكبري[٦٢] دعوة لعبور الفرات.

وكان من الواضح، قبل أن يتحرك صلاح الدين من مصر، أن الفرنجة لم يكونوا همه الرئيس والمباشر. فتابع حملته الدعاوية السابقة بالكتابة إلى الخليفة، قبل نهاية فترة الهدنة مع الفرنجة يقول إن «الكفار في الأجزاء البعيدة» قد اتحدوا، وكانوا عازمين على إرسال جيوش جرارة إلى الساحل؛ وسيكون في حاجة للمساعدة من جانبي حلب والموصل، لأنه سيكون مضطراً للحصول على جند من أجل حماية مصر من غزو محمولٍ بحراً، وحماية دمشق من فرنجة الساحل، وحماية حماة وحمص من طرابلس وتل باشر، وحماية رعبان والراوندان من الأرمن، ونتيجة لذلك ستتفرق قواته الخاصة في حين أن «الأمراء والسلاطين المسلمين يغطون في النوم في ممالكهم». وان حلب عقدت معاهدة هدنة مع الأرمن ومع بوهيمند، فيما عقد قلج أرسلان هدنة مع البيزنطيين[٦٣].

وحين كتب إلى الخليفة في ربيع الأول/ تموز حول هجومه على بيسان، وقال إن

المسلمين بدأوا يعتادون العيش مع الفرنجة وكأنهم بعد الصيام قد وصلوا إلى العيد. وأضاف انه ذهل، وثار غضباً على هؤلاء المسلمين الذين يعادون الإسلام! وأورد مثلاً ان سيد ألبيرة [شهاب الدين محمد الارتقي] أحد أفراد عائلة وفيه قدمة، طلب حمايته، ورغب في الجهاد، إلا أنه كان في حينه قد حوصر وأحيل إلى عسر يائس من قبل ابن عمه الغازي صاحب ماردين الذي أعطاه عز الدين صاحب صلاحية مهاجمته الموصل. وأضاف صلاح الدين أن إحدى فضائل سيد البيرة كانت أنه «لم يدّع أبداً أن مدينته كانت ميراثاً» وتلك إشارة إلى حجته بأن الأمراء الصغار من الزنكيين لم يكن لديهم الحق في أن يرثوا مدناً كالموصل وحلب، اللتين كانتا في إنعام الخليفة. كما أنه أشار إلى أنه من سوء السياسة أن تستخدم القوات المصرية من أجل حماية سوريا لأن هذا يظهر ضعفاً بالنسبة للعدو؛ ولمصر اعداؤها الخاصون، العلنيون منهم والسريّون؛ والحل الوحيد يكمن في توحيد سوريا[٦٤]. وفي رسالة أخرى، حررت بعد القيام بالغارة على بيروت، شكا من المساعدات المالية التي تقدم للحشاشين «للاجهاز على حياة صديقه وسيده «قائد المؤمنين» (ربما هو نفسه)، وشكا من أعطاء الحصون إلى الفرنجة من أجل هزيمة الجيوش التي كانت في خدمة الخليفة، كما شكا أيضاً من الهجوم على ألبيرة[٦٥].

١٢ - الاستيلاء على حلب

أرسل صلاح الدين لدى عودته من بيروت فروخ شاه إلى دمشق لمراقبة الجبهة الفرنجية. وقيل لتقي الدين بأن يتدبّر أمن حدود حماه ـ طرابلس، ثم ينضم إلى صلاح الدين. أما صلاح الدين نفسه فقد سار إلى بعلبك. لم يكن في عجلةٍ من أمره. فقد شرح لبغداد فيما بعد بأنه تعمد أخذ أربعين يوماً ليتحرك من أراضيه إلى الفرات، علماً بأن وقتاً أقصر كان يكفي «لإيقاظ الحمقى، وتنبيه الغافلين»[1]، وعلى هذا الإفتراض لا بد أن يكون قد إنتقل من جوار بعلبك في مطلع ربيع الثاني/ نهاية الأسبوع الثاني من شهر آب. واستناداً إلى عماد الدين، ذهب إلى حمص ماراً بزرعة في الطرف الشمالي من وادي البقاع[2]، ودار هنا في حلقة، لأنه في ٦ أيلول كان في «صدد» الواقعة على مسافة حوالي ٢٠ ميلا (٣٢ كلم) إلى الجنوب الشرقي من زرعة على الجانب القصي من سلسلة جبال لبنان الشرقية (الخريطة ٨). وتشرح رسالة أرسلها من صور إلى شخصٍ غير مسّمى، سبب بطءِ سيره والغاية من ذلك، وكتب يقول إن تعزيزات مستمرّة كانت تصله، بما فيها عساكر من الجبهات بحيث إنه، بعون الله ورحمته، كان لديه من الرجال أكثر من أي وقتٍ مضى. كان «أمراء البلدان» يرسلون إليه المبعوثين ويأتون للإنضمام إليه، يحملون جميعاً «آمالاً عريضة»، وجميعهم يرجون أن يستقبلوا بالحفاوة؛ وكان لحملته دافعان، أولهما الإستيلاء على أراضٍ يمكن إعطاؤها كإقطاعات لأولئك الأمراء الذين، خلاف ذلك، سيفرقون ـ وهو قول فرنجي حول الوضع التوسعي، وثانيهما عناد وتسويف الحلبيين والموصليين الذين

كانوا يتطلعون إلى مساعدة «تأتي ممن هم وراءهم والذين كانوا أضعف وأقلّ عدداً منهـم أنفسهـم»، وهـي إشـارة تحقير للبهلوان. وكانْ صلاح الـدين قد قدم لهـم مستوطنة، ولكنهم ردّوا بغضب، وهكذا كان عليه أن يتحرّك على الرغم من البرد والمطـر ومن الثلوج المتراكمة على قمم الجبال(٣).

وليس هنالك من داعٍ للشك في أن العديد من الأمراء بعثوا برسائل في ذلك الوقت إلى صلاح الدين، ولكن عرف أن بكتاش صاحب كفر لاتا المغمور نسبيّاً، إنضم إليه(٤). ومع ذلك، قابل بالقرب من حلب مبعوثاً من مظفر الدين كوكبـري الذي وصل هو نفسه فيما بعد. كان ذلك ذا أهمية حاسمة بالنسبة لمستقبل صلاح الدين. كوكبري هو ابن للمدير الإداري السابق للموصل، زين الدين، وكان قد قاد جناحاً ضد صلاح الدين في معركة تل السلطان وأدى به الطموح إلـى خداع نفسه في هجوم فاشل على قلعة حلب، غير أن عز الدين صاحب الموصل، تركه يحتفظ بمدينة حرّان وقلعتها. وهو الآن يستعد لتبديل الإتجاهات، فقيل إنه بعث برسالـة إلـى صلاح الـدين خلال الهجـوم علـى بيروت يدعـوه فيهـا إلـى إجتياز الفرات(٥). وجاء يلاحق قضيته في مقابلة شخصية. وكانت حجته أن حلب ستترك معزولةً إن وطد صلاح الدين نفسه شرقي الفرات. وإستناداً إلـى عمـاد الـدين، قال: «إن هذه الأراضـي هي ملك لك... إن لديك محبـة شاملـة، ورهبـة كاملة... فهل سيقدم أحد على عصيانك حـين أكون أنـا، أنا؟»(٦). وقـد تكون هذه النصيحة تطابقت مع رغبات صلاح الدين الخاصة. ولم يكن لديه داعٍ لأن يكون متفائلاً حول فرصه في أخذ حلب. فان حصاراً لحلب في عز موسم البرد، يمكن أن يعمـل على تشتيت مجنديه الجدد. وكلما طال أمد تغلّبه على مقاومـة المسلمـين له، كلما قلّ قبـول الاعتراف بالجميل الذي كان يتطلع إليه كقائد مسلم حينئذ. وفي المقابـل، فإن الحملـة المربحة على شرقي الفرات حيث يمكن لكوكبري أن يرتب على الأقـل بعض المظهـر من الترحيب الشعبي سوف تكون فرصة لتقوية شعبيته من جهة ولدعمه اعـلامياً من جهـة أخرى؛ وقد تحقق له، بالمعنى العسكري، فرصاً سانحة أكثر مما تعرضه للأخطار. وكان الحلبيون يثيرون الرعب وهم يلوذون بأسوارهم الخاصة ويستطيعون أن يتدخلوا في طرق إتصالاته، غير أنهم لم يكونوا من القوة بحيث يوقعونه في الشرك إن هو تركهم خلفه. وإذا ما هاجم حلب، فقد تصل نجدة من الموصل، أمّا إذا إجتاز الفرات فقد يجبر عز الدين على إتخاذ موقع الدفاع.

وفي ١٨ جمادي الأولى ٥٧٨/ ١٩ أيلول ١١٨٢ وصل صلاح الدين إلى حلب، وانتشر جنوده إلى الشرق من المدينة، غير أنه لم يبلّغ عن نشوب قتال. فبدلاً من ذلك حاول صلاح الدين أن يجري مفاوضات مع زنكي، مقترحاً أن يقلب المبادلة السابقة فيستعيد سنجار التي هي الآن بحوزة عز الدين(٧). وبعد مضي بضعة أيام رحل صلاح الدين سائراً عبر تل خالد إلى ألبيرة، بعد أن ترك، على ما يظهر، مسألة ذلك التبادل مفتوحة الباب للتفاوض. وكان حصار البيرة من قبل سيد ماردين قد رفع في وقت سابق، فرحب شهاب الدين محمود بصلاح الدين وسلمه مفاتيح قلعته، فأعادها صلاح الدين إليه.

وكتب صلاح الدين الآن يخبر بغداد أن شهود عيان أفادوا بأن الموصليين عقدوا مع الفرنجة إتفاقية مدتها احد عشر عاماً، تعد بدفع مبلغ من المال سنوي قدره ١٠,٠٠٠ دينار، وباستسلام مراكز المسلمين الحدودية: بانياس، وشقيف تبنين وحبيس جلدك، وبإطلاق سراح جميع الأسرى الفرنج الموجودين لدى الموصليين أو في أراضٍ مستعادة من صلاح الدين. وكتب يقول إن الموصليين ظنوا أنه لن يستطيع القيام بمهاجمتهم إلا إذا عقد إتفاقية هدنة مع الفرنجة، ثم إنتقلوا هم أنفسهم إلى نصّيبين، في حين كان الفرنجة يخططون لمهاجمة سوريا. وللحؤول دون ذلك، تمركز فروخ شاه في رأس الماء، بينما أعطى العادل أمراً بالذهاب إلى التخوم الفرنجية. وتحرّك صلاح الدين ببطء مع جيشه المصري على أمل أن يتخلى الموصليون عمّا استولوا عليه، ولكنهم رفضوا ذلك مطالبين بأن تكون الملكيّة وراثية، ومتجاهلين حقوق الخليفة. ثم تابع يقول، إنه قابل، قرب الفرات، كوكبري صاحب حرّان «قائد جيوشهم»، كما قابل سيّديْ سروج والبيرة، وتسلم رسائل من أصحاب الإقطاعات الموصليين، ومن الناس الذين جرى الإستيلاء على ثرواتهم بواسطة ضرائب غير قانونية؛ وكانوا يتذمرون قائلين إنهم بالرغم من قربهم من كرسي الخلافة، فلا تسري بينهم أوامر الخليفة القضائية وأحكامه. وأضاف صلاح الدين بأن الموصليين قدّموا «بعض التساهل التي صرف فيها الإنتباه عن فضل الخليفة وعطفه» وهي إشارة أخرى إلى البهلوان، ثم أكد على التزامه بالجهاد وحاجات الإسلام وذلك بإعلام الخليفة عن هجمات الأسطول المصري على الموانيء السورية، والإفادة بأن عامة الشعب في البلاد الإسلامية كانوا يجهرون بالدعاوي إلى السماء طالبين العون(٨).

ومن البيرة سار شرقاً بإتجاه الرها. وكتب إلى كل من فروخ شاه والعادل يطلب إليهما أن يرسلا إليه مالاً لأنه يريد شعبية وليس نهباً للأمكنة التي كان يرجو الإستيلاء عليها. وأخبر العادل بأن ليس هنالك مقاومة منتظرة ـ «ليس علينا سوى الوصول إلى تلك المدن والتوقف هناك» ـ وكتب إلى فروخ شاه: «أسرع في جمع الأموال وإرسالها لأنه في كل مرة تفتح المدن أبوابها، تفتح الرغبات أفواهها»(٩). ولم يجب فروخ شاه أبداً. إذ أنه ذهب في حملة ضد الفرنجة، وأصبح خائر القوى، فسقط فريسة المرض، وعاد إلى دمشق حيث توفاه الله وترك سمعة طيبة في الكرم والسخاء، والشجاعة والإقدام، وولعاً بالآداب. كان صديقاً لصاحب الثقافة العالية تاج الدين الكندي الذي بدأت معرفته الشخصية به على أثر سماعه يشرح بيتاً من الشعر للمتنبي. واستشهد بالمتنبي في معركة مرجعيون أمام أحد الأمراء(١٠)، وكان هو نفسه شاعراً كفؤاً. واستناداً إلى عماد الدين، فإنه كان رجلاً يعتمد صلاح الدين عليه(١١). ويضيف ابن الأثير: وكان إعتماده عليه أكثر من جميع أهله وأمرائه(١٢). وكان موته ضربة موجعة لخطط صلاح الدين الرامية إلى إحتواء الفرنجة، غير أن حملة الموصل كانت قد تقدمت إلى درجة لا تسمح بأي تراجع. وأرسل صلاح الدين «أميره الكبير»(١٣) ابن المقدّم، ليتولى مسؤولية دمشق عوضاً عنه، في حين ثبّت بهرام شاه بن فروخ شاه، في ملكيته لبعلبك.

كانت مدينة الرها في عهدة القائد السابق لجيش نور الدين، فخر الدين مسعود بن الزعفراني، وكما مر معنا، عمل مدة قصيرة في خدمة صلاح الدين في العام ٥٦٩/ ١١٧٤، وقاوم الآن طويلاً محاولة تسوية الخلاف والعودة إلى الخدمة لديه، وعلى أثر ذلك، وفاقاً لأبن الأثير، صالح قائد القلعة (الدزدار) على مال أخذه فاستسلم(١٤). وعز الدين صاحب الموصل الذي إنتقل غرباً من نصيبين لى دارا، عاد حين إجتاز صلاح الدين الفرات، ولكنه أرسل جنوداً لتعزيز الرها، غير أنهم أخفقوا في الوصول في الوقت المعين، ولعلهم عادوا إلى الموصل، غير أن صلاح الدين لم يلاحقهم. وعوضاً عن ذلك إستدار في زاوية قائمة وسار مجتازاً حرّان، ونزولاً بمحاذاة نهر البليخ إلى الرقة على مسافة تبعد حوالي ٩٠ ميلاً (١٤٥ كلم) على نهر الفرات. وكانت الرقة نقطة تقاطع هامة، وربما أراد إصلاح الدين أن يقوي خطوط إتصالاته جنوبي حلب. ومع ذلك، يجب أن نلاحظ أنه كان يتبع طريق الحملة الشتوية لنور الدين في العام ٥٦٥/ ١١٧٠، حيث لم يكن هنالك

أي خطر من الخلف؛ ولعل الدافع في كلتا الحالتين كان دافعاً نفسياً، وهو تحويل الحملة العسكرية إلى تقدم إنتصاري. وكانت الرقة في حوزة العدو القديم لصلاح الدين، قطب الدين ينال [بن حسان]، الذي إنتزع من صلاح الدين منبج في ٥٧١/ ١١٧٦. ولما رأى قطب الدين حجم قوات صلاح الدين لم يحاول المقاومة إلا قليلاً واستسلم شرط الإحتفاظ بملكيته الخاصة. وعمل صلاح الدين بسرعة على التأثير على السكان بواسطة فوائد حكمه فأصدر مرسوماً يعلن «أخباراً طيبة» لرعاياه؛ فأحيط جميع حكامه علماً بإلغاء ضرائب المكوس ومحو كل ذكر لها من سجلات الخزينة لأن «أشقى الحكام هم أولئك الذين سمنت خزائنهم ونحلت أجسام شعبهم»؛ ويجب أن يقرأ هذا الالغاء علناً في بيت الله؛ بحيث تستطيع أن تُشهدَ عليه الملائكة(١٥).

وانتقل صلاح الدين من الرقة سائراً عبر وادي الخابور الخصب ولكن غير الصحي، والذي وصف أحد المسافرين المعاصرين سكانه بالأحياء الأموات(١٦). وهنا استولى على الفودين والحسين ومكسين ودورين وعربان وعلى مدينة الخابور نفسها، وكل هذه المدن تقع في حدود ٨٠ ميلاً. ليس هنالك من تقارير عن قتال، والتفصيل الوحيد الذي أضافه عماد الدين هو أن صلاح الدين قابل «القضاة والقادة، ورجال ونساء عَرَبان»، وأن مدينة الخابور حينئذٍ أعلنت ولاءها(١٧). وكان لصلاح الدين أثناء سيره بمحاذاة النهر صعوداً الخيار بين الطرق المفتوحة أمامه. فكان بإمكانه أن يسير شمالاً تحت جبل سنجار الذي كانت على جهته الجنوبية تقع مدينة سنجار نفسها. وكان الطريق الذي يتجه غرباً بمحاذاة المنطقة العليا من وادي الخابور يؤدي إلى رأس العين، حوالي ٥٠ ميلاً (٨٠ كلم) إلى الشرق من حرّان، التي هي في الواقع، مدونة على لائحة غزوات حملته. ولا يظهر، مع ذلك، أن صلاح الدين ذهب إلى هناك بنفسه. وأفاد عماد الدين أنه إجتاز الجسر في التُنَيْنير، ثم سار حوالي ٤٠ ميلاً (٦٤ كلم) بالإتجاه الشمالي - الشرقي إلى نصيبين(١٨). ولم تكن نصيبين نفسها ذات أهمية كبيرة. فقد وصفها ابن جبير الذي زارها بعد ذلك بسنتين بأنها «ذات متوسطة بين الكبر والصغر، فخارجها أندلسي الخمائل وداخلها شعب البادية بادٍ عليه، فلا مطمح للبصر إليه»(١٩). وعلى الرغم من ذلك، كان لها موقع إستراتيجي هام بين ماردين والموصل، وفي متناولٍ سهلٍ للمدن الشمالية في ديار بكر (الخريطة ١)، وكانت القاعدة التي كان نور

الدين قد جمع فيها جيوشه من أجل زحفه على الموصل. ولم تبد المدينة أية مقاومة، فاستسلمت قلعتها على الفور. حينئذٍ عقد صلاح الدين مجلساً إستشارياً لإتخاذ قرار حول تحرّكه التالي. واستناداً إلى ابن الأثير، كانت الخيارات أمامه هي مهاجمة سنجار، والموصل ذاتها، وجزيرة ابن عمر التي كانت تقع في حدود ٦٠ ميلاً (٩٧ كلم) عن نصيبين على نهر دجلة والتي كانت قد أعطيت إلى الأبن البكر لسيف الدين غازي. وأضاف ابن الأثير أنه بالنظر للأخبار الواردة من الغرب، إقترح عدد من الأمراء وجوب التخلي الآن عن الحملة بكاملها[٢٠]. وفي حلب كان زنكي يقوم بلعب دور الفأرة تجاه قطة صلاح الدين[٢١]. فحين اختفى صلاح الدين عبر الفرات، خرج زنكي ليغير على الشمال والشرق، مدمّراً القلعة في بالس ومحرقاً جسر الفرات في قلعة جعبر (الخريطة ٨). وهاجم منبج وقلعة نجم. وبعد أن إجتاز نهر الفرات أغار على سروج. وفي حملة ثانية خرّب قلعته الخاصة في أعزاز ودمّر التحصينات في الكرزين وبزاعة. وهاجم تل باشر الذي إنضم سيده دالدريم الياروقي إلى صلاح الدين، ثم سار جنوباً إلى حلب لأخذ كفرلاتا من مجنّدٍ آخر من مجنديه هو الأمير بكتاش.

أثناء ذلك كان الفرنجة يتسقطون أنباء تقدّم صلاح الدين[٢٢]. لقد سمعوا بأن الإستيلاء على الرها وحرّان «والمنطقة كلها تقريباً التي كانت تحت نفوذ سيد الموصل»، لم يكلفه سوى بضعة أيام، وان ذلك تم بالترغيب والترهيب على السواء. وقيل إن سيد الموصل قد تخلى عنه مناصروه. وقالت رواية بأنه جرت محاولة لتسميمه. وزعمت تقارير أخرى، مع ذلك، أن قادة شرقيين اتحدوا معاً وأن جيش صلاح الدين عومل بخشونة. ولا يذكر وليم الصوري موت فروخ شاه، ولكن لا بد أن يكون هذا الأمر قد تناهى إلى علم الجواسيس الفرنجيين، وليس من المستغرب أن يقرر الفرنجة استخدام فرصتهم السانحة لكونهم أكثر الناس نقمة، كما قال وليم، لأن صلاح الدين تجاسر على الرحيل دون أنِ يقيم معاهدة هدنة مع الملك. وفي رجب/ تشرين الأول ١١٨٢، أغاروا عالياً فوق طرف نجد الحُمم في لجات في حدود ١٠ أميال (١٦ كلم) عن نقطة معسكر صلاح الدين في رأس الماء، واستولوا في طريق عودتهم على حبيس جلدك، حيث تبيّن أن «حامية فروخ شاه الكبير، كانت مكونة من سبعين «رجلاً محارباً قوياً»[٢٣] والتي سلّمت المكان مقابل إعطائها ممرّاً آمناً إلى بصرى.

ولم يذكر عماد الدين خسارة حبيس جلدك، ولا بد انها كانت مصدر ألم لصلاح الدين، الذي كان قد امتلكها لمدة تقل عن ستة أشهر، غير أن الغارات المتفرقة لم تكن كافية ليعود فيحررها. وأشار عماد الدين إلى تدفق البعثات الدبلوماسية والجيوش إلى نصيبين[٢٤]. وكانت الخدمات التي أداها نور الدين محمد صاحب حصن كيفا قد دفعت ثمناً للوعد بآمد، كما أن عدداً من الأتراك والأكراد المأجورين من قبل الموصل فرّوا ليلتحقوا بالغزاة. واستناداً إلى ابن الأثير، كان كوكبري وناصر الدين محمد صاحب حمص يلحّان على القيام بهجوم حاسم[٢٥]. وراهن كوكبري بإسراف على نجاح صلاح الدين وإذا خسر الرهان فسوف يكون من الصعب عليه أن يأمل في الدفاع عن نفسه شرقي الفرات. وكان ناصر الدين محمّد يتطلع إلى مركز أكثر استقلالية وسلطة، وقيل انه عرض أن يدفع لصلاح الدين ثمناً لإقطاعة الموصل. أما صلاح الدين نفسه فقد كان يستعد ليس للحصول على كسب مناطق فحسب، بل على سلامة موقعه في سوريا أيضاً، لأن سقوط الموصل سوف يؤدي إلى إسقاط حلب. ولعله تشجع بالدعم الذي تلقاه؛ وحتى الآن لم يكن قد واجه أي مقاومة جديّة. إذن، سار في أوائل شعبان/ تشرين الثاني من نصيبين عبر المنطقة المعروفة باسم بين النهرين، نزولاً بوادي المر إلى دجلة في «بلد»، على مسافة ٢٥ ميلاً (٤٠ كلم) إلى شمالي الموصل نفسها. وكان يمكن لعماد الدين حينئذٍ أن يتباهى بأنه في سنة واحدة «سقينا جيادنا من النيل ومن الفرات ومن دجلة»[٢٦].

في هذه الفترة، مع ذلك، كان على صلاح الدين أن يتغلب على صعوبة مزدوجة في مهاجمة مدينة كبرى وفي تبرير عمله. ففي حالة حلب كان بإمكانه أن يقول، حتى ولو لم يقنع أحداً، إن المستضيء نوى على تسليمها له. غير أن ذلك لم يكن بالإمكان تطبيقه على الموصل، ولا بد أن يكون الموصليون سعوا جهدهم لإيصال الأمر إلى الخليفة، حيث قيل إن وزيره مجد الدين الصاحب كان يجابههم. وقبل بضعة أيام من وصول صلاح الدين، أرسل ابن شدّاد الذي كان آنئذٍ في الخدمة الموصلية، يطلب النجدة[٢٧]. وقطع المسافة إلى بغداد، التي بلغت أكثر من ٢٠٠ ميل (٣٢٢ كلم) في خط مستقيم، في مدة ٥٠ ساعة وذلك في رحلة مائية عبر دجلة. غير أن مهمته لم تثمر. ذلك لأن الدور الذي إختاره الخليفة، في هذا الوضع الصعب، كان دور صانع السلام، فأرسل شيخ الشيوخ ليقوم

بمهمة التوسط بين الجانبين. وإستناداً إلى ابن شداد، وصل صلاح الدين إلى الموصل في ١١ رجب/ ١٠ تشرين الثاني[٢٨]. وقبل ذلك بثلاثة أيام، كان قد أشار في رسالة إلى بغداد إلى حقيقة أن الرسائل التي وردت من الخليفة سبق أن حثته على التفاهم مع عز الدين، وأضاف يقول انه لم يكن يفكر بألاّ يطيع أوامر الخليفة. والشروط التي ألح عليها كانت أن يعلن الموصليون الطاعة لله وللخليفة، ويساعدوا أصدقاء الخليفة، وينأوا بأنفسهم عن الأعداء، ويرسلوا المساعدات عند الحاجة. وكان رسول الخليفة (ربما شيخ الشيوخ أو أحد مرافقيه) في ذلك الوقت ينتظر في الموصل جواباً عن ذلك، والذي سينقله حينئذٍ إلى صلاح الدين[٢٩].

كان صلاح الدين، طبعاً، يقدم وجهة نظره فقط. فحذف أية إشارة إلى غزواته الحديثة، وإنّ أية موافقة على ما يبدو إنها شروط غير ضارّة تقدّم، سيكون من المفترض أن تستند إلى أساس قاعدة «كما تملك». ولم يكن بالإمكان التوقع بأن يقبل عز الدين ذلك، فبدأ صلاح الدين الآن الحصار. وفي حملة نور الدين الشتويّة السابقة استسلمت الموصل دون مقاومة حقيقية. وبعد معركة تل السلطان قيل إن سيف الدين غازي فكر في أن يتخلى عنها، إن هو أكره على ذلك. واستناداً إلى ابن الأثير، كان كوكبري قد نشر الإشاعة عينها في هذه المناسبة حول عز الدين[٣٠]. إلا أن عز الدين وقايماز، خلافاً لسيف الدين في عام ٥٦٦/ ١١٧٠، إتخذا خطواتٍ للدفاع. فَجُمِعَ الرجال والعتاد من المدن الموصلية المتبقية وهي جزيرة ابن عمر وسنجار وإربل، وأنفق قايماز مبالغ طائلة من ماله الخاص ورسم ابن الأثير صورة لهزيمة صلاح الدين في واحدة أخرى من ممارساته التحليلية. فجعل صلاح الدين يقول لكوكبري وناصر الدين محمد إنهما ضلّلاه، وأنه كان ينبغي أن يقوم بمهاجمة مدينةٍ أخرى بحيث يصون سمعته بأنه لا يقهر؛ فإذا هاجم الموصل وأجبر على الإنسحاب فستضيع الفائدة النفسية المرجوّة. وجُعل تقي الدين يقترح استخدام المناجق. ونقل عن صلاح الدين أن أجاب: «مثل هذا البلد لا ينصب عليه منجنيق، ومتى نصبناه أخذوه. . . من يقدر على الدخول للبلد، وفيه هذا الخلق الكثير؟»[٣١].

وبالطبع لا يمكن لصلاح الدين بعد خبراته في حلب أن يكون متفائلاً حين رأى أن الموصليين كانوا مصممين على القتال؛ ولكنه وضع جنوده في حالة

تأهب[٣٢]. كان أخوه بوري يتمركز في القطاع الشمالي الغربي، في حين كان هو نفسه ونور الدين محمد صاحب حصن كيفا يرقبان سائر الممرات الغربية والجنوبية. وأرسل تقي الدين ربما جرياً على تكتيك نور الدين، عبر نهر الفرات لسد الطريق إلى المدينة من الشرق. وكان هنالك بعض القتال، ولكن يبدو أنه لم يكن هجوماً جدّياً. وأفاد ابن الأثير بأن جاولي الأسدي أصيب بضربةٍ من (لالكّة) حذاءٍ ذي مسامير قذف به من السور ورفض أن يقوم بالهجوم، وبأن قايماز بعث بجيش إستعراضي يحمل أفراده مشاعل خلال الليل منطلقين من الباب الخلفي للقلعة، فيطفيء كل رجل مشعله، ثم يعود فيخرج بمشعل مضيء آخر[٣٣]. واستناداً إلى هذه القصة، أخاف هذا التكتيك صلاح الدين، ولكنه تحرك حفاظاً على كرامته.

كتب عماد الدين يقول إنه كان إلى جانب صلاح الدين حين أتى إلى معسكره شيخ الشيوخ مع شهاب الدين بشير وعدد من الموظفين الرسميين لدى الخليفة[٣٤]. ودوّن أيضاً وصول رسول من قبل شقيق البهلوان قزل أرسلان. وأضاف ابن الأثير أن مبعوثاً أرسل أيضاً من شاه ـ أرمن صاحب خلاط[٣٥]، وسرى خبر بأنه ستكون هناك تسوية صلح. ودب الذعر في قلوب الأتراك والأرمن الذين كانوا قد شايعوا صلاح الدين، فبدّلوا مواقفهم مرّة أخرى مستأذنين من عز الدين. وأضاف عماد الدين يقول: «إن عدداً من صحبنا الذين كانوا متلهفين للحصول على أوشحة الشرف فرّوا أيضاً من الخدمة». وفي نفس الوقت، تابع تقي الدين وبوري هجماتهما على المدينة، الأمر الذي سبب إزعاجاً لشيخ الشيوخ الذي طلب إليهم التوقف عن ذلك حتى يرسل رسلاً إلى الموصليين. وكان في هذه المرحلة، وفاقاً لرواية عماد الدين، أن إنسحب صلاح الدين، متظاهراً بأنه فعل ذلك نزولاً عند رغبة شيخ الشيوخ، «إلى مكان لم يكن بعيداً عن الرسل أن يبلغوه».

واستجابة لدعوة شيخ الشيوخ جاء الآن من الموصل مفاوضون إلى خيمته، فأرسل صلاح الدين الفاضل وضياء الدين عيسى وعماد الدين ليستمعوا إلى ما سيقولون. وأفاد عماد الدين بأن الموصليين أمضوا طوال اليوم الأول يتذمرون، ولكنهم وعدوا بأن يعودوا ببعض الطروحات. وقد تبيّن أن هذه العروض كانت طلبات في أن تعاد إليهم جميع الأراضي التي كانوا قد خسروها، وأن ينسحب صلاح الدين إلى الفرات، بحيث يمكن بعد ذلك أن يعقد مؤتمر صلح. وامتدت

المفاوضات على مدى قرابة الشهر من الزمن دون الوصول إلى أية نتيجة. وانسحب الفاضل بعد بضعة أيام، ولحق به عيسى، الأمر الذي أبقى عماد الدين يقوم بالمهمّة دون مساعدة أحد. وكتب قائلاً: «كان شيخ الشيوخ يتهمنا في أننا لا نريد أن نسوي الأمور. . . حينئذٍ وافقنا على كل شيء يريد، فتقرر أن يرد لنا الموصليون [كذا] مدينة حلب، وأن نرد لعز الدين كل شيء طلبه». وتقرر أن يدخل شيخ الشيوخ الموصل ليأتي بتأكيدٍ للقبول، ولكن الموصليين غيّروا موقفهم في هذه المرحلة، ونقل عنهم قولهم: «إذا كان صلاح الدين يرغب في الوصول إلى إتفاق معنا، فعليه أن يعيد إلينا أراضينا وينسحب منها. سنترك له ممراً آمناً إلى حلب، ولكن يجب عليه ألاّ يطلب منا نجدة ضدها، لأن لدينا عهداً يربطنا بأخينا عماد الدين زنكي».

إن إنسحاب مفاوضيه الرئيسيين يؤكد على ما يبدو أن صلاح الدين لم يكن يحمل هذه المفاوضات على محمل الجد. وكان الوضع في الحقيقة مأزقاً لا مخرج لأحد منه. ولم يكن بإمكان الموصليين أن يطردوا صلاح الدين، ولكنه كان يخسر رجالاً يفرون من الخدمة. ولم يكن بإمكانه أن يأمل في أخذ الموصل بالقوة؛ وإن هو انتظر في حصار طويل فإن موقعه في سوريا يمكن أن يصبح مهددا بالخطر، كما يمكن للحكام المشرقيين أن يتحدوا ضده. ومن الواضح أن عز الدين لم يوافق على شروط مخجلةٍ من غير داع، وكان على صلاح الدين أن يجد سبيلاً للإنسحاب، دون أن تصاب سمعته بالأذى، مع إحتفاظه ببعض الضغط العسكري. كان حله أن يهاجم سنجار الواقعة على بعد حوالي ٧٥ ميلاً إلى الشرق من الموصل، والتي هي في حوزة شرف الدين شقيق عز الدين، الذي كانت عساكره تهاجم خطوط إتصالاته[٣٦]. وأرسل تقي الدين في مقدّمة القوّة الرئيسة فإعترض طابوراً من التعزيزات الموصلية. واتبع سياسة صلاح الدين المعتادة حيال المسلمين، وهي أخذ أحصنتهم وعتادهم والإحتفاظ بقادتهم أسرى، وإعادة من تبقى راجلين إلى الموصل. حينئذٍ تحرّك صلاح الدين نفسه يرافقه مبعوثو الخليفة، فنشر رجاله حول سنجار. هنا جلب رجال الأكراد من القبائل الذين أحضرهم نور الدين محمد صاحب حصن كيفا، العار على أنفسهم وذلك بقطعهم الأشجار المثمرة في البساتين، وهو تصرف وصفه عماد الدين بأنه سلوك معاكس لتصرف

جنود صلاح الدين المنضبط. أراد صلاح الدين أخذ سنجار بأقل ما يمكن من الضرر، فحاول الآن أن يغري الحامية بالإستسلام، «مرسلاً أشخاصاً إلى القرب من السور ليتكلموا إليهم . . . ويلقنوهم الهداية الصحيحة ـ غير انهم لم يفهموا». بعد ذلك وجد نفسه مجبراً على المهاجمة بالمناجق والألغام، فنجح في فتح ثغرةٍ في التحصينات الخارجية (الباشورة)[٣٧]. وهنالك تناقض في الروايات عمّا حدث بعد ذلك. فابن الأثير يشير إلى أعمال الغدر من جانب أحد الأمراء الأكراد في الحامية، أما ابن شداد الذي يؤرخ سقوط سنجار في ٢ رمضان/ ٣٠ كانون الأول فيقول إنها أخذت عنوة[٣٨]. ويقول عماد الدين، مع ذلك، أن الهجوم تباطأ في شهر رمضان. وكان هنالك مطر مستمر والجنود في «زي الرهبان» و «كانوا حريصين على عدم إراقة الدماء»[٣٩]. وأدى هذا التباطؤ إلى جعل الحامية مهملة، فجاء رجل ذات ليلة يقول لصلاح الدين إن الحرس نائمون في الثغرة، وهي النقطة التي يمكن أن تفسر إشارة ابن الأثير إلى الغدر. وفي هجوم مفاجيء أُلقي القبض على عدد من القادة، وفي غمرة الرعب الذي أحدثته خسارتهم، توسّل شرف الدين طالباً عقد الصلح[٤٠]. وتؤكد إحدى الرسائل أن سنجار أُخذت بطريقة سلمية، ولا بد أن تكون رواية ابن شداد، بالإضافة إلى تاريخ رمضان السابق، رواية غير صحيحة.

وسمح لشرف الدين بمغادرة سنجار مع طبوله وراياته ومقاتليه ومستخدميه. وخرج أعيان المدينة، فاستقبلهم صلاح الدين استقبالاً حسناً، وأصلح الأعطال التي لحقت بالمدينة أثناء الحصار. وأعطيت المدينة إقطاعاً لتقي الدين، وأبقي أخو زوجة صلاح الدين، سعد الدين بن أنر مسؤولاً عن القلعة[٤١]. وأضاف ابن الأثير أن الاستيلاء عليها ثبّت مكاسب صلاح الدين شرقي الفرات. فقبل ذلك، كانت الرها قلعته الوحيدة هناك، أما الآن، فسنجار «صارت على الجميع كالسور»[٤٢]. وأرسل صلاح الدين على الفور رسائل إلى بغداد مقترحاً أن يعمل الخليفة على إقناع الموصليين بقبول خسائرهم مقابل السماح لهم بالاحتفاظ بما تبقى من أراضيهم. وقال للخليفة ان من بين أسباب هجومه على الموصل هو أن الموصليين أغروا الفرنجة في مهاجمة سوريا؛ وأنه استقبل بالترحاب في الأمكنة التي استولى عليها «كأنه جاء إلى بيته»، ولكنه ترك الموصل تقديراً لتدخل شيخ الشيوخ؛ وأن جيوش سنجار حاولت قطع إمداداته، فقرر إضافة مدينتهم إلى

الأماكن التي شملتها براءة الخليفة، وذلك لأنه صمم بألاّ يترك الديار إلا بعد أن يخرس الألسنة التي رفضت الاعتراف بفضل الخليفة[٤٣]. وفي رسالة أخرى، كرر القول بأنه ترك الموصل على أثر تلقيه أوامر الخليفة بشأن عقد الصلح؛ وأنه أطاع، كعادته، غير أن ذلك أدى بالموصليين إلى خداع أنفسهم؛ وأن مرافقيه تباطؤوا في نشاطهم، وحين أدرك الجنود والناس في الموصل، الذين انضموا إليه، أنه لن يستولي على المدينة، عادوا إلى عز الدين؛ وأنه أثناء ذلك، كان الحلبيون والموصليون يغرون الفرنجة في القيام بهجمات فاشلة على سوريا. وألحّ صلاح الدين على أنه إذا كان الخليفة مهتماً بأمر الموصليين، فيجب أن يخبرهم بأن يرضوا بما تُرك لهم؛ وسيؤمن ذلك بقاءهم، وخلاف ذلك «فإن غداً لناظره قريب»[٤٤]. وهذه النقطة بعينها فُسّرت في رسالة إلى مجد الدين بن الصاحب، قال فيها صلاح الدين بأن الموصليين لم يكونوا ثابتين في المعركة، ولا أوفياء لإتفاقاتهم حين عقدوا الصلح؛ وأنه ينبغي أن يحاطوا علماً بأن يرضوا بما عندهم، لأنه ترك لهم ما يكفيهم لإرضاء طموحاتهم؛ وأنه بإمكانهم الاحتفاظ بذلك إذا حافظوا على الهدوء، ويجب ألا يتطلعوا إلى ما هو أبعد من متناولهم[٤٥].

عقد صلاح الدين الآن مجلساً استشارياً لأخذ قرار بشأن الخطوة التالية. ففي سوريا كان الفرنجة قد قاموا بغارات حول دمشق. وفي الشمال كان الموصليون يحاولون الحصول على مساندة من أسياد ديار بكر. وكان شاه أرمن صاحب خلاط قد أرسل رئيس أمرائه بكتمر إلى معسكر صلاح الدين أثناء حصار سنجار؛ ولما رفض صلاح الدين قبول تدخله بشأن الموصل، غادر بكتمر المكان غاضباً. كان الوقت الآن شهر كانون الثاني/ رمضان، وكان الطقس شديد الأمطار، والثلوج تتساقط بكثافة على التلال، فوافق صلاح الدين على الاقتراح بأن يأوي إلى المساكن الشتوية، على أن يتابع حملته في فصل الربيع. فرحل شمالاً إلى نصيبين، حيث وجد الأهالي يشكون حاكمهم أبو الهيجاء السمين «متأسفين على دولة عز الدين وعدله فيهم»، على ما رواه ابن الأثير[٤٦]. كان عدم الرضا هذا أمراً خطيراً، فعزل أبو الهيجاء فوراً.

غادر شيخ الشيوخ وشهاب الدين باشر إلى بغداد، وذلك حوالي نهاية رمضان/ ٢٧ كانون الثاني، فحمّلهما صلاح الدين رسالة إلى الخليفة كتب فيها:

«أرسل العبد رسائل متتالية إلى بلاط الخليفة شارحاً أحواله، وكاشفاً مكنونات عذره». وأشار إلى أنه حين أمر الخليفة بإقامة الصلح، رضخ للأمر، وحين استقرت الأمور تقريباً على الأسس المتفق عليها في حضرة شيخ الشيوخ، عمل الموصليون على «حلّها قبل أن يحكم رباطها». وأنهم كانوا يأملون في الحصول على نجدة من حلب في الربيع وبتعزيزات مباشرة من ديار بكر. وكشف صلاح الدين أن شيخ الشيوخ طلب إليه أن يتخلى عن فتوحاته، التي ما يزال يطلب أن تكون مشمولة في براءته. وقال بأنه كان يمكن أن يوافق على ذلك لأنه لم يكن لديه أية رغبة في الحصول على مناطق أخرى، لو أنه لم يجبر على زيادة عدد جنوده من أجل الجهاد. وتبريره هو أنه استخدم ما كان لديه في خدمة الإسلام، ثم كتب يقول: «لو أن أي واحد من أولئك الذين يطالبون بأن تكون الملكية وراثية، ويعتبرون أن الأراضي هي إرث لهم وأجبروا على ردع العدو الكافر، فإن الأيام ستعلّمهم مالا يعلمون»[٤٧].

وعلى صعيد شخصي، كانت العلاقات ما تزال مصونة بين الغزاة والموصليين. لقد أرسلت رسالة خاصة من الموصل من قبل فخر الدين بن الدهّان إلى الفاضل الذي طلب إليه أن ينقل التحيات إلى عماد الدين[٤٨]. وورد جواب من نصيبين يشير إلى «الرسائل والرسل المتبادلة بين الجانبين»، وتدخل شيخ الشيوخ. وتضيف على نحو غير مثير للنزاع: «الله سبحانه وتعالى يعلم رغبة المخاطب في هذه الرسالة، في إجراء تسوية».

ولم تكن دبلوماسية صلاح الدين دفاعية، بالرغم من جميع رسائله التي كانت ترمي إلى تبرير الذات. لقد حُفظت رسالة هامة أرسلها إلى مجاهد الدين يُرنقش، وهو أحد كبار ضباط زنكي في حلب، أشار فيها إلى المحادثات التي جرت بين يُرنقش وزنكي، التي ناقشوا فيها على الأغلب مسألة مبادلة حلب.

استسلمت الآن مدينة سنجار وقلعتها وفاقاً لمعاهدة أمان، وهكذا فإن البديل المطلوب، أصبح جاهزاً، وهنا إشارة إلى المباحثات التي أجراها صلاح الدين مع زنكي حين تجاوز حلب في فصل الخريف. فلم يكن يتوقع الحصول على حلب بدون أن يعطي شيئاً مقابلها، كما قال، لأن ذلك سوف يضر بالعلاقات الطيبة بينه وبين زنكي. ثم تابع يقترح بأنه إذا أراد زنكي الحصول على

جميع أراضي الموصل، فإنه هو نفسه، ولاعتبارات ملائمة ـ ربما استلام حلب ـ سوف يساعده على أن يصبح رباً لبيته ومستقلاً في حكمه. وذكر التبادل المنتظم للرسائل والمبعوثين الذين استمروا «حتى اللحظة الأخيرة»، ثم انقطعوا على ما يبدو بسبب النفور الحديث. وأكد في مناسبات عديدة بأنه عُرض عليه تحالف ضد زنكي ولكنه كان دائماً يرفض ذلك، وأشار إلى أنه قد تنحّى عن حلب ليهاجم الموصل بدلاً عنها. وختم بالقول انه كان مستعداً للتغاضي عن الضرر الذي كان يحدثه زنكي في بلاده: «حتى هذه اللحظة نكن له محبة في قلوبنا»[٤١].

ليس من الواضح إلى أي حد كان صلاح الدين يتوقع أن يحمل هذا الكلام على محمل الجد. فأن يكون زنكي، وهو ابن أخ نور الدين البكر وصهره والمفضل لديه، قد أمل مع الأيام بأن يُعترف به سيداً للموصل ورأساً لعائلته، هو أمر قلّما يخامره الشك، ولكن سيرته تدل على أنه لم يكن مستعدّاً لكي يصبح أسير صلاح الدين. والإشارة إلى رفض صلاح الدين عروض إقامة تحالف ضده تبدو تحريفاً ساخراً على نحو خاص. وقد يكون صحيحاً بالنسبة للوقت الذي حصل فيه الخلاف بين زنكي وسيف الدين غازي، ولكن رواية عماد الدين توضح بأن صلاح الدين كان منذ زمن قريب يحث عز الدين على مساعدته في الاستيلاء على حلب، وأسهم رفض عز الدين في قطع المفاوضات. أضف إلى أن صلاح الدين لا بد أن يكون أدرك أنّ يُرنقش قد سمع بتفاصيل هذه المفاوضات. ومن الأفضل أن تؤخذ الجملة ليس على أنها كذب دبلوماسي غير فعّال، بل على أنها تهديد.

وإذا ترجمت من الزمن الماضي إلى زمن المستقبل، فقد تعني أنه إذا لم يوافق زنكي على شروط صلاح الدين، فإن صلاح الدين، بعد أن أضيفت سنجار إلى فتوحاته، سوف يكون لديه نفوذ أقوى يمارسه على الموصل، وقد يشعر عز الدين بإغراءٍ أشدّ في استعادة أراضيه ـ وهو الطعم الذي سبق لصلاح الدين أن قدّمه ـ على حساب أخيه. ومن أجل أن يبقي الضغط النفسي مرتفعاً، سار صلاح الدين من نصيبين غرباً إلى دارا ثم عبر إلى حرّان الواقعة على نحو ١١٥ ميلاً (١٨٥ كلم) من حلب.

وصل صلاح الدين إلى حرّان في أوائل ذي الحجة/ نهاية شهر شباط ١١٨٣. وفي ٢ آذار، أي بعد مضي فترة قصيرة على ذلك، كتب العادل من مصر يطلعه على

النبأ المرعب وهو أن الفرنجة أقدموا على ضرب قلب البلاد الإسلامية(٥٠). فقد سبق أن استكشف رينالد دو شاتيللون الطريق البرية إلى الجزيرة العربية في شتاء ١١٨١ ـ ٨٢ واستناداً إلى احدى الرسائل، فإنه قد أمضى سنتين في بناء السفن بشكل قطعٍ يمكن نقلها على ظهور الجمال(٥١). وجرى استئجار الجمال من البدو؛ وفي أوائل رمضان عام ١١٨٣ الجديد أُحضرت السفن إلى خليج العقبة. كان دافع رينالد، جزئياً، الدفاع عن النفس؛ بحجة أن بلاده كانت قد تضررت من قبل الحامية الإسلامية في إيلة. ويدعى صلاح الدين أنه وجد القلعة أمنع من الانقضاض عليها بهجوم صاعق. وبنتيجة ذلك قرر القيام بحصار لعزل الحامية ومنع أفرادها من الوصول إلى منابع مياه الشرب، وهو نبع في البر الرئيسي. وظُنَّ أن سفينتين فقط كانتا ضروريتين لذلك، فأرسلت سائر سفن الأسطول الصغير من الخليج إلى البحر الأحمر عينه.

ومن المهم ألاّ نحمّل هذا التحرك، الكثير من المعاني. فكما تبيّن فيما بعد، فإننا لا نرى عند رينالد ما يكفي من الرجال والعتاد للدفاع عن الكرك نفسها ضد هجوم واسع النطاق. فإن هو لم يعمل على احتلال إيلة، فلن تكون لديه قاعدة بحرية على الإطلاق، وحتى لو تمت له السيطرة عليها فإن استسلامها المبكر لصلاح الدين ضمانة صغيرة لا تمكنه من الاحتفاظ بها. ويجب أن يُفسر ذلك، إذن، بأنه ليس محاولة جديّة لتوسيع التأثير الفرنجي إلى البحر الأحمر أو للإستيلاء على طرقه التجارية، بل هو مجرد غارة قرصنة. وربما كان المقصود به، طبعاً، أن يكون الحلقة الأولى في السلسلة؛ ولكن إذ لم يكن رينالد قد فكر جدياً بأنه يستطيع التحكم بالطرق البرية على طول وادي رفت من الكرك إلى العقبة ـ فيفصل بذلك مصر عن سوريا ـ فلن يكون لديه خطط بعيدة المدى من أجل السيطرة البحرية.

ومع ذلك فقد كانت العملية ذاتها مرعبة بما فيه الكفاية. فكتب عماد الدين يقول: «إن المسلمين غير معتادين على هجمات من قبل الكفار في ذلك البحر»(٥٢)، وأضاف ابن الأثير قائلاً إنه لم تكن لديهم خبرة الفرنجة سواء كمقاتلين أو تجار هناك(٥٣). وقيل لابن جبير الذي وصل من أسبانيا إلى الاسكندرية في نهاية آذار إن الفرنجة أحرقوا ١٦ سفينة، ثم انتقلوا إلى الساحل الغربي في عيذاب (الخريطة ٥)، حيث ألقوا القبض على سفينة للحجاج وعلى قافلة آتية بطريق البر من النيل. وسمع أيضاً بأنهم خططوا للهجوم على المدينة ونقل جثمان

النبي ﷺ [٥٤]، ثم قدم المقريزي فيما بعد النصف الآخر من هذه الاشاعة بقوله إن الجثمان سيؤخذ بعد ذلك إلى بلاد الفرنجة حيث سيكون على المسلمين أن يذهبوا إليها للحج والزيارة[٥٥]. عاد الأسطول الصغير من عيذاب فاجتاز البحر الأحمر ثانية، وهاجم الساحل الشرقي امتداداً من رابغ الواقعة على مسافة ٩٠ ميلاً (١٤٥ كلم) إلى الشمال من جدّة إلى الحوراء وهي مرسى على الطريق من مصر إلى المدينة.

ومن حسن حظ المسلمين أن العادل لم يسمح للقضية أن يفلت زمامها. فقد أخبر صلاح الدين، فيما بعد، شيخ الشيوخ أن إخوته بنوا سفناً ليواجهوا بها الخطر الفرنجي، وانه «فكر في عواقبها حين بلغه النبأ»[٥٦]. وفي الواقع كان عليه أن ينقل السفن من الفسطاط والاسكندرية إلى البحر الأحمر. ومع أنه قد يكون حصل على إنذار مبكّر يتعلق بخطط رينالد، فإن الفرنجة تقدّموا عليه بزمن قدره ابن جبير بمدة شهر ونصف الشهر[٥٧]. وبدأ الأسطول الإسلامي، بقيادة الأميرال الأرمني لؤلؤ، بإزالة حصار إيلة، فتحطمت السفن الفرنجية هناك. وأما الفرنجة الذين فروا إلى داخل البلاد، فقيل إنه جرى تعقبهم بواسطة البدو. أبحر لؤلؤ، بعدئذٍ، جنوباً إلى عيذاب حيث وصل متأخراً جداً فلم يتمكن من اعتراض باقي الأسطول، ولكنه طارده عبر البحر الأحمر إلى أن وجده راسياً. فحرق الفرنجة سفنهم وفروا إلى الصحراء حيث طاردهم لؤلؤ. ولاحظ صلاح الدين بأن البدو الخالين من التقى والورع شأنهم في ذلك شأن الفرنجة انضموا إلى هؤلاء وأرشدوهم إلى نقاط الضعف لدى المسلمين. وعلّق المقريزي على ذلك بقوله إنه خلال المطاردة كان لدى رجال لؤلؤ أكياس ملأى بالفضة مثبّتة إلى رماحهم ليشتروا بها ولاء البدو لهم[٥٨]. واستناداً إلى صلاح الدين، استمرت المطاردة خمسة أيام بلياليها فوقع الفرنجة في النهاية في الشرك[٥٩]. فطلبوا الأمان، وتم إلقاء القبض على كامل القوّة التي عدّها صلاح الدين ١٧٠ رجلاً[٦٠].

وشاهد ابن جبير الأسرى الذين قاموا بهذه الغارة يقادون إلى الاسكندرية راكبين على الجمال ووجوههم إلى أذنابها وحولهم الطبول والأبواق. وعلم بأن آخرين منهم أرسلوا إلى أمكنة أخرى ليصار إلى قتلهم، وأخذ بعضهم إلى مكة والمدينة[٦١]. وكتب عماد الدين أن اثنين منهم أحضرا إلى مكة، وأخذ الباقون إلى القاهرة، حيث أرسل صلاح الدين كتاباً يحمل أمراً بتنفيذ الإعدام بهم،

«بحيث لا يبقى أحد منهم فيعرف الطريق»[٦٢]. وهذا الأمر بحد ذاته لا يدعو إلى الدهشة، فالفرنجة لا يجدون، بالطبع، أي حرج في قتل المغيرين من المسلمين ممن يقبضون عليهم على سواحلهم الخاصة. ومع ذلك، تظهر رسائل صلاح الدين أنه كان هنالك تعقيد. فقد أرسل جواباً على رسالة العادل المؤرخة في ٢ آذار، مهنئاً إياه بالانتصار الذي حفظ طهارة الأرض المقدسة، وعلى استعادة الأسرى والمسلمين الذين تخلى عنهم الفرنجة أثناء هربهم وكتب يقول إنه قرأ رسالة لؤلؤ، والتي حوّلها بعد ذلك إلى الخليفة ثم استشهد بآيات من القرآن الكريم: «وكان وراءهم ملك يأخذ كل مدينة غصباً» [الكهف: ٧٩]. ثم تابع قائلاً إن الفرنجة الذين أخذوا أسرى قد كشفوا الأجزاء المخفيّة من الإسلام؛ فإذا وقعت أية كارثة «فسوف يتدفق الأعداء إلى الأرض المقدسة» و «سوف تلومنا الألسنة في الشرق والغرب». «يجب أن تطهر الأرض من رجسهم والهواء من أنفاسهم»[٦٣]. وهذه الرسالة هي، ربما، التي أشار إليها عماد الدين والتي احتوت على الأمر الذي صدر في البدء بإعدام السجناء. وكان على صلاح الدين حينئذٍ أن يرسل كتاباً آخر إلى العادل. وبدأ كتابه يقول: «إذا كاتبنا أخانا... العدد من الرسائل التي تحثنا عليها الحاجة والدافع، فسوف نقضي وقتنا كله في الكتابة، وسوف يقضي هو كل وقته في القراءة». ثم كرر تهانيه وتابع قائلاً انه ليس ضرورياً العودة مرة ثانية إلى أمر تصفية المساجين. فلم يكن من منفعة ترجى من الحفاظ على أي منهم. فلينفذ قرار إعدامهم لأن هجومهم لم يكن له مثيل في تاريخ الإسلام[٦٤].

ونقل أبو شامة جملة من رسالة ثالثة أشار فيها صلاح الدين إلى «الكلام المكرر» الذي ورد بشأن الأسرى[٦٥].

إن نفور العادل، واقتراحه، على ما يبدو، الأخذ بنصيحة شرعية، كما هو مبيّن بالإشارة إلى الفقهاء، يظهر أنه كان يتردد في اعدام رجال ألقي القبض عليهم بالقوة. وقد أعطي مفتاح اللغز برواية عماد الدين حول المطاردة التي دوّن فيها أن الفرنجة طلبوا إعطاءهم الأمان، وفي جملة وردت في رسالة صلاح الدين الأولى إلى العادل التي كتب فيها يقول: «إذا حُفظ العهد في هذه الأحوال مع الكافرين، فإنه سيُحدث صدعاً [بين المؤمنين] لا يمكن رأبه»[٦٦]. والتفسير المعقول الوحيد لهذا هو أن الفرنجة لا بد أن يكونوا أعطوا

وعداً بالأمان، وعلى الرغم من مزاعم العادل، فإن الأسرى قد أعدموا. ويمكن، على سبيل الجدال، أن يكون صلاح الدين شعر بالحاجة إلى جعل المغيرين الفرنجة عبرة لمن يعتبر ليس من أجل خططهم لتدنيس المقدسات فحسب، ولكن بسبب الانتقاد المحتمل لموقفه أيضاً. إن غيابه بسبب حرب ضد المسلمين هو الذي أتاح لرينالد فرصته السانحة وأن تصميمه على متابعة حملته، على الرغم من الصعوبات التي سببها موت فروخ شاه يمكن أن يدلل به أخصامه على أنه كان يضع مصالح أفراد عائلته الحاكمة قبل مصالح الإسلام. ومن وجهة نظره هو، بالرغم من أن الحرب كانت بالنسبة للمنطقة تسير سيراً حسناً لصالحه، فلم يكن قد عمل بعد على تحقيق هدفه الرئيسي وهو تدمير النفوذ المستقل للموصل وحلب، وكان جيشه الآن تقلّص حجماً[٦٧]. ويظهر أن ناصر الدين محمد رحل، وتقي الدين عاد برجاله إلى حماه. وهذا ما شجع عز الدين وحلفاءه على التفكير بإتخاذ موقف الهجوم. ونزل شاه أرمن الذي رفض صلاح الدين طروحاته أثناء حصار سنجار، من بحيرة فان (وان) (الخريطة ١)، مصطحباً معه دولتشاه صاحب بدليس (بتلس)، وانضم إليهم الغازي صاحب ماردين. وفي أواخر شباط خرج عز الدين من الموصل على رأس قوّة صغيرة وبدون أمتعة ثقيلة. وتجمع الجيش المتحالف في حرزم، تحت تلال ماردين الواقعة على مسافة ٩٠ ميلاً (١٤٥ كلم) من صلاح الدين في حرّان، ثم عُززوا من الجانب الآخر للفرات بقوات من حلب. وقال صلاح الدين يومها إنهم أملوا في أن يهزموه قبل أن يتسنى له جمع رجاله[٦٨]، وليس هنالك في الحقيقة تقرير عن أي تحرّك من جانبهم طوال شهر ذي الحجة/آذار. ويبدو أنهم كانوا راضين في أن يروا ما إذا كانت حشودهم ستكرهه على الرحيل رعباً. وهذا الأمر بحد ذاته لن يمنعه من تجميع رجاله مرة أخرى والعودة، ولكنه سيقلل من مكانته ويتيح الفرصة لإسترجاع الأراضي التي ضاعت.

ومع ذلك فإن صلاح الدين، لم يُخدع. فخطوط الرجعة كانت مفتوحة أمامه ولم يكن من السهل مفاجأته من قاعدة تبعد ٩٠ ميلاً. كان يستطيع الانتظار بأمان نسبيّ ويستدعي تقي الدين الذي قطع المسافة من حماه إلى حرّان البالغة ١٧٥ ميلاً (٢٨٢ كلم) في خط مستقيم، بمدة خمسة أيام. ولم يكن ذلك إنذاراً بخطر يستدعي العجلة والإلحاح. وكتب عماد الدين أن تقي الدين وصلاح الدين كليهما رغبا في التقدم، «وقلنا: إن عددهم كبير، وعلينا أن نحاذر الفشل، وأنها أيضاً

عشرة أيام من ذي الحجة»[٦٩]. وبقي صلاح الدين، في الواقع، في حرّان لأداء صلاة عيد النحر الأضحى (٦ نيسان). ولكنه حينئذ، وبدون أن ينتظر وصول ناصر الدين محمد، أو وصول جنوده الآخرين، زحف ضد الحلفاء، سائراً بإتجاه الشرق إلى رأس العين. إن المشاكسة العنيدة هذه تكللت بالنجاح. فناقش الحلفاء أمر المغامرة بمعركة أو عدمها، ولكنهم لم يتمكنوا من التوصل إلى اتفاق فيما بينهم. وكما وصف ذلك صلاح الدين، فإنهم تفرقوا برضىً متبادل دون تدخل ليد القدر أو للسان المجاعة[٧٠]. وقال لشيخ الشيوخ إنهم كانوا على ثقةٍ من أنه سينتظر عيد الأضحى، وهكذا انسحبوا هم أنفسهم من حرزم، في ٥ نيسان[٧١]، قبل يوم من العيد.

ويصعب للوهلة الأولى أن نحكم على مدى الخطر الذي كان صلاح الدين يعرّض نفسه له حين قرر التحرك. ومن البديهي أنه اعتمد على انضباط رجاله المتمرسين في الحروب ضد الفرنجة، في حين أن عماد الدين وصف رجال ديار بكر في هذه الحملة بأن ليس لديهم خبرة في الحرب على الإطلاق[٧٢]. ومن الواضح أيضاً بأنه كان بإمكانه الانتظار مدة أطول في حرّان بأمان تام. وإذا لم يعمد الحلفاء إلى تحديه قبل أن يكون تقي الدين قد وصل، فلم يكن من المحتمل أن يقوموا بذلك أثناء انتظاره ناصر الدين محمد. وواقع أنهم لم يقوموا بأي تحرّك قد يكون دفعه إلى الاعتقاد بأنهم لم يستطيعوا التصرف على نحو حاسم؛ وكانوا بالطبع، مصطدمين بصعوبات القيادة المشتركة. ولعل عز الدين أظهر، حين لم يجلب معه أمتعة ثقيلة، في أنه لم يرغب في القيام بحملة طويلة الأمد. وإذا كان الموصليون غير راغبين في القتال، فسوف يكون لدى الغازي صاحب ماردين كل الدواعي للإنسحاب إلى أسواره الخاصة، بينما كان شاه أرمني، وفاقاً لرأي صلاح الدين، مجنوناً أو خرفاً ـ «رجل خبير بالنساء... لقد أضاع أكثر أمرين متعة [الاستمتاع بالطعام والشراب، والاستمتاع بالنساء]»[٧٣]. وإذا صح قول صلاح الدين في أن الحلفاء تفرقوا قبل أن يتحرّك، فهذا يدل على أنه كان لديهم بعض الأسس المحددة للاعتقاد بأنه كان على وشك التحرك. ويمكن الافتراض، في الحقيقة، أن كل جانب، حصل على معلومات حول الجانب الآخر، ويمكن أن يكون الجانبان مخادعين. وإذا كانت قضية الاحتشاد في حرزم يفترض بها أن تطرد صلاح الدين بدون قتال، فقد باءت بالفشل. وإذا كان صلاح الدين جعل من

المعلوم بأنه كان ينوي فرض معركة، فواقع أنه لم يتحرّك حتى كان الحلفاء قد تفرقوا، يوحي بأن ذلك ما كان ينتظر، وبناء على هذا التفسير يمكن لعمله التكتيكي أن يعتبر خطة فعالة وأمينة كل الأمان.

سار صلاح الدين الآن إلى موقع معسكر الحلفاء السابق في حرزم، حيث توقّف ليخطط لتحركه التالي. وعاد شاه أرمن إلى خلاط، وذهب عز الدين إلى الموصل سالكاً المنعطف الطويل ليجتاز الفرات في عانة (الخريطة ٨). وعاد الغازي صاحب ماردين إلى قلعته تحت حماية جبالها الواقعة على قرابة ١٠ أميال (١٦ كلم) من حرزم، غير أن هذه اعتبرت أمنع من أن تهاجم. حينئذٍ كتب إلى صلاح الدين يستميحه عذراً في أنه حثّ الحلفاء على القتال، ويطلب عقد الصلح معه. وقال صلاح الدين بأنه أرسل إليه جواباً، «ترك له فيه الباب مفتوحاً»(٧٤).

كان، على ما يظهر، في هذه المرحلة، أنّ رسالة وردت من الخليفة تعطي صلاح الدين الصلاحية في أخذ آمد الواقعة على نحو ٥٠ ميلاً (٨٠ كلم) إلى الشمال من ماردين. ولم تشكل هذه الرسالة جواباً فائض الكرم على طلب لبراءات تشمل الموصل والجزيرة بكاملها(٧٥). وتقوم آمد على سلسلة من التلال الصخرية بالقرب من دجلة، وصفها وليم الصوري بأنها حصينة تقريباً بسبب كثرة عدد سكانها وتحصيناتها القوية وموقعها(٧٦). ومنحتها حجارتها البركانية الداكنة اسم «المدنية السوداء»(٧٧). وقد أورد عماد الدين محادثة كانت له مع سيد السويداء الذي قال له: «سلطانكم هذا أقسم على القيام بالمستحيل»، مشيراً إلى وعد صلاح الدين بإعطاء المدينة إلى نور الدين محمد، فأجابه عماد الدين «إن حظه السعيد يأتي من الله»(٧٨). ومع كل هذا لم تكن آمد منيعةً ضد الهجوم. لقد كانت مسرحاً للحصار الشهير الذي وصفه أميانوس مرسيللنوس الذي كان حاضراً حين فشل، في الدفاع عنها ثمانية فيالق رومانية ضد جيش الفرس في عهد سابور وحين كان الغاليون في الحامية يقطّعون الأبواب بسيوفهم توقاً إلى السماح لهم بالخروج إلى القتال. وكان لدى صلاح الدين أعداد أصغر، وأقل منهم من الخصوم الخائفين وكانت المدينة تُدبّر شؤونها لمصلحة أمير كهل بواسطة شخص يدعى ابن نيسان الذي كان في هذه المرحلة مكروهاً، وغير كفؤ. وكتب عماد الدين يقول إن الأهالي كانوا مستعدين لاستقبال صلاح الدين «وكان هدفنا تحرير المكان من عبودية ابن نيسان»(٧٩).

كان صلاح الدين متفائلاً على نحو واضح بشأن الحملة لأنه أحس بقدرته على أن يعيد إلى سوريا ليس عدداً من الأمراء فحسب، بل تقي الدين نفسه أيضاً. فكتب إلى بغداد يقول بأنه لولا المراعاة للعادة لما أخذ معه جنوداً، ولكان اعتمد على براءة الخليفة[٨٠]. ووصل إلى آمد في ١٧ ذي الحجة/ ١٣ نيسان وانتظر لمدة ثلاثة أيام قبل أن يقوم بالهجوم. والمفروض أن يكون في هذه الفترة كتب إلى قتلغ أبه الذي كان أرسله بغية إعادة الاستقرار في اليمن: «هذه الرسالة مرسلة من آمد... نأمل في فتحها... وعلامات النصر بادية». وتابع كلامه مشدّداً على حاجته إلى المال: «أنتم تعلمون كيف أن أبسط هذه التحركات تستنفد خزائننا... إن اليمن هي خزينة مالنا وليس لدينا سواكم حارساً أولى بالثقة»[٨١].

ومقابل سخاء صلاح الدين كانت خسّة ابن نيسان هي التي أفقدته مدينته، كما أفاد ابن الأثير. كتب عماد الدين يقول بأنه جمع قوة هائلة معتقداً أن صلاح الدين سيتعب من الحصار «لكنه كان كل يوم يجد أن قوتنا تزداد». وكان أحد مرافقيه قد بيّن له أن «الأعداء ليسوا من الكفار بحيث يقاتل الناس من أجل بقائهم أحياء»، ولكن بالرغم من ذلك لم يوزّع مالاً ولا طعاماً للحصول على الدعم[٨٢]. وبعد أن انتظر صلاح الدين مدة ثلاثة أيام لجأ إلى استخدام مناجيقه بما فيها واحد يسمّى المفتش، وذلك بغية تدمير الشرفات المفرّجة، فيعمل بذلك على طرد رماة السهام من على الأسوار. ثم تلا ذلك استيلاء المشاة، الذين استخدموا سلالم التسلّق، على جزءٍ من التحصينات الخارجية، ثم استدار قصف المناجيق ليوجه ضد الأسوار الرئيسة ذاتها، والتي هاجمها رجال الألغام أيضاً. في هذا الوقت، كتب عماد الدين يقول إن «المساعدة التي أعطيها ابن نيسان من قبل سكان المدينة تراخت»[٨٣]. وأصبح ابن نيسان يخشى الغدر والخيانة، فتم الاتفاق على إعطائه مهلة ثلاثة أيام كي ينقل ممتلكاته الخاصة دون الذخائر والأسلحة التي كانت موجودة في المدينة والتي يجب حينئذٍ أن تسلّم إلى صلاح الدين. والتاريخ الحقيقي للاستسلام ليس واضحاً[٨٤]، غير أنه يجب أن يكون في ٤ من المحرم/ ٢٩ نيسان أو قبل ذلك تماماً. واستناداً إلى صلاح الدين كان هنالك ثلاثة أيام من القتال الفعلي تضاف إلى ثلاثة أيام إرتاح فيها بعد وصوله، ثم ثلاثة أيام نقل خلالها ابن نيسان أغراضه، بحيث لم يبق سوى أسبوع تقريباً للمفاوضات. وبعد أن تم عقد الاتفاق أرسل ابن نيسان رسالة إلى صلاح الدين ليقول له إن خدمه فروا من

خدمته فأصبح غير قادر على نقل نفائسه. فأرسل صلاح الدين رجاله للمساعدة. وأفاد ابن أبي طيّ بأن أي شخص احضر شيئاً، قام بسرقة نصفه أو أكثر. وحين مضت مهلة الأيام الثلاثة لم يكن قد نقل من ممتلكات ابن نيسان سوى (١/ ١٠) عشرها فقط[٨٥]. «وخفق لسان صلاح الدين في فم القلعة» ثم سلّمت المدينة ومخازنها إلى نور الدين محمد. وربما ضخمت الإشاعات عن حجم هذه المخزونات، غير أنها كانت مثيرة للإعجاب على نحو واضح. وقد علّق عماد الدين على احدى قوائم الجرد للموجودات التي دوّن فيها مجموع ٨٠,٠٠٠ شمعة[٨٦]. وأضاف ابن أبي طي، الذي أفاد بأن العدد السابق للشموع كان ١٠٠,٠٠٠، بأنه كان هنالك برج مليء برؤوس النبال، ومكتبة تحتوي على ١,٠٤٠,٠٠٠ كتاب. وشدّ نور الدين على يد صلاح الدين مقابل منحه المدينة، علامة الولاء. وكان عليه أن يتبع صلاح الدين في كل حملة في الجهاد، وإصلاح الأضرار التي لحقت بالمدينة، وإلغاء المكوس.

أدّى سقوط آمد إلى كسب قطعة أخرى من رقعة الشطرنج الدبلوماسية لأن الغازي صاحب ماردين وافق الآن على الدخول في خدمة صلاح الدين؛ فأعيدت إليه الأراضي التي كان صلاح الدين قد أخذها منه شريطة أن يرسل جنوده إلى أي مكان يكون فيه صلاح الدين في حاجة إليها. ونتيجة لهذه التحركات لم يعد لزنكي أي مجال للمناورة في حلب التي كان صلاح الدين يتهيّأ للزحف عليها. وفي رسالة خاصة إلى سعد الدين في سنجار ناقش الفاضل ما إذا كانت سنجار ونصيبين ستستخدمان بديلين لها أو أنهما ستتركان في عهدة تقي الدين ويفتش عند ذلك عن بديل للمقايضة[٨٧]. ولم يكن هنالك أية إشارة إلى أن المبادلة قد لا تُقبل. وسبق لصلاح الدين أنه أخذ يتطلع إلى الأمام البعيد.

كان واضحاً أنه عزم على متابعة خصومته مع الموصل فواصل وابله من الرسائل إلى بغداد، تلك الرسائل التي يتجاهل فيها حلب ويركز على مشكلات الموصل والجزيرة. وأكد أنه لو أعطي براءة الموصل لكانت سقطت في يده. وقال ان الجنود المصريين هم الذين أخذوا آمد بعد خدمة سنة فعلية وبعد القيام بحملتين ضد الفرنجة، في حين كان سائر جيشه في سوريا يحمي الحدود؛ ولو أضيفت الجزيرة إلى أراضيه، لكانت جميع جيوش الإسلام قد اصطفّت لمحاربة الكافرين[٨٨]. وكتب في

رسالة أخرى يقول إن آمد فُتحت بمفتاح براءة الخليفة، في حين انه لم يتسلم بعد مفتاح الموصل. وهذا ما حال بينه وبين فتحها. واضاف ان كل حاكم اسلامي كان منشغلاً بالأكل وجمع المال ولعب الصولجة وأكد انه لو أعطي الموصل لكانت هناك جبهة متحدة ضد أعداء الحق، ولو أن براءة وصلت تشمل الجزيرة أيضاً، لكن ذلك نور على نور. وسأل الخليفة ما إذا كان هو أو عز الدين الأكثر إخلاصاً وإتقاناً في خدمته من الآخر، وما إذا كان أي حاكم إسلامي آخر، غيره [صلاح الدين]، مصدر ضرر للكافرين(٨٩).

جاءت ردة الفعل المباشرة على هذه الاحتجاجات على لسان ضياء الدين الشهرزوري الذي لا بد أن يكون قد قال لصلاح الدين أن الخليفة لم يكن مستعداً لتنفيذ ما طلب منه. وبالنتيجة، أرسل في ١٣ محرم/ ٧ أيار رسالة مطوّلة من سروج أوضح فيها بالتفصيل براهينه، مصرّحاً ثانيةً بإنتقاداته لعز الدين، ومدافعاً عن موقفه الخاص، ومداعباً توق الخليفة إلى السلطة الزمنيّة بالإضافة إلى السلطة الروحية. لقد كان منزعجاً بوضوح ممّا لا بد أن يكون قد رآه من نفوذ عز الدين في بغداد، فكتب يقول: «لما كان العبد ممتنّاً للمعاملة الحسنة التي يلقاها، فإنه يشكو من ابتعاد [الخليفة] عنه». وأشار إلى «أولئك الذين لا ينظرون نحو بغداد إلا في وقت الضيق». ضارباً مثلاً بالموصليين الذين لم «يطرقوا باب الخلافة» إلا حين أصابهم الهلع. أما فيما يختص بموقفه، فأوامر بغداد تُنفّذت في جميع أنحاء إماراته؛ وكان مبعوثوه يطرقون أبواب الخليفة، ورسائله لدى مكتب محفوظات الخليفة؛ لقد باشر الجهاد تحت الرايات العباسية السود ولم يكن مثل أولئك الذين تقلدوا السلاح ليتزينوا به فقط، فكانوا كالأشكال المرسومة على الجدران.

وحاول أن يُرعب الناصر بفكرة أن الموصليين كانوا يعملون على إعادة نفوذ السلطنة السلجوقية؛ فلما ضعفت سلطة السلجوقيين استعادت الخلافة استقلالها بفضل حسن استخدامها للسيف والقلم، غير أن رغبة أعداء صلاح الدين كانت تكمن في إعادة الحكم السلجوقي؛ وإذا كان هذا القول يُكذب ستة أيام في الأسبوع فسوف يطلب صلاح الدين اليوم السابع للشهادة، لأن الأسماء السلجوقية كانت تذكر في خطبة يوم الجمعة في الموصل. ودون باختصار المحاولة الفاشلة من قبل الموصليين لطرده بعيداً، وأضاف يقول بأنهم بعد إندحار قواتهم في حرزم

لجأوا إلى السراب الذي لا يستطيع أن يوفر الماء للظمآن، وعاد طائر الرياء والنفاق إلى عشه.

ثم ذكر الناصر بمحاولة المسترشد، وهو خليفة سابق، الاستقلالية، زاعماً أن الموصليين اضطهدوا أنصار المسترشد، تماماً كما اضطهدوا مناصري الأيوبيين في أراضيهم، ولكنه لم يشر إلى المساعدة التي قدّمها والده إلى زنكي بعد هجومه على المسترشد في العام ٥٢٦/ ١١٣٢.

بين أولئك الذي قال صلاح الدين بأن الموصليين اضطهدوهم كان كوكبري الذي كان يمكن أن يكون لدى عز الدين كل الحق ليعتبره فارّاً من الخدمة، واتهمهم إلى حد بعيد بإختلاسهم أموال اليتامى واستيلائهم على الأوقاف الدينية؛ ولم يكن سرّاً أنهم كانوا حجر عثرة في طريق الحرب المقدّسة؛ «ولم يكفهم أنهم لا يقاتلون، ولكنهم كانوا يعملون على منع القادرين على القتال من القتال»؛ وطلبوا المساعدة من الفرنجة والحشاشين؛ ولو كان لخزانة المال في قلعة حلب لسان ينطق، لصاح بأعلى صوت يفضح مخازيهم؛ لقد حملت أموالها إلى الكفّار واستخدمت لشراء الرماح لتُضرب بها صدورُ المؤمنين، وما تبقى منها في حلب حُوّل إلى أقداح لشرب الخمرة التي حرّمها الدين الإسلامي.

وفي الرسالة عينها عاد صلاح الدين يدافع عن مسلكه الخاص. فقال، مشيراً إلى عودته إلى دمشق بعد موت نور الدين، بأنه جاء إلى سوريا من أجل مقاتلة الكافرين، ولوضع حد لهرطقة الحشاشين، وإزالة الاثم من المسلمين. لقد شغله الموصليون عن ذلك لسنوات ثلاث، وتلت هذه السنين سنوات القحط؛ فعاد إلى مصر ليريح جيشه ويجمع المال، وحين عاد إلى سوريا تابع شن الحرب المقدسة، دون أن يعيرهم أي انتباه. عندها استولوا على حلب وأراضيها دون أي مسوّغ لذلك، وشغلوا باله حين كان في وسط بلاد الكفّار؛ وأخذ مدنهم ومناطقهم ولكنه استمر في دعوتهم إلى تسوية سلمية. فإذا ما أُعطي الموصل، فإن ذلك سيؤدي إلى الاستيلاء على القدس والقسطنطينية وجورجيا وبلاد الموحدين في الغرب، «إلى أن تعلو كلمة الله، وينظف الخليفة العباسي الأرض، محولاً الكنائس إلى مساجد». وشدّد على أن كل ذلك سيتم بمشيئة الله. على أنه حاشا أن يطلب

مساعداتٍ مالية، بل قال إنه سيعطي الخليفة تكريت ودقوق والبوازيج وخوزستان (الأحواز)، وكيش، وعُمان. بين هذه، تشكل الثلاث الأولى مثلّثاً على تخوم دجلة والزّاب الصغير، وبالإضافة إلى تكريت التي تقع على مسافة ١٠٠ ميل (١٦١ كلم). والتي هي الأقرب إلى بغداد. وتقع خوزستان إلى الجنوب من بغداد في رأس الخليج العربي، أما كيش فهي جزيرة خليجية. ولو أنه تسنى لصلاح الدين أخذ هذه المناطق جميعاً، لاستطاع فعلاً تطويق بغداد. ويصعب الحكم ما إذا كان قد أسدي إليه النصح بالتكلم عن مثل هذه الطموحات الواسعة. ومن أجل أن يدحض أي قول بأن طموحاته هذه غير مقنعة ولا تبدو خطرة، أضاف يقول: «إذا ظُنّ بأن هذا الرجاء هو أكبر مما ينبغي. . . فإن ما حصل [أي فتح مصر واليمن] هو أعظم من الفتوحات المرتقبة». ثم تابع قائلاً: «إن العبد أحق في طلب مثل هذه البراءة من أولئك الذين ينصحون بتأجيلها»[٩٠]. وكتب في ما يشبه الملحق بهذه الرسالة إلى مجد الدين في بغداد ليؤكد على أنه لم يرغب في الحصول على مال أو رجالٍ، أو في أقصاء حاكم يكون طرده ضربة للإسلام، بل أنه يطلب أمراً مشروعاً، وموافقة الخليفة على أعماله. فالبراءة ستكون بمثابة حبة قمح تنتج سبع سنابل، في كل منها مئة حبة[٩١].

ولعل هذه الرسالة، تعطي أكثر من الرسائل المتبقية من تلك الحقبة، الكلام الأوضح عن الموقف الذي يُظهر فيه صلاح الدين أعماله بأنها مشروعة، وأن كلام أخصامه يدحضه الإسلام. كما تدل على المدى الذي يمكن أن تستخدم فيه الحرب المقدسة قاعدة للتوسع. فصلاح الدين لن يتمكن من مهاجمة المملكة المسيحية جورجيا (الكرج) دون أن يمر أولاً عبر بلدان جاراتها المسلمة. وغزو المنطقة البيزنطية يتطلب إبتلاع قلج أرسلان، والقواعد المراكشية والاسبانية للموحدين لا يمكن مهاجمتها إلا إذا توسع صلاح الدين على طول الساحل الافريقي الشمالي برّمته. وبربط ذلك مع إشاراته إلى خوزستان وكيش وعُمان، فإنه يعطينا صورة للدولة الأيوبية المُتخيّلة ممتدّة من اسبانيا إلى القوقاز ومحتكرة تقريباً كل السلطة الزمنية للإسلام. وفي مثل هذا الإطار الفخيم، تغرق الغارات والغارات المضادة في فلسطين، ويغرق حتى استرجاع القدس، في نسيان مؤقت. وهنا ينبغي على المرء أن يتساءل ما إذا كان صلاح الدين فكّر جدياً بأنه يستطيع الآن معالجة فرنجة الساحل كمشكلة عرضية ويركزّ على توطيد دولة إسلامية واسعة تتكشف عن وحدة متراصة وتناغم كلّي، أو ما إذا كانت المضايقة

الناجمة عن إفتقاره إلى النجاح الدبلوماسي هي التي دفعت به إلى إنشاء سلسلة من المبالغات البيانية للتأثير على الخليفة.

كان مستعداً أن يترك الموصل وراءه مؤقتاً، فتحرك من سروج عبر الفرات إلى تل خالد التي تقع على بعد حوالي ٥٠ ميلاً (٨٠ كلم) إلى الشمال الشرقي من حلب[٩٢]. وكان قد أرسل أخاه بوري قبل تحركه كي يحاصرها، فنصبت المناجق، غير أن المدينة والقلعة كليهما استسلمتا فور وصول صلاح الدين في ٢٣ محرم/ ١٧ أيار. وأعطى المكان إلى بدر الدين دلدرم صاحب تل باشر المجاورة، ثم بعث بالرسائل يطلب تعزيزات من أجل القيام بمحاصرة حلب. ويبدو أنه كان توّاقاً إلى زيادة عدد قواته وأيضاً إلى إجبار الأمراء الذين أظهروا دلائل استقلاليةٍ أو عدائيةٍ ليقوموا بإظهار علامة ولاء علنيّ. وكتب إلى شخص بقي اسمه مكتوماً، يقول: «كتبت هذه الرسالة بعد أن قمنا باجتياز الفرات وأتينا إلى تل خالد وتلقينا استسلام حاميتها السلميّ. . . وأرسلت الرسائل إلى جميع الأمراء ندعوهم إلى ما سيكون فيه فائدة لهم . . . يجب أن تخفف من كبريائك، وتتخلى عن العناد، وتظهر لين العريكة»[٩٣].

واستناداً إلى عماد الدين، قام صلاح الدين بعد تركه تل خالد بإنعطاف نحو الشمال متجهاً إلى عينتاب التي كانت في حوزة محمّد، ابن خمارتكين صاحب بوقبيس الذي لقي حتفه حين كان يدافع عن صلاح الدين ضد الاسماعيليين في عام ٥٧٠/ ١١٧٥[٩٤]. وكان أخو محمد، منكورُس، ما يزال يحتفظ ببوقبيس، وقاد جيش حماه تحت لواء صلاح الدين. أضف إلى أن عينتاب كانت جزءاً من إقطاعات بني الداية، وبقيت، بعد سقوطهم، ضمن مقاطعات حلب. وليس هنالك من سجل يشير إلى أي دور لعبه محمّد في الحروب التي دارت بين صلاح الدين وحلب، ولعلّه كان يتمتع باستقلال متواضع. والآن، مع ذلك، وحين استدار جيش صلاح الدين نحوه، قدّم خدماته فثبّت في ملكية عينتاب بسرعة تكفي للسماح لصلاح الدين بالتحرّك إلى الخلف مسافة حوالي ٦٠ ميلاً (٩٧ كلم) نحو حلب في حدود أربعة أيام مضت على تركة تل خالد.

وفي ٢٦ محرم/ ٢١ أيار عسكر صلاح الدين خارج حلب[٩٥]. واتخذ له

موقعاً إلى الشرق من القلعة قرب الميدان الأخضر، وطوقت عساكره ضاحية بانقوسا إلى الجهة الشمالية الشرقية وانتشرت حول باب جنان إلى الجهة الغربية. وفي هذه المرحلة بدا وكأنه نشر رجاله قريباً من المدينة على نحو خطير، على أمل الحصول على نصر مبكّر. وكان يتفاوض مع زنكي، على نحو متقطع على الأقل، وذلك منذ جمادي الأول ٥٧٨/ أيلول ١١٨٢. واستناداً إلى عماد الدين كان زنكي نادماً على تركه سنجار ولم يرغب في القتال[٩٦]. كانت الأكلاف الشهرية التي ينفقها على جيشه وأمرائه تبلغ ٣٠,٠٠٠ دينار، فعمد صلاح الدين إلى قطع موارده المالية. وفي هذه المرحلة، من الحصار، على ما يبدو، كتب صلاح الدين إلى كوكبري يخبره بأن زنكي أرسل طومان مبعوثاً؛ وأن طومان قابل تقي الدين لمناقشة تبادل المناطق، وأن رسالة بعث بها الخليفة تحض، في الظاهر، على قبول ما طُرح. ومع ذلك لم يقبل صلاح الدين بذلك، لأسباب عدة، من بينها واقع أنه سبق له أن ملك النواحي والقلاع والثروة العائدة جميعاً لمدينة حلب، ولم ير لماذا ينبغي عليه أن يتخلى عن أكثر مما يتلقى. وهناك سبب آخر، وهو أنه على الرغم من أن جميع العروض التي تقدمت بها حلب هي عروض استرضائية في مظهرها الخارجي، إلا أن هنالك هدفاً شريراً وراءها. لقد أراد الحلبيون أن يخففوا من التضييق حول خناقهم ويكسبوا وقتاً. ذلك لأنهم كانوا يتوقعون الحصول على نجدة من الكفّار. وأضاف يقول إن أنباء وردت للتوّ تفيد بأن الفرنجة حشدوا قواتهم بقصد مهاجمة سوريا؛ وكان الموصليون أيضاً على أهبة التحرك، ولا بد أن يكونوا قد دعوا من قبل الحلبيين، ولأنهم، خلال ذلك، كانوا أضعف قوّةً وأقل عدداً من أن يتمكنوا من تحديه؛ وأنه هو نفسه كان ينتظر أن تتدفق أفواج قواته، لأنه كان من الواضح أن حصار حلب يتطلب قوة ضخمة[٩٧].

أن يكون الاحتجاج بحشود الفرنجة، وبأخبار تحرّك الموصليين، سبباً لكي يرفض صلاح الدين الموافقة على المبادلة، يدل على واقع أنه كان يعتمد على قدرته على دفع القضية بشكل سريع. وقد يكون على صواب في تخمين ضعف زنكي، غير أن أهل حلب كانوا ما يزالون مصممين على المقاومة. واستناداً إلى ابن العديم، كان يخرج منهم ١٠,٠٠٠ كل يوم ليقاتلوا، وأنه كانت هنالك مناوشات صباحية ومسائية. وكتب عماد الدين يقول إن صلاح الدين لم يرغب في إنزال الخسائر في الحلبيين ـ «فهم، على كل حال، جنود الحرب المقدسة» ـ

ولكن «رجاله الفتيان» كانوا مشاكسين محبين للقتال، وكان يجد صعوبة في كبح
جماحهم[٩٨]. ثم حصل أن أصيب أخوه بوري في احدى المناوشات بجرح في
ركبته، فقرر صلاح الدين على أثر ذلك أن ينقل المعسكر. فإذا كان التأثير النفسي
لموقعه في الميدان الأخضر أخفق في فرض حصار، وإذا كان لن يستخدمه قاعدة
للهجوم، فلم يكن، إذن، من الضروري أن يترك نفسه مكشوفاً. فاستدار نحو
الغرب، وعبر نهر قويق، ثم عسكر على منحدرات جبل جوشن، حيث أمر بنائيه أ
يضعوا أسس ما أراد أن يجعل الحلبيين يعتقدون أنه استيطان دائم. وقد يكو
ذلك خدعة، ولكنه يُظهر على الأقل بأنه لم يعد خائفاً من هجوم فرنجي مباشر.

ويتضح من رواية وليم الصوري أن الفرنجة أنفسهم لم يكونوا يفكرو
بإتخاذ جانب الهجوم[٩٩]. فقد كانوا يدركون أن سقوط حلب سيكمل في الواقع تطو
بلادهم من قبل صلاح الدين. غير أنهم فكروا دفاعياً بتقوية تحصيناتهم الخاصا
وذهب بهمند صاحب أنطاكية، «وقد أربكه اقتراب عدوّ بمثل هذه القوة»، إل
مقابلة بغدوين في عكا، مصطحباً ريموند صاحب طرابلس، فأعطي قوة من حو
٣٠٠ فارس من مملكة القدس لمساعدته على الدفاع عن بلاده. وعل
صلاح الدين بذلك، على الرغم من أنه أشار إلى ريموند في احدى الرسائل ولي
إلى بهمند، وفصل عز الدين جاولي من الجيش لمساعدة ابن المقدّم على حرا
الجبهة. وأرسلت التعليمات من المعسكر في حلب في ١٢ صفر/ ٦ حزيران: ؟
على جاولي أن يطيع ابن المقدّم، وهو الأمير الأعلى مقاماً في دائرة صلاح الدير
ويفرض الطاعة له؛ وكل إنسان يتصرف بدون أوامره أو ضدها، أو قصر في خد
أو دعي وتباطأ في الحضور، يجب أن يؤنّب بقسوة؛ «قل للأمراء أن أولئك الذ
يكون ابن المقدم ممتناً لهم هم الذين سيحظون بعرفاننا بالجميل». وقيل لجاو
إن الفرنجة قد يتساءلون حول عقد معاهدة هدنة، ذلك لأنهم كانوا يحاول
التفاوض في عدة مناسبات خلال السنة، وتقدّموا بشروط لم يعملوا بها لأنهم -
يرون ما يثير شهيتهم لا يعودون يفرقون بين الخطأ والصواب؛ وسوف يخبره
المقدّم عن تبادل الرسائل وعن الشروط التي تطلب وتعرض. والتطور الجديد
عودة مبعوثي تقي الدين من لدن ريموند صاحب صور يرافقهما رسول ريمو
الخاص الذي قال إن سيده كان مستعّداً للإنضمام إلى معاهدة هدنة وإلى المسا
على التفاوض في شأنها (مع بغدوين)؛ وقال ريموند إنه كان قد ذهب إلى القدس (و

ذلك إشارة إلى زيارته لبغدوين) من أجل هذه الغاية فحسب. ولكن من كل هذه المطالب التي أحيط جاولي علماً بها، لم يكن سوى شيء واحد واضحاً وهو أن ريموند كان يحشد رجاله ويضم القوات إلى الفرنجة الآخرين: «إن طبيعته الغادرة معروفة؛ إنه يقول ما لا يفعل ويعد بما لا يفي». وأضاف صلاح الدين أنه هو نفسه كان في وضع يفرض عليه أن يتغاضى عن هذا الأمر، ذلك لأنه كان ينشد ما يعود على المدى البعيد بالفوائد على الإسلام. وبالنتيجة، إذا فوتح جاولي بموضوع الهدنة فإن عليه أولاً أن يحاول تأمين إطلاق سراح ابن تقي الدين (الذي كان وقع في الشرك بواسطة عرض لأراضٍ فرنجية). كان في حينه، على ما يظهر، حرّاً في عقد إتفاقية إذا قبل الفرنجة بالشروط التي يضعها ابن المقدم، ولكنهم إن طلبوا ثمناً أكبر، عليه حينئذٍ أن يستشير صلاح الدين[١٠٠]. وإن واقع أنّه كان على جاولي أن يطيع ابن المقدّم، ثم تُرك ليفاوض بمفرده، قد يدل على أنه أرسل لمراقبة الجبهة قرب حماه أثناء غياب تقي الدين، حيث ينتظر منه أن يتفاوض مع ريموند صاحب طرابلس في حين يكون ابن المقدم في دمشق يتفواض مع بغدوين.

وأثناء ذلك، استناداً إلى عماد الدين، كان صلاح الدين يتصرف بصبر ورفق ورحمة، وتظاهر بالجهل[١٠١] ـ وذلك إشارة إلى القول: «الرجل الجاهل لا يكون قائداً لشعبه، ولكن القائد هو إنسان يتظاهر بأنه جاهل». وعلى الرغم من غياب أي تهديد حقيقي بالخطر من جانب الفرنجة، فقد غيّر رأيه الآن حول قضية المبادلة. أما الحجج ضد ذلك فكانت ما تزال هي عينها. فإن هو أعطى سنجار ونصيبين، حينئذٍ، كما أشار الفاضل إلى ذلك، سوف يطلب تقي الدين بالتأكيد أن تجري استبدالات، ومن المحتمل أن يتمكن من البقاء في حلب دون مخاطرة، مدة تكفي لإفلاس زنكي. وكان السبب الأكثر إحتمالاً لأفكاره الجديدة هو الشراسة التي ظهرت في المقاومة الحلبية. والحصار الطويل سوف يضر بسمعته ويترك إرثاً من الامتعاض. ولا بد من أن يكون قد أدرك في هذه المرحلة أن فرصته الفضلى كانت في التوصل إلى تسوية مع زنكي الذي كان يفاوض بواسطة طومان من وراء ظهر مناصريه الشخصيين[١٠٢]. وقيل إن تعليمات طومان كانت الإلحاح على الحصول على الخابور وسنجار على الأقل مقابل حلب، وأن يحاول أخذ الرقة لنفسه. ونجح في ذلك. وكانت حاجة صلاح الدين إلى تسوية يمكن أن ترى في واقع أنه أضاف إلى ذلك سروج ونصيبين معاً[١٠٣]. وجرت الترتيبات، والتي

صادق عليها صلاح الدين خطياً مساء ٧ صفر/ ١١ حزيران. وفي ١٨ صفر/ ١٢ حزيران فتحت أبواب قلعة حلب.

فاجأت خطوة زنكي الأمراء وأهالي حلب، فكتب ابن العديم يقول إنه لم يكن أحد يعلم ماذا كان يجري حتى ارتفع علم صلاح الدين يرفرف فوق القلعة[١٠٤]. ولم يكن صلاح الدين ليربح أي شيء باستغلال حالة الفوضى هذه، فأرسل كتاباً استرضائياً. واختار الحلبيون حينئذٍ أميرين اثنين ليتفاوضا معه، كان أحدهما زين الدين بلك، والآخر عز الدين جرديك، وهو رجل كان، كما كتب صلاح الدين يقول، بمثابة أخٍ أو ابن له في أيام نور الدين، ولكنه بقي وفيّاً في خدمة حلب منذ زمن الحملة السوريّة في عام ٥٦٩/ ١١٧٤[١٠٥]. دخل جرديك الآن في خدمة صلاح الدين، ولا بد من الافتراض أن ترتيبات أجريت من أجل تحويل شامل للسلطة. والنقطة التفصيلية الوحيدة المدونة في المراجع هي أن صلاح الدين، استناداً إلى ابن العديم، وافق على ترك مركزي الخطيب والقاضي للحنفيين، ثم بدل موقفه نزولاً عند إلحاح ضياء الدين عيسى، واستبدل شاغلي المنصبين من الحنفيين ـ وهما عم ابن العديم وأبوه ـ بإثنين من الشافعيين[١٠٦].

وخرج زنكي نفسه إلى الخيمة التي نصبها له صلاح الدين، وبدأ مع وزيره شمس الدين بن الكافي الذي كان يقوم بدور الوسيط، يعطي شكلاً نهائياً لتفاصيل خطوته. هنالك بعض التناقضات في التأريخ، ولكن صلاح الدين أقام حفلة استقبال على شرف زنكي، ربما في ١٨ صفر/ ١٣ حزيران، حين، استناداً إلى عماد الدين، «يبدوان كأنهما قمران التقيا»[١٠٧]. وخلال ذلك ورد نبأ إلى صلاح الدين يفيد أن أخاه بوري مات متأثراً بجراحه، ولكنه أخفى مشاعره ولم يقطع حفلة الاستقبال. حينئذٍ أعطى زنكي أوامره إلى طومان كي يحتفظ بالقلعة إلى أن يأتي نبأ يفيد بإنجاز المبادلة، فغادر هو نفسه في ٢٣ صفر/١٧ حزيران. وفي ٢٥ صفر/٢٠ حزيران ورد نبأ بأن سنجار ونصيبين والخابور جرى تسليمها من قبل أعوان صلاح الدين. وفي اليوم التالي دخل صلاح الدين القلعة حيث قام طومان بواجبات استضافته.

سمح صلاح الدين لزنكي بأن يأخذ معه جميع مخزونات القلعة التي يستطيع نقلها. وتُرك لطومان أمر بيع كل ما تبقى والذي اشترى صلاح الدين نفسه كمية منه[١٠٨]. وحقق صلاح الدين مطلبه وهو أنه كان يريد فقط «حجارة حلب»[١٠٩]،

كما كان في الحقيقة، يتصرف بسخاء كبير، لا سيما وأنه هو نفسه كان مفتقراً إلى المال. وكتب إلى العادل يقول إن «كلمة الإسلام» كانت الآن متحدة، إلا أنه شدد مرّة أخرى على مشكلات التوسع؛ وكلما كبر حجم المبالغ التي تكون في تصرفه، واتسعت رقعة الأراضي التي تضم إلى امبراطوريته، كلما تدفقت أفواج المجندين إليه، الأمر الذي يؤدي إلى عدم وجود حدود لنفقاته[١١٠]. وفي هذا السياق أشار في مكان آخر أن فائدة اليمن كانت ضئيلة[١١١]، سيما وأنها كانت ما تزال في حالة من الفوضى. كان طغتكين مريضاً[١١٢]. وكان رجال قتلغ أبه، على ما يبدو، حرونين متململين، فقيل للعادل بأن يرسل بدائل بحيث يتمكن أصحاب الإقطاعات من العودة إلى إقطاعاتهم[١١٣]. وكان قتلغ أبه قد أوقف حطّان، وهو سلفه في زبيد، ثم أطلق سراحه. وطلب إليه بأن لا يدفع بعز الدين عثمان في عدن إلى العصيان العلني. وكتب صلاح الدين إلى العادل يقول: «حتى الآن ما تزال البلاد معتمدة على مصر. نرسل إلى هناك رسائل هي أمنيات، فتعود إلينا أموالاً»[١١٤].

وبالرغم من تردد صلاح الدين السابق في شأن الحاجة إلى المبادلة، فلم تكن لديه شكوك حول نجاحه. لقد كانت حلب بالنسبة إليه «المفتاح بالنسبة للبلاد»[١١٥]، فكتب إلى طغتكين يقول: «إن هذه المدينة هي عين سوريا والقلعة بؤبوها»[١١٦]. وقال في رسالة أخرى: «لقد أعطيناه ما لم يخرج عن اليد» لأن شرطاً من شروط الاتفاقية هو أن يأتي زنكي نفسه مع جنوده حين تدعو الحاجة إلى ذلك. وأضاف صلاح الدين يقول: «أعطيناه الدراهم وأحرزنا العواصم»[١١٧]. ووافق أهل حلب على تقويمه واستنتاجه. فكتب ابن الأثير يقول: «احضر بعض عامة حلب اجانه وماء وناداه: أنت لا تصلح لك الملك، وإنما يصلح لك أن تغسل الثياب»[١١٨]. واستناداً إلى ابن العديم، اشتكى ذلك الرجل نفسه من أن الحلبيين قاتلوا من غير أجر - «وإذاً، ما الذي دفعك إلى عمل ما فعلت؟»[١١٩] وفي الواقع، دفع زنكي الذي كانت كل سيرته العملية سيرة مخيّبة للآمال، ثمن عمله الأحمق وذلك بمحاولته تثبيت نفسه غربي الفرات. وكل ما كان لديه من إدعاءات كمناضل من أجل السلطة والنفوذ، كان قد ضعف بشكل حاسم فأضاع المال والسمعة كليهما. وكانت أغنية شعبية تتردد في حلب عن زنكي المجنون، ويردد الناس جملة ملفتة للإنتباه حول الحمار الذي باع حلب بسنجار (حليب طازج بحليب محمض)[١٢٠].

١٣ ـ بناء الامبراطورية والجهاد

كان الاستيلاء على حلب بالنسبة لصلاح الدين قد حدد نهاية حوالي ثماني سنوات ونصف السنة من الانتظار منذ قال لفروخ شاه، «ليس علينا إلا أن نقوم بالحلب، وتصبح حلبٌ لنا»[١]، كما أنها ختمت الحملة الرئيسة الأولى التي باشر بها منذ فتح له موت الصالح الطريق إلى الشمال والشرق. ومن وجهة نظر الحرب المقدسة كان هدف محدود قد أنجز، وكان بإمكان صلاح الدين الآن أن يشكل خطراً على الساحل الفرنجي بطوله وكليته. وكما تبيّن رسائله، مع ذلك، وجد أن النهاية المنطقية لدورة التوسع، حيث تعتمد السلطة على الفتوحات وعلى جذب المجنّدين الذين ينبغي أن تدفع لهم الأموال بواسطة فتوحات إضافية، كانت احتكاراً للسلطة ذا حدود مشتركة مع حدود الاسلام. وكان واجب الحرب المقدسة ما يزال يشدّد عليه، واعتبرت قصيدة شعرية معاصرة سقوط حلب في شهر صفر بشيراً لسقوط القدس في رجب[٢]. وبقي أن نرى إلى أي مدى سوف يسمح ميل صلاح الدين أو ظروفه بمتابعة ذلك.

وفتحكم حلباً بالسيف في صفرٍ مبشر بفتوح القدس في رجبِ

بعد قضاء ليلة واحدة في قلعة حلب تقدم صلاح الدين إلى حارم (الخريطة ٣)، التي هي بمثابة البيلق الثانوي المتقدم باتجاه انطاكية. فمنذ سقوط كمشتكين والهجوم الذي قام به فلاندرز في ٥٧٣/ ١١٧٧ ـ ٧٨، كانت في حوزة سرخك، الذي وصفه عماد الدين بأنه «بعض المماليك النورية»[٣]. واستناداً إلى ابن أبي طيّ، كان صلاح الدين قد قدّم له بصرى، وملكية في دمشق، ومبلغ ٣٠,٠٠٠ دينار نقداً ومبلغ ١٠,٠٠٠ دينار لأخيه، مقابل المبادلة بالقلعة. ولكنه، في محاولة للحصول

على شروط أفضل، قام بمراسلة الفرنجة[٤]. إلا أن أحداً لم يصدق هذا الاتهام. وهناك رواية أخرى أوردها أيضاً ابن أبي طي، تجعل حسن صاحب بني الداية يبيّن أن الشيء نفسه قيل عنه حين كانت حارم بحوزته[٥]. وإنه لواضح، مع ذلك، سواء أجرى اتصال بالفرنجة أم لم يجرِ، أن خصاماً نشب بين جنود الحامية أنفسهم، فاغلقت أبواب القلعة دون سرخك، والقى القبض عليه من قبل تقي الدين الذي حضر على رأس قوة من الحرس المتقدم، وحين حضر صلاح الدين نفسه، فُتحت أبواب القلعة. وأفرج فيما بعد عن سرخك، ولكنه لم يعط أية وظيفة لدى صلاح الدين.

وشرح صلاح الدين الوضع بقوله إن سرخك كان على اتصال به، غير أنه كان يضع شروطاً ـ لعله كان يطلب أكثر مما عُرِض عليه. وعملت الحامية عندئذٍ على إجباره على الخروج من القلعة وأعلن أفرادها ولاءهم لصلاح الدين. وفي رسالة أخرى وصف سرخك بالرجل الذي ليس لديه دين أو عقل، وقال إنه رتّب أمر تسليم حارم إلى بوهمند صاحب أنطاكية كما ثبت ذلك من رسائله، وشهد عليه مبعوثوه؛ وتآمر مع رجالٍ معروفين بالشمسيّة (عبدة الشمس). الذين قالوا بعدم وجود الخالق «وعبدوا ما رأوه يسبح في بحر النهار ويغرب في محيط الظلام»؛ وطردته الحامية وفرّقت أتباعه، ثم ألقي القبض عليه بعد ذلك خارج حارم من قبل تقي الدين. وبعد ذلك تقبل صلاح الدين استسلام القلعة وتدبّر أمر الدفاع عنها[٦]. وأضاف إلى هذه الرسالة روايته هوحول الاستيلاء على حلب، قال فيها ان الجنود الحلبيين وأهل حلب خانوا زنكي؛ «فدخل من باب التوسل الذي لم يغلق يوماً من الأيام في وجه أي داخل»، وبعد ذلك قدم الحلبيون أنفسهم «إلتماسهم الأكبر، الذي كان بأنهم مسلمون أخوة»؛ وان صلاح الدين أطاع أمر الخليفة فأغمد سيفه، وكانت أمنيته الآن أن تسيرجيوش الإسلام صفاً واحداً لتهاجم الأعداء، وأن لا يفرقها الحسد. وهو لن يعارض في أن يُشارَك في القيادة إذا كان هذا ممكناً في الحرب، ولكن، في الواقع، لا يمكن أن يكون هناك سوى قائد واحد[٧].

وشدد في رسائل أخرى على أن فتح حلب لم يكن سوى معلم على طريق النصر في الجهاد المقدس. فكتب في احداها يقول إنه بفضل الله ذاهب الآن لمهاجمة الأرمن[٨]. وبشكل أعم، قال لحاكم بعلبك الذي كان يعنى بالابن الصغير لفروخ شاه، بهرام شاه، بأنه كان يخطط لإتخاذ إجراءات سوف تثير غيظ

الكفار[٩]. وكتب إلى حِطّان في اليمن يقول إنه لما كانت الأراضي الإسلامية هي الآن إمّا بحوزته هو نفسه أو بحوزة أصدقائه، فسوف يبرهن عن اعترافه بالجميل بمهاجمة الفرنجة[١٠]. وفي رسالة إلى طغتكين كتب يقول: «لقد استيقظ الإسلام الآن ليطرد شبخ ليل الكفر»[١١].

وقبل أن يتمكن من الرحيل، مع ذلك، كان هنالك عدد من التفاصيل الإدارية ينبغي أن يسوّى. فوافق على هدنة مع بوهمند صاحب أنطاكية الذي أطلق سراح عدد من الأسرى المسلمين دلالة على الموافقة، وأعطى أعزاز إلى علم الدين سليمان الذي كان قد سبق له أن ترك حلب كي ينضم إليه. وكانت حلب نفسها تدار باسم الظاهر، وهو ابنه الرابع الذي كان الآن في العاشرة من عمره، وكانت القلعة في يد سيف الدين يازكوج، وهو مملوك سابق لشيركوه، الذي ساعد على إنقاذه خلال محاولة الاغتيال في إعزاز.

وقرىء مرسوم على الملأ يقضي بإلغاء المكوس ـ «لا أحد من حكامنا أو أمرائنا أو موظفينا مفروض فيه أن يمد يده إلى هذه الأشياء» ـ «إننا نوزّع الأراضي، ولا نعود نسترجعها هدايا»[١٢]. ومن المحتمل أن يكون في هذا الوقت قد أجبر مرسوم آخر غير المسلمين في حلب على ارتداء ثيابٍ مميّزة، وربما كان ذلك محاولة للتوفيق بين الشيعة والسنة من جهة والحكم الأيوبي من جهة أخرى، غير أن ذلك أثبت أنه كان محبّباً جدّاً إلى «المجانين ومثيري الشغب»[١٣] في المدينة الذين كان لا بد من كبحهم عن توجيه الاهانات والشتائم إليهم.

كتب عماد الدين عدداً من البراءات للموظفين والمشتغلين بمهن تقتضي ثقافة، سجل ثلاثاً منها في «البرق»[١٤]. واحدة منها كانت للشيخ علاء الدين مسعود الذي أسندت إليه إدارة المدارس الحنفية في حلب والرقة ـ مع أن مدينة الرقة هذه كانت قد أعطيت إلى طومان ـ بالإضافة إلى مراقبة وضبط أوقافها، والصلاحية في تعيين وإنهاء خدمات المدرسين فيها. وبراءة لمحتسب حلب تأمره بأن يسهر على ألاّ يدع الشيعة يعملون على تشويه سمعة صحابة النبي ﷺ من أولئك الذين لا يرضون عنهم؛ والحرفيون من ذوي الكفاءة، والمشهود لهم من قبل «أهل العلم»، ينبغي أن يسمح لهم بمتابعة ممارسة مهنهم، ولكن ينبغي أيضاً أن يصار إلى تحرّي إنتاجهم الرديء النوع أو الزائف. ويجب أن يمنع الأطباء

الدجالون من معالجة المرضى ومن وصف أو بيع العقاقير غير المعروفة؛ ويجب أن يحظر على المحتالين والعرّافين من القيام بأعمال الدجل والتلاعب، وعلى المحتسب أن يعمل على ألا تستخدم المساجد «وبيوت العبادة» دكاكين ومخازن. وكانت براءة أخرى لطبيب «ماهر في تشريح الأعضاء.. وعلى علم بالعناصر الأربعة»، الذي عُيّن له راتب ثابت وأمر بمتابعة ممارسة مهنته في القلعة. وفي حالته هو فلم يكن هنالك نص على امكانية تعيين نوّابه الخصوصيين أم لا، غير أن هذا الإذن منصوص عنه في براءة أخرى، مكتوبة لأحد أطباء صلاح الدين الخصوصيين، هو ابن المطران[١٥].

وتطابقت تفاصيل هذه البراءات في العديد من الوثائق الإسلامية الأخرى، وأقتبسناها هنا للدلالة فقط على مدى وكيفية تأثير الفريق الحاكم في المجتمع بواسطة مراقبة الحرف والمهن بطريقة مباشرة وبامتداد سلطته أيضاً عبر من يسميهم أو يرشحهم للمناصب. وبتعبير أعم، يمكن تبسيط المسائل الخاصة بالعلاقة بين العائلة الحاكمة والعدد الكبير من رعاياها. وتقوى العائلة الحاكمة إذا رُكّبَ المفهوم التراصفي للمجتمع على بنيته الخلويّة، أي، بكلام أكثر تحديداً، إذا أمكن تشجيع طبقة الحرفيين على أن تنمو وأن تنفصل بقدر الإمكان عن جذورها وذلك بالاعتماد المباشر على الطبقة الحاكمة وبنقل أوامرها.

استغرقت الترتيبات التي قام بها صلاح الدين وقتاً، فلم يكن بإمكانه الرحيل قبل ٢١ ربيع الثاني/ ١٤ آب. وأخذ معه جنوداً من حلب وما وراء الفرات، كما أخذ عدداً من التركمانيين وسار بمعدّل ٢٠ ميلاً في اليوم سالكاً طريقه المعتاد عبر حماه وحمص وسهل البقاع إلى دمشق التي وصلها في ٣ جماد الأولى/ ٢٤ آب. وحرص الفرنجة ألاّ يفاجأوا بهجوم مباغت، وحشدوا قواتهم في صفورية. ولسوء حظهم، سقط بغدوين الذي أصبح متأثراً على نحو خطير بجذامه، طريح الفراش في الناصرة، وغدت حالته من الخطورة إلى درجة أن صهره غي دو لوزينيان عُيّن نائباً له، وهو مركز رأى الكثيرون أنه غير صالح لأشغاله. وكانت هنالك آراء متنوعة بالنسبة لما يمكن لصلاح الدين أن يفعله[١٦]. ففكر البعض بأنه سيعود إلى بيروت، وفكر آخرون بأنه سيحاول الاستيلاء على قلعتي هونين وتبنين إلى الشرق من مدينة صور. وكانت هنالك إمكانية واضحة بأنه قد يذهب إلى الكرك أو الشوبك مرة أخرى، في حين رجا المتفائلون أن يعود بعد حملته الطويلة إلى مصر كي يريح جيشه ويجمع المؤن. وبقي صلاح الدين نفسه في دمشق

لمدة أكثر من ثلاثة أسابيع بقليل ثم خرج بعد ذلك، في ٢٧ جمادي الثانية/ ١٧ أيلول، ليعسكر في جسر الخشب الواقعة على بعد حوالي ١٠ أميال (١٦ كلم) إلى الجنوب.

وقبل حملته ببعض الوقت تلقى رسالة من الخليفة. فجواباً عن رسالة شكواه التي بعث بها من سروج، أرسل له الخليفة براءة كتبت بكلام لبق بحيث تحاشت أية إشارة محددة إلى الأراضي أو المدن. فلم تذكر الموصل أو الجزيرة، ولكنها شملت جميع المناطق التي يمكن لصلاح الدين أن يأخذها من أولئك الذين يعصون أوامر الخليفة. وأجاب صلاح الدين بالقول: «لقدم الخليفة يقول المسلم: ليتني كنت تراباً»؛ واتخذت الإجراءات لنشر النبأ بأن البراءة وصلت «عاملاً على أن يكون محتواها الغائب من على الورق، حاضراً في أذهان الناس». وفسّرها بأنها تعطيه ما كان في حوزة جميع أولئك «الذين لا تكون أعمالهم في البلاد سليمة لا عيب فيها، والذين لا تكون كفة ميزان ولائهم راجحة باتجاه بغداد»؛ وأن عرفانه بالجميل سيظهر في الأعمال أكثر منه في الأقوال، وأنه بدأ يقوم بواجباته بمهاجمة الكافرين، «قبل أن يشن حرباً مقدسة على أولئك الذين تخلوا عن ولائهم» (وهو تهديد واضح بأنه ينوي الزحف مرة أخرى على الموصل)؛ وأرسلت رسالته في الوقت الذي كان فيه منطلقاً برحلته مع المدافعين عن الدين، ومع أصدقاء الخليفة وخدّامه. أضف إلى أنه، قبل أن يرحل، اتصل به مبعوثو الحديثة(*) وتكريت اللتين رغب سيداهما، كما قال، في الانضمام إلى خدمته غير أنهما كانا خائفين من الموصليين. وكانت هاتان المدينتين الواقعتين على الفرات ودجلة على التوالي، على بعد حوالي ١٣٠ ميلاً (٢٠٩ كلم) عن بغداد. وأي جيش يرسل إلى هناك سيكون ضمن حدود مسيرة أسبوع واحد عن الخليفة (الخريطة ٨). وهذا يستلزم بوضوح نوعاً من اللباقة، فكتب صلاح الدين يقول إنه على الرغم من أنه اعتبر أن المدينتين كانتا مشمولتين في بنود البراءة التي أعطيت له، ولكن بسبب موقعهما، يرغب في الحصول على إذنٍ خاص لإدخالهما في أي تسوية سلام ممكنة، أو للدفاع عنهما إذا اختار الموصليون أن يبقوا متخذين جانب المعاداة؛ وأنه سوف يبقى ملتزماً بإطاعة أوامر الخليفة ولن يتصرّف من تلقاء ذاته -

(*) الحديثة: واضح أنه كان يتحدث عن حديثة الفرات التي تعرف أيضاً بحديثة النورة، تميزاً لها عن حديثة دجلة.

«ولو لم يكن الواقع هو أن التغاضي عن الفائدة المستقبلية لهؤلاء الناس سوف يلحق الضرر بأناس آخرين هم حريصون على إطاعة الخليفة، فما كان العبد قد أوصل القضية إلى علم الخليفة، ولا كتب عنها»[١٧].

وفي مستهل جماد الآخرة/ ٢١ أيلول بعث برسالة ثانية إلى بغداد من جسر الخشب، بينت أيضاً أنه لم يكن منشغلاً كلية بالفرنجة. وبدأ القول بأنه كان على وشك القيام بهجوم على الكافرين في عقر دارهم، حيث حشدوا رجالهم وأخرجوا الصليب. لقد جمعوا أموالاً طائلة لتهيئة دفاعاتهم، ولكن «العبد يبذل نفسه قبل ماله، وماله قبل عائلته، وعائلته قبل رجاله»؛ أما الحكام المسلمون الآخرون فاما أن لديهم القدرة على مهاجمة الفرنجة ولكنهم لا يملكون الإرادة، أو أن لديهم الإرادة من دون القوة؛ وهو لا يقول هذا انتقاداً لأسلافه، بل فقط ليذكر نفسه به كي لا يشعر بالثقة العارمة، فيعتقد بأن ذلك قد لا يحدث له. وكان حكام آخرون منشغلين بغزو أراض يجنون منها الثروة، في حين أنه هو نفسه لم يلغ الضرائب والمكوس غير الشرعية فحسب، بل وزّع ثروته المجموعة شرعاً على الفقراء والمساكين. ولم يكن، كما قال مطرياً نفسه، معتاداً على ذكر هذه الأمور، ولكن رغب في أن يعرف الخليفة أن له عبداً يأخذ فقط ما هو مسموح به شرعاً، وأنه «يدخل البيوت من أبوابها»[١٨].

وبعد إنقضاء أسبوع على كتابة هذه الرسالة، سار صلاح الدين من جسر الخشب في طريقه إلى الأردن. واستناداً إلى عماد الدين، اجتاز صلاح الدين في ٩ جماد الثانية/ ٢٩ أيلول مخاضة الحسينية وهاجم بيسان التي وجدها خالية[١٩]. وإذا كانت تلك المخاضة هي مخاضة الشيخ حسين، والتي تقع تقريبا على خط مستقيم إلى الشرق من بيسان، فذلك يعني أنه لم يكرر مسيرته التي قام بها في ربيع الأول ٥٧٨/ تموز ١١٨٢ حين مرّ مباشرة تحت قلعة كوكب، ولكنه بقي على الضفة الشرقية لنهر الأردن. وجرى تأكيد هذا الأمر جزئياً من قبل وليم الصوري، الذي كتب يقول إن أهل بيسان هربوا إلى طبرية[٢٠]، الأمر الذي سيكون مستحيلاً بدون إنعطاف طويل لو أن صلاح الدين كان متقدماً نزولاً في خط الضفة الغربية (الخريطة ٢).

وفي ١٠ جماد الآخرة/ ٣٠ أيلول، وبعد أن جرى نهب المدينة وحرقها،

سار غرباً صعداً في خط وادي يارود، وهي مسرح معركته السابقة مع الفرنجة. وأرسل حرساً متقدّماً بقيادة جاولي، الذي من المحتمل أن يكون انضم إليه في مسيرته وراء حماه، وعز الدين جرديك الذي كانت حملته هذه هي الأولى في خدمته، واعترضوا التعزيزات الفرنجية من الكرك والشوبك، التي كان أفرادها يسيرون على طريق نابلس، وأخذوا عدداً من الأسرى. أثناء ذلك كانت القوة الفرنجية الرئيسة تنتظر الأنباء، فحين سمعت بأن صلاح الدين كان في بيسان، انتقلت من صفورية فوق تلال الناصرة إلى الفولة في وادي جزريل غربي جبل موره. وهذه مسافة مباشرة تقل طولاً عن ١٠ أميال (١٦ كلم)، ولكن لا بد أن تمثّل مسيرة يوم بالنسبة لقوة كبيرة تسير عبر سلسلة من التلال. واستناداً إلى وليم الصوري، كان عدد أفرادها ١٣٠٠ فارس و ١٥,٠٠٠ من المشاة[٢١]، وهما رقمان يتفقان إلى حد بعيد مع تقديرات عماد الدين الذي أورد ١٥٠٠ رامح و ١٥٠٠ تركبولي، و ١٥٠٠٠ راجل[٢٢]. ويمكن تأريخ زحفهم من صفورية في ١٠ جماد الثانية/ ٣٠ أيلول، وفي ١١ جماد الثانية/ أول تشرين الأول سمع صلاح الدين بأنهم كانوا في الفولة. وكان هو نفسه قد سار ٩ أميال (١٤ كلم) صعداً في خط وادي يارود من بيسان إلى عين جالوت، بالقرب من المستوطنة الحديثة، جدونة Gidona. ودفع الآن بخمسمئة من المناوشين ضد الفرنجة، ونظّم ما تبقى من جيشه في وضع قتالي. وكتب وليم الصوري بأنه اتخذ موقعه على رأس «قوّة هائلة في الرجال الرائعين المتمتعين بعناية كلية»، «وذلك قرب المياه»[٢٣]. في هذا السياق ذكر وليم «عين توبانية» التي تقع على مسافة ميل واحد من عين جالوت على الجهة الشمالية من المجرى المعروف بنهر جالوت. وعين توبانية واقعة في أرض مكشوفة، أما عين جالوت نفسها فتقع مباشرة تحت منحدرات جبلية.

وحين تقدم الفرنجة، فوجئوا بأن صلاح الدين لم يقابلهم بمعركة، بل سار، على نحو غير متوقع، نزولاً في خط نهر جالوت. وكانت القوة الفرنجية معروفة بأنها أكبر قوة على الإطلاق أنتجتها المملكة من مواردها الخاصة. ومع ذلك، كان المسلمون قد فاقوها عدداً، على نحو واضح، إذ أن المؤرخين العرب أفادوا أن المسلمين كانوا «في كثرة عظيمة»[٢٤]، وأن تحرّك صلاح الدين يمكن تفسيره على نحو أفضل تفسيراً جغرافياً. وكان القصد من إرسال المناوشين الخمسماية،

ربما، لاختبار انضباطية الزحف الفرنجي، ولرؤية ما إذا كان بالإمكان إغراؤهم فيحطموا تشكيلهم. فلو أن ذلك حصل على أرض مكشوفة، لكان بالإمكان استخدام جحافل صلاح الدين للاشتباك مع خيالتهم ومشاتهم كل على حدة على أمل تمزيقهم إرباً إرباً. وفي الواقع، مع ذلك، احتفظ الفرنجة بخيالتهم محجوبة بمشاتهم، فحموا بذلك خيولهم إلى حدّ ما من سهام المسلمين. ولم يكن بإمكان صلاح الدين إيقاف تقدمهم تماماً دون أن يشرك فرق خيالته في تشكيلة وفيرة العدد ويجعلها عرضة لهجوم مدرّع. وكان بإمكانه أيضاً، بطبيعة الحال، أن يضايقهم بغارات متكررة أثناء زحفهم، غير أن قوّة عسكرية تركّز في موقع معيّن كي تسد الطريق إلى عين جالوت نفسها، يمكن أن تُسحق قبالة جانب الوادي المنحدر وراءها. فبتراجعه إلى الوراء، خسر فرصة مباشرة للقيام بمعركة حاسمة، ولكن يظهر أنه اكتفى بأن ينتظر حتى يقع أخصامه في أخطاء.

وطد الفرنجة الآن أنفسهم في عين جالوت، مديرين ظهورهم إلى التلال. وعسكر صلاح الدين بالقرب منهم، على نحو يبعث على الإغراء، في حين انتشر مغيروه ينهبون ما تصل إليه أيديهم في المناطق غير المحروسة. وهاجموا زرعين الواقعة في إطار ميلين من عين جالوت نفسها على المنحدرات إلى الغرب منها، والطيبة على سلسلة التلال الحدودية لوادي يارود. واستناداً إلى وليم الصوري، تسلق بعضهم جبل الطابور حيث دافع الرهبان، بمساعدة اللاجئين من البلدان المجاورة، عن ديره المحصّن[٢٥]. وشوهد المغيرون على التلال فوق الناصرة، وقيل إن العديد من أهالي المدن جرى سحقهم حتى الموت حين كانوا يحاولون الفرار ليحتموا بالكنيسة الكبرى.

أثناء ذلك كان طعام جيش الفرنجة قد أخذ بالتناقص. وتزامنت هجمة صلاح الدين مع نهاية موسم الحج، التي توافقت مع اقتراب فصل الشتاء والطقس العاصف في البحر. وكان الحجاج والبحارة الطليان الذين كانوا على وشك العودة بالحجاج المسيحيين إلى ديارهم، قد غادروا سفنهم للإنضمام إلى الحشد العسكري، غير أنهم لم يأخذوا زادهم معهم. ويبدو من خلال هذا أنه إذا ركّز صلاح الدين على قطع خطوط إمداداتهم، فلا بد أن يكون نجح في القيام بعملٍ ما. وربما لم يدرك فرصته السانحة أو أن رجاله كانوا منهمكين في القيام بأعمال السلب. وأفاد وليم الصوري عن بعض الخسائر في صفوف الفرنجة ولكنه قال إن القوافل

المحروسة استطاعت الوصول، كما أن المصادر العربية لم تشر إلى أية خطط لجعل الفرنجة يموتون جوعاً.

وبالرغم من هذا، كان السخط قد ساد صفوف جيش الفرنجة. «فالناس البسطاء الذين يفتقرون إلى خبرة ودهاء القادة»(٢٦) لا يستطيعون أن يفهموا لماذا لم تُشنّ أية معركة على معسكر صلاح الدين. لقد كانت هنالك سابقة تاريخية مشجّعة. «نصب جدعون خيامه بالقرب من نبع يارود» في أو قرب الموقع الفرنجي، «في حين أن المدينيين والأملكيين* وكل أولاد الشرق استلقوا بمحاذاة الوادي كالجنادب لكثرته»(٢٧). فهزمت المعركة الليلية التي قام بها رجاله الثلاثماية هذه القوّة المتفوقة عدداً. أضف إلى أن غي دو لوزينيان «وهو رجل غير ذي نفع على الإطلاق في أمور من هذا الحجم»(٢٨) لم تكن لديه مخيلة جدعون ولا سلطته. وجرى تلميح إلى أن الغيرة من مركزه دفع القادة الآخرين، بما فيهم ريموند صاحب طرابلس، إلى أن يبقوا غير فاعلين. ولكنه جرى، أيضاً، نقاش في أن معسكر صلاح الدين كان من المناعة بما لا يشجع على مهاجمته، وأن قواته كانت تنتظر الفرصة لتطوّق الفرنجية حين يخرجون من مواقعهم. وكتب عماد الدين يقول إن صلاح الدين كان يأمل في أن يقوم الفرنجة بهجوم ـ «كنا نتوقع كل يومٍ أن يقوموا بهجومهم، مندفعين كعادتهم إلى المعركة»(٢٩) ـ ولكنه لم يكن مستعداً أن يكسر جمود الموقف هو نفسه. وفي ١٥ جماد الثانية/ ٥ تشرين الأول كان أمراؤه أنفسهم يتذمّرون بشأن النقص في المؤن. فقرر الانسحاب وخرج من الوادي باتجاه جبل طابور، قائلاً انه ما يزال يأمل في معركة: «قد يطاردوننا فنرتد حينئذٍ صوبهم»(٣٠). وفي الواقع عاد الفرنجة الآن إلى قاعدتهم في صفورية، عبر تلال الناصرة. وأول صلاح الدين ذلك بأنهم انسحبوا إلى جبالهم بغية تحاشي المعركة، غير أنه في هذا الوقت أصبح من الواضح أنه لم يكن لديه خطط للبقاء غربي الأردن. وقد عاد فاجتاز إلى الضفة الشرقية. وتُرك وليم الصوري يواسي قرّاءه بأعجوبةٍ صغيرة تمثلت بسمكة، اظهرتها العناية الإلهية في مياه عين جالوت في فترة بقاء الجيش هناك، علماً بأنه يندر أن يوجد سمك هناك(٣١).

كتب صلاح الدين، لدى عودته، يخبر الخليفة بأن الفرنجة لم يرغبوا في أن

(*) يستشهد المؤلفان هنا بقصة قضاة اسرائيل ويبدو أنهما ممن يعتقدون بالمطابقة بين جغرافية التوراة وجغرافية فلسطين، بينما هناك نظرات جديدة ترفض هذه المطابقة.

يركبوا مركباً خطراً، بالرغم من وفرة أعدادهم، ورغم ما لحق بأراضيهم وبلادهم من ضرر؛ وانه هو نفسه كان يخطط للذهاب إلى الكرك، حيث سيعيد من هناك جنوده المصريين ويواجه أمر استبدالهم. وختم رسالته بإشارةٍ غير مباشرة إلى الموصليين، ملاحظاً أن الخليفة سيعرف أن خدامه قد حيل بينهم وبين القيام بواجباتهم تجاه الإسلام (الجهاد المقدس) حين كان «بعضهم» قد منعهم من ذلك[٣٢].

وعلى الرغم من أن هذا لم يذكر في رسالة صلاح الدين، فإن موعد لقاء القوات المصرية في الكرك كان ذا أهمية أكبر من المعتاد في هذه المناسبة. كان العادل نفسه يغادر مصر، وكان تقي الدين قد أرسل ليحل محلّه. وكان هذا هو التعديل الإداري الرئيسي الأول منذ أعيد تورانشاه من سوريا، وليس من الواضح كم هو مقدار الأهمية التي ينبغي أن تفسر من خلاله. وإن العادل، كما دوّن عماد الدين[٣٣]، كان الحاكم الفعلي لمصر في غياب صلاح الدين، ولكن بالرغم من هذا فإنه هو من تُعزى إليه المبادرة، لأنه رغب في الحصول على حلب. واستناداً إلى رواية نقلها ابن أبي طي، أجبر صلاح الدين على أن يقترض منه مالاً يقل عن ١٥٠,٠٠٠ دينار فطلب من صلاح الدين على أثر ذلك أن يعطيه حلب. وتتابع رواية ابن أبي طي قائلة إن العادل طالب بوثيقة بيع، إلا أن صلاح الدين ألح على أن حلب يمكن إعطاؤها بمثابة اقطاع فحسب: «فهل تظن أن [هذه]الأماكن يمكن بيعها، وألا تعلم أنها ملك الناس الذين يقيمون فيها؟ . . . نحن أمناء خزائن مال المسلمين»[٣٤].

وتبدو حلب، للوهلة الأولى، بديلاً فقيراً لمصر، حتى ولو كانت الأراضي التي ضمت إليها امتدت إلى رعبان في الشمال، والفرات في الشرق، وحماه في الجنوب. ولا بد أن يكون العادل، مع ذلك، يعرف أن صداماً آخر مع الموصل هو أمر لا بد منه، ولعله أَمِلَ في توسيع نفوذه بالتمدد شرقي الفرات. ولا بد أن يكون تقي الدين، كما ألمح الفاضل، يطالب ببدائل لإقطاعي سنجار ونصّيبين، فأتاح هذا التبادل لصلاح الدين أن يرضيه، ويرضي العادل، على ما يبدو، دونما حاجة إلى فتوحات إضافية. أما الخاسر في هذا التبادل فكان الظاهر، ابن صلاح الدين، الذي عبر فيما بعد عن أساه الناجم عن إكراهه على مغادرة حلب بعد إنقضاء ستة

أشهر فقط، ولكنه كان في ذلك الحين ما يزال فتيّاً جداً، فلا يؤخذ كلامه على محمل الجد.

غادر صلاح الدين دمشق في ٣ رجب/ ٢٢ تشرين الأول. وبعد سيره عبر منطقة الشراح إلى شرقي البحر الميت عسكر في الربّا الواقعة على مسافة ٢/ ١ ٦ أميال (١٠ كلم) إلى الشمال من الكرك. وطلب إليه المسلمون المحلّيون أن يؤمن لهم الحماية، فكتب عماد الدين يقول: «لقد عاش المسلمون في هذه الأنحاء من قديم الزمان، غير أن أولادهم ترعرعوا في ظل الحكم الفرنجي. كانوا يخشون إظهار عواطفهم نحونا، وهكذا عملوا على إخفائها»[٣٥]. وقلعة الكرك ذاتها تقوم على لسان من الأرض شمالي ـ غربي، تكتنفه الوديان. وهي منفصلة في الجنوب عن الأرض المرتفعة لتلّة أم الثلج بواسطة خندق عميق، كما يفصلها خندق آخر في الشمال عن البلدة التي تتقاسم معها سهلها الواسع المنبسط. وقيل إن رينالد دو شاتيللون تلقى إنذاراً بالهجوم، وانه أحضر إلى الداخل ما حسبه كافياً من الجنود لحمايتها[٣٦]. وحين تحرّك صلاح الدين من الربّا، رفض رينالد السماح لأهل البلدة بنقل أمتعتهم إلى الملجا في الحصن وحاول، مخطئاً، الدفاع عن السهل المنبسط ذاته ذي الأطراف المنحدرة ولكنها غير العصيّةِ على التسلّق. فأخفقت الحامية في التمكن من الاحتفاظ بها لا سيما وأن المهاجمين يفوقونها عدداً. وكان المسلمون قادرين تقريباً على شق مدخل لهم إلى الحصن وهم يطاردون الفرنجة المتقهقرين. وتم نهب المدينة وجميع محتوياتها. واستخدمها صلاح الدين قاعدة نصب فيها سبعة مناجق قامت بقصف الحصن ليلاً نهاراً[٣٧].

وصل العادل في ٤ شعبان/ ٢٢ تشرين الثاني، مصطحباً معه قافلة من التجار المصريين بالإضافة إلى أفراد أسرته وبدائل لعساكر صلاح الدين. وأرسل الفاضل كتاباً إلى تقي الدين يحمل إليه الأنباء، مضيفاً القول إن أبراج الكرك تخر ساجدة، وقد أزيحت أحجبة ستائرها الواقية المتحركة، وجُدعت أنوفها؛ وحين يصل تقي الدين، فإن ساعة النصر الموعودة لن تبطيء في المجيء[٣٨]. وتفاؤل الفاضل يكمّل الصورة القاتمة التي رسمها وليم الصوري. لقد تزامن هجوم صلاح الدين مع زفاف همفري الرابع صاحب تبنين، وهو ابن زوجة رينالد وابن إتيينيت دو ميللي، من إيزابيلا، وهي الأخت الصغرى للملك بغدوين[٣٩]. وكانت القلعة مكتظة بالممثلين والمغنّين وما شابه، والذين أتوا لحضور حفلة الزفاف،

ف'زدادت أعداد هذه الأفواه غير النافعة بأعداد «السوريين» المحليين وزوجاتهم رأولادهم . وكان منهم هنالك عدد كبير إلى درجة أن أفراد الحامية لم يتمكنوا من التحرك بحريّةٍ من أجل القيام بواجباتهم ؛ والمنجنيق الوحيد الذي نصبوه تلقى وابلاً من القذائف الحجرية كان غزيراً إلى درجة أنه لم يستخدم بعد ذلك على الإطلاق ، وكان المسلمون من الشجاعة بحيث تساقطوا مستخدمين الحبال التي ساعدتهم على الوصول إلى الخندق وأخذ كل ما كان فيه .

من المستغرب أن صلاح الدين لم يواصل السعي لجني فائدة كاملة . واستناداً إلى عماد الدين ، فإنه لم يحضر معه قافلة حصار كافية[٤٠] ، الأمر الذي يبدو متناقضاً مع الأدلّة . وقال ابن العديم إنه بالرغم من أن الأسوار قد خرقت ، فلم يكن المسلمون قادرين على ردم الخندق فحيل بينهم وبين قيامهم بالهجوم[٤١] . أما الفرنجة فقد جهزوا قوة نجدة تحرّكت إلى الطرف الجنوبي من البحر الميت . واستناداً إلى عماد الدين ، كان صلاح الدين قد علم بذلك في نهاية شهر رجب (١٨ تشرين الثاني)[٤٢] ، أي قبل وصول العادل وتقي الدين ، ولكن بالرغم من قوله للخليفة بأنه كان يتطلع إلى القيام بمعركة فلم يحرك ساكناً لتحدّي المنجدين . وفي ١٥ شعبان/ ٣ كانون الأول أرسل تقي الدين إلى مصر ، ورفع صلاح الدين نفسه الحصار ، وسار في اليوم التالي مع العادل بإتجاه الشمال .

ويتضح من هذا أن الهجوم على الكرك ، على شدته لم يكن يقصد به مواصلة العمل حتى النهاية مهما كان الثمن باهظاً ، كما لم يكن صلاح الدين مستعداً لبذل جهد خاص كي يفرض قتالاً ميدانياً . وواجهته مشكلة واحدة وهي كيف يمكنه إستخدام رجاله بأفضل الطرق وأنجعها ، ولم يكن لديه هنا أي قانون صارم للإنضباط يستطيع الإعتماد عليه . وكان بالإمكان إتخاذ إجراءات ضد مالكي الإقطاعات وضد من كانوا من الآخرين الذين يعتمدون عليه مالياً . وفي الحالات المتطرفة كان يعتقد أنه من المعقول أن يقوم القائد بقتل من يعصون أوامره . غير أنه كان ثمة مشكلة دائمة تتعلق بعمليات الفرار من الخدمة ، ويبدو أن صلاح الدين الذي كان يفضل الثواب على العقاب ، حرص الحرص كله بألا يضايق جنوده أكثر مما ينبغي . فالحصارات لم تكن محبوبة ؛ وكان صيام شهر رمضان على الأبواب ؛ فكتب عماد الدين يقول إن الجيش كان متعباً[٤٣] . وكان لدى صلاح الدين نفسه حملته الدبلوماسية التي كان ينوي خوضها . وبالنظر إلى جميع هذه النقاط ، لم يكن

من المستغرب أنه أرخى ضغطه. وأفادته مهاجمته في أنها أدت إلى القيام بتبديل جنوده المصريين. ولقد شق طريقه للمرة الأولى إلى بلدة الكرك واستكشف الإمكانات في استخدامها قاعدة لهجوم غلى القلعة، فأضاف رصيداً إلى حسابه في الجهاد المقدّس. وفي ٢٤ رجب/ ١٢ كانون الأول عاد إلى دمشق، فأتيح للجنود السوريين أن يرتاحوا، «إستعداداً»، كما كتب عماد الدين يقول، «للسنة المقبلة»[٤٤].

أعطي العادل الآن براءة تشمل منبج، وهي إقطاعة سابقة من إقطاعات تقي الدين، بالإضافة إلى حلب، فغادر دمشق إلى الشمال في ٢ رمضان/ ١٩ كانون الأول. وأرسل أمين سره الصنيعة بن النحّال قدماً كي يجري الترتيبات اللازمة لتحويل المدينة والقلعة، ووصل العادل نفسه إلى حلب في ٢٠ رمضان/ ٨ كانون الثاني. . وسارع الحلبيون في إيجاد شكوى. لقد كان الصنيعة الذي كلّف الآن بإشغال منصب السكرتير الأول لدى العادل، مسيحيّاً اعتنق الإسلام ليتزوج من فتاة مسلمة[٤٥]. وحث عدد المسيحيين الذين استخدمهم على نظم قصيدة حول سيطرة المسيحيين: «إن لديانة المسيح اليد العليا فوق جميع الأيدي في عهد العادل. فهنالك أمير مسيحي، ووزير مسيحي، وحاكم مسيحي ومشرف مسيحي في الديوان»[٤٦].

كان الفاضل قد ذهب إلى مصر مع تقي الدين، يحمل تعليمات إلى صلاح الدين بأن يعود بأسرع وقت ممكن. واستمر في متابعة الكتابة بفيض من الرسائل المعتادة. ويمكن الحكم على المجلد من هذه الرسائل من واقع أنه حين كتب إلى عماد الدين من أيلة وذلك بعد إنقضاء ثلاثة أيام ونصف اليوم على تركه صلاح الدين في الكرك، كان قد سبق له وتلقى رسالة منه وأخرى من صلاح الدين[٤٧]. في البدء، كان قلقاً بشأن مصاعب الرحلة، وكتب من صدر التي وصلها في أحد عشر يوماً من الكرك، بما فيها يوم الرحيل ويوم الوصول، ليقول إن الأمر لم يكن مسألة إرهاق بهائم الركوب ولكن قتلها من خلال السير المكره، أولاً من أجل تفادي الفرنجة، ثم، في المرحلة الثانية من إيلة إلى صُدْر، من أجل الوصول إلى الماء[٤٨]. وكان لديه بعد وصوله إلى مصر مشكلات أكثر خطورة يقتضي تدوينها. ففي رسالة إلى صلاح الدين بعث بها خلال شهر رمضان/ ١٨ كانون الأول ١١٨٣ ـ ١٦ كانون الثاني ١١٨٤، فسّر بأنه لن يستخدم الشيفرة كي لا يقضي على

متعة أولئك الذين يقرأون رسالته أو تقرأ على مسامعهم ؛ ليس فيها أي شيء ضار إن هي وقعت في أيدي الأعداء ما خلا ما ينبغي أن يقوله بشأن الأموال المصريّة. والشؤون المصرية، على كل حال، كانت في حالة إستثنائية، وإذا ما شرع في شرحها فإنه سيفتح أبواباً من الأفضل أن تبقى مغلقة. ولقد تسبب في هذه المصاعب أولئك الذين عادوا من الحملة السورية؛ إذ كان لدى الجنود مذكرات رسمية تمنحهم زيادة في الرواتب أو تخولهم الحق في تحويل الأموال لهم، دون أن تحدد المكان الذي تؤخذ منه تلك الأموال. وكان لدى التجار تسليفات نقدية على الخزينة ينبغي أن تسدد؛ والأمراء الأغنياء يرسلون خدمهم أو مرافقيهم الذين ينبغي أن تقدم لهم الهدايا والحظوات. و«بعضهم يتمتعون حتى بمراكز أعلى، سلاطيننا»، كانوا يفعلون الشيء نفسه. وأوضح الفاضل من كان يشير إليهم حين أضاف يقول إن العادل أعطى أوامر يجب أن تنفّذ. وتابع يقول إنه في حالة الحكام الآخرين كان النقصان في الأموال نتيجة لروح خسيسة أو نقص في الأراضي، ولكن مصاعب صلاح الدين سببتها الأعداد الغفيرة لرجاله. فرواتب الجيش في مقاطعة واحدة من مصر بلغت خمسة ملايين دينار. والأموال التي دفعت للفقهاء وقارئي القرآن والمعلمين والأطباء بالإضافة إلى ما ورد تحت عناوين إعانة الفقراء، وأوشحة الشرف والهدايا للملوك، وأكلاف التحصينات ونفقات الأسطول... الخ... بلغت مليون دينار (سنوياً). لقد سجل الناس بإعجاب سخاء الملوك الذين ربما أعطوا مرّة في العمر، شخصاً ما ١٠,٠٠٠ أو ٥٠٠٠ درهم.. «فكيف سيبدو الأمر لهم لو أنهم رأوا واحداً يوزع كل يوم في مقاطعة واحدة من إمبراطوريته ١٧,٠٠٠ دينار؟»(٤٩).

وأشار الفاضل في رسالته إلى وصول رسل «من الملوك» في دمشق. وكتب عماد الدين يقول إن مبعوثين من الحديثة وتكريت قد توصلوا إلى إتفاق مع صلاح الدين، وأن مبعوثين آخرين وفدوا من قبل سنجر شاه صاحب جزيرة ابن عمر، وزين الدين يوسف صاحب إربل(٥٠). وكان سنجرشاه البالغ من العمر الآن عشرين عاماً، قد وعده بالموصل والده سيف الدين غازي، وقيل إنه كان يحمل في قلبه ضغينة لعمه عز الدين. وسمح لزين الدين يوسف، وهو أخ لكوكبري صاحب حرّان، من قبل الموصليين بأن يخلف أباه زين الدين علي كجك في ملكية إربل. وتقع جزيرة ابن عمر على نهر دجلة على بعد حوالي ٨٥ ميلاً (١٣٧ كلم) إلى

الشمال من الموصل، أما إربل فهي على مسافة نحو من ٥٠ ميلاً (٨٠ كلم) إلى الشرق منها (الخريطة ٨). وتشكلان كلاهما، من الناحية الجغرافية، جزءاً من المنطقة العليا لنهر دجلة، وهما، في التاريخ الحديث واقعتان ضمن دائرة نفوذ الموصل. وأدى سقوط حلب، على كل حال، إلى إضعاف واضح للموصل. ومع كل إلحاح صلاح الدين على أنه الآن يهتم بالحرب المقدسة، فلم تعقد أية معاهدة رسمية تحل الخصومات بينه وبين عز الدين. إذ أن عز الدين لم يكن على صواب حين أوقف رجله الإداري الأول قايماز، وهي خطوة خاطئة أخرى عزاها ابن الأثير إلى عبقرية زلفندار الشريرة[٥١]، ووجد سنجر شاه وزين الدين يوسف اللذان أفلتا من سلطة قايماز فرصة سانحة لتقدمهما الشخصي. وفي ١١ ذي القعدة ٥٨٠/ ٢٥ شباط ١١٨٤، وحين وصلت بعثة دبلوماسية من الموصل يرافقها شيخ الشيوخ، وافق صلاح الدين على دعم المنشقين، عاملاً بذلك على التخلّي عن تحدٍّ مقصود وحتمي لعز الدين.

ثمة بعض الحلقات المفقودة ينبغي أخذها في الحساب هنا. يستشهد عماد الدين برسالة من صلاح الدين إلى تقي الدين يقول فيها إنه يوجد الآن كلأ وفير، وأنه ليس لديهم أي عذر في عدم استئناف الجهاد في هذا العام؛ وإنه كان يتهيأ للمغادرة إلى حلب في ١٥ ذي القعدة/ نهاية شهر شباط. ودعا إلى حشد جيشه هناك[٥٢]. وكانت حلب قاعدة لهجوم على إنطاكية، غير أن أي حشد يجري هناك يمكن أن يهدد الموصل أيضاً بالخطر. وتدل رسالة من الفاضل على أنه قبل وصول شيخ الشيوخ، كان رسول من قبل صلاح الدين قد عاد من الموصل حاملاً كتاباً استرضائياً من عز الدين. وتابع الفاضل يقول إن باب رحمة صلاح الدين كان دائماً مفتوحاً، وانه كان من شيمه أن لا يعدم رجلاً جريحاً، وانه لم يبق شيء الآن سوى الحرب المقدسة[٥٣]. ومن البديهي أن عز الدين كان «الرجل الجريح»، الذي رأى الفاضل بأنه ينبغي أن يترك وشأنه. وقد يكون المقصود أن صلاح الدين، في بثه خبراً عن نيته في حشد جنوده، أخاف عز الدين فحمله خوفه على تقديم بعض التنازلات، فأقلع على أثر ذلك عن فكرة القيام بحشد ربيعي مبكّر. وفي ذلك، على كل حال، وسواء أكان عز الدين مستعداً للتفاهم قبل محاولة الإنشقاق التي قام بها سنجر شاه وزين الدين يوسف أم لم يكن مستعداً لذلك، فإن خسارة أراضيهما كانت أكثر مما يستطيع أن يتساهل بالسماح له أن يمر من غير تحدٍّ.

وكان مناصروه، بما فيهم أخو البهلوان قزل أرسلان، وشاه أرمن، وعماد الدين زنكي، وقلج أرسلان، قد أرسلوا موفدين إلى دمشق، غير أن البعثة الدبلوماسية الموصلية برئاسة القاضي محي الدين الشهرزوري هي التي كان عليها أن تجري المفاوضات الأساسية، وكان على شيخ الشيوخ أن يتولى الحلقة. وكان سبق لمحي الدين أن انتقد الشيخ على تصرفه في عام ٥٧٨/ ١١٨٢، متسائلاً: «هل أنت مرسل مبعوثاً أم لتحدث مذبحة؟»(٥٤)، ولكن، واستناداً إلى ابن شدّاد الذي كان هو نفسه مع الموصليين، كان عز الدين قد طلب إلى الخليفة أن يرسله «رسولاً وشفيعاً»، على أساس أنه كان محترماً من كل من بغداد وصلاح الدين(٥٥). وبدأت زيارته على نحو محزن وذلك بسبب وفاة ابنه الذي سقط صريع المرض أثناء الرحلة فنقل إلى دمشق على محفّة. وجرت ثلاثة أيام في حداد، فكتب عماد الدين يقول: «لقد بردت حرارة البعثة»(٥٦). وخيمت الكآبة حتى وصلت إلى مصر. وكاتب الفاضل إلى عماد الدين يقول إن الإشاعات سمعت من الأتراك والبدو بوقوع الخسارة؛ ففكر بأن يبعث بكتاب تعزية إلى الشيخ ولكنه رجا أن يكون الخبر غير صحيح، وأمضى يومين لم يجد فيهما هناءة في طعام أو شراب أو كلام. فكر بعد ذلك بألا يكتب، لأنه يقال إن التعزية بعد إنقضاء ثلاثة أيام هي تجديد للبليّة(٥٧).

كانت المفاوضات نفسها تعيسة. إذ أن محي الدين كان تلميذاً مزاملاً لعماد الدين في المدرسة النظامية في بغداد. وكتب عماد الدين يقول: «هذه المرة صرفوه [غير محددين] عن التداول معي ومنعوه من التكلم معي. ولو أنه طلب نصيحتي لأعطيته الطريقة الملائمة»(٥٨). وبدلاً من ذلك، تصرّف «كأنما هو الملاك جبريل يحمل الوحي من السماء»(٥٩)، معتقداً بأنه كان يسدي خدمة لسيده؛ أما صلاح الدين فقد «لاءم خشونته مع نعومته»، غير أن تصلبه كان عائقاً في طريق الإتفاق.

وفي الواقع، كان العائق الحقيقي هو أن صلاح الدين قد سبق له أن تعهد بدعم أولئك الذين كان لدى عز الدين كل الحق في أن يعتبرهم عصاة ضد سلطته. وتابع عماد الدين يقول انه استدعي من قبل صلاح الدين صباح ذات يوم وقيل له بأن يحضّر مسودة إتفاقية، لعل ذلك من أجل الحفاظ على الوضع الراهن، وأشار إلى أن صلاح الدين سيكون مجبراً على أن يجري إستثناء «من أجل أولئك الذين يثقون بكلامكم [سنجر - شاه وزين الدين يوسف]... ولكن هؤلاء الموصليين

لن يوافقوا على أي إستثناء». وقال صلاح الدين: «أكتب لي شيئاً يمكن أن يعدني عن كسر كلمتي». فاقترح عماد الدين حينئذٍ بأن يسمح للسادة أصحاب العلاقة بأن يختاروا الجهة التي يريدون أن ينضموا إليها. فقال له صلاح الدين بأن يذهب إلى شيخ الشيوخ كي يأخذ موافقته، وأن يفاتح القاضي محي الدين أيضاً بالموضوع، لأنه على هذا الأساس سيكون هو نفسه مستعداً لأن يعد جازماً بعقد معاهدة. ووافق الشيخ، غير أن محي الدين رفض، وإن كان ذلك لم يكن من غير المعقول. -«إن هؤلاء الرجال هم في بلادنا وهم نوابنا وتحت سلطتنا. فإن هم أصبحوا ضدنا، إذن من البديهي أن يكون ذلك صدعاً للوحدة... تقدّم منهم بالإعتذار قائلاً، لقد استقبلناكم في ساعة غضب، ولكن هناك الآن سلام تام»[٦٠].

في هذا الوقت توقفت المفاوضات توقفاً تامّاً. فاستدعى صلاح الدين العادل من حلب لتقديم المساعدة، غير أنه لم يستطع هو أو سواه أن يجد مخرجاً من المأزق. ووصل العادل في ٤ ذي الحجة/ ١٩ آذار، وفي ٧ ذي الحجة/ ٢٢ آذار غادر وفد الموصل دمشق. ورفض شيخ الشيوخ قبول الهدايا المعتادة واضعاً بذلك نهاية لعمل البعثة، وهي عادة علامة غضب، ولكن عماد الدين عزاها في هذه الحالة إلى الروح المترفّعة التي جعلته يعطي إلى مرافقه حتى الطعام الذي زُوِّد هو به[٦١]. واستناداً إلى هذه الرواية، عاد صلاح الدين الآن فراجع فكره وقال: «أشعر بالخجل أمام شيخ الشيوخ». وأرسل عماد الدين ليقول للشيخ بأنه سيسمح له بوضع نص لشروط إتفاقية تسوية، كما أن خبراً أرسل أيضاً إلى الموصليين. أضف إلى أنه حين رأى محي الدين تواضع صلاح الدين رفع من شأن ذاته وقال: «بعد الذي حصل لم تعد لدي الرغبة في تبادل الرسائل إلى أن أعود إلى سيدي الذي اصطفاني لهذه البعثة... لدينا شخص ينضم إلينا، ويحمينا، ويميل إلينا» - وقصد بذلك البهلوان. فأزعج هذا صلاح الدين، وتابع عماد الدين يقول: «لقد أرسل القاضي ليخمد النار فأضرمها». كان صلاح الدين فاتر الرغبة في الزحف على الموصل مرّة أخرى، غير أنه شعر الآن بأنه مدفوع إلى ذلك دفعاً - «يمكن أن تُعزى جميع هذه الأمور إلى ذلك الخطاب».

وتبدو المعاني الكاملة لهذا الأمر شيئاً غامضاً. فإشارة عماد الدين إلى تصلب صلاح الدين في القرار بمهاجمة الموصل يمكن أن تكون صحيحة في سياقها. إذ أن حملة الدعاوة أظهرت أنه منذ مغادرته الموصل كان يفكر بالعودة إليها، ولكن

لم يكن من داعٍ إلى ذلك إن هو استطاع الحصول على ما ابتغى من دون قتال. وملاحظة محي الدين: «هنالك الآن سلام تام»، تؤكد الظنّ بأن عز الدين كان مستعداً ليكون استرضائياً وتوفيقيّاً. ويبدو أن الفاضل على الأقل، قد فكر بأنه لم يعد هنالك حاجة إلى حملة. ولقد جرى التوضيح، مع ذلك بأنه كان ما يزال لدى الموصليين نقطة معوّقة، وسوف يلجأون وراء نطاقها إلى البهلوان من أجل الحصول على مساعدة، ولا بد أن يكون هذا الأمر قد أقنع صلاح الدين بأنه إذا كان يريد أن تسير الأمور وفقاً لطريقته، فعليه أن يقاتل من أجل ذلك. ومن الصعب أن يدرك المرء ماذا عنى بالضبط بعرضه الأخير بقبول شروط شيخ الشيوخ. فإن هو حنث بعهده وتخلّى عن سنجر شاه وزين الدين يوسف، فإنّ مركزه شرقي الفرات سيكون مهدداً بالخطر. وبالمثل، إذا كان محي الدين على وشك الحصول على شروط ملائمة، فالفظاظة وحدها من جانبه تبدو تفسيراً ساذجاً لضياع فرصة مناسبة. ولعله كان لدى شيخ الشيوخ حل وسط خاص به ولكن ليس هنالك من إفادة عمّا يمكن أن يكون ذلك الحل. وكل ما هو بيّن هو أن صلاح الدين أقنع على الأقل المدافعين الشخصيين عن قضيته بأنه لم يكن مسؤولاً عن توقف المحادثات. ذهب شيخ الشيوخ عائداً إلى بغداد ليقدّم تقريره، وبدا صلاح الدين مستعداً لأن ينتظر دون أيّ تحرك ضد الموصل إلى أن يعود.

وفي بداية السنة الهجرية ٥٨٠ (١٤ نيسان ١١٨٤) أعطى صلاح الدين تعليماته إلى عماد الدين كي يكتب براءة لزين الدين يوسف، تشمل بالإضافة إلى مقاطعات أخرى، إربل وقلعتها شهرزور وحوض الزاب الكبير[٦٢]. ولربما طالب بحق التصرّف بهذه الأراضي، والتي لم تكن يوماً من الأيام في حوزته، وذلك بتفسير براءة الخليفة الأخيرة، الأمر الذي رد عليه الموصليون ببراءة من عندهم باطلة المفعول. وأفرج عز الدين عن رجله الإداري الأول السابق، قايماز، الذي أرسل كي يحصل على نجدة من البهلوان ومن أخيه قزل أرسلان سيد أذربيجان. فزوده قزل أرسلان بقوة تعد ٣٠٠٠ خيال، وذلك للقيام بهجوم على إربل، غير أن هؤلاء الخيالة برهنوا على أنهم لا يعرفون الإنضباط، وعلى أنه ليس لديهم الكفاءة المتوخاة. وقد فاجأهم زين الدين يوسف حين كانوا منشغلين في أعمال نهب قراه، فهزمهم شر هزيمة وفقدوا أجهزتهم والأشياء التي نهبوها. ونقل ابن الأثير عن قايماز تأثره من سوء فعل العجم لدى عودته إلى الموصل: «رأيت منهم ما لا كنت

أظنه يفعله مسلم بمسلم؛ وكنت أنهاهم فلا يسمعون حتى كان من الهزيمة ما كان»[٦٣].

كان صلاح الدين أثناء ذلك يحشد رجاله على مهل، وذلك بغية القيام بحملة أخرى ضد الفرنجة. وتساقطت في فصل الشتاء أمطار غزيرة مصحوبة بالثلوج، الأمر الذي جعل عملية التحرّك مهمّة شاقة، وأدى بالفاضل إلى أن يرجو أن يكون ذلك هو الصابون الذي يزيل قذارة الكفر[٦٤]. وفي نيسان حين «ارتخت قبضة البرد» إنتقل صلاح الدين إلى البقاع. ودون المقريزي أنه في ٨ محرم/ ٢١ نيسان وصلت منه رسائل إلى مصر، يطلب رجالاً وأموالاً وأسلحة[٦٥]. وفي ١٨ صفر/ ٣١ أيار وصل نور الدين محمد إلى حلب ليفي دينه بعرفان الجميل بالنسبة لهدية آمد. وسبقه وزيره، صديق عماد الدين قوّام الدين عبدالله، لعرض خدمات سيده لدى صلاح الدين وغادر نور الدين محمد حلب لصحبة العادل في ٢٦ صفر/ ٨ حزيران. ويبدو أنهما لم يكونا على عجلة من أمرهما وقابلهما صلاح الدين في البقاع في ٩ ربيع الأول/ ٢٠ حزيران. وفي شهر ربيع الأول (١٢ حزيران ـ ١١ تموز) كتب صلاح الدين يخبر شيخ الشيوخ أنه طلب التعزيزات من مصر، بينما كان الجنود يُجمعون من سوريا ومن شرقي الفرات؛ ووصل نور الدين محمد كما وصلت قوات سيّد ماردين بالإضافة إلى سيد دارا وشرف الدين[٦٦] وهو أخ لعز الدين صاحب الموصل. وكان وصوله إضافة مفاجئة إلى اللائحة. ولم يضف عماد الدين الذي استشهد برسالة صلاح الدين أية إشارة هنا إلى شرف الدين. ولما كان قد حظي بقيادة جيوش سنجار التي كانت في الواقع، بإمرة طومان، فقد كان صلاح الدين مبالغاً على نحو مقصود بالمقارنة بين عز الدين الذي يصعب إرضاؤه وأخيه الذي إكتفى بخدمة القضية الإسلامية. وفي النهاية تحرّك صلاح الدين، بعد أن عسكر خارج دمشق لفترة من الزمن، بإتجاه رأس الماء وذلك في ٣ ربيع الثاني/ ١٣ تموز. واستناداً إلى عماد الدين وصل إلى الأراضي الفرنجية في ٦ ربيع الثاني/ ١٦ تموز[٦٧]. وانحرف، ظاهرياً، نحو الشرق، سالكاً خط الطريق الحديثة من عمّان إلى زيزة، ثم مجتازاً بعد ذلك نحو رأس وادي أرنون بحيث سار نزولاً سالكاً خط وادي سنينة إلى الربّا (الخريطة ٢). وكان تقي الدين قد غادر مصر، مصطحباً الفاضل وبقية أفراد عائلة العادل، وذلك في أول ربيع الثاني/ ١٢ تموز. وكان صلاح الدين آنذاك يشغل وقته في الإغارة على المنطقة الفرنجية، واستمر

ذلك حتى وصوله في نهاية الشهر. واستناداً إلى المقريزي، وصلت الجيوش الحلبية إلى عمّان في ٩ جمادي الأولى/ ١٨ آب وإلى الكرك في ١٣ جمادي الأولى/ ٢٢ آب[٦٨]، وهذا يتفق مع ملاحظة ابن شدّاد بأن الكرك كانت في ١٤ جماد الأولى/ ٢٣ آب محاصرة[٦٩].

ولعله كان لدى صلاح الدين أكثر من سبب كي لا يدفع بقواته جميعها في الوقت نفسه. كان يحتاج إلى رجال يحثون الحامية، ويشغّلون المناجق، ويقومون بالإستعدادات الضرورية للقيام بهجوم عبر خندق القلعة. وهذا، مع ذلك، لم يكن ليشكل جبهة أطول من ١٥٠ متراً. لذلك، فإن قوات ضخمة سوف تعمل على إستنزاف مؤنة بدون أية فائدة من فعاليتها. أضف إلى ذلك، فإن ترك فرقة هجومية دفاعية قرب الجبهة الدمشقية يمكن أن تردع الفرنجة عن التحرّك للإلتفاف بإتجاه جنوبي البحر الميت كما فعلوا خلال حصار عام ٥٧٨/ ١١٨٣، وإذا إجتازوا إلى الشمال منه، يكون بإمكان صلاح الدين أن يوقعهم بين فكي كماشة. وأخيراً، واستناداً إلى ابن واصل، كان توّاقاً إلى منع نور الدين محمد من الخوض في المصاعب بشكل عشوائي، وقد يكون سعيداً بالحصول على عذر يتركه بموجبه في الإحتياط تحت إشراف العادل[٧٠].

وفي نفس الوقت، كان هو ذاته، مع تقي الدين، قد عبّد الطريق للقيام بهجوم. واتخذت مدينة الكرك قاعدة مرّة أخرى. ونصبت تسعة مناجق ضد الجبهة الشمالية للقلعة، كما دمّرت الدفاعات الخارجية، بحيث تمكن عماد الدين من الكتابة يقول إن العقبة الوحيدة الباقية كانت الخندق العميق الواسع[٧١]. ونقل أبو شامة عن رسائل متفائلة كتب فيها الفاضل يقول: لا يستطيع أي فرنجي أن يُطل برأسه دون أن يصاب بسهم في عينه.. ودمّرت الأبراج والتحصينات المقابلة للمناجق... ولم يبق سوى طمر الخندق... ولا أحد منا سمع بتذمّرٍ أو كان غير راضٍ. وإن شاء الله سيقودنا هذا الهجوم إلى النصر[٧٢].. وعمل صلاح الدين على حماية النقابين (رجال الألغام) بتغطية طرق أنشئت لهذه الغاية. وفي رسالة إلى نور الدين محمد أفاد أن العمل في طمي الخندق قد سار قدماً بحيث أن سجيناً مقيّداً بالأغلال يمكنه أن يقفز من على السور وينجو بنفسه دون أن يصاب بأذى[٧٣]. ومن المفترض أن يكون الإحتياط قد استدعي، في هذه المرحلة، للقيام بالجهد النهائي. ووصل العادل ونور الدين محمد في ١٧ جمادي الأولى/ ٢٦

آب؛ وفي ٢١ جمادي الأولى/ ٣٠ آب، إنضمت مناجق نصبت حديثاً إلى القيام بعمليات الدك، غير أنه في هذا الوقت هبّت قوة نجدةٍ فرنجية إلى القيام بعملية إنقاذ.

حين علم صلاح الدين بأن الفرنجة إجتازوا نهر الأردن، سار إلى رفع الحصار على الفور، وأحرق آلاته ثم قطع مسافة ٤٠ ميلاً (٤٦ كلم) متوجهاً شمالاً إلى حسبان. وكان له هنا موقع مشرف يقوم على حافة هضبة مؤاب، وكان في مكان ملائم لمراقبة أي تقدم للفرنجة ولصدهم معاً. وعلم ابن جبير الذي كان في ذلك الوقت في دمشق أن الفرنجة حاولوا قطع خطوط تموينه، وإن الجيشين كانا يتسابقان بغية الوصول «إلى موضع الماء». فتم السبق لصلاح الدين[٧٤]. ولو أنه كان في عجلة من أمره، لكانت فرقة خيالته إجتازت رحلة الأربعين ميلاً في مدة يوم واحد، ولكن، وبالمماثل، لا تستغرق المسافة بين القدس وحسبان أكثر من يوم واحد على ظهور الخيل. وإن لم يكن صلاح الدين قد رفع الحصار قبل الأوان، لكانت رواية ابن جبير رواية خاطئة. ولم يكن ابن جبير نفسه يعرف البلاد، ويمكن أن يكون «ماؤه» معين، وفي هذه الحالة تكون الوادي التي تحد حسبان من الشرق، في حين كان موقع معسكر الفرنجة الذي ورد ذكره في الولة، يتم تحديده بـ إلآل (الياله)، وهي تلّة منعزلة تبعد حوالي ميلين إلى الشمال من حسبان عبر الهضبة. ومع ذلك، كتب عماد الدين انه كان بالإمكان الوصول إلى الفرنجة فقط بواسطة طرق صعبة ووعرة[٧٥]. أما تاريخ إرنول Ernoul الذي أوجز حصاري العامين ٥٧٩ و ٥٨٠/ ١١٨٣ و ١١٨٤، فجعل معسكر صلاح الدين في حدود فرسخين بينهما[٧٦]. وهذه المسافة، بالإضافة إلى الوصف الذي أورده عماد الدين تلائم أكثر ما تلائم عين عواله الواقعة على نحو ٦ أميال (١٠ كلم) من حُسبان قرب رأس وادي نصريات. ولكن لا يمكن إثبات هذه النقطة لأنه لم نعط أيّة تفصيلاتٍ إضافية. وكتب عماد الدين يقول: «قلنا: يجب محاصرتهم. . . وانتظرنا بفارغ الصبر خروجهم»[٧٧]. ولكن بعد إنقضاء بعض الوقت وحين لم يقوموا بأي تحرّك، عمد صلاح الدين إلى الإنسحاب. واستناداً إلى إرنول، إقتنع الفرنجة بأنه عاد إلى الوطن. غير أن المصادر العربية تلح على أنه كان يستدرج الصليبيين للخروج من معسكرهم كي يقوم بشن هجوم عليهم. وكان جاولي قد أعطي الأمر لمراقبتهم، غير أن الفرنجة فاجأوه بزحفٍ ليلي «عبر المضائق»، وهي طريق جانبية وعرة، كما ورد عند ابن جبير[٧٨]. أما عماد الدين فقد ترك يكتب قائلاً: «ندمنا على الفرصة الضائعة وعلى هروب الطائر من المصيدة»[٧٩].

لم يكن إنجاز صلاح الدين كبيراً. فهو لم يلحق أي ضرر يتعذر إصلاحه بالكرك التي ما تزال قائمة «سداً في حلق الإسلام»[٨٠]. فلو أنه أراد حقاً عملاً ميدانياً، لكان طرح جانباً الفائدة من موقع تكتيكي أقوى. وكان الفرنجة قد إنتظروا إلى أن إستدعى قواته من جبهة دمشق ثم عمدوا إلى سحبه من الكرك بمجرد الاقتراب من خطوط إتصالاته. وكانت الكرك مركزاً لمنطقة زراعية، ولو أنه خاطر، على نحو مؤقت، بمؤنته وشن هجوماً على القلعة، لكان يفترض بقوات الفرنج أن تضطر إلى مقاتلته وفقاً لشروطه هو. أما الذي حصل فهو أنهم تغلبوا عليه بالمناورة وفكوا الحصار دون تسديد أية ضربة. وربما خشي من أن يعلق بين الحامية وقوات النجدة. وهناك إحتمال آخر وهو أنه على الرغم من مدى عملياته، فانه ما يزال يفكر بمنطق الغزو. في تلك الحالة يمكن الإفتراض بأنه هو الذي تفوّق بمناوراته على الفرنجة. إذ أنه أتى بهم إلى شرقي الأردن، وحين ساروا جنوباً إلى الكرك، كان بإمكانه إختيار ضربته بغارة على الضفة الغربية التي هي الآن غير حصينة.

وحصل انه اختار مهاجمة نابلس، الأمر الذي يوحي بأن جيشه ذهب من الأردن صعداً إلى وادي الفارعة. هنالك بعض الشك يحوم حول ما قام به. فابن شداد يذكر على نحو أكيد بأنه بعث بمغيريه الذين عادوا فيما بعد إليه[٨١]، بينما عماد الدين يشوش الأمر بما يورده من غموض[٨٢]. ولم يكن لدى بغدوين شك في أن صلاح الدين نفسه كان في الضفة الغربية. ويبدو من المحتمل أنه إجتاز نهر الأردن[٨٣] ثم أرسل فرقاً مغيرة من قوة الخيالة الرئيسية التي كانت ترافقه. وفي نابلس عمد المسلمون إلى نهب المدينة وحرقها، ولكن لم يكن بمقدورهم الإستيلاء على القلعة. فذهبوا بعد ذلك باتجاه الشمال حاملين معهم أسراهم من الفرنجة واليهود السَّمَرة إلى التلة المنعزلة لسبسطية حيث مقام النبي زكريا، وكان قد حُوِّل إلى كنيسة. وتوصل أسقفه إلى تفاهم مع المهاجمين، فأنقذوا مدينته بالمقايضة بإطلاق سراح ثمانين أسيراً مسلماً، فرحل المسلمون على أثر ذلك متجهين شمالاً إلى جنين. وهنا عمدوا إلى نسف البرج الذي كان الأهالي قد لجأوا إليه، وأسروا العديدين، وغنموا الكثير، مع أن المقريزي أضاف يقول إن المسلمين فقدوا عدداً من النقابين (اللغامين) الذين علقوا بين أنقاض البرج المنهار[٨٤]. ثم تحركوا بعد ذلك أثناء الليل، مارّين بزرعين وعين جالوت ثم كوكب، في طريقهم إلى الأردن. واستناداً إلى تأريخ المقريزي، فقد هوجمت نابلس في آخر جماد الأولى/ ٨ أيلول ثم عاد المسلمون فاجتازوا نهر الأردن في مستهل جماد الثانية/ ١٠ أيلول، الأمر الذي يعني أن سبسطية وجنين اللتين تقعان في حدود ٢٠ ميلاً

(٣٢ كلم) عن نابلس، هوجمتا كلتاهما في نهاية جماد الأول / ٩ أيلول. وتدل سرعة هذا التحرك عبر بلاد غير محميّة نسبيّاً، على أنه، مهما كانت آمال صلاح الدين حين هاجم الكرك، فقد كان الآن مصمماً على القيام بعملية عرض العضلات، أكثر مما كان عازماً على القيام بعملية عسكرية جَدِيَة.

ويمكن أن يُجادل في أنه لم يكن بعدُ من القوة ما يكفي لمتابعة معركة على الساحل، أو أنه كان يقوم بمجرد حملة دعائية، وعينه على خصومه في الموصل. ومهما كانت دوافعه فإن النمط الذي كان يتبعه لم يكن نمط حرب إجمالي. وقد إنعكس ذلك على جميع الصعد، كما برهن على ذلك ابن جبير الذي رحل عن دمشق إلى عكا في ٤ جمادي الآخرة/ ١٣ أيلول، قبل يومين من عودة صلاح الدين من حملته. وذكر أنه حين كان صلاح الدين في الكرك كانت القوافل ما تزال تفد من مصر بطريق الساحل؛ وإن المسلمين كانوا ذاهبين من دمشق إلى عكا، والتجار المسيحيين يصلون إلى دمشق. وكان المسلمون والمسيحيون يدفعون ما عليهم من متوجبات ضرائبية كل في بلاد الآخر، كما كانت المناطق الفرنجية «آمنة إلى حد بعيد». وأضاف أن الشيء عينه حصل خلال الحروب الأهلية بين الحكام المسلمين بحيث أن هذه الحروب لم تؤثر على حياة الناس العاديين ولا على التجار[٨٥]. والجيوش لم تقم بحملاتها، ضد بعضها البعض في الخواء، طبعاً، ولكن في حين «كان أهل الحرب منشغلين بحروبهم» كانت الجماعات التي تكوّن المجتمع المعاصر تحافظ بقدر الإمكان على خصائص وأنماط حياتها.

عاد صلاح الدين نفسه الآن إلى مسألة الموصل. فحين كان ما يزال في الكرك، كان إبنه الثاني، عثمان، قد كتب إليه يخبره بأن شيخ الشيوخ وشهاب الدين بشير عادا الآن إلى دمشق[٨٦]، وأحضرا معهما أوشحة الشرف من الخليفة إلى صلاح الدين، والعادل، وناصر الدين بن شيركوه. فأعطى صلاح الدين وشاحه إلى نور الدين محمد صاحب حصني كيفا عربون إعتراف بالجميل، ثم رحل نور الدين إلى الفرات في ١٣ جماد الثانية/ ٢٧ أيلول. ومما يؤسف له أنه ليس هنالك تفاصيل حول رسالة شيخ الشيوخ أو جواب صلاح الدين. وأفاد ابن الأثير أنه «لم يستقر في الصلح أمر»[٨٧]، ويبدو أن هذا يؤكده غموض رواية عماد الدين. وفي الواقع، كان الوفد سيء الطالع، كما كانت رحلته غير مثمرة. فقد دون عماد

الدين أن «الطقس كان شديد الحر، وإن الأمراض تفشّت»[٨٨]. وسقط كل من شيخ الشيوخ وبشير صريعي المرض وألحا على الرحيل، رغم محاولة صلاح الدين إقناعهما بالبقاء. وحمل بشير من دمشق على محفّة ومات في السخنة ووصل شيخ الشيوخ يرافقه طومان على رأس قوات من سنجار إلى الرحبة وهي مكان مشؤوم إذ أنها تعتبر مسكن ملاك الموت[٨٩]. ورفض أن يستشير طبيباً «توكلاً على الله»[٩٠] فمات هناك في شهر شعبان (٧ تشرين الثاني ـ ٥ كانون الأول). ولا بد أن يكون سرى الظن بأن إلحاحه على مغادرة دمشق يعكس رفض صلاح الدين الموافقة على عروضه. غير أن عماد الدين كان جاهزاً لرد هذا القول بإضافته: «لم يكف صلاح الدين عن ذكره في القلب وعلى اللسان كما لم يتوقف عن شكره»[٩١].

١٤ ـ نهاية امبراطورية

يميّز موت شيخ الشيوخ نهاية كل أمل حقيقي بتسوية الخصومة بين عز الـدين وصلاح الدين بالطرق الدبلوماسية. وعلى الرغم من اتساع رقعة أراضي صلاح الدين، فإن وجود خصم لا يرضخ وصعب الارضاء يمكن أن يكوّن بؤرةً لتململ جميع أولئك الذين أدخل صلاح الدين الرعب في نفوسهم. وبقيامه بالهجوم على الكرك، وبالاغارة على غربي الأردن كان قد سدد على الأقل ضريبة روتينية إلى التزامات الحرب المقدسة، وبإمكانه الآن تحويل إهتمامه إلى فتح الطريق أمام حملة ربيعية عبر الفرات.

وفي شعبان/ تشرين الثاني رحل تقي الدين إلى مصر. واستناداً إلـى تقـرير وضعه المقريزي، جرى ترتيب رسمي يقضي بأن يقوم [تقي الدين] بإدارة البلاد بإسم الإبن الثاني لصلاح الدين، عثمان، في حين يحكم العادل حلب بإسم إبنه البكر، الأفضل. وإذا ما مات أيٌ من ولديه، يتولى منصبه أحـد إخوتـه. وحين يبلغون سن الرشد، ينتهي العمل بالترتيبات المذكورة أعـلاه[1]. وأمضى صلاح الدين شهر رمضان (٦ كانون الأول ـ ٤ كانون الثاني) في دمشق، إنتقل بعد ذلك بإتجاه الشمال إلى البقاع. وفي مستهل السنة الهجرية ٥٨١ (٤ نيسان) كان يعسكر خارج حماه، بعد أن قرر الزحف على الموصل.

وردت رسالة من حماه إلى تقي الدين في ٣ محرم/ ٦ نيسان تقول إن رسلاً وفدوا من إنطاكية، وان رسول صلاح الدين الخاص، العادل، قد عاد من «بلاد الفرنجة»، وأطلق ريموند صاحب طرابلس عدداً من السجناء المسـلمين وأرسل

كتاباً «مع طلب حول هدنة إنطاكية» . وكانت إنطاكية مختبأة وراء هذه الهدنة منذ سقوط حلب في العام ٥٧٩/ ١١٨٣ . ولعل الفرنجة كانوا أكثر الناس توقاً إلى تمديدها بسبب موت الملك بغدوين في ذي الحجة/ آذار . وكان غي دولوزينيان، بعد حملة عين جالوت، قد عزل من منصبه، وتوج ابن أخت لبغدوين والبالغ من العمر ستة أعوام، ملكاً مشاركاً مع خاله . وعلم ابن جبير أثناء زيارته إلى الساحل أن بغدوين لم يظهر أمام الجمهور بسبب جذامه، وإن السلطة كانت بيد «القومس (الكونت) اللعين، صاحب طرابلس وطبرية»[٢]. وفي الواقع، تولى ريموند الوصاية على العرش على أثر وفاة بغدوين، ومن المفترض أن يكون في هذه المرحلة مجرياً مفاوضات ليس بشأن إنطاكية وطرابلس فحسب، بل من أجل مملكة القدس أيضاً. ففي العام ٥٧٨/ ١١٨٢ كان صلاح الدين قد إجتاز الفرات بدون أن يعقد هدنة مع الفرنجة، غير أن هذا العمل ترك جبهة دمشق مكشوفة . وغالباً ما إتهم صلاح الدين أعداءه بأنهم عقدوا إتفاق تسوية مع الكفّار، ليكتشف أن قيامه بعمل مماثل لا يسبب له إلا الإحراج، غير أنه كان عليه أن يوازن بين عمل دعائي وخطر عسكري. وفي هذه المرة إختار الحذر، فعمد إلى ترتيب هدنة عامة . ومن الملفت أن أحداً من كتاب السير في ذلك الزمن لم يشر إلى هذه الهدنة والذين تجاهلوا أيضاً المعاهدة التي أبرمها مع الإمبراطور أندرونيكوس قبل أن يُخلع هذا الأخير ويقتل من قبل إسحق أنجلوس .

وتذكر الرسالة التي وردت من تقي الدين أن جبهة أخرى كانت تحتاج للدفاع عنها هي جبهة أرمينيا حيث كان الأرمن «ما يزالون يطالبون» بعقد إتفاقية هدنة . وقد أتاح ذلك لصلاح الدين بأن يسدي إلى قلج أرسلان معروفاً فوافق على إتفاق هدنة شرط أن يطلق الأرمن سراح رجال قلج أرسلان الذين كانوا يحتفظون بهم أسرى عندهم، وإذا رفضوا ذلك فإنه سيسير بجيشه فوق الممرات ويهاجمهم .

ولم يُعطَ أي تفسير في الرسالة للتحرّك الذي جرى ضد الموصل . وقد وُعِدَ تقي الدين بالحصول على رواية كاملة عمّا حصل يقدمها له مبعوث صلاح الدين هناك، غير أن التفصيل الوحيد الذي أضيف هو أن وصول الرسل من إنطاكية تزامن مع وصول المبعوثين من الموصل الذين إعتقدوا أن صلاح الدين سوف يكون منشغلاً بإنهاء الهدنة مع الفرنجة ـ وهي إشارة إلى بعثة موصلية أخرى ناجحة قابلت صلاح الدين في حماه . وهنالك التعليق الإعتيادي حول النفقات، فتحرك صلاح

الدين جعل المبعوثين يفدون من قبل الأصدقاء والأعداء؛ ولا بد من تأدية واجبات الضيافة، ومقابل الهدايا الصغيرة التي أحضروها من قبل أسيادهم، كان على صلاح الدين أن يرسل هدايا تفوقها روعة وكرماً؛ فكانت النتيجة، «أن أصبحت النفقات ضخمة والمصاريف أكبر من المعتاد»، ولكن لا شيء من هذا إستطاع أن يضعف قرار صلاح الدين. وتنتهي الرسالة بالإشارة إلى خطة طموحة كان تقي الدين يفكر بها وهي القيام بهجوم على الموحدين في المغرب. ومع أن صلاح الدين اعتبر الموحدين عدواً مناسباً في مخطط عمله المتعلق بالسيطرة الإسلامية، فلا بد من أن يكون قد رغب في الاّ يجهد نفسه أكثر مما ينبغي. فكانت النتيجة أن أدى ذلك إلى تثبيط همة تقي الدين[٣].

وكتب الفاضل من دمشق يخبر الأفضل أن مبعوثين من قبل «الملوك» تدفقوا على معسكر صلاح الدين في حماه؛ وكانوا يحملون «الهدايا» التي كانت في الواقع، جزية أراضيهم، وكانت جيوشهم مستعدة لخدمة صلاح الدين أينما حلّ ورحل[٤]، وألمح على نحو أقل إبتهاجاً، إلى أنه كان بين عماد الدين وصلاح الدين نفور. وأشار إلى أن السبب يمكن أن يكون في أنه غيّر عادته في أن يكون حاضراً في الشؤون الهامّة، مثل الحملة المقبلة. لقد ترك نفسه في وضع المسلم يوم الحساب الذي لم يكن لا بريئاً ولا مذنباً، حيث أنه لن يذهب لا إلى النيل ولا إلى الفرات، لقد إجتاز عتبة الستين من عمره وأخذت قواه في الوهن وأكد أنه حين لا يكون حاضراً في المعركة، يمضي ليلته وكأنه جرح جرحاً بليغاً؟ وقال لعماد الدين: «إذا كان هنالك من فجوة فاطمرها بعذر الضعف والوهن، ولكن، خلاف ذلك، فلا حاجة إلى الحياء». وهنأ عماد الدين على حصوله على وعد بتملك عقار ودار في بلاد الموصل، ولكنه نصحه بأن يكون لبقاً بالتقدم بمطالبه، وأنهى كلامه قائلاً بأنه يرجو لزحف صلاح الدين نهاية موفّقة[٥].

وتوحي هذه الرسالة، بالإضافة إلى بينةٍ لاحقة، إمكان تباين في الرأي حول الطريقة التي ينبغي أن تعالج بها مسألة الموصل. وقبل أن يعمل زين الدين صاحب إربل، وسنجر شاه على تعقيد القضية كان الفاضل قد فكر بأنه آن الأوان للوصول إلى تفاهم بحيث يتمكن صلاح الدين أن يحوّل إهتمامه كله صوب الفرنجة. ومنذ ذلك الحين بدأت الرسائل ترد من كوكبري تشكو هجوم قايماز على أربل[٦]. غير أنه سبق أن قيل على لسان عماد الدين إن التهديد الموصلي باللجوء إلى البهلوان

للحصول على مساعدة هو الذي أخلّ بالتوازن[٧]. وشعر صلاح الدين بوضوح بأن عليه أن يشنّ هجوماً وقائياً، ولعل الفاضل لم يوافق على ذلك. وكانت إحدى المخاطرات هي أن يجد صلاح الدين نفسه في شرك من حروب مشرقية لن تترك له متسعاً من الوقت للجهاد. والمخاطرة الأخرى هي أن اتساع رقعة الأراضي قد تضعف السلطة المركزية، فإذا ما زاد حجم الفقاعة الأيوبية أكثر مما ينبغي، فيمكن لها أن تنفجر.

ومع ذلك، وسواء أكانت هنالك مخاطرة أم لم تكن، فلم يثنِ ذلك صلاح الدين عن مهمته فانتقل من حماه إلى حلب ماراً بتل السلطان حيث التقى بالعادل على رأس الجيوش الحلبية. وعسكر خارج حلب، ثم سار شمالاً على مجرى نهر قويق قبل أن ينطلق عبر السهول بإتجاه البيرة (الخريطة ٨). واستناداً إلى عماد الدين، توقف في مكان يبعد مسافة فرسخين في إتجاه مجرى النهر من البيرة، واستغرق ثلاثة أيام في نقل جيشه عبر نهر الفرات، قطع بعدها مسافة ٦٠ ميلاً (٩٧ كلم) متقدماً نحو حرّان[٨]. وهنالك تناقض في تأريخ زحفه. فابن شداد يقول إنه التقى كوكبري في البيرة يوم ١٢ محرم ٥٨١/ ١٥ نيسان، وأنه وصل إلى حرّان في ٢٢ صفر/ ٢٥ أيار[٩]. ولم يُعطِ أي تفسير لتأخره، وليست الرواية مدعومة من جانب عماد الدين الذي رافق الحملة. ومع أن عماد الدين لا يضيف تواريخ صحيحة، فإنه يجعل صلاح الدين يغادر حلب ويصل إلى حرّان معاً في شهر صفر (٤ أيار - ١ حزيران) ولا يذكر أي لقاء مع كوكبري في البيرة. ومن جهة ثانية، كان يمكن التوقع من كوكبري أن يساعد فرق العمل لدى صلاح الدين التي أرسلت لجمع القوارب من أجل إستخدامها في إجتياز النهر، وكان يمكن الإفتراض أن ابن شداد شوّش وقائعه. لقد عسكر صلاح الدين خارج حرّان لبضعة أيام في ٢٦ صفر/ أواخر شهر أيار، ثم، وبعد أن لعب الصولجة مع كوكبري في أحد الأيام، أثار نقمة معاضديه بسبب قيامه بتوقيفه.

أرسل عماد الدين على الفور رسالة إلى الفاضل الذي أجاب على ذلك بأنه كان يتوقع هذه الضربة منذ بعض الوقت، ولكن «الله يعلم حزني وقلقي لما حصل». ثم علّق على نحو موجزٍ قائلاً إن إهانة كوكبري لم تكن سوى واحدة من علامات التهوّر وضعف التفكير، ولم تكن دليلاً على أنه كان يتطلع إلى تبديل في الولاء، وعلى أنه كان يستعد إلى لعب دور المرتد أو الخارج؛ وقد عمل هو نفسه

كل ما كان باستطاعة رجل غائب أن يعمله، وهو كتابة الرسائل؛ فلو كان حاضراً لما كان أدخر وسعاً في مساعدة كوكبري، غير أنه يستطيع أن يعتمد على المساعدة اللبقة التي يمكن أن يقدمها عماد الدين. وليس لديه أدنى شك في أنه لدى وصول كتابه إلى حرّان سيكون كوكبري حرّاً طليقاً، ولكن، مع ذلك، كان صدره منقبضاً[١٠]. وكتب بالمعنى نفسه إلى القاضي نجيب الدين العادل، الذي كان قد بعث بخبر عملية التوقيف[١١] وكتب إلى سنقر الخلاطي، الجبار، «وهو أحد القادة والوسطاء في كل ما هو خيرّ»، وكرر القول في أن سبب الأذى كان واقع أنّ كوكبري ذهب بعيداً في الإعتماد على كرم صلاح الدين، ولكن «رحمة السلطان هي في متناول اليد»[١٢].

قدّم عماد الدين روايته الخاصة حول خلفية حادثة التوقيف. كان كوكبري قد ناصر صلاح الدين في هجماته ضد الموصل وسنجار وأمد، وحث بشكل مستمر أخاه زين الدين يوسف صاحب إربل على تغيير ولائه والتخلّي عن الموصليين. «كان قدوة لجميع من أرادوا خدمتنا». وفي رمضان من السنة الهجرية ٥٨٠ (كانون الأول - كانون الثاني ١١٨٤ - ٨٥) بعث برسائل إلى دمشق يحرّض فيها صلاح الدين على السير بإتجاه الشرق. وكان مبعوثه قد أغدق الوعود، عارضاً توفير المؤن وتسديد النفقات التي يحتاج إليها الجنود، وتعهد لصلاح الدين، بصورةٍ خاصة، بأن يؤمن له ٥٠,٠٠٠ دينار تسلّم إليه يوم وصوله إلى حرّان. ولم يطلب صلاح الدين المال، «لأن التواضع كان من خصاله»، غير أنه حين لم يتخذ كوكبري أية خطوة لدفع المال، أوحى «الواشون» بأنه لا بد قد توصل إلى ترتيبات وفاقية مع الموصليين. وأرسل عماد الدين، مع القاضي شمس الدين بن الفرّاش لتحرّي الأمر ولتذكير كوكبري بوعود مبعوثه. فطن كوكبري لمهمتهما، وقبل أن يتمكنا من طرق الموضوع، أبرز نسخة من القرآن الكريم، ووضع يده عليها إستعداداً لحلف اليمن، فوقعت على الأرض وفتحت على الآية: ﴿يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود﴾. فأخذ عماد الدين من ذلك عبرة، غير أن كوكبري أصر على التملّص من مسؤولية ما قاله مبعوثه. وفي اليوم التالي تم إلقاء القبض عليه[١٣].

ويمكن قبول حكاية عماد الدين التي أكدّها ابن الأثير، على أنها تقدّم أحد أسباب الخصام. غير أن سبباً آخر ظهر في رسالة الفاضل إلى صلاح الدين نفسه، إذ كان الفاضل يقلق على حادثة التوقيف فقال بأنه لم يكن هنالك من شك في أن

صلاح الدين بطبيعته السمحة والهنية، «وينبوع الماء العذب الصافي»، لا يمكن أن يكون بلغ به الغضب إلى هذا الحد دون أن يكون قد سبق له وتحمل أخطاء كوكبري وتغاضى عنها. ومن الواضح أنه مغدور، وأن الملامة تقع على كوكبري. ومع ذلك، فإن السجل السابق لخدمات كوكبري هو من الأهمية بحيث يجب أن يعامل معاملة حسنة. وحين يعود إلى صوابه، وينظر إلى الأمر بإخلاص وتجرّد، سيتبيّن له أن السبب الذي جعل صلاح الدين يحجم عن إعطائه ما كان في حوزة أخيه زين الدين يوسف كان الإتفاق المبرم بالقسم بين زين الدين وصلاح الدين. وكان كوكبري نفسه قد طالب بهذا الإتفاق وقام بمهمة الوسيط فيه؛ ويجب على الحلفاء الآخرين الذين كانوا مرتبطين مع صلاح الدين بعقود مماثلة، أن يشعروا بالسعادة حين يرون الإهتمام الذي بذله كي يحافظ على كلمته، وهذا كان موضوعاً ينبغي أن يصار إلى التشديد عليه في جميع الرسائل المرسلة إلى أولئك الذين قد يكون الخبر أزعجهم. ولا ريب في أن كوكبري سيفيد كثيراً من هذا الدرس، وأنه قد يكون شط بعيداً، غير أن الفاضل أمِلَ في أنه ما أن تصل رسالته حتى تكون العقدة قد حُلَّت. وتابع يقول إن الأراضي آمنة والناس بخير؛ وإن الإدارة تسير بالعدل؛ وإن الألسنة تستمطر البركات لصلاح الدين والأكف مرفوعة إلى السماء تضرع بالدعاء له. لكل هذا، مع ذلك، «يرى العبد أن هوّة النفقات، تتسع لدى السيد وأن هنالك حاجة ماسة وملحة إلى المال»، وقال إنه يخشى أن تكون حاجة صلاح الدين إلى الحصول على المال بسرعة سبباً في دفعه إلى «عدم تقدير بعض الشؤون حق قدرها والتي ينبغي التفكير في عواقبها، وإلى الدخول في أخطار لا يمكن له أن يتقي نتائجها الضارة»[١٤]. ومما يدعو إلى الأسف انه ليس هنالك تفسير لهذه الملاحظة الملغزة والخفية المعنى، غير أن الضائقة المالية المبكرة، والإجراءات غير الحكيمة المحتمل إتخاذها يمكن إعتبارها تأكيداً لعدم رغبة الفاضل في القيام بالحملة جملة وتفصيلاً. وما هو واضح دون أي ريب هو أن كوكبري كان يطالب بأرضٍ هي في حوزة أخيه، وان صلاح الدين رفض طلبه. ويمكن التكهن انه في هذه المرحلة أحجم كوكبري عن الوفاء بما وعد من مساعدة مالية، غير أن الخصام، على أي حال، بلغ الآن أوجه. ولا بد من أن يكون عماد الدين قد عرف الحقائق ولكنه حذفها كي يخفي محاولة كوكبري المخزية بشكل بيّن والرامية إلى الإنتصار على أخيه. وأخيراً، إن إشارة الفاضل إلى أولئك الذين قد

يزعجهم النبأ، تدل على الضرر الدبلوماسي الذي يمكن أن يُتوقع. وتؤيد ملاحظة ابن الأثير أن صلاح الدين «كان يخشى أن يتحول الناس في أراضي الجزيرة ويبتعدوا عنه . . فجميعهم يعلمون ما فعله كوكبري من أجله»[١٥].

تمت تسوية الأمر، كما رجا الفاضل. والمح عماد الدين إلى أن أمراء صلاح الدين كانوا وراء إتخاذ الإجراءات الصارمة[١٦]. فقد نصحه بعضهم بنقل كوكبري إلى القلعة في حلب كي لا يهرب، وفكر الآخرون بأنه يجب أن يقتل، وكان المعسكر في إهتياج. وأشار عماد الدين نفسه، وكذلك القاضي ابن الفراش وضياء الدين عيسى أن الأذى لم يكن كبيراً، «وهذا كان رأي صلاح الدين»، وطلب إليهم بأن يزوروا كوكبري ويهدئوا من روعه. وكتب عماد الدين يقول عن لسانه: «لقد قال: سوف أعطي صلاح الدين جميع أراضيَّ وأسلّمه كل ممتلكاتي القديمة والحديثة، وسوف أذهب معه وأكون في خدمته». فقلنا له: «برهن عن خضوعك بتسليمك قلعتي الرها وحرّان». فقال: «وسأقبل كل ما تشيرون به علي». واستناداً إلى ابن شدّاد، أطلق سراح كوكبري في مستهل ربيع الأول/ ٢ حزيران وأعيدت إليه القلعتان اللتان أخذتا منه[١٧]. وليس هنالك من إشارةٍ إلى ما وعد به من مساعدةٍ مالية، ولكن بالنظر إلى حاجة صلاح الدين إلى المال، يبدو من المحتمل جداً أن هذه المساعدة قد تم دفعها الآن.

كان المشطوب قد أُرسل إلى رأس العين مع فرقة الحرس المتقدّم، ثم لحق به صلاح الدين في حرّان في ٣ حزيران. وكتب عماد الدين إلى الفاضل قبل رحيل الجيش بقليل، وأجابه الفاضل عن رسالته ١٣ ربيع الأول/ في ١٤ حزيران شاكراً الله على صحة عماد الدين الجيدة التي كان سبحانه قد سئل أن يتركها عربوناً لا يُستَرد، ومضيفاً القول بأنه يتوقع نصراً قريباً[١٨]. وفي نفس الوقت، وإستناداً إلى ابن شداد، جاء رسول من لدن قلج أرسلان يحذر صلاح الدين من أن «ملوك الشرق بأسرهم» إتفقوا على محاربته إن هو لم ينسحب من ماردين والموصل[١٩]. ولم يكن صلاح الدين، مع ذلك، ليخشى تهديدهم، وانتقل من رأس العين إلى دُنَيْسر في السهل في سفح ماردين، حيث إنضم إليه جيش بقيادة أخٍ لنور الدين محمد هو أبو بكر. أما نور الدين نفسه فمنعه عن الحضور مرض ألمّ به، والذي أدى إلى وفاته في ١٤ ربيع الأول/ ١٥ حزيران. وخلّف ولدين صغيرين. وطلب إلى أبي بكر الذي أراد أن يأخذ المدن التي يحكمها أخوه وهي حصن كيفا وآمد

وخرتبرت، أن يغادر على الفور[٢٠]. ولم يقم صلاح الدين بأي تحرّك ضد ماردين حيث كان قطيب الدين اللغازي الذي توصل معه إلى تفاهم خلال حملة ٥٧٩/١١٨٣، قد توفي في خريف ٥٨١/ ١١٨٤. وكانت تدار شؤون المدينة الآن بإسم ولده البكر، وهو فتىً في العاشرة من عمره، بواسطة نظام الدين البقوش، وهو مملوك عينه خال نور الدين، شاه أرمن. وقبع نظام الدين خلف أسواره، أما صلاح الدين فتحرّك نحو الشرق ماراً بدارا ونصيبين. وحين غادر نصيبين إنضم إليه سنجر شاه صاحب جزيرة ابن عمر. واستناداً إلى عماد الدين، سلك أكثر الطرق مباشرة. ووصل إلى بلد في آخر شهر ربيع الأول (أول تموز)، ثم تقدم مقترباً من الموصل ومتوقفاً في الإسماعيليات[٢١].

وحين وصل صلاح الدين إلى بلد، أرسل مبعوثه ضياء الدين الشهرزوري ليشرح للخليفة سبب عودته إلى الموصل. وكانت النقاط الرئيسية هي النقاط السابقة عينها، غير أنه تم إستخدام سنجر شاه وزين الدين يوسف لتعزيز الحجة التي كانت ترتكز على أساس أن عز الدين كان يتصرّف عكس ما تقضي به أوامر الخليفة؛ وأن إسم السلطان سلجوق قد ذكر في خطبة يوم الجمعة في الموصل وظهر منقوشاً على قطع النقود الموصلية؛ وأن عز الدين فرض ضرائب غير شرعية؛ وأنه كان يتلقى دعماً من البهلوان ويتراسل مع الفرنجة؛ وأن صلاح الدين نفسه لم يكن قد أتى إلى الموصل «رغبة منه في إضافة المزيد إلى مملكته أو تدمير بيت قديم. . . فجل غايته كانت في أن يعيد الموصليين إلى حظيرة الطاعة للخليفة ويحملهم على مناصرة الإسلام. . . ويجبرهم على القيام بواجبهم بحماية عملائهم وإعطاء أنسبائهم حقوقهم المشروعة»؛ وأن سيد إربل الذي دافع أبوه عن الموصليين وكان عميلهم، شكا من ظلمهم؛ وأن عز الدين غشّ وريث سيف الدين اللغازي، سنجر شاه فحرمه من ميراثه «ولو استطاع لسفح دمه». وتابع صلاح الدين يقول إن سنجر شاه لم يكن قد طلب عوناً من غريب ليناصره ضد عمه لو لم يكن في حالة من الخوف[٢٢].

واستناداً إلى ابن الأثير، حين كان صلاح الدين في بلد أرسل له عز الدين وفداً ضمّ والدته هو وابنه نور الدين [محمود] صاحب سوريا التي جاءت من حلب مع زوجها عماد الدين زنكي. ورافقتهما سيدات أخريات، كما رافقهما بعض أعيان الدولة. فطلبوا إلى صلاح الدين أن يوافق على معاهدة سلام تقضي

بأن ترسل الجيوش الموصلية لتخدم تحت لوائه حين تدعو الحاجة إلى ذلك. وأضاف ابن الأثير يقول إن عز الدين وبلاطه كانا على ثقةٍ في أن هذا الأمر سيكون مقبولاً [لا سيما ومعهم إبنة مخدومه نور الدين]. غير أن صلاح الدين عقد مجلساً إستشارياً قام أثناءه ضياء الدين عيسى، والمشطوب، وكلاهما من أكراد الموصل، بمناقشةٍ فحواها أنه «مثل الموصل لا يترك لأمرأة» وأن عز الدين ما أرسلهن إلاّ وقد عجزن عن حفظ البلد. «ووافق ذلك هواه [صلاح الدين]»، فأعاد هذا «واعتذر بأعذارٍ غير مقبولة»[٢٣] ندم عليها فيما بعد، كما قال ابن العديم. وكان ابن الأثير في ذلك الوقت في الموصل، فكتب يقول إن رفض صلاح الدين للبعثة الدبلوماسية أثار غضب عامة الشعب بحيث واصلوا القيام بمناوشات ضد جنوده. وقد أدى عنف تلك المعارضة بصلاح الدين إلى الندم على أنه فاته «الذكر [الحسن] وملك البلد». فغضب من مستشاريه، ووردت رسائل من الفاضل وأشخاص آخرين «لم يكن لديهم رغبة في الموصل»، تنتقد ما صنع[٢٤].

يصعب أن نتحدى رواية ابن الأثير المباشرة، والحقيقة التي لا ريب فيها، هي أن صلاح الدين كان يواجه مرّة أخرى مقاومة صلبة من جانب الموصليين. غير أن هنالك مسألة أوحى بها عماد الدين وهي أن سيدات الأتابكة قد جئن في رمضان أواخر العام، وليس قبل أن يغادر صلاح الدين الموصل بمدة طويلة. وأشار إلى أن صلاح الدين استقبلهن بلطفٍ وكياسة، قائلاً: «جئنا نوحّد كلمة الإسلام ونعيد الأمور إلى نصابها وذلك بإزالة الخلافات... إنني أقبل وساطتكن... ولكنه ينبغي أن يكون هنالك إتفاقية»[٢٥]. ولم يكن عماد الدين، مع ذلك، مهتمّاً بتحديد التاريخ، وذلك يوحي، بالإضافة إلى ميله إلى تمويه النقاط التي ليس فيها فائدة كثيرة لسيرة صلاح الدين، بأن رواية ابن الأثير ينبغي أن تكون مقبولة[٢٦].

لم يكن صلاح الدين مستعجلاً القيام بهجوم على الموصل. فاجتاز كوكبري نهر دجلة وعسكر إلى الشرق من المدينة، حيث قام أخوه زين الدين يوسف بتعزيزه[٢٧]. وأرسل صلاح الدين نفسه جنوداً يتقدمون كل يوم ليختبروا معنويات المدافعين، غير أن إهتمامه الرئيسي كان منصباً على تحطيم معنوياتهم وذلك بتوزيع الإقطاعات. فأعطي عماد الدين ملكية كانت تخص أحد وزراء الموصل السابقين، بالرغم من تضايق موظفي الخزينة الذين قالوا لصلاح الدين بأنهم تلقوا مقابلها عرضاً بلغ ١٥,٠٠٠ دينار[٢٨]. وأرسل المشطوب، بالإضافة إلى أمراء

هكاريين ورجالَ قبائل، للإستيلاء على منطقة الهكارية، في حين أُرسل أكراد الحميدية إلى أقليمهم الأصلي حول العقر، الواقعة على مسافة حوالي ٥٠ ميلاً (٨٠ كلم) إلى الشمال. وأصبح الطقس حاراً جداً، فسمح صلاح الدين لرجاله بألا يلبسوا الدروع. وقال لهم، إستناداً إلى عماد الدين: «يجب أن نعمل بتمهّل، فلا تسرع... يكفي أهل الموصل بأنهم مسجونون هناك»[٢٩]. ونقل الفاضل هذا الخبر إلى الأفضل، وكتب متفائلاً حول «إقتراب النصر العظيم». وقال إن صلاح الدين كان في المعسكر في الإسماعيليات وأن أسياد المنطقة، وقادة الجيش، والحكام، وفدوا إليه؛ وأن آخر الوصول كان زين الدين يوسف على رأس قوّةٍ تعد ألفاً من الطواشية؛ وأن شاه أرمن، والبهلوان وأخيه أرسلوا مبعوثين وهدايا ورسلاً، «كل منهم يمهد سبيله الخاص، ويفاوض صلاح الدين لحسابه الخاص»، وأن التأخر في تسديد ضربة الرحمة إلى الموصل، كان سببه الحر الذي جعل عملية حمل السلاح أمراً مستحيلاً، إلا أنه جرى إستيراد الثلج بأسعار متهاودة وكان العلف متوافراً بكميات كبيرة؛ وإن العقارات الضخمة للموصل وزعت حصصاً بين رجال صلاح الدين؛ وأن عز الدين كان مسجوناً خلف أسواره؛ وأنه أدرك أنه لم يكن هنالك أحد يساعده وأن رعاياه كانوا يحاربون ضده بالصلوات[٣٠].

وعلى الرغم من تفاؤل الفاضل، لم يكن الحصار، بالمعنى العسكري، ليوحي بأي تقدم. وبرزت في هذه المرحلة، فكرة تقول بتحويل مجرى دجلة، بحيث يتم بذلك قطع المياه عن الموصل. مع أن هذه الفكرة بدت أول الأمر فكرة سخيفة، إلا أن الخطة، استناداً إلى عماد الدين، لقيت قبولاً لدى أحد المهندسين البارزين في ذلك العصر، هو فخر الدين بن الدهّان، الذي كان قد ترك الموصل ليلتحق بقوات صلاح الدين[٣١]. وسمع ابن الأثير بذلك، ولكنه ذكر ان صلاح الدين عدل عن الفكرة لأنها ستستغرق وقتاً طويلاً وتتطلب جهداً كبيراً[٣٢]. ففي ٢٠ ربيع الآخرة/ ٢١ تموز ورده نبأ وفاة شاه أرمن صاحب خلاط واقترح بعض مستشاريه بأن يرحل الجيش فوراً إلى بحيرة فان (وان)، بينما اقترح البعض الآخر بأن يستمر الحصار، فيما إعتبر فريق ثالث أنه كان هنالك عدد من الرجال يكفي للقيام بالمهمتين معاً[٣٣]. وكتب عماد الدين يقول: «أمضينا الليل موزّعين بين هذه الآراء الثلاثة»، غير أنه وردت في الصباح رسائل من «أصدقائنا في تلك الجهات»، تحث صلاح الدين على المجيء إليها[٣٤]. أُعيد زين الدين يوسف،

نتيجة ذلك، إلى إربل وعُزّز بالمشطوب. وأمر ناصر الدين محمد بأخذ طليعة الجيش إلى خلاط وعُزّز بكوكبري، في حين كتب صلاح الدين نفسه يطلب من الخليفة براءة تقليد منصب. فشاه أرمن لم يترك له وريثاً، «فبقيت بلاده من غير سيّدٍ لها، وأفواه العجم الجشعة فاغرةً لالتهامها»؛ وكانت أرملته ابنةَ البهلوان، «الذي لم يزوجه إياها إلا رغبة بمملكته»؛ وكانت جميع ديار بكر فارغة. وفي ماردين كان الابن البكر لقطب الدين يبلغ من العمر عشر سنين، والأبن الأصغر يبلغ من العمر سنتين. أما ابن نور الدين محمد فكان عمره عشر سنوات؛ وأصيب دولتشاه، صاحب أرزن وتغليس بسكتة دماغية، فكان أشبه «بقطعة لحم على خشبة جزّار». أما فيما يتعلق بالموصل نفسها، «فمنذ قام الخادم بتحرّك ضدها، لم يشغل نفسه بالحصار... وذلك بسبب الحر»؛ فقرر تحويل مجرى دجلة وجمع لذلك المنهدسين وتبين أن العمل سهل فشرعوا في حفر أقنية التحويل، غير أنه ورد بعد ذلك نبأ وفاة شاه أرمن. كان صلاح الدين في حيرة من أمره أيذهب أم يبقى، ولكن رسائل وردت حينئذٍ من رجال بارزين يدعونه إلى زيارتهم ويعبرون عن كراهيتهم للبهلوان. وأنهى صلاح الدين رسالته بالطلب من الخليفة مرة أخرى أن يرسل له براءة تشمل جميع ديار بكر والموصل بالإضافة إلى بلاد شاه أرمن[٣٥].

تحرّك الجيش الآن راحلاً عن الموصل في طريقه نحو الشمال. وبينما كانت طليعة جيش صلاح الدين تزحف على خلاط، ارتد هو نفسه إلى مايافارقين التي تقع إلى الغرب من بحيرة «فان»، على مسافة رحلة يوم واحد من آمد (الخريطة ١). كانت المدينة قد تركت من قبل قطب الدين صاحب ماردين إلى ابنه الأصغر، وكانت تدير شؤونها أرملته، وهي أخت نور الدين محمد صاحب حصن كيفا، والحليف السابق لصلاح الدين. وكانت مايافارقين في أيدي الأرتقيين منذ العام الهجري ٥١٥، حين أخذت من البكتموريين أصحاب خلاط. غير أنها كانت في هذا الوقت كما ذكر ابن الأثير، محسوبة جزءاً من بلاد شاه أرمن ومحميّة بواسطة الجنود الخلاطيين بإمرة أمير ماردين، أسد الدين يُرنقش[٣٦]. ولم يكن صلاح الدين يتوقع مقاومة، إلا أن أسد الدين كان قد أعد نفسه لحفظ البلد. وكتب عماد الدين يقول: «رأينا ما لم ننتظر، ووجدنا صعباً ما حسبناه سهلاً»[٣٧]. وكان المكان نفسه يعتبر أمنع من آمد. وكتب ياقوت في منعطف القرن يلاحظ بأنه لم يجرأ أحد الإستيلاء عليه بواسطة هجوم[٣٨]. فدار قتال ضارٍ، وحدثت بعض

الهجمات التي قام بها المحاصرون، كانت نتيجتها أن إنعطف صلاح الدين بسرعة نحو الدبلوماسية. واستناداً إلى عماد الدين، أرسل رسلاً إلى أسد الدين يقول له بأنه سيحترم الحقوق ويطيع أوامر أرملة قطب الدين، وكتب إليها يقول: «إن لنا الحق الأول بحماية بيتك... لن ندخل المدينة إلاّ وفاقاً لرغباتك... وان أزوج إحدى بناتك لأحد أولادي». ثم عمد إلى إثارة الخلافات بين بعضهم البعض. فقيل لأسد الدين: «إن السيدة تميل إلى عقد معاهدة تسوية»، في حين أنذرت هي بأن أسد الدين كان يعتريه الضعف. ونجح هذا الضغط النفساني، فتم التوصل إلى إتفاق تسوية، نص على أن يلتحق أسد الدين بخدمة صلاح الدين ويعطى إقطاعاً، وأن يسمح لأرملة قطب الدين بالإحتفاظ بأملاكها، وبإعطائها قلعة الهتاخ*[39]. وتمت خطبة الإبن الخامس لصلاح الدين، المعز إسحق، الذي لم يكن بعد قد بلغ سن الحادية عشرة، على إحدى بناتها. وكتب عماد الدين مضيفاً يقول: «سارع صلاح الدين إلى الموافقة على كل ما طلبوه خشية بروز أية عقبة»[40]. وفي سلخ جماد الأولى/ ٢٩ آب دخل القاضي ابن أبي عصرون المدينة للقيام بمراسم الخطوبة، التي كان عماد الدين فيها وكيلاً عن العروس. وأقام صلاح الدين حفلة إستقبال دعا إليها الشخصيات البارزة، ثم استعد بعد ذلك لتركيز إهتمامه على خلاط.

في جواب عن رسالة أفيد فيها عن سقوط ميافارقين، كتب الفاضل الذي سبق له أن علم بالنبأ من رسائل وردته من العادل وعماد الدين، يهنيء صلاح الدين على حقيقة «توطّد الأسرة الحاكمة في تلك المنطقة، وعلى أن الباب فُتح أمام فتح تلك البلاد». وإن الناس هناك كانوا معتادين على «الملوك الذين يفترسونهم»، في حين أن صلاح الدين سوف يلغي المكوس غير الشرعية، ويزيل الظلم، ويقضي على الفساد الأخلاقي. وقال لصلاح الدين، إن «أولاده الملوك»، هم في صحة جيدة. وأن الطرق آمنة، ورعاياه وجنوده مطيعون، والفرنجة يحترمون شروط الهدنة ويعملون بها[41]. وفي رسائل خاصة، مع ذلك، كان أقل إبتهاجاً. ففي جوابه على رسالة من عماد الدين مؤرخة في ٢٨ تموز، والتي وصلته إلى دمشق في ١٢ آب، كان ما يزال قلقاً حول علاقاته الخاصة مع صلاح الدين. وكتب يقول إنه كان

(*) الهتاخ أو العتاف هي اليوم في ديار بكر بتركيا وتدعى ليجة.

منهمكاً باستمرار في تلخيص الأنباء التي ترد من الجيش وإرسالها إلى مصر، وأن رسائل أخرى ينبغي أن ترسل إلى المناطق الأيوبية المختلفة؛ وإذا ما سئل عماد الدين، فإنه سيخبر صلاح الدين أن الفاضل كان منشغلاً كلّية في عمل ما يضرّ بأعدائه، ويبهج أصدقاءه. ثم أضاف، على نحو غامض، يقول: «يبقى ما لم أشر إليه، وما لا أستطيع ذكره من واقع أن الوسائل تقصّر عن بلوغ الغاية المنشودة»[٤٢]. ويبدو أن هذا يشير إلى المال. وكتب في جواب عن رسالة بعث بها من مايافارقين يخبر عماد الدين بالاّ يحوّل طلبات يُفترض أن تتعلق بالمال أو الحظوات، في ذلك الوقت، ذلك لأنها ستعرّض طالبيها للرفض، وتعرّض المتوسطين لها للصدّ والتوبيخ[٤٣]. وفي رسالة أخرى بعث بها إلى مايافارقين، وصف محاولة صلاح الدين في الحصول على تحويل مالي إلى مصر «كرجاء يُرجى، لا كمال يُغني»؛ وأنه لم يكن هنالك حظ بالنجاح في السنة الحالية، وذلك لأنه سبق أن وجدت تحويلات من هذا النوع أكثر مما تستطيع البلاد أن تتحمل أعباءها، وأن رسائل وردت من الموظفين المصريين ملأى بالسخط. وفي الظاهر أن الفاضل تلقى مسوّدة رسالة كان ينوي صلاح الدين إرسالها إلى بغداد. فكانت نصيحته أنه ينبغي ألاّ يُضغط على الخليفة باستمرار في شأن البراءات ـ «ينبغي أن يسمح لماء الينبوع بالإمتلاء». إنه هو نفسه تقدم بطلب إذن للقيام بحجةٍ أخرى في العام المقبل، حين كان العادل يرجو الذهاب أيضاً إلى الحج، غير أنه تلقى جواباً «أشبه ما يكون بالرفض». وفي هذه المرحلة من سيرته، يبدو أنه لم يتردد بالتهديد بالعصيان إن لم يحصل على ما يريد؛ وكتب يقول: «إذا ما استمر الرفض، وأتاني الوقت في أن أتخذ قراراً، فإن الضرورة ستدعوني إلى الرحيل»[٤٤].

وما عتم أن كان لصلاح الدين أسبابه الخاصة للشعور بعدم الرضا. لقد كتب الفاضل في كتاب رسمي أرسل إلى الأفضل لإخباره بسقوط مايافارقين، يشير إلى وصول رسل من خلاط؛ وإنهم حملوا أنباء تفيد أن أرملة شاه أرمن، إبنة البهلوان، طُردت من المدينة، وأن الجنود والأهالي معاً كانوا تواقين إلى الإنضمام إلى خدمة صلاح الدين، وذلك بسبب «عدالته وكرمه للمحتاجين ولجميع الناس». وأضاف الفاضل قائلاً، إن صلاح الدين كان على وشك الزحف إلى هناك على رأس جيشه، وأنه بعد ذلك سوف يتحرّك، على نحو لا يقاوم، إلى إنجاز غزو العالم[٤٥]. وكانت مايافارقين قد أعطت خلاط فترة تنفس طويلة. وقد

كتب ماجد الدين بن رشيق، وزير شاه أرمن، «مدّعياً الصداقة»(٤٦)، رسائل إلى قائدي طليعة جيش صلاح الدين، ناصر الدين محمّد، وكوكبري، يطلب إليهما أن يتوقفا قبل المدينة بمسافة قصيرة كي لا يدب الرعب في قلوب سكانها. وفي المدينة نفسها، كان زمام السلطة الآن في يد أحد مماليك شاه أرمن، بكتمور، الذي كان قد وفد كمبعوث إلى صلاح الدين في شتاء ٥٧٩/ ١١٨٣ ـ ٨٤. وأعاد، في الواقع، ابنة البهلوان ولكنه إهتم أيضاً بإعادة الأموال التي تركها أبوها لدى شاه أرمن. ثم حين وصل البهلوان نفسه، شرع بكتمور وماجد الدين بإثارة صلاح الدين ضد البهلوان. فأرسل صلاح الدين ضياء الدين عيسى إلى خلاط. وقام ماجد الدين بإخبار صلاح الدين بطريقة ماكرة، بقرب وصول البهلوان، وبطء صلاح الدين، وأضاف يقول: «فلو أنك أسرعت لكان ما هو الآن صعب، سهلاً»(٤٧). واستناداً إلى رواية عماد الدين، إجتمع البهلوان الآن مع عيسى، وجرت طمأنته بأن صلاح الدين لم ينوِ القيام بمهاجمته. وعاد عيسى إلى صلاح الدين بأخبار ودية على ما يبدو. غير أن عماد الدين أضاف يقول بإيجاز: «لقد أدركنا أن شهد خلاط كانت تحميه نحلها»(٤٨). وتُرِك بكتمور يستمتع بنجاحه الدبلوماسي؛ وتخلى صلاح الدين عن محاولته، وانسحب جيش البهلوان. وقدّم عماد الدين النتيجة بأنها مأزق، إلا أنها بنظر ابن شداد إنتهت لمصلحة البهلوان، إذ أنه زوّج إبنة أخرى من بناته إلى بكتمور، وكان قادراً على الأقل على تحمل بعض المسؤولية تجاه المدينة، وذلك بتثبيت بكتمور في ملكيتها(٤٩).

وكان صلاح الدين نفسه قد تقدم، على نحو جليّ، بعض التقدّم باتجاه بحيرة فان. وكتب عماد الدين إلى الفاضل من بين تفليس في الطرف الغربي للبحيرة، وميّافارقين، مظهراً سخطاً عنيفاً في رسائله(٥٠). وكانت رسالة أخرى مؤرخة في ١٨ جماد الآخرة/ ١٧ أيلول، حملها بريد ابن المقدم إلى دمشق، أوردت النبأ بأن صلاح الدين كان الآن عازماً على العودة إلى الموصل. ورجا الفاضل «أن يكون الخبر محالفاً لعودته»، ولكنه أضاف بأنه لم يكن مرتاحاً «لإرسال الرسالة إلى بغداد»(٥١). ولعل هذا يشير إلى المسوّدة التي سبق له أن رآها، حين نصح بألا يصار إلى إزعاج الخليفة بطلبات إضافية في شأن البراءات. وزحف صلاح الدين ماراً بدارا ونصيبين. وأُنذر في هذه المرحلة بواسطة رسالة من آمد بأن بكتمور كان يخطط للهجوم على ميّافارقين. وكتب عماد الدين يقول: «لم نرفع

رؤوسنا بهذا. . . مدركين أنه حين نكون مرتاحين، فإنه لن يتحرّك»[٥٢]. ولم يكن الطقس مستقراً. فقد قال ابن شداد: «كان الحر شديداً»[٥٣]، غير أن بداية شهر رجب (٢٨ أيلول) كانت متميّزةً بالبرق والرعد، ومبشرة، ومنذرة ببداية فصل البرد[٥٤]، كما ذكر عماد الدين. وخلال زحف صلاح الدين في طريق العودة إلى الموصل، فقد أحد أعلى قادته الشجعان هو عز الدين جاولي الذي كسر إحدى ساقيه حين كان يقفز من على حصانه فوق مجرى ماء، ولم يشف قط من عطبه فتوفي في دمشق. وغادر صلاح الدين نفسه نصيبين وتوقّف في كفرزمّار إلى الغرب من الموصل، وذلك في شهر شعبان (٢٨ تشرين الأول/ ٢٥ تشرين الثاني). كانت بوابات الموصل الآن موصدة، إلا أنه لم تُجر أية محاولة لمحاصرتها.

شرح الفاضل تحرك صلاح الدين إلى كفر زمّار في كتاب إلى الأفضل، وذلك بقوله إنه ذهب «كي يسوّي مسألة إربل ويرسل جيشاً إلى هناك». وفي الواقع، كان صلاح الدين يقوم بمحاولةٍ لتخليص حوضي الزاب الأكبر والأصغر معاً، اللذين يفصلهما سهل إربل من سيطرة الموصل (الخريطة ٨). وهذا بالفعل، سوف يعزل الموصل، ويعطيه قاعدة آمنة شرقي دجلة، تمكنه أن يأمل فيما بعد في أن يتحكم بالعراق بأسره[٥٥]. وتابع الفاضل يقول إن الموصليين تقدموا من صلاح الدين بطلبات لإحلال السلام، غير أن قبوله طلباتهم توقف على مدى إخلاصهم له؛ وإنه كان عازماً على قضاء فصل الشتاء في حرّان أو نصيبين - وهي نقطة يبدو أنها متناقضة مع رواية عماد الدين الذي قال إنّه خطط للبقاء في الموصل[٥٦] - والح الفاضل إلى أنه سوف يجدد حملته في الربيع؛ «ليس للبلاد أي مُدافع عنها، وكأنما جمعت معاً من أجل سلطانها الحقيقي». وكررت رسالة أخرى وردت إلى الفاضل تلك النقطة وقالت إن جميع البلدان كانت إما مبتهجة بما تحقق من غزوات سابقة أو أنها تطّلع إلى غزواتٍ مستقبليّة، في حين كان الموصليون يلتمسون باستمرار الموافقة على إحلال السلام، عارضين إلغاء إسم البهلوان من خطبة الجمعة، وإرسال جيوشهم إلى صلاح الدين في أي وقت يحتاج إليهم، والتخلي عن «كذا وكذا»[٥٧] من الأراضي. وفي رسالة ثالثة أخبر الفاضل بأن أوامر صلاح الدين نُفّذت وأن أموره كانت في وضع جيد؛ والمبعوثون والرسل أرسلوا إلى الموصل واستقبلهم الموصليون؛ ووافقوا على إزالة المظالم التي لم يوافق عليها صلاح الدين، وعلى تغيير خطبة الجمعة وقطع النقود[٥٨].

كان صلاح الدين، طبعاً، في وضع قوي، إذ لم يكن بإمكان عز الدين أن يتحداه في الميدان، غير أن الحملة كانت تتباطأ بعد الفشل الذريع في خلاط، ولم يكن كل شيء يسير على ما يرام. وكانت الرسالة الثانية إلى الأفضل، المذكورة أعلاه، قد ذكرت لأول مرّة العداء بين التركمانيين والأكراد الذي إنفجر في هذا الوقت والذي إنتشر في طول ديار بكر وعرضها، في حين ألقت الرسالة الثالثة ظلالاً من الشك حول معنويات جنود صلاح الدين. وكتب الفاضل يقول: «يمكن أن يصار إن شاء الله إلى عقد إتفاقية، لأن الشتاء توطد، والجنود مستاؤون».

وعلى الرغم من ذلك، لم تؤخذ أية إجراءات مباشرة بغية الوصول إلى تسوية. واستولى صلاح الدين على ميافارقين في ٢٩ جماد الآخرة/ نهاية شهر آب؛ وفي ٦ رمضان/ أول كانون الأول كان ما يزال في كفرزمّار، يقرأ القرآن بكدٍّ ومواظبة وهو صائم. ثم حصل في ١ رمضان/ ٣ كانون الأول أن إغتيل الوزير القوّام في أمد نتيجة لتآمر بين المماليك الأرتقيين. وأصيب صلاح الدين في اليوم نفسه بالحمى. وتم إخفاء هذا الأمر أطول مدة ممكنة. غير أن صلاح الدين، على ما يظهر، أحس أن الوقت قد حان أخيراً لعقد صلح، فاتصل بدوائر زنكي صاحب سنجار، فأرسل زنكي وزيره شمس الدين الكافي الذي أسهم في إجراء المفاوضات في شأن إستبدال حلب في ٥٧٩/ ١١٨٣، ورافقه إلى الموصل المبعوث الخاص لصلاح الدين، هو القاضي ابن الفرّاش. ولم ينتظر صلاح الدين عودتهما بل غادر كفرزمّار في مستهل شوال/ ٢٥ كانون الأول إلى نصيبين. وبعد توقف قصير هناك تابع سيره إلى حرّان. وعلى الرغم من مرضه رفض أن ينقل على محفّة.

وفي ٢٦ رمضان/ ٢١ كانون الأول كان عماد الدين قد كتب إلى الفاضل فوصلت الرسالة إلى دمشق في ١١ شوال ٥٨٢/ ٦ كانون الثاني عام ١١٨٦. وتحاشى الفاضل في إجابته عليها بكل حذر أية إشارة إلى مرض صلاح الدين وكتب يقول إنه أمل في أن لا تتأخر الأنباء الواردة من الجيش، «بحيث يغني الكلام عن المشاهدة وإلا فلن تكون راحة على فراش من الجمر. وإن سيدي [عماد الدين] يعلم إلى أي شيء أرمي». ثم أضاف أيضاً يقول إن الجهود يجب أن تبذل لإنقاذ عائلة القوّام - «فالإنسان الصالح يلبي دعوة الغير». وذكر إضطرابات التركمانيين وقال إنه هو نفسه قد منع من الإنضمام إلى صلاح الدين بسبب مخاطر الطريق،

ولصحته المتردية[٥٩]. وتظهر رسالة إعتذار أخرى أنه لم يكن يحمل مرض صلاح الدين على محمل الجد، وأنه كان أشد قلقاً من جرّاء المصاعب التي يواجهها. وكتب يقول: «لقد حاولت بكل وسيلة... لأدفع نفسي إلى السير في الطريق، وأريح عيني من عبء إضطراري إلى الإعتماد على أذني لاتسقط أخبار سيدي... ولكنني لم أتمكن من إيجاد القوة للقيام بذلك». وشكا من البرد والثلج. فالناس لا يستطيعون أن يتحملوا الإلتفات بوجوههم نحو الريح، والرجال الأشداء لا يستطيعون السير في دمشق، فكيف بالضعفاء. وكانت نصيحته أن يصار إلى عقد معاهدة مع الموصل لطرح عبءِ الحرب. ثم أنهى كلامه بالقول إن حضور عماد الدين أغنى عن غيابه هو، «ونقلني من موقع مَنْ يجب أن يُلام، إلى موقع مَنْ يعذر»[٦٠].

وفي جواب عن رسالة أخرى أرسلت في ٢٢ شوال/ ١٦ كانون الثاني كان ما يزال يشكو سوء صحته، واعتذر عن ارتجاف يده، وعن خطه غير المألوف. وشكر الله على النبأ الذي تلقاه من عماد الدين بشأن ابلال صلاح الدين، ثم تابع يضيف طلباً تافهاً لإقطاعة لأحد تابعيه[٦١]. ومن الواضح أنه كان مقتنعاً بأن صلاح الدين لم يكن في أي خطر، فكتب يشرح للفاضل أن المرض كان حمى الرِّبع والتي زالت بعد النوبة التاسعة؛ وأن صلاح الدين كان الآن قادراً على ركوب جواده والسير مسافات طويلة، وعلى العموم، أصبح قادراً على الإستمتاع بطعامه ومنامه[٦٢]. وفي رسالة أخرى إلى الفاضل قال إنه تلقى رسائل مكتوبة بخط يد صلاح الدين؛ وأنه لم يعد في جسده أي ألم، ولا إضطرابات هضم، ولا بقع في وجهه من أثر الحمّى؛ وانه أعدّ له محفة تحمل على الكتف - إشارة إلى رحلته إلى حرّان - ولكنه «وجد حينئذٍ قوّة تتدفق من روحه النبيلة، فأمر بمحفة يحملها أحد البغال، ثم وجد قوّة تتدفق من أطرافه النبيلة فأمر بأن تسرج الجياد»[٦٣].

وتبين، مع ذلك، أن النبأ كان مضلّلاً. فصلاح الدين لم يكن بعد قد تخلّص من مرضه. وفي حرّان، حيث عسكر خارج المدينة، استدعى الأطباء من سوريا، ثم كتب وصيته. وكان عماد الدين دائم الحضور، فكتب يقول: «كان كلما اشتد عليه المرض، كلما كبر رجاؤه في رحمة الله»[٦٤]. وأرسل الفاضل كتاباً من دمشق بعد ٣ ذي القعدة/ ٢٦ كانون الثاني ببعض الوقت يقول فيه إن الأفئدة كانت تختلج والإشاعات على كل لسان، «وبخاصة حين كان الأطباء يشاهدون الواحد تلو

الآخر يدخلون ويخرجون، ورسول يصل بعد رسول، غير أن الأنباء التي كانوا يحملونها كانت تخفى على الجميع»؛ وأن الأشخاص المقربين من صلاح الدين كانوا يرسلون تقارير من المعسكر سببت قلقاً وتشويشاً؛ وأن البلاد كانت بدون حامٍ يحميها، والفطين هو من تطلع نحو المستقبل. وتابع الفاضل يقول إنه سبق له أن اقترح في رسالة سابقة بأن يؤت بصلاح الدين إلى حلب بأسرع وقت ممكن؛ وأن حرّان لم تكن جزءاً من مملكته، وأنه كان هناك «تحت خيمة لا يستطيع عمودها أن يثبت في الشتاء»؛ وأن جيشه كان ضعيفاً، وذلك لأن معظم أفراده تفرقوا؛ وأنه إذا كان بالإمكان إبقاء حلب، التي كانت تقليدياً مدينة معارضة تحت السيطرة، فإن البلاد التي تتخطاها ستكون آمنة. غير أن أي إضطراب هناك سيجعل الشر ينتشر.

ويمكن الجدل بأن دمشق كانت أكثر تعرّضاً للخطر بسبب الفرنجة. وهنا أخبر الفاضل عماد الدين أن بوهمند قد رحل إلى صور، غير أنه قيل إن هذا الأمر كان دعماً لريموند صاحب طرابلس. وأصر على أنه لم يكن هنالك متسع من الوقت لإنتظار جواب من الموصل وأن الشيء الوحيد الذي يمكن عمله هو الإنتقال إلى أقرب بقعة من بلاد صلاح الدين، شرط أن يكون ما زال قادراً على إمتطاء جواده، وألا يضطر إلى الإنتقال على محفّة. ثم أخبر عماد الدين أن زوجة صلاح الدين، عصمت الدين، توفيت في دمشق ليلة ٣ ـ ٤ ذي القعدة/ ٢٦ ـ ٢٧ كانون الثاني؛ وأنه من أجلِ حماية صلاح الدين من صدمة النبأ، على عماد الدين أن يراقب رسائله ويحذّر جميع الذين يستطيعون الوصول إليه[٦٥]. وأفاد عماد الدين نفسه أن صلاح الدين كان يطلب قرطاساً، كل يوم أثناء هذه الفترة، ويكتب رسالة مطوّلة إلى عصمت الدين التي لم يتسرّب إليه نبأ وفاتها حتى شهر محرم/ آذار[٦٦].

وحصلت إحدى نوبات مرض صلاح الدين في أول شباط. فكتب الفاضل إلى عماد الدين بغية الحصول على التفاصيل، وإذا كان بالإمكان أن يرسل إليه تقريراً يوميّاً. وكرر النصح بالا يبقى صلاح الدين في حرّان؛ فهنالك خطر من التركمانيين، وإن حقيقة تفرق جنود صلاح الدين أصبحت معروفة من العدو والصديق. «لا أعتقد أن الحركة اللطيفة تحدث عجزاً... وهنالك منفعة بديهيّة في الوصول إلى حدود بلاد صلاح الدين». وأشار إلى التباين في الآراء حول المعالجة الملائمة للمرض؛ لقد غادر ابن المطران، وهو أحد الأطباء الشخصيين

لصلاح الدين، إلى حرّان وتبعه رضا الرجبي؛ ولم يأخذ أي منهما الكثير من الزاد للطريق، لأنهما كانا يعتمدان على أن يعطيا خياماً وطعاماً وعلفاً حين يصلان، وطُلب إلى عماد الدين أن يهتم بهذا الأمر، وأن على الطواشي قايماز أن يسهر على راحتهما بحيث يتمكنا من تكريس نفسيهما للعناية بصلاح الدين(٦٧).

ولم يمض طويل وقت بعد ذلك، حتى حدث تغير نحو الأفضل. فكتب عماد الدين رسالة يبدو أن تاريخها يعود إلى ١٩ ذي القعدة/ ١١ شباط، «حملت أكثر الأنباء سعادة في الدنيا والآخرة»(٦٨)، وان الفاضل كان واثقاً أنه لن يكون هنالك بعد اليوم أية نتائج غير سارة. وأرسل فيما بعد كلمةً إلى قراقوش في مصر تفيد بأن أحد المماليك وصل إلى دمشق في ٢٠ ذي القعدة/ ١٢ شباط يحمل رسالة تحتوي على بضعة أسطر كتبت بيد صلاح الدين؛ وان صلاح الدين قال إنه حين نضبت جميع حيل الرجال، نزلت عليه رحمة السماء. وأرسلت الرسالة ذاتها من قبل الفاضل إلى تقي الدين، و «لا ريب في أن أصدقاءنا سيطلعون عليها ويشاركوننا الفرحة». وأضاف يقول إن البلاد كانت تدار شؤونها بشكل ملائم، وانه لم تحصل أية محاولة عصيان(٦٩).

كان هذا الإبلال من المرض قصير الأمد أيضاً. فقد تلقى الفاضل نبأ بواسطة رسالة مؤرخة في ٢٦ ذي القعدة/ ١٨ شباط يفيد أن صلاح الدين كان مرة أخرى غير قادر على الجلوس - «الأمر الذي حال بيني وبين الإضطجاع، وسرق مني الراحة» - وأنه كان يعاني من عودة الألم، وأن قدراته وهنت وأطرافه نحلت. وسمع الفاضل أن صلاح الدين «غالباً ما يعتقد أنني في طريقي إليه. . . وكانت والله لدي هذه النيّة منذ بداية مرضي». وكانت شائعات المرض قد سرت في دمشق وفي بلاد الفرنجة، لذلك طلب إليه جميع الأشخاص المسؤولين الذين بقوا في دمشق أن يبقى - ولعل ذلك كان بقصد المساعدة على إبقاء الوضع تحت السيطرة. وانتشر أيضاً الأشرار من التركمانيين وصار لهم الآن «مسكة خانقة على الطريق»؛ فإن هو غادر إلى حرّان، فسوف يكون مضطرّاً إلى أن يأخذ معه قافلة كبيرة، غير أنه ليس لديه من القوّة ما يكفي لمقاومة هجوم قد يشن عليه. وأضاف بعض التوصيات الموجهة إلى عماد الدين. وحين كانت الرسائل ترسل إلى دمشق كان لا بد أن تكون بينها واحدة لابن المقدّم، لأنه كان «القائد والرجل الذي يشار إليه بالبنان في المدينة». وعلى صلاح الدين أن يعود إلى حلب ويقلع عن الإلتفات نحو المناطق الأخرى

للحصول على مكاسب إضافية . وفي هذا السياق أضاف الفاضل يقول إن غارة فرنجية ليست بعيدة الحصول. وأخيراً، كان على عماد الدين أن يشيع السلام بين الأطباء ويعمل على ألا يكون هنالك أي تنافس ضار بينهم، بحيث يتمكنون من التركيز على عملهم وليس على ما يأملون من مكاسب[٧٠].

ومن حرّان كتب عماد الدين يقول: «كنا نخشى قوة الشائعات وانتشار الأخبار السيئة التي لا يمكن إخفاؤها، وبخاصة حين خرج الأطباء وقالوا إنه ليس هنالك من أمل . . . حينها يمكنك أن ترى الناس يبعثون بكنوزهم إلى الخارج». في هذه المرحلة، مع ذلك، وصل العادل من حلب، وكان حضوره، كما قال إلى عماد الدين، قد «أزال جميع المخاوف»[٧١]. وكان الابن الثاني لصلاح الدين، عثمان، في حرّان أيضاً، بالإضافة إلى إثنين من أبنائه الأصغر سناً، هما تورانشاه وملكشاه، اللذان أُحضرا مع والدتهما من دمشق. وكان ابن عمه، ناصر الدين محمد [بن شيركوه]، في المعسكر، ولكنه عاد إلى إقطاع حمص حيث توفي في ٩ ذي الحجة/ ٣ آذار من مرض قضى عليه «بأسرع من طرفة عين»[٧٢]. إن سرعة موته وعدم توقعه أديا إلى إنتشار الشائعات. وكان من المعقول الإعتقاد بأن يشعر ناصر الدين أنه كان يستحق أكثر مما أخذ أثناء حكم صلاح الدين. لقد قيل إنه وزع الأموال وجمع الرجال في حلب في طريقه من حرّان إلى حمص[٧٣]، وعزي إليه القيام بالإقتراب من دمشق ليستولي عليها في حال وفاة صلاح الدين. ومات بعد أن شرب الخمرة، وزعمت إحدى الروايات بأنه قضى مسموماً على يد أحد عملاء صلاح الدين، الناصح بن العميد، وهو رجل كلفه صلاح الدين بإدارة ديوان حلب في العام ٥٧٩/ ١١٨٣[٧٤]. وليس من المستغرب ألا يرد أيّ تلميح إلى هذا في الرسائل. وقد طغى فيها الخبر السار بشفاء صلاح الدين النهائي على موت ناصر الدين، كما طغى عليه أيضاً خبر إبرام معاهدة السلام مع الموصل.

كان ابن شداد قد وصل إلى حرّان مع مبعوث آخر من الموصل في بداية شهر ذي الحجة (٢٣ شباط)[٧٥]. وكانت حياة صلاح الدين ما يزال يعتقد بأنها في خطر. غير أنه كان حينئذٍ قد أبلّ من مرضه بما يكفي لكي يستقبل المبعوثين، وتم في النهاية التصديق على المعاهدة في ١٠ ذي الحجة/ ٤ آذار. في ذلك اليوم تلقى الفاضل كتاباً من الأفضل فأجاب عنه مشيراً إلى الخبر السار بشفاء صلاح الدين، والذي سرى في طول البلاد وعرضها. وأضاف يقول إن ناصر الدين توفي من مرض كان أسرع

فتكاً من العلاج ؛ ورجا أن يكون ذلك خاتمة المآسي . غير أنه صعب على الفاضل أن يكتب في ذلك لأن الدموع كانت تنهمر من عينيه ، وإذا عبّر عن حزنه الحقيقي فسوف يتدفق الدم مع الدمع . فلا شيء يستطيع أن يقلل من شأن الخسارة ، إلا موازنتها مع الكسب الأعظم . وإذا قارن الأفضل من أُخذ بمن أبقى ، فسوف يدرك أن كفة ميزان التهاني ترجح على كفة التعازي(٧٦) .

وفي رسالة أخرى أخبر الفاضل أن مرض صلاح الدين كان الآن قد ذهب إلى غير رجعة ، وأن الأطباء خافوا من حالة بوله ، إلا أنه أصبح الآن معافىً واستعاد رغباته الطبيعية . وأضاف الفاضل يقول : «وتمت النعمة بقبوله عقد صلح مع الموصل» ؛ وان عز الدين وافق على حلف يمين الطاعة ، وأن يأتي شخصياً وعلى رأس جيش إن دعّت الحاجة ، وأن يضيف إسم صلاح الدين إلى خطبة الجمعة ، ويسقط إسم البهلوان ؛ وان عليه أن يزيل المظالم من بلاده ، وأن يقطع علاقاته مع الأعاجم ويتخلى عن الأمكنة التي دخلت دوائر صلاح الدين ، أي جزيرة ابن عمر وإربل ؛ وإن عليه أيضاً أن يعود عن مطالبته بما يقع وراء حدود الزاب بما في ذلك شهرزور والحديثة وتكريت وعانة . وأنهى الفاضل كلامه بقوله ان الفرنجة حافظوا على العمل بمضمون إتفاقيتهم ، فلم يبق هنالك غارات . وانه ، مع ذلك ، بقيت هنالك مصاعب (غير محددة) في دمشق وقلق كبير على صلاح الدين . أما الآن ، فكل إنسان مبتهج بتوحيد الإسلام ، وهدف الناس جميعاً ينبغي أن يكون الآن الحرب المقدسة(٧٧) . وأرسل كتاب إلى اليمن لإخبار طغتكين بالإتفاقية ، وان الموصل بقيت مع عز الدين شرط أن يقبل بسلطة صلاح الدين ، وامتد هذا الآن إلى الجزيرة وديار بكر بطولهما(٧٨) . واستناداً إلى ابن شداد ، أخذ صلاح الدين مقاطعة بين النهرين إلى الشرق من نصيبين ، من سنجر شاه وأعطاها إلى عز الدين . ولعل ذلك كان ميل للتوصل إلى تسوية الخلاف(٧٩) .

إن هذه الإتفاقية مع الموصليين والظروف التي أحاطت بها تميز في بعض نواحيها ، بداية التراجع في مسيرة صلاح الدين . فمنذ خريف عام ٥٧٠/ ١١٧٤ كان قد أمضى حوالي ثلاثة عشر شهراً يقاتل الفرنجة ، وثلاثة وثلاثين شهراً في القيام بحملات ضد مشاركيه في الدين . وإن سلسلة الرسائل التي حررت بعد وفاة الصالح تبين عزمه الثابت على تحسين وضعه الخاص على حساب أي خصم مسلم محتمل . وكان قلج أرسلان وعز الدين مسعود وعماد الدين زنكي وشاه أرمن

والبهلوان جميعهم متهمين بأنهم أعداء للإسلام، ومنتقصاً من كفاءاتهم، ومهاجمين على الأساسين كليهما، ليس لسبب جوهري سوى أنهم حاولوا مقاومة صلاح الدين. وخلال مكوثه في سوريا، لم يُبد عازماً، على نحو جدي، على الإستيلاء على قلاع فرنجية والإحتفاظ بها سوى في شرقي الأردن، ويمكن أن يُرى هذا كعمل لا يتعدى المحاولة في تحسين وسائل إتصالاته مع مصر. ولم يحتفظ بمستقر في أي مكان آخر في أراضي الفرنجة، كما لم يصر على القيام بأية معركة حاسمة في الكرك أو عين جالوت بالرغم من إعداد قواته الكبيرة. وكان بالإمكان إحلاله من مسؤوليته لإدعاءات قدّمت بإسمه لو لم يتضح أن الفاضل فصل نفسه عن الهجوم الذي شُنَّ على قلج أرسلان، والحملة الموصلية الثانية والضغط الذي مورس على الخليفة. ورواية عماد الدين توضح محدوديّة تأثيره الشخصي. ومع أن المستشارين من أمثال ضياء الدين عيسى يمكن أن ينالوا قسطهم من الملامة، فإن صلاح الدين، وليس كتبته، يجب أن ينظر إليه كالمحرّك الأول في الحملة الدعاويّة.

إن النجاحات التي حققها يجب أن تقاس بالأهداف التي كشفت عنها تلك الدعاوة. فالخطة الكبرى لجبهة سورية موحدة تحققت بالتسوية الموصلّية، وهي مسألة فيها نظر، غير أن الإمبراطورية الإسلامية الشاملة بقيت وهماً. فقد حوّلت إهتمامه، على نحو ظاهر، عن فلسطين، كما أن رئيسها الإسمي، الخليفة العباسي، أبقى نفسه بعيداً بقدر الإمكان عن إتخاذ موقفٍ إلى جانب صلاح الدين. وكان صلاح الدين يشير باستمرار إلى الأعمال الإبتزازية التي يقوم بها أخصامه، وإلى عدم شعبيتهم، غير أن مقدار سيطرته على بلاده هو ينبغي أن توضع موضع درس. فالنظام كان مستتباً في المدن، غير أن الطرقات كانت غير آمنة، ووسائل الإتصالات معاقة. وعلى وجه التحديد، فبالرغم من حملاته شرقي الفرات، ومطالباته بأراضٍ ما وراء دجلة، كان بإمكان الفاضل أن يشير إلى المجازفات التي غامر بها بمكوثه حتى في حرّان، وإلى الخصومات بين التركمانيين والأكراد «التي هددت البلاد بالخسوف». فالصورة هي صورة سلطة سطحيّة، تتغيّر بتغيّر حجم الجيش الذي يفرضها.

إن الأهمية الكبرى لجيش صلاح الدين بالنسبة لحساباته، يمكن أن تظهر في أرقام النفقات المصرية التي سبق إقتباسها من الفاضل. قد تكون التفاصيل مبالغاً بها، غير أن النمط الظاهر واضح، بحيث جاءت المبالغ التي أنفقت على الجيش

تعادل خمسة أضعاف النفقات التي وردت تحت عناوين أخرى؛ وكانت تلك النفقات بحد ذاتها تشمل التحصينات والبحرية. ويتعدى مثل هذا التشويه حدود الإقتصاد المنظم مهما كان مرناً. وما يؤكد ذلك هو حقيقة أن صلاح الدين قد ظهر مراراً يعيش عيشة الكفاف من القروض الخاصة. وينبغي أن نستنتج أن صلاح الدين، بدلاً من ممارسة ضبط حقيقي للإقتصاد، ركَزَ إهتمامه كمدير إداري على معادلة الرجال/ المال التي حاول حلّها بالتوسع.

ولم يكن بإمكان موته في حرّان سوى أن يترك له سمعة متواضعة كجندي ناجح، وإداريٍّ ذي وجهة نظر إقتصادية لقائد فرقة من الخيالة، وفرد من أفراد عائلةٍ حاكمة إستخدم الدين لتحقيق أهدافه الخاصة. والوجه المهذب من شخصيته والمحبب كثيراً لمادحيه، لطّخه إبتعاده عن الفاضل، وتوقيفه لكوكبري، ورفضه لمطالب السيدات الاتابكيات. وقد ألقت آماله في إنتصاراتٍ سريعة والتي كرر التعبير عنها، ظلالاً من الشك على قدرته. إذ أنه تمسك بفكرة واحدة هي أهمية القدرة العسكرية، وسمح لنفسه بأن يصبح سجيناً لها عالقاً في فخ حلقة التوسع. ولم يكن من الممكن قبول الدفاع عن هذه السياسة التي مهدت السبيل لغزو الساحل، إلا إذا خلّف وراءه مملكة موّحدة. وما حصل هو انه بالإضافة إلى الشكوك التي أثارها ناصر الدين محمد، كانت هنالك شائعات تقول إن تقي الدين كان يُعد لطرد الأفضل من مصر. وحتى أنه قيل إن العادل حاول تدبير تعهد بالولاء له هو نفسه[٨٠]. وكان بإمكان الفرنجة أن يأملوا واثقين بفترة من التنافر تلي وفاته، ويكون الإستيلاء على القدس حينئذٍ أمراً قد زال إلى الأبد.

والذي حدث هو أن صلاح الدين أُعطي فرصة أخرى، ليس باستعادته صحته فحسب، وهو الأمر الذي أتاح له ترميم سمعته، بل بموت البهلوان في شهر آخر ذي الحجة ٥٨٢/ آذار من عام ١١٨٦. فقضى النمط الطبيعي للتوسع أن يقوم من أجل الدفاع عن غزوة بغزوة أخرى إلى أن يتم التوصل إلى نوع من التوازن. وهكذا أدت إنتصارات صلاح الدين في غرب الموصل إلى الإقتراب من إربل، الذي أدى بدوره إلى القيام بحملة الموصل الثانية. وقد أعطى ذلك صلاح الدين الآن أراضي وراء حدود إربل. ولكي يدافع عن هذه الأراضي كان لا بد له أن يتوقع، عاجلاً أم آجلاً، أن يقاتل البهلوان وأخاه. ومع ذلك، غيّر موت البهلوان النمط. إذ أن

إضطرابات عنيفة تلت موته أثَّرت على عملية إنتقال السلطة . ولم يكن صلاح الدين في موقع يسمح له بمحاولة إستغلال هذه الإضطرابات . غير أن ما كان ذا أهمية كبرى هو أنه لم يكن على صلاح الدين أن يدافع عن الإستقلالات المشرقية . ويمكن أن يُجادل في أنه لولا حوادث الحرب لعاد إلى العراق، ولكنه لم يقم أبداً في الواقع بحملة شرقي الفرات مرّة أخرى ، ويمكن أن يكون قد صمم بصدق على قضاء ما تبقى من حياته في خدمة الجهاد . وقيل إنه نذر أثناء مرضه أنه إن عاش فسوف يكرّس نفسه للإستيلاء على القدس مهما كلفه ذلك من تضحيات بالروح والمال . وكتب عماد الدين الذي لم يسمح لنفسه يوماً بتوجيه أي إنتقاد لسيده ، يقول : «لقد بعث الله بذلك المرض ليبعد الآثام . . . وليوقظه من سبات النسيان»[٨١] .

١٥ ـ الاستعدادات

في مستهل السنة الهجرية ٥٨٢ (٢٤ آذار ١١٨٦) غادر صلاح الدين حرّان وانتقل إلى حلب. وقابله على الفرات شيركوه بن ناصر الدين محمد، البالغ من العمر ثلاث عشرة سنة، والذي ثبّت الآن في ملكية أراضي والده. وذكر عماد الدين ان البراءة تمنح شيركوه «جميع الأراضي، والعقارات والقلاع، والاقطاعات والمناطق الإدارية» التي كان يديرها أبوه، بما فيها أراضي حمص وتدمر والرحبة[1]. وفي ١٤ محرم/ ٦ نيسان وصل صلاح الدين إلى حلب، حيث كان العادل قد أعدّ له استقبالاً، ثم رافقه بعد ذلك بأربعة أيام في مسيرته نحو الجنوب. واستقبلهما في حماة منكورس بن خمارتكين صاحب بوقبيس، الذي كان ينوب مناب تقي الدين، ومن هناك ذهبا إلى حمص حيث تفقد صلاح الدين الخزائن والمستودعات التي خلّفها ناصر الدين، والتي قدّر عماد الدين محتوياتها بمبلغ يربو على المليون دينار. وأعطيت أخت صلاح الدين، وهي أرملة نصير الدين، نصيبها، ثم وُزّع الباقي بين أبنائه وفقاً لأحكام الميراث في الشريعة الإسلامية. وشدّد عماد الدين على أن صلاح الدين لم يأخذ أي شيء لنفسه، غير أن ابن الأثير زعم أنه نقل معظم الأموال والجياد والأسلحة[2]. ومن حمص تحرك صلاح الدين نحو دمشق وقيل لعماد الدين بأن يرسل نبأ بوصوله. ووصل المدينة في ٢ ربيع الأول/ ٢٣ أيار بعد غياب

دام أكثر من سنة، فكتب عماد الدين عن الاستقبال البهيج الذي أقيم له من قبل الدمشقيين الذين استطاعوا الآن أن يروا بأنفسهم أنه كان آمناً[٤].

في نفس الوقت تابع الفاضل مراسلاته مع الأفضل الذي بلغ سن السادسة عشرة في ربيع الأول ٥٨٢/ حزيران ١١٨٦. لقد جذب نموه مجموعة من الأنصار والتابعين في مصر، غير أنه، استناداً إلى عماد الدين، كان بينه وبين تقي الدين خلاف[٥]. وكتب تقي الدين يشكو من الوضع، قائلاً بأنه لم يكن بمقدوره أن يسير خلافاً لرغبات الأفضل، ولا أن يحكم البلاد بشكل ملائم. فدعا صلاح الدين، أثناء إقامته في حرّان، الأفضل إلى أن ينتقل إلى سوريا. وكان الأفضل، استناداً إلى مارواه عماد الدين، توّاقاً إلى قبول الدعوة، معتبراً ذلك «تحقيقاً لأهدافه»[٦]. وكتب إليه الفاضل في هذه المرحلة يقول: «يجب أن يعلم سيدي أن السلطان لا ينقله من مركز جبهوي، إلاّ ليضعه في مركز آخر، أو من عمل ألا ليسند إليه عملاً أهم، أو من سلطنة سوى إلى سلطنة أخرى.. لأنه... بكر أبنائه»[٧]. وأجاب الأفضل أنه سبق له أن خرج من القاهرة، غير أنه كان ينتظر جمع عدد كاف من الجنود كي يؤمّن رحلة آمنة[٨]، وهو تدبير احترازي وافق عليه الفاضل. في هذا الوقت، مع ذلك، أرسل له صلاح الدين الأوامر بالانتظار. وتبين أن السبب في ذلك كان «نبأ عن العدو اللعين»، نبأ غارةٍ فرنجية على البدو قرب الحدود المصريّة، الأمر الذي اعتبره الفاضل شيئاً حسناً؛ «فإن صح أن الفرنجة قد أخلّوا بشروط الهدنة بعد أن طلبوها هم أنفسهم، فإن دولاب الخراب سيدور ضدهم»[٩]. وكان على الفاضل أن ينتظر حتى يصل صلاح الدين إلى دمشق، وترسل إليه حينئذٍ تعليمات جديدة. وفي صفر/ نيسان انضم الفاضل نفسه إلى صلاح الدين خارج حلب، وأخبره، أو هكذا قال، عن أعمال الأفضل الممتازة، وعن أخلاقه الجديرة بالثناء. ومن دمشق كتب رسالة أخرى ليقول للأفضل إن كل شك زال الآن، وأن سوريا كانت تنتظر وصوله كما تنتظر سحب المطر[١٠].

وصل الفاضل إلى خارج دمشق في ٢٣ جماد الأولى/ ١١ آب[١١]، فأرسل أعيان المدينة لمرافقته إلى القلعة «في موكب شبيه بموكب السلطان». في هذا الوقت، أضاف عماد الدين يقول: كتب صلاح الدين يخبر تقي الدين قائلاً: «إن ظمأه يمكن الآن أن يطفأ بواسطة نفوذه المطلق في مصر»، الأمر الذي ارتكب فيه تقي الدين خطأ الظهور بمظهر الفرح العارم. وكتب عماد الدين: «فلو أنه احتمى

وراء ابن صلاح الدين وقال: «لا يوجد حكم في بلادك إلا بواسطة حكم ابنك وسوف اضطلع بمسؤولية تربيته وأكون وكيله في الحكومة، لكان من الصعب طرده».

ثم أعطى عماد الدين رأياً مفصلاً حول ما أعتقده بأنه السبيل الصحيح للتقرّب من صلاح الدين. وجاء العادل، الذي يمكن أن يكون الآن نادماً على إنتقاله من مصر، إلى دمشق في أواخر ربيع الأول حزيران حيث ذهب إلى الظاهر وقال له: «لقد تركت حلب من أجلك، وسأرضى بإقطاعاتٍ من أخي، في أي مكان كانت، وسوف أبقى معه ولن أتركه. فإذا كنت تريد مدينة حلب فعليك أن تطلبها من والدك». ثم قال لصلاح الدين: «على الرغم من رغبتي في الحصول على حلب، أعتقد أن أحد أولادك أولى بها»، واقترح أن تعطي إلى الظاهر. فوضع صلاح الدين القضية «على الرف» في الوقت الحاضر، قائلاً إن الأمر الملح هو إرسال عثمان ـ ابنه الثاني ـ إلى مصر، «لأنه يجب أن يكون لي ولد هناك أستطيع الاعتماد عليه».

ونقل ابن الأثير الصورة على شكل حوار قصصي، إذ أنه جعل علم الدين سليمان ينصح صلاح الدين بأن قال له: ما تستحي أن يكون الطائر أهدى منك إلى مصلحة فراخه «وأنت سلمت الحصون إلى أهلك وجعلت أولادك على الأرض». وتابع يقول مشيراً إلى أن حلب يحكمها العادل، وحمص يحكمها ناصر الدين، في حين لا يمتلك تقي الدين إقطاع حماه فحسب، بل يمكنه أن يقصي الأفضل عن مصر متى شاء[١٢]. وفي الواقع، ربما كانت مصر الخطر الحقيقي الوحيد هنا، وسبق لتقي الدين أن أظهر علامات استياء واستقلالية. فإذا ما أجبر على الرحيل، فسوف يكون العادل البديل البديهي. ونقل العادل نفسه فيما بعد إلى ابن شدّاد محادثة بينه وبين عثمان والظاهر، حذّرهما فيها من أن المفسدين سيبذلون قصارى جهدهم لإحداث الشقاق. وأضاف أنه من الخطير أنهم سيحاولون أن يجعلوا عثمان خائفاً «مني، وأنا مالي إلاّ أنت وأنا أعرف أن أخاك ربما يسمع فيّ أقوال المفسدين»[١٣].

وفي ٥ جماد الأولى/ ٢٧ آب دخل الظاهر مدينة حلب، في حين كان عثمان والعادل يستعدان للرحيل إلى مصر. وحتى هذا الوقت كان التعديل في المناصب

يسير برفق. ولكن، واستناداً إلى عماد الدين، حين سمع تقي الدين بالخبر «ارتدّ» عبر النيل إلى الجيزة[١٤]. وكان قد سبق له أن عزم على مهاجمة الموحدين، فأحيا الآن هذه الخطة، كاتباً إلى صلاح الدين يقول إن فؤاده موجه نحو مملكة جديدة «ومناخات ذات ظلال طويلة». وكان تقي الدين قد حظي بمحبة الجيش المصري بكرمه، فخشي صلاح الدين، التفاف الجنود حوله. ونقل عنه عماد الدين قوله: «إن الاستيلاء على المغرب أمر مهم، ولكن الاستيلاء على القدس أمر أهم... فإذا أخذ تقي الدين محازبيَّ القدماء معه، فسوف أمضي حياتي أجمع الرجال، في حين أننا إن استولينا على القدس والساحل [أولاً]، حينئذٍ نستطيع مهاجمة هذه المقاطعات»[١٥].

وتابع عماد الدين يقول إن صلاح الدين «كان يعرف عناد تقي الدين» فعزم على دعوته إلى سوريا ليردعه وينصحه[١٦]. وأضاف الفاضل اعتراضاته الشخصية ـ التي يمكن تطبيقها بشكل مماثل على صلاح الدين نفسه. وكتب يقول: «كيف يمكننا أن ننحرف فنقاتل المسلمين، وهو أمر محرّم، حين يدعونا الداعي إلى الحرب ضد أهل الحرب؟»[١٧]، ثم استشهد من القرآن الكريم: ﴿يقولون هل إلى مردٍّ من سبيل﴾[١٨]. وأبرز ابن الأثير القصة بشكل دراماتيكي، إذ كتب يقول إن ضياء الدين عيسى أرسل إلى مصر لطرد تقي الدين. فوصل على نحو غير متوقع، إلى القاهرة. وحين طلب تقي الدين مهلة، رفض عيسى طلبه. عندها هدد تقي الدين بالسير غرباً، فلم يقل له عيسى سوى: «إذهب حيث شئت»[١٩]. وترك تقي الدين رجاله، بناء على دعوة من صلاح الدين، وأتى إلى دمشق في ١٩ جماد الآخر ٥٨٢/ أول تشرين الثاني ١١٨٦، متجاوزاً، العادل وعثمان حين كانا في طريقهما إلى مصر. وروى عماد الدين أن صلاح الدين عامل تقي الدين بمنتهى اللطف والسخاء ووعد بإعطائه جميع الإقطاعات التي سبق أن امتلكها في سوريا. والمنحة الأهم كانت مايا فارقين بالإضافة إلى جميع القلاع «في ذلك الطقس»[٢٠]. ففتح ذلك السبيل لآمال توسعيّة في الشمال والشرق، ووافق تقي الدين الآن على إلغاء هجومه على المغرب، وعلى التخلّي عن مصر.

أكمل صلاح الدين الإجراءات الوقائية المتعلقة بأفراد العائلة المالكة، بالقيام بتدبير أو بالموافقة على زواج الظاهر من غازية خاتون، وهي احدى بنات

العادل، وزواج الأفضل من سفرا خاتون، وهي ابنة ناصر الدين محمّد. وفيما تبقى، فإن خطورة مرضه تطلبت فترة نقاهة طويلة بدت مفعمة بالحيوية والبهجة من جرّاء قيامه فقط بالصيد بواسطة الباز، والقنص، وإجراء المناقشات الدينية. ورتب عماد الدين حشداً ثقافياً من الواعظين والفقهاء خلال شهر رمضان(٢١)، فاعترض صلاح الدين على الفقهاء لأن مناقشاتهم تقود دائماً إلى الخصومات والأحقاد(٢٢). وأمّن له المنجمون تسلية أخرى إذ قالوا إن العالم سينتهي بسبب عاصفة شديدة من الرياح تهب في ٢٩ جماد الآخرة ٥٨٢/ خريف ١١٨٦، وهي نبوءة زعم ميخائيل السوري أنه ما زال يسمعها تردد خلال مدة ثلاثين عاماً(٢٣). وقد أتاح هذا الأمر لبلاط صلاح الدين «أن يستهزىء بالعقول الضعيفة»(٢٤) ساخراً من أولئك الذين حفروا الملاجىء وأعدوا الكهوف وكدسوا فيها الطعام والشراب. واستناداً إلى عماد الدين، كان صلاح الدين جالساً مع أتباعه في العراء، أثناء الليلة المعهودة يتناقشون في الأحاديث النبوية على ضوء الشموع، فلم تهب نسمة ريح واحدة، ولم «يهب من الرياح شيء البتة»(٢٥). وجرّب الفاضل طريقته الخاصة في المعالجة. فنقل عنه أن قال إنه حين عاد صلاح الدين إلى دمشق كان ما يزال يعاني آلاماً مبرّحة، وظن أن حياته كانت تقترب من النهاية. فأشار عليه الفاضل في أحد أيام الجمعة، كي يسرّي عنه بتحويل فكره إلى أمور أخرى، أن ينذر لله بأن لا يقاتل المسلمين أبداً، إن هو تعافى، بل يكرّس نفسه للجهاد المقدّس. وانه عليه أيضاً أن يتعهد بأنه إذا ألقى القبض على رينالد دو شايتللون أو ريموند صاحب طرابلس، سوف يقتلهما، «لأن النصر لن يتم أبداً إلا بموتهما»(٢٦).

وما عتم أن نُظر إلى ريموند صاحب طرابلس في ضوء مختلف. إذ كان للمسلمين مصلحة واعية في سياسة جارهم. وعماد الدين وابن الأثير كلاهما يقدمان في الواقع الرواية نفسها حول خلفية تتويج غي دو لوزينيان في صيف ٥٨٢/ ١١٨٦. فريموند ـ أعظم الفرنجة وأشجعهم وأحكمهم في المداولة في المجالس، كما يصفه ابن الأثير ـ تزوج من «الكونسة، القومصية، صاحبة طبرية»، ولدى موت بغدوين المجذوم، قام بمهمة الوكيل عن ابن أخت بغدوين. وقد مات هذا الغلام، فانتقل الملك إلى والدته (سبيلا) وخابت آمال ريموند. وكتب عماد الدين يقول إنها، بعد أن تزوجت من أحد الفرنجة الغربيين القادمين إلى الشام دعت البارونية والاسبتارية وفرسان الداوية وأعلمتهم: «أنها قد ردت الملك إليه» وطلب إلى ريموند

بأن يقدم حساباً عما جني من الأموال مدة ولاية الصبي، وأضاف ابن الأثير يقول «فأدعى أنه أنفقه عليه» بغية تحقيق مآربه الشخصية[٢٧].

ومع أن هذه الروايات المختلفة غير دقيقة، إلا أنها تعكس القصة التي دونها وليم أسقف صور في «التتمة» اللاتينية، والتي تفيد أنه لدى موت الملك الصبي في عسقلان، تقرر أن تأخذ سبيلا، التي سبق أن تزوجت غي دو لوزينيان، المملكة شرط أن تطلقه. وفي اجتماع للنبلاء، مع ذلك، التفتت إلى غي وقالت: «يا سيدي غي، إني أقبلك زوجاً لي؛ وإني أعطيك نفسي والمملكة وأعلنك على الملأ ملك المستقبل». وحده ريموند اعترض، «علماً بأنه كان بالإمكان أن ينضم إليه عدد أكبر لولا أنهم خافوا غضب الملكة»[٢٨]. فانسحب من مجمع التملكة دون استئذان. وأفادت إضافة لاحقة إلى كتاب «التتمة» تقول إنه بينما كان في طريق عودته إلى طرابلس التقى ابن شقيق صلاح الدين ووافق على شروط التفاهم مع المسلمين[٢٩]. وأعلن لصلاح الدين الولاء الرسمي نيابة عن طرابلس، ثم استأذنه في الانتقال إلى طبرية، حيث كانت زوجته تقيم.

وقد يكون ابن الأخ المشار إليه هنا هو تقي الدين الذي يمكن التوقع بأنه عاد إلى حماه في شهر شعبان/ تشرين الثاني، ولعله كان على إتصال مع جيرانه الفرنجيين. ولم ترد هذه التفاصيل في المصادر العربية، غير أن عماد الدين ذكر أن ريموند «طلب اللجوء إلى صلاح الدين، وأرسل رسلاً يقدّمون الطاعة»[٣٠]. وخشي البعض أن يكون ذلك خدعة، غير أن صلاح الدين اعتقد أنه دلّ على صدع حقيقي في صفوف الفرنجة، فأطلق سراح عدد من فرسان ريموند الذين كان يحتفظ بهم أسرى عنده، وكان يطالب بمبالغ ضخمة من المال فدية لهم. وأضاف عماد الدين أن الجبهة ـ لعلها منطقة طبرية ـ كانت آمنة، وأن عدداً من رجال الفرق الإسلامية المغيرة، كانوا يدخلون المنطقة الفرنجية ويغادرونها عبر ذلك الطريق دون أية عقبات؛ «ولولا خوف ريموند من إخوته في الدين، لأصبح مسلماً».

وإذا كان ريموند قد شطب اسمه مؤقتاً من لائحة أعداء صلاح الدين، فإن رينالد دو شاتيوّن احتفظ بموقعه وذلك بمهاجمة قافلةٍ إسلامية. وكتب عماد الدين عنه أنه كان أكثر الفرنجيين غدراً وأننا كنا «نغير عادة على أراضيه كل سنة»، إلى أن طلب عقد اتفاقية هدنة[٣١]. أمّا مقدار التعويل الذي وضعه المسلمون على ذلك،

فهو أمر قابل للشك في ضوء الملاحظات حول حاجة الأفضل إلى مواكبة على طريقه من مصر إلى سوريا. ولعلّه شعِرَ مع ذلك، أنه لما كان قد سُمح لرينالد بفرض الرسوم على مرور المسلمين، فليس في مصلحته أن يخالف شروط اتفاقية الهدنة باستثناء حالات الحصول على بعض الغنائم المغرية بصورةٍ خاصة، أو أن يكون المسلمون قد أصبحوا مع مرور الوقت غير آبهين للأمر، لأنه «حين حانت فرصة الغدر»، كما عبر عن ذلك عماد الدين[٣٢]، كان رينولد (أرناط) قادراً على إلقاء القبض على قافلة مصرية كبيرة مع حرسها العسكري. لقد طلب صلاح الدين بأن يطلق سراح جميع الأسرى، وتعاد جميع الملكيات، فرفض رينالد ذلك. ويتفق عماد الدين وابن الأثير كلاهما على أن صلاح الدين أقسم الآن على أن يقتله[٣٣] ـ وللمرة الثانية، إن صحت رواية الفاضل. وأضاف اللاتيني صاحب «التتمة» يقول إن ريموند صاحب طرابلس تبنى الأمر، غير أن رينالد الذي كان على خلاف معه، أعد العدة لمقاومة أية محاولة إكراه، وتُرك ريموند يحمل جوابه بالرفض إلى صلاح الدين[٣٤].

لعل إلقاء القبض على القافلة سمّم علاقات صلاح الدين مع رينالد، غير أنه كان من الواضح، حتى بدون ذلك، أن الحرب المقدسة كانت على وشك أن تستأنف. وكان في تصرّف صلاح الدين جيوش من مصر وسوريا والفرات ودجلة. كما أنه كان يحتاج إلى إحراز نصر ضد الفرنجة لتعزيز سمعته. لذلك، ولما كان الآن قد تعافى تماماً، فإنه حشد جيوشه وخرج من دمشق في مستهل السنة الهجرية ٥٨٣ (١٣ آذار ١١٨٧) ليعسكر في رأس الماء. وأرسل تقي الدين إلى الشمال لمراقبة الأرمن، وحراسة جبهة أنطاكية؛ وبقي الأفضل كي يحشد الوافدين الجدد إلى رأس الماء. أما صلاح الدين نفسه فسار جنوباً متجهاً إلى بصرى (الخريطة ٨). وكان همه حماية الحجاج العائدين من مكة إلى سوريا، الذين كانت بينهم شقيقته، أرملة ناصر الدين محمد. كما أنه عزم على مقابلة الجنود الذين استدعاهم من مصر، ومعاقبة رينالد باجتياح بلاده ثم القيام بهجوم آخر على الكرك.

وفي مساء ١٦ ـ ١٧ صفر/ ٢٦ ـ ٢٧ من شهر نيسان كتب الفاضل من معسكر صلاح الدين يخبر الأفضل أن رسولاً قد وصل لتوه من مصر؛ وأنه ترك الجنود المصريين في صُدْر يوم الاثنين ١١ صفر/٢٢ نيسان وكان من المتوقع أن يصلوا إلى

إيلة في أربعة أيام. «سُرَّتْ عقول الرجال وقويت بهذا النبأ، وقُطِعَ دابر الشائعات [غير محددة] التي انتشرت؛ وان صلاح الدين جدد هجماته على بلدة الكرك في ١٦ صفر/ ٢٦ نيسان، مدمّراً ومحرقاً منازلها وقاتلاً أحد الفرسان أيضاً؛ وأن التركمانيين قد نهبوا الريف؛ وأن كروم العنب قد قطعت دواليها وعرائشها، والقرى دمّرت، والفلاحين رحلوا مع زوجاتهم وأبنائهم إلى بلاد الأسلام». وختم الفاضل رسالته بالقول: «أرسلت نصيحة حسنة بموجب كتاب إلى السيد [الأفضل] قيل له فيه أن ينقل [رجاله] إذا سنحت القرصة بذلك، ولكن يبقى هو نفسه في المعسكر. . . الخادم يعلم أن السيد أحياناً متسرع، ولكن في إتباع نصيحة السلطان شيء فيه أكثر فائدة»[٣٥].

وبعد ذلك مباشرة تقريباً أرسل الفاضل كتاباً أخر إلى الأفضل في اليوم الذي عرف فيه أن الجنود المصريين سيكونون قد اجتازوا أيلة؛ وأخبره أن صلاح الدين ما يزال مخيماً في الكرك، وأنه لم ترد أنباء عن رينالد وامرأته «حمّالة الحطب»[٣٦]؛ وأنه أفيد أن الفرنجة ما زالوا «قابعين في ديارهم». وفي نفس الوقت كان صلاح الدين يدمر حقول الحنطة في الكرك. وان الأفضل أُخبر بأن ينتهز أية فرصة سانحة ليهاجم الفرنجة «في تلك الجهة» (الجبهة الدمشقية)، ويرسل رجاله حين يتأكد أن هذا العمل يمكن أن يتم بأمان. إلا أن صلاح الدين غير الآن رأيه؛ إذ رأى أن من الأفضل لجنود الأفضل أن يبقوا حيث هم مستعدين للجهاد المقدّس، «وهو نفسه، إن شاء الله، لن يطول غيابه»[٣٧].

ويبدو أن تغيير صلاح الدين لرأيه قد تلاه تبديل في خطة عودته. فاستناداً إلى عماد الدين، ذهب ليقابل الجنود المصريين في القريتين، وبقي هناك ليجتاح أراضي الكرك والشوبك، ودام بقاؤه حتى ٢١ ربيع الأول/ أواخر شهر أيار[٣٨]. وفي نفس الوقت، كان الأفضل، الذي أدعى فيما بعد أن أوامر صلاح الدين التي وجهت إليه طالبة بقاءه في المعسكر قد تأخرت[٣٩]، تحرك من رأس الماء إلى الأقحوانة عند أسفل بحيرة طبريا، واجتازت جيوشه نهر الأردن لتغير على أراضي الفرنجة. وفي رسالة تحمل كل هذه الأنباء موجهة إلى طغتكين، كتب صلاح الدين يقول: «كان كوكبري قائد قواتنا، وكان معه مملوكنا صارم الدين قايماز»[٤٠]. وأضاف عماد الدين إلى ذلك أن كوكبري قاد قوات الطواريء من شرقي الفرات، وقاد قايماز قوات دمشق، ثم ذكر أيضاً وجود قائدٍ ثالث هو بدر الدين دلدرم الذي

كانت قوات حلب بإمرته[٤١]. وأفادت المصادر العربية أنهم قاموا بمسيرة ليلية إلى صفورية، حيث هاجمهم «الداوية، والاستباريين، والبارونات، والتركوبولية»[٤٢]. ووفاقاً للمؤلف المجهول «لحملة تحرير الأراضي المقدسة»، شوهد المغيرون من تلال الناصرة، فخرجت قوة لمواجهتهم، تشتمل على سيد فرسان الداوية وسيد الاستباريين اللذين صادف مرورهما في مهمة إلى ريموند[٤٣]. وقدر عدد الفرنجة بحوالي ٣٠٠ ـ ٤٠٠ من المشاة و ١٣٠ فارس[٤٤]، في حين ذكرت رواية أخرى أن عدد جنود قائد مانافردين أي مظفر الدين كوكبري بلغ ٧٠٠٠ رجل[٤٥]. وقيل إن سيد الاستباريين، روجيه دو مولان، قال لصحبه بألا يخافوا من «هذه الكلاب المسعورة التي تتباهى اليوم بالشجاعة، ولكنها ستُرمى غداً في بحيرة من نار وكبريت»[٤٦]، غير أنه تم تطويق الفرنجة وإبادتهم، مع أن جيرار دي ريدفورت، سيد فرسان الداوية قد تمكن من الفرار. وأورد المؤرخون العرب موت سيد الاستباريين، وأضافوا يقولون إنه تم أخذ بعض الأسرى وان المغيرين عادوا سالمين يحملون معهم الغنائم والأسلاب[٤٧].

هنالك تساؤل حول الدور الذي لعبه الأفضل نفسه. لقد كتب رسالة إلى والده في شهر ربيع الأول ١١ أيار ـ ٩ حزيران حول انتصاره «في أول ساحة قتال شهدها»، واصفاً ثمار النصر وكأنه فوز بعذراء يصعب الحصول عليها إلا بعد إتمام الزواج ودفع أعلى مهر. مضيفاً أنه وقف في مكان أبيه وضرب بسيفه[٤٨].

يتضح من الروايات القصصية ومن رسالة صلاح الدين إلى طغتكين أن الأفضل لم يكن، في الواقع، موجوداً في ميدان القتال. غير أنه من الصعب أن نرى كيف أمكنه أن يكتب مادحاً نفسه إذا لم يكن قد شاهد أبداً معركة. وهذا، بالإضافة إلى ملاحظةٍ وردت في «التتمة» اللاتينية تفيد أن المسلمين زحفوا على طبرية «بكل أنواع الآلات الحربية»[٤٩]، يوحي بأن الأفضل نفسه انتقل من الأقحوانة ليهدد طبرية، في حين انطلق أفراد طابوره المعد للحركة السريعة على صهوات جيادهم أثناء الليل متجهين غرباً نحو صفورية (الخريطة ٢)، ثم عادوا فانضموا إليه بعد معركتهم.

ويبدو من رسالةٍ للفاضل أن الأفضل فكر في أن يتحرك من القهواني لملاقاة والده. وحبّذ الفاضل هذا العمل نظراً للمساعدة التي يستطيع تقديمها «بلسانه حين

يشير بالنصح، وبعزيمته حين يأخذ الشأن بيديه»[٥٠]، غير أن هذا يكون قد كرر نمط الحملة التي جرت في ٥٨٠/ ١١٨٤، حين استغل الفرنجة فرصة تحرك العادل من رأس الماء كي يحصّنوا أنفسهم في الوالة وصمم صلاح الدين نفسه على أن يفرض معركة. وكانت آخر أخبار الفرنجة أن جيشهم تحرّك من يافا متجهاً شمالاً صاعداً عبر الساحل إلى أرسوف. ولا بد أن يكون ذلك قد أوحى بأنه لم يعد لديهم نيّة مباشرة في الزحف على الكرك. فلو أراد صلاح الدين أن يقاتل، لكان عليه أن يعبر نهر الأردن. إذن، كان التحرك جنوباً من قبل الأفضل عملاً أحمق. وبالنتيجة، لا بد أن يكون تلقى أمراً بالبقاء قريباً من الجبهة.

في نفس الوقت، كان تقي الدبن الذي دخل حلب في ١٧ محرم/ ٢٩ آذار، يحرس الجبهة الشمالية. وفي ٩ صفر/ ٢٠ نيسان، خرج إلى حارم، «ليعلم العدو أن هذا الجانب ليس بمهمل»[٥١]؛ ولكي يعزز الأمثولة، دفع في ربيع الأول/ أيار بقوات بإمرة ابنه سعد الدين لتغير على بلاد أنطاكية ودربساك (الخريطة ٣). وكان صلاح الدين نفسه ما يزال في الجنوب. وكتب يقول إنه لم يبق شيء في مناطق الكرك باستثناء «قلعة صغيرة»، والتي لا يمكنها الصمود إلى الأبد؛ وانه لم تبق محاصيل في أراضي الشوبك ما خلا أرض منطقة الشراة. فالأقاليم كانت خالية، والقرى منهوبة، والسكان قد رحلوا. وقال الفاضل، الذي نقل هذه المعلومات إلى العادل، إنه جرت تسوية مصالحة بين ريموند صاحب طرابلس وأبناء جلدته الفرنجيين، ولكن «الإسلام لا يغيره من يترك صفوفه، ولا يسرّه من يدخل عقده»؛ وانه حين يتم الحشد في رأس العين سوف يكون باستطاعة صلاح الدين أن يضرب، وربما التقت راياته برايات العادل تلْبيَةً لنداء الله[٥٢].

وذكر ارتداد ريموند صاحب طرابلس في رسالة أرسلت إلى الامبراطور البيزنطي، اسحق. وكان اسحق قد كتب يطلب مساعدة صلاح الدين في التفاوض من أجل إطلاق سراح أخيه الذي كان محتجزاً لدى ريموند. فأجابه صلاح الدين يهنئه أولاً على إنتصاراته ضد «أعدائه الفرنجة»، ثم يخبره بأنه على أثر المفاوضات، وافق ريموند على إطلاق سراح سجينه مقابل فدية. وسبق لصلاح الدين أن كان على صلات وثيقة مع ريموند الذي توسل دعمه ـ «لقد استخدمنا لتصحيح أوضاعه الخاصة، ولإشاعة الرعب في قلوب أصحابه الفرنج»؛ وظن صلاح الدين بأنه سيبقى أميناً لميثاقه، ولكنه بدلاً من ذلك تصالح مع الفرنجة

ونقض الاتفاق الذي عقد بناءً على طلبه. ـ «ولم نرغب في استغلاله، بل أردنا أن نكون له من النافعين». وألمح صلاح الدين حينئذٍ بأن الامبراطور قد يفضل ألا يدخل في مساومة بائع متجوّل؛ وأنه هو نفسه جمع الجيوش من الشرق والغرب، واستخدم بعضها لمهاجمة جزءٍ من مناطق العدو؛ وأنه إذا رغب الامبراطور في التحرّك ضد الفرنجة، فسوف يلقى دعماً من المسلمين؛ «فنجدة بالسيف أنبل من نجدة تكال فيها الأموال»(٥٣).

لم يكن احتكام صلاح الدين إلى الكبرياء الملكي قد قصد به، ربما، أكثر من توشيح بياني لرسالته. إذ لم يكن بمقدوره أن يأمل في اقتناص الفرص بإغراء اسحق للدخول في حرب شاملة ضد الفرنجة. أضف إلى أن تقنيته الدبلوماسية كانت ترتكز إلى صيغةٍ من التبسيط المتفائل لوضعيات كان يرجو منها كسب الأصدقاء أكثر من إنجاز نتيجة محددة. وكان جرّب، استناداً لابن الأثير، هذا الأسلوب ذاته مع ريموند وذلك بالتعهد بإعطائه مملكة(٥٤). ومع ذلك عمد الفرنجة، بعد أن رأوا خطر هذا الحشد من البارثيين (الفرس) والبدو والعرب والميديين والأكراد والمصريين(٥٥)، إلى التقرب من ريموند، فتمت بينهما تسوية مصالحة. في هذه المرحلة، كان الفاضل، بالرغم من إفتقاره إلى الخبرة، قد أخذ على عاتقه إرسال الأوامر إلى تقي الدين بألاّ يدخل إلى بلاد ريموند، وألا يرسل العادل كي يسلم «الأسرى»، وتلك هي إشارة على ما يبدو، إلى عدد أكبر من رجال ريموند الذين كان صلاح الدين على وشك إطلاق سراحهم. وفي هذا السياق تلقى الأفضل مديحاً من الفاضل «ليقظته في تسقط الأخبار ودقته في كشف الأسرار التي أخفاها العدو»(٥٦)، الأمر الذي يمكن أن يعني أنه كان أول من علم بتحرك ريموند. وتابع الفاضل يقول للأفضل إن صلاح الدين كان الآن، على نحو مؤكد، آتياً لمقابلته؛ وان عليه أن يتحرى مسألة المرعى، فإذا كانت رقعة معسكره تفتقر إلى العشب، فسوف يلتقيان في الفوّار. وفي الواقع، تم اللقاء في المعسكر القديم لنور الدين في عشترا وذلك في ١٧ ربيع الأول/ ٢٧ أيار.

عقد صلاح الدين الآن إتفاقية هدنة مع بهمند صاحب أنطاكية «خلال العشر الأواخر من شهر ربيع الأول»(٥٧) (٣١ أيار ـ ٩ حزيران)، ثم تحرك بعد ذلك جنوباً للإنضمام إلى الحشد. وجلب معه جنوداً من ماردين وقوة عسكرية من الموصل بأمرة فخر الدين بن الزعفراني. وسُجلت نصيبين وسنجر وآمد واربل وديار بكر

أيضاً كبلاد قدّمت رجالاً . وكوّن ذلك كله بالإضافة إلى قوات من سوريا ومصر ما وصفه عماد الدين بأكبر جيش مبارك رآه في حياته[٥٨] . وتباهى عماد الدين أمام الخليفة بأن أوسع السهول كان يضيق به ، وأنه خلال زحفه حجبت غباره عين الشمس[٥٩] . وسجل ابن الأثير وعماد الدين كلاهما عدد الخيالة المحترفين باثني عشر ألف فارس ، كما أن ابن الأثير أضاف عدداً غير محدد من المتطوعين[٦٠] . انه لمن غير الممكن ، طبعاً ، الوصول إلى عدد دقيق . وكما ظهر معنا سابقاً ، فإن حشد حوالي ٦٠٠٠ نظامي في معركة تل السلطان أعطى ما قُدّر مجموعه بحوالي ٢٠,٠٠٠ وقدرت رسالة إلى البابا أوربان إعداد قوات صلاح الدين بحوالي ٨٠,٠٠٠[٦١] ، وهو عدد مبالغ فيه ، طبعاً ، مبالغة ضخمة فيما يتعلق بالجنود المدرّبين . ولكن عدد ١٢,٠٠٠ نظامي مع أتباعهم وخدمهم لا يمكن أن يؤمن ، على نحو غير معقول ، جيشاً يعد على الأقل ٣٠,٠٠٠ وليس هنالك أية قاعدة للتخمين فيما يتعلق بعدد المتطوعين وغير النظاميين ، غير أنه تبين فيما بعد في الحملة أنهم يشكلون قوة ضخمة . يقابل ذلك ، أن أفضل التقديرات لحشود غي دو لوزينيان تعطي ١٢,٠٠٠ فارس ، وعدداً يراوح بين ١٥,٠٠٠ و ١٨,٠٠٠ من المشاة والتركوبولية[٦٢] . إذن ، كان بإمكان صلاح الدين أن يأمل تماماً بأن يفوق الفرنجة عدداً بنسبة ثلاثة إلى اثنين ، ويبقى لديه احتياطي كبير ، وإن كان جيشه ، أقل إنضباطاً .

وعلى الرغم من هذه الميزة ، تؤكد رسالة أخرى نقطة سبق للفاضل أن أوردها[٦٣] ، وهي أن عدداً من مستشاري صلاح الدين كانوا مترددين في القيام بالهجوم . وذلك يعني أن الفرنجة قاموا ببعض العروض الدبلوماسية التجريبية . ويشير إلى أن اقتراحات قُدّمت إلى صلاح الدين بأن يقبل بالتعهدات المقدّمة وينقذ السجناء المسلمين الذين كان الفرنجة ، ربما ، قد وعدوا بالافراج عنهم[٦٤] . وحرص ابن الأثير الذي أعطى رواية دراماتيكية حول عقد مجلس حربي ، على أن يشير إلى أن سمعة صلاح الدين كانت تتطلب القيام بمعركة . وقال إن معظم الأمراء اقترحوا بأنه يجب عليهم شن غارات على أراضي الفرنجة . أضف إلى أن أحد الأمراء الذي لم يذكر اسمه اقترح القيام بزحف على بلاد الفرنجة ، «وإذا ما وقف في وجهنا أي جيش فرنجي ، فإننا سنتصدى له . . . ذلك لأن أهل الشرق يلعنوننا ويقولون : لقد تخلى صلاح الدين عن قتال الكافرين وجاء يهاجم

المسلمين. إن نصيحتي هي أنه يجب أن نفعل شيئاً من أجل تثبيت عذرنا ونلجم الألسنة»[٦٥]. وكان صلاح الدين نفسه راغباً في أن يقاتل «مع جميع المسلمين ضد جميع الكافرين. . . لأن الأمور لا تجري وفقاً للرغبة البشرية، كما أننا لا نعلم كم بقي لنا من الحياة على وجه الأرض»[٦٦].

١٦ ـ حطّين

أظهر قرار صلاح الدين بالقتال أنه على صواب، غير أن الاعتبارات السياسية كانت هي التـي رجحـت كفـة الميزان أكثـر منهـا الاعتبـارات محض العسكريّة. وفي عين جالوت، في العام ٥٧٩/ ١١٨٣، وخلال زحف بغدوين من طبرية في العام ٥٧٨/ ١١٨٢، لم يكن قادراً على تدمير قوّة فرنجية كانت تقاتل قتالاً دفاعياً في أرض معركة ملائمة. كان بامكانه فقط أن يأمل الآن في النجاح إما بانزال جيشه العرمرم إلى ساحة القتال الفعلي وإما باستثمار ساحة القتال والتكتيك الفرنجيين لصالحه. ومن جهة ثانية، فان الغارت المستمرّة يمكن أن تسقط في النهاية المملكة اللاتينية، إلا أن صلاح الدين كان عرضة لانتقادات ألمح إليها ابن الأثير، كما أنه لم يأمل في جمع مواطنيه المشرقيين في مدى سنين إلاّ إذا قام بعمل درامي. وكان من حسن حظه، أن موقف غي دولوزينيان كان ضعيفاً جداً. فلم يكن يحظى باحترام الفرنجة. وقد سبب تتويجه الكراهية، كما أنه كان، بصورة خاصة، عرضة للانتقاد بسبب تكتيكه في عين جالوت حيث كان قد خندق في موضع قوي، بعد أن كان قد قام بعرض كبير قبالة العدو، وانتظر من صلاح الدين اخلاء الساحة ببساطة.

بقي صلاح الدين في عشترا لمدة شهر، ربما لإكمال استعداداته. ثم قام باستعراض لجنوده في تل تسيل الواقع على بعد ستة أميال (١٠ كلم) إلى الشمال من عشترا على أحد الطرق الرئيسة للأردن. وقد كان التكتيك البارني في الكر والفر اللذين استخدمهما المسلمون ملائمين ملاءمة جيدة للتشكيلات الصغيرة العالية التدريب في المهارات الفردية في القتال من على صهوات الجياد. إن مثل هذا

النوع من الجنود يمكن أن ينتظر منه اتباع قياداته والاستجابة إلى مبادراتهم الشخصية للوضعيات المتغيّرة؛ ولكن في حالة الوحدات الأكبر كان مصدر الضعف التكتيكي هو أن القادة لم يكن لديهم جهاز من الضباط المحترفين لكي ينقلوا أوامرهم. ولم يكن صلاح الدين استثناء للقاعدة. وقد استطاع رجاله أن يتعلموا في ساحة المعركة شيئاً من مراقبة راياته أو الإصغاء إلى طبوله؛ وقد يكون قد استخدم سعاة ليقوموا بنقل الرسائل، غير ان الاستجابات قد بدت بطيئة أو غير أكيدة. وبسبب هذا الأمر، فقد كان مهماً على نحو خاص بأن يعرف كل واحد أين هو موقعه بحيث تستطيع أقسام الجيش أن تعمل بمفردها إذا ما دعت الحاجة إلى ذلك. وكما بيّنا من قبل، فان أصغر الوحدات التكتيكية كانت فرقة الخيالة (الطُّلْب) وكانت هذه قد صُنفت في تشكيلات أكبر دعيت باسماء بلدانها في ساحة القتال. كتب عماد الدين أن صلاح الدين نظم جيشه في تل تسيل بميمنة وميسرة وقلب وجناحين، وطليعة ومؤخرة، بالاضافة إلى مناوشين تؤمنهم كل سريّة من سرايا الفرسان[1]. ومن سوء الحظ أنه لا يمكن الاعتماد على ما قاله عماد الدين، وقد لا يكون هذا أكثر من إطناب بلاغي للتنظيم الاعتيادي ذي القلب والجناحين. وإذا كان ذلك صحيحاً، فانه يعني، مع ذلك، أن صلاح الدين بحجم جيشه الممتاز، قد شعر الآن بأنه من الضروري أن يضاعف وحداته المستقلة. ولم نجد تفصيلات إضافية ما خلا حقيقة أن تقي الدين كان يقود الجناح الأيمن وكوكبوري كان يقود الجناح الأيسر، في حين كان صلاح الدين نفسه في الوسط.

تحرّك الجيش من المعسكر يوم الجمعة في ١٧ ربيع الأول/ ٢٦ حزيران وتوقف بعد سير قصير على بعد ٨ أميال (١٣ كلم) في خسفين عند لسان نجد يحده من الغرب بحيرة طبريّا ومن الجنوب الشرقي رافد الرقاد لنهر اليرموك (الخريطة ٢). وفي يوم السبت الواقع في ١٨ ربيع الأول / ٢٧ حزيران، زحف عشرين ميلاً (٣٢ كلم) من النجد إلى الطرف الجنوبي من البحر. وكان صلاح الدين يكرر على نحو دقيق تقريباً التحرك الافتتاحي الذي قام به في حطين ١١٨٢ و١١٨٣/ ٥٧٨ - ٥٧٩، اللتين استدار فيهما آنذاك إلى الجنوب نزولاً إلى الأردن لمهاجمة بيسان. وكان الفرنجة من جهتهم يكررون تحركهم المضاد ويحشدون عسكرهم في صفورية. ولم يحصل أي شيء يومي الأحد والاثنين، ذلك لأن كل جهة كانت تنتظر تحرك الجهة الأخرى، ولكن صلاح الدين أظهر براعته، يوم الثلاثاء، وذلك بترك أمتعته الثقيلة

والتسلّق غرباً من الأردن إلى كفرسبت. وقد وصف ابن شداد موقعه هناك بأنه «كان على سطح الجبل»[٢]، وكان هذا الموقع كتف سلسلة من التلال إلى الشمال من كفرسبت التي تحاذي قمم حطين العالية. وكانت كفرسبت ذاتها على بعد ٨ أميال (١٣ كلم) إلى الشمال الغربي من معسكر صلاح الدين في طرف البحر وفي منتصف الطريق تقريباً إلى صفورية. وكان باستطاعة صلاح الدين أن يهدد منها بالخطر كلاً من طبرية التي كانت خلف موقعه، وصفورية، التي كانت أمامه، بالإضافة إلى خطوط المواصلات بينهما، في حين أنه كان لديه هو نفسه خط رجعة مفتوح باتجاه المنحدرات السهلة نحو الجنوب الشرقي.

وفي صفورية لم يكن غي دولوزينيان بعدُ جاهزاً للتحرك. ولربما كان يأمل في استرخاء عسكري - ألاّ يتحدّاه صلاح الدين في عقر داره أو يتجاسر على شق قواته فيكرر هكذا الخطأ الذي ارتكبه في عام ٥٧٣/ ١١٧٧، في حين أنه إذا ذهب الجيش الاسلامي برمته لمهاجمة مدينة أو قلعة فرنجية، فقد تتحرّك لنجدتها قوة مساعدة دونما إبطاء. وتلة صفورية نفسها موقع دفاعي قويّ في أرض وعرة تقع على نحو خمسة أميال (٨ كلم) من الناصرة، يطل عليها من الجنوب الشرقي سلسلة جبال الناصرة ومن الشمال الشرقي جبال طرعان. وقد كتب صلاح الدين إلى أخيه طغتكين «كنا عزمنا قبل قصد طبرية أن نلاقي الفرنج على صفورية»[٣]. وفي يوم الأربعاء في ٢٢ ربيع الآخر/ أول تموز، وهو اليوم الذي تلا تحركه إلى كفرسبت، انطلق نحو المعسكر الفرنجي ولكنه انسحب بعد ذلك، مخبراً طغتكين بأن الفرنجة «ما برحوا مكانهم، ولا تحركوا برجالهم وفرسانهم». فاذا كان هذا صحيحاً، وإذا كان غي قد رفض أن يقاتل حين كان المسلمون على مسافة ٢٠ ميلاً (٣٢ كلم) من مكان آمن، فان صلاح الدين لا بد من أن يكون قد اتبع تكتيك عين جالوت فتوقف حيث يمكنه أن يستدرج الفرنجة ليقاتلهم على أرض معركة لا تناسبهم. فإلى أيِ حد يمكننا أن نقبل برسالة صلاح الدين؟ ان ذلك بالطبع قابل للمناقشة. من البديهي أنه لم تكن لديه أية نيّة في مهاجمة معسكر غي ويمكن أن يكون قد بالغ في ما كان الأمر مجرد اختبار. ومع ذلك فقد كان تحركه إلى كفرسبت يظهر أنه كان يتطلع دون ريب إلى القيام بمعركة، وإن يكن وفقا لشروطه هو. وحين خاب تحديه عاد إلى كفرسبت ثم أضاف في رسالته أنه استطلع حينئذٍ موضع صحراء لوبيا فوجده صالحاً للمعركة.

وإذ أصبح قرار المعركة واضحاً لدى صلاح الدين، فقد كان عليه استدراج الفرنجة إلى العراء كما أن عليه أن يقسم جيشه. وفي فجر يوم الخميس الواقع في ٢٣ جماد الآخرة/ ٢ تموز قام بنفسه بمهاجمة طبرية مستخدماً قواته الخاصة، «جمرات المسلمين المتوقدة»(٤)، بالاضافة إلى قوة من النقابين والبنائين، في حين بقي معظم جيشه في كفرسبت. وقد جرت محاولة من قبل حامية طبرية لرشوته، إلا أن ذلك قوبل بالرفض من قبل «واحد كان يأمل في كسب ثواب الله بمحاربة أعدائه». وقد كتب: «حينما أدرك الناس أنه كان لهم مناهض لا يمكن خداعه ولن يكتفي بالجزية، خشوا أن تأكلهم الحرب، فطلبوا الرحمة. لكن الخادم أعطاهم سلطان السيف فوق رقابهم»(٥). وتركزت المعركة على أحد الأبراج الذي لغّم فانهار خلال النهار. وانقض المسلمون في هجوم عاصف على الثغرة واستخدموا السلالم المدرّجة في تسلّق الأسوار. وقتل أهل المدينة أو أسروا؛ ونهبت المدينة كما أحرقت مخازنها من الزفت والقطن(٦). وقد اعتز صلاح الدين بأكداس الذهب والفضة التي استولى عليها، إضافة إلى الجياد والأعداد الضخمة من الماشية(٧). ولجأت الحامية الفرنجية بما فيها زوجة ريموند الكونتسا اسكيفا إلى الاحتماء في القلعة التي وصفها صلاح الدين بأنها محميّة على نحو قوي بخندق مائي متين. وكان النقابون المسلمون يعدّون لهجمة أخرى، إلا أنه ورد في هذه الآونة خبر مفاده أن الفرنجة كانوا أخيراً في حالة تقدّم.

وصلت أخبار انتصار صلاح الدين إلى صفورية بسرعة. ولم يكن في صالح صلاح الدين وقف طلب المساعدة، لأن كشافة «غي» كانوا على الأرجح يراقبون من فوق التلال. ومساء الخميس عقد غي مجلساً حربياً. وقد قدّمت بعض المصادر الغربية هذا المجلس واصفة إياه بالمأساة ذات الانقلاب المفاجىء للوضع والظروف وبشكل تغيير نصف ليليّ مفجع للخطة، قام به ملك مسلوب الإرادة، ومضلّل بعبقريته الشريرة، هو في هذه الحالة مقدم فرسان الداوية(٨). وتجاهل المؤرخون العرب المأساة ولكنهم نقلوا الحجج والمواقف. فأعطى ابن الأثير ريموند صاحب طرابلس دور المفكر على طريقة توكيديدس الذي كان يقدّم الحجج التي لم يكن في الإمكان إبراز أفضل منها في تلك الظروف(٩)؛ ويؤيد هذه الرواية، عدد من الروايات الفرنجية(١٠). وقد قيل بأن ريموند، بالرغم من أن زوجته كانت في خطر، قد أشار على «غي» بالتخلّي عن طبرية. فقد كان جيش المسلمين أضخم وأقوى الجيوش التي شاهدها في حياته، ولكن إذا

استولى صلاح الدين على طبرية فإن رجاله سيرغبون بالتأكيد أن يتفرقوا وأن يعودوا إلى ديارهم. وقد جعل ابن الأثير رينالد دو شاتيلون (أرناط) يجادل ريموند ويتهمه بالعمالة لصلاح الدين، وعندها وعد ريموند، بأن يذهب مع بقية الفرنجة إن هم أرادوا أن يتقدّموا. ومن جهة ثانية، كتب عماد الدين أن ريموند قال حين سمع نبأ الاستيلاء على المدينة: «إن كسركم صلاح الدين مرة فلا يصح لكم الجبر»[١١] وهذا يتفق مع قول ورد في رسالة إلى البابا أوربان بأن «غي» قد حُضَّ على الزحف من قبل ريموند ومن قبل أبناء زوجته الذين ألحوا عليه «بالدموع» بأن يذهب لإنقاذ أمهم[١٢].

وفي أفضل الحالات، كانت الروايات العربية ترتكز إلى الاشاعات والتخمين. ونظراً لما للحقد الشخصي من تأثير، فما من واحدة من الروايات الفرنجية يمكن أن تعتبر غير متحيّزة[١٣]. وهنالك نقطة هامة أخرى وهي أن الخطة التكتيكية التي كانت وراء زحف غي، لم يكن من المحتمل أن تكون انتحارية بالشكل الذي أبرزت به؛ غير أن الأحداث التي تلت قد حجبت المشكلات وبسطتها كثيراً بالنسبة لمعاصريه وللمؤرخين المتأخرين معاً. وكل ما يمكن أن يطمئن المرء إلى قوله هو أن «غي» نفسه لا بد وأنه كان تحت تأثير ضغط كبير لكي يتحرّك، وبصورةٍ خاصة بسبب ما كيل له من انتقادات حول أعماله في عين جالوت. وينبغي أيضاً أن يكون صحيحاً، كما ألمح ابن الأثير، أنه لو استخدم تكتيكه الحذر من تجنب الاشتباك في معركة، لبلغ غايته المنطقية فترك قلعة طبرية تسقط - أو لو أنها أخليت من سكانها قبل هجوم المسلمين - لكان صلاح الدين قد استصعب تفادي القيام بمعركة وفقاً لظروف غي ومصلحته، بدلاً من شروطه وظروفه هو. غير أن هذا الطرح يبقى نظرياً.

وفي الصباح الباكر من يوم الجمعة الواقع فيه ٣ تموز خرج جيش الفرنجة من صفورية متجهاً نحو الشرق والمسافة من صفورية إلى أقرب جزء من بحيرة طبريا، هي ١٥ ميلاً (٢٤ كلم) في خط مستقيم. وبالرغم من أنه كان باستطاعة غي أن يختار طريقاً مباشراً على نحو معقول، فلا بد لكل إنسان في مثل هذا الزحف أن يجتاز أكثر من هذا الحد الأدنى من المسافة بكثير. وينبغي ألا يغيب عن البال أنه في ١١٨٣ كان جيش غي قد تقدّم ستة أميال (١٠ كلم) من الفولة إلى عين جالوت قبالة العدو. وفي ١٥ تموز ١١٨٢ كان جيش الفرنجة قد اجتاز دون مقاومة كبيرة

مسافة في خط مستقيم تبلغ ١٧ ميلاً (٢٧ كلم) من طبرية إلى معسكر مؤقت في العراء إلى الجنوب من كوكب الهوا. وحين كان لا بد له من أن يشق له طريقاً في اليوم التالي عبر خطوط المسلمين، لم يستطع أن يكمل اجتياز أكثر من ٨ أميال (١٣ كلم).

أما فيما يتعلق بتضاريس الأرض فإن الميزة البارزة للمرحلة الأولى من الزحف من صفورية هي الخط الضيق المتجه من الشرق إلى الغرب في جبل طرعان على الجبهة الشمالية من الحوض المنبسط إلى سهل البطوف. وفي حال اجتياز «غي» لهذا الحوض سيكون الجبل بينه وبين جنود صلاح الدين في كفرسبت، غير أنه يمكن أن يتم اعتراض سبيله بدون صعوبة في الطرف الشرقي. وقد سار، بدلاً من ذلك، مجتازاً الطرف الشمالي لسلسلة جبال الناصرة على أرضية الوادي المستقيم الذي يمتد على مسافة ما يقارب ٥ أميال (٨ كلم) بين الامتداد المنخفض لتلال الناصرة في الجنوب وطرعان في الشمال. كان جيشه قد وزّع في ثلاثة أقسام ـ الطليعة، بقيادة ريموند صاحب طرابلس، والقلب بقيادته هو نفسه، والمؤخرة بقيادة بليان صاحب إبلين. ولا بد من أنهم كانوا قد انطلقوا في طوابير[١٤].

وما أن تحرّك غي حتى أرسل كشافة المسلمين خبراً إلى صلاح الدين في طبرية. وقيل ان النبأ بلغه وقت صلاة الفجر[١٥] فغادر على الفور ليلتحق بالقسم الأعظم من جيشه الكائن على مسافة ٦ أميال (١٠ كلم) عن كفرسبت. وكان المسلمون يرصدون تقدم الفرنجة، غير أنه لم تجر أية محاولة جديّة للتدخل إلى أن وصل صلاح الدين. في هذا الوقت، وكما ورد في رسالة إلى بغداد، كان غي قد وصل إلى «واحدة من المياه»[١٦]. ويمكن أن يكون هذا إشارة على الأرجح إلى العين القريبة من موقع قرية طرعان، في تلة من الجهة الجنوبية لجبل طرعان، وهو موقع لا يختلف من الناحية التكتيكية عن موقع عين جالوت. وفي رأي صلاح الدين «كانت صقور المشاة من الفرنجة ونسور فرسانهم تحوم حول الماء، إلا أن الشيطان أغوى «غي» ليفعل ما لم يتفق مع غايته»، فترك عين الماء وتابع زحفه.

لم يفهم المسلمون لماذا تقدم غي. وبما أن المصادر الغربية لزمت الصمت، كان لا بد من البحث عن الشواهد على الأرض نفسها. إن الطرف

الشرقي للوادي قرب جبل طرعان مفصول بأرض مرتفعة من نوع قمم التلال. ولهذا عدد من التعقيدات الجغرافية، ولكنه تكتيكياً عقبة مستقيمة الزاوية بسيطة في وجه قوة متقدمة باتجاه الشرق على طول الوادي. وتقع أعلى نقطة فيها في الجنوب فوق كفرسبت وفي الشمال قرب قمة نمرين، وهناك انخفاض هائل حين تبلغ الطرف الشرقي المقابل من جبل طرعان. ويمتد خلفه نجد قرون حطين. وقد التف أحد الطرق إلى طبرية حول هذا النجد في الجهة الجنوبية كما ضرب طريق آخر عبر الأرض الأكثر انخفاضاً لسلسلة القمم، التي تحيط بالنجد في الجهة الشمالية ونزل إلى الوادي(١٧). وفي قعر هذا الوادي تقع قرية حطّين، التي تملك مخزوناً كبيراً من المياه.

ولم يكن باستطاعة غي أن يرى من موقعه قرب نبع طرعان الامتداد الكامل لجيش صلاح الدين، ولكنه كان يمكنه أن يعرف بدون شك أين كان ذلك الجيش. وأول الاختيارات التي كانت متوافرة له هو أن يعسكر حيث كان مكرّراً بذلك تكتيك عين جالوت على أمل أن يقوم صلاح الدين بالهجوم. ومع ذلك لم يقم صلاح الدين بأي تحدّ أبداً للفرنجة في موقع دفاعي قويّ ولم يكن هناك أي سبب لتوقع قيامه بالهجوم. وكان هناك خيار آخر وهو أن يواصل غي السير إلى طبرية ذاتها. وهنا أيضاً كان ما يزال أمام الفرنجة مسافة تبلغ حوالي ٩ أميال (١٤ كلم) في خط مستقيم عليهم أن يجتازوها. وقد روى صلاح الدين أن الوقت كان آنذاك حوالي الظهر تقريباً(١٨)، الأمر الذي يعني أنه لم يكن أمام غي سوى نصف نهار ليقوم فيه بزحف أطول مما كان قد أنجز سابقاً في يوم كامل ضد مقاومة جيوش صلاح الدين. وإذا ما سلك الطريق الجنوبية فلا بد له من أن يشق طريقه خلال حشود صلاح الدين الرئيسية في كفرسبت. أما الطريق الشمالية التي تمر عبر سلاسل الجبال وتنحدر إلى قرية حطين فقد تبعت خطاً من طريق وأفضت إلى الماء. غير أن هذا كان أقل أهمية لجيش يقوم بحرب لأن المنحدرات وإن لم تكن شديدة التحدّر، ستخلق صعوبة في المحافظة على التشكل.

إن التهور أو الحمق أو العجلة هي التي حملت قائداً إلى أن يخاطر بجيشه في زحف بمثل هذا الطول والصعوبة. ولعل هذه العوامل قد لعبت دورها في قرار غي. ويمكن أن يشجب هذا الفعل بدون تحفظ، فقط إذا ما اتفق على أنه كان يهدف إلى الوصول إلى طبرية. وتجدر الإشارة هنا إلى أن جبل طرعان والتلال في

الجهة الجنوبية معاً تنتهي دون سلسلة الجبال المتجهة من الشمال إلى الجنوب، سامحة للوادي بالانفراج بحيث تؤمن ميدان قتال واضح. وقد علم غي أن المسلمين كانوا يتحكمون بخط الأرض المرتفعة. فإذا ما اتجهوا نزولاً ليقاتلوا، فيمكن أن يصار إلى الانقضاض عليهم بهجوم يثبتهم إلى سلسلة الجبال نفسها. وإذا ما بقوا حيث كانوا وظهر أن موقعهم أقوى من أن يقتحم أو يفرّق، فبإمكانه أن يعود إلى المياه في طرعان ويصد الخطر عن طبرية بتكرار تحديه كلما دعت الحاجة إلى ذلك، في حين أنه إذا أحرز أي تقدم مبكر ضد موقع صلاح الدين، فيكون عندها بإمكانه أن يتابع زحفه. ومع هذه الامكانات المتاحة له، ليس من العدل أن يلام فيوصم بالتهور، بل ينبغي أن يشار إلى أنه كان أبعد ما يكون عن التصرّف اللامسؤول، إلا أنه كان يتحدى صلاح الدين ويستدرجه إلى ميدان قتالي بدا له ملائماً، وأن تقدمه يمكن قبوله كتحرك تكتيكي حكيم بصرف النظر عن خطأه الوحيد في التقدير، الذي كان يتعلق بتأثير أعداد جنود صلاح الدين الكبيرة.

رد صلاح الدين مستخدماً تكتيكه الاعتيادي. فكان يحاول دائماً الالتفاف حول جيش الفرنجة ثم يحاصره حيثما سمحت الأرض بذلك، وهي مناورة كانت مجرد تكيّف على نطاق واسع لطريقة قياسية للتعامل مع الهجوم الفرنجي. وإذا ما نجحت هذه الخطة، فقد كان على المسلمين، مع ذلك، أن يكونوا من القوّة بحيث يمنعون الفرنجة المحاصرين من الإفلات من الحصار مرّة أخرى. وحين تحرك «غي»، نحو سلسلة التلال عند الظهر أرسل صلاح الدين جناحيه الاثنين بقيادة تقي الدين وكوكبري فالتفا حول الجيش الفرنجي للاستيلاء على مياهه وإعاقة انسحابه[١٩]. وكان لديه هو نفسه ما يكفي من الرجال للاحتفاظ بسلسلة الجبال، وقد أحرزت له هذه المناورة الفريدة الانتصار في المعركة. وقد قدر الفرنجة فيما بعد عدد رجال تقي الدين بعشرين ألف رجل[٢٠]. ومهما كان هذا العدد مبالغاً فيه، فلا بد من أن الجناحين معاً كانا من القوة بما يكفي للحؤول دون تفكير غي في التراجع في حين أن سلسلة التلال ذاتها ساعدت على إيقاف تقدمه. ولربما كان الفرنجة قد سقوا خيولهم في طرعان، غير أن الطقس كان حاراً ولم يستطيعوا أن يتخذوا لأنفسهم موقعاً دفاعيّاً لمدة طويلة بدون مؤونة من الماء جديدة. وتلمح الدلائل إلى أن ريموند حاول الآن إنقاذ الوضع بالسير بالجيش نزولاً متخذاً الطريق الشمالية التي تؤدي إلى قرية حطين. وفشلت المحاولة لأن

الضغط كان أقوى من أن يسمح للفرنجة بالاحتفاظ بتشكيلهم، فدفعوا إلى الجهة العليا بين الصخور متجهين نحو النجد. وفرض عليهم هناك أن يعسكروا، مطوّقين بجيش صلاح الدين، بدون ماء ولا رجاء في الحصول على مؤنٍ أو تعزيزات.

أمضى صلاح الدين ليلة الجمعة/ السبت في ٢٤ - ٢٥ ربيع الثاني/ ٣ - ٤ تموز ينقل ذخيرته ويعيد تنظيم رجاله. وبالرغم من نجاحه ومن الوضع اليائس في الظاهر الذي كان فيه الفرنجة، ما انفك يعني بالاشراف على اختيار المناوشين من كل سريّة كل باسمه. وكان المسلمون يعتمدون اعتماداً كبيراً على رماتهم في التصدي لفرسان الفرنجة المدرّعين. ولم يكن درع الفرس معروفاً في تلك الحقبة[٢١]. ودوّن عماد الدين أنه بالرغم من أن فرسان الفرنجة أنفسهم كانوا في الواقع أشداء فإن خسارتهم لجيادهم تجعلهم دون نفع[٢٢]. فنظراً لذلك، جرى توزيع ٤٠٠ حمل من السهام على الرماة، واستُقدمت ذخائر احتياطية لتكون جاهزة عند الطلب[٢٣].

وفي صباح يوم السبت في ٢٥ ربيع الثاني/ ٤ تموز استعد الجانبان للتحرك[٢٤]. وقد بدأ المناوشون المسلمون المعركة، غير أن صلاح الدين لم يورّط معظم جنوده فيها إلى أن رأى الطريق التي عزم غي على السير فيها. وهذا يعني أنه اعتقد أن الفرنجة ربما ما زالوا يحاولون الانسحاب إلى طرعان، إلا أنهم في الواقع أخذوا «الطريق إلى البحيرة». ويدعم الاتجاه إلى القتال الرأي بأنهم كانوا يحاولون الالتزام بالبقاء إلى جنوب الهضبة. ولا بد من أن يكون صلاح الدين قد ركز قلب جيشه على جناح هذا الخط، وان هذا الجناح قد سار الآن في طليعة الفرنجة ثم استدار يقابلهم عبر مقدمتهم. وتورد المصادر الغربية أن مشاة الفرنجة «تشكلوا في فريق واحد ثم تسلقوا بسرعة قمة تلة عالية»[٢٥] رافضين النزول حين طلب إليهم غي ذلك. قد يكون هذا قد حدث فيما بعد في المعركة، غير أن الروايات العربية توضح أنه في البداية كان الفرنجة ما زالوا يحافظون على تشكلهم، فكان المشاة يحمون الخيالة؛ وقد تكبد صلاح الدين خسارة أوليّة حين قام أحد مماليكه الشخصيين بهجوم دون دعم فقتل. إزاء هذا الوضع، جدد المناوشون المسلمون هجماتهم؛ ومع أن الفرنجة قاموا بعدد من الهجمات، فقد كتب عماد الدين «فعادت أسودهم قنافذ»[٢٦].

كان الفرنجة في ذلك الحين قد قاسوا كثيراً من الحرارة والعطش. وأضاف المسلمون إلى آلامهم بأن أشعلوا النار في نبات العليق[٢٧] فراحت الرياح الغربية التي هبت عند الظهيرة تنفخ لهيبها عليهم. ففر عدد من جند الفرنجة، وأثاروا الرعب في نفوس معاصريهم بارتدادهم عن معتقدهم[٢٨]. في هذا الوضع اليائس، عمد ريموند طرابلس مدعوماً من قبل رجينالد صيدا وباليان إبلين، إلى مهاجمة جناح تقي الدين. ويرى مؤلف Libellus الشهير، أنهم عزلوا عن الملك الذي كان مع الاسبتاريين وفرسان الداوية. وما أن رأوا تدمير مشاتهم حتى قرروا أن يقاتلوا ليشقوا لهم طريقاً سالكة كي يتحرروا مما هم فيه طالما أنهم لا يستطيعون العودة من أجل الدفاع عن الصليب[٢٩]. ولعل هذا العمل فعل خاطىء، ولربما كان بالإمكان اعتبار الهجوم جزءاً من تحرك دفاعي، لأن تقي الدين كان يرمي بثقله في ذلك الحين، إلا أنه كان قد أصيب بالفشل. فقد كان لتقي الدين متسع من المكان لنشر قواته المسلحة والسماح للهجوم بأن يؤدي إلى عملية اكتساح شامل في حين كان رماة سهامه يطلقون نبالهم على الخيالة كلما مروا. وقد أضاف عماد الدين بأن ريموند سلك زاوية «في الوادي» ونجا مع حفنةٍ من الرجال[٣٠]. وكان بالامكان الافتراض أن جناح تقي الدين ما زال موجوداً في الجهة الغربية من موقع الفرنجة، أي في الموقع الذي كان قد استولى عليه بعد أن قام بعملية التفاف حولهم، وهذا يضعه الآن في الجهة الشمالية الغربية من النجد تحت جبل نمرين. في تلك الحالة قد يكون ريموند مهاجماً باتجاه جبل نمرين ولا بد له بالتالي من أن يكون قد مَرَّ في الوادي على جانب النجد ثم توجه بعدها إلى قلعة صفد في التلال الواقعة إلى الشمال. ويرى مؤلف «التتمة» اللاتينية أن نجاته كانت ممسكاً عليه، واتهمه مناوؤه بأنه لعب دور الخائن[٣١]. وكان صلاح الدين نفسه قد كتب أن «بالرغم من أنه كان قد نجا عاجلاً، فإننا سننال منه آجلاً»[٣٢]. وسخر منه لأنه لاذ بالفرار «حين رأى أن الدولاب كان يدور بسرعة عكس ما يشتهي»[٣٣]. وفي الواقع، إنه لمن الصعب مع ذلك رؤية ما كان بإمكانه أن يفعل حين مرّ في احدى المرّات عبر قوات صلاح الدين المسلّحة. ولم يكن ليأمل، بعد أن أصاب الإرهاق خيوله وبعد الخسارات التي مني بها رجاله، أن يقاتل من أجل العودة أو أن يغير نتائج المعركة التي كانت الآن قد ضاعت على نحو يتعذر استردادها أو معالجتها أو إصلاحها.

تـابع صلاح الدين يخبر الخليفة أن القادة الفرنجيين الآخرين «بقوا صامدين صمود أولئك الذين يسرعون الخطى إلى الموت . . وكانت هنالك تلّة تسلقوها ليحموا أنفسهم . . ثم هاجمونا مرة أخرى، واستأنفوا القتال من جديد»[٣٤]. كانت التلة قرني حطين اللذين يمكن رؤيتهما من الجنوب كمرتفعين تصل بينهما سلسلة قصيرة من التلال تطل على النجد الذي ينحدر نزولاً من الأرض الأعلى قرب الجبل ثم تميل تدريجياً من الجنوب. ويضفي عليهما، في الجهة الشمالية، جانب الوادي الشاهق علواً وكرامة، ولكنه يعتبر بمثابة عائق فعّال في وجه الخيّالة. وحاول الفرنجة أن يعسكروا في ملجأ الأرض المرتفعة. ويحكي أحد المصادر الغربية عن ثلاث خيم كانت قد نصبت، إلا أن صلاح الدين والمؤرخين العرب صبوا اهتمامهم فقط على خيمة الملك الحمراء. ووصف المنظر، الأفضل بن صلاح الدين الذي كان يراقب المعركة إلى جانب والده. وقد نقل عنه ابن الأثير قوله: «كنت إلى جانب أبي في ذلك المصاف، وهو أول مصاف شاهدته. فلما صار ملك الفرنج على التل في تلك الجماعة، حملوا حملة مبكرة على من بإزائهم من المسلمين حتى التحقوا بوالدي، قال: فنظرت إليه وقد علته كآبة، واربد لونه وأمسك بلحيته وتقدم وهو يصيح: كذب الشيطان. قال: فعاد المسلمون على الفرنج، فرجعوا فصعدوا إلى التل، فلما رأيت الفرنج قد عادوا والمسلمون يتبعونهم صحت من فرحي: هزمناهم. فعاد الفرنج فحملوا ثانية مثل الأولى والحقوا المسلمين بوالدي. وفعل مثل ما فعل أولاً، وعطف المسلمون عليهم فألحقوهم بالتل، فصحت أنا أيضاً: هزمناهم. فالتفت والدي إليّ وقال: أسكت، ما نهزمهم حتى تسقط تلك الخيمة، قال: فهو يقول لي، وإذا الخيمة قد سقطت، فنزل السلطان وسجد شكراً لله تعالى، فبكى من فرحه»[٣٥].

إن أفضل خط للهجوم من منحدرات القرون هو في الجهة الجنوبية الغربية، التي تلائم صورة التقدم الفرنجي نحو الجنوب الشرقي الذي يعوقه ويسده قلب جيش صلاح الدين الذي دفع بهم حينئذٍ باتجاه الشمال عبر الهضبة حيث كان تقي الدين يحيط بجبهتهم الشمالية. وحين طردوا نحو القرون إرتدوا وعاودوا الهجوم في الوسط الذي قد إلتف حولهم من الخلف. ولما فشلت هجوماتهم فقدوا كل مقاومة ممكنة. فاعتقل من بقي من الفرنجة على قيد الحياة وأخذ الصليب نفسه.

وروى عماد الدين أن صلاح الدين حمد الله وشكره على ما أحرز من انتصار[٣٦]. ثم أمر بإحضار غي دولوزينيان مع أرناط (أرنولد) دو شاتيّون، وقرّع

أرناط على غدره وذكره بذنبه فأجابه رينالد بواسطة المترجم: «قد جرت بذلك عادة الملوك، وما سلكت غير السنن المسلوك». وقدم إلى غي «ماءً مثلوجاً أزال لهثه»، فناول الماء إلى رينالد، فقال صلاح الدين لترجمانه: «قل للملك أنت الذي تسقيه، وإلا أنا فأسقيته». ويضيف ابن شداد: «وكان على جميل عادة العرب وكريم أخلاقهم، أن الأسير إذا أكل أو شرب من ماء لمن أسره أمِنَ، فقصد بذلك، الجري على مكارم الأخلاق». وبعد فترة دعي غي ورينالد مرة أخرى إلى جناح صلاح الدين، وأبقي غي في الخارج فيما جيء بأرناط إلى حضرة صلاح الدين وعرض عليه اعتناق الإسلام. وحين رفض هذا الطلب ضربه صلاح الدين بسيفه؛ ثم قطع رأسه وجُرَّت جثته أمام غي. فقام صلاح الدين وقال مطمئناً غي: «لم تجر عادة الملوك أن يقتل الملوك، وأما هذا فإنه تجاوز حده»[٣٧].

ويلمح مؤلف «التتمة» اللاتيني إلى أن صلاح الدين اما أن يكون قد «سلك مسلك غضبه» وإما أن يكون حاسداً لرجل مثل رينالد له مثل هذه المكانة[٣٨]. وقد سمع ابن الأثير بأن صلاح الدين كان قد قرر مرّتين أن يقتل رينولد «إحداهما لما أراد المسير إلى مكة والمدينة والثانية لما أخذ القفل (المصرية) غدراً»[٣٩]. أما عماد الدين الذي وجد بالطبع أن العمل مثير للعجب، فقد كتب أنه «لم يكف عن البحث عن السبب الذي دفع إليه»، إلى أن سمع بالقسم الذي جعل الفاضل صلاح الدين يحلف به[٤٠]. وكتب صلاح الدين نفسه إلى بغداد: «لقد نذر الخادم بأن يهرق دم خائن الكرك، وهو رجل أشاع الموت والأسر في الديار الإسلامية، والذي كان قد خاض معارك سابقة [مع المسلمين]... كان فقده قد أنزل بالكفار أقسى الضربات»[٤١].

وفي ليلة يوم السبت/ الأحد في ٢٥/ ٢٦ ربيع الثاني ٤/ ٥ تموز عسكر جيش المسلمين بالقرب من ميدان القتال، وفي يوم الأحد ذهب صلاح الدين إلى طبرية حيث لم يكن للكونتسة أسكيفا أي خيار آخر غير تسليم القلعة. وقد أكرمت فسمح لها بنقل ممتلكاتها، وأموالها، وأفراد عائلتها، وأتباعها، ثم غادرت بعد ذلك قاصدة بلدة زوجها، طرابلس. وقد أضاف صلاح الدين إشارة إلى هذا النصر الجديد في رسالته: «قبل أن يغمد السيف، أو ينزع السرح عن صهوة الجواد»[٤٢].

وهو لا يرجو الآن من الخليفة إلا أن تبرّأ جميع أعماله السابقة، وتبرأ طلباته المستمرّة في أن يعطي أراضي إسلامية، وأن يعترف به كبطل للحرب المقدسة بصورة نهائية وبدون قيد أو شرط. وأخبر الخليفة بأنه كان يخطط للزحف على بلاد العدو، و «كل ما ذكر وما سوف يذكر من إنجازات تؤدي إلى العزّة في هذه الدنيا والقرب من المولى في الآخرة لم تحصل إلا بفضل قيادة السلالة [العباسية]».

وقبل أن يتمكن من الذهاب كان عليه، مع ذلك، أن يخلي معسكره. فأرسل قادة الفرنجة الأسرى إلى دمشق يوم الاثنين في ٦ تموز، وأمر مرافقيهم بأن يحصلوا على إيصال بتسليمهم من الصافي بن القابض، أمين خزينة صلاح الدين[٤٣]. وقد ثبت الصليب عاليه سافله على رمح وحمله إلى دمشق القاضي شرف الدين بن العصرون. وكان الباقي من رجال صلاح الدين قد «تفرقوا إلى الأبد» حاملين معهم أسراهم. وقال ابن شداد ولقد حكى لي من أثق به، أنه لقي بحوران شخصاً واحداً كان معه طنب خيمة فيه نيف وثلاثون أسيراً يجرهم وحده[٤٤]. وقال عماد الدين: «ولقد رأيت في حبل واحد ثلاثين وأربعين يقودهم فارس»[٤٥]. وقد هبط سعر الأسير في الشام إلى ٣ دينارات. وسمع أبو شامة بأن أحد الأسرى قد بيع بحذاء. وحين سئل أسيره عن ذلك أجاب: «أريد أن يتحدث الناس بذلك»[٤٦].

أعاد صلاح الدين النظر الآن بالاسبتاريين وفرسان الداوية. وفي رأي عماد الدين لم يكن هنالك أية فائدة من الاحتفاظ بهم أحياء إذ لم تكن من عاداتهم تقديم فدية، كما لم يكن من الممكن الانتفاع بهم في الأسر. وكانوا أيضاً، في رأي أكثر المسلمين، أشد الفرنجة هولاً. وقد برهن صلاح الدين سابقاً في بيت الأحزان أنه كان مستعداً لقتل الأسرى الذين يشكلون خطراً. ولم يكن ينتظر من آسريهم أن يتخلوا عنهم بإرادتهم، ولكنه أعطى ٥٠ ديناراً عن كل أسير. وقد أبلغ الصافي في دمشق بأن كل فارس من الداوية الاسبتارية كان قد أُخذ إلى هناك يجب أن يقتل، وأن أولئك الذين بقوا مع الجيش قد قضي عليهم يوم الاثنين. ولم يجر قتل أحد دون أن يكون قد عرض عليه الدخول في دين الإسلام إلا أن القليل منهم، وفقاً لرواية عماد الدين، قبلوا ذلك، علماً بأن أولئك هم الذين أصبحوا مسلمين جيّدين. أما الباقون فقد سلّموا إلى جلادين هواة جرى اختيارهم من بين الصوفيين ورجال «التقى والورع»، حيث عين بعضهم بدلاء لئلا يُسخر منهم، في

حين كان صلاح الدين يراقب «بوجه مستبشر»[٤٧]. وأضاف مؤلف «التتمة اللاتينية» إن جثث هؤلاء «الشهداء القدسيين» تركت غير مدفونة مدة ثلاث ليالٍ وشوهدت تسبح في أشعة من نور سماوي[٤٨]!...

عهد صلاح الدين بطبرية إلى صارم الدين قايماز الذي قاد جيش دمشق في معركة كوكبري. وفي يوم الثلاثاء في ٧ تموز خرج على قرع الطبول والمزامير ليعسكر في مكان لا يبعد كثيراً عن كفرسبت. وقد قضى جيشه، وفقاً لتقديره الشخصي، على ما يزيد عن ٤٠,٠٠٠ من الفرنجة[٤٩]. وذكرت روايات أخرى أن عدد القتلى كان ثلاثون ألفاً، والأسرى ثلاثة آلاف، أما عدد الذين نجوا بحياتهم فقد اختلفت فيه التقديرات بحيث ذكر مرّة بأنه ثلاثة آلاف، ومرة ألف، وأخرى مائتان[٥٠]. ولم تستطع أية مبالغة في التعتيم على واقع أن الجيش الفرنجي المقاتل ومعه القدرة الهجومية لمملكة القدس كانا قد دمّرا. وقد بقيت طرابلس وأنطاكية في الشمال محتفظين ببعض قدرتهما، إلا أنه لم تستطع أية قوة عسكرية فرنجية في تلك اللحظة ملاقاة المسلمين في ميدان القتال. ومع ذلك فقد جرى تحدي صلاح الدين في الزمان والمكان. فقد كان من المؤكد أن تأتي، عاجلاً أم آجلاً، معونة عسكرية من أوروبا. وكان بإمكانها الوصول إما بطريق البحر، وإما بإتباع طريق الحملة الصليبية الأولى عبر آسيا الصغرى حيث لم يكن ينتظر من قلج ـ أرسلان أن يقدّم مصالح صلاح الدين على مصالحه الشخصية. أما فيما يتعلق بالطريق البحرية الممتدة من غزة إلى السويديّة فكان الفرنجة يستولون على حوالي ٣٥٠ ميلاً (٥٦٣ كلم) من الخط الساحلي، إضافة إلى موانىء محصنة في عسقلان ويافا وعكا وصور وصيدا وبيروت وجبيل وطرطوس وجبلة واللاذقية. وكان الداخل يكوّن شبكة من الحصون تمتد من الشوبك في الجنوب إلى درب ساق وبغراس شمالي أنطاكية. إلا أن هذه لم يكن لديها حظ في البقاء بدون جيش قتالي، وحتى لو أنها صمدت في وجه هجوم عاصف، فلم يكن لديها جواب على سلاح المحاصر النهائي التجويعي.

ولو أن صلاح الدين أعطي الوقت الكافي لاستطاع معالجتها الواحدة تلو الأخرى بدون صعوبة، ولكنها إذا كانت لا تزال في أيدي الفرنجة حتى تكون القوة العسكرية المنجدة قد أتت، حينئذٍ تعود أهميتها القديمة إليها. وأخيراً كان هنالك، وضع القدس الذي زاد الأمور تعقيداً. ولم يكن للقدس نفسها المنعزلة في تلالها؛ أية

أهمية استراتيجية حقيقية، إلا أنها كانت تمثل برهاناً ملموساً ليس على نجاح صلاح الدين فحسب ولكن على إخلاصه أيضاً. فقد كانت النقطة المركزية في جهوده، وكان لا بد من استردادها.

١٧ ـ استرداد القدس

باتت السرعة الآن الضرورة الأساسية الأولى. فأرسل صلاح الدين دعوات عاجلة إلى العادل[١]، وانطلق هو نفسه يوم الأربعاء في آخر ربيع الثاني/ ٨ تموز في زحف مسافته ٢٥ ميلاً (٤٠ كلم) إلى عكا. وسار على صهوة جواده مع ضيفه أمير المدينة النبوية وعماد الدين الذي كان يستمتع إستمتاعاً ساذجاً بوجوده مع صحبة مميّزة، فكان يراد منهما «ليسمعاني وأسمعهما»[٢]. ولم يكن المسلمون يتوقعون أية مقاومة، لكنهم فوجئوا حين رأوا رجالاً ورايات على أسوار عكا، إلا أنهم، كما يبدو، أدركوا أن ذلك كان علامة تحدٍّ فارغة، «وأمضوا الليل تهزهم مشاعر الحبور كأنما كانت تدور عليهم كؤوس الخمرة»[٣]. وفي يوم الخميس في ٩ جماد الأولى/ ٩ تموز جرى ترتيبهم في وحدات إستعداداً للقتال، إلا أن رسلاً جاؤوا من المدينة يطلبون الأمان فرتبت شروط الإستسلام.

وقد تبين أن عكا كانت غنيمة ثمينة بنوع خاص. فوفقاً لرأي ابن الأثير، فقد استولى المسلمون على بضائع كثيرة «كان كثير منها قد خزنه التجار وسافروا عنه لكساده، فلم يكن له من ينقله»[٤]. وأعطيت المدينة وما يحيط بها للفاضل، في حين أعطيت الممتلكات والأراضي التي كان يملكها فرسان الداوية إلى ضياء الدين عيسى. واستولى تقي الدين على معمل تكرير السكر، كما منح عماد الدين منزلاً قدرت محتوياته بمبلغ ٧٠٠ دينار. وقد سمح عماد الدين لنفسه بانتقاد ودي لكرم صلاح الدين مشيراً إلى أنه «لو أدخرت تلك الحواصل، وجمع لبيت المال ذلك المال المجموع كان عدة ليوم الشدائد»[٥]. وقد تلي النص على صلاح الدين بعد إنقضاء عدة

سنوات فأحال اللوم على عيسى وتقي الدين والفاضل. كتب عماد الدين قسماً بحياته «أن ما قاله كان صحيحاً»، ولكنه أضاف بإخلاص أن الفاضل لم يرغب في المال لنفسه بل لمرافقيه. وأشار ابن الأثير إلى أن صلاح الدين وابنه الفاضل «فرقا جميعه على أصحابهما، وأكثر ذلك فعله الأفضل لأنه كان مقيماً في المدينة، وكانت شيمته في الكرم معروفة»[٦].

وكان تخزين الغنائم حيطةً ضد المصاعب المستقبلية أمراً لا يتفق مع سياسة صلاح الدين المعتادة، ولم تكن ظروف محيط نجاحه تشجعه على النظر في عواقب الأمور. وذلك لأن المسلمين كانوا الآن منتشرين. وكان صلاح الدين يكره في الأحوال الاعتيادية إعطاء أتباعه أمراً مستقلاً، ونقل عن لسانه أنه قال: «أنا لا أرسل قط أياً من صحبي أو أفراد عائلتي في حملة دون أن أخشى على حياتهم»[٧]. أضف إلى أنه لم يكن الآن هنالك أية مخاطرة جديّة ينبغي سلوكها. وقد ورد في إحدى رسائل الفرنجة أن المسلمين انتشروا «كالنمل، يغطون وجه البلاد كله من صور حتى القدس»[٨]. وقد جعل كوكبري الطريق من طبرية إلى عكا سالكاً وذلك باستيلائه على الناصرة. ووجدت صفورية خاوية على عروشها ولكنها ملأى بالمخازن. وكان في حصن فرسان الداوية في الفولة إلى الجنوب من الناصرة، بضعة خدم تركوا بمثابة حامية. فاستسلموا بعد أن طلبوا الأمان، واستولى المسلمون بعدئذٍ على دبوريّة عند سفح طابور. وطابور نفسها وزرعين كانتا على التلال فوق عين جالوت (الخريطة ٢). وسار حسام الدين محمد، ابن شقيق صلاح الدين، في تلال السامرة إلى سبسطية، التي كان مغيرو صلاح الدين قد تجاوزوها في جماد الآخرة ٥٨٠/ أيلول ١١٨٤. وقد رأى عماد الدين أن الرهبان قد سمحوا للمسلمين بزيارة مقام يوحنا المعمدان هناك إذ قدموا هدايا ثمينة، وقد جمعت هذه الكنوز الآن بناء على أوامر حسام الدين، «وكسب كل ذلك لنفسه»[٩]، ولم يترك سوى الأثاث والأواني اللازمة للمسجد الذي كانت الكنيسة آنئذٍ قد حولّت إليه وتابع عماد الدين: إن معظم القرويين حول نابلس التي تقع على بعد حوالي ٥ أميال (٨ كلم) جنوب شرقي سبسطية، كانوا من المسلمين. وحين أيقنوا أن الفرنجة قد هزموا هزيمة لا قيام لهم منها قاموا بعصيان محلّي هو الوحيد الذي سجلته تلك الفترة وحاصروا قلعة نابلس التي استسلمت حاميتها بعد ذاك إلى حسام الدين.

في تلك الأثناء تحرك بدر الدين دلدرم وعدد من الأمراء من عكا متجهين إلى الجنوب نزولاً إلى الساحل، فاستسلمت حيفا وأرسوف. أما قيسارية فافتتحت بالسيف وجاء العادل من الجهة المقابلة متخذاً الطريق الساحلية من مصر عبر العريش. ويبدو أنه تجنب داروم وغزة وعسقلان إلا أن مجدل يابا التي تقع على مسافةِ حوالي ١٣ ميلاً (٢١ كلم) داخل البلاد من يافا استسلمت له، الأمر الذي جعل موقعه يبعد حوالي ٢٠ ميلاً (٣٢ كلم) من حسام الدين في نابلس، وفي حدود ١٥ ميلاً من الجيش الإسلامي في أرسوف. وكان أهم فتح هو فتح يافا نفسها التي إنقض عليها بهجوم عاصف. ويرى ابن الأثير أنه «جرى على أهلها ما لم يجر على أحد من أهل تلك البلاد». وتابع ابن الأثير قائلاً: «وكان عندي جارية من أهلها وأنا بحلب، ومعها طفل عمره سنة، فسقط من يدها فانسلخ وجهه فبكت عليه كثيراً فسكنّتها وأعلمتها أنه ليس بولدها ما يوجب البكاء فقالت: ماله أبكي، إنما أبكي لما جرى علينا. كان لي ستة أخوة كلهم هلكوا جميعهم، وزوج وأختان لا أعلم ما كان منهم»[١٠].

ومع تقدّم المسلمين عبر جبال السامرة، وبالسيطرة الفعلية على السهل الساحلي الجنوبي كانت القدس تقريباً قد عزلت. أضف إلى أن صلاح الدين نفسه تجاهلها بحقّ ووجه اهتمامه إلى الشمال، مرسلاً تقي الدين لمهاجمة تبنين وصور. وقد يكون هذا خطأ جزئيّاً، لأن موقع تبنين كمعقل شرقي لصور، كان في هذه الحملة تغير. ولم تكن مواصلات صلاح الدين في خطر، في حين أن صور نفسها كانت ميناء إستراتيجيّاً حيوياً عليه أن يحرم منه الفرنجة. وربما كان قد أخطأ بكل بساطة، تقدير الإمكانيات في قيام مقاومة، وقد ذكر ابن شداد أنه: «كان بها رجال أبطال شديدون في دينهم»[١١]. واضطر تقي الدين إلى إرسال فيض من الرسائل يطلب فيها التعزيزات. وفي يوم الجمعة الواقع فيه ٨ جماد الأول/١٧ تموز غادر صلاح الدين عكا وكان ما يزال مساء السبت إلى الجنوب من تبنين التي تقع على بعد حوالي ٢٨ ميلاً (٤٥ كلم) في خط مستقيم عن عكا وهاجمها يوم الأحد في ١١ جماد الأول/١٩ تموز، مستخدماً في ذلك المناجق فأطلقت الحامية من عندها من أسرى المسلمين ليطلبوا لأهلها الأمان[١٢]. ولم يبد صلاح الدين، مع ذلك، أنه في عجلةٍ من أمره، أو يظهر إلحاحاً على ذلك، فسمح للفرنجة بمهلة خمسة أيام كي ينقلوا ممتلكاتهم، في حين خرج أثناء ذلك بعض قادتهم ليسلموا أنفسهم كرهائن. وقد نصت شروط اتفاقية الاستسلام على أن تترك

الأسلحة والخيول والمؤن وينقل أفراد الحامية أي شيء آخر يستطيعون حمله، ثم أرسلوا بعد ذلك إلى صور في موكب محروس.

كانت صور ذاتها قد بقيت لمدة قصيرة تحت سيطرة القمص ريموند صاحب طرابلس، الذي كان قد توقف هناك بعد فراره من حطين. ولكن ابن الأثير علم بأنه غادرها إلى طرابلس، ظناً منه أن حاميتها كانت صغيرة جداً بحيث أنها لا تتمكن من المقاومة، وبأنه واثق من أن صلاح الدين سيقوم بالهجوم[١٣]. ومع ذلك بدا صلاح الدين، بأنه كان حينئذٍ يتجاهل الأمر. وفي النهاية سُلِّمَت تبنين له، وذلك يوم الأحد ١٨ جماد الأول/ ٢٦ تموز. ويرى عماد الدين الذي كان مع الجيش أن المسلمين نزلوا أنذاك من التلال إلى السهل - العمل الذي يمكن أن يدل على زحف إلى صور أو إلى إجتياز نهر الليطاني إلى الجهة الشرقية منه - ووصلوا إلى صيدا في مدة يومين (الخريطة ٨)[١٤]. وهي تقع على مسافة حوالي ٢٣ ميلاً (٣٧ كلم) إلى الشمال من صور. وقد وصل صلاح الدين، في الواقع، إلى هناك يوم الأربعاء في ٢١ جماد الأول / ٢٩ تموز. واليومان اللذان ذكرهما عماد الدين يغطيان يومي الثلاثاء والأربعاء؛ ولا بد لصلاح الدين إما أن يكون قد أمضى يوم الإثنين في تبنين أو أن عماد الدين قد أسقط زحفاً في ذلك اليوم إلى صور. وقد أورد مؤلف التتمة أن صلاح الدين قد جاء إلى صور بقصد مهاجمتها، غير أنه رأى آنذاك أن الحصار «لن يحتاج إلى عدد قليل من الأيام»[١٥]. ولهذه التفاصيل أهميتها لإنها تظهر أنه قد ارتكب خطأً. فلو أنه استكشف المكان لرأى أنه ينبغي أن يعزل صور قبل أن يصبح بالإمكان الإستيلاء عليها. ومن جهة خرى فانه لم يكن ليستطيع القيام في ذلك الوقت بأية محاولة جادة لسبر غور دفاعات المكان، ولذلك يصعب على هذا الأساس اتهامه بالإهمال.

وحينما كانت صور تستمتع بحصانتها، كان صلاح الدين يقود جيشه ماراً ببساتين البرتقال وجنائن الأزهار في الصرفند، وتقبل استسلام صيدا على الفور. ولم يضع طويل وقت هناك، بل زحف شمالاً عبر الساحل باتجاه بيروت التي تبعد مسافة ٢٥ ميلاً (٤٠ كلم). وعسكر ليلة الأربعاء في الجهة الجنوبية من المدينة. ثم شن هجومه يوم الخميس في ٢٢ جماد الأول/ ٣٠ تموز. كان هنالك بعض المقاومة الضارية ووصف عماد الدين كيف خرج الفرنجة إلى القتال

أمام التحصينات الخارجية (الباشورة)[١٦]، وهو تكتيك يستخدم للحؤول دون عمليات التلغيم. وكان هذا، مع ذلك، هو ما أدّى مباشرة إلى سقوط المدينة. وحين رُدَّ المدافعون فعلاً إلى داخل الأسوار ظن الأهالي أن المسلمين قد اندفعوا إلى الداخل، فهرعوا إلى الميناء يحاولون النجاة عن طريق البحر. وقد ظنوا بسبب هذه الفوضى التي تلت، أن سبيل النجاة الوحيد يمكن في الاستسلام الفوري، وقد وافق صلاح الدين على طلب الأمان. كان عماد الدين آنذاك مريضاً، «فطلب السلطان كل كتبته في ديوانه، وكل من يمسك قلماً من أفاضل الملك وأعيانه، فلم يرضه ما كتبوه، ولم يكفه ما رتبوه، فجاءني في تلك الحالة من استملاه مني، فتسلم بيروت بخطي»[١٧]. وكان حينئذٍ قد أعطي إجازة مرضية وأرسل إلى موطنه في دمشق، وكان عليه أن يعتمد في تدوين أحداث الشهرين التاليين على الإشاعات والأقاويل.

وخلال حصار بيروت، أخضر هيو امبرياكو الذي كان قد إعتقل في حطين إلى دمشق فافتدى نفسه بإجراء ترتيبات لتسليم بلدته جبيل التي تقع على مسافة حوالي ٢٠ ميلاً (٣٢ كلم) على الساحل الأعلى. وتحدد هذه أبعد التخوم التي بلغها هجوم صلاح الدين في الجهة الشمالية، وقد ارتد الآن إلى الخلف. فاستسلمت بيروت في ٢٩ جماد الأول/ ٦ آب، وفي ١٦ جماد الثاني/ ٢٣ آب كان صلاح الدين على مسافة ١٧٠ ميلاً (٢٧٤ كلم) عن عسقلان. وقد مر في زحفه بصور، ولم يفكر جدياً وفقاً للمصادر العربية، باقتحامها، «لأن العسكر كان قد تفرق في الساحل» كما قال ابن شداد، وتابع قوله: «وذهب كل إنسان يأخذ لنفسه شيئاً، وكانوا قد ضربوا من القتال وملازمة الحرب»، في حين كان قد «اجتمع في صور كل افرنجي بقي في الساحل»[١٨]. وقد دون عماد الدين أن صور «ليس بالساحل بلد منها أحصن» ثم أضاف بأن صلاح الدين «جاء إلى صور ناظراً إليها، وعابراً عليها»[١٩].

وتقول إحدى الروايات إن صور كانت قد تلقت تعزيزات بشخص كونراد دو مونتفرات. ففي ١٤ تموز حصلت له مغامرة شهيرة في عكا حيث دخلت سفينته الميناء ولم يكن يدري ما حصل، ثم نجا بعدئذٍ لعدم خبرة الأفضل[٢٠]. إن هذا خطأ بالتأكيد، لأن صلاح الدين كان في ذلك الوقت ما زال هناك. وقد وصل كونراد، وفاقاً لما ورد في «التتمة»، إلى صور قادماً من عكا في الوقت المناسب لإحباط الرغبة

بالاستسلام[٢١]، ولربما حدث ذلك حين كان صلاح الدين في طريقه عائداً من بيروت. والإلمامة الوحيدة المعطاة في المصادر العربية انه وجد في صور لاجئين من بيروت[٢٢]، الأمر الذي سيضيّق من فرص استباقه عودة صلاح الدين؛ ولكن، أكان بسبب وجوده أو عدمه، فإنه ترك صور دون أن يعكر صفوها.

كتب عماد الدين أن صلاح الدين كان الآن توّاقاً إلى الإنضمام بقواته إلى العادل الذي كان قد أرسل كتاباً يحثه فيه على مهاجمة القدس[٢٣]. وبالرغم مما حدث فيما بعد، فقد اعتقد العادل بديهيّاً أن نصيحته كانت سديدة. وقد نقل عنه قوله في حماة بعد انقضاء سنوات عديدة[٢٤]، انه أصر على صلاح الدين بقوله: آذا مت الليلة بسبب ما، فإن القدس ستبقى في يد الفرنجة. فأجاب صلاح الدين: سأعمل بنصحك وأنفذ أوامرك.

وكانت ميناء صور، من الناحية الإستراتيجية، أهم بكثير من القدس، وتبدو وجهة نظر العادل، بالنسبة لمقارنة قوتي المسلمين والفرنجة، رأياً غير معقول. أضف إلى أنه لم يكن يجادل بالنسبة إلى القوة، بل بالنسبة إلى التماسك. فلو مات صلاح الدين فإن الأمراء سينشقون بالتأكيد تقريباً، كما نستطيع الحكم على ذلك من التاريخ فيما بعد، ويمضي كل منهم وراء مصالحه الخاصة. ويمكن أن يجادل بأن القدس، لم يكن ليكتب لها البقاء بدون أن تلقى تعزيزات غير أنها تكون قد أملت، على الأقل، بفترة التقاط أنفاس طويلة، وهذا ما كان صلاح الدين يعتزم حرمانها منه.

وقد قرر، تمهيداً للقيام بهجومه، أن يجعل الطريق إلى مصر سالكاً، وذلك بطرد الفرنجة من عسقلان وغزة وداروم. فوصل عسقلان يوم الأحد في ٢٣ آب، غير أنه تريث حتى يوم الثلاثاء في ٢٥ آب قبل أن ينصب آلات حصاره. وقد أحضر معه غي دو لوزينيان وسيد فرسان الداوية، بعد أن وعدهم بإطلاق سراحهم مقابل استسلام عسقلان ذاتها، كما روى أحد المصادر، ومقابل جميع ما تبقى من قلاع الفرنجة، كما أورد مصدر آخر، وبعث غي برسالة إلى عسقلان، لعل ذلك كان يوم الإثنين؛ إلا أنه، وفاقاً لعماد الدين «أُدرك أنه كان يعمل تحت وطأة الإكراه والتهديد»[٢٥]. وأضاف ابن الأثير أن غي وعد صليبيي عسقلان أنه إذا أطلق «أضرم البلاد على المسلمين ناراً، واستنجد بالفرنج من البحر وأجلب الخيل والرجل من

أقاصي بلاد الفرنج»[٢٦]. غير أن الحامية رفضت الاستسلام، فبدأ صلاح الدين هجومه. وقد أخبر حسام الدين ابن أخيه، أنه كان لعسقلان جهازان من التحصينات خارج الأسوار، وكان أصغرهما وراء أسوارها تماماً وأكبرهما على مسافة منها[٢٧]. ولم تحسب الحامية نفسها من القوة بحيث تقاتل أمام تحصيناتها، فجرى تلغيم الدفاعات الخارجية يوم الأربعاء في ١٩ جماد الثاني/ ٢٦ آب. وجيء بالمناجق ناحية أسوار المدينة؛ فسقط الخط الثاني من التحصينات الخارجية، ثم وجه القصف بعدئذٍ نحو الأسوار نفسها فكانت المقاومة ضارية، وكان بين أموات المسلمين أحد مقدمي الأكراد[٢٨]. وكانت الغلبة مع ذلك، لصلاح الدين من دون أي شك، فسمح الآن لغي باستدعاء «رجال عقلاء» من المدينة، فأخبرهم بأنه لما كانت أسوارهم على وشك الإنهيار فإن لديهم عذراً واضحاً للاستسلام، وإن لم يفعلوا فسوف يعمد صلاح الدين إلى تدميرهم. فوافقوا على طلب الأمان، وأخبر صلاح الدين ابن أخيه: «لقد منحناهم ذلك على ثقة منا بأنهم ينجون من مصير إلى آخر. . . ورأفة منا بغية تجنيب زوجات المسلمين وأولادهم في المدينة عنف الجيش، بالإضافة إلى حماية المدينة نفسها من أن ينهبها النهابون». وسمح لأفراد الحامية بالاحتفاظ بممتلكاتهم وحياتهم، فغادروا مع عائلاتهم عسقلان في ٥ أيلول.

وحين تأخر صلاح الدين لبضعة أيام في عسقلان، استسلمت غزة وداروم. وفي الجهة الشمالية البعيدة كانت قد سقطت الرملة الواقعة في السهل الساحلي على مسافة ١٣ ميلاً (٢١ كلم) إلى الجنوب الشرقي من يافا، كما سقطت تبنين التي تقع على بعد ٧ أميال (١١ كلم) إلى الجنوب الغربي (الخريطة ٢). وفي تبادل جزئي من أجل إطلاق سراح سيدهم، وافق فرسان الداوية على استسلام اللطرون الواقعة على أحد الطرق الرئيسة من يافا وعبر تلال منطقة القدس إلى القدس. وكان عثمان قد وصل الآن من مصر؛ ولما كان الأسطول المصري بقيادة لؤلؤ قد جاء أيضاً وبإمكانه أن يمنع أي إنزال فرنجي، أصبح بإستطاعة صلاح الدين أن يزحف على القدس بثقة تامة. وكان من بين الأمكنة التي ذكرت بأنها سقطت في ذلك الوقت بيت جبرين والخليل وبيت لحم[٢٩]، التي كانت جميعها قد سقطت في أيدي الجنود الذين كانوا زاحفين بإتجاه الشرق بمحاذاة سلسلة تلال منطقة القدس. غير أنه جرى إعتراض أحد الأمراء الذي كان يقود فرقة متقدمة، فقتل في القبيبات

على بعد ٧ أميال (١١ كلم) إلى الشمال الغربي من القدس على الطريق من بيت نوبا. ومن المعقول أن نفترض أن المسلمين كانوا قد أحاطوا بالمدينة من أكثر من جهة واحدة.

وصل صلاح الدين نفسه خارج القدس يوم الأحد في ١٥ رجب/ ٢٠ أيلول. وعسكر إلى الغرب، حيث أخبر الخليفة بأنه كانت هنالك أودية عميقة وأبراج وجسور، ملتفة كاسوار. ولكن هذا الجناح كان محمّياً ببرج داوود، ذلك «البناء المشاد بحجارة منحوتة قويّة»(٣٠)، كما وصفه وليم الصوري. فرأى صلاح الدين بأنها كانت أقوى من أن يهاجمها. ورأى ابن الأثير أن المسلمين أربكتهم القوة الظاهرة للحامية. وحكى كل من ابن شداد وعماد الدين بأن المدينة كانت محشورة بأكثر من ٦٠,٠٠٠ مقاتل(٣١). وألمح عماد الدين إلى أن المدافعين كانوا واثقين إلى درجة دفعتهم إلى الرغبة في القيام بمعركة ميدانية، قائلين: «سنأخذ بالثأر من المسلمين لمعركة حطين». ولكن «فارسهم المحنك» (لعلهم كانوا يقصدون باليان صاحب ابلين)، كان قد نصحهم بالصمود في المدينة، «مكان ضريح سيدكم»(٣٢). ونتيجة لذلك عمدوا إلى تقوية التحصينات وتعميق الخندق ونصب المناجق في حين ركز حارس خارج الأسوار. وقد وافق مؤلف «التتمة» على أنه كان هنالك تدفق هائل من اللاجئين الذين كانوا يعتمدون، كما قال، على قدسية المدينة، أكثر من إعتمادهم على قوتها(٣٣). ولكنه أضاف انه في جميع هذه الأعداد لم يكن بالكاد يوجد أربعة عشر فارساً. وقد اشترك في القتال أحبار ورجال دين، إلا أن عامة الشعب توسلت إلى البطريرك وإلى الملكة سيبيلا أن يعقدا صلحاً مع صلاح الدين.

وفي ٢٠ رجب/ ٢٥ أيلول، وبعد خمسة أيام قضاها صلاح الدين في الإستكشاف، نقل معسكره. «رفع رجال القدس أبصارهم فرأوا، فيما كانت سحب الغبار تنقشع، أن العرب يقوّضون خيامهم كأنما كانوا على وشك الرحيل، فكانوا جذلين جداً وقالوا: لقد فرّ ملك سوريا لأنه غير قادر على تدمير المدينة كما خطط لذلك»(٣٤). وكان صلاح الدين، مع ذلك، يقوم فقط بنقل معسكره، متبعاً بذلك تماماً مخطط الحملة الصليبية الأولى حين كانت أدوات الحصار قد نقلت إلى «ذلك الجزء من المدينة الذي يمتد بين بوابة القديس اسطفان [بوابة دمشق] والبرج في الزاوية إلى الجهة الشمالية»(٣٥). وحاول الفرنجة تحدي تحرّكه، فتكبد

الجانبان، كما رأى ابن الأثير، عدداً من الإصابات، وكان أحد أمراء صلاح الدين بين الأموات[٣٦]. أضف إلى أنه في النهاية، قد تغلب المسلمون على التحدي، واستطاعوا إجتياز الخندق وأن يقوضوا جزءاً من السور. ورأى مؤلف ليبلوس أن صلاح الدين قسم قواته العسكرية، مستخدماً ١٠,٠٠٠ أو أكثر من رماة السهام، «المدججين بالسلاح حتى أخمص أقدامهم» ليرموا الأسوار، فيما كانت قوّة أخرى من ١٠,٠٠٠ خيال مسلحة بالرماح والأقواس، تنتظر لتصد أي هجمات فرنجية؛ أما بقية قواته فقد صُفّت حول أدوات الحصار. وحين إندفع المسلمون عبر الأسوار حاول المدافعون صدّهم إلى الوراء بالحجارة والرصاص المصهور، بالإضافة إلى النبال والرماح؛ غير أن كل ذلك قد فشل، كما فشلت محاولة القيام بهجمة من قبل المحاصرين. بعد ذلك، «لم يعد يوجد في المدينة كلها أي رجل له من الجرأة ما يكفي للتجاسر على القيام بمهمة الحراسة ولو لليلة واحدة حتى ولو دفع له مكافأة تبلغ مئة بيسنت». «أنا نفسي» تابع مؤلف ليبلوس، يقول:[٣٧] «سمعت بأذني من ينادي باسم البطريك وكل أعيان المدينة أنه يجب تجنيد خمسين رجلاً من الأشداء ليحموا الثغرة التي فتحت لليلة واحدة فقط، مقابل خمسة آلاف بيسنت، ويعطوا كل السلاح الذي يحتاجونه، ولكن هؤلاء لم يوجدوا».

وبعد أن فتحت ثغرة في السور، طلب باليان عقد إجتماع مع صلاح الدين. ولم يكن صلاح الدين راغباً في منح الصلح، مفضلاً أخذ المدينة بالقوة، كما فعل الصليبيون أنفسهم. ووقفاً لما جاء في ليبلوس ادعى بأنه سمع بأنها لن تطهر إلا بدماء المسيحيين[٣٨]. وقد عرض باليان أولاً، مع ذلك، ما وصف في رسالة صلاح الدين للخليفة بأنه «بذل مبلغاً من القطيعة لا يطمح إليه طرف آمل طامح»[٣٩]. ثم توعّد، بعد ذلك، بأنه إذا لم يعط الفرنجة الأمان، فإنهم سيقتلون جميع المسلمين الأسرى في القدس، والذين قدر عددهم بين ثلاثة آلاف وخمسة آلاف أسير؛ وبأنهم سيهدمون المقدسات: «نخرب القبة ونقلع الصخرة»[٤٠]. وقد نجحت هذه الطريقة. فاعلم صلاح الدين الخليفة بأن الأمراء نصحوه بأن يقبل عرض باليان ومنح الأمان، وإلا فسوف يزهق الأرواح من أجل إنجاز إنتصار كان قد سبق أن تم الحصول عليه. فعقد مجلساً إستشارياً على أثر مفاوضات إضافية، ووضعت شروط الإستسلام أخيراً في ٢٧ رجب/ ٢ تشرين الأول، كما أورد ذلك عماد الدين[٤١].

وهذه الشروط التي هي «إدعى إلى التفجع والرثاء منها إلى التسجيل والتدوين»[٤٢] كانت كما أوردها اللاتيني مؤلف «التتمة» - «كأن الوارث قد دفع ثمناً من أجل تجريده من ميراثه»[٤٣] - قد حددت نظاماً مدرّجاً للفدية بعشرة دنانير للرجل، وخمسة للمرأة، ودينار واحد للولد، وقد حددت مهلة أربعين يوماً للدفع، وجميع أولئك الذين لن يتمكنوا من الدفع سيؤخذون أسرى. وقد سمح للفرنجة بالإحتفاظ بمقتنياتهم، باستثناء الخيول والأجهزة العسكرية. وقد ساهم باليان نفسه بدفع ثلاثين ألف دينار فدية عن الفقراء. وحاول آخرون جمع المال ببيع سلعهم من المسيحيين الشرقيين الذين أملوا في السماح لهم بالبقاء في المدينة. ودوّن عماد الدين أن ما كان يساوي أكثر من ١٠ دنانير، كان يباع بأقل من دينار واحد[٤٤]. وما لم يكن بالإستطاعة حمله، مثل الصناديق وهياكل الأسرة والرخام . . . الخ . . . كان لا بد من التخلّي عنه، الأمر الذي أدى إلى تدفق التجار الذين كانوا يشترون هذه الأشياء من الجنود المسلمين. وقد وصل عماد الدين نفسه والذي كان يسترد عافيته في دمشق، إلى القدس في ٢٨ رجب/ ٣ تشرين الأول. ونقل عن صلاح الدين انه قال بأن جزءاً من نعمة هذا الإنتصار يعود إلى أنه قد تزامن مع عودته[٤٥]. وكان يراقب باستهجان تنظيم جمع الفدية. إذ أن أبواب المدينة كانت قد أقفلت؛ ولم يكن بإستطاعة أي إنسان، نظريّاً، أن يغادر المدينة دون الحصول على إيصال من أحد الكتبة يثبت أنه دفع الفدية، ويظهره لحراس البوابة. وكان هؤلاء الكتبة، في الحقيقة، «شركاء بيت المال لا أمنائه». ولم يكن هنالك جهاز للتدقيق في الإيصالات. وقد علم عماد الدين أن بعض الكتّاب غالباً ما كان يكتب الايصال «لرجال كان نقدهم في كيسه»[٤٦].

وبمقدار ما كان بإستطاعته أن يرى الأمور، فإن «كل من رشا مشى. فمنهم من أدلي من السور بالحبال ومنهم من حمل مخفياً من الرجال، ومنهم من غيرت لبسته فخرج بزي الجند، ومنهم من وقعت فيه شفاعة». فقد طالب كوكبري بزهاء ألف أرمني إدعى انهم من الرها. كما أن طلباً مماثلاً قدمه شهاب الدين صاحب البيرة يتعلق بخمسماية من الأرمن وأنهم حصروا في القدس بعد إداء الحج. وأورد ابن الأثير أن أمراء آخرين طلبوا أن يعطى لهم عدد من الفرنجة بحيث يستطيعون الحصول على ما يدفعونه من فدية ويحتفظون بهم لأنفسهم[٤٧]. وقد إنتقد عماد الدين كرم صلاح الدين الخاص. إذ أنه سمح لارملتي أملرك ورينولد دو شاتيلون بالمغادرة دون أن تدفعا أية فدية. كما أن

البطريرك قد جمع كل ما كان على القبر من التبر والمصنوعات. . . «وقلت للسلطان: هذه أموال وافرة، تبلغ مائتي ألف دينـار، والأمـان علـى أموالهـم لا أمـوال الكنـائس والأديار». بعدئذٍ نقل عن لسان صلاح الدين أنه قال: «إذا تأولنا عليهـم نسبونـا إلـى الغدر، وهم جاهلون بسر هذا الأمر، ونحن نجريهم على ظاهـر الأمـان، ولا نتركهـم يرمون أهل الإيمان بنكث الأَيْمان»[48]. وقد تابع عماد الدين يكتب أن العادل وعدداً آخر إعتقدوا، بحق، أن الفدية المالية سوف تخزن. ونقل عن العادل قوله بأنه كان قد أرسل إلى صلاح الدين، حين كان مكلفاً بجبايتها، ٧٠,٠٠٠ دينـار وكان ذلك في إحـدى الأمسيات. وفي الصباح جاء حافظ مال صلاح الدين يطلب المزيد لأن المبلغ السابق كان قد وزّع كله[49].

وقد تكرر القول حول هذه النقطة من قبل الفاضل الذي كان آنئـذٍ غائبـاً، والذي كتب يقول بأنه إذا كان المال قد جُمع وحُفظ، «فإنه سيمكن السيد من غزو باقي البلدان». أضف إلى أن هذه الأهلية كانت الوحيدة لتهانيه. فقد كان صلاح الدين «النور الذي يضيء في كل فجر يجلب الظلمـة للكافـرين»؛ و «بتحـريره المقام الشقيق لمكة من الأسر» «فقد أصبح سيدي وسيد كل مسلم»[50]. وقد رجا صلاح الدين نفسه بوضوح أن يشاطر «كل مسلم» هذا الرأي. فقد استعاد للخليفة قبة الصخرة التي كانت «درّة خاتم الإسلام»[51]. وكتب يشير إلى أن جميع جهوده كانت موجهة نحو هذه الغاية العظيمة. فقد ناضل ضد أولئك المسلمين الذين سعوا إلى إعاقته فقط من أجل توحيد الإسلام بحيث تكون كلمة الله هي العليا. ولـكي يسعى إلى هذا الهدف لا بد من ركوب المخاطر؛ ولكن القعود بلا حراك لن يحقق الواجب المفروض من الله عز وجل، لا ولن يكون قد أتاح له فرصة إنجاز أوامر الخلفاء السالفين. وقد أورثوا بدون شك المسرّة التي كانوا يمكن أن يشعروا بها، كما أورثوا العرش إلى أطهر الخلفاء [الخليفة الحالي]؛ أما بالنسبة إلى صلاح الدين نفسه، فقد أساءت إليه الألسنة، كما غلت مراجل أفكار الناس ضده، إلا أنه أطفأ النار بثبات جلود[52]. وقد كتب عماد الدين يوم عودته إلى الخدمة سبعين رسالة على هذا الشكل[53]. وكان من البديهي أن يصمـم صلاح الـدين علـى التأكد أن الانتقادات التي وجهت إليه كانت خاطئة.

إحتفل باستعادة الأماكن المقدسة في إداء مهيب لصلاة يوم الجمعـة في ٤

شعبان/ ٩ تشرين الأول. وأورد عماد الدين أن جميع أصحاب الفضيلة والعلم الذين جاؤوا إلى القدس أفواجاً رغبوا في أن يكونوا أول الخطباء. وقد وقع إختيار صلاح الدين على محي الدين محمد بن زكي الدين القرشي الذي كان قد عيّن قاضياً لحلب بعد فتحها في العام ١١٨٣[٥٤]. وكانت الأماكن المقدسة قد أعيد ترميمها. وكتب صلاح الدين يقول بأن الكفار كانوا قد حولوا القدس إلى جنة نعيم. إذ أنهم ملأوا الكنائس ومنازل فرسان الداوية، والإسبشارية بالرخام[٥٥]. غير أن عماد الدين لم يمنحهم أي فضل، ويتكلم عن وجود مرحاض في الحرم الشريف، وصور للأنعام أشباه للخنازير في كنيسةٍ على الصخرة[٥٦]. وأمر بغلق أبواب كنيسة القيامة وعقد مجلس مستشارين لدرس وضعها. فرغب بعض الأمراء في تهديمها بحيث لن يأتي المسيحيون بعد اليوم للحج إليها. غير أن الأكثرية أشارت إلى «أن الخليفة عمر لما فتح القدس أقرهم على هذا المكان» «فإن متعبدهم موضع الصليب والقبر، لا ما يشاهد من البناء، ولا ينقطع عنها قصد أجناس النصرانية، ولو نسفت أرضها في السماء»[٥٧]. فوافق صلاح الدين على ذلك فلم يلحق بالكنيسة أي ضرر، حيث سمح لعدد من الكهنة أن يمكثوا بدون أن يدفعوا الفدية. وتفاوض المسيحيون الشرقيون بواسطة ضياء الدين عيسى، فنجوا من الطرد بموافقتهم على دفع ضريبة الرؤوس بالإضافة إلى فديتهم.

إنتهت مهلة الأربعين يوماً لدفع الفدية في ٥ ـ ٦ شعبان/ ١٠ ـ ١١ تشرين الأول. وقدر عماد الدين سبعة آلاف رجل وثمانية آلاف إمرأة كانوا غير قادرين على الدفع، والذين أخذوا بالتالي عبيداً[٥٨]. وقدر أنه كان في المدينة أكثر من مائة ألف رجل وامرأة وطفل[٥٩]. كما قال إن الفدية المالية التي جمعت بلغت حوالي مائة ألف دينار[٦٠]. ويبدو أن هذا الرقم رقم صغير جداً. فقد نقل عن العادل، كما رأينا من قبل، قوله انه أعطى صلاح الدين سبعين ألف دينار في ليلة واحدة، ثم أضاف بأنه أرسل مبلغ ثلاثين ألف دينار آخر كان قد أرسل في اليوم التالي. وسمع ابن شداد بأن مبلغ ٢٢٠,٠٠٠ ألف دينار كان قد جمع، ولكنه قال إن صلاح الدين «رحل عن القدس ولم يبق له من ذلك المال شيء»[٦١].

وسواء أكان تقدير ابن شداد صحيحاً أم لم يكن، فإن من الواضح أن صعوبات عملية كانت تزدحم في أعقاب إنتصار صلاح الدين. وفي نفس الرسالة التي أخبر فيها الخليفة عن المبالغ الهائلة من الأموال التي قدمها له الفرنجة، واصل

الكلام متذمراً أو شاكياً من ضيق موارده الماليّة؛ إذ أن الحملة التي استغرقت وقتاً طويلاً كانت قد هدرت أموال الجيش؛ وقد نهبت مناطق الفرنجة واستهلكت حبوبهم، الأمر الذي أدى إلى الإنفاق عليهم، بدلاً من أن يكونوا مصدراً للعائدات الماليّة. وكان لا بد من تحضير السفن؛ وكانت الحاجة ماسة إلى الحاميات، كما كان لا بد من ترميم التحصينات. وقد كتب يقول، إنه من المؤكد أن الفرنجة لن يسحبوا أيديهم من أراضيهم السابقة إلا بعد أن تقطع هذه الأيدي.

ولم ينتظر صلاح الدين حتى نهاية فترة الفدية. فقد وردته رسائل من المشطوب الذي كان قد أعطي صيدا وبيروت، تحثه على مهاجمة صور، «السهم الوحيد المتبقي في جعبة الكفار» «في كل يوم توجد فرصة لا يمكن الإمساك بها إن هي مرّة أفلتت»[٦٢]. وكان الفاضل أول من غادر القدس، ثم تبعه تقي الدين، ثم رحل بعد ذلك صلاح الدين نفسه بصحبة العادل، وكان ذلك يوم الجمعة في **٢٥** شعبان/ **٣٠** تشرين الأول. أما عثمان الذي كان قد خلّف وراءه مخازن أسلحته بغية تزويد القدس بمستودع للأسلحة، فقد رافق أباه في المرحلة الأولى من رحلته ثم تحول بعدها إلى الجنوب باتجاه مصر. وفي يوم الأربعاء **٢٩** شعبان/ **٤** تشرين الثاني، عسكر صلاح الدين خارج عكا في طريقه نحو الشمال.

١٨ ـ النجاح والفشل

كان كونراد دو مونتفرّات قد استخدم فترة التقاط الأنفاس التي كان صلاح الدين منحه إياها، من أجل تقوية تحصينات صور، فعمد إلى حفر الخندق عبر عنق طريق الإسكندر المعبدة، وأخذ ينشيء تدريجياً وبجهد التحصينات الخارجية. واتضح أن صلاح الدين لم يكن يخامره الشعور بالثقة بفرص نجاح سريع. فغادر عكا يوم الأحد في ٥ رمضان/ ٨ تشرين الثاني، ولكنه أمضى أربعة أيام في مسيرة ٢٦ ميلاً (٤٢ كلم)، ثم توقف إلى الجنوب من صور يوم الخميس في ٩ رمضان/ ١٢ تشرين الثاني. وكان جيشه يفتقر إلى معدات الحصار، كما كان مفتقراً إلى الرجال قياساً إلى حملته السابقة[١]. وعاد العادل إلى القدس. أما الفاضل فيظهر أنه نزل في عكا؛ وكان كوكبري قد نوى القيام بفريضة الحج؛ وغادر عثمان إلى مصر، بينما كان عدد من الأمراء يراقبون قلاع الفرنجة. وتقول المصادر الغربية أن القتال إنفجر في الأسبوع الثاني من شهر رمضان/ تشرين الثاني[٢]، إلا أن صلاح الدين مكث لمدة أسبوعين في ما سماه عماد الدين «النهر»[٣]، لعله نهر المنصورة الواقع على بعد ٦ أميال (١٠ كلم) إلى الجنوب من صور. وحينما تم له جمع مناجيقه زحف في ٢٢ رمضان/ ٢٥ تشرين الثاني ليعسكر في ما يبدو أنه كان تل معشوق، إلى الشرق من الطريق المعبدة. وعلى مسافة ميل ونصف الميل (٢/ ١ ٢ كلم) من أسوار المدينة. في هذا الوقت وصل ولده الظاهر على رأس جنود من حلب[٤]، فحاول صلاح الدين أن يسرع في القيام بهجمة. وكانت الطريق المعبدة ذات عرض يبلغ ٦٠٠ ياردة في طرفها الغربي. وقد وجد

المسلمون أنفسهم في البدء معرّضين إلى رمي الإنتظام (نار تطلق على طول خندق أو صف من الجند: المترجم) من قبل سفن الفرنجة الراسية بمحاذاته. حينئذٍ استدعى صلاح الدين عشر شواني من سفنه في عكا، كما وصلت مراكب أخرى من بيروت وجبيل، فعملت على إجبار الفرنجة بالبقاء في الميناء، وأتاحت لعماد الدين أن يكتب: «أنس أصحابنا بعلوّ الأمر وخلوّ البحر»[٥]. وكان عماد الدين نفسه في الحصار، فكتب رسالة متفائلة للفاضل في دمشق، والتي رد عليها الفاضل حوالي ٥ كانون الأول. كان عماد الدين قد أخبره عن صد هجمة الفرنجة المحاصرين، وعن قتل الظاهر أحد الوجهاء ـ وهو قائد فرنجي أسير، ظُنّ أنه كونراد فقتله الظاهر على الفور ليسجل معركته الشخصية الأولى، وأجاب الفاضل بأنه كان واثقاً بأن صور ستسقط قريباً لأن تباشير النجاح كانت بادية في الأفق، ولا يأخذها الشك[٦].

جاء الفاضل الآن من عكا، ووصل العادل في ٨ كانون الأول. وقد علق الفاضل في رسالة ثانية على فيض التعزيزات، وأضاف أنه، إن شاء الله، سوف يستعيد الجيش قوته السابقة. ثم تابع يسأل عن كيفية مكافحة عماد الدين لهطول المطر المستمر، وعما إذا كانت دوابه وخيامه قد تأثرت بذلك[٧]. وكان الجيش، في الواقع من الكآبة. فقد كان الطقس بارداً ورطباً. وكتب عماد الدين يقول: «كان العسكر قد ألف تيسر الفتح». وقد أجبروا في صور على الإقلاع عن «الحياة الناعمة التي تعوّدوا عليها تدريجاً»، وعوضاً عن تمكنهم من العيش على السلب والنهب، كان عليهم أن ينفقوا من مالهم الخاص على الطعام والعلف[٨].

في هذه الأونة غير الملائمة بنوع خاص تلقى صلاح الدين رد فعل الخليفة على استيلائه على القدس. وزعم عماد الدين بأنه كان قد حذره بأن يتخذ جانب الحيطة فيما يتعلق باختياره الرسول الملائم لحمل النبأ إلى بغداد[٩]. إلا أن صلاح الدين كان يعتقد بضرورة الإسراع بحمل البشارة إلى الخليفة. فاختار شاباً عراقياً كان من الجند، مكروهاً كما يبدو من عماد الدين، ولكنه، كما قال، «شفع له جماعة من الأكابر». وقيل إن هذا الإختيار بذاته قد أحدث إنطباعاً سيئاً. إلا أن انهيار المملكة اللاتينية، من الناحية السياسية، لم يكن أمراً مرّحباً به، بالضرورة، من قبل بغداد، وكان يمكن التغاضي عن طموحات صلاح الدين لإقامة إمبراطورية إسلامية شاملة طالما أن جيشه كان مقيّداً بالجبهة السوريّة. غير أنه إذا ما تم غزو الساحل فإنه

سيكون حراً في ابتلاع العراق بأسره بما في ذلك بغداد ذاتها. وجاء على لسان مبعوثه العراقي، حين كان في حالة سكر، أنه أدلى بملاحظات جعلت مستشاري الخليفة يقولون: «هذا يزعم أنه [صلاح الدين] سيقلب الدولة [العائلة العباسية المالكة]»[١٠].
واتخذ في شعبان قرار بإرسال تاج الدين، شقيق عماد الدين، الذي كان في خدمة الخليفة لإستكشاف نوايا صلاح الدين. ووصل تاج الدين إلى دمشق حين كان صلاح الدين في صور وغادر إلى المعسكر في أوائل شهر كانون الأول. وحمل رسالة من صاحب ديوان الخليفة مع قائمة بالإنتقادات. وليس من العجب ألا يكون هنالك تعبير صريح عن مخاوف بغداد، فركزت الرسالة بشكل بغيض على شكاوى صغيرة. فقد استهجن الخليفة ما سمعه عن المشاحنات الطائفية في سوريا؛ وكان الرجال الذين ينفون من العراق «لسبب ما» يجري الترحيب بهم من قبل صلاح الدين. وقد إتهم طغتكين بأنه يثير المتاعب في الحجاز وذلك بمضايقته الحجيج ونشر الهرطقة الدينية، في حين كان صلاح الدين نفسه قد اغتصب لقب الخليفة، الناصر؛ لقد كان في تاريخ العائلة العباسيّة العديدون من العصاة الذين ألحقوا أذى وإزعاجاً في البلاد، إلاّ أن أحداً منهم لم يتجاسر على القيام بهذا العمل. أما النقطة الأهم والأخطر فقد وردت في النهاية. إذ إتهم صلاح الدين بأنه كان يقوم بإتصالات مع التركمانيين والأكراد على حدود مناطق الخليفة الشخصية، «جاعلاً أقدامهم تزل بهم، وثباتهم كليلاً... عليهم أن يعلموا [فقط] بأنهم رعايا عراقيون»[١١]. لقد كان واضحاً بشكل وافر أنه حتى إستعادة القدس لم تكن لتعوّض، في نظر الخليفة، عن توسع نفوذ صلاح الدين ليصل إلى دجلة والفرات.

كان هذا الصد مكافأة هزيلة بشكل فاضح على إنتصار في الحرب المقدسة. فاقترح العادل وتقي الدين وعدد من الأمراء بأن يظهر صلاح الدين إمتعاضه. وقد أورد عماد الدين مع ذلك، بأن صلاح الدين أمر بأن يعامل تاج الدين بكل إحترام[١٢]، وهي ملاحظة يمكن أن تخفي جانباً من القصة. وكتب الفاضل معبّراً عن أساه مما سمع حول «ملابسات تاج الدين» لمحبته له وبسبب أن نصيحته المتكررة قد ذهبت أدراج الرياح[١٣]. وقد بدا أن الفاضل طلب بالحاح أن يصار إلى التعامل مع بغداد بتحفظ ـ ولربما كانت هذه هي النصيحة التي ذهبت أدراج الرياح ـ ويمكننا أن نستنتج أن تاج الدين لا بد وأن يكون قد قوبل فوراً برد فعل عدائي. غير أن صلاح الدين لم يترك زمام الأمر، مع ذلك، يفلت من يده. فعقد

إجتماعاً خاصاً مع تاج الدين وعماد الدين قال أثناءه: «إن الإمام أجل من أن يأمر بهذه الألفاظ الفظاظ»[١٤]. ثم وضعت مسودّة رسالة لتهدئة الشك. غير أنه من البيّن أن عماد الدين لم يشر في روايته إطلاقاً إلى المشكلات التي أحدثها تأثير صلاح الدين في العراق، وأوضح فقط أن لقبه يعود إلى زمن المستضيء وأن غايته الوحيدة كانت «استكمال الفتوح لأمير المؤمنين».

خيبة الأمل الدبلوماسية هذه لم يعوّض عنها أي تقدّم في الحصار. واقتصر الفاضل على الإشارة إلى أن الصعوبات ستضاعف الثواب المنتظر في الجنة ورفض صلاح الدين التقدّم بمطالب لمصلحة الأفراد المصريين والسوريين، إذ أن: «الصدقات والهبات تأتي في الأيام السعيدة»[١٥]. في هذا الوقت قام كونراد بتسديد ضربة معلم. لقد كان المسلمون يستخدمون خمس شواني للحراسة الليلية. فجهز كونراد قوّة عسكرية، وطلب برسالة إلى هنري الثاني ملك إنكلترا سبع عشرة سفينة شراعية وعشرة مراكب صغيرة[١٦]، وقامت هذه جميعها في فجر ٣٠ كانون الأول بمهاجمة المحاصرين. ويروي عماد الدين أن المسلمين ظلوا طوال الليل يراقبون، غير أن النعاس غلبهم عند الفجر ولم يستيقظوا إلا حين كانت السفن قد دنت من سفنهم لمهاجمتها. فقفز بعضهم من على ظهر السفن[١٧]، وأسر الباقون، بينهم ضابطان «رئيسان» للأسطول. وأعطيت الأوامر إلى ما تبقى من سفن المسلمين التي ظَنّ أنها الآن قليلة العدد بحيث لا تستطيع مواجهة الفرنجة، بالإنسحاب إلى بيروت. أضف إلى أنها إعترضت. وحين رأى البحارة المصريون العدو ينقضّ عليهم أسرعوا بسفنهم نحو الشاطيء، «وأصبحت قلوبهم بما جرى على أنظارهم مروعة»[١٨]. واستطاعت، بالمقابل، قطعة من جبيل «كأنها جُبيل» ومزودة ببحارة مجرّبين، أن تنجو بنفسها. وقد استنتج عماد الدين «أن نواب مصر لم يجر منهم بالأسطول إحتفال، ولم يرتب فيه على ما يراد من الرجال، وإنما حشدوا إليهما مجمعة مجهولة غير عارفة ولا معروفة. كانوا مهملين في القيام بواجباتهم وانتقوا ملاحين ضعفاء فلقيت المراكب الباقية وقد أخلاها حماتها، فرفعناها إلى البر، ورأينا الصحة فيها في الكسر».

ومهما كانت خسارة المسلمين صغيرة بالنسبة إلى العتاد والأجهزة، فقد كانت هذه الخسارة النكسة العسكرية المهمّة الأولى لصلاح الدين منذ معركة حطين.

وكان مجلسه الحربي ينصح بالإنسحاب ونقل عماد الدين عن الأمراء انهم كان يقول أحدهم للآخر: «مطاولة ما نقصر عنه تتعب، ومحاولة الممتنع محال» «لقد قتل الرجال وجرحوا وملّوا، وفنيت النفقات». ومن أجل الرد على هذه الحجج، نقل عن صلاح الدين أنه إقترح الاستمرار في قتال الصليبيين في أماكنهم المنتشرة في الداخل فقال: «نلزم كلاً منهم (قادته) البقعة التي هو بها، وهذا البرج قد ارتفع، وقد إمتلأت بالرجال طبقاته، وتوالت منها في الكفر رشقاته، والمركيس قد قرب أن تخونه تقاته، ورأينا طول الأرواح، لا التطاول إلى الرواح؛ ومتى ما أخذناه منهم [البلد] إنقطع طمع من بداخل البحر من هذا الجانب»[١٩].

في هذا الأمر بعض المبالغة وما دامت طرابلس والمرافيء الشمالية في أيدي الفرنجة، فلن يستطيع حتى سقوط صور قطع الإمدادات المحمولة بحراً. إلا أنه ظهر بشكل حاسم أنه لم يعد باستطاعة الفرنجة بعد اليوم الإحتفاظ بأقوى المواقع. أضف إلى أن الجيش الإسلامي لم يعد بالإمكان إجباره على القتال. وقد عمد صلاح الدين إلى إستدرار الحماسة بتوزيع الأموال. وكان حتى أواخر كانون الأول قد أرسل ١٠٠٠ دينار إلى عكا لجذب المجندين[٢٠]. إلا أن كرمه إصطدم بعقبة نقصان الموارد المالية. وقد لاحظ ابن الأثير أنه من الأسباب التي دفعت الأمراء الأغنياء «كأنهم خافوا أن السلطان يقترض منهم ما ينفقه في العسكر إذا أقام محي الخزائن وبيوت الأموال من الدرهم والدينار»[٢١]. وقيل أن الحلبيين الراسخي الإيمان، طمان وعز الدين جرديك، بالإضافة إلى ضياء الدين عيسى، قد صوّتا على البقاء[٢٢]. إلا أن أفضل ما كان باستطاعة صلاح الدين أن يفعله هو القيام بهجوم عام أخير.

يرى الكتاب الغربيون أن هذا الهجوم تبع خسارة السفن مباشرةً[٢٣]. وأكدت المصادر العربية أنه لا بد أن يكون قد حصل إما في ٢٩ شوال/ ٣٠ أو في ٣٠ شوال/ ٣١ كانون الأول. وقد تجمع الجيش عبر الطريق المعبّدة وقام بموجات من الهجمات، حتى أن فرق الخيالة كانت تخوض البحر أحياناً لتلاحق الفرنجة. وبالرغم من الجهود المبذولة «أنقض ذلك اليوم وقد كلت الأسلحة وانفضت الجموع من إقواء القوى والإنقاض وبات الناس على ضجر»[٢٤]. كان عماد الدين واثقاً من أن سلسلة من مثل هذه الهجمات ستؤدي إلى الفوز بالمدينة. إلا أنه لتوق الأمراء إلى المغادرة، كانت خيبة واحدة كافية لإنهاء الحصار. وفي آخر

شوال/ أول كانون الثاني من العام ١١٨٨ إنسحب صلاح الدين إلى معسكره السابق قرب النهر وبدأ الجيش بالتفرّق. وكتب ابن الأثير: «وهذه كانت حادثة من ثبت البلد بين يديه ضجر منه ومن حصاره فرحل عنه». وقد اعترف ابن الأثير بأن الجيش لم يعد يرغب في البقاء. ثم أردف: «ولم يكن لأحد ذنب في أمرها غير صلاح الدين، فإنه هو جهز إليها جنود الفِرنج[٢٥]، وأمدها بالرجال والأموال من أهل عكا وعسقلان والقدس»[٢٦]. لقد كان هذا، جزئيّاً، إنتقاداً غير عادل سيما وأن إتفاقية الإستسلام الممنوحة للفرنجة قد وفّرت على المسلمين رجالاً ووقتاً. ويبدو أن خطأ صلاح الدين كان أنه لم يهاجم صور في وقت أبكر، وأن ضعفه الحقيقي كان يكمن في السيطرة التي كان عليه أن يمارسها أو مستعداً لكي يمارسها على جيشه. ومن غير المجدي أن نقدر ما كان يمكن أن يحدث لو أنه أصر على البقاء. لقد نقل عن نابليون قوله عن حصار سابق: «إن من يسخر من هذا الأمير [الإسكندر الكبير] لقضائه سبعة أشهر في حصار صور، لا يمكنه أن يكوّن فكرة عن الحرب، ولو كان الأمر يتعلق بي لمكثت هناك سبع سنين إذا دعت الحاجة إلى ذلك»[٢٧].

لقد غادر الآن تقي الدين من المعسكر القائم خارج صور، مع جيوش الموصل وسنجار وجزيرة ابن عمر وديار بكر وماردين. وزحف شرقاً إلى دمشق ماراً بقلعة هونين على تلال بحيرة الحولة، التي كانت قد استسلمت في الأسبوع الأخير من شهر كانون الأول. وكان صلاح الدين نفسه قد تحرّك جنوباً إلى عكا (الخريطة ٢). كان الطقس شديد البرودة، فلاقى صعوبة في نقل أمتعته[٢٨]. وكان قد دمّر جميع أدوات الحصار التي لم يكن من السهل نقلها؛ غير أن قافلة الجمال التي كانت تنقل أمتعته استغرقت أسبوعاً في إجتيازها سلّم صور، فكان على عدد من الأمراء أن يبقوا ليضمنوا عمليات الدفاع ضد هجمات الفرنجة المحاصرين. ثم عسكر بعد ذلك في تل الفخار خارج عكا. ومن هنا سافر العادل إلى مصر، وغادر الظاهر إلى حلب، في حين طلب دلدرم صاحب تل باشر إذناً للرجوع إلى أراضيه. وكان الأفضل قد أنزل جماعته في برج فرسان الداوية في عكا، وبقي صلاح الدين في المعسكر مع حرسه الخاص حتى تضافرت الرياح والثلوج على دفعه إلى إتخاذ ملاذ له في الحصن حيث مكث إلى نهاية السنة الهجرية (أول آذار)[٢٩].

وحصلت قبل ذلك فتنة حادة. فقد وردت رسالة من أمين سر الأفضل على ما

يبدو، تصف الملاءمة المميّزة للحج في هذا الوقت ـ «لن أجد أبداً سنة أخرى مثلها»[٣٠] ـ وكانت تشاطره هذا الشعور أعداد غفيرة من أتباع صلاح الدين الذين أرادوا أن يجمعوا بين الإحتفالات باسترداد القدس وزيارة مشاهد الأنبياء التي استعيدت من الفرنجة مثل مقام الخليل[٣١]. وكان ابن المقدّم بين أولئك الذين طلبوا الذهاب. وقد حاول صلاح الدين إقناعه إرجاء ذلك سنة أخرى، غير أنه نقل عنه جوابه بأن حياته شارفت على النهاية: «لقد تحقق رجاؤه، وكان شيب رأسه يعطيه إنذاراً»[٣٢]. فنال غايته وعيّن مسؤولاً عن الحجاج الشاميين. ثم ورد نبأ بأنه أصيب بجرح مميت أثناء شجار مع العراقيين يوم الوقوف بعرفة (٩ شباط). وكانت هنالك روايات مختلفة حول ملابسات الحادث[٣٣]. فقيل إن ممثل الخليفة، الأمير العراقي طاشتكين، كان قد أمر ابن المقدّم بأن لا يقرع طبوله. قالت رواية أخرى ان ابن المقدم رفع علم صلاح الدين في عرفات، فأنزله العراقيون ورموه أرضاً. وكتب ابن الأثير أن ابن المقدم رفض الإنصياع إلى أوامر طاشتكين على أساس أن طاشتكين كان مكلّفاً بالحجاج العراقيين فقط، فنهب الرعاع العراقيون حينئذٍ المعسكر الشامي. وكان ابن المقدم قد أصيب بجرح في عينه، فنقله طاشتكين، الذي يبدو أنه لم يقصد أبداً أن تصل الأمور إلى هذا الحد، إلى خيمته الخاصة، حيث وافته المنّية[٣٤].

وروى عماد الدين أن طاشتكين، أجبر عندها «رؤساء الحج أن يسيروا حسب مشيئته فكتبوا مرغمين» يؤيدون روايته عمّا حصل. فطرده الخليفة فيما بعد من منصبه، ولكن ذلك لم يكن نتيجة مباشرة للشغب الذي حصل، الأمر الذي أبان في أوضح صورة أنه لم تكن المنافسة البلاطية وحدها التي حالت دون الإعتراف بصلاح الدين نصيراً للإسلام. وكان الإرتياب والكره قد إنتشرا بشكل أوسع وربما أعمق، ولم يكن يسمح لأبطال الإسلام الذين شابت رؤوسهم من هول معارك الحرب المقدسة[٣٥]، بأن يطغوا على إخوانهم في الدين.

وقد سجّل هذا بالنسبة لصلاح الدين نهاية غير سعيدة لأنه كان قد وعد بأن تكون سنة رائعة. كان قد أنجز ما كان غالباً يعلن بأنه طموح حياته. فالجيش الفرنجي قد تحطم؛ وتم الإستيلاء تقريباً على جميع مناطق المملكة اللاتينية في القدس، وتم إسترداد القدس ذاتها. ولم يحصل مقابل ذلك لا على الإعتراف به ولا على العرفان بالجميل. وكانت مرحلة التوسع للعائلة الأيوبيّة تسير، مؤقتاً على

الأقل نحو نهايتها. وكان أمراؤه يأملون بغزو ما تبقى من حصون الفرنجة، وأراضي طرابلس وإنطاكية، غير أن الفشل في الإستيلاء على صور كان نذيراً بأن الهجوم الفرنجي المضاد آت لا محالة. وفي نهاية تشرين الأول كان البابا غريغوري قد أرسل كتاباً يدعو فيه أمراء النصرانية للاجتماع. وفي كانون الثاني سوّي الخلاف بين فيليب فرنسا وهنري الثاني ملك إنكلترا بواسطة المبعوث الرسمي البابوي في جيسورس. ولم يكن صلاح الدين مأخوذاً بالوهم حول المستقبل، فعقد مجلساً لمناقشة دفاعات عكا. وقد يكون عماد الدين بالغ في التشاؤم الظاهر، غير أنه لا يمكن أن يكون قد إخترع الإقتراح بأن عكا نفسها يجب أن تدمّر كي تحرّم على الفرنجة من أن يتخذوها قاعدة لهم، على أن تحصّن قلعة القيمون بدلاً عنها[٣٦]. وقلعة القيمون هذه، تقع على بعد ١٣ ميلاً (٢١ كلم) داخل البلاد عن حيفا وهي في موقع دفاعي يغطي الطريق المتجه من الشرق إلى الغربي إلى ساحل عكا بمحاذاة نهر المقطع، ومدخلاً للطرق المتجهة من الشمال إلى الجنوب خلال أنف جبل الكرمل. وقيل إن صلاح الدين كان على وشك الموافقة على تدمير عكا تدميراً كاملاً، حين انتصرت عليه الحجة القائلة «إذا صينت عكا فهي ملك البحر وهلك الكفر وكانت على البلاد الساحلية قفلاً»[٣٧]. ونتيجة ذلك استدعي قراقوش من مصر حيث كان مشرفاً على أشغالٍ في سور القاهرة، ليشرف على تقوية تحصينات عكا.

أبلغ صلاح الدين أخاه طغتكين بأنه أعطى جنوده فرصة شهرين للراحة، وأنه عازم على حشدهم من جديد في آخر ذي الحجة/ أول آذار[٣٨]. وليس من الواضح، في الواقع، ما هو العدد الذي عاد منهم في ذلك الوقت، ولكنه إنتقل هو نفسه في ١٤ محرم ٥٨٤/ منتصف آذار ١١٨٩ من عكا إلى قلعة الإستبارية في كوكب الهوا وهذا الحصن وحصن فرسان الداوية في صفد والذي يقع على بعد ٢٦ ميلاً (٤٢ كلم) إلى الشمال منه، كانا محاصرين من قبل الجنود المسلمين منذ نهاية آب ١١٨٧. وانتظر صلاح الدين هناك حتى نهاية نيسان، ولكنه قرر حينها أن الحصن ما زال عصيّاً على المهاجمة، فأخذ سبيله إلى دمشق. وبعد مكوث فترة خمسة أيام في المدينة التي لم يكن قد شاهدها منذ أربعة عشر شهراً، غادرها في منتصف ربيع الأول/ العاشر من أيار إستجابةً لنبأ يفيد بأن عماد الدين زنكي قد وصل مع جنوده من الشرق. فخرج إلى سهل البقاع في الشمال، في حين خرج زنكي إلى قدس الواقعة إلى الجنوب تماماً من بحيرة حمص. كانت تلك هي المرّة

الأولى التي التقى فيها الإثنان منذ أجبر زنكي على الخروج من حلب في العام ٥٧٨/ ١١٨٣ . وترجلا عن صهوتي جواديهما للتحية ولتأكيد المساواة في الرتبة ، وأقام كل منهما حفلة استقبال للآخر. كانت أيام المشمس أشهر ثمار دمشق المفضلة، فجلبت منه كميات كبيرة إلى المعسكر، فوصف عماد الدين الذي استمتع بالرفاهية المتباينة مع شظف حياة الحرب، الثمرات بأنها النجوم الساطعة في دوائر الأبراج التي تشير إليها علاماتها في صحونهم[٣٩].

بقي الجيش في قدس لبعض الوقت. ولم تكن قوة صلاح الدين العسكرية وفقاً لمعاييره الخاصة قوة كبيرة. وصدرت الأوامر إلى تقي الدين والظاهر للعسكرة على حدود أنطاكية لمراقبة أية حركة. وكان العادل لا يزال في مصر والأفضل في عكا، في حين كان الأمراء يراقبون كوكب الهوا وصفد والكرك والشوبك. وأخبر صلاح الدين طغتكين بأنه ترك قوة عسكرية لحراسة صور، غير أنه لم يكن هناك أية تفاصيل إضافة عن هذا الأمر. وكان من المنتظر أن تصل تعزيزات من البدو والتركمان . وحين وصل عدد منهم، إنتقل الجيش إلى سهل البقاع في الطرف الشرقي من ثغرة مدينتي حمص وطرابلس. وكان يطل على هذا السهل حصن الأكراد العظيم (الخريطة ٣)، إلا أن صلاح الدين لم يكن يبحث عن المتاعب. فلو أنه زج بزنكي في حصار غير مجد، لكان ذلك حظاً عاثراً لمكانته. وبالرغم مما قيل بأنه استكشف الحصن ليوم واحد، فقرر أن يتجاهله.

وروى عماد الدين أن خطة كانت قد وضعت لمهاجمة عرقة الواقعة على مسافة ١٥ ميلاً (٢٤ كلم) من طرابلس في الطرف الجنوبي الغربي من الثغرة، لأنه «إذا تم الإستيلاء على هذه، فسوف تسقط طرابلس»[٤٠]. وقد تركت الأمتعة في سهل البقاع، وزحف صلاح الدين مع زنكي وكوكبوري. وادعى عماد الدين بأن صلاح الدين استولى على حصن يحمور، الواقع على مسافة ١١ ميلاً إلى الجنوب الشرقي من طرطوس. غير أن هذا الأمر لم يؤكده ابن الأثير الذي كان هو الأخر مع الجيش، والذي دون أن صلاح الدين أغار على يحمور وعلى قلعتين أخريين إلى الشمال من الثغرة، وهما صافيتا والعريمة. ولم تجر أية مهاجمة لعرقة. واكتفى صلاح الدين باستكشاف خطوط الإقتراب من طرابلس وأخذ أعداداً كبيرة من الماشية. وفي ٣ جماد الأول/ نهاية حزيران عاد إلى أمتعته دون أن يكون قد قام بأي هجوم رئيسي.

في هذا الوقت كانت قد إنقضت ستة أشهر على النجاح الأخير الذي كان المسلمون قد أحرزوه والذي كانت له قيمة ما ألا وهو محاصرة هونين. لقد واجه صلاح الدين خيارين فلقد كان باستطاعته أن يحاول إكمال غزو الساحل كله؛ وفي هذه الحالة كان عليه أن يهاجم نقاطاً استراتيجيّة للقوة الفرنجية، مثل طرابلس وصور، قبل أن تصبح أقوى وأمنع، أو كان يمكنه أن يقرر أن الإنتصار الكامل هو أمر بعيد المنال في الوقت الراهن، فيركز على إزالة البيارق غير المحميّة عن رقعة الشطرنج. والعامل الذي كان ينبغي أن يؤخذ بعين الإعتبار هو بنية جيشه الرخوة. ولم يكن لدى حلفائه أي سبب لمده بالدعم الصادق. ذلك لأنه وأفراد عائلته لم يكونوا سوى مجرد أعضاء ناجحين من طبقتهم في نظر أمرائه وجنوده المحترفين؛ ولم تكن عائلته المالكة مدعومة بأي حق إلهي كذلك الذي كان للملوك، وإن التصديق الديني الذي كانت قد ادعته، أنكرته عليها بغداد. وكان من المجدي أن تكون إلى جانبه في فترة نموها واتساعها، إلا أن الفائدة والأعداد مرتبطان إرتباطاً لا إنفصام له. فإذا كانت حساباته العسكرية قد أخذت تتكشف عن خسارة ما، فمن المنتظر أن تميل أعداده إلى النقصان. وإن عائلته الحاكمة بدورها يمكن أن تحف بها المخاطر من قبل توسعيّين مسلمين آخرين. فليس من العجب، إذن، أن يكون قد إختار الخيار الثاني. فقد قام بزيارته خلال إستقبال القضاة المسلمون من مدينة جبله الفرنجية التي تقع على بعد ٧٥ ميلاً (١٢٠ كلم) إلى الشمال من طرابلس، فحذروه من مناعة طرابلس ونصحوه بالتحرك شمالاً. كما جاءه أيضاً رسل من المسلمين في أرض التلال المطلة على الساحل الشمالي[٤١]؛ وفي يوم الجمعة الواقع في ٤ جماد الأول / أول تموز شرع بالرحيل.

تحرك الجيش بأقسام ثلاثة: الميمنة بقيادة زنكي وتقوم بدور طليعة الجيش؛ وصلاح الدين في القلب؛ وكوكبوري مع الميسرة يكونان المؤخرة. وكان معهم جماعة من خيار الأدباء والكتاب إذ أن ابن شداد، كاتب سيرة صلاح الدين، قد دخل في خدمته وكان مصحوباً بعماد الدين وابن الأثير. إتجهوا نحو الغرب عبر ثغرة حمص ـ طرابلس، ووصلوا إلى عرقة في ٥ جمادي الأولى/٢ تموز، ثم إنقلبوا شمالاً ليقطعوا مسافة ١٥ ميلاً (٢٤ كلم) إلى طرطوس فيبلغوها في يوم الأحد في ٦ جماد الأول/٣ تموز. وكان صلاح الدين قد عزم على تخطي طرطوس، إلا أن قلة مناعتها أغرته فأصدر أوامره باستدعاء زنكي، الذي كان

جناحه قد بلغ جهتها الشمالية . وهوجمت أسوارها هجوماً عاصفاً حين كان الخدم ما يزالون ينصبون الخيام فتركوا عملهم هذا واندفعوا يشاركون في أعمال السلب والنهب. كانت المقاومة مركزة في المعقلين الإثنين، فاستسلم أحدهما لكوكبوري ، أما الثاني فأثبت بأنه منيع ، وقد قتلت حامية فرسان الداوية فيه عدداً من المهاجمين، الذين قاموا بعد ذلك بالتراجع والانسحاب . ومكث صلاح الدين حتى ١٤ جماد الأول/ ١١ تموز، حيث تحوّلت المدينة في هذه الأثناء إلى خراب. وكتب الفاضل من دمشق يقول: «وردت أنباء تفيد بأن سيدنا إجتاز طرطوس وأخذها عنوة؛ وقد قلبها رأساً على عقب، حتى لم يبق فيها شيء سوى الخراب . . . إن عملاً هكذا بدأ . . . سيقودنا إلى تحقيق غاياتنا»[٤٢].

وفي ١٤ جماد الأول/ ١١ تموز تابع صلاح الدين مسيره . وبعد أن الزم نفسه بحملةٍ شمالية استدعى الظاهر مع جنوده من حلب، الذي انضم إليه الآن في مكان ما إلى الجنوب من جبلة . وكان على الجيش أن يخوض نزالاً ، تحت حصن الاستبارية في المرقب، مع الأسطول الصقلّي الذي كان وليم الثاني قد أرسله لنجدة الساحل ، والذي كان قد أبحر شمالاً بعد أن عرّج على طرابلس وصور . وقد كان في وضع يمكنه من إطلاق النار على الجند في ممر ضيق على الطريق الساحليّة ، غير أن المسلمين قد مرّوا بأمان محمّيين برماتهم ، فوصلوا إلى جبلة في ١٨ جماد الأول/ ١٥ تموز تاركين المرقب خلفهم . وخرج أهل جبلة للترحيب بصلاح الدين ، تماماً كما كان القضاة قد قطعوا على أنفسهم عهداً بذلك . وقد اقتنع الفرنجة في الحصن في أن يستسلموا وفقاً لاتفاق بالإبقاء على حياتهم ، فتخلوا عن أسلحتهم ومخازنهم وخيولهم . كما أن قلعة بكسرايل القائمة على التلال إلى الشرق من جبلة قد إستسلمت أيضاً فاتحةً بذلك خط مواصلات داخلية إلى حماه . كانت اللاذقية هي الهدف التالي، وهي تقع على بعد ١٥ ميلاً (٢٤ كلم) إلى الشمال . وغادر صلاح الدين جبله في ٢٣ جماد الأول/ ٢٠ تموز وعسكر في تلك الليلة إلى الجنوب من اللاذقية . وسقطت المدينة نفسها في اليوم التالي ثم عقد إتفاق مع حامية الحصن الفرنجية في ٢٦ جماد الأول/ ٢٣ تموز . وأرسل صلاح الدين وصفاً حماسيّاً إلى طغتكين: «ليس كمثلها ميناء، ولا مرسىً للسفن كمرساها»[٢٣] ـ وكان عماد الدين، الذي أسف للأذى الذي لحق بها من قبل السلاّبين النهابين، قد تأثر برخامها وأبنيتها الفخمة والحدائق المتصلة بكل

منـزل[٤٤]. ووصـل الأسطـول الصقلـي متأخـراً عن الوقـت المعتـاد، كان لأميراله مقابلة شخصية مع صلاح الدين حيث طلب إليه فيها أن «يحن على هذه الطائفة فأمنت». وقد أوّل ابن الأثير هذا الطلب وتوسع فيه فجعله إلتماساً بأن تسترجع المناطق الفرنجية بحيث يعترف الفرنجة مقابل ذلك بسيادة صلاح الدين المطلقة ويؤمنوا له الجند[٤٥]. وقد اتفق كل من ابن الأثير وعماد الدين على أن الأميرال كان قد هدد بأنه ما لم يوافق صلاح الدين على ذلك فانه «جاء من السبعة البحار من يسد فضاء السبع الطباق»؛ إلا أنه قلل من شأن هذا التهديد، فرسم الأميرال إشارة الصليب على وجهه وانسحب.

وفي ٢٧ جمـاد الأول/ ٢٤ تموز غادر الجيش اللاذقية وتحرّك عبر أراضي وعرة تقع على مسافة ١٨ ميلاً (٢٩ كلم) إلى الشمال الشرقي من صهيون. وكان لهذا الحصن موقع رائع على أنف ذي حافةٍ شاهقة يبرز من خاصرة جبل، ولكن المنطقة التي يجب أن يدافع عنها جعلت الأمر مجرّد مسألة وقت قبل أن تسقط القلعة. وقد وصلهـا صلاح الـدين في ٢٩ جمـاد الأول/ ٢٦ تمـوز، وفـي ٣٠ جمـاد الأول/ ٢٧ تموز حوصرت، واستسلمت الحامية في ٢ جمـاد الثاني/ ٢٩ تموز، بعد أن وافق رجالها على فدية أنفسهم وفقاً لشروط مدينـة القـدس. وفـي الوقت الذي كان فيه صلاح الدين في صهيون كان جنوده يستولون على بلاطنس التي كان الفرنجة قد أخلوها، كما استلوا على القلاع الصغيرة العيدو والجماهريين وبلاطنس التي تقع على نحو ١٧ ميلاً (٢٧ كلم) من الشرق الجنوبي الشرقي لمدينة اللاذقية والتي تتحكم بممر تحت جبل أربعين. ولكن ابن الأثير أشار ألى أن أحد الطريقين إلى الساحل الشمالي، وهو الطريق الذي يمر بمحاذاة بكسرايل كان طريقاً وعراً، في حين كـان الطريق الأسهل ـ وهو الطريق الذي يمر عبر سلسلة هضاب النصيرية قرب مصياف ـ كان يقع جزئياً تحت سيطرة الاسمـاعيليين[٤٦]. هذه نقطة هامة، لأن الطرق الساحلية إلى جبلة واللاذقية كانت ما تزال تحت سيطـرة الفرنجة إلى الجنوب في المرقب وإلى الشمال في السويدية.

تحرك صلاح الدين من صهيون متوجهـاً نحـو الشمـال ـ الشرقـي من نهـر العاصي حيث هاجم القلعة المزدوجة الشغر ـ بكاس في ٦ جمـاد الثاني/ ٢ آب. وكانت بكاس قد أخليت. ورأى عماد الدين أن صلاح الدين لم يستطع أن يجد أية وسيلة لمهاجمة الشغـر «غير الرمـي من المنجنيق..»[٤٧]. وكان الـكل يتوقـع حصاراً

طويلاً، إلا أن الحامية فاجأت الجميع «بطلب الأمان، وسألوا في مهلة ثلاثة أيام ليخبروا صاحب إنطاكية ويستأذنوه، ويخرجوا من الحصن ويسلموه». ورفع بعد ذلك علم صلاح الدين في ١٦ جماد الثاني / ١٢ آب. وقد أرسل الظاهر في اليوم التالي مسافة ما يقارب ٧ أميال (١١ كلم) إلى الجنوب بغية مهاجمة حصن سُرْمانية، الذي استسلم في ٢٣ جماد الثاني / ١٩ آب. عندئذٍ ذهب صلاح الدين أبعد منها إلى قلعة برزيْة الواقعة على التلال المقابلة لأفاميّة، «يضرب بها المثل في جميع بلاد الافرنج والمسلمين»[٤٨]. وتقع القلعة على سن جبل وفي الغرب منها أراضي مرتفعة حيث جعل صلاح الدين معسكره في ٢٤ جماد الثاني / ٢١ آب. فنصب المناجق التي ما عتمت أن شلّت عن العمل من جرّاء ما تساقط عليها من حجارةٍ مصدرها الحصن، وقد روى ابن الأثير «أنه رأى إمرأة ترمي الحجارة من القلعة على المنجنيق»[٤٩]. فتقرر بنتيجة ذلك محاولة القيام بهجوم، فقام الجيش في ٢٦ جماد الثاني / ٢٣ آب بسلسلة من الهجمات. ولم يكن الفرنجة قادرين على الصمود بسبب قلة عددهم بالنسبة لأعداد المهاجمين، فاضطروا إلى طلب الأمان في الإبقاء على حياتهم. فكتب عماد الدين حول هذا الموضوع أن الفرقة الرئيسة من جيش المسلمين توقفت بانتظار أوامر صلاح الدين، غير أن «جماعة من دهاة الخواص، عارفين بطرق الإقتناص، فأظهروا أن السلطان آمن أهل القلعة[٥٠]. وجمعوهم في مواضع وكنائس، وأحرزوا النفوس والنفائس، وبقي أولئك الأفراد بهم متفردين ولتجريدهم للسبي متجردين»[٥١]. وبعد فتح القلعة إكتشف صلاح الدين أن صاحبة الحصن، الليدي برزي قد سبيت وخبئت «فما زال يطلبها، حتى أظهروها ومن عليها بالأعتاق، وحل عنها وعن زوجها قيد الوثاق» وأحضر بعضاً من أهلها وذلك من أجل رد الجميل لشقيقتها سبيلا زوجة بوهنمد التي كانت، وفقاً لرواية ابن الأثير، تزوده بالمعلومات[٥٢]. وكان عماد الدين قد كتب الآن في إحدى رسائله: «لقد فتحنا من حدود طرابلس إلى حدّ إنطاكية . . . وقد بقيت إنطاكية ومالها بقاء، ولم يبق من معاقلها إلاّ القُصَيْر؛ ودربساك، وبغراس»[٥٣]. ومن الجليّ البيّن أن الفاضل كان يتوقع تقدّماً أسرع ضد إنطاكية نفسها. ولكنه كتب يهنيء صلاح الدين، مضيفاً «لم يعد العبد يعتبر أخبار إنطاكية بطيئة المسار»[٥٤].

سار صلاح الدين شمالاً على نهر العاصي، ثم توقف لبعض الوقت في جسر

الحديد الواقع على بعد ١٧ ميلاً (٢٧ كلم) من إنطاكية، وانتظر لبضعة أيام، وفقاً لرواية عماد الدين ليريح جنوده، وقد يكون ذلك من أجل التأكد من المدافعين، وبغية تقدير معنويات رجاله[٥٥]. لقد كانت إنطاكية نفسها غنيمة عظيمة الشأن. فإلى جانب قيمتها بحد ذاتها، يمكن للذي يستولي عليها من قطع طريق البر في وجه التعزيزات الفرنجية، وتحويل الحملة، بالتالي، من تقدّم إنتصاري إلى عملية استراتيجية فعّالة. ولكن صلاح الدين، بالرغم من نجاحاته، أجّل أي هجوم مباشر. وزحف بدلاً من ذلك، شمالاً فبلغ دربساك، حامياً طرف ممر بيلان، وكان ذلك في ٨ رجب/ ٢ أيلول. وقد قاومت حامية من فرسان الداوية مقاومة ضارية. وقد تم فتح ثغرة بفضل مجانيق صلاح الدين، ثم لغّم البرج. وقد رأى ابن شداد[٥٦] فرسان الداوية يكونون جداراً بشرياً «كلما قتل منهم رجل قام غيره مكانه». وقد اضطروا هم أيضاً في النهاية إلى طلب الأمان وسُلّم الحصن في ٢٢ رجب/ ١٦ أيلول. ونقل الفاضل نبأ سقوطه إلى ابن عم صلاح الدين، عز الدين موزك. وقد كتب يقول إن فرسان الداوية تخلّوا عن مخازنهم وحبوبهم وأسلحتهم ووافقوا مرغمين على دفع فدية ضخمة. أما المال الذي سيدفع فدية، فينبغي أن يؤخذ من مدخراتهم المالية، وهذا الأمر لم يكن بالنسبة لهم ليخطر على بال. ثم أضاف أن صلاح الدين كان الآن قد إنتقل إلى بغراس حيث يستطيع أن يرى منها أسوار إنطاكية وأبراجها. وكانت هذه تستقبل غارات المسلمين صباح مساء، وقد ملأ الصراخ آذان الناس هناك، والهمسات صدورهم. ثم أضاف، «أما فيما تبقى فقد إجتاح التركمانيون بلاد الأرمن ونهبوها، جالبين العار على قائدهم ومستولين على الأسلاب»[٥٧].

وصل صلاح الدين إلى بغراس في ٢٣ رجب/ ١٧ أيلول وأجبرها على الإستسلام في ٣٠ رجب/ ٢٦ أيلول وقد بدا المسرح الآن مهيأً لحصول الذروة في الحملة، ولأحداث التدمير النهائي لإنطاكية. ومن العجب أن هجوماً لم يحصل؛ وعوضاً عن ذلك، عقدت هدنة تستمر ثمانية شهور إبتداء من أول تشرين الأول. قيل ان أحد البنود قد نص على أنه إذا لم يصل إلى المدينة أية مساعدة خلال هذه المدة فعليها أن تستسلم؛ كما نص بند آخر على إطلاق سراح جميع الأسرى المسلمين. وأشار عماد الدين إلى أن المدينة لا تستطيع إستجماع قوتها في هذا الوقت القصير بفضل فقدان حصونها، وان الهدنة ينتهي أجلها في أيار قبل حلول

موسم الحصاد[٥٨]. وقد أعطى الفاضل القضية شكلاً حسناً ومختلفاً عن الواقع تماماً، فأكد على الإعجاب بالمسلمين لحقيقة أن صلاح الدين قد جرد الأسرى بحد السيف وليس بالدينار[٥٩]. إلا أن لا شيء إستطاع أن يخفي خيبة الأمل الناجمة عن الهبوط المفاجيء. فالوعد الذي قطع حول الإستسلام سيكون، في أي حال، دعوة للفرنجة إلى إستخدام الطريق البرّية التي تركت سالكة لهم. حتى أنه ليس من الواضح فيما إذا حمل هذا الوعد على محمل الجد. وليس هنالك من إشارة إليه فيما بعد في الروايات العربية. كما أن إشارة عماد الدين إلى أن إنطاكية لن تستطيع إسترداد قوتها تبدو أكثر صلة بحصار متوقع أكثر منه بعملية استسلام[٦٠]. وقد وضع كل من ابن شداد وعماد الدين اللوم على التململ في الجيش. فقال عماد الدين إن صلاح الدين نفسه كان يرغب في القتال، غير أن «العسكر الغريب» كانوا قد سئموا الحملة. أما إبن شداد فقد فسر هذا بالقول إن زنكي كان يطلب السماح له بالمغادرة إلى الوطن. فمن وجهة نظر زنكي، ان سقوط إنطاكية سيجعل صلاح الدين أكثر نفوذاً وأقوى سلطاناً مما كان؛ ولم يكن بقاؤها يشكل خطراً على بلاده الخاصة، وبالتالي لم يكن هنالك من سبب يدعوه إلى إظهار مزيد من الحماس في ما لم يكن في ذلك الوقت مسألة حياة أو موت. وقد أظهر تصرف جنود صلاح الدين في برزيه، بالرغم من إستمرار النجاح المحرز، ان الإنضباط قد غدا رخواً. كما أن صلاح الدين لا بد أنه أحس ثانية أن الوقت لم يكن وقت الإلحاح على القيام بحصار كلي.

ويمكن لإهتمامه بقاعدة نفوذه أن يُرى في توزيعه للبلدان والقلاع التي استولى عليها. فقد أعطيت بكسرايل وجبله إلى سابق الدين عثمان من بني الداية. كما أعطيت اللاذقية إلى تقي الدين، وصهيون إلى منكورس بن خمارتكين صاحب قلعة أبي قبيس، والشغر بكاس إلى غرس الدين قلج وهو أحد القدماء المحاربين المصريين التابعين لشيركوه، وبزريه إلى عز الدين إبراهيم، وهو عز الدين ابن المقدّم، ودربساك وبغراس إلى علم الدين سليمان. وكان الكسب الأيوبي الوحيد هو اللاذقية. وكان منكورس وابن أبي المقدّم من الأمراء الذين يكوّنون الجيل الثاني من معاصري الأيوبيين وجميعهم كانوا رجالاً من متوسطي الثروة والنفوذ. وبالإستثناء الممكن لغرس الدين، فقد كان لديهم ممتلكات قرب الأماكن التي أعطيت لهم. وبتوطيد نفوذهم كان صلاح الدين يرجو أن يعزز الطبقة الوسطى من معاضديه. وقد اشتمل هذا على الأسياد المستغلين الذين كانوا

يستطيعون إما إنتاج المال والرجال وإمّا إثارة الإضطرابات وخلق المتاعب، ليس بواسطة العصيان العلني بل بمجرد التواني في أعمالهم. وكان قصور ولائهم قد أكده عماد الدين في رواية فحواها أنّ ١٠٠٠ غرارة من الحبوب وجدت في بغراس سلّمت إلى علم الدين. وكانت إنطاكية تشكو من نقص في الحبوب حيث كانت الغرارة تباع بإثني عشر ديناراً. فظن عماد الدين أن علم الدين سيبيع حبوبه ثم يستغني عن حفظ الثغر ويشير بتخريبه. وأضاف عماد الدين بأن هذا ما حصل تماماً بعد سنين[٦١].

بعد عقد إتفاقية الهدنة نقل صلاح الدين المعسكر في ٣ شعبان/ ٢٧ أيلول، وعاد إلى دمشق «قبل دخول رمضان بأيام يسيرة»[٦٢] (أول رمضان/ ٢٤ تشرين الأول). فقد اقترح عليه أنه في هذا «الشهر الذي لا يسافر الإنسان أين كان فيجتمع فيه بأهله»[٦٣] ينبغي أن يسمح لجنوده بالراحة. وقيل عنه بأنه كرّر ملاحظته «لأجل غير مأمون»[٦٤]. وجعل المطر والوحل الترحال أمراً مزعجاً، غير أنه إجتاز الأردن في بيت الأحزان، ثم تسلّق حاجز تلاله الغربية متجهاً نحو صفد (الخريطة ٢). كانت مؤن الحامية هنا تتناقص. وحين رأى أفرادها أن هجوماً سيشنّ عليهم في عقر دارهم، «أخرجوا أسارى المسلمين ليشفعوا لهم في طلب الأمان»، وكان ذلك في ٨ شوال/ ٣٠ تشرين الثاني. وضعت شروط الإتفاق، فغادرت الحامية إلى صور وسلمت القلعة إلى صلاح الدين في الأسبوع الثاني من شوال/ أوائل كانون الأول.

وكان استسلام الكرك في رمضان/ تشرين الثاني إنتصاراً إضافياً آخر. فقد ترك هنا للعادل أن يرتب حصاراً بعد أن كانت الحامية قد رفضت التماساً من أرملة رينولد من أجل مقايضة القلعة بإطلاق سراح ولدها همفري. ورأى ابن الأثير أنهم كانوا قد «أكلوا دوابهم»[٦٥]. وكان من المؤكد أن أية مساعدة لن تصل إليهم. وعبر عن ذلك عماد الدين بقوله: «لقد أثبتوا عذرهم تجاه جماعتهم»[٦٦]. وتم نجاح آخر وإن كان على مستوى أصغر، ألا وهو الإعتراض الذي قام به فريق مكوّن من ٢٠٠ رجل من الفرنجة الذين قدموا من صور بهدف التسلل عبر الحصار الذي أقامه المسلمون وذلك من أجل تعزيز كوكب الهوا. وكانت النغمة النشاز الوحيدة هي الخبر الذي ورد من مصر بأن إثني عشر رجلاً قد إنطلقوا في شوارع القاهرة في إحدى الأمسيات يهتفون بشعارات فاطمية على أمل أن يبدأوا ثورة شعبية[٦٧]. فلم

ينضم إليهم أحد، وألقي القبض عليهم ، الأمر الذي سمح للفاضل بالتعليق مخاطباً صلاح الدين : «ينبغي أن تفرح بذلك ولا تحزن ولا تهتم حيث علمت من مواطن رعيتك والنصح والترك الميل إلى عدوك» . أضف إلى أنه قيل بأن صلاح الدين نفسه كان منزعجاً بسبب هذا الحادث الذي حصل إبان وجوده في قمة الإنتصارات على الفرنجة . وقد أثبت هذا الحادث مرّة أخرى أن الإنتصار في الحرب المقدّسة لم يكن في حد ذاته كافياً لتضفية حسابات قديمة .

بعد سقوط صفد إنتقل صلاح الدين جنوباً لمواجهة كوكب الهوا. وكان المدافعون هنا ما زالوا مصممين على المقاومة . ونقل عنهم عماد الدين قولهم : «لو بقي منا واحد لحفظ بيت الإستمار وخلصه إلى الأبد من العار»[٦٨] . كان الطقس رديئاً . وكتب صلاح الدين قائلاً بأن الثلج كان يكسو التلال[٦٩] . وشكى ابن شداد من الأمطار والرياح والوحول التي كانت تعوق كل تحرّك للرجال والخيول[٧٠] . ووصف عماد الدين كيف كانت الخيام تغرق في الوحول أو تنهار تحت وطأة الأمطار التي قطّعت حبال التثبيت . وبالرغم من هذا كله «فقدت مياه الشرب»[٧١] . وكان ينبغي أن يبنى جدار ليقي خيمة صلاح الدين التي كانت على مرمى من نشاب الحصن . وقد قتل عدد من المحاصرين بالحجارة وبسهام القوس والنشاب . ويبدو أن الأمتعة والخيام الثقيلة كانت قد أنزلت إلى ملجأ وادي الأردن . ونجح المسلمون بعد حملات مستمرة في أن يصلوا إلى التحصينات الخارجية الفرنجية . واستطاع الخبراء النقابون المسلمون بمساعدة تغطية أمنها لهم رماة السهام المسلمون ، أن يقوّضوا هذه التحصينات ، فأصبح بالإمكان حينئذٍ تلغيم السور الرئيسي للحصن . على أثر ذلك طلبت الحامية الأمان واستسلم الحصن في ١٥ ذي القعدة/ أوائل كانون الثاني عام ١١٨٩ . وعرضت القلعة على عدد من الأمراء ، فلم يقبلوها ، فأعطاها صلاح الدين مرغماً إلى صارم الدين قايماز .

وضع سقوط كوكب الهوا النهاية لحملة صلاح الدين الشتوية . وسمح الآن للأمراء والجنود بالذهاب . كما غادر الفاضل إلى مصر، حيث كانت الثورة المجهضة قد أظهرت أن الحاجة ماسة إلى مزيد من الأشراف والمراقبة . وبقي صلاح الدين نفسه بالقرب من بيسان حتى نهاية شهر ذي القعدة (٢٠ كانون الثاني) ؛ وقام بعد ذلك بزيارة القدس بصحبة العادل . وبالرغم من سلسلة

إنتصاراته لم تكن نبرة الرسالة التي أرسلها الآن إلى طغتكين نبرة تفاؤل. فقد أخبر طغتكين أن كوكب التي كانت وكراً للإستبارية وقاعدة في ملتقى الطرق قد سقطت، وأنه لم يبق شيء «في هذه المنطقة» سوى صور. وفي السنة التالية سيهاجم هو نفسه إنطاكية، ويهاجم تقي الدين طرابلس. أما العادل فسيبقى في مصر التي كانت مهددة بالهجوم عليها. ولم تكن الشعوب الفرنجية التي لا حصر لها ولا عد، لتتعزى بأي شيء عن خسارتها. فقد وردت رسائل من عملاء في الإسكندرية، ومن الجبهات في المغرب، ومن إمبراطور القسطنطينية، تحذره بأنها [الشعوب الفرنجية] قد توحدت، وبأنها كانت تخطط لمهاجمة كل من سوريا ومصر. أما فيما يتعلق بطغتكين نفسه فقد كان سلوكه إحدى النقاط التي لم يكن الخليفة يجندها. وتشير الرسالة إلى أنه قد استدعي من اليمن إبان مرض صلاح الدين، فحاول صلاح الدين الآن أن يستدعيه ثانية ناقلاً إليه، من أخ أكبر ورب لعائلته، دعوة فيها مزيج من الإنتقاد والأطراء معاً. وكتب مشيراً إلى الأخطار التي قد تنجم عن مهاجمة الفرنجة لهم قائلاً: الملوك الكبار لا يقف في وجههم إلا الملوك الكبار، «فالبدار إلى النجدة البدار، ولا غنى أن يكون المجلس السيفي بحراً في بلاد الساحل، ونوثر أن يساهم آل أيوب في ميراثهم منه مواقع الصبر ومطالع النصر فوالله أنا على أن نعطيه عطايا الآخرة الفاخرة، أشد حرصاً منا على أن نعطيه عطايا الدنيا القاصرة.

«وإنا لا يسرنا أن يقضي عمره في قتال غير الكافر، ولا شك أن سيفه لو إتصل بلسان ناطق وفم، لقال ما دمت هناك فلست ثم وما ناذلناه لفتح أرضه السلاح، ولا أعرناه لملك مركزه النجاح إلاّ على سخاء من النفس به وبأمثاله، على علم منا أنه لا يقعد منا إذا قامت الحرب بنفسه وماله وليعص أهل الغواية. وينوي في هذه الزيارة جمع شمل الإسلام قبل نية جمع شملنا فلا حرج عليه أن فاء إلى أرضه بالرجعة. وليحضر حتى يشاهد أولاداً لأخيه يستشعرون لفرقته غماً وقد عاشوا ما عاشوا لا يعرفون أن لهم مع عمهم عماً»[٧٢].

وكان النقص في الأموال كما المخاوف من ضربة فرنجية مضادة تفسد آثار النجاح. ومرض عماد الدين في بيسان وعاد إلى دمشق، وكتب من هناك، في أوائل نيسان، يشكو للفاضل نفقاته واجتزاء مصادر موارده المالية. وقد أجاب الفاضل انه لو تسنى له أن يطلع على الأمور في مصر والأزمات المالية الشديدة التي

يتخبط منها شعبها الـذي كاد يكون الآن في الرمـق الأخير، «لأدرك أن الأمـور في دمشق، حفظها الله، ليست سوى قطـرة في هذا المحيط»(٧٣). كانـت الطرقـات محفوفة بالأخطار، الأمر الذي يمكن أن يفسر شكوى عماد الـدين حول موارده المالية. وأشار الفاضل في رسالة أخرى كتبها في ٦ نيسان إلى اغتيال رسول كان يحمل مالاً من مصر إلى سوريا. أمـا فيمـا يتعلـق بديون عمـاد الـدين ونفقاتـه فالجواب، كما اقترح الفاضل، يكمن في كرم صلاح الدين. إلا أن صلاح الدين نصح عماد الدين بقبول إقطاعة فيما إذا قدمت له واحدة، بدلاً من أخذه علاوة، حتى ولو كان مبلغ الإقطاعة أقل من قيمة العلاوة، ذلك لأن العلاوة «كانت دائماً تصدم الآذان وتقطع الآمال والأماني»(٧٤).

استطاع عماد الدين أن يتدبـر الإستجابـة لبعض مطالبيـه، إلا أنـه صادف صعوبات في محاولة لجعل عكا تخصصه ببعض المال. وقد فاتح الفاضلُ القاضي المرتضى بهذا الموضوع(٧٥). غير أنه حكى فيما بعد عن «عدم وجود تقدّم في شأن هذه العلاوة» وعن «قصور أولئك الذين يقصّرون» ـ «ليس بإمكان كل إمـرءٍ أن يذهب إلى السلطان» ـ ثم ألمح إلى أن ابن شداد، الذي كان في تلك الأثناء في معسكر صلاح الدين، قد يستطيع المساعدة(٧٦).

ليست هذه الشكاوى في حد ذاتها بالإضافة إلى البحث عن خطـوات أخـرى، بذات شأن. غير أن ما يثير الدهشة هو المدى الذي كان عماد الدين مستعداً لدفع قضيته إليه. ويبدو أنه مكث في دمشق حين ارتحل صلاح الدين في الربيع، ورأى الفاضل بأنه آن الأوان له في أن ينضم إلى سيده ـ «فللغائب أن يعود إلى ذويه، ولمن ينشد الوطن أن يستقر في مكانه»(٧٧). أضف إلى أن عماد الدين بدلاً من أن يفعل هكذا، هدّد بالكفِ عن خدمة صلاح الدين كلياً.

قد يكون هناك، بالطبع، أسباب شخصية، تفسر تصـرف صلاح الـدين. ومـع ذلك، فإن ما هو واضح هو أن العمليات الحربية المتواصلة قد سببت ضائقة إقتصاديّة في كل من مصر وسوريا. وإن الواقع في أن يكون رئيس مدّاحي صلاح الدين قد فكر ولو بنصف جديَّةٍ أن يتخلى عنه يدل على جزء من المدى الذي بلغته المشكلات التي لا بد من مواجهتها.

١٩ - الصليبيون في عكا

للوضع العسكري بالنسبة إلى صلاح الدين حق التصدّر دائماً على أي شيء آخر. فقد سار الآن من القدس في رحلة تفقدية. وصحبه إلى عسقلان العادل الذي كان في طريق العودة إلى مصر. ومن هناك انتقل ثانية إلى الشمال في طريقه إلى عكا، عائداً إلى دمشق في مستهل صفر ٥٨٥/ الأسبوع الثالث من آذار ١١٩٠. وفي ٣ ربيع الأول/ ٢١ نيسان خرج زاحفاً مرة أخرى. وبعد أن انتظر تجمع عسكره، سار عبر بانياس إلى مرجعيون التي وصلها في ١٧ ربيع الأول/ ٥ أيار. وحوالي هذا الوقت وردت أنباء تفيد بأن الشوبك قد استسلمت، فكتب إلى الخليفة يخبره أنه باستثناء صور يحكم السيطرة الآن على مملكة القدس كلها من العريش حتى حدود الحجاز، وصعوداً إلى الحدود الشمالية لأراضي بيروت؛ وقد تم الاستيلاء على جميع مناطق أنطاكية إلى الجنوب من التخوم الأرمنية ما عدا القُصيْر وأنطاكية نفسها؛ أضف إلى أن مقاطعة طرابلس لم تفقد سوى جبيل، وأن الفرنجة ما زالوا يحتفظون بجميع حصونها. وكتب أنه هو نفسه كان الآن منطلقاً لمهاجمتها بعد أن ترك الساحل إلى الجنوب منها، من جبيل حتى عسقلان، في عهدة الأفضل[1].

لم يحصل الهجوم أبداً. فقد وجد صلاح الدين في مرجعيون أن منطقة رينولد المجاورة لقلعة الشقيف تشكل إغراء مباشراً. وروى ابن شداد أنه كان يركب كل يوم ليستكشف المكان ويعود. ثم حدث ذات مرّة خلال الأسبوع الأخير من ربيع الثاني/ أيار، حين كان فردريك بربروسا والصليبيون الألمان يزحفون من رتسبون، أن ظهر ريجنولد نفسه فجأة وطلب مقابلة صلاح الدين، ثم عرض تسليم القلعة شرط أن يعطى

بيتاً في دمشق، ويمنح وعائلته إقطاعاً. وأن يُمكَنْ من نقل عائلته من صور دون أن يثير شبه كونراد دي مونتفرا. ثم طلب مهلة ثلاثة أشهر حتى يتمكن من جمع غلاته من الحبوب بعد موسم الحصاد. فوافق صلاح الدين. ومنذ ذلك الوقت فصاعداً كان ريجنولد، الذي «كان يعرف العربية وعنده إطلاع على شيء من التواريخ والحديث» «يتردد إلى خدمة السلطان في كل وقت»[٢] ليناقش معه مواضيع دينية. وسمح له بأن يشتري مؤناً من السوق العسكري. والتقييد الوحيد الذي اشترط عليه هو أن لا تقام أية إنشاءات في الشقيف كي لا تعزز التحصينات. ويظهر أن صلاح الدين كان الآن مكتفياً بالانتظار. فلم يحجم عن التقدم إلى طرابلس فحسب، بل بدا أنه أقلع عن خطته السابقة في الزحف على أنطاكية حين انتهت مدة هدنتها. وعوضاً عن مهاجمتها، سلك، كما روى ابن الأثير، مسلك المدافع فأرسل تقي الدين شمالاً ليقوم بالدفاع عنها ضد أي هجوم محتمل[٣].

ولا يمكن أن يُعزى الفضل في هذه التغيّرات في الخطة إلى ريجنلد وحده. فقد ألمح ابن الأثير بأن صلاح الدين كان قلقاً بسبب أنباء وردته من صور، حيث كان الفرنجة يتلقون تعزيزات متواصلة، وحيث أن مصالحة قد تمت بين كونراد دي مونتفرا وغي دو لوزينيان[٤].

وفي رأي ابن الأثير، إن هذا يفسر اهتمام صلاح الدين بمعقل الشقيف الذي تستطيع حاميته أن تهدد مؤخرة جيشه فيما إذا أجبر على التحرّك نحو صور. ولكن التسوية مع ريجنلد أدخلت التفاؤل إلى معسكر المسلمين فكتب العامل يخبر عثمان أن ملوك الأرض كانوا قد جاؤوا يدقون أبواب سرادق صلاح الدين في مرجعيون، كما كانت جيوش صلاح الدين تحصي أنفاس الكفار. وعقد كونراد وغي حلفاً؛ وكان غي خارج صور بصحبة فرقة من الفرنجة إلا أنهم كانوا قد لجأوا إلى التلال خشية الموت. وعلى الرغم من أن جيوش صلاح الدين كانت تستفزهم إلى القتال، فقد كانوا يجفلون من ذلك[٥].

وكان غي، الذي أفرج عنه صلاح الدين في الصيف الفائت، قد أقسم يميناً أن لا يحارب ضده بعد اليوم؛ إلا أنه أحِلّ من قسمه من قبل رجال دينه على أساس أن «اليمين ينبغي ألا يحافظ عليه حين يكون الدين في خطر[٦]». كان الحنث بقسمه

قد رواه ابن شداد، إلا أنه، على عكس ما كان ينقل غالباً من خيانة رينولد دو شاتيلّون، لا يبدو أنه قد أثار مشاعر غير وديّة[7]. وكان صلاح الدين يرى أنه كان من المحتمل أن يكون غي مصدر شقاق بين الفرنجة. ولعل قسمه، شأنه شأن اتفاق أنطاكية، لم يكن يؤخذ على محمل الجد إطلاقاً. وكان غي نفسه قد ذهب أولاً إلى طرابلس ثم إلى صور، حيث طرقت أسماع المسلمين أنباء تفيد بأن كونراد قد رفض في البدء السماح له بالدخول.

كان الميزان في ذلك الحين يميل ضد صلاح الدين. إذ أن فشله في سحق المقاومة الفرنجية كلّياً بعد حطين قد أضاع عليه الامساك بزمام المبادرة إلى درجة وجد نفسه معها ملزماً بتركيز اهتمامه كله على الساحل للإحتراس ضد ضربة معاكسة. ويبدو الآن أنه لم يكن بقادر على القيام حتى بالهجوم حيث أراد ومتى شاء. وعوضاً عن ذلك كان مجبراً على الانتظار والترقب ليرى أين يمكن أن يحصل هجوم الفرنجة.

وفي هذه المرحلة كتب الفاضل يخبره عن ولادة إبن لعثمان البالغ من العمر سبعة عشر عاماً، وكان ذلك في أول جماد الأول/١٧ حزيران وأضاف: «إن الله سبحانه وتعالى لا يدع أي وقت يمر دون أن يمن على سيدنا بمزيد من الأولاد أو بفتح المزيد من البلاد»[8]. وتضمن النصف الثاني من تلك الجملة نوعاً من الأماني. وفي ١٧ جماد الأول/ ٣ تموز جاء نبأ يفيد أن الفرنجة اجتازوا جسر نهر الليطاني الذي يقع على مسافة ٥ أميال (٨ كلم) إلى الشمال من صور، وكانوا قاصدين الزحف على صيدا. وكانت فرقة من الجيش الإسلامي ترقبهم من الضفة الشمالية، فإنطلق صلاح الدين على الفور قاصداً تعزيزها. وحين وصل وجد أن واحداً من مماليكه الخصوصيين كان قد قتل. وروى ابن الأثير أن صلاح الدين انتظر «لينتقم منهم ويأخذ بثأر من قتلوه من المسلمين»[9]. ولمّا لم يبد الفرنجة أي تحرّك، خرج في ١٩ جماد الأول/ ٥ تموز لاستكشاف موقعهم من التلال الواقعة إلى الشرق من السهل. وهذا ما ضلّل عدداً من البدو والمتطوّعين الذين التحقوا بالجيش والذين ظنوا بأنه خرج للقتال. وقد دوّن عماد الدين بأنه لم «تكن لهؤلاء البدو خبرة بقتال الفرنج»[10]؛ فاحتشدوا عند الجسر فأدرك صلاح الدين الخطر المحدق بهم فأرسل كتيبة من الجند للعودة بهم. غير أن الكتيبة صادفت صعوبات ووقعت في مأزق، ذلك لأن الفرنجة ظنوا بادىء ذي بدء

أن كميناً قد نصب لهم ، فانتهزوا فرصتهم وقاموا بالهجوم . وجرت مطاردة من بقي من المسلمين على قيد الحياة عبر الليطاني . وحاول عماد الدين تعزية قرائه بأخبارهم أن ثمانين من الفرنجة قد غرقوا وهم في طريق العودة(١١) . إلا أن ابن شداد كتب يقول : «لم يتفق للأفرنج مثلها في هذه الوقائع التي حضرتها وشاهدتها»(١٢) . وقد عقد صلاح الدين مجلساً حربياً وقرر التقدّم ضد المعسكر الفرنجي . وكانت خطة قيل إنها جلبت فيضاً من المتطوعين من دمشق وحوران . ولكنه بعد أن انطلق في ٢٧ جماد الأول/ ١٣ تموز للقتال اصطدم بنبأ يقول إن الفرنجة كانوا قد تخلّوا عن المعسكر .

ولما كان طريق الساحل موصداً باتجاه الشمال في وجه غي دو لوزينيان ، فقد كان الهدفان البديهيّان هما قلعة تبنين وعكا نفسها . وذهب صلاح الدين ليزور كلاً من هذين المكانين زيارة تفتيش خاطفة ، ثم عاد إلى مرجعيون في ٦ جماد الآخرة/ ٢٢ تموز . ولم تكن خسارته في معركة الليطاني ذات شأن بالنسبة لقوته الفعلية ، إلا أنه لا بد له من الانتباه إلى مكانته . وقد أنبىء أن جامعي العلف الفرنجيين تواكبهم فرقة من الخيالة يجوبون الأرض حول تبنين ، فوضع خطة لحامية تبنين لجرّهم إلى كمين حيث يكون هو نفسه بإنتظارهم ، في حين تقوم جيوش عكا بمهاجمة معسكرهم من الخلف . وكانت القوّة العسكرية الموحّدة قد نظّمت في ثماني سرايا من الخيّالة ، جرى انتخاب عشرين رجلاً من كل منها لتقوم بدور الطعم . غير أن الخطة كانت تطمح إلى أكثر مما ينبغي نظراً للصعوبات التي كانت تحيق بالاتصالات . وبالفعل ، ليس هنالك من رواية تدل على أن حامية عكا قد قامت بأي تحرك على الإطلاق . فالفريق الذي كان يفترض فيه أن يقود الفرنجة إلى الفخ بقي ليقاتل ، وصلاح الدين ، الذي لم يكن يعلم ما كان يحصل ، كان عليه أن يوّرط تعزيزاته تدريجياً . وانسحب الفرنجة بعد أن قتلوا أربعة أمراء من البدو [من بني ربيعة طي]؛ وأما صلاح الدين فقد عاد إلى مرجعيون في ١٠ جماد الثاني/ ٢٦ تموز . ورأى ابن شداد، بأنه كان منصوراً فرحاً مسروراً(١٣) .

كانت مهلة الأشهر الثلاثة التي أعطيت لريجنلد ليسلّم حصن الشقيف ستنتهي في ٢٧ جماد الآخرة/ ٣ آب . فأمر صلاح الدين عشية عودته من تبنين بأن تنقل خيامه وأمتعته من سهل مرجعيون إلى جانب التل قرب الحصن . وأخبر ريجنولد أن هذا

الاجراء إنما تم لأن السهل أصبح غير صحي، فطلب ريجنولد الآن تمديد الاتفاقية مدة تسعة أشهر إضافية على أساس أن عائلته ما زالت عالقة في صور. وكان هذا الطلب أكثر مما تتحمله سرعة التصديق لدى صلاح الدين، فمنع ريجنولد من مغادرة المعسكر الإسلامي وركّزت قوّة عسكرية محاصرة بالقرب من الحصن. وفي ٢٧ جماد الآخرة/ ١٣ آب اقتيد ريجنولد إلى هناك تحت الحراسة، فخرج أحد الرهبان لملاقاته. لم يحضر المسلمون معهم ترجماناً، فلم يستطيعوا فهم ما كان يدور من حديث؛ غير أن عماد الدين أضاف يقول انه بدا أن ريجنولد «أمره بالتمرد وصره على التشدد»[١٤]. ورفضت الحامية أن تستسلم. فبان حينئذٍ أن صلاح الدين كان قد خدع بإضاعة ثلاثة شهور حيويّة من فصل الحملة العسكرية، ولم يكن قد سجل أي نصر واحد، علماً بأن كل تأخير كان يكبده خسائر إضافية ويزيد في المخاطر التي قد تنجم عن الحشد الصليبي. فأخذ ريجنولد (أرناط) إلى بانياس، ثم أعيد بعد أسبوع ليُهدّد، ولكن دون جدوى. عندها أرسل إلى دمشق لينضم إلى السجناء الفرنجيين الآخرين. وفي ٨ رجب/ ٢٢ آب تسلق صلاح الدين الأراضي العالية خلف القلعة؛ ولكنّ نبأ ورد ذلك النهار يفيد بأن الفرنجة كانوا يتحركون.

كانت قوة عسكرية إسلامية صغيرة قد أبقيت في الاسكندرونة على الطريق الساحلي على مسافة ١٠ أميال (١٦ كلم) إلى الجنوب من صور. وورد الآن نبأ بأن هذه القوة هوجمت وأجبرت على الانسحاب «من قبل الأفرنج بصور ومن كان مع الملك»[١٥]. وجاء في «التتمة» اللاتينية أن غي كان قد أعلن في صور أن أولئك الذين كانوا مع السيد يجب أن ينضموا إليه بغية الثأر من المسلمين. وجمع قوة قوامها ٤٠٠ خيال و ٧٠٠٠ جندي من المشاة بالإضافة إلى إتباع المعسكر[١٦]. وفي عين جالوت تصرّف بحذر، وانتُقد على هذا التصرّف؛ وفي حطين كان أقل حذراً بقليل، مع ما نجم من نتائج مفجعة، فخاض الآن مخاطرة يائسة بالزحف عبر أرض بيد الأعداء وعرة، بغية مهاجمة مدينة محصنة تحصيناً قويّاً، علماً بأن صلاح الدين كان متجهاً نحو اجتذاب ثقل الجيش كله ضده، تاركاً نفسه هكذا إزاء مهمة وصفتها «التتمة» بأنها «صعبة وتكاد تكون من الناحية الإنسانية مهمة مستحيلة»[١٧].

عمد الفرنجة بسرعة، وفقاً للإشاعة، إلى إحكام السيطرة على القطاعات

الخطيرة من الطريق ووصلوا إلى عكا على غير توقع. إن هذا الخطأ أكيد، ذلك لأنه حين هوجمت الاسكندرونة، لا بد أن تكون الحامية قد أرسلت تحذيراً بالهجوم ليس إلى صلاح الدين وحده بل إلى عكا أيضاً. وقد تلقى صلاح الدين أول نبأ له يوم الثلاثاء في ٨ رجب/ ٢٢ آب[١٨]. وفي يوم السبت الواقع فيه ١٢ رجب ٢٦ آب ورد نبأ بأن الفرنجة كانوا في عكا (الخريطة ٢)، وحوالي ٣ أميال (٥ كلم) إلى الجنوب من قرية البصّة، وكلاهما يقعان على الجهة الجنوبية من الأرض الرأسية لرأس الناقورة. وفي الشقيف كان صلاح الدين على بعد ٣٢ ميلاً (٥٢ كلم) من الزيب في خط مستقيم. وفي ١٢ رجب/ ٢٦ آب لم يعد له أية فرصة في اللحاق بالفرنجة الذين كانوا قد وصلوا إلى عكا في اليوم التالي. وإذا ما صحت التواريخ المذكورة في المصادر العربية، تكون رحلتهم قد استغرقت ثلاثة أيام لقطع مسافة طولها أقل من ١٠ أميال (١٦ كلم) حول رأس الناقورة. غير أنه لا بد من التذكير بأن القافلة التي كانت تحمل أمتعة صلاح الدين كانت قد أمضت أسبوعاً لإجتياز هذا الممر الوعر نفسه في ظروف شتويّة، وذلك في شهر ذي القعدة ٥٨٣/ كانون الثاني من العام ١١٨٨. وقد أدعى عماد الدين بأن صلاح الدين كان يريد مهاجمة الفرنجة «عند المضيق»، وأن الأمراء أثنوه عن عزمه[١٩]. وكان قد انتقل في جماد الأول/ تموز من مرجعيون إلى مصب الليطاني في أقل من يوم واحد؛ ولو أنه غادر في ٨ رجب/ ٢٢ آب لاستطاع اللحاق بغي في ١٤ رجب/ ٢٤ آب. غير أن هذه الملاحظة يمكن أن تتلاءم مع ملاحظة إيجابية على حد سواء، أوردها ابن شدّاد، وهي أنه انتظر عن قصد في حال كان انتقال الفرنجة خدعة لسحبه من قلعة الشقيف[٢٠].

ومهما كانت الخطط التي فكر بها فقد تصرف، في ذلك الحين، بحذره المعتاد. وقبل أن ينتقل أرسل أوامر خطية لإستقدام التعزيزات. فكان على كتيبة من الفرسان أن تتحرك نحو الجنوب الغربي، بموازاة لخط سير الفرنجة. غير أنه هو نفسه كان قد اختار أتباع الجوانب الخارجية لمستطيل الشقيف، وصور، وعكا وطبريا[٢١]. ترك مرجعيون في ١٣ رجب/ ٢٧ آب وتوقف عند بحيرة الحولة في منتصف النهار، وقد بلغ قرية المنية الواقعة على بحيرة طبريا في تلك الليلة، بعد أن قطع مسافة ٣٠ ميلاً (٤٨ كلم). ولا بد من أن يكون قد مرّ في اليوم التالي ببلدة حطين حين صعد من جانب البحيرة ليسير نزولاً إلى الوادي تحت جبل طوران؛ وقد توقف بعد الظهر في

كفرقنا . وكانت صفورية الواقعة مباشرة إلى الغرب من كفرقنا قد حددت مكان الملتقى للكتائب الجانبية التي وصلت في ٢٩ آب مدّعية بعض الانتصارات على الفرنجة . وترك صلاح الدين أمتعته وامتطى صهوة جواده ثم توجه غرباً عبر الحاجز المنخفض لأراضي التلال التي تعزل صفورية عن السهل الساحلي إلى أن وصل إلى سفح الخروبة قرب مدينة شفا عمرو، حيث يستطيع من هناك أن يرى السهل ومدينة عكا نفسها الواقعة إلى الشمال الغربي .

ولم ينتظر الفرنجة، وفقاً لما ورد في «التتمة» اللاتينية، القصف المنجانيقي المعتاد، بل قاموا بهجوم في اليوم التالي بعد وصولهم، أي في ٢٩ آب؛ وزعم المؤلف أنهم كانوا على وشك إحراز النصر حين وردت أنباء عن تقدّم صلاح الدين . «لم يكن لديه سوى قوة عسكرية صغيرة، غير أن الخوف أوحى لهم بأنها كانت ذات أعداد لا تعد أو تحصى»[٢٢] . فانسحب الفرنجة إلى معسكرهم في طورون (تل الفخّار) . وأرسل صلاح الدين في تلك الليلة تعزيزات إلى عكا؛ ثم انتظر الجانبان قرابة أسبوعين لوصول مزيد من الرجال . وانضم تقي الدين إلى صلاح الدين وكان قد استدعي من مهمته في حماية أنطاكية . كما انضم إليه كوكبوري بالإضافة إلى جنود من الموصل وسنجار وديار بكر . وحين نظر عماد الدين إلى البحر رأى السفن الفرنجية تصل تباعاً وترسو قرب الشاطىء «كأنها أدغال متشابكة»[٢٣] . وأحصى ابن شداد الآن ما كان قد اعتبر الحد الأدنى من عدد جنود الفرنجة وهو ٢٠٠٠ فارس و ٣٠,٠٠٠ من المشاة[٢٤] .

وحين حشد جيش المسلمين تحرك صلاح الدين نازلاً من التلال ليبلغ دعوته إلى القتال . كان قلب جيشه في تل كيسان وهو رابية منعزلة تقع على بعد ٥ أميال (٨ كلم) إلى الجنوب الشرقي من عكا؛ وكان جناحه الأيمن في تل العياضيّة في الطرف العكّي لسلسلة الهضاب الشرقية الغربية التي تعين الحد الشمالي للسهل . وبقي جناحه الأيسر على نهر نعمان . ويمكن أن نوضح الموقع الدقيق للجناح الأيسر على النهر؛ غير أن مقدمة الجيش يمكن التخمين بأنها كانت تغطي حوالي ١٠,٠٠٠ ياردة في مثلث كانت قمته في تل كيسان ، في حين كانت أقرب نقطة فيه ، وهي تل العياضيّة ، تقع في حدود الميلين ونصف الميل (٤ كلم) من القاعدة الفرنجة في تل الفخار . وكان عماد الدين قد أبقى الفاضل على علم بالأحداث . وكتب الفاضل في ٤ شعبان/ ١٧ أيلول من مصر قائلاً: «إن الأنباء عن حشود العدو

الذي تواجهونه قد حوّلت كل مرضعة عن وليدها . . . وليس للأيدي من عمل (الآن) سوى رفعها إلى السماء متضرعة[٢٥] إلى الله وقت الصلاة» .

ويظهر أن صلاح الدين أمل في أن يهاجمه الفرنجة . أما الفاضل الذي كان يعاني من المغص، وتقلقه شؤون خاصة ، فقد كتب عن الضغط على عكا من البر والبحر، وتابع يقول : «على الرغم من إعداد العدو وقوته ، فلا أعتقد بأنهم سيخرجون للقتال . ويرجى أن يحكم الله بيننا فإنه أحكم الحاكمين»[٢٦] . وفي نهاية شهر رجب (١٣ أيلول) شعر الفرنجة أن لديهم من القوة ما يكفي ليضيقوا الحصار على عكا فأحاطوا بها من كل جانب «كدائرة حول مركزها»[٢٧] . فقرر مجلس صلاح الدين الحربي أن يصار إلى شق طريق باختراق صفوف الأعداء وذلك بالقيام بهجوم شامل يتزامن مع صلاة الجمعة في أول رمضان/ ١٤ أيلول . ومع ذلك ، فقد وقف الفرنجة «كبنيان مرصوص لا تصدّع فيه»[٢٨] ، ولم يكن القتال في ذلك اليوم حاسماً ، أما في صباح اليوم التالي فكان المسلمون أكثر نجاحاً . إذ أنه لم يكن لدى الفرنجة سوى قوة خفيفة لا تستطيع صد القوات المقاتلة شمالي عكا، التي كانت قد نأت كثيراً عن معظم جيش صلاح الدين . وأرسل تقي الدين لمهاجمتهم ، فنجح بدفعهم إلى الداخل نحو طورون ونجح في جعل التقدّم سالكاً من بوابة القديس أنطونيوس (من باب القلعة الوسطى إلى باب قراقوش) قرب الحصن إلى الشاطىء الشمالي . وانتقد عماد الدين ضمنياً واقع أن المسلمين لم يتابعوا هجومهم إلى النهاية ، ناقلاً عن الأمراء قولهم «هؤلاء قد سهل أمرهم» وتفرقوا بعد ذلك لسقي خيولهم . ولقد أعطى هذا العمل الفرنجة الفرصة لإعادة تجميع جندهم قرب طورون ، ثم «وقفوا كالسور خلف الجنويات (سفن) والتراس والقنطاريات (الرماح) وصوبوا جروحهم (النشاب)»[٢٩] .

لم يشهد المسلمون مثل هذا القتال الضاري منذ حصار صور . ونقل عن ابن شداد أن الجيش أخذه التعب والضجر[٣٠] . كما كان هنالك اختلاف في الرأي حول ما ينبغي أن يعمل بعد ذلك . فقد رأى البعض أن الهجوم ينبغي أن يستأنف لليوم الثالث على التوالي ؛ وبما أن الفرنجة كانوا لا يستخدمون خيالتهم ، كان على المسلمين أن يتقدموا مشاة . ورأى البعض الآخر أن كتائب المشاه من جيش المسلمين يجب أن ترسل إلى عكا، وأن يصار إلى شن هجوم منسّق من الداخل والخارج . في حين اقترح آخرون على صلاح الدين أن يتقهقر، على أمل أن

يستدرج الفرنجة للخروج إلى السهل في العراء. وكانت بعض الآمال معلقة على الأسطول المصري. وكانت هناك فكرة بأن لا يعمل أي شيءٍ سيما وأن الشتاء قادم، فكان محتوماً على سفن الفرنجة أن تتفرّق وتنفد المؤن من الفرنجة أنفسهم، فيواجهون بذلك أحد احتمالين: فإما أن ينسحبوا، وإمّا أن يقعوا فريسة سهلة في أيدي المسلمين المنتظرين. كان القلق بادياً على صلاح الدين. وقد أخبر بعض أطبائه ابن شداد بأنه لم يذق سوى القليل من الطعام منذ يوم الجمعة حتى يوم الأحد[٣١]. كانت الطريق إلى عكا سالكة، إلا أن الفرنجة شنوا في ٨ شعبان/ ٢١ أيلول هجوماً من تلقاء أنفسهم لم يحرزوا به أي تقدم، ولكن أظهروا ثقة متزايدة. وفي ١١ شعبان/ ٢٤ أيلول اقترب صلاح الدين بجيشه منهم، مبقياً قلب جيشه على تل العيّاضيّة، وجناحه الأيسر على النهر، وجناحه الأيمن على البحر. وكان الأمير حسام الدين سنقور في ٢٧ رجب/ ١٠ أيلول قد توفي متأثراً بمرض السهال الشديد. وفي ١٣شعبان/ ٢٦ أيلول توفي طمان صاحب الرقّة في تل العياضيّة بعد أن طلب «قدموا حصاني حتى أشهد الحرب واستشهد، وأجاهد إلى أن أقتل وأجهد».

كتب الفاضل عن رسالة بغداديّة وردت بهذا الخصوص: «نحن منهمكون في شيءٍ أهم من تبادل الكلمات والرسائل»[٣٢]، ومع ذلك ورد تقرير رسميّ متفائل إلى الخليفة حول سير المعارك: كان صلاح الدين يواجه عدوّاً لفظه البحر فجاء في أمواج عارمة كفيض سخاء الخليفة. وقد حاولوا أن يفاجئوه، بعد قتال دام سنة كاملة، بإخفاء خططهم وبالتحرك خلسة إلى عكا؛ فتعقبهم وأصبح المحاصرون محاصَرين؛ لقد شُقَّ طريق إلى المدينة عبر حناجرهم، وأزيحوا جانباً بحيث أصبحوا الآن عيناً يحيط بها الحاجب، بعد أن كانوا الحاجب محيطاً بالعين؛ ولم يبق شيء سوى العمل بسرعة وإنزال الضربة القاضية بهم[٣٣]. ولا بد من أن يكون عماد الدين قد كتب إلى الفاضل بمثل هذه العبارات المفعمة بالأمل إذ أن الفاضل كان قد دوّن بأنه أخر جوابه لكي يكون قادراً على تقديم التهاني بمناسبة رحيل الفرنجة. وتابع يصف هذا بقوله إنه كان في عكا نفسها العديد من الأفواه والقليل من الطعام، ويمكن أن يكون هذا الأمر أشد خطراً من النقص في المعدّات؛ فإذا استمرت التعزيزات الفرنجية تصل عبر البحر، فقد تسحق سوريا بأسرها. ولكن «إذا استطعنا أن نسدد لهم ضربة اليوم» فالله قادر على أن يساعدنا

على التعامل مع ما قد يفعلونه غداً»[٣٤].

لم يكن هنالك من سبب حقيقي للتفاؤل الإسلامي. فقد سجل صلاح الدين نجاحاً ضئيلاً بوضع الترتيبات اللازمة لجماعته من البدو لنصب كمين قرب النهر للفرنجة الذين كانوا يقومون بأعمال السلب والنهب. ولكن الفرنجة كانوا يتلقون التعزيزات ويحصنون معسكرهم. كان لهم الآن ما يزيد على ١٠٠,٠٠٠ رجل[٣٥]. وفي ٢٠ شعبان/ ٣ تشرين الأول شوهدوا يستعدون لبذل جهد غير اعتيادي. وكان المسلمون من جهتهم يتهيأون لمواجهة هجوم. وكان أعد صلاح الدين للمعركة وفقاً للترتيب التالي: من القلب إلى الجناح الأيمن هو نفسه، ثم ولداه الأفضل والظافر؛ ثم الموصليون بقيادة ظهير الدين خضر؛ ثم جنود من ديار بكر مع سيد حصن كيفا البالغ من العمر خمسة عشر عاماً وهو قطب الدين سقمان؛ ثم ابن شقيق صلاح الدين، حسام الدين، وهو الآن صاحب نابلس؛ ثم صارم الدين قايماز مع جنود ربما كانوا من دمشق، ثم تقي الدين في الطرف الأقصى للجناح الأيمن. ويشمل الخط القتالي الممتد من القلب إلى الميسرة الكردي المشطوب والأمير مجلّى بن مروان مع أكراد مهرانية وهكارية، ثم عساكر سنجار بقيادة مجاهد الدين يرتعش، ثم كوكبري، ثم المماليك الأسدية بقيادة سيف الدين يازكج.

بدأ الفرنجة هجومهم في الجهة الشمالية لمدينة عكا. وقيل إنهم كانوا قد عززوا ميسرتهم بحيث فاقت ميمنة المسلمين عدداً وقد نشر صلاح الدين مناوشيه كي يقوم بتغطية انسحاب تكتيكي. أما هو نفسه، بالإضافة إلى قايماز وحسام الدين، فقد ارتد إلى الوراء على أمل أن يسحب الجناح الفرنجي المقابل من خط القتال، غير أن الفرنجة تردّدوا ولم يهبّوا لتلقف الطعم. وأساء صلاح الدين، في تلك الأثناء، فهم القصد من تحرك تقي الدين، فأضعف وسط جيشه [القلب] بإرساله عدداً من كتائبه لمؤازرة تقي الدين. فرأى الفرنجة فرصتهم السانحة وانقضوا على الجزء الأقرب من خط الجنود المسلمين وهم جنود ديار بكر الذين تركوا مكشوفين من جرّاء انسحاب حسام الدين. وكان للديار البكريين سمعة سيئة، إذ أن كلاً من ابن شداد وعماد الدين كان يؤكد على عدم خبرتهم في شؤون الحرب[٣٦]. فحطمهم هجوم فرنجي؛ وتضافرت على هزيمتهم فرق عسكرية

أخرى، بحيث أن الكونت دو بار وصل إلى خيمة صلاح الدين ذاتها على تل العيّاضيّة. أما عماد الدين الذي كان يراقب المعركة من على التل مع «عدد من أهل الفضل . . . ما ظننا أن الواقعة إلينا تنتهي»[٣٧]، فقد ولّى الأدبار، وكان مقتنعاً بالكارثة إلى درجة أنه وصل بفراره إلى بحيرة طبريا، فيما لم يتوقف الآخرون إلا حين شعروا بالأمان في شرقي الأردن، وحتى في دمشق ذاتها.

ومع ذلك، فقد وقع الفرنجة الآن ضحايا صعوبات الاتصال وعدم التنسيق. لقد وردت قصة في كتاب تاريخ الحرب المقدسة مفادها أن منظر الفارس الهارب الذي يطارده فريق من الجنود أعطى الانطباع بأن الجنود الفرنجيين القياديين قد هزموا، الأمر الذي أدى إلى إنكفاء الآخرين إلى الوراء[٣٨]. والنظرية القائلة بأنه كان هنالك سوء فهم هي نظرية دعمها ابن شداد الذي قال إن صلاح الدين نفسه توقف عند سفح تل العيّاضيّة مع خمسة من صحبه، ولم شعث ما استطاع من الجند الذين يكونون القلب في جيشه[٣٩]. واستطاع الفرنجة أن يروا من على التل أن ميسرة الجيش الإسلامي لم تحطّم. ولعله كان بإمكانهم أن يروا أيضاً تقي الدين إلى الناحية الشمالية من موقعهم. ولما كان أي تقدم سوف يكشف جناحيهم، أخذوا في الانسحاب. ولكن حالما بدأوا بالانسحاب أرسل صلاح الدين فرقاً من كتائبه الخيالة التي كان قد جمعها حول زاوية التل من أجل مهاجمتهم. فهزم بعض الفرنجة هزيمة نكراء. وروى ابن شداد أنه حينما رأى معظم الجيش هؤلاء المنهزمين يولّون الأدبار ويطاردهم المسلمون ظنّوا أن ما تبقى من قوة جيشهم المهاجم قد ضاع. فانكفأ الآن مجمل الخط القتالي على نحو مضطرب ومشوّش تحت وطأة الضغط الذي جاءهم من الميسرة الإسلامية، ومن قبل تقي الدين قايماز وحسام الدين الذين عادوا الآن إلى العمل. ولم تتوقف المطاردة إلا حينما خرجت كتائب الخيالة الفرنجية الاحتياطية لحماية معسكرها. وقد قدرت خسائر الفرنجة بسبعة آلاف رجل، وأُلقي بالجثث في النهر بغية تلويث المياه. وكتب ابن شداد: «رأيتها [الجثث] بعد أن حملت إلى الضفة كي يلقى بها، وقدرت عددها بأقل من ٧٠٠٠». وقد أسر جيرار دو ريدفورت، سيد فرسان الهيكل (الداوية)وقتل. وكان قد سبق له أن أُلقي القبض عليه في حطين ثم أطلق سراحه مقابل قيامه بالتفاوض من أجل تسليم قلاع الداوية. وكان بين القتلى المسلمين الأمير مجلّي بن مروان، والظاهر، شقيق ضياء الدين عيسى[٤٠].

شوّه هذا النجاح جرح أحدثه المسلمون أنفسهم. فحين توهم الخدم أن الجند

وكأنهم على شفير الهزيمة، انتهزوا فرصة الفوضى والاضطراب فسطوا على الخيام وفروا بما استطاعت أيديهم أن تقع عليه. ورأى عماد الدين أن صلاح الدين كان تواقاً إلى القيام بهجوم قبل أن يتمكن الفرنجة من استجماع قواهم والإبلال من خسارتهم، ولكن عندما تفقدوا الجيش وجدوه قد غاب[٤١]. فالنهابون هربوا والمطاردون لحقوا بهم فلم يعد بمقدور صلاح الدين إلا أن يأمر بحشد عام. وكان لا بد من تأجيل المعركة؛ وعوّض الفرنجة عن خساراتهم من خلال التعزيزات أضف إلى أن العديد من المسلمين الفارّين لم يعودوا أبداً. أما السلع التي تم استردادها فقد كدّست في خيمة صلاح الدين وكانت الكومة كبيرة «حتى ان الجالس في أحد الطرفين لا يرى الجالس في الطرف الآخر». وقد أعيدت الممتلكات إلى كل من استطاع أن يحلف يميناً بأنه مالكها. إلا أن ابن شدد كتب يقول: «كان ذلك أعظم من الكسرة وقعاً»[٤٢].

وضع عماد الدين الآن مسوّدة كتاب رسميّ كتب فيه أنه بالرغم من أن الفرنجة قد ضعفوا من جرّاء الخسارات السابقة التي لحقت بهم، إلا أنهم كانوا يحتشدون كالنمل. كما كانوا قد وسّعوا وعمّقوا خنادقهم بحيث أصبحت تحول دون إمكان مهاجمتهم. وخلال المعركة كانت «جيوش الشرق قد أوجست خيفة، وبقيت صامدة جيوش سنجار فقط، وقد قرّت عين طمان في الجنة بما أظهره ابنه من بسالة»؛ وكان الفرنجة الآن موهني العزيمة ولكن «طالما أن البحر يستمر في تزويدهم، والبر لا يصدّهم، فإنهم سيبقون مصدر إزعاج دائماً»[٤٣]. وكتب الفاضل ملاحظة خاصة ليعبر عن سروره بأن عماد الدين قد تسنى له أن يفر من فوضى المعركة «التي قال عنها بأنه تسلم الزمام ليفر منها لا إليها... وكان ذلك الصواب... فالتهاني بالسلامة خير من السعادة بالشهادة»[٤٤]. وفي رسالة أخرى اضطلع بدور الناقد: لقد كان بيّناً لذوي البصيرة النيّرة جميعاً أن الخطأ يكمن في واقع أن جيش المسلمين كان قريباً جداً من عدو متفوّق عددياً؛ فإذا كان لا بد من الاحتفاظ بمراقبة قريبة هذا القرب من أجل حماية عكا ولصيانة معنويات الحامية، فينبغي، إذن، أن تتم هذه المراقبة بواسطة فريق من الخيالة خفيفة الوضع، لا بأمتعة ثقيلة؛ وإذا كان صلاح الدين آمناً، فإن كل فرد، مع ذلك، يكون آمناً؛ أما فيما يتعلق بعماد الدين نفسه، فبدلاً من التشكي حول خسارة ممتلكاته، ينبغي عليه أن يشكر الله على نعمة النجاة. وكان عماد الدين قد طلب إليه أن يساعد في تعقّب السلع التي كانت قد سرقت من خيمته، فأجاب الفاضل بأنه أعطى التعليمات

للمسؤولين الرسميين عن الأسواق التجارية، ولكنه كان من الصعب التخيّل بأن النهابين سيبتعدون حتى مصر، لا سيما وأن مراقبة شديدة قد فرضت عليهم[٤٥].

ويظهر أن صلاح الدين قد وافق جزئيّاً على إنتقاد الفاضل بأنه كان قريباً جداً من العدو. ولما كان الفساد قد جعل ميدان القتال غير صحيّ، فقد أعاد في ١٢ تشرين الأول الأمتعة إلى معسكره القائم على التلال على مسافة ستة أميال ونصف الميل (١٠ كلم) إلى الجنوب الشرقي من تل العيّاضيّة. وبعد هذا عقد مجلساً حضره كل من ابن شداد وعماد الدين[٤٦]. وقيل بأنه تكلم عن أعداد العدو الصغيرة ـ «ما بقي في هذا الجمع إلا اليسير» وهو «إن بقي وطال أمره إلى أن يفتح البحر جاءه مدد عظيم»، «وان هذه عساكرنا ليس وراءنا نجدة لتنصرها سوى الملك العادل وهو واصل». لهذا السبب ألح في القيام بهجوم على الفور. وقد أبديت ملاحظات مضادة لجمته فحواها أن معنويات الجيش كانت منخفضة: «ما زلنا على الخيل منذ خمسين يوماً» وكانت أسرجة الخيل تؤلم ظهورها، وأنه كان صلاح الدين نفسه «مزاجه مضطرب» بسبب الاجهاد الذي قاساه؛ وكان لا بد من فترة من الوقت لإعادة تجميع الهاربين، ولوصول العادل، ثم من أجل «جمع كتائب المشاة لتقف في وجه مشاتهم»[٤٧]. وكان بالإمكان «استنفار التركمان ببذل العطايا» على الأراضي والهدايا «فإن المسلمين لا شك ينجدون»[٤٨]؛ وكان هناك متسع من الوقت كي تصل التعزيزات الإسلامية وتطغي على الفرنجة قبل بدء موسم الإبحار، وان الخطة المثلى هي، بكل إصرار، أن ينسحب الجيش تاركاً قوّة مستندة وغير واضحة القصد باستطاعتها أن تبدّل للراحة على التناوب. هذا ما كان الفاضل قد أوصى به في رسالته، ولكن يبدو أن عماد الدين لم يوافق على ما جاء فيها، وزعم بأنه أشار إلى أن «باب عكا من جانب البحر مفتوح»، في حين أن انسحاب المسلمين سيسمح للفرنجة بتجديد حصارهم. وكان هذا بديهيّاً تماماً، غير أنه لم يكن يسمح له بالرجحان على النقطة الأهم الا وهي أن الضغط على الجيش كي يتحمل ما لا طاقة له به هو أمر خطير. وبنتيجة ذلك أعطيت الأوامر إلى حامية عكا بإغلاق البوابة، وعمد صلاح الدين إلى سحب أمتعته خلال ليل ٣ رمضان ١٥/ ١٦ تشرين الأول. وبالرغم من اعتلال صحته، كان يمتطي صهوة جواده كل صباح ليقوم بدورة تفتيش؛ وكانت تبدو عليه عند عودته «علامات الضرّ من الصبر»[٤٩]. وكان الفرنجة يفرغون الحمولة من معدات الحصار ويحفرون

الخنادق حول معسكرهم «حوالي عكا من البحر إلى البحر»[٥٠]. وكانوا قد تركوا في سورهم بوابات ليتمكنوا من الانطلاق عبرها لدى كل هجوم، أما السور نفسه فكانوا قد زادوه مناعة بما هالوا عليه من التراب الذي كانوا يستخرجونه من الخنادق، كما حموه بالستائر الواقية المتحركة وأمّنوا له الحرس من الرجال. وقدر عماد الدين أن هذه الأعمال قد بينت حمق النظرية القائلة بأنه إذا ما ترك للفرنجة ممر فإنهم سينسحبون. وقد حث صلاح الدين على إرسال الجيش ليقوم بالهجوم، ونقل عنه أنه أجاب: «ما يعمل العسكر شيئاً إلا إذا كنت معه راكباً، ولعملهم مشاهداً مراقباً»[٥١].

وقد زاد في مصاعب صلاح الدين ما انطلق من إشاعات متكاثرة حول تقدّم فرديريك بربروسّا على رأس جيش قدر بمئتي ألف رجل على الأقل. وقيل إن فرديرك كان ينوي الزحف عبر أراضي قلج أرسلان وأراضي الأرمن؛ كما أن رسالة وردت من مقدم الأرمن وهو صاحب قلعة الروم على الفرات يعرب فيها عن مخاوفه على أراضيه. وأضاف عماد الدين، مع ذلك، «ولا شك أنه إلى جنسه النجس مائل». وقد بثت العيون لتأتي بالمعلومات الأكيدة. «قلنا: ان وضح هذا الخطر، وصح هذا الخبر، فالمسلمون يقومون لنا ولا يقعدون ويغضبون الله»[٥٢].

وفي ١١ رمضان/ ٢٣ تشرين الأول أُرسل ابن شداد ليضع هذا التفاؤل تحت الاختبار وذلك بطلب تعزيزاتٍ من سنجار، وجزيرة ابن عمر، واربل والموصل ومن بغداد أيضاً[٥٣]. وقد اصطدمت مهمته بعقبة مباشرة. فحين وصل إلى حلب قابل مبعوث صلاح الدين الرسمي إلى الخليفة، وهو ضياء الدين شهرزوري الذي كان عائداً من بغداد حيث كان يحاول المساومة في الحصول على جنود على سبيل المبادلة بشهرزور. وزعم ضياء الدين أن الترتيبات اللازمة كانت قد تمت، وأن عملية قدوم مبعوث آخر إلى الخليفة لن تؤدي سوى إلى إرباك القضية. ولم يشأ الظافر أن يتدخل قائلاً بأنه لا يستطيع أن يصد رسولاً عن مقابلة أبيه، فوصل ضياء الدين إلى معسكر صلاح الدين في حالة ارتياب وحذر واضحين. وعقد مجلس شورى رشح عنه فيما بعد أن القادة رفضوا التخلي عن شهرزور، وذلك لأن كلاً من عز الدين الموصلي، وزين الدين يوسف الأربلي كانا قدما أموالاً وجنوداً مقابلاً لها، وإذا اكتشفا أنها أعطيت إلى الخليفة «ما جاءنا من المذكورين فارس واحد، ولا ساعد

على ما نحن فيه بعدها مساعد»[٥٤]. وكان بكتمور الخلاطي يجمع الرجال ويسفر عن عدائه لصلاح الدين. وكان فحوى ذلك أن أي تحرّك خاطىء يمكن أن يؤدي إلى إتحاد شرق الفرات ضد الأيوبيين لتحطيم قوة صلاح الدين هناك، حين يكون هو نفسه منشغلاً بالساحل. وأصرّ صلاح الدين على موقف الورع، قائلاً: «إن وصل إلينا (الخليفة) أعطيناه هذه البلاد، فكيف شهرزور»[٥٥]. فأرسل ضياء الدين مرّة أخرى إلى بغداد ليتابع المفاوضات.

وقال ابن شداد نفسه أنه في زيارته للخليفة «وُعد كل جميل»[٥٦]، غير أن عماد الدين قال «لم يسفر أمر سفارته عن سداد». ولعل ذلك حتى يكون قد سوّى مسألة شهرزور مع ضياء الدين. وفي الواقع، لم يجر تسليم شهرزور؛ وظهر صلاح الدين بأنه قد اعتمد على المماطلة والخشية. وكتب عماد الدين رسالة رسميّة بيّن فيها أنه «ليس هذا العدو بواحد فينجع فيه التدبير ويأتي عليه التدمير، وإنما هو كل من وراء البحر وجميع من في ديار الكفر» «فإنه لم يبق لهم مدينة ولا بلدة ولا جزيرة ولا حطة صغيرة ولا كبيرة، إلاّ جهزت مراكبها»؛ لقد «نادوا في نواديهم أن أخوانهم بالقدس أبارهم الإسلام وأبادهم، وأنه من خرج في بيته مهاجراً ويهاجم الإسلام مجاهراً، فقد ذهبت له ذنوبه وذهبت عنه عيوبه». «ومن عجز عن السفر بعدته وثروته فجاءوا لابسين الحديد». هذا عن الواصلين بالبحر، أما أولئك الذين كانوا يأتون سيراً على الأقدام، «فقد تواترت أخبارهم، بأن خلت منهم ديارهم، وبهم يستفحل الشر ويعضل الأمر؛ ويصول الكفر ويجول، ويتطاول الشرك ولكنه لا يطول. فإن لدين الله من خليفته ناصر ألا يسلمه ورازقاً لا يحرمه»[٥٧].

وضحت أيام صلاح الدين الرؤية. فهو لن يكون قادراً على الاعتماد في طلب المساعدة إلا على مصادره الخاصة. وكان العادل قد زحف في ١٨ رمضان/ أول تشرين الثاني من بركة الجب إلى بلبيس على رأس جيش قويّ، يشتمل على عدد من الزنوج[٥٨]، ووصلوا إلى عكا حوالي نهاية الشهر. وكان صلاح الدين نفسه يجمع جيشاً من المشاة السوريين ويحاول الاستمرار ببعض الضغط العسكري، إلا أن الطقس أطبق بشتائه وبرده واضعاً حدّاً لكل فرصة في قتال جدّيّ.

وفي هذه المرحلة تلقى صلاح الدين الذي سبق له أن فقد ابن أخيه ، عز الدين ، ضربة أخرى بموت واحد من أعز رفاقه ، في الخرّوبة ، هو ضياء الدين عيسى . وقد كتب الفاضل ليعرب عن أساه ، وأضاف بأن الوضع الذي أجبر المسلمون وسلطانهم على الوجود فيه قد تعارض مع صبرهم ، تماماً كما كان المكان قد تضارب مع أمزجتهم ، وكان هنالك خوف على «ثمرات أفئدة الرجال»[59]. كان ذلك تلميحاً صريحاً بأن عدم الرضا يمكن أن يولّد تحريضاً على الفتنة ، ولا بد أن يكون قد ظهر بوضوح أنّه إذا كان الحصار سيتطور إلى حرب إنهاك ، فإن العمل على الاحتفاظ بمعنويات عالية لدى الرجال سيكون أمراً حيوياً لصلاح الدين ، وذلك بإتخاذ الاجراءات اللازمة لتبديلهم على نحو منتظم . وبنتيجة ذلك ، أعطي «الجنود الأجانب»[60] ، لعلهم جنود الموصل وسنجار وديار بكر ، فرصة للراحة وبقي صلاح الدين مع قوّة أيوبيّة بمعظمها ، كان بين قادتها العادل والأفضل وتقي الدين . وعلى الرغم من أن الموسم لم يكن مناسباً للإبحار ، فقد شقت عباب البحر خمسون سفينة من سفن الأسطول المصري بقيادة لؤلؤ ، ووصلت إلى عكا في ١١ ذي القعدة/ ٢٦ كانون الأول . كانت هذه السفن تحمل على متنها عدداً من الأمراء وأتباعهم الذين بقوا من أجل تعزيز الحامية ، كما أن البحارة أنفسهم كانوا يديرون المناجق ويطلقون النار . ثم إنهم أزعجوا الفرنجة «فكبسوا على الخمارات والعواهر» في المعسكر الفرنجي . وأضاف عماد الدين بأن المسلمين سمعوا أن ٣٠٠ مومس فرنجية قد وصلت بطريق البحر ولاحظ أنه «ما عند الفرنج على العزباء ، إذا أمكنت منها الأعزب حرج»[61] .

٢٠ ـ سقوط عكا

كانت السنة الهجرية ٥٨٥ قد بدأت باستمتاع صلاح الدين بتفوق عسكري غير منازع في فلسطين. ولا ينكر أنه خسر المبادرة إلى درجة أضحى عليه معها أن ينتظر الهجوم الفرنجي المعاكس، ولكنه ما زال يستطيع الإختيار بين عدة أهداف ـ طرابلس، وصور، وإنطاكية ـ للقيام بمعركته القادمة. وقد اصطدم في نهاية العام باحتمال وجوب القتال ليس من أجل فتح جديد، ولا للتمكن من الإحتفاظ بموقعه، بل للمحافظة على البلاد. فإذا ما وصلت الحملات الألمانية إلى شمالي سوريا بكامل قوتها أثناء إنشغاله بعكا، وإذا ما استمر الفرنجة هنا في تعزيز قواتهم، فإن سوريا بأسرها وبعدها مصر ذاتها سيكونان في خطر.

شدد الآن في طلباته للحصول على نجدة، وكانت هذه المرة من طغتكين في اليمن، الذي لم يكن قد أجاب على دعواته السابقة، ومن قزل أرسلان، صاحب سيد همذان[1]. وقد تعقد الوضع هنا من جراء أن الفتى سلجوق سلطان طغرل، ابن شقيق قزل أرسلان، كان قد فر من سيطرة عمه. فأخذ الخليفة دور قزل إرسلان. وفي ربيع الثاني/ أيار ١١٨٨ كان وزيره قد إنهزم في معركة مع طغرل، فأرسل طغرل الذي كان الآن على حدود أربل على أثرها رسلاً إلى صلاح الدين يطلب المعونة. فاعتذر صلاح الدين بحجة أنه كان منشغلاً بالفرنجة، إلا أنه كتب إلى عدد من ضباطه وحلفائه بمن فيهم زين الدين يوسف الإربلي، طالباً اليهم إعطاء طغرل كل مساعدة ممكنة. ثم أرسل أيضاً مبعوثاً ليقوم بدور الوسيط بين العم وابن الأخ، وأظهر النزاع أنه ليس باستطاعة صلاح الدين أن يتوقع مساعدة تذكر من قزل أرسلان. وقد حدثت عقبة أخرى حين كان

زنكي صاحب سنجار أسرع من المتوقع في إرسال عساكره بقيادة ولده قطب الدين. ولم يكن صلاح الدين يرغب في وصولهم قبل الربيع، موعد دخول موسم الحملات، فأمرهم بالعودة. فالحق هذا العمل الإهانة بزنكي؛ وكان على صلاح الدين أن يكتب قائلاً إنه «أشفق عليه من التعب، ليكون عسكره مرتاحاً عند الطلب لأن الحاجة إليه في الربيع أدعى»[٢].

وقبل نهاية صفر ٥٨٥/ آذار من العام ١١٩٠ كان الألمان يعبرون الدردنيل. أما في عكا فقد عاد الفرنجة إلى شن الحملات العسكرية من جديد، وكان ذلك في شهر صفر ٥٨٦/ ١٠ آذار - نيسان فقاموا بهجوم مفاجىء على الميسرة من القوة المستترة، وذلك أثناء وجود صلاح الدين في رحلة قنص. وادعى المسلمون انتصاراً مبكراً، إلا أنّ سهامهم نضبت وتكبدوا الخسائر من جراء هجوم فرنجي أجبرهم على التقهقر حتى النهر. وقد دل هذا على أنه آن الأوان كي يعيد صلاح الدين حشد جيوشه. وكان السوريّون أول القادمين بقيادة الفتى أسد الدين شيركوه بن محمد صاحب حمص، ثم سابق الدين عثمان صاحب شيزر وعز الدين ابن المقدّم، وحشود من العرب والتركمان. وعلى أثر وصولهم في ١٨ ربيع الأول/ ٢٥ نيسان، نزل صلاح الدين من على التلال إلى موقعه القديم في تل كيسان. وكان تقي الدين مرّة أخرى في الميمنة. بينما كان العادل يقود الميسرة، وكان الأفضل والظافر يحيطان بقلب الجيش من جانبي الميمنة والميسرة على التوالي. ومع إفتتاح موسم الإبحار عادت سفن الفرنجة. ولما لم يكن لدى الأسطول المصري أي نية في تحديهم، فقد باتت عكا محاصرة من جديد. وكتب عماد الدين يقول إن أحد رجال صلاح الدين بنى برج حمام من الخشب «فكنا نقول: ما هذا الولع بما لا ينفع؟ حتى كانت معركة عكا. فأطلقت الحمائم وصارت تنقل الرسائل إلى المدينة، حتى قل وجودها عنده لكثرة الإرسال». وقد استخدم الغطاسون أيضاً ليسبحوا إلى الميناء. وقد لاحظ عماد الدين أنه بالرغم من أن بعضهم لاقى حتفه من جرّاء ذلك، إلا أن آخرين كانوا مدفوعين بدافع الفقر إلى التطوّع غير معتقدين بأنهم سيغرقون[٣].

وقبل أن يبدأ القتال مرة أخرى بشكل جدي أحرز صلاح الدين نجاحاً متأخراً باستسلام قلعة الشقيف في ١٥ ربيع الأول/ ٢٢ نيسان بموجب إتفاق يؤمن حماية

الحامية وإطلاق سراح أرناط (ريجنولد صاحب صيدا) الذي ما يزال مسجوناً في دمشق. وكان وصول مبعوث من الخليفة، في اليوم التالي لا يشجع كثيراً. فرداً على طلبات صلاح الدين للنجدة، أرسل الخليفة حملين من النفط، وخمسة من الزراقين المتقنين صناعة الإحتراق بالنار، وتوقيعاً يجيز لصلاح الدين إقتراض ٢٠,٠٠٠ دينار من التجار على حساب ديون الخليفة في بغداد. وكان الفاضل مرّة قد أنفق ٢٠٠ دينار في ١٥ يوماً أثناء عودته من الحج[٤]؛ وأنفق عماد الدين ٣٠٠ دينار أثناء رحلة إستغرقت ٢٣ يوماً من دمشق إلى مصر في ظروف كانت فيها أسعار الطعام والعلف تكاد تعادل الأسعار في معسكر صلاح الدين[٥]. وكتب عماد الدين أن صلاح الدين، لم يأخذ المال وقد أعرب عن إمتنانه. إلا أن المبلغ[٦] كان، وفاقاً لجميع المعايير، مبلغاً يبعث على السخرية. وفي رواية أخرى أنه ذكّر، غاضباً، بالمليون دينار التي أعطاه إياها العاضد أثناء حصار دمياط[٧]. وادعى أنه كان الآن ينفق أكثر من ٢٠,٠٠٠ دينار في اليوم الواحد. ويصعب تحاشي الإستنتاج بأن العلاقات كانت الآن متوترة بحيث أن هدية الخليفة كانت وكأنها إهانة دبلوماسية.

كان الفرنجة يركزون في جهودهم الهجومية على أدوات الحصار، فبنوا ثلاثة أبراج متحركة للحصار بأخشاب مستوردة، «فإن مثل هذه الأبراج العظيمة لا يصلح لها من الخشب إلا القليل النادر»[٨]. وكانت الأبراج مغطاة بالجلود المسقاة بالخل بحيث لا تنفذ فيها النيران [الإغريقية]. وكان بالإمكان رؤيتها من المعسكر الإسلامي عالية على أسوار البلد»[٩]. وقد رأى مؤلف «التتمة» اللاتينية، أن الحامية كانت على درجة من الرعب بحيث شرعت في التفاوض حول شروط الإستسلام[١٠]. وأكد عماد الدين أن السبّاحين جاؤوا صلاح الدين بأنباء مفادها «أن البلد قد ضويق»[١١]. وفيما كانت التعزيزات تأتي إليه، كان هو يقوم «بهجمات ليشغلهم عن الزحف». وقد وصل عماد الدين محمود، سيد دارا، في ٢٠ ربيع الأول/ ٢٧ نيسان وانضم إلى القتال الذي كان قد بدأ ذلك اليوم. وفي ٢١ ربيع الأول/ ٢٨ نيسان تحرك صلاح الدين صعداً من تل كيسان إلى تل العياضيّة ونظم سوق الجيش بحيث لا يحتاج أحد إلى إذن كي يشتري المؤن. وفي ٢٥ ربيع الأول/ ١٢ أيار أحضرت قافلة الأمتعة فامتشق الخدم سيوفهم ولبسوا دروعهم بغية الإنضمام إلى المعركة. ولم يثبت هؤلاء جدارتهم؛ وفي ٢٩ ربيع الأول/ ٣ أيار عاد السباحون ثانية بأنباء تفيد بأن الضغط قد اشتد على المدينة. فأرسل صلاح

الدين نداءات عاجلة لطلب العون، فأرسلت له التعزيزات في اليوم التالي إذ جاءه الظاهر من حلب، ثم تلاه كوكبوري. وكان الفرنجة قد وزعوا قواتهم العسكرية بحيث أن البعض حموا الخنادق بينما شدد الآخرون الضغط على المدينة وعملوا على ردم الخندق. وقد تم الآن إنقاذ وضع الحامية من قبل ابن أحد النحاسين الدمشقيين. وكان هذا الرجل قد سبق له أن طلب إذناً بدخول عكا، «لتصويب المنجنيق لأحرق البرج»، وكان صناع هذا الشغل قد امتلأوا منه غيظاً وقالوا: «لم يكن النفط من صناعته»، بينما سخر آخرون منه قائلين: «هذا يضع ماله في ما لا يعنيه». وفي النهاية، كان قد سمح له في ٢٨ ربيع الأول/ ٥ أيار في استخدام المنجنيق لأطلاق نوعة من النار الإغريقية التي لم تهدم الأبراج فحسب، بل أحرقت آلات فرنجية أخرى بالشعلة نفسها[١٢]. فأرسلت الرسائل من معسكر صلاح الدين تحمل أنباء هذا النجاح، وتصف الخندق «ببركة من النيران، والبرج ينبوع». ثم تضيف: «لقد دمر الله الأقحوانة برمّانة النار»[١٣].

كان الخطر المباشر المحدق بمدينة عكا قد تبدّد، إلا أن الألمان في أقصى الشمال كانوا يتقدمون عبر آسيا الصغرى، وقد تنوع البيان الرسمي من الواعد المفعم بالأمل ـ لقد كانوا الفراشات التي ستقضي عليها نار الحرب[١٤]. . . والسيل إذا وصل إلى الجبل الرأسي وقف[١٥] ـ إلى الشاكي: «وأين المسلمون؟ وحاشى أن يكونوا للإسلام مسلمين»[١٦]. وقد ألقت إحدى الرسائل بعض الضوء على خطط صلاح الدين العامّة. وقد استهلّت هذه الرسالة، على النحو التقليدي، بالإشارة إلى ورود رسالة من الخليفة التي تليت على صحب صلاح الدين بغية شحذ عزيمتهم، وكانت كما قال «سبحانه ربنا ان سمعنا منادياً ينادي للإيمان». ثم شكا صلاح الدين من القيادة الفرنجية في البحر: «كان يمد حجم البحر بمراكب أكثر عدة من أمواجه»، «فإذا قتل المسلمون واحداً في البر بعثوا ألفاً عوضه في البحر»؛ «وأصحابنا قد أثرت فيهم المدة الطويلة والكلف الثقيلة في استطاعتهم لا في طاعتهم وفي أحوالهم لا في شجاعتهم». كانت هنالك مخاوف من هجوم على مصر، وتابع صلاح الدين يقول بأن الأشغال في تقوية تحصينات الإسكندرية ودمياط كانت قائمة ليلاً نهاراً، ويُرجى أن أخباراً كهذه ستحول دون نزول العدو إلى البر. وفي إشارة مشؤومة إلى الألمان، أنبأ الخليفة بأن مدينتي حماه وحمص قد أمرتا بالاستعجال في الإنتهاء من موسم الحصاد وبتخزين الحبوب لحمايتها[١٧].

كما أن إحتياطات مماثلة كانت تتخذ في أمكنة أخرى. وكان أحد أخوة ابن الأثير يعمل لدى أحد الأمراء ويتولى إحدى قرى الموصل، فكتب يسأل سيده عمّا إذا كان سيبيع أي كمية من الحبوب بعد الحصاد، فأجيب بأن يخزن الحبوب كلها. وشرح الأمير الأمر فيما بعد قائلاً: «لما وصلت الأخبار بوصول ملك الألمان أيقنا أننا ليس لنا بالشام مقام»[١٨].

بات معسكر الفرنجة في عكا وفاقاً لما ورد في المؤلف اللاتيني «التتمة»، بين مطرقة قوات صلاح الدين وسندان المدينة، إذ أن جيوشاً من جزئين من العالم هما آسيا وأفريقيا، قد اتحد لمقاتلة الجزء الثالث[١٩]. وفي الواقع، فقد وصل زنكي صاحب سنجار في ١٢ ربيع الآخر/ أواخر أيار ثم تلاه في ١٧ جماد الأول / حزيران سنجر شاه من جزيرة ابن عمر، وزين الدين يوسف صاحب إربل بالإضافة إلى علاء الدين [قزم شاه] ابن عز الدين صاحب الموصل. وكان الألمان، مع ذلك، قد حالوا فعليّاً دون استخدام صلاح الدين إعداده للقيام بالهجوم. وقد قال في رسالة أخرى إلى بغداد بأنه كان على استعداد لتعزيز قلج - أرسلان الذي كان قد أرسل فيضاً من الرسائل في صفر وربيع الأول والثاني/ آذار ونيسان وأيار يطلب النجدة ويعد بالمؤازرة. وكان قد تلا هذا فترة من الصمت، ثم ورد نبأ فجأة بأن الألمان كانوا في وسط بلاد الإسلام، متجهين إلى سوريا. وقد عقد صلح بينهم وبين قلج أرسلان الذي ساعد في إعطائهم ممراً آمناً - «ومع ذلك فقد تعين الجهاد على كل مسلم»[٢٠] - وكان صلاح الدين وحده يضطلع بالعبء الثقيل. ولم يكن هذا عدلاً بالنسبة لقلج أرسلان. ولو أن صلاح الدين كان ينوي جديّاً مساعدته لكان أرسل إليه الجيوش في وقت مبكر. أضف إلى أنه لم يبق له الآن أي خيار سوى أن يقسم قواته فأرسلت القوات التي كانت أراضيها تقع على طريق الغزو إلى الشمال، فيما بقي هو نفسه مع القوات القائمة في الشرق ومع المصريين. وكان أول المغادرين ناصر الدين، ابن تقي الدين، وهو سيد منبج؛ وتبعه ابن المقدّم بالإضافة إلى بهرام شاه صاحب بعلبك وسابق الدين عثمان صاحب شيزر والظاهر على رأس العساكر الياروقية من حلف. وأخيراً غادر تقي الدين نفسه مع عساكر من حماه، وكان ذلك في ٩ جماد الثاني / ١٤ تموز.

في هذا الوقت تضاءل خطر الألمان بسبب موت بربروسا. ووردت رسالة من قلعة الروم تلخص الوضع: ترك بربروساً أراضيه في عهدة إبنه البكر، وبعد أن سار عبر المجر

أجبر الإمبراطور البيزنطي على إعطائه ممراً؛ وبعد معركة مع التركمان استمرت ثلاثة وثلاثين يوماً تغلب على ابن قلج أرسلان، ملك شاه، خارج قونية ودخل المدينة عنوة؛ ومكث هناك خمسة أيام ثم أخذ ٢٠ رهينة من بين أمراء قلج أرسلان؛ ثم وقع طريح الفراش فيما بعد نتيجة لإستحمامه في أحد الأنهر، ثم توفي بعد فترة مرض قصيرة[٢١].

أتى عماد الدين على ذكر هذا التقرير، إنما نقل عن تقرير آخر سمعه من شاهد عيان مسيحي. بعد أن جاء الألمان عبر الجبال وبلغوا سهل كيليكيا، حاولوا إجتياز السندوس Cyndus عبر جسر واحد؛ وكان بربروسا نفسه قد اقتيد إلى مخاضة، وحين حاول إجتيازها جرفته مياه النهر بعيداً فغرق. ولما انتشلت جثته كان لحمه قد فصل بالغليان عن عظامه التي وضعت في كيس حتى يمكن نقلها لدفنها في القدس[٢٢]. وقد تسلم الآن ابنه الأصغر دوق سوابيا قيادة الجيش، إلا أن الفاضل كتب يقول: «إذا إنكسر ملك عمّان، كما يقال، سيبني بعده الكفار على أساس محطّم»[٢٣].

أجرى صلاح الدين في تلك الأثناء الترتيبات اللازمة في عكا من أجل جلب المؤن بواسطة كتيبة أخرى من الأسطول المصري قدرها مؤلف (التتمة) اللاتينية بخمس وعشرين سفينة[٢٤]. وفي ظهر ١٤ حزيران «ظهرت في البحر قلوع كثيرة» فقام صلاح الدين بهجوم ليشغل العدو حيث «باع فيه الجانبان أرواحهم مقابل الراحة في العالم الآخر»[٢٥]. وادعت (التتمة) أن سفينتين إسلاميتين كبيرتين قد تحطمتا مقابل خسارة إحدى السفن الشراعية الفرنجية التي اصطدمت بأحد الصخور[٢٦]، أما عماد الدين فقدر الخسائر بواحدة لدى كل جانب[٢٧]. ويبدو أن عماد الدين كان يرسل الشكايات إلى الفاضل الذي كتب الآن يقول بأنه على الرغم من أن رسالة وردته منه غير أنها لم تحتو على أي شيء جديد. وقد وردت أنباء حديثة طيبة، «فلماذا إذن تأخرت الرسائل الشريفة؟». وكان الأسطول قد جلب إلى عكا المؤن والفرح معاً، وكان الفاضل على يقين من أن رسائل عماد الدين القادمة ستبيّن أن فكره قد تحرر من القلق[٢٨].

لم تعد عكا الآن في خطر مباشر، وكان صلاح الدين سعيداً في ترقب الأحداث. أضف إلى أن الجنود العاديين من الفرنجة كانوا غير مستقري النفوس، حسب ما ورد في التقارير الغربيّة[٢٩]. «لقد دفعهم التوق إلى التغيير إلى الشروع

في إتهام الرؤساء بالخمول». و «في عيد القديس جيمش [٢٥ تموز] وكان يوماً حزيناً لا يبشر بالخير، انفجر الجمهور السيء الحظ». كان الهجوم موجّهاً ضد «تقي الدين، حفيد السلطان[٣٠]. . . وهو رجل ذو فكر نشيط وبسالة في القتال، ولكنه شديد الأذى، وقاس لا يعرف الصفح». وقيل إنه لم يكن للمهاجمين أي قائد، فكان كل رجل قائد نفسه، ولم يكونوا بالكاد يتعرّفون إلى راياتهم وأعلامهم. وكان تقي الدين، في الواقع، قد غادر المعسكر قبل أكثر من أسبوع، ولم يكن الهجوم سيء الإعتبار بالقدر الذي قيل عنه. فقد ظن عماد الدين بأن الفرنجة كانوا يحاولون أولاً أن يسبقوا الألمان، وأن يستغلوا، ثانياً، ضعف الجناح الأيمن في الجيش الإسلامي حيث تمركز معظم الشماليين[٣١]. ومع ذلك فقد إحتاط صلاح الدين للأمر نفسه فأرسل العادل ليأخذ مكان تقي الدين واتبع التكتيك الذي كان تقي الدين يستخدمه في معركة ٢٠ شعبان ٥٨٤/ ٣ تشرين الأول ١١٨٩، وذلك بالتراجع لكي يوقع المهاجمين في الفخ. وقد حصل على دعم جاريه المباشرين في الجناح الأيمن وهما صارم الدين قايماز وعز الدين جورديك.

وحين أفلت الفرنجة من التشكيل بغية نهب معسكره ارتد منقضاً عليهم. وأرسل صلاح الدين من قلب الجيش تعزيزات ضمت حرسه الخاص، وكتيبة من الجنود الموصليين بقيادة علاء الدين وجنوداً مصريين بقيادة سنقر الحلبي. لقد توغل الفرنجة إلى حد بعيد بحيث لم تتح لهم بعد ذلك فرصة إنسحاب آمن. وقيل إن رئيس الشمامسة رالف دو هوث ريف هو الذي خرج فقط من المعسكر ليساعدهم. وروى عماد الدين أن القتلى من الفرنجة كانوا يمتدون «من تلال الرمل إلى البحر بالعرض، وكل صف يزيد على ألف قتيل»[٣٢]. وقد كتب الفاضل مهنئاً العادل، مخبراً إياه بأن السلطان والشهرة والثواب في الجنة كلها ملك يمينه[٣٣]. وجاء في رسالة أخرى تحمل الأنباء إلى أحد الرسميين في دمشق بأن الله قد قضى على الكفرة الشياطين؛ فقد خرجوا لمهاجمة الجناح الأيمن، فقام «العبد» بترتيب جنده في خط القتال، ولكنه بعد ذلك كبح جماحه حتى أثار نهمهم فأغواهم؛ وحين قام المسلمون في النهاية بهجومهم تم عزل أكثر من ١٢٠٠٠ من الفرنجة ولم ينجو منهم أحد؛ وتقدم المسلمون نحو خنادقهم واستمروا في تضييق الخناق عليهم، دون أن يخسروا أحداً من رجالهم. وقد سألوا الله الآن أن يعطيهم نصراً سريعاً على أولئك الذين بقوا[٣٤].

لقد كررت مرحلة ما بعد معركة عيد القديس جيمس نمط تشرين الأول الفائت في أن المسلمين أخفقوا في متابعة نصرهم. وقيل إن صلاح الدين كان قد نوى القيام بالهجوم، إلا أنه كان منشغلاً بالأخبار التي كانت ترده من الشمال حيث كان الجيش الألماني ينهار. ولربما قاده لامسو السلام الفرنجيون الذين أشار إليهم عماد الدين في هذا المجال[٣٥]، إلى التقليل من شأن المصاعب. ولكن، على أية حال، مهما كانت الفرصة المتاحة فلم تلبث أن ضاعت. وقد أتى هنري صاحب شمبانيا بالتعزيزات في ٢٣ جماد الآخرة/ ٢٨ تموز. وفي ٢٧ جماد الآخرة/ أول آب إنسحب صلاح الدين إلى الخروبة. وكان أحد الأسباب في هذا فساد ميدان القتال. وكان هنالك سبب آخر هو الأنباء التي جاء بها الجواسيس والفارّون من الخدمة العسكرية بأن الفرنجة قد تشجعوا بوصول هنري فأخذوا الآن يخططون لهجوم مفاجىء على معسكره. وفي الوقت الذي كان يتراجع فيه أفيد بأنهم قد أصبحوا أكثر بأساً من ذي قبل.

أضف إلى أن الألمان لم يعودوا في الشمال مرعبين. وكان قد وقع دوق سوابيا فريسة المرض، ودون عماد الدين يقول: «ومعظم رجالهم حملة عصا وركاب حمير»[٣٦]. وكتب كاثوليكوس قلعة الروم يقول: «هم عدد كثير ولكنهم ضعفاء قليلو الحيل والعدة ولقد وقفت على جسر يعبرون عليه، فيعبر منهم جمع عظيم ما وجدت مع واحد منهم طارقة ولا رمحاً إلاّ النادر، فسألتهم عن ذلك فقالوا: أقمنا بمرج وخم أياماً، وقلّت أزوادنا وأحطابنا، فوقدنا معظم عددنا وومات منا خلق عظيم واحتجنا إلى الخيل فذبحناها وأكلناها»[٣٧].

وكانوا قد تفرقوا في ثلاثة أقسام كي يخففوا من وطأة مشكلات التموين، إلا أن ضعفهم جعل منهم فريسة سهلة. وقد مر بعضهم ببغراس ظانين على ما يبدو، إنها ما زالت في أيدي فرسان الداوية. وكتب علم الدين سليمان الذي كان الآن مستولياً على دربساك وبغراس أنه هو وعدد من الحلبيين كانوا قد أسروا ما يكفي لإغراق سوق النخاسة. ونقل عماد الدين أنباء عن النقص الحاصل لديهم في المعدات فشجع ذلك السوريين على أسر ٥٠٠ قبل أن يتمكنوا من الوصول إلى أنطاكية[٣٨].

وقد ورد في (التتمة) اللاتينية أن القادة الفرنجيين كانوا قد أملوا في إقناع

دوق سوابيا في أن يبقى في إنطاكية لكي يمنع صلاح الدين من تكثيف قواته ، ولكن الدوق ألح على التحرّك نحو الجنوب[٣٩] . وقيل إنه رغب في المرور بمدينتي حماه وحمص ، غير أنه حُذِرَ من هذا ، فاستعاض عن ذلك بسلوك الطريق الساحلية عبر اللاذقية وجبلة ، وكان ذلك حوالي نهاية شهر آب (الخريطة ٣) . ولم تقم حاميات تقي الدين بأية محاولات جدّية لإيقاف زحفه . وفي ٥ شعبان/ ٨ أيلول علم صلاح الدين بأنه تقابل مع كونراد وأُخذ إلى طرابلس . ولم يعرف بوضوح كم من رجاله بقوا على قيد الحياة . وقال ابن شداد بأنه رأى في تقرير أحد خبيري الحرب تقديراً يبلغ ٥٠٠٠ فارس وراجل[٤٠] . بينما ضمن عماد الدين عدد الذين بقوا أحياء بحوالي ١٥,٠٠٠ مقاتل[٤١] . والأمر الذي كان أكيداً هو أنهم لم يعودوا يهددون سوريا بالخطر ، وحين أبحر دوق سوابيا من طرابلس إلى صور في نهاية أيلول ، كرر الفاضل القول المفرط عاطفة حين كتب يقول : «فما زال محاصراً ، كأنما الإبحار هو الحصار»[٤٢] .

وبالرغم من إخفاق الألمان الظاهري فقد أكرهوا صلاح الدين ، مع ذلك ، على التزام جانب الدفاع طوال فصل الصيف كله . ولم ينضم إليه ثانية الظاهر وسابق الدين وعثمان وبهرام شاه صاحب بعلبك وابن المقدم إلا بحلول رمضان شهر تشرين الأول ، في حين أن تقي الدين لم يعد حتى قدوم شوال/ تشرين الثاني . ولم يكن في غيابهم قد هدد أبداً بشكل جدي معسكر الفرنجة . أما فيما يتعلق بالحصار ، فلم يكن الزمن لمصلحته . فقد غادر ريتشارد قلب الأسد ، وفيليب ملك فرنسا مدينة فيزيليا الفرنسية في ٤ تموز . ولم يمضِ فترة قصيرة حتى حلّت بمدينة عكا مشكلة النقص المستمر في المؤن . فبالرغم من وصول سفن التموين في جماد الأول / حزيران ، وردت أنباء في رجب/ آب تفيد بنقص خطير في المؤن . فطلب صلاح الدين مزيداً من المؤن من مصر ، ولما كانت بطيئة في الوصول ، أصدر أوامره إلى حاكم بيروت الذي أرسل سفينة متنكرة بشكل سفينة تجارية فرنجية (راسية) يسيّرها طاقم كلهم حليق الشعر ، وقال ابن شداد[٤٣] : إنهم جعلوا عليها خنازير فاستطاعوا أن ينفذوا من خلال الحصار . ولم تمض فترة أسبوعين حتى وردت أنباء تفيد أنه «لم يبق بالبلد مؤن» . وهذا ينطوي على كثير من المبالغة ، فقد أفاد ابن شداد «فأما سرها فيحرسه في نفسه خشية الشيوع والبلوغ إلى العدو ويضعف به قلوب المسلمين»[٤٤] . ولقد أعاقت الرياح العكسية سفن التموين

المصرية الثلاث مدة أسبوعين، فكتب الفاضل يقول بأنه حين تأكد بأنها لا بد وأن تكون وصلت إلى عكا، كانت لا تزال موجودة في دمياط[٤٥]. وكانت عواصف الشتاء العاتية قد بكّرت في الوصول إلى الساحل حيث كانت خيام معسكر صلاح الدين البيضاء تشبه الفقاقيع الطافية على سطح الماء. وفي النهاية استطاعت السفن أن تشق طريقها في ليلة نصف شعبان/ ١٦ أيلول إلى الميناء تواكبها السفن الشراعية الكبيرة ذات المجاديف. ولاحظ الفاضل، بأنه كان بين حمولتها حوالي ٤٠٠٠ إردّب من الحنطة و ٣٠٠ حمل من الدقيق بالإضافة إلى المواد الغذائية الأخرى، والأسلحة، والنبال، وأنواع مختلفة من السلع الكمالية. وجميعها كانت مرسلة من صلاح الدين، في حين أن تجار الإسكندرية كانوا قد ضاعفوا هذه الكميات وأكثر قليلاً. ونتيجة لذلك: «إزدهرت المدينة، وصار الكفرة في ضيق». وتابع الفاضل مضيفاً: «لقد وجدت رسائل من الفرنجة وترجمت ولقد بينت هذه الرسائل بأنهم قد ذُلّوا [أي المسلمين] إذ أن أعدادهم، كمؤونتهم، قد نقصت وأن العون المفاجىء [للمسلمين] قد لا يستمر في الورود طويلاً»[٤٦].

وبالتأكيد لم يكن لدى الفرنجة أي سبب يجعلهم راضين عن تقدمهم. فقد حاولوا، بعد مجيء هنري شمبانيا سدّاً متواصلاً من القصف المنجانيقي إلى أن تحطمت المناجق من جرّاء هجمة قامت بها القوات المحاصرة. وفي ليلة أول شعبان/ ٢/ ٣ أيلول تم إحراق منجانيقين آخرين قيل إن هنري قد أنفق على أحدهما ١٥٠٠ دينار. وفي ٢٢ شعبان/ ٢٤ أيلول قاموا بهجوم بواسطة سير على برج الذباب الذي وصفه صلاح الدين بأنه «قفل ميناء الثغر»[٤٧]. وكان قد قواه، كما قال، «بالعدد والرجال وبالجرخية والرماة والزراقين والمنجنيقية ملأناه»؛ كما حاول الفرنجة إحراق الستائر الواقية المتحركة التي كانت تستخدم لحمايته. وفي الوقت الحرج، مع ذلك، «انقلبت الريح التي كانت مواتية لهم إلى ريح معاكسة»، وكانت حرّاقاتهم المملوءة «بالشحم، والضرّم، والزيت، والخشب» قد عصفت بها الريح وردتها إلى الوراء «فدمّرت على نحو عقيم»[٤٨]. وكان البيزيون قد أعدّوا سفينة خاصة على شكل قلعة عائمة بغية مهاجمة الأسوار، غير أن السفن الشراعية الإسلامية الكبيرة قامت في ٥ رمضان/ ٦ تشرين الأول بغارة مفاجئة منطلقة من الميناء، وتمكنت من إحراقها. وكانت قصة الفشل في البحر هي ذاتها على اليابسة. فقد وصل دوق سوابيا في ٦ رمضان/ ٧ تشرين الأول، ولكن عماد الدين

كتب يقول: «لم يحصل لخرق القوم به رقع . . . وقال الفرنج: ليته لم يصل إلينا ولم يقدم علينا»[٤٩]. إذ أن معركة السير المباشرة التي قام بها باتجاه تل العيّاضة كانت غير ناجحة والكباش (الدبابات) الهائلة التي أعدها هنري شمبانيا ورئيس أساقفة البيزانسون في ١٣ رمضان/ ١٤ تشرين الأول كانت قد دمّرت بواسطة النيران. وفي ١٦ رمضان/ ١٧ تشرين الأول حمل الحمام الزاجل نبأ مفاده أن الفرنجة الوافدين من إنطاكية حاولوا القيام بغارة مفاجئة، غير أن المسلمين كانوا قد أخطروا بواسطة العيون المبثوثة، فقام رجال الظاهر بصد المهاجمين بعد أن كبدوهم خسائر فادحة.

وبالرغم من هذا السجل الكئيب، فإن تفاؤل الفاضل حول فرص تسوية سريعة لم يعش طويلاً. فقد كان صلاح الدين قد أصدر الأوامر بوجوب إخلاء يافا، وأرسوف، والقيصرية، وتدميرها؛ وبأن تجرد صيدا وجبيل، وحتى طبرية، من أسوارها. وقد علّق الفاضل على هذا في رسالة كتبت فيما بعد في فصل الخريف: «إن تدمير المدن في هذه الأوقات العصيبة لا بد أن يقوي دون ريب روح العدو ويضعف روح المسلمين. . . إننا نوفر على العدو نفقات تدمير الأمكنة التي إن لم تدمّر ينبغي عليه أن يحاصرها». ودوّن الفاضل على سبيل التشجيع، انه حلم بأن رسولاً أخبره بأن يكتب الأخبار السارّة حول الجيش الألماني الذي تقلّص الآن إلى أقل من ٥٠٠٠ رجل؛ أما في ما يتعلق بالباقي فإن الوضع كئيب؛ وقد سمح للسفن الجنويّة بدخول المهديّة وهي ميناء إسلامية، وكانت الآن تنقل مؤناً للفرنجة. فلم تعد المناطق كما كانت عليه من قبل، «إذ أن وسائل الإتصال مقطوعة، والأعمال متوقفة، والأسواق كاسدة، والتجارة منهارة». وكانت مصر قد فُرّغت من عملتها الذهبية، ولو لم يكن الواقع أن دراهمها هي بدون أية قيمة في أي مكان آخر لكانت هذه الدراهم هي الأخرى قد تلاشت[٥٠].

كان مفتاح الوضع هو السيطرة على البحر. وفي ١٠ رمضان/ ١٤ تشرين الأول أرسل عبد الرحمن بن منقذ مبعوثاً من صلاح الدين إلى يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن صاحب المغرب الذي كانت جيوش الأيوبيين قد عاثت فيه فساداً طوال سيرة صلاح الدين تقريباً. وكان المغاربة معروفين بأنهم أفضل بحّارة المسلمين[٥١]. وقد أكد الفاضل لعبد الرحمن بأنه إذا استطاع أسطول قوّي أن يقطع الطرق البحرية المؤدية إلى عكا، فإن الجيش الفرنجي سيموت جوعاً أو

سوف يدمر؛ وإذا كان هنالك سفن جاهزة فينبغي أن ترسل في أقرب فرصة ممكنة؛ وإذا كان ذلك غير ممكن، فإن هنالك طرقاً عديدة أخرى يستطيع يعقوب أن يساعد بها. وتؤكد رسالة الفاضل على المأزق الحاصل في عكا. فالفرنجة الذي يبلغ تعدادهم ١٠٠,٠٠٠ لم يتجاسروا على مغادرة معسكرهم. غير أن المسلمين لم يستطيعوا شق طريقهم إليهم بسبب التحصينات القويّة. ولكي يصار إلى ترجيح كفة الميزان لصالح المسلمين، طلب إلى المسلمين المغاربة أن يرسلوا معونة أكبر مما كان يأتي إلى الفرنجة من معونة من الفرنجة الغربيين. ولم تشر الرسالة إلى الأحقاد التي كان يعقوب يكنها في قلبه بحق. غير أن الفاضل أعطى تعليمات إلى عبد الرحمن بأنه إذا سئل عن القائدين الأيوبيين في شمالي أفريقيا يوزباح وشرف الدين قراقوش، فعليه أن يوضح بأنهما «ليسا في عداد الأمراء القياديين المماليك أو الطواشية» - «لا قدّر الله أن نأمر شريراً أن يتصرف بطريقة مؤذية في البلاد»[٥٢]. وكان عبد الرحمن قد عقد إجتماعاً مع يعقوب في ٢٠ محرم ٥٨٦/١٨ كانون الثاني ١١٩١، ولم يكن من المستغرب أن يعود بعد مضي سنة صفر اليدين.

وفي تشرين الأول جاء المستأمنون [من جيش الفرنجة] بنبأ مفاده أن الفرنجة كانوا يبحثون عن معركة أخرى، فأشار مجلس صلاح الدين الحربي بالإنسحاب بغية إغرائهم في الإبتعاد عن تحصيناتهم. وقد قام في ١٩ رمضان/ ٢٠ تشرين الأول بالتراجع حوالي عشرة أميال ونصف الميل (١٧ كلم) عن عكا إلى تلال شفرعم (شفا عمرو). وكان هو نفسه منحرف المزاج، كما كان كذلك زين الدين يوسف صاحب إربل الذي كان قد أصيب بما وصفه ابن شداد «بحميّتين مختلفتي الأوقات»[٥٣]. وقد رفض صلاح الدين إعطاءه إذناً «بالرواح»، إلا أنه سُمح له بالإنتقال إلى تلال الناصرة. وكان قد رفض خدمات طبيب صلاح الدين، علماً، كما أضاف عماد الدين، بأن «أخاه مظفر الدين كوكبوري كان يشتهي موضعه»[٥٤]. وهذه واحدة من التلميحات القليلة إلى أن جماعة صلاح الدين لم تكن تعتبر بعيدة عن إستعمال السم. فاكتفى بصاحب له يطببه، فمات في ١٠ رمضان/ ١٩ تشرين الأول. وقيل عن لسان عماد الدين أن كوكبوري جلس في خيمة «كأنه في مثل يوم الهناء»[٥٥]. وقد استولى على جميع ممتلكات أخيه وألقى القبض على «أمرائه أصحاب القلاع، وخشي أن يعصوا فيها إذا رجعوا إليها»[٥٦]. وبعدها ساوم صلاح الدين على إربل التي أعطيت إليه مقابل حرّان والرها

وسميساط. وأورد ابن الأثير أن أهل إربل نفسها قدموا المدينة إلى مجاهد الدين قايماز إلا أنه رفضها، إما خوفاً من صلاح الدين، وإما لأنه إعتقد أن سيده عز الدين قد لا يسمح له بالإحتفاظ بها. ومكث كوكبوري مع صلاح الدين إلى أن وصل تقي الدين من حماه في ٣ شوال/ ٣ تشرين الثاني، ثم غادر بعد ذلك إلى الشرق. وتمتع فيما بعد بشهرة ممتازة في التقى والكرم بالإضافة إلى النجاح في الحرب المقدسة التي قيل بأنه لم يخسر فيها معركة أبداً. وهذا الأمر صحيح إلى درجة كبيرة، ويُعزى جزئياً إلى كفاءاته الذاتية، ولكن يعزى أيضاً إلى الواقع بأنه بعد أن ترك صلاح الدين في ذلك الموقف الحرج، سواء أكان ذلك مصادفة أو تعمّداً، لم يعد أبداً.

تزامن موت زين الدين يوسف مع قيام شغب بين الفرق العسكرية الشرقية. وقد حظر على سنجرشاه من جزيرة ابن عمر الذي كان الآن قد مضى على وجوده في عكا خمسة أشهر، أن يغادر عائداً إلى بلاده على أساس أن الفرنجة كانوا ينشرون إقتراحات استطلاعية حول الصلح[٥٧]. وهذا الأمر لا ينطبق على الأنباء بأنهم كانوا يبحثون عن القيام بمعركة، وحاول دون جدوى الدفاع عن رأيه هذا خلال اجتماع في خيمة صلاح الدين في يوم عيد الفطر. عندئذٍ عاد إلى معسكره الخاص فأمر أصحابه بأن يقلعوا الخيم، وزحف على شكل تحدٍّ باتجاه طبرية. وحين علم صلاح الدين بالأمر كتب يذكره بأنه كان قد إنضم إلى الأيوبيين لأنه كان يخشى جانب عمه عز الدين صاحب الموصل. ثم أشار أيضاً إلى أنه قد «بطشت يدك في أموال الناس ودمائهم وأعراضهم»[٥٨]. مما يعني أنه لا يستطيع أن يتوقع أي دعم منهم، وأنه إذا فرّ الآن من الخدمة فلن يعمل صلاح الدين بعد اليوم على حمايته. وقد استطاع الرسول الذي حمل هذه الرسالة أن يلحق به في طبرية، ولكنه أصر على عدم العودة وتابع سلوك طريق دمشق عبر عقبة فيق. وحدث أن هذه هي الطريق التي سلكها تقي الدين منطلقاً من حماه؛ وقد نقل عنه قوله ان سنجر شاه كان قد تكلم معه في البدء «كأنني بعض مماليكه. وحين رأيت هذا التصرف، قلت له: إن رجعت بالتي هي أحسن، وإلا أعدتك كارهاً.. فشرع يبكي، فعجبت من حماقته أولاً وذلته ثانياً»[٥٩]. وقد نجح في ترويع سنجر شاه بالتهديد بأن يعود، فعسكر سنجر شاه حينئذٍ قربه، «خوفاً على حياته». ولم يقم صلاح الدين بأي فعل، ولكن نقل عنه فيما بعد قوله: «ما قيل لي عن أحد شيء من

الشر فرأيته، إلاّ وكان دون ما يقال فيه، إلاّ سنجر شاه»[٦٠].

ومع أن إرتداد سنجر كان أمراً مثيراً، فلعل الضغط الذي مارسه زنكي كان أشد خطراً. وكان زنكي قد وصل إلى عكا في ٢٤ ربيع الثاني/ آخر أيار وادعى بأنه غير مستعد للشتاء. وقد وجد ابن شداد الذي كان يقوم بدور الوسيط أن كلاً من زنكي وصلاح الدين كان عازماً على اتباع طريقته الخاصة. وكتب زنكي في النهاية رسالة شخصية «يلين فيها ويخشن» في آن. فأعادها صلاح الدين بعد أن كتب في ظهرها بيتاً من الشعر:

مـــن ضاع مثلـي من يريه فليت شعـري ما استفـاد[٦١]

وبالإضافة إلى التهديد الضمني، أفيد بأن صلاح الدين كان قد فاوضه أيضاً على جزيرة ابن عمر، وقد كان هو الآخر قد أُقنع بالبقاء في الوقت الراهن. وكان الفاضل الذي علّق على تململ الشرقيين على حق تقريباً في ربطه مع حاجة صلاح الدين إلى المال. وكان هنالك آمال قليلة جداً بالتوسع أو القيام بأعمال السلب والنهب تشجع الحلفاء المعارضين، فقال الفاضل بهذا الصدد: «تجود الألسنة بالنصائح، إلا أن الأيدي بخيلة بالمساعدة»[٦٢].

ولم يفد ابن شداد بشيء أكثر عن متلمسي السلام الفرنجيين إلا أن إنذارات مبكّرة جرى تأكيدها في ١٠ شوال/ ١١ تشرين الثاني برؤية الجيش الفرنجي يخرج مرتب الوحدات إستعداداً للمعركة، ويتقدّم نحو الآبار التي كان المسلمون قد حفروها بالقرب من تل العيّاضية. فتراجعت قوّة صلاح الدين المستترة إلى تل كيسان وأرسل أمتعته من باب الإحتياط تلك الليلة إلى قيمون والناصرة. وقد جاء بهذه المعلومات كشافة الفرنجة الذين نقل عنهم امبرواز (Ambroise) انهم أتوا بأخبار مفادها أن صلاح الدين نفسه قد غادر، وأنه سيكون حمقاً كبيراً أن يصار إلى اللحاق به[٦٣]. وفي الواقع، لم يقم الفرنجة بأي تحرّك نحو التلال، ولكنهم توجهوا في ١١ شوال ٥٨٦/ ١١ تشرين الثاني ١١٩١ جنوباً في إتجاه حيفا. فسحب صلاح الدين المسلمين وتوجه بهم إلى خطوط التقدّم الفرنجي، ناشراً الميمنة حتى التلال بقرب الخرّوبة، ومبقياً الميسرة على نهر نعمان. وكانت الميمنة قد عززت منذ معركة عيد القديس جيمس بعودة الشماليين، وهي الآن تضم أبناء صلاح الدين الأفضل الظاهر على رأس جيش من حلب، والظاهر والموصليين مع علاء الدين،

والعادل، وحسام الدين أمير نابلس، وصارم الدين قايماز وعز الدين جرديك، وحسام الدين بشارة صاحب بانياس وبدر الدين دلدِرِم.

وإلى اليسار كان يوجد جيش سينجار وسنجر شاه على رأس فرقته التي تمثل جزيرة ابن عمر، وتقي الدين المشطوب مع الأكراد المهرانية والهكارية، ثم الأمير خشترين الهكاري. وكان «حيذ الحلقة» في القلب، إلا أنه هو نفسه كان مريضاً إلى درجة لم تسمح له بالإشتراك في القتال فبقي قرب التلال. وغاب شخص آخر عن القتال بسبب المرض هو زنكي الذي كان قد انسحب مع الأمتعة، وكذلك فعل عماد الدين.

واتبع المسلمون تكتيكهم المعتاد بإرسال مناوشيهم لإيقاف التقدّم دون أن يورّطوا أنفسهم في رص صفوفهم من أجل صد التقدم. وقيل إن الفرنجة كانوا قد تزوّدوا لمدة أربعة أيام[٦٤]، وان زحفهم قادهم نزولاً إلى نهر النعمان حتى بلغوا تقريباً منتصف الطريق إلى حيفا، حيث قيل إنهم كانوا هناك يبحثون عن الذخائر. فإذا كانوا قد استنفدوا نصف مؤنهم، فإن أي تقدّم إلى مسافة أبعد سيكون عملاً خطيراً، فالتفوا الآن حول رأس النهر وعسكروا قرب تل الكرداني على جانبه الغربي. وتراجع المسلمون في الليل، وأمر الآن صلاح الدين ميمنته بالإقتراب من النهر باحتشاد طويل، وأمر ميسرته باتخاذ موقع جديد بين النهر والبحر. كانت أوامره تقضي بأن يصار إلى الإلتفاف حول الفرنجة دون أن يقترب المسلمون منهم كثيراً «إلى أن تضاحى النهار»[٦٥]، حين كان، كما يبدو، يأمل في أن يتفرّق حشدهم. واستيقظ الفرنجة في صباح ١٢ شوال/ ١٣ تشرين الثاني ليروا «جميع أتراك العالم»[٦٥] حولهم، ولكنهم انسحبوا باتجاه عكا في حشد متراصٍ حول علمهم، وقد شكلت فرق المشاه حاجزاً واقياً حول فرق الخيالة[٦٦].

وكان هذا العمل الميداني الأكثر ضراوة منذ معركة حطين. فقد كانت مؤخرة جيش الفرنجة تتراجع مواجهة العدو، ومستمرّة في إطلاق النار بسهام قصيرة، ونبال من الأقواس النشابة، في حين كان صلاح الدين يقذف إلى المعركة بفرقة من الخيالة تلو فرقة، حتى استنفذ كل إحتياطه. وكان قد عيل صبر المسلمين في إطاعة الأوامر كما كانوا يعاملون بفتور. وقد وصفوا بأنهم كانوا تقريباً قد اختلطوا بالفرق الفرنجية

التي تشكل مؤخرة جيش الفرنجة، ودون ابن شدّاد عدّة إصابات في صفوف المسلمين بما فيهم الأمير الأسدي سفير الدين يازكوج الذي سقط جريحاً(٦٧). وقيل ان الفرنجة كانوا يدفنون موتاهم حيث كانوا يسقطون في ساحة الوغى ويحملون معهم جرحاهم. وعند حلول الظهر كانوا قد إجتازوا أكثر من ميلين (٣ كلم) بقليل ووصلوا إلى جسر دعّوق. ومن المفترض أن يكون هذا الجسر، وفاقاً لخطة صلاح الدين، في أيدي جنود الميمنة. وأكد امبرواز أن الجسر كان محمياً(٦٨). ولكن ابن شداد، مع ذلك، أفاد فقط أن الفرنجة اجتازوا الجسر ثم نسفوه خوفاً من مطاردة المسلمين لهم ثم عسكروا بعد ذلك على الضفة الشرقية(٦٩). ولا يتحدث ابن شداد أو عماد الدين عن أنه لم يعد هناك فرصة ولا خطة لتحطيم الفرنج، ولربما افترض أن معظم جنود الميمنة كانوا قد انضموا إلى المعركة التي دارت على الضفة الغربية.

وحاول صلاح الدين أن يعد لهجوم ليليّ بواسطة حامية عكا على المعسكر الفرنجي، ولكنه لم يتلقّ أي جواب على رسالته. وفي صباح يوم ١٣ شوال/ ١٤ تشرين الثاني، تحرّك الفرنجة مرة أخرى وتبعهم المسلمون دون أن يستعجلوا القيام بمعركة، وصدوا في النهاية هجوماً أنقض عليهم من المعسكر. وكان صلاح الدين مريضا مما دعا إلى القول: «وهو كان سبب سلامة هذه الطائفة». وشاهد ابن شداد صلاح الدين نفسه يبكي لأنه لم يستطع أن يبشر القوم بنفسه(٧٠). وكان لديه بالتأكيد سبب في أن يكون مكروباً من جراء تمكين الفرنجة من مغادرة ملجأ معسكرهم، ولكنهم، عدا ذلك، لم يسببوا له أي أذى. وظن المسلمون أن الفرنجة كانوا يحاولون تخفيف العبء عن مؤنهم. وأكد امبرواز أنهم رجوا أن يجدوا ذخائرهم في حيفا حيث علموا بعد ذلك بأن المخزونات قد أزيلت. وأضاف ابن شداد بأنهم أرادوا أن يستغلوا مرض صلاح الدين(٧١)؛ ولعلهم سمعوا بالململ الذي كان يجري في جيش المسلمين. وفي الواقع، مع ذلك، كل ما أظهره القتال كان أنه طالما تم الإحتفاظ بالحيطة والإنضباط، لم يستطع أي من الفريقين أن يأمل بنصر حاسم، فاستمر المأزق قائماً.

وقد كرر الآن صلاح الدين التكتيك الذي كان قد طبقه على أثر خسارات المسلمين في الليطاني وخطط لكمين في ٢٢ شوال/ ٢٣ تشرين الثاني. ونجح في

أسر عدد من الفرنجة بما فيهم غي دي سنليز وهو كبير الخدم في فرنسا. ومع أن ابن شداد تكلم عن الحر الشديد في ١٢ شوال/١٣ تشرين الثاني، فقد دون الآن أن صلاح الدين قدّم للأسرى ملابس ذات فراء ليقيهم من البارد القارس[٧٢]. وفي الواقع، كان فصل الشتاء قد دنا. ولما كان فصل الحملات قد انتهى الآن فقد سُمح للشرقيين مثل علاء الدين الموصلي، وزنكي وسنجر شاه أخيراً بالمغادرة بعد تفاهم بأن يعودوا في الربيع. إن المسافة من عكا إلى الموصل تبلغ في خط مستقيم ما يزيد على ٥٠٠ ميل (٨٠٥ كلم)، فليس من المستغرب أن مدة تزيد على ستة أشهر إنقضت قبل أن يعود الموصليون وجيوش من سينجار، في حين أن سنجر شاه لم يعد أبداً. أما صلاح الدين نفسه فقد أمضى الشتاء في معسكره على التلال. ومع أن الفرنجة لم يحاولوا أن يتحدوه هناك، فقد استمروا في ممارسة الضغط على عكا نفسها. وفي ٢ ذي الحجة ٥٨٦/ ٣١ كانون الأول ١١٩١ وصلت من مصر سبع مراكب (بطس) تحمل المؤن، تحطمت إحداها على صخرة قرب الميناء. فقام الفرنجة بهجوم قصد منه تحويل الحامية عن إفراغ شحنات السفن الأخرى. وفيما كان القتال دائراً، غرقت السفن الأخرى من جراء هبوب عاصفة شديدة. وبعد مضي أقل من أسبوع إنهار جزء من سور المدينة مدمّراً قسماً من التحصينات الخارجية، فانطلق الفرنجة إلى الهجوم كقطع الليل المدلهم[٧٣]. ولم يقهروا إلا بصعوبة. وقد حشد «جميع من في البلد من البنائين والصناع» كي يعملوا تحت غطاء من اطلاق من المناجق والنبال حتى أتموا إصلاح الثغرة.

استمر حصار عكا حتى الآن لمدة بلغت حوالي أربعة عشر شهراً. وكان هنالك إستياء متزايد، فقرر صلاح الدين إنتهاز فرصة رسو السفن الفرنجية على الشاطيء أو عودتها إلى صور بغية إرسال بدائل عن أولئك الذين يرغبون في الرحيل. كان هذا التحرك، من الوجهة النظرية، تحركاً حكيماً، إلا أن عماد الدين إنتقد الطريقة التي أنجز بها. فبالنسبة إلى إحصاءاته كان هنالك حوالي ٢٠,٠٠٠ رجل في عكا، بما فيهم البحارة والمتعيشين، والتجار، بالإضافة إلى ٦٠ «أميراً مقدماً». وكان الأمراء قد انتفعوا ـ ويفترض أنهم استأجروا ـ بالعوام من الشعب كأيدٍ عاملة مدنيّة للمساعدة في مهمّات جذب المناجيق؛ ولما خرج الخواص خرج معهم العوام. ولم يبق سوى عشرين أميراً كي يحلوا محلّهم. وبقي قراقوش في عكا؛ وكان قائد الحامية الجديد الكردي المشطوب علي. وقد

دفعت رواتب للبطالين، غير أن عماد الدين أضاف بأن أغلبية الكتبة الذين تعاملوا مع هذا كانوا من «نصارى مصر» الأقباط؛ واعتبر المسلمون المسؤولون عن خزينة المال أن هذا العمل يشتمل على كثير من الحرص لأنه يساعدهم على توفير ما أمكن من المال. فعمدوا بنتيجة ذلك إلى مضايقة المتطوعين الراغبين وكانوا «يشترطون ما ليس في الإمكان»، ليتأكدوا من أنهم قد قاموا فعلاً بالخدمة. وألح صلاح الدين على السماحة في النفس والجود، غير أن «موظفي الديوان تظاهروا بالبلاهة المعتادة»[٧٤]. وبقي العادل في حيفا على الشاطيء ليشرف على العملية، غير أنها لم تكن قد أنجزت حين استأنفت السفن الفرنجية حصارها في ربيع ٥٨٧/ ١١٩١.

جنى المسلمون بعض الرضا من الشدائد التي أصابت المعسكر الفرنجي حيث تضافر الوباء مع الجوع على حصد ما يقارب من ٢٠٠ ضحيّة يوميّاً. أضف إلى أنهم كانوا، في معظمهم، منشغلين بمشكلاتهم الخاصة. وصل الفاضل في ذي الحجة ٥٨٦ (٣٠ كانون الأول ١١٩٠ ـ ٢٨ كانون الثاني ١١٩١) وكان قد كتب قبل مغادرته مصر يقول: إن المعاصي في كل مكان بادية. المظالم في كل موضع فاشية[٧٥]. لقد احدثت الحرب نقصاً وعجزاً. ففي حالة الأسلحة فاق الطلب على العرض. وقد علق على إرسال الرماح التي كانت الآن «غير موجودة في البلاد»[٧٦]. واشتكى عماد الدين من النقص في عدد الأطباء في المعسكر، فأجاب الفاضل بأنه كان منهم في مصر أقل من ذلك بكثير ولا يمكن الثقة في واحد منهم. وكرر أن «الأشرار قد تكاثروا وخرجوا إلى العلن... إنهم يكتشفون رائحة التحريض على العصيان ـ عسى الله أن يقطع الأنوف التي يشمونها بها»[٧٧].

وكان صلاح الدين قد نقل أخبار المظالم والشدائد إلى الخليفة. فأحاط الخليفة علماً في إحدى الرسائل أن العدو قد أنشب مخالبه في عكا، و «يطلب الإسلام منكم العون كما يصرخ الرجل الغريق طالباً النجدة». «فالعبد وفرسان الله أولئك الذين معه قد تآكلتهم الحرب القاضمة... فامتد رجاؤهم إلى قائدهم الذي هو إمامهم»[٧٨]. وفي مستهل صفر ٥٨٧/ نهاية شباط ١١٩١ أرسل صلاح الدين التماساً تكرارياً وعاطفياً آخر يطلب النجدة. وأشار إلى إنقطاع في مراسلاته كان سببه الإشمئزاز والسأم اللذين خلقتهما أنباء هذا العدو «الذي قد استعجل أمره»؛ وهناك قضية خطيرة الآن هي سلاجقة الروم، حيث قلج ـ أرسلان وأبناؤه كانوا

يتنازعون ـ «فإذا سقطت هذه البلاد في أيدي الكفار، حينئذٍ لن يكون هنالك إسلام»؛ وقد سبق لصلاح الدين أن أرسل رسلاً ورسائل، غير أن للخليفة حقاً أفضل في القيادة. وكان قلبج ـ أرسلان قد أخبره أن عدداً من الأعداء قد وصلوا إلى إيطاليا[٧٩]، حيث يستطيعون من هناك أن يجدوا لهم ممرّاً سهلاً إلى عكا في أوائل الربيع حين يحين موسم الإبحار. وقد أضاف، في ما يمكن أن يكون محاولة متعمدة لإخافة الخليفة، أن «الطاغية المعروف بـ «مساعدة النصرانية»، وهو البابا»، كان في حالة تقدّم، وهي حكاية رفض أن يصدقها هو نفسه حين أخبره بها قطب الدين بن قلبج ـ أرسلان[٨٠]؛ أما فيما يختص بمدينة عكا، فلا يمكن مهاجمة الفرنجة في معسكرهم، لأنهم سينطلقون للقتال خارج المعسكر كل يوم بالرغم من خساراتهم، مستخدمين تارة كل قواتهم، ومستخدمين بعضها تارة أخرى؛ وكانوا قد أتوا من بلاد مختلفة إلى درجةٍ أنهم كانوا في حاجة إلى حشد من المترجمين في حالات وجود أسرى أو مستأمنين، فيترجم واحدهم للآخر؛ «إن تواني المسلمين في مساعدة رفاقهم في قضية الحق يضارع التلهف الذي يساعد به هؤلاء الناس رفاقهم في الباطل». وكتب أنه كان عليه هو نفسه أن يكبت جيوشه مدة طويلة إلى درجة أغضبهم وأغضبوه؛ وحين تأتي الجيوش من أجزاء من البلاد بعيدة، فإن الجنود يباشرون خدمتهم بطلبات الرحيل، ولهذا العمل نتائج وخيمة، لأن العدو علم به فانتظر متوقعاً أن يتفرقوا؛ وقد مكث رجال الموصل وسينجار طوال الصيف وتحملوا العناء بكرامة، أما جنود ديار بكر فقد أعنوا أنفسهم بحجة أن عليهم أن يدافعوا عن بلادهم الخاصة. فالحاجة ماسة إلى مزيد من الرجال، من التركمان بأعداد ضخمة ومن البدو «لملء عين العدو اللعين» لأن الفرنجة «كانوا حنطة لا يمكن حصادها إلا برجال ينتشرون كالجراد عدّاً». ولكي لا يظن الخليفة أنه كان يطلب مالاً كان عليه هو أن يؤمنه بنفسه، فقد أضاف بأن ملكيته الخاصة تحتوي فقط على ثلاثة عقارات: واحد في مصر واثنين في سوريا، وكانت موارده المالية جميعاً قد أنفقت في الحرب؛ «فالسؤال فقط إلى من يجيب، ولا توصف الأعراض إلا للطبيب»؛ فالخليفة هو من ترفع إليه كل شكوى، وتحت رايته تشنّ الحرب المقدسة[٨١].

وفي ٢ آذار، وفور كتابة هذه الرسالة، غادر تقي الدين المعسكر. فقد ألح في المطالبة بالمدن التي كان كوكبوري قد استبدلها بإربل ـ وهي سميساط والرها

وحرّان ـ فاقطعه صلاح الدين إياها على أساس أن يقوم بزيارتها ثم يعود حالما يكون قد أقطع البلاد للجند. ورغم أن صلاح الدين قد قيد نفسه فعلاً بالساحل السوري وهو ما خلقه لنفسه بسبب انتصاراته هناك، فإنه لم يهمل مطلقاً سياسة التوسع. وكان تقي الدين سبق له أن تملّك ميافارقين، لا يستطيع أن يتحمل عبء فراغ في السلطة في الشرق، فأكد لتقي الدين أن عليه أن يتقيد بالإتفاق الذي عقد مع الأرتقيين، أسياد آمد وماردين.

وكان هنالك مصدر ضعف آخر، هو الخصومة القائمة بين عز الدين صاحب الموصل وسنجر شاه. فقد روى ابن الأثير أنه بعد محاولة سنجر شاه الفرار من الخدمة في شوال ٥٨٦/ تشرين الثاني ١١٨١، اقترح صلاح الدين على عز الدين أن يأخذ جزيرة ابن عمر، ولكنه خشي أن يقع في مكيدة فطلب تفويضاً خطيّاً بذلك. وبعد تبادل الرسل تم عقد إتفاق، فحاصر عز الدين المدينة لمدة أربعة أشهر، ولكنه أخفق في الإستيلاء عليها، إلا أنه تم الإتفاق في النهاية على إعطاء بعض من أراضيها للموصل[٨٢].

وكانت معلومات صلاح الدين حول تحركات الصليبيين من إيطاليا تكاد تثبت صحتها. وفي حين أن تلقى هو نفسه بعض التعزيزات بعودة بهرام شاه صاحب بعلبك، وعلم الدين سليمان على رأس جيش من حلب، وبدر الدين مودود من دمشق، فقد غادر أشد أعدائه هولاً وهما فيليب وريتشارد، مسيّنا في آذار للوصول إلى صقلية. وكان في عكا بعض المناوشات الصغيرة. وفي ٥ نيسان جرى نقل عدد من أسرى الفرنج من بيروت. فطلب أبناء صلاح الدين الصغار أن يأذن لهم في قتل أسير، ولكنه رفض كي لا يعتادوا من الصغر سفك الدماء. ونقل عنه أنه أضاف قائلاً: «وهم الآن لا يفرقون بين المسلم والكافر»[٨٣]. وشاهد ابن شداد بين السجناء رجلاً مسناً ضعيفاً بدون أسنان والذي قال على لسان الترجمان بأنه قام برحلة استغرقت «عدة أشهر» إلى كنيسة القيامة، فما أن سمع صلاح الدين ذلك حتى أمر بإطلاق سراحه وإعادته إلى الفرنجة[٨٤]. وبعد إنقضاء بضعة أسابيع أظهر سماحة النفس الملفتة ذاتها حين سرق لصوص من المسلمين رضيعاً عمره ثلاثة أشهر من خيام الفرنج، فأشار الفرنجة على الأم أن تأتي بنفسها إلى صلاح الدين ذاته ـ «إنه رحيم القلب» ـ فأحضرها إليه الحرس الإسلامي. كان الطفل قد بيع في سوق النخاسة، غير أن صلاح الدين استعاده من مشتريه بعد أن دفع ثمنه. فكتب ابن شداد: «وسلمه إليها فأخذته وبكت بكاء شديداً وضمته إلى صدرها والناس ينظرون

إليها ويبكون، وأنا واقف في جملتهم فأرضعته ساعة، ثم أمر بها، فحملت على فرس والحقت بعسكرهم مع طفلها»[٨٥].

وفي ٢٣ ربيع الأول ٥٨٧/ ٢٠ نيسان ١١٩٢ وصل فيليب ملك فرنسا إلى عكا، وكان قد جلب معه ست بطس (سفن نقل كبيرة). ورأى عماد الدين أن الفرنجة خاب أملهم حين رأوا قوته العسكرية الصغيرة. إلا أنه طمأنهم أنه كانت هنالك تعزيزات أكثر في طريقها إليهم[٨٦]. ولم يكن جيش صلاح الدين الخاص في قوته الكاملة على الإطلاق. إذ أنه فقد تقي الدين، ولم يعد أي من الشرقيين، ومع أنه كان يحاول تجنيد التركمانيين بواسطة بدر الدين دلدرم، فلم يكن بعد قد وصل أحد منهم. وكان العادل في عكا منذ شوال ٥٨٦/ تشرين الثاني ١١٩٠؛ وعلى الرغم أنه لم يكن هنالك أي سجل يبين أن جنوده ذهبوا إلى بلادهم، كان بالإمكان أن يفترض أنهم إما قد أضعفوا أو أن يكونوا قد غادروا، ذلك لأن قوة عسكرية جديدة قد استدعيت الآن من مصر.

وكان صلاح الدين لا يزال ينتظر في معسكره قرب شفرعم (شفا عمرو) حين اندلع قتال خطير مرةً أخرى في ٥ جماد الثاني / ٣٠ أيار، وكان عليه أن يقطع مسافة ما يزيد على ١٤ ميل (٢٣ كلم) يومياً طوال الأسبوع القادم من أجل تخفيف الضغط الشديد عن الحامية. وكان الفرنجة قد شرعوا في إطلاق قذائف المناجق، كما كانوا يحاولون ردم الخندق بالقاء جثث الحيوانات وحتى الجثث الآدمية فيه. وتوزعت الحامية إلى فرق عمل، فاحداها كانت تقطّع الجثث بغية تسهيل نقلها، وأخرى كانت تأخذها لتلقيها في البحر، وثالثة كانت تغطي الأولى، والرابعة كانت تشغّل المناجق وتحمي الأسوار. وكان الضغط المستمر عليهم قد أنهك قواهم. وفي ٩ جماد الأول / ٥ حزيران نقل صلاح الدين معسكره صعوداً إلى تل الغيّاضيّة.

وفي نفس الوقت كان ريتشارد قلب الأسد يقترب أكثر فأكثر: لقد سمع المسلمون روايات مشوّشة عن إستيلائه على قبرص[٨٧]. وكان صلاح الدين قد أقام ترتيبات غامضة كي يساعد إمبراطور بيزنطية لمهاجمتها[٨٨]. وكانت السفن الإسلامية من بيروت والزيب تحاول إعتراض السفن الشاردة من الأسطول الإنكليزي، وأعلن المسلمون أنهم إستولوا على ست سفن، إلا أن ريتشارد نفسه وصل بأمان إلى عكا يوم السبت في ١١ جماد: الأول / ٨ حزيران على رأس أسطول من خمس وعشرين سفينة كبيرة. ويرى ابن شداد أنه كان «دون الفرنسيس عندهم في الملك والرتبة، لكنه أكثر مالاً منه وأشهر في

الحرب والشجاعة»[٨٩]، في حين وصفه ابن الأثير بأنه «كان رجل زمانه شجاعة ومكراً»[٩٠]. وأخبر المستأمنون المسلمين «أن الفرنجة كانوا متوقفين عن مضايقة البلد إلى حين قدومه، وهذا ما «أثر في قلوب المسلمين خشية ورهبة»[٩١]، إلا أن عماد الدين قال بأن صلاح الدين «بقي قوي الجنان»[٩٢].

وعقب ذلك قتال ضارٍ. ففي ١٦ جماد الأول/ ١١ حزيران كانت سفينة تموين كبيرة آتية من بيروت تحمل حوالي ٧٠٠ مقاتل قد اعترضتها سفن ريتشارد وأغرقتها. ووقعت هجمات رئيسة على المدينة في ١٩ و٢٣ جماد الأول/ ١٤ و ١٨ حزيران. وفي ٢٨ و ٢٩ جماد الأول / ٢٣ و ٢٤ حزيران تفحّص الفرنجة أولاً خط الساحل الشمالي بطوله ثم خط النهر. وقد روى ابن شداد أنه قبل أن وصل ريتشارد مباشرة كان الفرنجة قد طلبوا من صلاح الدين أن يرسل مبعوثاً لإجراء مفاوضات فأجابهم «إن كان لكم حاجة فليخرج منكم واحد يحدثنا، فليس لنا إليكم شغل». وفي ١٨ حزيران جاء رسول من قبل ريتشارد إلى العادل، فأحاله إلى صلاح الدين. وكان ريتشارد يطلب عقد إجتماع، إلا أن صلاح الدين إعتذر قائلاً: «الملوك إذا إجتمعوا يقبح منهم المخاصمة بعد ذلك». بعد ذلك مَرِضَ ريتشارد، وأنهي إلى المسلمين، خطأً، أن فيليب سقط جريحاً[٩٣].

وبلغ المسلمين نبأ آخر مفاده أن كونراد غادر معسكر الصليبيين عائداً إلى صور وذلك في سلخ جماد الأول ٢٥ حزيران. وفسر عماد الدين قائلاً إن زوجة هنفري صاحب طورون ـ إيزابيلا ـ كانت إبنة «الملك الذي هلك والقدس في يده»، أي ابنة أملرك. وعادتهم أنه إذا مات ملك ينتقل ملكه إلى ولده، فيكون الملك بعد الإبن إذا لم يخلف إبناً للكبرى فإذا توفيت عن غير عقب، كان للصغرى. «فالملك العتيق»، أي غي دو لوزينيان، كان قد أخذ الملك بسبب زوجته (سبيلاّ، وهي كبرى بنات أملرك)، فعزلوه حين توفيت في شتاء ١١٩٠ - ١١٩١؛ وصارت إيزابيلاّ الآن الملكة الشرعية. وكان كونراد يجري عليه ويقول «لست من أهل الملك لتكون الملكة لك زوجة»[٩٤]. وكتب ابن شداد: «فسخ نكاحها [الأول] بأمر اقتضاه دينهم، واضطربت آراؤهم فيه»[٩٥]. بعدئذٍ تزوج كونراد من إيزابيلا، مع أنه قيل في ذلك الوقت إنها كانت حاملاً؛ ودوّن عماد الدين فيما بعد «لم تخرج من حبالة الحبل، فما شغلتهم جرعة الرحم المشتغل»[٩٦]. وقيل إن كلاً من غي وهنفري قد إشتكى لريتشارد لدى وصوله،

فنجم عن ذلك فرار كونراد الآن إلى صور، خشية أن يصدر أمر بتوقيفه.

وفي آخر جماد الأول / الأسبوع الأخير من شهر حزيران وصلت التعزيزات الإسلامية. ومع ان زنكي كان قد بقي في بلده، فقد أرسل جنوداً من سينجار اتخذوا لهم الآن مركزاً في ميسرة صلاح الدين. كما وصل أيضاً فرقتان عسكريتان مصريتان. واستحضر علاء الدين الفرقة العسكرية التي تمثل الموصل. وبسبب التهديدات التي أطلقها تقي الدين لم يلتحق بالشرقيين أي من عساكر ديار بكر[٩٧]. ونقل عن صلاح الدين أن صرخ: «حكموا في الأسوار من الأسوار بضرب المجانيق. . . ولم يبق إلا أن يتدارك الله الثغر بلطفه»[٩٨]. وكتب في رسالة أخرى: «فإن لم يصل [العون] في هذا الوقت فمتى؟ ومن أتى في غير الوقت المحتاج إليه فما أتى»[٩٩].

عاد الآن مبعوث ريتشارد إلى المعسكر الإسلامي فقابله العادل والفاضل اللذان أخذاه إلى صلاح الدين، وطلب أماناً بحيث يستطيع ريتشارد أن يقابل صلاح الدين في سهل عكا «وكلاهما عن عسكره منفرد». فأجاب صلاح الدين: «هو لا يفهم بلساني ولا أفهم بلسانه»[١٠٠]، واقترح أن يتمكن الترجمان الذي سيكونان مجبرين على استخدامه من القيام بمهمة المبعوث إلى المفاوضات التي ينبغي أن تسبق أي إجتماع. فلم يوافق على هذه الفكرة، فتم الإتفاق بعد ذلك على أن يقابل ريتشارد العادل. ومضت بضعة أيام دون أن يأتي أي خبر، «فشاع عندنا أن ملوكهم منعوه ومن ركوب الخطر فزعوه». ولكنه أرسل بعد ذلك رسولاً ينفي الشائعة ويقول إنه كان مريضاً. واستأذن في أن يرسل إلى صلاح الدين هدية من البزاة والجوارح وكلاب الصيد، طالباً أن يرسل إليه بعض الدجاج ليطعمها لحومها، بعد أن ضعفت في طول الرحلة في البحر ـ وهو طلب ما جعل العادل يشتبه بأنه كان منشغلاً بطعامه الخاص، ولا سيما بعد مرضه. وقد طلب رسوله بعض المقترحات، ولكنه أجيب بأن المبادرة ينبغي أن تأتي من الفرنجة. فأرجئت المباحثات بعد ذلك حتى ٦ جماد الآخرة/ أول تموز حين جاء مبعوث مرّة أخرى ومعه هدية هي عبارة عن سجين مغربي مسلم أطلق سراحه. وقد لاحظ ابن شداد: «كان غرضهم بتكرار الرسائل تعرّف قوة النفس وضعفها، وكان غرضنا بقبول الرسائل تعرّف ما عندهم من ذلك أيضاً»[١٠١]. وليس هنالك ذكر في المصادر العربية لمبعوثين أرسلوا من قبل صلاح الدين بالمقابل، ولكن مؤلف (التتمة)،

اللاتيني يرى أن صلاح الدين أرسل عدة هدايا إلى الملوك، واعداً بإعطاء المال، أو تقديم جزء من الأرض المقدسة أو كل ما يقع غربي الأردن، ولكنه، بكل بساطة، فعل ذلك لكسب الوقت[١٠٢].

شن الفرنجة في ٧ جماد الآخرة/ ٢ تموز هجوماً كبيراً آخر بغية دعم دبلوماسيتهم مجبرين صلاح الدين على تخفيف الضغط بقيامه بمهاجمة معسكرهم. وروى ابن شداد بأن صلاح الدين لم يطعم في ذلك اليوم طعاماً البتة، ولكنه كان يحرض رجاله وعيناه تذرفان بالدمع، في حين كان العادل قد شارك في القتال بنفسه[١٠٣]. وفي ٨ جماد الآخرة/ ٣ تموز وصلت مطالعة من البلد يقولون فيها: «انا إن لم تعملوا معنا شيئاً نطلب الأمان». ووصف ابن شداد هذا الأمر بأنه «أخطر خبر ورد على المسلمين». فإن عكا قد كانت احتوت «جميع سلاح الساحل والقدس ودمشق وحلب ومصر أيضاً»[١٠٤]. وجميع البلاد الإسلامية. وقد عملت توقعات الكارثة على زيادة المخاوف على صحة صلاح الدين. وشنت معركة إستنزاف أخرى على معسكر الفرنجة، فخرج المشطوب في ظل راية الهدنة ليتفاوض مع فيليب حول بنود الإتفاق. وبيّن أن الأمان كان دائماً يعطى للفرنجة حين كانوا يطلبونه ولكن ابن شداد وعماد الدين سمعا بأن فيليب أثار غضب المشطوب حين أشار إلى أن المسلمين هم «مماليكه وعبيده»[١٠٥]، فعاد يقول: «أنا ما نسلم البلد حتى نقتل بأجمعنا». ومذ ذلك فقد كانت المعنويات تنهار. وفي ليلة ٩ جماد الآخرة/ ٣ ـ ٤ تموز انسل عدد من الأمراء في مركب صغير (بركوس) وخرجوا من الميناء. كان ذلك ضربة شديدة سددت إلى صلاح الدين، كأنما لم يعد قادراً أن يعتمد على أمرائه، وإن مركزه برمته كان في خطر. وقد عفا عن أحد الفارين شريطة أن يعود إلى عكا في تلك الليلة، ثم ألغى إقطاعات الآخرين، بما فيهم ابن عز الدين حاولي ونائب القائد وهو من الأمراء الأسديين[١٠٦]. وكتب يخبر كوكبوري عن الأمر، ولكنه أضاف يقول إن الحامية لا تزال تقاتل وتقوم بهجمات مفاجئة ضد القوات التي تحاصرهم، حيث تنطلق هذه الهجمات من التحصينات الخارجية ومن الخنادق العميقة التي يجري حفرها للإقتراب من العدو[١٠٧].

وكان يأمل في أن يشن هجوماً مفاجئاً في فجر ١٠ جمادي الآخرة/ ٤ تموز. ولكن ابن شداد كتب يقول: «إن الجيش لم يساعده على ذلك، وقالوا: نخاطر بالإسلام كله ولا مصلحة في ذلك»[١٠٨]، وقد جرى قتال في أواخر النهار، غير أنه

جاء أثناء ذلك ثلاثة رسل من ريتشارد يطلبون فاكهةً وثلجاً. لعلهم كانوا يحاولون إختبار معنويات المسلمين مرّة أخرى، فرد صلاح الدين الضربة بمثلها، وذلك بالسماح لهم بزيارة سوق الجيش التجاري، حيث تمكنوا من مشاهدة الموارد الإسلامية على مدى أكثر من ٧٠٠ دكان. وقد وصفت دكان طبخ واحدة بأنها تحتوي على ٢٨ قدر للطبخ، وكل قدر تستطيع أن تتسع لتسعة رؤوس غنم. وعلى سبيل الكماليات والرفاهة كان يوجد أكثر من ألف حمامٍ، حيث كان الزبائن مستعدين لدفع درهم أو أكثر للمغاربة المغامرين الذين كانوا قد حفروا حفراً في الأرض، وطينوا جدرانها ثم ملؤوها بالماء الساخن[١٠٩]. وأمضى المسلمون ليلة ١٠ جماد الآخرة/ ٤ تموز في إستنفار كامل كأنما خُطِّطَ بأن تحاول الحامية قطع الطريق على الرسل الفرنجة الثلاثة. ولكن الخطة أخفقت، لأن الفرنجة أنذروا بذلك على ما يبدو. وفي ١١ جماد الآخرة/ ٦ تموز عقدت جلسات أخرى من المفاوضات. فتقدم المسلمون بعرض قوامه تسليم المدينة ومحتوياتها مقابل الحفاظ على حياة أفراد الحامية. وحين رفض طلبهم، زادوا عرضهم بأن وعدوا بإطلاق سراحِ سجين فرنجي واحد مقابل كل فرد من أفراد الحامية، وبالنهاية قدّموا الصليب أيضاً. إلا أن الصليبيين كانوا يلحّون على «أن تعاد البلاد الساحلية إليهم وإطلاق جميع الأسرى»[١١٠]، فاعتبرت هذه الشروط غير مقبولة. وفي ١٢ جماد الآخرة/ ٧ تموز جاءت رسالة من الحامية تفيد بأنهم كانوا مستعدين للقتال حتى آخر رجل. ووصلت التعزيزات في ١٤ جمادي الآخرة/ ٩ تموز مع سابق الدين عثمان، وفي ١٥ جمادي الآخرة/ ١٠ تموز جلب بدر الدين دلدرم قوة عسكرية ضخمة من التركمانيين. وقامت محاولة أثناء ذلك في عكا لبناء سور مستتر خلف الثغرة الفرنجية الرئيسة؛ غير أنه كان هناك ثغرات أخرى، وكانت المدينة قد غدت أشد وهناً.

وإذا ما أخذت عكا على حين غرّة، فلن تتوقع الحامية أية شفقة أو رحمة. وقد أظهر رسلهم بأنهم كانوا مترددين. وكان صلاح الدين قد أحيط علماً في ٨ جمادي الآخرة/ ٣ تموز بأن أهل البلد سوف يستسلمون. وفي ١٢ جماد الآخرة/ ٧ تموز عادوا وأكدوا انهم سيقاتلون حتى الرمق الأخير، وذلك مذ سمعوا بفشل المفاوضات التي أجريت معه. وفي ٧ جماد الآخرة/ ١٢ تموز قام الفرنجة بالهجوم مرّة أخرى؛ وكان عوّام قد جاء بنبأ الإنهيار النهائي، فقام المشطوب

بالتفاوض حول شروط الإتفاق؛ وكانت الشروط أن تستسلم المدينة وتسلّم محتوياتها بما فيها السفن في الميناء. وعلى المسلمين أن يدفعوا مبلغ ٢٠٠,٠٠٠ دينار، ويسلّموا ألفاً وخمسمائة أسير «مجاهيل الأحوال»[١١١] و ١٠٠ سجين يسميهم الفرنجة، بالإضافة إلى الصليب. وكان كونراد الذي كان قد عاد إلى المعسكر، قد قام بدور الوسيط في المفاوضات، وينبغي أن يعطى له نفسه مبلغ ١٠,٠٠٠ درهم بالإضافة إلى مبلغ ٤٠٠٠ إلى «أصحابه»[١١٢]. ويسمح بالمقابل لإفراد الحامية بالمغادرة مع عائلاتهم وممتلكاتهم الخاصة. وحين وردت هذه الرسالة دعا صلاح الدين مجلسه الحربي إلى الإنعقاد. «واضطربت به آراؤه وتقسم فكره وتشوش حاله»[١١٣]. وهنالك دلالة على أن المشطوب كان قد خوّل حق تقديم العروض التي جعلت، في الواقع، شرف صلاح الدين رهناً على هكذا مقياس. وقال ابن شداد بأن صلاح الدين عزم في تلك الليلة على إرسال عوام ليقول للفرنجة بأنه لم يوافق على الشروط. وعند الظهيرة صاح الفرنجة «صيحة واحدة»[١١٤] فكانت راياتهم مرفوعة فوق أسوار المدينة. وحصل بين أفراد الجيش الإسلامي حزن وبكاء». وكتب عماد الدين قائلاً: «واسينا صلاح الدين وسلبناه». «إن ذهبت مدينة ما ذهب الدين»[١١٥]؛ وكتب ابن شداد بأنه إنصرف بأفكاره إلى حماية الساحل والدفاع عن القدس.

٢١ - المأزق

في الليلة التي تلت سقوط عكا أعيدت قافلة الأمتعة الإسلامية إلى شفا عمر، في حين بقي صلاح الدين يرقب رجاء بائساً بأن يقوم الفرنجة بهجوم متهور. فمن الناحية الاستراتيجية لم يكن سقوط عكا بحد ذاته سوى نكسة غير سارّة، إذ أن الفرنجة قد سبق لهم أن استولوا على موانىء على الساحل، ولم تضف عكا عاملاً جديداً في المعادلة العسكريّة. ولا بد أن تكون خسارة الأسلحة والعتاد، وهدر المال الذي أنفق على تحصينات قراقوش، خسارة كبرى، غير أن هذا كله لم يمنع صلاح الدين من الابقاء على جيشه في الميدان. وكان قد تخلى طوال الحصار عن المبادرة إلى الفرنجة، فلديه الآن على الأقل فرصة التحرك مرّة أخرى. وقد كانت الضربة التي سددت إلى مكانته، مع ذلك، موازنة لهذا. ففي مجرى سيرته كان قد أصيب بعدد من الاخفاقات العسكرية، غير أن هزيمته الفعلية الواحدة في معركة الرملة كانت محض مصادفة وإهمال. وفي عكا، مع ذلك، استخدم جميع الموارد التي استطاع أن يحشدها من أجل هدف واحد فريد وفشل في تحقيقه. فكانت عاقبة ذلك مرشحة لأن تكون خطيرة على جيش كان له النجاح القوّة التماسكيّة الرئيسة. إذ أنه قيل بأن الأكراد، مثلاً، قد اشتكوا من المصير الذي قد يصيب أفراد قبائلهم في الحامية، وبأنهم قد تكبدوا أفدح الخسائر في الهجوم الأخير على المعسكر الفرنجي[١]. فإذا شعر أي قطاع من قطاعات الجيش ظلماً في نفسه، يمكن أن تكون العاقبة وخيمة.

وأنحى صلاح الدين باللائمة على تقي الدين الذي بدلاً من أن يسرع في

العودة من الشرق كما كان قد وعد، أنجر إلى حرب مع بكتيمور صاحب خلاط[٢].
إلى ذلك فإن القاعدة التي يبنى عليها تكتيك صلاح الدين كانت دائماً بأن يُهاجم وهو في موقع حصين بقدر الإمكان، ثم استخدام حركية رجاله لتحطيم العدو أو لإيقاعه في فخ. حتى ولو كان مدعوماً بتعزيزات قوية، فلا يبدو من المحتمل أن يقوم بهجوم عاصف على تحصينات الفرنجة؛ ومن الواضح أنه كان يترقب فرصة أفضل وذلك حين يقوم الفرنجة بالتحرك ثانية ـ شرط أن يكون هو نفسه قد صمم على خوض الحرب حتى النهاية وأنه كان يستطيع أن يحتفظ بمعنويات رجاله عالية.
لقد كتب يخبر كوكبوري أن الفرنجة كانوا يخططون إما للقيام بمعركة أو للبدء في تحرّك إلى بعض الأطراف، «وفي كلا القصدين إن شاء الله دمارهم المعجل... فإنا نعترضهم أينما واجهوا»[٣].

لم يقم الفرنجة، في الوقت الحاضر، بأي تحرّك. وفي فجر ١٩ جماد الثاني ١٤ تموز، تحرك صلاح الدين الذي كان ما يزال «حزيناً وقلقاً على خطط المستقبل»[٤]، عائداً إلى شفا عمرو. وقد روى مؤلف «التتمة» اللاتينية أن الفرنجة لم يكونوا متأكدين فيما إذا كان قد وافق على شروط الاستسلام أو لا، فأرسلوا إليه في يوم تحركه «ثلاثة نفر» ومعهم صاحب بهاء الدين قراقوش المأسور[٥]، وروى عماد الدين أنه عقد الآن اجتماع للمجلس الاستشاري تمت فيه الموافقة على قبول الشروط على أن يصار بعد ذلك إلى الاتفاق على التوقيت[٦]. ونقلت «التتمة» مدة أربعين يوماً كمهلة سمح بها في الأساس لدفع الفدية وإطلاق سراح السجناء[٧]، إلا أن عماد الدين كتب أن الفرنجة رغبوا في الحصول على نصف المبلغ المالي، وأن يطلق سراح السجناء ويعطى الصليب في نهاية ثلاثين يوماً تحسب من تاريخ الاستسلام، يتم بعد ذلك إعطاء مهلة شهر آخر لدفع النصف الثاني المتبقي من المال[٨]. وأرسل صلاح الدين مبعوثاً ليناقش هذا الأمر؛ وقد قال ابن شداد فيما بعد بأنه تمت الموافقة على جعل التسوية ثلاثة أقساط شهريّة[٩].
وقد سمح الآن للفرنجة بالذهاب إلى دمشق لتفحص سجنائهم ثم عادوا بأربعة من مميزي أسراهم في آخر جماد الأخر ٢٤ تموز. وفي ٨ رجب/ ٢ آب جاء رسولان من قبل ريتشارد وكردي من عكا، [ابن باريك] وخرّ المبعوثان ساجدين أمام الصليب. وقد أخبرا صلاح الدين أثناء مناقشتها تبادل الأسرى، أن عدداً منهم بما فيهم قراقوش قد أخذهم فيليب إلى صور. ورأى عماد الدين أن فيليب كان

قد غادر «بعد ما جرى الأمر على مراده»[١٠]، وقيل بأنه كان يخطط للعودة إلى الوطن تاركاً الدوق (دوق بورغنديا) يحل محله. فأرسل صلاح الدين مبعوثاً إلى صور مع هديّة، على أمل أن يكتشف حقيقة نواياه.

انشغل صلاح الدين الآن بجمع الأسرى وبتحصيل المال المطلوب. وفي ١٧ رجب/ ١١ آب ذكّره الفرنجة بأن مهلة الشهر الأول قد انقضت. والاستحقاقات، وفاقاً لابن شداد، كانت: الصليب، و ١٦٠٠ سجين، و ١٠٠,٠٠٠ دينار[١١]، كانت كلها قد جمعت باستثناء عدد من الأسرى سيختارهم الفرنجة الذين لم يكونوا بعد قد انتهوا من عملية إنتقائهم. وقامت عقبة حول مسألة كيفية التسلم والتسليم، وهي نقطة لم تكن قد ثبتت في الاتفاق الأصلي. فقد أراد صلاح الدين أن تحرر جميع الحامية مقابل ايفاء القسط الأول، وقدّم للفرنجة رهائن مقابل الـ: ١٠٠,٠٠٠ دينار المتبقية. واقترح، كبديل، أنه إذا فضلوا أن يحتفظوا بالحامية فعليهم أن يرسلوا رهائن من قبلهم. ويبدو أن ابن الأثير كان قد سمع بأن الفرنجة «إنما يطلقون غلمان العسكر والفقراء والأكراد ومن لا يؤبه لهم، ويمسكون عندهم الأمراء وأرباب الأموال ويطلبون الفداء منهم»[١٢]. وقال كل من ابن شداد وعماد الدين بأنهم رفضوا إطلاق سراح أي شخص على الإطلاق، مؤكدين على وجوب دفع ما استحق[١٣]. ورأت (التتمة) اللاتينية أن صلاح الدين كان قد أُنذر بأنه إذا لم يتم تحقيق هذا الأمر، فإن الأسرى سيقتلون[١٤].

وكان بإمكان الفرنجة الادعاء أن صلاح الدين كان يختلق المصاعب، في حين أن ابن شداد نقل «ما أخبر به عنه أهل ملته فيما بعد» قولهم انه لم يكن لديه أية «نية في تنفيذ الاتفاق»[١٥]. وكانت النتيجة المباشرة لذلك أن رفض صلاح الدين أن يفي بإلتزاماته. وفي ٢٧ رجب/ ٢٠ آب ارتكب ريتشارد مجزرة ذهب ضحيتها حوالي ٣٠٠٠ أسير مسلم ذبحوا في السهل بين تل العياضية وتل كيسان. وحين تفحص المسلمون قتلاهم وجدوا أن القادة المعروفين وأولئك الذين اعتبروا صالحين للعمل كخدم قد ابقي عليهم أحياء. وقد قرّر ابن شداد أنه في جعل عدم موافقة صلاح الدين على طريقة ريتشارد سوف يسترق الأسرى للقيام بأعمال السخرة بدلاً من أن يصار إلى قتلهم[١٦]. وكان الحرس الإسلامي المتقدمون قد شهدوا ما كان يجري، ولعل ريتشارد كان يأمل في إجبار

صلاح الدين على القيام بهجوم لا يكون في صالحه، إلا أن ما تلا ذلك لم يكن سوى مناوشات. وهناك تفسير آخر نقله المسلمون وهو أن ريتشارد لم يشأ أن يترك عدداً كبيراً من السجناء وراءه حين يريد أن يغادر عكا إلى عسقلان(١٧)، غير أن هذا التفسير سيكون ذا معنى فقط إذا كان ريتشارد يعتقد أن صلاح الدين كان يرمي إلى خداعه، وإلا فقد كان بإمكانه أن يتخلّص من الحامية ويأخذ المال والصليب والفرنجة الذين جرت مقايضتهم وذلك بقبول رهائن صلاح الدين. ولربما كان مبلغ ٢٠٠,٠٠٠ دينار، في حساب الفرنج، يساوي بالنسبة لصلاح الدين قيمة تفوق قيمة حياة ٣٠٠٠ رجل من ذوي الرتب المتدنية الصغيرة الشأن. كما أن الغضب الذي نشأ لدى المسلمين بسبب المجزرة قد يكون محسوباً بدقة لجهة تصلب عزمهم على القتال. وفي الواقع، يبدو أن الأثر الذي حصل في نفوسهم كان عكس ما كان متوقعاً، وليس من المعقول أن يكون صلاح الدين رغب في التضحية برجاله. أما التفسير الأقرب إلى المعقول فهو أن كلاً من الطرفين كان يرتاب أصلاً في الآخر. وقد عمد صلاح الدين الآن إلى الانتقام وفاقاً لقاعدة العين بالعين والسن بالسن، وذلك بقتل كل من يقع في قبضته أثناء القتال الذي نشب فيما بعد. إلا أن الكراهية لم تكن لدى أي من الطرفين قوية إلى درجة تحول دون إجراء مفاوضات فيما بعد. وفي يومي الجمعة والسبت في ٢٩ و ٣٠ رجب/ ٢٣ و ٢٤ آب شوهد الفرنجة يقومون باستعدادات للقيام بزحف ما. وسمع صلاح الدين بأنهم كانوا يخططون للتحرك نزولاً إلى الساحل بإتجاه عسقلان، فعقد مجلساً استشارياً. فالخط الساحلي حيث سيكون للفرنجة بحر من جانب وتلال رملية وأدغال من الجانب الآخر، لن يلائم التكتيك العادي للمعركة الإسلامية، إلا أن أميرين أرسلا ليستطلعا الأمر. وعادا بأنباء تفيد بوجود بعض الممرات الملائمة، فتقرر أن يصار إلى تعقب الجيش الفرنجي خلسة، ويقام بهجوم حيثما كان ذلك ممكناً.

وفي صباح يوم الأحد في أول شعبان/٢٥ آب(١٨) شوهد الفرنجة يوقدون ناراً، «وعادتهم أنهم إذا أرادوا الرحيل أشعلوا نيرانهم»(١٩). حمل النبأ إلى صلاح الدين، فأمر بأن ترسل الأمتعة الإسلامية. فجمعت المؤن والمخزونات على أمل توقع صيفٍ مستقر آخر. وكانت كمية من هذه المؤن قد تركت حيث هي بسبب النقص في دواب النقل. أما المؤن التي استطاعوا حملها فقد نقلت إلى تل قيمون وزحف الفرنجة الآن في ثلاث فرق، تحمل كل منها أمتعتها الخاصة بها.

وكان قسم من الجيش الإسلامي قد ذهب إلى تل قيمون؛ وبدا أن صلاح الدين نفسه كان يتحرك في خط موازٍ لخط زحف الفرنجة، وكان الفاضل على رأس فرقةٍ كان همها أن تزعج الفرنجة الزاحفين بالقيام بغارات متكررة عليهم. كان هنالك بعض القتال الضاري؛ وأرسل الأفضل خبراً مفاده أن مؤخرة الجيش الفرنجي كانت تسير في غير انتظام؛ وإذا ما عزّز بألف رجل فإن باستطاعته أن يقضي عليهم. فأرسل له صلاح الدين كل ما استطاع من الاحتياط، غير أن عماد الدين كتب يقول: «قيل للسلطان ما كنا ركبنا بنية المصاف في هذه المرحلة. والناس [معظم أفراد الجيش] قد سبقونا إلى المنزلة وهناك عنه قيسارية الحرب أمكن»[٢٠]. وفي أثناء ذلك عاد ريتشارد لتقديم العون. عندها ذهب صلاح الدين بصحبة ابن شداد «حتى أتى أوائل الرمل»[٢١]. وهناك وافته أنباء مفادها أن الذين كانوا متشردين بغير انتظام ـ أي الفرنسيين من جيش دوق بورغنديا ـ قد انضموا إلى الجيش واجتازوا نهر حيفا. «وليس للمسير خلفهم إلاّ أتعاب الخيل وضياع انتساب لا غير».

تحدد مرتفعات الكرمل التي تتاخم سهل عكا حافّة أنف التلال الريفية التي تمتد على مسافة ٣٥ ميلاً (٥٦ كلم) إلى الجنوب الشرقي باتجاه الشمال الغربي، فاصلة سهل عكا ووادي جزريل من سهل شارون في الجنوب (الخريطة ٢) وترسم الأرض المرتفعة التي تكون رأس الأنف شكل مثلث تقريباً. وكان على الفرنجة الموجودين في حيفا أن يسيروا حول قمة المثلث ثم نزولاً نحو ضلعه الجنوبي الغربي، بينما كان باستطاعة صلاح الدين أن يتحرك من تل قيمون بمحاذاة قاعدته عبر الممر الذي يتبع خط نهر توت، ثم يخرج في طليعتهم على الساحل. أرسل قافلة أمتعته عبر القسم الأول من هذا الممر؛ وبدلاً من السماح لها بالخروج قريباً جداً، بدا حينئذٍ أنه أمرها بالإلتفاف باتجاه الجنوب الشرقي عبر المنحدرات السهلة التي تفصل وادي التوت عن وادي الحديد. وتقدم العادل نحو وادي الحديد، في حين تُرِك علم الدين سليمان وحسام الدين بشارة في تل قيمون لحماية المؤخرة ضد أي تحرك مفاجيء من قبل الفرنجة بمحاذاة أطراف الكرمل الشمالية الشرقية. وأرسل عز الدين جرديك، كاحتراز إضافي، لمراقبة المعسكر، في حين تبع صلاح الدين نفسه قافلة الأمتعة، ثم إنطلق في عملية إستكشاف طويل.

لم يكن الفرنجة في عجلةٍ من أمرهم. أما صلاح الدين الذي كان قد

أرسل أمتعته جنوباً إلى مجدل يابا على بعد حوالي ١٣ ميلاً (٢١ كلم) شرقي يافا، فكان عليه أن يستعيدها ثانية بسبب أن الجيش كان يستنفد مؤونته. وقد قال أحد سجناء الفرنجة الذي كان يجري استجوابه بحضور ابن شداد أنهم كانوا ينتظرون قدوم أسطولهم الذي يحمل إليهم «الرجال والمؤنة». إن أسعار طعامهم ارتفعت بنسبة تعادل الثلث منذ اليوم الأول من زحفهم، وأنهم خسروا ٤٠٠ فرس في القتال[٢٢]. وأخبر صلاح الدين فيما بعد أن ريتشارد كان قد أغري للخروج من عكا بواسطة تقرير أفاد أن الجيش الإسلامي كان الآن صغيراً ومشرذماً وأن البدويين الذين حملوا إليه هذه المعلومات المغلوطة قد جرى إعدامهما. وقد كتب هو نفسه إلى كوكبوري يقول: «لقد رحلنا في عراضهم لاعتراضهم وتعتيرهم في طريق انتهاضهم»، ثم سأل: «وكيف لا يأخذ ذلك الكريم [كوكبوري نفسه] ثأر الإسلام»[٢٣].

قام الفرنجة بتنقل قصير يوم الأربعاء، وبقوا في المعسكر يوم الخميس، وفي يوم الجمعة ٦ شعبان/ ٣٠ آب تحركوا نزولاً إلى الساحل باتجاه قيسارية، التي سبق للمسلمين أن خرّبوها. فنصح عندها صلاح الدين بأن امتداد طريقهم هذا يشكل ميدان قتال ملائم، فألزم الآن فرق خيالته بالقيام بهجوم. وأورد ابن شداد أن الفرنجة كانوا ما يزالون يتحركون في ثلاثة أقسام، فكانت المقدمة بقيادة جوفري دو لوزينيان، والوسط (القلب) بقيادة ريتشارد، والمؤخرة بقيادة «أبناء سيدة طبرية»، في حين كان الأسطول مبحراً في خط مواز لهم[٢٤]. وكان الخيالة في كل قسم من أقسام الجيش محاطة بصفين من الجنود المشاة، واحد بينها وبين المسلمين، والثاني يسير بمحاذاة الشاطىء. وكان أفراد هذا الصف ينقلون الأمتعة والخيام بسبب عدم توافر حيوانات النقل لديهم. وقد دفع هذا بابن شداد إلى التعجب كيف أن الجنود الفرنجيين كانوا راغبين في تحمل العمل المرهق «من غير ديوان» أي بانتظام[٢٥]. وعلق بإعجاب على الضرر الذي أحدثته الأقواس والنشاب النارية، وعدم فعالية سهام المسلمين ضد مشاتهم. لقد رأى الفرنجة يسيرون غير مبالين وقد برزت أكثر من عشرة أسهم من عتادهم. ووصفهم عماد الدين في سيرتهم إلى الجنوب من قيسارية بأنهم «اشتبك النشاب فيهم فاشتبهوا بالقنافذ»[٢٦]. ولم يكن بمقدور صلاح الدين إعاقة سيرهم، فعسكروا يوم الجمعة مساء عند نهر الزرقاء على بعد ثلاثة أميال ونصف الميل (٦ كلم) إلى

الشمال من قيسارية وعلى مسافة نحو ٢٠ ميلاً (٣٢ كلم) من قنّةِ جبل الكرمل.

استمر صلاح الدين يوم السبت في المراقبة من على سلسلة التلال الكلسية التي تطل على قيسارية، غير أن الفرنجة بقوا في المعسكر. ثم قاموا يوم الأحد بمسيرة قصيرة لمسافة ٥ أميال (٨ كلم) مارّين بآثار المدينة إلى نهر المفجر. وشهد يوم الاثنين تكراراً لقتال مرير حين شقوا طريقهم عبر هجمات إسلامية عنيفة متجهين إلى نهر القصب. وعسكر المسلمون في أعلى النهر، ودفنوا هناك أيار الطويل أشهر مماليك صلاح الدين، وهو رجل قال عنه أمبرواز بأنه كان يحمل رمحاً يزن ضعفي وزن رماح الفرنجة، وبأنه كان من القوة والبأس بحيث لم يكن أحد يجرأ على مهاجمته(٢٧). وكان قد قتل، كما روى عماد الدين، حين سقط جواده، وكان غير قادر على النهوض بسبب ثقل درعه(٢٨). وقال صلاح الدين ان الفرنجة خسروا ألف جواد في هذه المعركة(٢٩).

تحرك صلاح الدين يوم الثلاثاء في ٩ شعبان/ ٣ أيلول إلى غابة أرسوف. وبقي الفرنجة في المعسكر قرب نهر القصب وذلك يومي الثلاثاء والأربعاء، ثم تحركوا يوم الخميس في ١١ شعبان/ ٥ أيلول، بعد أن جاءتهم تعزيزات من البحر، مسافة ٩ أميال أخرى (١٤ كلم) نزولاً نحو الساحل وتوقفوا قرب نهر الفالق. وقرر ريتشارد الآن اختبار معنويات المسلمين مرّة ثانية. فطلب من علم الدين سليمان الذي كان يقود القوّة المستتِرة، إحضار العادل لإجراء مفاوضات جديدة. ووافق صلاح الدين على ذلك بكل سرور وأخبر العادل بأن يماطل في المناقشات ويطيلها بقدر الإمكان بغية إعطاء التعزيزات التركمانية الوقت الكافي كي تصل. وفشلت الخطة. إذ أن ريتشارد خرج بصحبة هنفري صاحب تبنين وهو شاب حسن إلا أنه محلوق اللحية، كما وصفه ابن شداد(٣٠) ـ ليقوم بدور الترجمان، وكرر مطالبته بالساحل برمّته. وتجاهل العادل طلبه، «فأخشن له الجواب» فرفع الاجتماع. ويبدو أن هذا العمل أخذ صلاح الدين على حين غرّة. فحالما سمع بما حدث، أرسل أمتعته الثقيلة، «وسار الثقل الصغير حتى قارب الثقل الكبير»، فغير صلاح الدين حينئذٍ رأيه فأعادها ـ إما الأمتعة الحقيقة أو قافلة الأمتعة الثقيلة، وإما كليهما ـ. فوصلت إلى المعسكر عند الظلام «وتخبط الناس في تلك الليلة تخبطاً عظيماً». ولعله من حظ المسلمين، أن الفرنجة لم يتحركوا في اليوم التالي فكان لصلاح الدين الوقت الكافي لإعادة النظام وإعادة إرسال الأمتعة مرّة أخرى.

وفي يوم السبت ١٣ شعبان/٧ أيلول أحيط صلاح الدين علماً بأن الفرنجة كانوا متوجهين نحو أرسوف على بعد ٥ أميال (٨ كلم) إلى الجنوب من نهر الفالق. فقرر القيام بعمل عام، فحشد فرق خيالته، وأطلق مناوشيه. وكان الفرنجة يسيرون بمحاذاة شاطىء البحر في العراء الذي كان يؤدي إلى بساتين الفاكهة خارج أرسوف. كانت الأراضي الداخلية سلسلة من التلال وصفها ابن شداد بأنها رؤوس تلال [٣١]. ووراء هذه غابة أرسوف. وكان تشكيل الفرنجة تشتمل على فرسان الهيكل (الداوية) في المقدمة والاستبارية في المؤخرة، كما وصفه أمبرواز في تقريره الشهير حول المعركة[٣٢] ولكن لم يرد أي تفصيل ذي دلالة في المراجع الإسلامية. ويبدو أن صلاح الدين شكل المسلمين في خط متواز مع صفوف الفرنجة، مبقياً حرسه الخاص ليقوم بدور الاحتياط. وكان المناوشون قد بدأوا المعركة، ويعتقد أنهم كانوا ٢٠٠٠ من «الأتراك»[٣٣] مسلحين بالأقواس كما وصفهم أمبرواز. وحين أصبحت مقدمة جيش الفرنجة على مقربةٍ من البساتين، أطلق صلاح الدين الجزء الرئيسي من جيشه. وسار هو نفسه على متن جواده بمحاذاة صفه يحث رجاله على القتال. وكتب ابن شداد يقول: «لقد قابلته مرات عدّة ولم يكن برفقته سوى خادمين يقودان جوادين. وقابلت أيضاً أخاه [العادل] الذي كان في الحالة نفسها، وكانت السهام تمر قربهما معاً». لقد ازداد الضغط على الفرنجة، وأفاد امبرواز عن التماسات ملحّة أتت من الاسبتارية تطلب السماح لها بالهجوم، وذلك بسبب عدد الخيول التي كانوا يفقدونها. إلى ذلك لم يكن صلاح الدين يعمل بالحرص الذي تعود أن يعمل وفقاً له. فكان الإغراء بالتهور بادياً، غير أن الفرصة الوحيدة التي هزم فيها جيش الفرنجة أثناء زحفه كانت في حطين، حيث كان كل من الأرض والأعداد المتفوقة يعمل لمصلحته. أما هنا فلم يستطع تطويق الفرنجة بسبب البحر وكان بتضييقه الخناق عليهم حين كانوا متلاحمين صامدين، يعرّض نفسه لهجوم مضاد.

وحين وصل رئيس الطابور الفرنجي إلى البساتين ظن ابن شداد أن فرقة خياليهم أدركت أن الهجوم وحده هو الذي ينقذهم. وقد رأى أمبروار أن ريتشارد خطط لهجوم تقوم به كل فرقة في نفس الوقت. وعلى أثر التماس من الاسبتارية شق فارسان لم يستطيعا ضبط نفسيهما الصفوف ثم تبعهما الباقون. وزعم أمبرواز بأنه لولا هذا الانقضاض الذي تم قبل أوانه لتم تدمير المسلمين.

غير أن زعمه لم يؤكده ابن شدّاد. فقد كان بإمكان ابن شداد أن يرى من موقعه في قلب الجيش الإسلامي خيالة الفرنجة يحتشدون وسط فرق المشاة ويأخذون رماحهم. فالصورة التي أعطاها هي واحدة لهجوم متناسق ومنظم تنظيماً جيداً. إذ أن فرق المشاة قد تراصت في صفوف لتترك فجوات في صف الجيش. ثم صاح الخيالة «صيحة الرجل الواحد»، وانقضوا على فرق المسلمين الثلاث: القلب، والميمنة، والميسرة في آن واحد. فانشق القلب. وانطلق ابن شداد على جواده يلتمس ملاذاً في الميسرة فقوبل بمشهد هزيمتها المنكرة. فاستدار إلى الميمنة التي كان وضعها أشد خطراً. حينئذٍ عاد إلى حرس صلاح الدين الخاص حيث وجد صلاح الدين نفسه مع سبعة عشر رجلاً فقط. إذ أنه دفع بالباقي كله إلى المعركة. غير أن راياته كانت ما تزال ترفرف، وطبوله تقرع لتجميع الهاربين. وقد روى أن الأفضل والعادل وصارم الدين قايماز والموصليين بقيادة علاء الدين قد صمدوا في المعركة. ثم توقف الفرنجة بعد هجومهم الأول، خشية أن يقعوا في كمين. ثم عادوا إلى الهجوم مرتين أخريين، طاردين الجنود المسلمين إلى سلسلة التلال. وقد ذهب صلاح الدين نفسه إلى تل قرب حافة الغابة حيث حاول مرّة أخرى تجميع رجاله. وخشي الفرنجة أن يكونوا قد وقعوا في كمين بين الأشجار فلم يستمروا في المطاردة.

وروى امبرواز أن المسلمين عادوا بعد هزيمتهم إلى المهاجمة. وأخبر عماد الدين قراءه أنه لو لم يتمكن الفرنجة من اللجوء إلى أرسوف، لكانوا دمّروا تدميراً. ومع ذلك لم يكن صلاح الدين مأخوذاً بأي وهم حول هزيمته[٣٤]. واستطاع أن يقبل تناول طعام خفيف فقط، ورفض مواساة ابن شداد.

ليس هنالك إحصاءات دقيقة حول خسائر المسلمين، غير أن ابن شداد أفاد بأن عدداً من الرجال القياديين كانوا بين القتلى، وعدداً كبيراً من الجياد قد جرحوا. والأهم من ذلك كله كانت مضامين المعركة ومعناها بالنسبة لمستقبل الحرب. لقد ثبت في عكا أن المسلمين لم يستطيعوا دحر الفرنجة حين كانوا مخندقين. وقد اتضح الآن أنه من الخطر بمكان مهاجمتهم حين كانوا في حالة تنقل. وقد أصبح عسيراً رؤية ما يمكن لصلاح الدين أن يقوم به لتحرير نفسه من المشكلات التي تخلقها حرب طويلة، فرص النجاح فيها ضئيلة الأمر الذي جعل اتخاذ القرار عملاً

عسيراً. فإذا كان من الصعب عليه أن يربح المعركة، فيمكن للفرنجة أيضاً أن يخسروا. لقد سجلوا نجاحاً لا ريب فيه. غير أن هزيمة المسلمين كانت، في الواقع، أكثر بقليل من نسخة لتكتيكهم الاعتيادي المكلف وغير المسرف. فلم يسمح صلاح الدين لرجاله بمتسع من المكان ليمتصوا وطأة الهجوم الفرنجي، وبدلاً من آن يفكوا الطوق أو ينسحبوا بانتظام، وجدوا أنفسهم مجبرين على الركون إلى الفرار. ولم يتمكن الفرنجة، مع ذلك، أن يوقعوهم في الفخ، فاستطاع صلاح الدين أن يعيد تجميعهم بنجاح. وكان بإمكانه توقع التعزيزات. وقد مني الفرنجة، بدورهم، بخسائر، ولن يكون يسيراً عليهم استبدال المفقود من جيادهم. أضف إلى أن الحرب الطويلة تتطلب جهداً موحّداً. فالى أي حد كان المسلمون يعرفون عن الخصومات بين الفرنجية؟ الجواب على هذا السؤال غير واضح. فقد كان عماد الدين وابن شداد مهتمين فقط بالخصام بين ريتشارد وكونراد. وهنالك قلة تعيسة من الرسائل تغطي هذه الحقبة، غير أن صلاح الدين كان لا بد يأمل في أن يفوق ريتشارد في القدرة على البقاء. وكانت معنويات المسلمين متدنية، إلا أنه إذا قرر ريتشارد أن يعود إلى داخل البلاد وهو بدون عدد كاف من دواب النقل تحمل أمتعته، أو بدون طريق سالكة وآمنة، ثم يتحرك عبر تلال منطقة القدس حيث سيغامر بمائه ومؤنه، يمكن للطاولة أن تنقلب فوراً[٣٥].

حرص صلاح الدين على أن لا يبدي ضعفاً دون الالتفاف إلى فشله وخسائره. فقد قام في اليوم الذي تلا المعركة باستعراض قبالة معسكر الفرنجة. وحين انتقل الفرنجة من أرسوف الواقعة على مسافة ٨ أميال (١٣ كلم) إلى الجنوب من نهر العوجاء، وذلك يوم الاثنين في ١٦ شعبان/ ٩ أيلول عمد إلى تحديهم بواسطة مناوشيه. وروى امبرواز أن علم الدين قيصر وثلاثين أميرا يرئس كل منهم ٥٠٠ من الأتراك من «الجنس الشديد القدرة على الاحتمال»[٣٦]، طلبوا إلى صلاح الدين السماح لهم بالقيام بهجوم[٣٧]. وروى ابن شداد أن صلاح الدين كان يأمل في أن يقوم الفرنجة بهجوم آخر بحيث «يعطي الله النصر لمن يشاء»[٣٨]. ومع ذلك لم يكن الفرنجة ليستميلهم الإغراء، ولم يكونوا خصوصاً مستعدين للعودة إلى داخل البلاد حيث يمكن أن يجري تطويقهم. ويبدو ابن شداد أنه يوضح أنهم كانوا ما يزالون يتبعون خط الشاطىء حيث قال إن بعضهم اجتاز العوجاء والبعض الآخر بقي في «الجانب الشرقي»[٣٩]، الأمر الذي يوحي بأنهم كانوا يسيرون عند

عقدته الشمالية الجنوبية الأخيرة حيث يتصل بالبحر.

في هذه النقطة كان ريتشارد على مسافة ما يقارب ٣ أميال (٥ كلم) من يافا نفسها. واستعد صلاح الدين الآن إلى أن ينسحب، فأرسل الجمال التي تحمل أمتعته إلى الرملة في ليلة ١٦ ـ ١٧ شعبان/ ٩ ـ ١٠ أيلول، ثم تبعها هو نفسه في اليوم التالي. وكان يحاول أن يضع أفضل التفسيرات الممكنة لمعركته الطويلة، فأخبر زنكي صاحب سينجار أن الفرنجة أمضوا سبعة عشر يوماً في رحلة تحتاج إلى يومين فقط[٤٠]. ثم شرح للخليفة أن الطريق التي سلكوها بمحاذاة شاطىء البحر «كلها مضائق وأجم ورمال، ومواقع لا يتسع فيها مجال ولا يتهيأ قتال» ـ «وكلما وجدنا فسحة ضايقناهم»؛ وقد قام الأفضل «وقطع آخرهم عن أولهم»؛ وكانوا قد فقدوا ١٠٠٠ جواد في القتال قرب قيسارية. وقتل منهم «كونت» كبيراً يعرف باسم سير جاك (جاك دافسن) في أرسوف، مما أحزن ملك أنكلترا[٤١].

وكان صلاح الدين قد أنذر في وقت مبكر أن الفرنجة كانوا يتوجهون إلى عسقلان. فعقد الآن مجلساً حربياً، حيث بين فيه علم الدين سليمان، وفقاً لرواية عماد الدين، أن ريتشارد عندما يبلغ يافا يكون على مسافة متساوية بين القدس وعسقلان؛ وكل منهما يحتاج إلى حامية من ٢٠,٠٠٠ رجل؛ وليس باستطاعة المسلمين أن يحتفظوا بهما كليهما. فإذا ما استولى الفرنجة على عسقلان سليمة، فإنهم سيحصنونها ويستخدمونها قاعدة لهجمات تالية؛ وسوف يجعلها موقعها على الطريق الساحلي المؤدي إلى مصر مضاعفة الخطر. وفي ضوء هذا كله اقترح على صلاح الدين ناصحاً بأن يخرّبها[٤٢]. وقد افترضت حجته مسبّقاً أن المسلمين كانوا عازمين على استخدام حاميات ثابتة من أجل الدفاع عن الساحل بدلاً من الاعتماد على جيش ميداني. ومن الواضح أن صلاح الدين نفسه لم يعد يأمل في دحر ريتشارد أثناء التنقل. ورأى ابن شداد أنه أدرك أن المسلمين سيكونون عاجزين عن الاحتفاظ بعسقلان «لقرب عهدهم من عكا، وما جرى على من كان مقيماً بها»[٤٣]، وأدخرت «القوة في عسكر الإسلام لحفظ القدس المحروس». وقرر بنتيجة ذلك أن يذهب إلى عسقلان بنفسه ليشهد تفكيك تحصيناتها، في حين بقي العادل مع عشرة من الأمراء يحرسون يافا.

وحين اتخذ القرار كان من المهم أن يجري مسبّقاً إحباط أي تحرّك فرنجي

معاكس. ووصل صلاح الدين إلى عسقلان بعد مسيرة ليلة كاملة، وكان ذلك يوم الأربعاء في ١٨ شعبان/ ١١ أيلول. وكان مهموماً بسبب خرابها وقال لابن شداد: «والله لأن أفقد أولادي كلهم أحب إليّ من أن أهدم فيها حجراً واحداً»(٤٤). وكتب عماد الدين عن عسقلان يقول: «ما رأيت أحسن منها ولا أحصن»(٤٥). وران على قلوب أهل المدينة أسى كبير حين أجبروا على الرحيل عنها. وكان بالإمكان فقط استئجار وسائل النقل إلى مصر وسورية بأسعار خيالية. وما كان غير ممكن نقله كان يباع بأسعار زهيدة. وفتحت اهراءات القمح لأنه كان يستحيل نقل الحبوب. وعلى مستوى أكثر تواضعاً كانت دزينة الفراخ تباع بدرهم واحد فقط. كتب ابن شداد قائلاً: «جرى أمور عظيمة وفتنة هائلة»(٤٦).

جاء في كتاب يوميات ريتشارد الأول أن جوفري دو لوزينيان كان قد أرسل بطريق البحر لتحري ما كان يجري، وأن ريتشارد حاول آنئذٍ بدون طائل أن يجعل حلفاءه يتحركون باتجاه الجنوب(٤٧). وسمع ابن الأثير أن كونراد كان قد أرسل إليه كتاب تأنيب يقول فيه: «لو أنني معك كانت عسقلان بأيدينا لم يخرب منها غير برج واحد»(٤٨). وفي الواقع، فقد تحرّك صلاح الدين مع ذلك، بسرعة فائقة إلى درجة أنه لم يتبق لريتشارد سوى قليل من الوقت كي يقوم بالاستكشاف ويتحرك معاً قبل أن يحصل ضرر كبير. وفي ٢٠ شعبان/ ١٣ أيلول أرسل العادل نبأ بأن الفرنجة لم يعلموا بما كان يجري، وفي نفس اليوم أضرمت النيران في عسقلان. وفي ٢١ شعبان/ ١٤ أيلول خرج صلاح الدين ليتفحص العمل، ولكن «تعكر مزاجه»(٤٩) ولم يستطع أن يأكل أو يمتطي صهوة جواده لمدة يومين. ونقلت بعد ذلك الأمتعة إلى المدينة ليعاونوا «الغلمان والحمالين» في نقلها. وحين سار صلاح الدين باتجاه الشمال مرّة أخرى في أول رمضان/ ٢٣ أيلول، كان الجزء الأكبر من السور قد دمّر. وقد أبقى البناؤون بحراسة فرقة من الخيالة ليكملوا الهدم تحت إشراف وأوامر الأفضل.

كانت الطريق من يافا إلى القدس تمر عبر السهل قرب الرملة، ثم تمر بتلال منطقة القدس قرب اللطرون. وفي الوقت الذي كان فيه صلاح الدين في عسقلان، كان ريشارد قد شرع في تحصين يافا لاستخدامها قاعدة له. وكانت ردود فعل صلاح الدين العسكرية دائماً ردوداً تقليدية مألوفة. وبمثل هذا التحرك

استطاع ريتشارد أن يعتمد على جعله يقوم بمهمة الحارس على طريق القدس خلال ما تبقى من فصل الخريف. فلم تكن مفاجأة، إذن، أن نجد أن صلاح الدين قد ذهب عند عودته من عسقلان إلى الرملة حيث أصدر أوامره بأن يبدأ العمل في تهديم القلعة. وسمح لرجاله بالاستيلاء على محتويات إهراءات الدولة في الرملة واللد. وأمر في أن تهدم كنيسة القديس جرجس اللد. وكان في القدس نفسها مشكلات، إذ كتب واليها الرسائل يشكو فيها من النقص في الرجال والعتاد. وقيل إن هذه الرسائل سرقت من قبل المسيحيين الشرقيين الذين اكتشفوا وهم يهربونها إلى الفرنجة. وغادر صلاح الدين الآن في زيارة تفتيشية خاطفة. وفي ٨ رمضان/٣٠ أيلول عاد فانضم إلى جيشه ليجد أن أحد أبناء قلج ـ أرسلان، وهو قيصر شاه من ملطية، قد وصل يطلب عوناً ضد والده وإخوته، وأخبر صلاح الدين بأن جنوده كانوا أوشكوا القبض على ريتشارد في اليوم السابق. وروى أمبرواز بأن ريتشارد كان قد ترجل عن حصانه حين كان يقوم بجولة في السهل ثم غلبه النعاس بعد ذلك فنام[٥٠]. غير أن ابن شداد وعماد الدين رويا بأنه كان قد هب لنجدة النهابين الذين كانوا قد وقعوا في كمين نصبه لهم الحرس الإسلامي المتقدّم[٥١]. وكان في شدّة حين صرخ أحد مرافقيه وليم دو براتيل مبدياً في حينه إتقاناً للغة العربية، أنه هو نفسه كان الملك. فألقي القبض، نتيجة لذلك، على وليم ونجا ريتشارد.

وربما كان التهور من جانب ريتشارد قد أمال الميزان. أمّا غير ذلك فلم يكن هنالك سوى القليل لتشجيع صلاح الدين. وقد دون الفاضل الذي كان قد عاد إلى مصر: «وفي البلد من النعي ومن المعاطي ومن الجهر بها، ومن الفسق بالزنا واللواط، ومن شهادة الزور ومن مظاهر الأمراء والفقهاء ومن استحلال الفطر في نهار رمضان وشرب الخمر في ليله، ممن يقع عليه اسم الإسلام، ومن عدم التكبير على ذلك». وقبض على جماعة في حارة الروم في قاعة في رمضان، وفيهم مسلمين ونصارى يشربون الخمر[٥٢]. وكانت خلفية الوضع العسكري مبعثاً للحزن والأسر بطريقة مماثلة. وكتب صلاح الدين يخبر الخليفة بأنه لما لم يكن قد أخذ الجيش أي فترة راحة من الحرب خلال أربع سنوات كاملة، فإن معنوياته قد هبطت؛ وأصبح من العسير الحصول على جياد الآن لكثرة الاصابات التي نزلت بهم؛ وقد أصبح العتاد مفقوداً، وصانعو الدروع يعملون ساعات عمل إضافية في مصر وسوريا. ثم أضاف: «هذا والخادم قائم بهذا الغرض وحده، وما استمر

على مساعدته إلا صاحبا الموصل وسينجار»[٥٣].

ليس بمستغرب، بسبب هذه الشدائد، أن تصبح محادثات السلام أمراً هاماً. فحين كان صلاح الدين في عسقلان كتب إليه العادل يخبره أن هنفري صاحب تبنين كان قد عاد ثانية لمناقشة شروط اتفاقية السلام. وكان الفرنجة ما يزالون يطالبون بالساحل كله، إلا أن صلاح الدين كان يائساً بقدر يكفي للنظر فيما إذا كان هنالك بعض ما يدعو إلى التفاوض. ولم يحصل أي تقدم مباشر، ذلك لأن العادل أرسل في ١٧رمضان/ ٨ تشرين الأول «الخبر السار» بأن فيليب قد مات وأن ريتشارد قد عاد إلى عكا[٥٤]. وبعد إنقضاء خمسة أيام وصلت، مع ذلك، خمس سفن فرنجية إلى يافا تحمل على متنها، كما قيل آنذاك، ريتشارد ذاته وقوة عسكرية ضخمة كان الفرنجة قد خططوا للزحف بها إمّا على عسقلان أو القدس. وفي ٢٥ رمضان/ ١٧ تشرين الأول التقى ريتشارد كاتب العادل، الصنيعة، وأعطاه رسالة سلمها العادل بعدئذٍ إلى صلاح الدين. وقد أوضح فيها ريتشارد أن البلاد قد دمّرت، وأن الفريقين تكبدا الخسائر. وطلب بأن تكون القدس مكاناً مسيحيّاً مقدّساً، وطالب بجميع الأراضي الواقعة غربي الأردن، بالإضافة إلى إعادة الصليب. وأجاب صلاح الدين بأن القدس كان مكاناً مقدساً للمسلمين - «وهو عندنا أعظم مما هو عندكم»[٥٥]. والبلاد بلادنا وأن تسليمها لا يمكن حتى النقاش فيه؛ فالمسلمون كانوا يجنون المحاصل والغلات من أراضيهم في حين أن الفرنجة لم يستطيعوا «عمارة حجر واحد منها» في الأراضي التي استولوا عليها؛ ويمكن إعادة الصليب فقط مقابل شيء تكون له قيمة أعظم في نظر المسلمين.

وكان كل من صلاح الدين وريتشارد يرى أن قضية «المحاصيل والغلات» قضية قابلة للمناقشة. فقد كان صلاح الدين قد خسر لتوّه مخازن الحبوب في ثلاث مدن. وكان أحد أمرائه قد فر من عكا بتسلقه نافذة المرحاض في احدى الثكنات العسكرية وأتى بخبر غير سار مفاده أن فلاحي الجبل القريب كانوا يمدون ريتشارد «بالمؤن مداً عظيماً»[٥٦]. ومع ذلك لم يكن ريتشارد في موقع قوي بما يكفي ليمارس ضغطاً شديداً، وقد قدم الآن أشد العروض تخيّلاً وهو أن على العادل أن يتزوج شقيقته حنة، أرملة وليم صاحب صقلية[٥٧] وسيعطيها كل ما يملك على الساحل، على أن يفعل صلاح الدين الشيء نفسه للعادل. وبعد ذلك يعيش العادل مع حنة في القدس حيث لا توجد حامية فرنجيّة بل «رهبان ونسّاك» فقط.

ويعطى فرسان الداوية والاستبارية قرى وليس قلاع؛ ويعاد الصليب إلى الفرنجة؛ ويطلق سراح السجناء لدى كلا الطرفين وتكوّن المملكة الجديدة جزءاً من ملكيات صلاح الدين. فعقد العادل اجتماعاً لمستشاريه بما فيهم عماد الدين وابن شداد. وتمت الموافقة على أن يقدّم العرض إلى صلاح الدين، على أن يقوم ابن شداد بدور الناطق الرسمي باسم المجتمعين. وكان عليه أن يقول انه إذا وافق صلاح الدين سيشهدون عليه بالاذن، أما إذا رفض صلاح الدين العرض، فعلى ابن شداد ورفقائه أن يشهدوا: «وأن الحال في الصلح قد انتهى إلى هذه الغاية الأخيرة وبأنه هو [صلاح الدين] الذي رأى ابطاله». وحين تم اللقاء مع صلاح الدين كرر ابن شداد الرضا ثلاث مرات وفي كل مرة كان صلاح الدين «يصرح ويشهد على نفسه بالرضا». وفي الواقع، وكما أورد ذلك ابن شداد، كان صلاح الدين يعتقد بأنها كانت مجرّد خدعة وأن ريتشارد لن يفي بما وعد؛ غير أن عماد الدين كتب يقول: «ظننّا أن هذا أمر قد تم»[٥٨]. وفي ٢ شوال/٢٢ تشرين الأول أرسل مبعوث من قبل كل من صلاح الدين والعادل إلى الفرنجة. فقوبل بنبأ أن حنة كانت الآن قد رفضت لعب ذلك الدور، كما أورد ذلك عماد الدين، بسبب الاحتجاجات التي صدرت عن قادة الفرنجة الآخرين، وأن ريتشارد كان يحاول إنقاذ فكرته بالايحاء بأن العادل سيصبح نصرانياً. وقد ألغيت قضيتا تبادل الأسرى وإعادة الصليب. غير أن ابن شداد كتب يقول: «وترك باب الظلام مفتوحاً»[٥٩].

وبعد توقف المحادثات أُنذر صلاح الدين بواسطة اثنان من المستأمنين بأن الفرنجة كانوا يخططون للزحف على الرملة. أما هو فقد سبق له أن انسحب إلى اللطرون وذلك لأن الفرنجة كانوا قد اقتربوا منه كثيراً فأزعجوه، وكان رجاله غير قادرين على تأمين الرعي لجيادهم بحريّة. أما الآن فقد عاد إلى ترتيب الوحدات القتالية استعداداً للمعركة. وأما الفرنجة فقد انصرفوا الآن إلى يازور حيث تعود مماليكه أن يهاجموا معسكرهم، «لأنهم بقتالهم وثقتهم بمراكيبهم وعددهم»[٦٠]. وكما حصل في معركة الليطاني، تقدّم المتطوعون غير المجرّبين إلى مسافة قريبة جداً من الفرنجة فإنقض عليهم هؤلاء وقتلوهم. وفي ١١ شوال أول/ تشرين الثاني، طلب صلاح الدين إلى ابن شداد أن يحضر العادل، وعلم الدين سليمان، وسابق الدين عثمان، وابن ابن المقدّم. وحين وصلوا

اخليت الخيمة من كل شخص آخر. وروى ابن شداد أن صلاح الدين أخرج رسالةً وشرع يبكي «حتى وافقناه نحن في البكاء من غير أن نعلم السبب ما هو»[٦١]. لقد كانت الكارثة الجديدة هي موت تقي الدين، الذي جاء نعيه بعد ذلك في اليوم التالي لوصول رسالة غاضبة من الخليفة الذي يشكو من مهاجمته لبكتمور صاحب خلاط.

وكان من الواضح أن صلاح الدين لن يلقى تشجيعاً ناهيك عن الدعم والعون، يأتيانه من بغداد، إلا أن الفرنجة أنفسهم كانوا قد قدّموا له الفرصة الملائمة. ففي رمضان/أوائل شهر تشرين الأول كان قد بعث رسولاً إلى صور حيث كان كونراد يعلن عن فرص المقايضة بخصام علني مع ريتشارد لقاء حصوله على صيدا وبيروت. ووصل ريجنولد من صيدا إلى معسكر صلاح الدين في ١٥ شوال ٥ تشرين الأول للقيام بالتفاوض لحساب كونراد. وبعد إنقضاء ثلاثة أيام عقد ريتشارد والعادل اجتماعاً آخر حيث استمرت محادثاتهما طوال معظم النهار، وافترقا بعدها على وفاقٍ ودّي. وقد طلب ريتشارد مرة ثانية أن يقابل صلاح الدين، وأجاب صلاح الدين مرّة أخرى بأن تسويةً ما يجب أن تتم أولاً. وفي ١٩ شوال/ ٩ تشرين الثاني استضاف صلاح الدين ريجنولد الذي أخبره بأن عددا من قادة الفرنجة كانوا يدعمون كونراد. فشدّد صلاح الدين على أن أية صفقة ستعقد بينهما ستعتمد على إظهار كونراد «عداوته للفرنج البحرية»[٦٢]. وجاء في الليلة نفسها هنفري صاحب تبنين كرسول من قبل ريتشارد. وتنص رسالة ريتشارد، كما نقلها ابن شداد على ما يلي:

«إنني أحب صداقتك ومودتك، وأنت قد ذكرت أنك أعطيت هذه البلاد الساحلية لأخيك، فأريد أن تكون حكماً بيني وبينه، ولا بد أن يكون لنا علقة بالقدس الشريف، ومقصودي أن تقسم البلاد بحيث لا يكون عليه لوم من المسلمين، ونقسم البلاد بيني وبينه، ولا علي لوم من الافرنجية».

وفي ٢١ شوال/ ١١ تشرين الثاني عقد صلاح الدين اجتماعاً استشارياً شرح فيه التحالف المحتمل مع كونراد، المبني على إعطائه صيدا[٦٣] مقابل الحصول على دعمه ومساندته ضد الفرنج، كما شرح الشروط التي اقترحها ريتشارد والتي تعطي المسلمين جميع القرى الجبلية وتعطي الفرنجة بعض القرى الساحليّة المعينة، وإلا فكل شيء يبقى مشتركاً. وفي كلا الحالتين يحتفظ الفرنجة بالكنائس

والرهبان في مدينة القدس. وكان رأي الأمراء أنه لما كان إخلاص الفرنجة عرضة للشك، وإذا كان لا بد من إقامة السلام فيجب أن تعقد إتفاقية هذا السلام مع ريتشارد. وقد نقل أمبرواز عن العادل اقتراحه بالتعجيل بذلك «لأنه ليس في النصرانية أفضل من ريتشارد»(٦٤)، غير أنه من وجهة النظر الإسلامية فإن له أيضاً سحراً وإغراء بأن يبقى بعيداً. وجرى تبادل رسائل جاء فيها إعادة النظر بقضية الزواج من حنّة. فقد قال ريتشارد إنه بسبب عدم موافقة الفرنجة على هذا الزواج، عليه أن يطلب إذناً من البابا، فإن لم يوافق، فإنه سيقدم بنت أخته. فأجاب صلاح الدين بأنه إذا وافق البابا على زواج حنة فمن الممكن عقد اتفاقية سلام، غير أن بنت أخت ريتشارد لم يناقش موضوعها سابقاً ولا يمكن أخذ هذا الأمر بعين الاعتبار الآن. وكتب ابن شداد يقول كان غرضه، أن «يفسح قاعدة الصلح». ونقل عنه قوله أنه كان يخشى غدر الفرنجة إذا ما عقدت اتفاقية السلام: «فإني لو حدث لي حادث الموت ما تكاد تجتمع هذه العساكر، ويقوى الفرنج. والمصلحة ألاّ نزال على الجهاد حتى نخرجهم من الساحل أو يأتينا الموت»(٦٥).

وأخبر ريتشارد صلاح الدين بأن مدة الثلاثة أشهر ستنقضي قبل توقع أي جواب من البابا. وفي تلك الأثناء لم يقم صلاح الدين بأي تحرّك لفرض معركة. وفي ٢٧ شوال/ ١٧ تشرين الثاني انسحب إلى اللطرون تاركاً الفرنجة يتقدمون إلى الرملة. وفي رأي عماد الدين، أن الاعتقاد كان أكيداً بأنهم قد عزموا الآن على أن يزحفوا على القدس، فكانت دوريات قتالية تنطلق كل يوم(٦٦). ثم صحا الطقس، فتحرك صلاح الدين في ١٢ كانون الأول باتجاه القدس، تاركاً حرسه المتقدم على حافة السهل في بيت نوبا، على بعد ثلاثة أميال ونصف الميل (٦ كلم) إلى الشرق ـ الشمالي ـ الشرقي من اللطرون. وكتب من القدس يقول بأن جيشه كان تعباً، وأن المدينة في حاجة إلى رجال ومؤن، وأنه «إن لم يتساعدوا في الربيع القابل، فإنه صعب الأمر وامتد، واحتدم الخطب واحتد»(٦٧). وتبدو هذه الجملة الأخيرة وكأنها تثبت أنه لم يكن يتوقع هجوماً جدياً في هذه المرحلة. وفي الحقيقة، كانت الوحول، والأمطار، والثلوج تجعل التحرك أمراً شاقاً. وقد كتب امبرواز يتحدث عن «أمطار غزيرة وعواصف هوجاء»(٦٨)، وشكا من انهيار الخيام تحت وطأة وابل البرد، كما شكا من فقدان الجياد والمؤن. وكان صلاح الدين أثناء ذلك قد استمر في الضغط على خطوط الفرنجة. وكتب عماد الدين أنه بينما كان

الفرنجة في اللطرون عمد المسلمون «إلى قطع الطريق على تجارهم»[٦٩]. وقام سابق الدين عثمان بهجوم في ١٠ ذي الحجة/ ٢٩ كانون الأول. وفي ١٥ ذي الحجة/٣ كانون الثاني قام سيف الدين يازكوج وعلم الدين قيصر بغارات حول الرملة. وكان صلاح الدين نفسه يقوي تحصينات القدس. وفي ٣ ذي الحجة/ ٢٢ كانون الأول عززت القدس بوصول الجنود المصريين بقيادة أبو الهيجاء السمين. وقد كانت الاغراءات للفرنجة بأن يتجاهلوا الصعاب ويخاطروا بزحف عبر الجبال إغراءات عظيمة. فقد علق عماد الدين على العجائز اللواتي كن يصرخن بالفرنجة أثناء القتال قائلات ان قبر معبودهم تحت استيلاء الأعداء[٧٠]. وقد نقل البابا غريغوري في رسالته التي دعا بها المسيحية إلى الحرب عن داود النبي صاحب المزامير، قوله: «يا رب، لقد جاء الوثنيون إلى ميراثك؛ فدنسوا هيكلك المقدس، وجعلوا القدس ركاماً»[٧١]. كانت القدس نقطة الانفعال والهدف الواقعي للحملات الصليبية. إلى ذلك، يمكننا أن نجادل وبحق أن قدراً كبيراً من مكانة صلاح الدين كان مرتبطاً بالقدس إلى درجة أنه قد يرى نفسه مضطراً إلى أن يحارب ولو في ظروف غير ملائمة على أن يتخلى عن القدس. وقد رأت المصادر الغربية أن فرسان الدواية والاسبتارية وسائر الذين كتبت لهم الحياة من المملكة اللاتينية هم الذين كانوا يجادلون ضد القيام بأي تقدّم[٧٢]. وقد انتقد ريتشارد بسبب الإصغاء إلى نصائحهم، غير أنه كان يعلم حق العلم إلى أي حد كانت الأرجحية في صالح الجانب الذي يقوم بالدفاع؛ هذا فضلاً عن الصعوبات في تأمين المؤن والمواصلات. وقد روى ابن الأثير حكايته حين طلب خريطة للمدينة فأخبر أنها محاطة بوديان عميقة «ما عدا موضعاً يسيراً من جهة الشمال»، فقال بأنها لن تؤخذ «طالما كان صلاح الدين حياً، وكلمة المسلمين مجتمعة»[٧٣]. وبنتيجة ذلك تقهقر الفرنجة من اللطرون إلى الرملة. ورأى عماد الدين أنهم «انتشروا حتى الساحل» في ٢٨ ذي الحجة/ ١٦ كانون الثاني. وفي ٢ محرم/ ٢٠ كانون الثاني زحف ريتشارد على عسقلان.

لم يكن صلاح الدين ينوي في أن يكون المهاجم، فسمح لجنوده بالتفرّق على أن يعودوا إلى التجمع في أيار[٧٤]؛ هكذا سمع أمبرواز. وقد توسع هذا الأخير في اليوميات التي تشير إلى أن رجاله «حبلوا بغضب مرير» ضده لأنه فشل في الايفاء بوعده بإنقاذ أسرى عكا «فتركوا جيشه لمدة من الزمن متأوهين ومتفجعين»[٧٥].

لا شك أن صلاح الدين قد أخضع الفرنجة إلى إجهاد متواصل. فبدّل الآن، طوعياً أو كراهية، من أسلوب تكتيكه. وقد بقي منذ بدء حصار عكا في احتكاك مباشر مع جيش الفرنجة. ومع أن هذا العمل قد عاد عليه ببعض النجاح في المعارك التي خاضها في سهل عكا، إلا أنه أثبت على المدى الطويل بأنه عمل فاشل. أما الآن فقد انتظر لمدة تزيد على ستة أشهر خلف أسوار القدس متحدياً ريتشارد أن يهاجمه. وبدلاً أن يكون جيشه مجمّعاً كقوة ضاربة، كان منتشراً شمال القدس وجنوبها على طول وادي الأردن، ونحو الجنوب إلى الحدود المصرية. أما في مصر نفسها فقد أصدر أوامره لإتخاذ جانب الحذر والحيطة. وفي شهر صفر من العام ٥٨٨ للهجرة (١٧ شباط - ١٦ آذار ١٢٩٢ وفقاً لما رواه المقريزي)، أخليت تنيس ودمياط من النساء والأطفال، وصدرت الأوامر بأن تقطع الأشجار في دمياط - لئلا تستخدم في بناء آتلات العدو الحصارية - وبأن تحفر الخنادق(٧٦).

ومع أن استراتيجيته كانت في الأساس دفاعية، إلا أنه كان ما يزال مهتماً في تسجيل بعض النقاط التكتيكية وذلك بالسماح لرجاله بمهاجمة خطوط المواصلات الفرنجية. ففي ١١ محرم/ ٢٨ كانون الثاني أغار عز الدين جرديك على يُبنى الواقعة على مسافة ١٣ ميلاً (٢١ كلم) إلى الجنوب من يافا. وفي ٢ صفر/ ١٨ شباط أخذ جنوداً من القدس وهاجم ضواحي عسقلان. وفي ١٤ صفر/ أول آذار تحرّك فارس الدين ميمون عبر تل الجزر وأغار على يبنى ثم على يافا. أما على الجبهة الفرنجية فقد فاجأ ريتشارد، الذي كان قد قرر إعادة بناء عسقلان، سيف الدين يازكوج وعلم الدين قيصر اللذين كانا يعسكران في الجوار وهزمهما. وكان صلاح الدين نفسه يسكن أثناء ذلك في «بيت الاقساء (الرهبان) جوار قمامه (القيامة)(٧٧)، ويشرف على أعمال تحصين القدس. وقد استخدم ألفين من أسرى الفرنجة في الأعمال الكادحة، كما أرسل عز الدين من الموصل خمسين بناء ليساعدوا في العمل. وتركزت الجهود على الممر الشمالي السريع العطب حيث خُطّط لبناء خندق جديد عميق»(٧٨). وشيدت أبراج جديدة من بوابة دمشق في الشمال حتى بوابة يافا في الغرب. وقام العادل وأبناء صلاح الدين بقسطهم من العمل، وكان صلاح الدين نفسه ينقل الحجارة على قربوس سرجه، يساعده في ذلك جمهور خليط من أتباع المعسكر وأعيان القدس.

وفي صفر/ شباط ١١٩٢ عاد ريتشارد إلى عكا، وأرسل من هناك رسولاً يطلب

مقابلة أخرى مع العادل. ورأى صلاح الدين أنه من المجدي أن يمضي العادل «بحيث يجتمع بعساكرنا التي في الغور، وكوكب وتلك النواحي»[٧٩]. وكان على العادل أن يعلم ريتشارد أن المحادثات كانت قد طالت بدون أية نتيجة، وإذا لم يكن هنالك بعض الأسباب للاعتقاد بأن الأمور ستكون مختلفة الآن، فليس من داع لعقد أي اجتماع. أضف إلى ذلك أن تعليمات العادل الخاصة كانت ترمي إلى تسوية الأمور إذا استطاع إلى ذلك سبيلاً؛ وإلا فعليه أن يطيل المحادثات إلى أن يعود الجنود في أواخر الربيع. وكان قد زوّد بمفكرة تحتوي على شروط التسوية، التي شملت لأول مرة إشارة إلى السماح لريتشارد بأخذ بيروت إذا ما ألح على ذلك شرط أن تبقى بدون تحصين؛ وأن يجري التخلي عن الصليب، وأن يسمح للفرنجة في أن يكون لهم راهب وحقوق الحج إلى القدس، شريطة أن لا يحملوا أي سلاح. ولم يعد يرد أي حديث عن زواج حنّة. وفي ٤ ربيع الأول/ ٢٠ آذار غادر العادل مدينة القدس، وبعث برسالة من بيسان يقول فيها إنه قابل همفري صاحب تبنين. وقد أراد ريتشارد تقسيماً متساوياً للأراضي؛ فإذا كان الفرنجة يحتلون مساحة من الساحل أكثر من المساحات التي بيد المسلمين فيجب أن تتساوى قسمة الساحل بالتساوي. والعكس بالعكس؛ ويجب أن تعطى القدس إلى الفرنجة، ويعطي جامع الصخرة للمسلمين.

وقيل للعادل بأنه يستطيع أن يقبل هذه العروض من الناحية المبدئية. ولكنه أرسل حينئذٍ كتاباً إلى صلاح الدين يقول فيه إنه قرر أن لا يقابل ريتشارد بنفسه إلى أن تكون مسألة التفاصيل قد حلّت. وقال أيضاً بأنه جرت مباحثات إضافية حول مسألة القدس تمت فيها موافقة ريتشارد على أن يأخذ المسلمون الصخرة والقلعة في حين تبقى سائر أقسام المدينة وقراها مشتركة؛ على أن لا يبقى هناك فيها أي «مقدم مذكور»[٨٠]. وفي أول نيسان عاد العادل نفسه إلى القدس ليقدم تقريراً عمّا حصل.

انقطعت المحادثات في هذه المرحلة مرة أخرى بسبب الخصومات. فعلى أثر وفاة تقي الدين أظهر ولده ناصر الدين العصيان، وهو يبلغ من العمر احدى وعشرين سنة والذي خشي أن يحرمه صلاح الدين من إقطاعات والده من شرقي الفرات، الأمر الذي دعا إلى الظن بأنه قد يفر من الجيش ويتحالف مع بكتمور. ولم يهدد هذا الأمر مكانة صلاح الدين شرقي الفرات فحسب، بل إذا ما

أدى ذلك إلى تحالف آخر بين أعدائه من المسلمين فإنه يستطيع أن يهدد أيضاً أمن سوريا. وغادر الفاضل مدينة القدس في جماد الآخرة / شباط. وفي مستهل جمادي الآخرة/ ١٦ نيسان كتب صلاح الدين إليه يقول له بأن يجتاز الفرات ويستولي على أراضي ناصر الدين. وكتب ناصر الدين الآن إلى العادل يطلب إليه أن يتشفع له في هذه القضية. ولعل التعب أو الانشغال لم يسمح لصلاح الدين بمعالجة هذا الأمر معالجة حسنة، وهو مزاج قد يكون مسؤولا عن الأمر الذي أصدره في هذه الفترة والقاضي بإعدام السهروردي في حلب. ورأى ابن شداد أن ناصر الدين كان قد أزعجه بشكل خاص، «ولم يكن أحد من أفراده قد طلب يمينه»[٨١]. فقبل في البدء شفاعة العادل، ولكنه مزّق في ٢٩ ربيع الآخر/ ١٤ أيار تحت تأثير سورة من الغضب المستند الذي كان ينص على شروط الاتفاق. ثم عاد فغيّر رأيه مرة أخرى فاستدعى الأفضل الذي كان متضايقاً إلى درجة جعلته يبقى في دمشق إلى أن أصبح خطر الفرنجة من الفداحة بحيث يدفع والده إلى الإرسال بطلبه، وقد أرسل العادل نفسه في مستهل ربيع الآخر/ منتصف شهر أيار إلى الجانب الآخر من الفرات لتسوية الأوضاع هناك الأمر الذي زاد في إضعاف مكانة صلاح الدين. ورأى ابن شداد أن أنباء هذه الخصومات هي التي دفعت ريتشارد إلى التوقف عن بحثه عن السلام.

وكان الوضع قد تعقد بسبب العداوة بين ريتشارد وكونراد. لقد روى ابن شداد أن رسولاً آخر وفد من قبل كونراد لمتابعة المباحثات التي جرت في الخريف الفائت[٨٢]. وألح صلاح الدين مرّة أخرى على أن يقاتل كونراد أبناء جلدته من الفرنجة. فيستطيع حينئذٍ الاحتفاظ بما أخذه هو نفسه منهم، كما يستطيع المسلمون أن يحتفظوا بما أخذوه بأنفسهم. أما الأماكن التي جرى احتلالها من قبلهما معاً فتذهب إلى كونراد؛ أما صلاح الدين فعليه أن يعمل على تحرير أسراهم، وأموالهم، وتحرير جميع الأسرى المسلمين الموجودين في أراضي كونراد. وإذا أراد ريتشارد أن يعهد إليه بأي إقليم فإن هذا الأمر سيعالج وفاقاً للشروط المتفق عليها بين صلاح الدين وريتشارد «ما عدا عسقلان وما بعدها» (إلى الجنوب)، «فإنه لا يدخل في الصلح».

وفي ربيع الآخر/ نيسان تغيرت الحال مرّة أخرى. فقد تمت أخيراً تسوية النزاع حول عرش القدس ووافق جميع الفرنجة بما فيهم ريتشارد على أن يكون

هذا الحق لكونراد. ولم يرد هذا عند عماد الدين أو ابن شداد، إلا أن ابن شداد نقل عن رسول كونراد الذي عاد الآن إلى صلاح الدين، قوله: «لقد انفصل الحال بين [كونراد] والفرنجة؛ فإن نجز في هذه الأيام سارت الفرنسيس في البحر، وإذا تأخر بطل الحديث في الصلح مع الرئيس [كونراد] بالكلية»(٨٣). ولم يعط ابن شداد أية تفاصيل أخرى حول الشروط. غير أن صلاح الدين أرسل في ٢٤ نيسان العادل إلى صور لوضع اتفاقية السلام. وفي ١٦ ربيع الثاني/ أول أيار أرسل العادل جواباً بأن كونراد قد اغتيل منذ ثلاثة أيام على أيدي الحشاشين. وقد أفاد أحد التقارير أن القتلة زعموا أنهم كانوا يعملون لمصلحة ريتشارد(٨٤). بينما جاء في قصة رواها ابن الأثير أن صلاح الدين هو الذي عرض أن يدفع لسنان للقيام باغتيال ريتشارد وكونراد معاً(٨٥). ان هذه لمسألة بلا حل. غير أن تأجيل التسوية كان أكثر صلة، ربّما، بمصالح الحشاشين أنفسهم من مصلحة أي فريق آخر.

واستمرت المحاولات الدبلوماسية المتقطعة بعد وفاة كونراد. وكان ريتشارد، وفاقاً لما أورده عماد الدين، ما يزال يلح على توزيع متساوٍ للأراضي، في حين كان صلاح الدين يقترح أنه إذا تخلى الفرنجة عن عسقلان ويافا فإن بإمكانهم أن يحتفظوا بكل ما كانوا قد استولوا عليه(٨٦). وحاول الامبراطور البيزنطي اسحق استخدام الصداقة التي كان يدعيها مع صلاح الدين لتوطيد مكانته في القدس. فوصل مبعوثه في أولى جماد الأول/ ١٥ أيار مع طلب باستعادة الصليب. كما طلب أيضاً أن توضع «القمامة» وكنائس القدس الأخرى في تصرف رهبانه، وأن يصار إلى القيام بهجوم مشترك على قبرص، فرفضت جميع هذه الطلبات. وفي ما يتعلق بقبرص فقد دوّن الفاضل أن غي دولوزينيان الذي كان ريتشارد قد أعطاه قبرص، كان يجري مفاوضات مع صلاح الدين(٨٧). وقيل انه تخاصم مع ريتشارد. وأضاف الفاضل أن فك الارتباط هذا كان مصدراً بديهياً لفائدة المسلمين: «ليس هنالك من ريب في أن السيد سيستقبل غي... فلقد أصبح صديقاً»؛ وكان الوعد بأن يساعد صلاح الدين اسحق على أخذ قبرص قد قطع حين كانت قبرص في قبضة العدو؛ أما الآن فلا يمكن تطبيق ذلك الوعد. وتابع الفاضل يقول إن اسحق أصديقاً كان أم عدواً، فلن يساعد صلاح الدين أو يؤذيه. وكان هذا ينطبق على سيد المغرب الذي كان حتى الآن قد رفض نداء صلاح الدين لمده بالمساعدة.

لا بد أن يكون صلاح الدين قد عرف عن عداوات ريتشارد وشدائده أ
بكثير مما تدونه المصادر العربية. وتجعل اليوميات ريتشارد يقول، بطريقة لا تز
عن كونها لمسة مبالغة: «ألا يعرف صلاح الدين كل ما يدور في معسكرنا؟»
وفي الواقع، فقد يكون صلاح الدين يقوم بمباحثاته مستنداً إلى قوة التقارير ا
تفيد بأن ريتشارد سيضطر إلى ترك الساحل في أوائل الصيف. ولكنه، على الر
من النداءات التي أتت من أنكلترا، قرر أن يبقى. ثم انطلق يوطد مكانته، وذا
بمهاجمة داروم ۹ جماد الأول/ ۲۳ أيار. كان المسلمون ضعفاء نسبيّاً؛ ،
غادر العادل القدس إلى الفرات في ٨ جماد الأول/ ٢٢ أيار؛ وكان الأفضل
يزال غائباً، ولم يكن الجند قد وصلوا بعد من الموصل وسينجار. وكانت داروم
تركت في عهدة علم الدين قيصر الذي فضل أن يبقى خارجها. ولعله كان يأمل
أن يعمد الفرنجة إلى القيام بعملهم البطيء المعتاد في إقامة الحصار، غير أنه ك
مع ريتشارد فريق من مهندسي الألغام الحلبيين المرتدين الذين كانوا على ما يظ
يدفعون بألغامهم تحت الأسوار في اليوم الأول من الهجوم. وطلبت الحامية في
يُسمح لها باستشارة صلاح الدين قبل أن تستسلم، فرفض طلبها. ولم يقم قيد
بأي تحرك للمساعدة، فأخذ المكان عنوة. وزعم عماد الدين أن عدداً صغيراً ف
من المسلمين قد أسر، غير أنه اعترف بأن هذا كان خسارة كبرى. وحين أصبحـ
عسقلان وداروم في أيدي الفرنجة، أصبح الطريق الساحلي إلى مصر مرّة أخرى مغلقاً
وجه الجميع ما عدا القوى القادرة[89].

وكانت تجري في الجنوب بعض المناورات الإضافية، ثم أتى بعد ذلك في
جماد الأول/ ٦ حزيران، رسول يحمل إلى صلاح الدين نبأ بأن العدو عسكر «ف
راجله وفارسه وسواد عظيم»[90] على تل الصافية، على مسافة حوالي ١٩ ميلاً (٣١ كلم
إلى الشرق الشمالي الشرقي من عسقلان في سفح وادي السنط. وكان قد سبق للمسلم
أن بدأوا في الاحتشاد، وبحلول ١٧ جماد الأول/ ٣١ أيار كان قد انضم إل
صلاح الدين التركمانيون بقيادة بدر الدين دلدرم، وابن المقدم «بعسكر حسن وإطلا
جيده»[91]. وبحلول ٢٦ جماد الأول/ ٩ حزيران، كان الفرنجة الذين تحركوا بإتج
الشمال قد عسكروا ما وراء اللطرون واعترضوا بعض البدو المغيرين الذين كانوا عائد
من يافا، والذي نجا منهم ستة أفراد فحملوا النبأ إلى صلاح الدين. لقد أخب
«الجواسيس وأصحاب الأخبار»[92] أن الفرنجة كانوا قد توقفوا لإحضار المؤ

والمعدات، وأنهم ينوون بعد ذلك أن يزحفوا على القدس. وفي ٢٧ جماد الأول/ ١٠ حزيران وصل مبعوث من الفرنجة برفقة خادم يخص المشطوب لمناقشة فدية قراقوش. وأضاف ابن شداد على نحو ملغز «ويتحدثون في معنى الصلح»[٩٣]. في أثناء ذلك كان صلاح الدين قد أدخل مؤناً إلى القدس ووزع على أمرائه مواقع المعركة على الأسوار. ورأى أمبرواز أن الفرنجة كانوا ينتظرون أن يجلب هنري صاحب شمبانيا الذي كان قد أرسل إلى عكا، تعزيزات[٩٤]. وبينما كانوا يتلكأون كانت تدور حول معسكرهم مناوشات مستمرّة وهجمات على خطوط تموينهم. وقد أفيد أنه في ذلك الوقت استطاع ريتشارد أن يقوم بهجوم مفاجىء ويصل إلى قلونية على بعد ٥ أميال (٨ كلم) من القدس[٩٥].

وبينما كان الفرنجة ينتظرون كان ريتشارد يتابع تقدم قافلةٍ كبيرة ومواكبيها العسكرية آتية من مصر، وتجمعت في بلبيس. وكان ريتشارد، وفقاً لابن شداد، قد استمر على الاطلاع على سيرها بواسطة «عرب مفسودين»[٩٦] كشف امبرواز هويتهم، وهم جاسوس يدعى برنارد، وهو من مواليد الشرق، مع رفيقين له[٩٧]. وفي ٩ جماد الثاني/ ٢٢ حزيران بلغ صلاح الدين أن ريتشارد قد غادر المعسكر في ظهر اليوم الفائت على رأس قوة قدرها عماد الدين بسبعماية فارس (ثقيل) و ١٠٠٠ تركوبولي و ١٠٠٠ من المشاة[٩٨]. ولم يعرف أحد إلى أين كان ذاهباً، ولكن صلاح الدين خشي على سلامة جنوده المصريين فأرسل إليهم مفرزة تحذرهم من الخطر. وكان يمكن الافتراض أن يكون المصريون قد سلكوا الطريق الساحلية إلى العريش ثم أن يكونوا قد انحرفوا باتجاه بئر السبع ليتبعوا طريق القافلة عبر حبرون وسلسلة تلال منطقة القدس، إلى القدس. وتحرّك ريتشارد عائداً إلى تل الصافيّة، وبعد ذلك عبر القرطية إلى وادي الحسى (ماء الحسى) إلى الغرب من هذا الخط.

وكان القائد المصري فلك الدين، وهو شقيق العادل، قد احتاط لاستكشاف وادي الحسى، إلا أن رجاله كانوا قد تركوا قبل أن يصل ريتشارد، وأفادوا بأن المكان خلو وسالك. بعد ذلك عسكر فلك الدين قرب تل الخويلفة[٩٩] إلى الجنوب الشرقي لرأس الحسى، عند بداية سلسلة جبال القدس. وقد نصح اسلام صلاح الدين، وهو قائد مفرزته، بأن يزحف خلال الليل، ولكنه كان قد أخبر القافلة، وفقاً لرواية عماد الدين، أن الخطر قد زال الآن، وأنهم ليسوا في حاجة

إلى التحرك في الليل، ويستطيعون أن ينتظروا حتى الصباح[١٠٠]. والاقتراح الثاني الذي قدمه اسلام هو أنه ينبغي أن يعسكر على «الجبل»[١٠١]، وربما كان ذلك رأس النقب إلى الشرق من تل الخويلفة. وحين رفض فلك الدين الاقتراح ذهب إسلام نفسه إلى هناك مع رجاله.

كان توقيت ريتشارد كاملاً لا عيب فيه. فلو أنه تأخر أربعاً وعشرين ساعة أخرى لكانت القافلة تقريباً قد نجت، ولو أنه جاء مبكراً جداً، لكان بالإمكان اكتشافه في وادي الحسى. وقام الآن باستكشاف أخير. وسمع ابن شداد بأنه انطلق على صهوة جواده «في صورة عربي»[١٠٢]. ومع أن أمبرواز أفاد بأن مواجهة حصلت بين رجاله من البدو وحراس القافلة، إلا أنه أوضح أن ريتشارد لم يكن معهم[١٠٣]. وكانت القافلة تعد للإنطلاق عند بزوع الفجر في ١١ جماد الثاني/ ٢٤ حزيران، وروى أحد أصدقاء ابن الأثير الذي كان مسافراً مع القافلة أنهم ما أن انتهوا من تحميل الجمال حتى قام ريتشارد بمهاجمتهم على حين غرّة[١٠٤]. لقد تشتتوا تلاحقهم خيالة الفرنجة. أما فرقة المشاة الفرنجية فقد ترك أفرادها يجمعون الغنائم. وادعى اسلام الذي لم يلحظه أحد على تلته بأنه هجم عليهم واستعاد جزءاً من الأسلاب، غير أن فرقته كانت صغيرة فلم يستطع قلب الطاولة على رأس ريتشارد الذي بقي سيد الميدان. وقدر ابن شداد السجناء المسلمين بخمسماية سجين. وأضاف بأن حوالي ٣٠٠٠ جمل قد أخذت، فضلاً عن الجياد والبغّالين وسائقي الجمال وسائسي الخيل الذين أكرهوا على الخدمة في صفوف الفرنجة[١٠٥]. وقد فرّ بعض من بقوا على قيد الحياة عائدين إلى مصر، والبعض الآخر اقتادهم البدو حول الطرف الجنوبي من البحر الميت. وقال صديق لابن الأثير بأنه هو نفسه فر هارباً دون أن يعرف إلى أين كان ذاهباً، واستمر كذلك حتى رأى بناء ضخماً على تلّة. فسأل عن ذلك البناء فقيل له أنه «الكرك».

لقد أضيف ملحق إلى القصة من قبل العالم الجغرافي والرحالة «الهرويّ» الذي كانت بعض مذكرات أبحاثه قد ضاعت مع القافلة[١٠٦]. وكان يُتوقع من الفرنجة أن يبحثوا بين المراسلات التي استولوا عليها بغية الكشف عن الأسرار العسكرية، غير أنهم ـ وهذا ملفت للنظر ـ تجشموا العناء في دراسة مذكرات الهروي وتحديد هوية المؤلف. أما ريتشارد الذي كان طوال مكوثه على الساحل واضحاً بالنسبة للاتصالات

التي قام بها مع عددمن المسلمين، فانه أرسل اليه الهروي رسولاً خاصاً يقول له إن ملكيته ستعود إليه إن هو قام بزيارة للجيش الفرنجي؛ وهي دعوة رفضها الهروي.

وفي وقت متأخر من يوم المعركة وصل شاب في الاصطبلية إلى القدس وأوصل النبأ إلى صلاح الدين. كان ابن شداد حاضراً، وروى أنهم بالكاد استطاعوا أن يواسوا صلاح الدين، فما «مرّ السلطان خبر أنكى منه في قلبه ولا أكثر تشويش منه لباطنه»(١٠٧). ولم يؤمن نجاح ريتشارد له المال فحسب، بل أنه حصل الآن على ما يكفيه من دواب النقل مما يسمح لجيشه بالتحرك الحر. وكان لدى صلاح الدين سبب خاص لقلقه على مصر. ففي بداية الحملة الصليبية كان قد حذّر من أن الجهد الفرنجي سيقسم بين سوريا ومصر(١٠٨). وقد ذكر مع ريتشارد مثل هذا الحديث مراراً(١٠٩). وكان الجيش المصري قد أضعف بإنتزاع المغارز التي جاءت مع أبي الهيجاء في أيلول، بالإضافة إلى تلك الفرق التي حشدت في تل الخويلفة. ولم يكن عثمان الذي ترك مسؤولاً هناك قد واجه قط طارئاً خطيراً. وإذا ما تحرّك ريتشارد فسوف يكون على صلاح الدين بالتأكيد أن يترك القدس ويلحق به. وفي تلك الحالة، إن هو ذهب عبر أيلة فقد يرتدون فجأة إلى الوراء؛ وإن هو سلك طريق الساحل، علماً بأن عسقلان ودار وم هما في أيدي الفرنجة وأن الفرنجيين يسيطرون على البحر، فقد يجد نفسه في وضع حطين معكوساً، وجيشه معزولاً دون مؤن.

والقدس، مع ذلك، كانت ما تزال نقطة قوية لجذب الفرنجة، فقد تحرك ريتشارد عائداً إلى بيت نوبا في ١٦ جماد الآخر/ ٢٩ حزيران. وأعطى صلاح الدين أوامره بتدمير صهاريج المياه، «بحيث لم يبق حول القدس ما يشرب أصلاً»(١١٠). وفي ١٩ جماد الثاني/٢ تموز وصل الأفضل مع الظافر، وأعطي موقعاً في الجهة الغربية من المدينة. وفي المساء عقد صلاح الدين مجلساً استشارياً. وقد حضر المجلس المشطوب وجميع الأمراء الأسديين بالإضافة إلى أبي الهيجاء الذي وصف بأنه حضر الاجتماع «بمشقة عظيمة» واضطر إلى أن يجلس على احدى الكراسي. وطلب إلى ابن شداد أن يحدثهم عن الجهاد فأشار بكلمته «المصلحة الاجتماع عند الصخرة والتحالف على الموت». وبقي صلاح الدين صامتاً لمدة طويلة ومكث الأمراء بلا حراك «كأن على رؤوسهم

الطير». حينئذٍ قال لهم بأن جميع المسلمين يعتمدون عليهم، ومن أجل ذلك «أكلتم مال بيت المال». فأجاب المشطوب: ما يرجع أحد منا عن نصرتك إلى أن يموت.

وقيل ان صلاح الدين قد شُجع بهذا اللقاء، ولكنه طلب إلى ابن شداد، بعد صلاة العشاء، أن يبقى عنده، وأخبره أن أبا الهيجاء قد أرسل إليه رسالة. كان عدد من المماليك يعارضون الاستعدادات إلى فرض حصار، وقالوا انهم كانوا يخشون أن تتكرر مأساة عكا. لذلك اقترحوا القيام بمعركة يمكنّهم الانتصار فيها من أخذ الساحل، أما الهزيمة فتسمح لهم بالفرار. وإذا كان صلاح الدين مصمماً على الاحتفاظ بالمدينة، فقد أصروا على أن يبقى هو فيها أو أحد أفراد عائلته، لأنه خلاف ذلك لن يتلقى الأكراد أوامرهم من الأتراك، والعكس بالعكس. ولدى سماع صلاح الدين ذلك أراد أن يبقى هو نفسه وبما أن الخطر يتهدد الإسلام، تم القرار على أن يأخذ مكانه ابن فروخشاه، وهو بهرام شاه صاحب بعلبك. بقي ابن شداد مع صلاح الدين حتى طلوع الفجر، واقترح بأن يسلّم الأمر لله.

وفي ٢٠ جماد الآخرة/ ٣ تموز أدى صلاح الدين صلاة الجمعة في المسجد الأقصى، وكتب ابن شداد يقول: «رأيته ساجداً وهو يذكر كلمات ودموعه تتقاطر على مصلاه»(١١١).

لم تأتِ الأزمة الدراماتيكية أبداً. ففي مساء ٢٠ جماد الآخرة/ ٣ تموز بعث عز الدين جرديك الذي كان يتولى قيادة الحرس الإسلامي المتقدم بكلمة يقول فيها إن الفرنجة قد خرجوا من معسكرهم في ذلك اليوم ثم عادوا بعد ذلك إليه ثانية. وفي ٢١ جماد الآخرة/ ٤ تموز جاء الجواسيس بتقرير يفيد بأن الافرنسيين أرادوا أن يتقدموا، غير أن ريتشارد كان قلقاً بسبب النقص في الماء. وفي صباح يوم ٢٢ جماد الآخرة/ ٥ تموز عاد الجيش الفرنجي برمته منسحبا نحو الرملة. وقد علم المسلمون بأن مجلساً استشارياً عيّن من أجل إتخاذ قرار فيما إذا كانوا سيهاجمون القدس أم لا. وحين قرّ قرار الأعضاء على الانسحاب «فلم يمكنهم المخالفة»(١١٢).

ولعل نجاحهم في تل الخويلفة، واستيلاءهم الحديث على دواب النقل، وغياب بعض جنود صلاح الدين، كان من المعقول أن يشجع الفرنجة، ولكنهم لو

قاموا بالهجوم لكانوا قد تحدوا صلاح الدين في عقر داره. وكان يمكن أن يعطيهم أضعاف معنويات المسلمين نصراً سريعاً، غير أن تلال القدس كانت مكاناً يختلف بطبيعته عن سهل عكا حيث سيطرة الفرنجة على البحر والتي لا تقبل التحدي كانت قد ثبطت همم أخصامهم. وحين يرى المسلمون الفرنجة معاقين أمام تحصينات القدس، وقد نفد منهم الماء، ونقصت المؤن وأصبحوا مكشوفين أمام الهجمات التي تأتي من العادل، والأفضل، والمشرقيين، فما لا شك فيه أنهم سيستعيدون نشاطهم وترتفع معنوياتهم من جديد. ومن وجهة نظر عسكرية، سيكون الهجوم على مصر خطراً أكبر على صلاح الدين. وكانت مصر وبيروت ودمشق الآن، وفقاً لرواية امبرواز، الأهداف الثلاثة التي اقترحت للهجوم[١١٣]. وكانت جيوش الحملة الصليبية، مع ذلك، مفككة تفكيكاً عميقاً جداً، وفي حاجة ماسة إلى حل سريع يضمن لها إتباع وإطاعة أوامر الاستراتيجية الكبرى. وكان انضباط تلك الجيوش ووحدتها يعتمدان على ارتقاب هجوم على القدس، وحينما تلاشى هذا في النهاية، كان من الواضح، أنه في أقل ما يمكن، عادت المبادرة أخيراً إلى صلاح الدين.

بذل ريتشارد وسعه لتغطية وضعه بواسطة جهد دبلوماسي وقائي. وكان مبعوث قد أتى من قبل هنري صاحب شمبانيا الذي وافق الفرنجة على أن يكون ملك الساحل، ليقول بأن ريتشارد أعطاه كل ما يملكه هو نفسه هناك، ويطلب إلى صلاح الدين أن يعطيه جميع الأجزاء التي كانت في أيدي المسلمين، «حتى أصالحك وأكون أحد أولادك»[١١٤]. أغضب هذا المكر صلاح الدين، إلا أنه قال للمبعوث فيما بعد أنه يمكن أن يناقش وضع صور وعكا وفاقاً للاتفاق المعقود مع كونراد. بعد ذلك أرسل ريتشارد نفسه يقول بأن الصلح يجب أن يعقد، «ليس بسبب أي ضعف مني، بل للمصلحة [المشتركة]». وعلى المسلمين أن لا ينخدعوا بإنسحابه، ـ «فالكبش يتأخر لينطح» ـ. وفي ٢٦ جماد الآخرة/ ٩ تموز وردت رسالة أخرى من ريتشارد تحث على الحاجة إلى التوفير على كل من المسلمين والفرنجة الدمار الذي ستخلفه الحرب. وأضاف ريتشارد بأن هنري صاحب شمبانيا سيكون في خدمة صلاح الدين وأنه هو وجنوده سيساعدون صلاح الدين في الشرق إذا ما دعاهم لذلك؛ أما فيما يتعلق بالمذبح المقدس، «ان جماعة من الرهبان والمنقطعين قد طلبوا منك كنائس فما بخلت عليهم بها، وأنا أطلب منك كنيسة».

عقد صلاح الدين مجلساً استشارياً كان الرأي فيه مجمعاً على أن تقبل شروط الصلح، وذلك بسبب الارهاق الذي يعاني منه المسلمون، ولأن معنوياتهم متدنية، ويرزحون تحت عبء ديون كبيرة. واتفق على أن يعطى ريتشارد المذبح المقدس، وأن يسمح له بالاحتفاظ بالأراضي التي استولى عليها قرب الساحل، في حين يحتفظ المسلمون «بالقلاع الجبلية». أما المناطق الكائنة في الوسط فتكون مشتركة، بينما تبقى عسقلان «وما وراءها» (إلى الجنوب) خراباً، لا لنا ولا لكم. وبعد أن بدا أن التسوية ظاهرياً قد تمّت، عادت المفاوضات في هذه المرحلة تتعثر. وفي ٢٩ جماد الآخرة/ ١٢ تموز عاد مبعوث آخر من قبل ريتشارد، ليقوم ببعض المساومة حول وضع الفرنجة في القدس، إذ أن ريتشارد طلب الآن أن ترابط قوة مؤلفة من عشرين عنصراً في القلعة. غير أن المبعوث أضاف بمبادرة شخصية منه أن الفرنجة كانوا قد تخلوا عن جميع مطاليبهم هناك ما عدا حق القيام بشعائر الحج. وكانت عسقلان هي نقطة التعثر التي أوضح المبعوث بشأنها أن ريتشارد كان قد أنفق عليها مبالغ طائلة من المال. وقد وافق صلاح الدين في آخر الأمر على تقديم اللد على سبيل التعويض، ولكن مبعوثه عاد في ١٩ تموز بمفرده وأفاد أن ريتشارد يقول: «لا يمكننا أن نهدم من عسقلان حجراً واحداً». وعلى هذا، قطع صلاح الدين المباحثات.

كان المسلمون الآن في كامل قوتهم تقريباً. وكان علاء الدين صاحب الموصل، وقطب الدين سقمان صاحب آمد، وجنود من سينجار بقيادة مجاهد الدين يرنقش قد وصلوا إلى دمشق. وكان الظاهر قد وصل إلى القدس في مستهل رجب/ ١٧ تموز، وأتى العادل في ٧ رجب/ ٢٣ تموز، فوجد أن صلاح الدين قد غادر المدينة في اليوم السابق على أثر تلقيه تقريراً بأن ريتشارد نفسه قد ذهب إلى عكا، وأن الفرنجة كانوا يخططون لمهاجمة بيروت. ولمقاومة ذلك أُرسل الأفضل إلى مرجعيون حيث كان الجنود المشرقيون الذين تجمعوا في دمشق قد أمروا بالانضمام إليه. وانتقل صلاح الدين عبر الجيب نزولاً إلى الجبل باتجاه بيت نوبا. وفي ١٣ رجب/ ٢٥ تموز عسكر بين اللد والرملة، ثم قام في اليوم التالي باستكشاف يافا. وتقرر في اجتماع للمجلس الاستشاري بأن يشن هجوم؛ وفي ١٥ رجب/ ٢٧ تموز اصطف الجيش خارج يافا بقيادة الظاهر في الميمنة والعادل في الميسرة(١١٥).

بدأ طاقم المناجق والنقابين الهجوم. ورأى ابن شداد أن المسلمين كانوا

واثقين بأنهم يستطيعون الاستيلاء على المدينة في مدة يوم واحد، ورأوا من شراسة المقاومة «ما أضعف قلوب الناس». ونصبت مناجق إضافية في اليوم التالي، وكان المسلمـون ميالين إلـى إنتظـار سيل قذائفهـم كي تعطـي مفعولهـا. وكان صلاح الدين قد صمم، مع ذلك، بألا يهدر أي وقت، فقام بشن الهجوم. وأصيب عدد من قادة المسلمين بجروح، غير أن الحـامية أرسلـت الآن رسـلاً من قبلهـا ليبحثوا شروط الاستسلام. وطلبوا مهلة ثلاثة أيام، أي حتى ١٩ رجب/ ٣١ تموز، ثم وعدوا بأنه إذا لم تصلهم تعزيزات بنهـاية تلك المهلـة، فإنهـم سيستسلمـون ورفض صلاح الدين، وعاد إليه المبعوثون بالطلـب ذاتـه، فرفض مرّة أخـرى. ولكن رؤية هذه المناورات الدبلوماسية كانت في هذا الوقت قد فلّت حد الهجمة الإسلامية. وفي ١٧ رجب/ ٢٩ تموز إنهـار جزء من الجـدار الحاجـب، غير أن الفرنجة أشعلوا كومات من الأغصان المقطوعة خلف الثغرة في الجـدار حتى لا يمكنّوا أحداً من المرور. وكتب ابـن شداد يقـول: «لله درهم من رجـال قتـال، فإنهم من هذا كله لم يغلقوا لها باباً، وما زالوا يقاتلون خارج الأبواب، ولم يزل الناس في أعظم قتال إلى أن فصل الليل بينهما».

كانت المقاومة قد أربكت صلاح الدين. وروى ابن شداد أنه أمضى الليل في حالة من القلق الشديد. وفي ١٨ رجب/ ٣٠ تموز تركز الهجوم على الثغرة في الجدار الحاجب؛ وفي آخر الأمر، وبعد هجمة مركّزة قام بها الجيش برمته، إنهار الجـدار. وروى ابـن شداد بأن أحـداً لم يجـرؤ باديء الأمـر من التقـدّم خشية النيران، وبعد أن إنقشع الغبار والدخـان، «أظهـرت اسنـة قد نابـت منـاب الأسوار، ورمـاح قد سدت القلعـة حتـى عن الأنصـار». وأضـاف يقـول: «ورأى النـاس هولاً عظيماً من صبر القوم وثباتهم». وجاء في هذه المرحلة المبعوثون مرّة أخرى وذلك لمناقشة شروط الأمان، فوافق صلاح الدين على تبـادل الفرسـان، والتركوبولـي والجنود المشاة، بنظائرهم من المسلمين الذين هم في قبضة الفرنجة، في حين لن يدفع أي من غير المحار بين فدية القدس. عندها طلب المبعوثون من صلاح الدين أن يوقف الهجوم، فأجاب بأنه لا يستطيع أن يكبح جماح رجاله، وعلى الفرنجة أن ينسحبوا إلى القلعة تاركين المسـلمين يتدبـرون أمـر المدينـة. وتـم ذلك، فبـدأ المسلمون ينهبون يافا حيث وجدوا بين غنائمهم كمية من الأسـلاب التي نهبهـا الفرنجة من القافلة المصرية.

وفي عصر ذلك النهار، تلقى صلاح الدين رسالة من صارم الدين قايماز الذي كان يرقب الفرنجة في عكا، تفيد بأن ريتشارد قد تخلى عن خطة الزحف على بيروت وأنه كان عائداً لنجدة يافا. ورأى ابن شداد بأن صلاح الدين كان متلهفاً إلى الاستيلاء على القلعة كمطلب ملح، إلا أن المسلمين كانوا مرهقين إلى درجة يصعب عليهم معها تنفيذ الأوامر؛ كما أنهم كانوا منشغلين بأعمال السلب والنهب. وبدلاً من أن يحاول صلاح الدين فرض الانضباط انسحب إلى قافلة أمتعته. وفي باكورة صباح ١٩ رجب/ ٣١ تموز نفخ في بوق فرنجي للدلالة على أن السفن قد أطلّت. وكانت ردة فعل صلاح الدين خالية من الإلحاح خلواً لافتاً للنظر. وقال لابن شداد بأن على الجيش أن يمنع أي إنزال، إلى اليابسة، غير أن العديد من المسلمين كانوا ما يزالون غير منضبطين في يافا، ولم يقم هو نفسه بأي تحرّك نحو الشاطىء. وأرسل ابن شداد إلى القلعة، مع عز الدين جرديك وعلم الدين قيصر ودرباس المهراني «لتقوية اليزك على ذلك»[١١٦]، وأعطي الأمر ليس لإخراج الفرنجة فحسب، بل لوضع لائحة بجميع الأموال والأسلحة التي ستوجد هناك والتي يجب أن تعطى إلى الظاهر. وغادر على الفور ليجد أن الظاهر كان نائماً على تل قرب البحر ولم يسمع نداء البوق. «وقام والنوم في عينيه». . «ثم دخلنا إلى يافا، وأتينا القلعة وأمرنا الفرنج، بالخروج منها».

ويبدو أن أفراد الحامية ظنوا أنه كان هنالك عدد قليل من السفن بحيث لا تتمكن من القيام بعملية النجدة والانقاذ وبما أن السفن التي كانت تشاهد لم تظهر أي علامات تدل على إنزال، وافقوا على الخروج من القلعة. في هذه المرحلة قال جرديك لابن شداد بأن ينتظر إلى أن يخلي المسلمون المدينة. فمن الواضح أنه كان يخشى أن يكون الانضباط قد أفلت إلى حد بعيد بحيث أن الفرنجة يمكن أن يقبض عليهم بغية الحصول على فدية خاصة، «وأخذ عز الدين يشتد في ضرب الناس وإخراجهم»، وهو تصرّف أمّن الخلفية لحكاية ابن الأثير عن أن مماليك صلاح الدين قد نهبوا مسلمين آخرين عند مغادرتهم يافا[١١٧]. وأنّب ابن شداد جرديك على إضاعة الوقت - «لم يكن المسلمون قد جمعوا معاً في أي مكان واحد، فكيف كان ممكناً طردهم إلى الخارج؟» - ولكن دون طائل. وخرج من القلعة سبع وأربعون فرنجياً، ولكن كان قد وصل في هذا الوقت حوالي خمس وثلاثين سفينة فأخذ من بقي في القلعة يظهر إمارات التحدي. ونزل ابن شداد من

تلة القلعة يحذر جورديك، غير أن الفرنجة قاموا الآن بهجوم مفاجيء، فقتلوا عدداً من المسلمين.

لكن هذا الهجوم جاء قبل أوانه. فالقوة التي جاءت للإنقاذ والمساعدة لم تكن قد نزلت إلى اليابسة، وحالما شاهد أفرادها الرايات الإسلامية ترفرف وسمعوا المسلمين يصرخون ويهتفون، ظنوا أن القلعة قد سقطت مع المدينة. وبنتيجة ذلك، وحين أمر صلاح الدين طبوله بأن تقرع من أجل القيام بهجوم عام، حضر الأسقف، ومحافظ القلعة يقدّمان اعتذارهما ويطلبان تجديد المباحثات لعقد اتفاقية الاستسلام. وفي هذا الوقت كان حوالي خمسين سفينة فرنجية ترحل مبتعدة عن الشاطىء؛ وكان رجل، حدد أمبرواز صفته بأنه راهب قد «يرتل قداسه»[118] قد قفز من القلعة إلى الشاطىء وسبح في الماء والتحق بالراحلين في السفن. وقد أحضر هذا الراهب إلى ريتشارد الذي كانت سفينته الحمراء قد تحوّلت الآن نحو الميناء. ولما نزلت القوة الافرنجية إلى اليابسة لم تكن هناك أية مقاومة فعالة وأخليت المدينة من المسلمين، وانسحب الجيش إلى يازور، وتركت كمية ضخمة من الغنائم التي لم يكن بالإمكان نقلها في حينه.

وفي صباح ٢٠ رجب/ أول آب انتقل ريتشارد خارج يافا إلى قرب مركز قيادة صلاح الدين، وأرسل دعوات إلى أصدقائه من المسلمين «وجرى بينهم أحاديث ومجانة كثيرة»[119]. وروى ابن شداد أنه جد وهزل، وفي جملة ما قال: «هذا السلطان عظيم، وما في الأرض للإسلام ملك أكبر ولا أعظم منه، كيف رحل عن المكان بمجرد وصولي» وليس لدي من ثياب الحرب «إلاّ زربول البحر»، ثم أطراه على السرعة التي اجتاح بها أسوار يافا وختم بالقول بأنه يجب عقد معاهدة صلح، «وقد هلكت بلادي ما وراء البحر»[120]. وشرع الآن بالمساومة مرّة أخرى. فوافق بأن يحتفظ الفرنجة بالساحل من قيسارية إلى صور. وطالب بمدينتي يافا وعسقلان أيضاً، فوافق صلاح الدين على جعله يحتفظ بمدينة يافا ولكنه أصر على أن يتخلى عن عسقلان. وفي ٢١ رجب/ ٢ آب جاء مبعوث يقول بأن ريتشارد شكر صلاح الدين من أجل يافا، ولكنه يطالب بعسقلان أيضاً. وأضاف المبعوث أنه إذا ما عقد الصلح في غضون ستة أيام فإن ريتشارد سيرحل، وإلاّ فسوف يمضي الشتاء على الساحل. وكان الجواب أن المسلمين لا يمكن أن يتخلوا عن مطالبتهم بعسقلان وأن ريتشارد سيكون بالتأكيد ملزماً بأن يشتى على الساحل، لأن المسلمين سيكونون قد استولوا عند رحيله على ما كان الفرنجة مستولين عليه، وربما

قبل ذلك؛ ويستطيع صلاح الدين تحمل عبء الانتظار إلى ما لا نهاية؛ وبإمكانه أن يريح جنوده بحيث أن أولئك الذين هم في الخدمة في الشتاء لن يكونوا في الخدمة في الصيف؛ أما هو نفسه فهو عجوز يقيم وسط أراضيه الخاصة، محاطاً بأفراد عائلته، وكان قد سبق له أن تخلى عن مباهج الدنيا؛ أما ريتشارد فهو في ربيع الحياة، ويقيم بعيداً عن وطنه.

وفي الواقع، لم يستطع أي فريق أن يتحمل وطأة الانتظار إلى ما لا نهاية، وإذا لم تحسم المسألة بالمعركة، فسوف يجبران معاً على إيجاد تسوية ما. فبالنسبة إلى الفرنجة، إذا لم يكن بالإمكان إعادة بناء المملكة اللاتينية بحدودها القديمة، فإن ما كان يحتاج إليه هو قاعدة للتوسع في المستقبل، وهذه القاعدة مؤمنة بواسطة أنطاكية وطرابلس في الشمال، وبواسطة صور وعكا ويافا في الجنوب. وكانت عسقلان بموقعها الاستراتيجي على الطريق الساحلية أكثر أهمية لصلاح الدين منها إلى دولة فرنجية مضعوفة لن تستطيع بعد اليوم أن تأمل في ضبط حركة النقل بين مصر وسوريا. إلى ذلك، لم يكن ريتشارد يسمح بالأمر دون القيام بمعركة، وكان على صلاح الدين أن يجد وسيلة ما لانهاء هذا الوضع دون أن يثبط همة جيشه أكثر من ذلك.

انسحب المسلمون من يازور إلى الرملة في ٢١ رجب/ ٢ آب. وفي هذا الوقت سمع صلاح الدين بأن القوة الفرنجية كانت تزحف من عكا من أجل تعزيز يافا، فقرر أن يعيد أمتعته إلى التلال ويزحف شمالاً ليتحداها. ويمكن مهاجمتها إذا سنحت الفرصة بذلك؛ وإلا فبإمكان المسلمين أن ينسحبوا بأمان. ونقل عنه قوله: «وهذا أولى من أن تصبروا حتى تجتمع عساكر العدو. ونرحل إلى الجبل في صورة منهزمين، وأما الآن إذا رحلنا ففي صورة طالبين»[١٢١]. وغادر في ٢ رجب ٣ آب، غير أنه لم يكد يصل إلى نهر العوجاء حتى علم أن الطابور الفرنجي قد دخل قيسارية. فرأى أنه لم يعد بالإمكان مهاجمته، بسبب أنه، ربما، قد يصبح عالقاً بينه وبين ريتشارد، كما علم أيضاً بأن ريتشارد نفسه كان يعسكر خارج يافا في عدد قليل من الخيام ومع قوة عسكرية صغيرة. وكانت تلك غنيمة مغرية إلى درجة يصعب معها تجاهلها، فقام في فجر ٢٣ رجب/ ٤ آب بهجوم مفاجىء. وكان ابن شداد في ذلك الوقت مع قافلة الأمتعة، فكان عليه أن يعتمد على تقارير شهود

عيان. وقال إنه لم يكن لدى ريتشارد سوى عشر خيم، وليس أكثر من ١٧ فارساً، وأقل من ١٠٠٠ جندي من المشاة. وقام المسلمون بالهجوم، ولكنهم انسحبوا حين واجهوا صمود الفرنجة وحاصروا المعسكر. فأمرهم صلاح الدين بمعاودة الهجوم، ولكن الظاهر فقط كان راغباً في إطاعة الأوامر. فالهزيمة في يافا، وتصرف مماليك صلاح الدين بنوع خاص قد أوصلا التذمر إلى مرحلة الأزمة. ونقل عن الجناح، وهو أخ للمشطوب، أنه قال له «قل للغلمان الذين ضربوا الناس يوم فتح يافا» ليقوموا بالهجوم. وأضاف ابن شداد: «لقد سمعت بأن ريتشارد أخذ رمحه ذلك اليوم وحمل من طرف الميمنة إلى طرف الميسرة، فلم يعرض له أحد». ورأى صلاح الدين أن البقاء على هذا النحو السلبي في مقابلة هذه القوة الصغيرة، كان «خسارة صرفة»، فإنتقل غاضباً إلى يازور. وكتب ابن شداد بأن الاعتقاد ذهب إلى أن هذا الإظهار الوقح لعدم الطاعة كان يمكن أن يؤدي به إلى التضحية ببعض رجاله، ولكنه استطاع في الواقع أن يسيطر على غضبه ويتخلص منه، فدعا الأمراء في تلك الليلة إلى مشاركته الفاكهة التي كانت قد أرسلت إليه من دمشق[١٢٢]. وكان واضحاً، مع ذلك، وبعد هذا الإخفاق، أنه لا بد من عقد الصلح قبل أن يصبح عدم الانضباط مرضاً مستوطناً.

أما الفائدة الفعلية التي جناها ريتشارد فكانت قصيرة الأمد. فقد انسحب صلاح الدين إلى اللطرون في ٢٤ رجب/ ٥ آب. وفي ٢٦ رجب/ ٧ آب عاد مبعوثه من المعسكر الفرنجي. ولم يكن قد سمح له بدخول يافا، غير أن ريتشارد كان قد تكلم معه خارج المدينة وقال له انه بما أن شيئاً لم ينتج عن عروضه، فقد عزم الآن على البقاء، ولم يعد من مجال لإجراء مفاوضات إضافية. وكان علاء الدين قد أحضر في اليوم نفسه الموصليين الذين كانوا قد انسحبوا من مرجعيون. وفي ٩ شعبان/ ٢٠ آب وصلت تعزيزات من مصر. ومَرِض ريتشارد، وسمع صلاح الدين بأن جميع الفرنسيين قد انسحبوا بعد نفاد أموالهم وكانوا الآن يعزمون على الإبحار عائدين إلى الوطن. وأرسل ريتشارد أثناء مرضه رسلاً يطلب بعض الفاكهة والثلج، فعلم منهم صلاح الدين أنه كان هنالك ما بين ٢٠٠ و ٣٠٠ فارس في يافا. ولم يكن الفرنجة قد أصلحوا سور المدينة، بل سور القلعة فقط. كانت الفرصة السانحة واضحة المعالم. وفي ١٦ شعبان/ ٢٧ آب انتقل صلاح الدين إلى الرملة بقصد مهاجمة يافا إن استطاع إلى ذلك سبيلاً، أو، إن لم يستطع، فسوف

يهاجم عسقلان. وكان حرسه المتقدم قد أرسل ليقوم بهجوم اختباري، وجاء بتقرير أنه لم يكن قد أتى من يافا سوى ٣٠٠ فارس وبعضهم على بغال.

في هذه المرحلة جاء مبعوث فرنجي مع الحاجب أبو بكر الذي كان ريتشارد قد طلبه أثناء مرضه. ولم يكن ريتشارد في حالة تسمح له بالقتال. ولكن صلاح الدين لم يكن يستطيع الاعتماد على رجاله، مع كل ما يبدو من أن الوضع هو في مصلحته الساحقة. فقد روى عماد الدين أن أمراءه أوضحوا بأن البلاد مدمَّرة والفلاحين في حالة بؤس شديد، والجيش منهوك القوى. وهنالك افتقار إلى الطعام والعلف وأسعار الحنطة في ارتفاع جنوني. وإذا ما يئس الفرنجة من فرصة الحصول على السلام، فإنهم سيقاتلون حتى النهاية، في حين أنه بعد الهدنة «تعود إلى البلاد سكانها»، وفي هذه الحالة يمكن جمع الحبوب من أجل تجديد الحرب[١٢٣]. وأفاد أبو بكر بأن ريتشارد كان الآن مهيأً للتضحية بمدينة عسقلان، مع أنه كان يطلب من صلاح الدين أن يعطيه شيئاً ما على سبيل التعويض ـ وهو طلب صرف النظر عنه في ١٧ شعبان/ ٢٨ آب. ورأى عماد الدين أن صلاح الدين نفسه يفضل القتال في المستقبل كما في الماضي، غير أنه لا يستطيع أن يتصرف بدون دعم.

وكان بدر الدين دلدرم الذي كان على علاقة ودية مع ريتشارد قد أرسل «ليسمع حديثهم». كان عليه أن يقول: «ان السلطان قد جمع العساكر ولا يمكنني أن أحدثه هذا الحديث إلا أن أثق بك أنك لا ترجع فيه»[١٢٤]. وعاد دلدرم في اليوم التالي ليقول بأن ريتشارد قد وافق على إجراء تسوية. فطلب صلاح الدين الديوان (أمين سجل أراضي الساحل) أن يأتي إلى حضرته. كان للفرنجة أن يأخذوا الأرض من يافا حتى صور، ولكنه أسقط من اللائحة الرملة واللد، ويبنى، ومجدل بابا التي تشكل جزءاً من مناطق يافا، والناصرة وصفوريا، التي تخص عكا. وأرسلت اللائحة المنقحة إلى الفرنجة في ١٩شعبان/ ٣٠آب وأحيط المبعوث علماً بأنه ينبغي الوصول إلى اتفاق خلال اليوم التالي. وفي عصر ذلك النهار عاد مبعوثون إضافيون. وقال رسول صلاح الدين ان ريتشارد اعترض على عدم تلقيه تعويضاً، ولكن حين رأى مبعوثوه صلاح الدين في ٢٠ شعبان/ ٣١آب، صاغوا هذا القول بعبارات أكثر لباقة فنقلوا عنه قوله: «فإن زدتني شيئاً ضمن فضلك وأنعامك». وأرسل صلاح الدين المبعوثين مع دلدرم إلى العادل. وفي أول أيلول

رتبت الشروط النهائية. وأعطي ريتشارد، في الواقع، تعويضاً بما أنه سمح للفرنجة بالمشاركة في العائدات المالية من الرملة واللد. وكان على عسقلان أن تهدم وأن يتحقق الطرفان من أن هذا العمل قد تم فعلاً. وأن تستمر الهدنة ثلاث سنوات وثمانية أشهر وتشمل البر والبحر وتطبق على مناطق الحشاشين كما على مناطق طرابلس وأنطاكية. وقدم مبعوث صلاح الدين المستند إلى ريتشارد، غير أنه كان تحت وطأة المرض الشديد فلم يقرأه، فقال: «وأنا قد صالحت: هذه يدي»[١٢٥]. وحلف هنري صاحب شمبانيا والفرنجة الآخرون اليمين في ٢٢ شعبان ٢ أيلول، ثم أرسل المبعوثون إلى معسكر صلاح الدين. وطلب إلى عدد من القادة المسلمين أن يقسموا اليمين على شروط إتفاقية الصلح بما فيهم العادل والأفضل والظاهر والمشطوب ودلدرم. وكان على المبعوثين أن يسافروا إلى أنطاكية ليحلّفوا اليمين لبهموند ولأولئك الأسياد المسلمين الذين كانوا يقطنون قرب الأراضي الفرنجية. ثم أقام صلاح الدين حفلة استقبال؛ «وأخذوا يده الكريمة»[١٢٦] ثم أعلن الصلح.

لم يربح أي من الطرفين. فلم يستطع الفرنجة، بالرغم من جميع خسائرهم وتضحياتهم أن يستعيدوا القدس. وصلاح الدين الذي يبدو أن الساحل بات تحت رحمته بعد حطين، قد رأى أن مصادر وارداته المالية تهدر، وأراضيه محفوفة بالخطر ومعنويات جيشه ضعيفة. وفي البر تقاتل الجانبان حتى التوقف التام، غير أنه لم يكن بإمكان صلاح الدين أن يتحدى سيطرة الفرنجة على البحر. فلم يكن باستطاعته فعل أي شيء ليجعلهم يتوقفون عن إرسال التعزيزات إلى القواعد التي كانوا ما يزالون يسيطرون عليها من أجل التحضير لهجوم آخر. وكان من الممكن أن يأمل في أن يثبط هممهم بسبب الأضرار التي ألحقها بهم إلا أنه لم يكن واضحاً متى سيكون هو نفسه قوياً من الناحيتين السياسية والاقتصادية بما يكفي ليقاتل على مثل هذا المستوى مرّة أخرى. قد يكون قد أحس بأن قوته الخاصة قد أرهقت، فأخبر ابن شداد يقول: «أخاف أن أصالح وما أدري أي شيء يكون مني، فيقوى هذا العدو، وقد بقي لهم هذه البلاد، فيخرجوا لاستعادة بقية بلادهم وترى كل واحد من هؤلاء الجماعة [أمراء الجيش] قد قعد في رأس تلة»، يعني، حصنه. وقال: «لا أنزل، ويهلك المسلمون».

وفي ٢٥ شعبان/ ٥ أيلول عاد إلى اللطرون. «واختلط العسكران»[١٢٧]،

وذهب عدد من المسلمين إلى يافا للاتجار في حين جاء العديد من الفرنجة إلى القدس لزيارة المذبح المقدس. وجاء في اليوميات أن ريتشارد الذي كان يحاول الانتقام من الفرنسيين(١٢٨)، طلب إلى صلاح الدين أن يقبل فقط أولئك الذين يحملون منه ترخيصاً، غير أن صلاح الدين حاول أن يؤمن القيام بشعائر الحج لأكبر عدد ممكن بحيث يعودون إلى ديارهم راضين «فيأمن المسلمون شرّهم»(١٢٩). وأرسل علم الدين قيصر مع مفرزة فرنجية كي يقوموا بهدم عسقلان. وقد حصل تأخير قصير لأن الحامية رفضت في البدء أن تغادر المكان، وأدعى أفرادها بأنهم لم يتلقوا بعد رواتبهم. وحين سوّي هذا الأمر، غادر ريتشارد يافا. وفي مستهل رمضان ١٠ أيلول سمح صلاح الدين لجيوشه بالتفرّق.

لم يكن ما تبقى من سيرة حياة صلاح الدين أكثر من ملحق مقتضب للحرب. ففي اليوم الذي أعلن فيه الصلح، اقترح ابن شداد عليه أن يقوم بحج بيت الله الحرام في مكة(١٣٠). ووافق على هذا الاقتراح، ثم طلب أن توضع لوائح بأسماء الأشخاص الذين يرغبون في تأدية فريضة الحج، وبالمؤن... الخ. التي سيحتاجون إليها. وما نسيه ابن شداد، مع ذلك، هو خشية الخليفة من أن يكون لدى صلاح الدين مخططات لبغداد. وكان لصلاح الدين أن يذكره الفاضل بأن عليه أن يحيط الخليفة علماً بقصده «لئلا يظن أنك تفعل شيئاً أنت منه براء»، ـ ثم أضاف الفاضل: «قد يقال ان السلطان قد أتى يأخذ بالثأر ويريق الدماء ويثير الفوضى في الحج». ثم أوضح الفاضل أيضاً بأنه لا يزال هناك فرنجة على الساحل وأنهم لم ينسوا بعد القدس. إلى ذلك، فإن «البحث عن المظالم هو أهم السبل التي يبتغي بها مرضاة الله»، وفي أقاليم دمشق تحريض على الفتنة وعنف لأن الفلاحين يعانون من قهر الإقطاعيين؛ وبيت المال فارغ؛ «واحد أهم المهمات هو إقامة مصادر للموارد المالية... لقد دار نقاش كثير حول هذا الموضوع في السابق، ولكن حدثت أشياء حوّلت انتباه السيد»(١٣١).

وأفاد الفاضل في رسالة أخرى بأن بداية غير مريحة حصلت للهدنة وذلك بالاستيلاء على أحدى السفن في البحر كانت تحمل على متنها مبعوثاً من قبل اسحق من بيزنطية. ولم يرد تفسير للملابسات التي أحاطت بهذا العمل، فاعتبر عمل قرصنة لا عملاً حربيّاً. غير أن الفاضل كتب يقول إن السلع التي نهبت قد بيعت علناً في أسواق عكا. وكان أيضاً قلقاً على القدس. فقد حررت رسائل بعد وفاة

صلاح الدين تشكو من عدم القيام بالصيانة اللازمة ، ومن الاهمال في المدينة ، غير أن الفاضل يعيد تواريخ بداية التفسخ إلى أيام كان صلاح الدين على قيد الحياة . فإن تكون الغنيمة الكبرى من الحرب المقدسة هي أن تسمح بالمعاناة من نقص في الأموال فذلك يظهر بوضوح تام التوتر الذي كانت تحت وطأته الأحوال المالية والإدارية لدولة صلاح الدين . وهذا ما أرعب الفاضل . فقد كان يخشى من أن السخط الذي كان متفشياً في صفوف الفرنجة قد يقضي إلى حملة صليبية أخرى ، وكتب يقول إن الأنباء عمّا حصل كان أشد خطراً مما يمكن أن يراه حجاج الفرنجة بأم أعينهم ، لا سيما وأنه غالباً ما كانت «التقارير المخزية قد أثارت أولئك الذين كانوا غير مبالين»[١٣٢] .

وبنتيجة هذه الضغوط غير صلاح الدين رأيه حول القيام بفريضة الحج ، فذهب عوضاً عن ذلك إلى القدس ، وكان ذلك في ٤ رمضان/ ١٣ أيلول . بعدئذٍ ، أرسل مبعوثاً إلى بغداد بعد أن تشاور في ذلك مع العادل ، بغية إجراء مباحثات حول أفضل السبل لتحسين العلاقات . وفي ٢٧ رمضان ٦ تشرين الأول استأذن الظاهر بالانصراف . وقال ابن شداد بأن صلاح الدين أوصاه «بتقوى الله فإنها رأس كل خير» ، «وأحذرك من الدماء ، فإن الدم لا تنام» ، «أوصيك بحفظ قلوب الأمراء وأرباب الدولة ، فما بلغت ما بلغت إلا بمداراة الناس» . «حينئذ قبّل وجهه ومسح يده على رأسه وانصرف»[١٣٣] . وفي ٦ شوال/ ١٥ تشرين الأول ذهب في زيارة قصيرة إلى بيروت ، حيث فاجأ بوهمند المسلمين بزيارته بدون جواز مرور . وفي ٢٦ شوال/ ٤ تشرين الثاني عاد إلى دمشق ، وكانت عودته هي المرّة الأولى منذ ربيع الأول/ نيسان ١١٨٩ . وفكر الآن في الذهاب إلى مصر التي لم يكن قد رآها لمدة عشر سنين ، غير أنه غير رأيه مرة أخرى فأمضى الشتاء في دمشق ، أو في رحلات قنص في المناطق الريفية حول دمشق . وفي ١٢ صفر ٥٨٩/ ١٦شباط ١١٩٣ احتفى بابن شداد الذي كان قد وصلها من القدس ، وعيناه ترقرقان بالدمع . لقد كان شتاء ممطراً «وسالت المياه في الطرق كالأنهار»[١٣٤] ولم يكن صلاح الدين في صحة جيدة . وكأن بدنه كان ممتلئاً وعنده تكسل .

وفي ١٥ صفر/ ٢٠ شباط ذهب يستقبل الحجيج العائدين من مكة ، وفي منتصف الليل سقط طريح الفراش . وفي اليوم الرابع من مرضه فُصِدَ[١٣٥] . وفي اليوم السادس كان ابن شداد حاضراً بينما كان هو يشرب ماء فاتراً ، إلا أن المرض

قد اشتد عليه ، وكان فكره تائهاً . وفي اليوم التاسع توقف عن أخذ السوائل وانفجر يرتجف بتأثير الحمى . ومنذ ذلك الوقت فصاعداً لم يكن واعياً إلا بين حين وحين . وانتشر الخوف عبر دمشق ، فأزال التجار سلعهم من الأسواق . وكان الفاضل وابن شداد يذهبان لزيارته كل مساء ليرياه أو ليطلعا على وضعه الصحي ، وقد كتب ابن شداد يقول : «لقد قرأ الناس أحواله في صفحات وجوهنا» . وفي اليوم العاشر أعطي حقنة شرجية ، وشرب بعض ماء الشعير ، فتصبب العرق من ساقيه فاعتبر هذا علامة طيبة . وفي اليوم الحادي عشر ، أي في ٢٦ صفر/ ٣ شباط ، أفرط العرق حتى نفذ في الفرش ثم في الحصر وتأثرت به الأرض . وفي ذلك المساء ، ساءت حالته ، فلم يسمح لابن شداد والفاضل برؤيته . وقد عرض الأفضل أن يأويهما تلك الليلة ، غير أن الفاضل خشي بأنهما إذا لم يغادرا القلعة كالمعتاد ، فقد تحدث الفوضى في المدينة . وكان الإمام أبو جعفر والفاضل معه في صباح ٢٧ صفر/ ٤ آذار . وكان الإمام يقرأ عنده القرآن . «وقيل إنه حين وصل في تلاوته إلى الكلمات : «هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة ، لا إله إلاّ الله عليه توكلت» ، تبسم وتهلل وجهه وسلمها إلى ربه» .

٢٢ ـ الخلاصة

كان صلاح الدين يُرى وهو على فراش موته في دمشق بطل الإسلام ومحطم المملكة اللاتينية ومحرر الأماكن المقدسة في القدس. هذه النبرة عارضها عدد من معاصريه المسلمين. والمديح والذم المتضمنان في مثل هذه التقويمات ينفعان في التوكيد على مسألة علاقة صلاح الدين بجذوره الاجتماعية والسياسية. وينبغي أن يرد هذا، تباعاً، إلى صفاته الشخصية بقدر ما يمكن رؤية هذه الصفات، لتبين المدى الذي استطاع فيه أن يسيطر على الأحداث بدلاً من مجرد الاستجابة والرد على هذه الأحداث.

ولا بد من التسجيل لصلاح الدين، كقائد حربي، نصرين حاسمين في المعارك الميدانية ضد الجيوش الإسلامية في قرني حماه، وفي تل السلطان، بالإضافة إلى انتصاراته على الفرنجة في مرجعيون وحطين. كما أنه بالنسبة لطول مدة المعارك وآثارها على سيرته، نرى نجاحاً لا يقل أهمية ألا وهو سحقه للزنوج في قتال الشورع الذي جرى في مدينة القاهرة، في حين شملت نكساته معركة الرملة وخسارة عكا ومعركة أرسوف ويافا.

ولا بد من التوكيد على أن سوء اتصالات القتال الميداني في هذه الحقبة، قد حد من الفعالية التكتيكية لأي قائد عسكري حين تكون المعركة محتدمة. وهذا هو السبب في خطأ صلاح الدين الذي قارب حد الكارثة في معركة ١١٨٩ في عكا، وإخفاقه في تنسيق كمينه في تبنين في القسم الأبكر من السنة نفسها. في ضوء هذا

كله، ينبغي أن تكون الأحكام مبنية على المعالجة البارعة للزمان والمكان والأعداد. وقد استعمل صلاح الدين على أفضل حال، الزمان والأعداد باقتصاد ملحوظ، وبخاصة في قرني حماه، وخلال زحفه الأول على دمشق في وقت أسبق. وكانت حطين ذروة حملة بارزة من ناحية تركيز القوة العسكرية في اللحظة الحرجة. وفي حصار عكا واجه صلاح الدين مشكلة معقدة غاية التعقيد في محاولته حشد جيش من النيل والفرات ودجلة، ثم تدبر أمر الراحة الانتظامية لفرق جيوشه في حين يبقى محتفظاً بقدرته الهجومية. لقد مني، كما بيّنا، بعدد من الإخفاقات، غير أن هذه الإخفاقات غطت عليها إنتصاراته ونجاحه العام في الاحتفاظ برجاله في ميدان القتال.

ولدى صلاح الدين سجل نجاح مؤثر في أعمال الحصار الجريئة بالرغم من الوقت الذي هدره في حلب والموصل وإخفاقه في صور. وينبغي أيضاً أن نلاحظ بأنه لم يواصل إلى النهاية معركته في بيسان في ٥٧٩/ ١١٨٢، أو في عين جالوت في العام ٥٨٠/ ١١٨٣. ويمكن تفسير ذلك جزئياً، بأن المعركتين كانتا غزوتين. ويمكن القول كذلك بأن حملتي بيسان وعين جالوت كانتا في المقام الأول تمويهاً سياسياً للخطة الكبرى ضد الموصل. ويمكن أن يوجه انتقاد أوسع إلى رغبته الظاهرة تسليم المبادرة إلى الفرنجة بعد قيام غي بالزحف على عكا. وفي الواقع كان يمكن النظر إلى تكتيكه طوال الحملة الصليبية الثالثة كتكتيك حذر. وهنا أيضاً ينبغي أن لا ننسى العوامل المتشابكة، وبخاصة الأعداد والمؤن والمعنويات. ومع أن جيش المسلمين لم يكن في بعض الأحيان شديد الفعالية، فقد كان عناد صلاح الدين وقدرته التنظيمية قد سمحا له أن يستر دمّاً كان يمكن أن يكون سبباً لفقدان المكانة والنفوذ.

ولا بد من تسجيل نقطة لصالحه وهي قوة جهاز استخباراته. لقد فاجأه بلدوين في مرجعيون وفشل في إنقاذ القافلة المصرية من ريتشارد، غير أنه كان قادراً، بصورة عامة على تركيز خططه وفقاً لمعلومات صحيحة تقريباً. وإذا كان بالإمكان أن نعزو ذلك إلى التنظيم الفعال، فقد يكون العكس صحيحاً بالنسبة لفشله الواضح الذي حدث في البحر. لقد أثبت حصار عكا بشكل قاطع أنه لم يستطع أن يتحدى التفوق البحري الفرنجي. ويبدو أنه بالرغم من اهتمامه بتحسين الأمر بشكل فعال فقد ظل تفوقه البحري محدوداً.

وكان الجهاز الإداري نفسه يتكون من بيروقراطية موروثة يعمل داخل إطارها نظام من الرعاية والإشراف يرئسه صلاح الدين. كانت الرعاية وليس العمل الإداري الرسمي التي بدت بأنها شغلت وقته الخاص، فحول إليه العديد من الطلبات حتى أنه نقل عنه القول: «قبلي، كان الرعايا يخافون من الملوك ويفرون هرباً منهم... ولكنهم يأتون الآن إلي بمهمات إلى أن يرهقوني»[١]. وانتشر أسلوب الرعاية في البنية الاجتماعية. وكتب الفاضل أنه سيكون لصلاح الدين ثواب الآخرة على المصاعب التي واجهها في جمع الأموال في حين كان أبناؤه يجهدون في تبديدها. لقد كان المستولي الخازن لدى صلاح الدين يدفع الأموال للأشخاص الذين هم تحت رعاية عماد الدين دون أن يطلب من سيده أن يعطيه الصلاحية لذلك[٢]. كما استمر في دفع رواتب الأمير نجم الدين بن مصال بعد وفاته لأن الأمير نجم الدين أوصى به[٣].

إن تعايش البيروقراطية ونظام الرعاية هو ظاهرة شائعة وغير مؤذية على الأغلب. إنما يظهر الضعف عند تشابك المصالح الخاصة واستئثار يد واحدة بالرعاية بطريقة تحول دون تحقيق الفعالية والكفاية. فليس من المستغرب إذن، أن نجد في هذه الفترة أن المال الذي كان يعِد به القيمون على الرعاية كان يَمْتنع عن دفعه الإداريون. ان الإداريين كانوا يخالفون قواعد النظام بتجاهلهم المكانة المميزة لمحميي هذا النظام. وازدادت هذه المصاعب بسبب تفتيت إمبراطورية صلاح الدين. فقد أعطى تورانشاه في سوريا عماد الدين منحة من العائدات المالية من «عيذاب». وكانت حجته أن: «عيذاب على أي حال أقرب من عدن»[٤]. وكان عليه بعدها أن يرسل المستند في الحقيبة الدبلوماسية إلى الفاضل الذي كلف بأن يأخذها بنفسه إلى عيذاب في طريقه إلى مكة.

وقد أدرج تعريف للسلطة الإدارية، ذكر في رسالة إلى بغداد، أن التعيينات والصرف من الخدمة بين مهماتها الأساسية[٥]. وكما مر معنا من قبل، كان صلاح الدين قد أسرع في نقل أفراد عائلته. فأعطى أخوه بوري إقطاعات الفيوم في عام ٥٧٦ للهجرة (١١٨٠ ـ ١) وحولت هذه الإقطاعات في العام نفسه إلى تقي الدين[٦]. وأرسل تورانشاه إلى مصر بعد تسليم ابن المقدم بعلبك. واستدعي الظاهر في شتاء عام ٥٨٠/ ١١٨٣ بعد تمضيته أقل من ستة أشهر في حلب. وظهر أن الدافع لمثل هذه التنقلات كان بصورة عامة ذا فائدة قصيرة الأمد، ولم يكن من

عادة صلاح الدين أن يحول دون الاشغال المتواصل لقواعد النفوذ ضمن حدود بلاده، وأحد الشواهد على ذلك هو الواقع في أن ناصر الدين محمد بن شيركوه قد ترك مكلفاً بمدينة حمص حتى وفاته. وإن ما هو أكثر أهمية، هو إن شيئاً إيجابياً لم يحدث لإزاحة طغتكين في اليمن رغم تصرفه المحرج هناك.

ونرى في أسفل السلم انه تم تثبيت حلفاء من غير الأيوبيين مثل دلدرم صاحب تل باشر ومنكورس صاحب بوقبيس في ملكية أراضيهم. ولعل ذلك كان لتأمين الاستقرار والإدارة الحسنة ولتجنب معاداة المناصرين. كما تجدر الإشارة إلى أن عدداً من التعيينات قد فرض بالقوة. فقد أفادت رسالة مؤرخة ٥٧٥/ ١١٧٩ ان الأمير عز الدين موسك قد استعفى من منصبه كوالٍ للمقاطعة الشرقية في مصر ثم «رده السلطان إليها ضد رغبته»[٧]. كذلك فرضت قلعة كوكب بعد سقوطها على صارم الدين قايماز. ولم يكن قادة صلاح الدين ناجحين دائماً كإداريين مدنيين. فقد استبدل أبو الهيجاء في نصيبين في العام ٥٨٠/ ١١٨٣، كما كانت هنالك شكاوى على المشطوب في نابلس في العام ٥٨٨/ ١١٩٢[٨]. ويمكن أن يعكس إجباره المترددين على قبول مراكزهم إلى عدم وجود حكام أكفاء. وكذلك يوحي استخدامه الكتبة المسيحيين واليهود إلى وجود مشكلة مماثلة في مستوى أدنى. أضف إلى ذلك أن المال كان عاملاً آخر حمل الحكام على التردد في قبول تعييناتهم. فقد أكدت رسالة صلاح الدين إلى فروخ شاه في شأن تحصينات دمياط وحاميتها على أنه على صاحب الإقطاع أن يتحمل نفقات الدفاع عن إقطاعه[٩]. وكذلك فعلت أوامره إلى تقي الدين والمشطوب في ٥٧٤/ ١١٧٨ - ٩ إذ «أمرهم بالإستكثار من الرجال واستخدام نخب الأبطال»[١٠]. ولا بد من أن يكون ذلك قد أبعد الأمراء عن التطوع في تسلم الأماكن التي تحتاج إلى حاميات كبيرة وإصلاحات باهظة الأكلاف. وينبغي أن ينظر إلى علم الدين سليمان الذي وجه إليه عماد الدين الانتقاد لبيعه الحبوب من بغراس إلى الفرنجة أنه كان يعوض عن خساراته بدلاً من أن يجني الربح غير المشروع.

وكان بالإمكان رؤية مصاعب صلاح الدين المالية بيّنة في رسائله الخاصة وفي شكاوى الفاضل وعماد الدين. وفي أعلى درجات السلم، تظهر الرابطة بين السلطة والمال المقترض بالمبالغ الطائلة التي كان يدين بها تورانشاه عند وفاته. لقد كان هنالك موقف غامض إزاء التبذير. كان الكرم إحدى الفضائل البدوية

المحتفظ بها بقدسية في الحماسة التي زودت صلاح الدين ومعاصريه، كما سبق وأشرنا، بالعديد من عاداتهم وأعرافهم. لقد كتب الفاضل يقول: «والدَّيْنُ داء يصيب الكرام»[١١]. ونقل حكاية عن هارون الرشيد الذي قال له أحد وزرائه وهو يحضّر لإحدى غزواته: «يا أمير المؤمنين، تكثر الكلف» فأجابه قائلاً: «لا يضيع مال ورث الحمد أهله»[١٢]. ومن جهة أخرى، كانت هنالك شكاوى الفاضل حول الاقتصاد المصري الذي ينوء بالأعباء الثقيلة. وقد أوضح في رسالة إلى أمين خزينة صلاح الدين في دمشق انه لما كان الرهن أكثر مما تنتجه الأرض فقد أدى ذلك إلى إفراغ الخزينة وحرم المسلمين من ثروتهم[١٣].

أخضع صلاح الدين المال للرجال. فقد استخدم ثروة مصر، كما روى الفاضل لغزو سوريا، وثروة سوريا لغزو الجزيرة، وثروة الجزيرة لغزو الساحل[١٤]. أضف إلى ذلك أنه بمثل هذه الطريقة، كما روى الفاضل أيضاً، فإن «الآمال بالتوسع لا يمكن أبداً أن تنتهي». والمصاعب التي نشبت حيث توقف التوسع «لا يمكن أبداً أن تنتهي». والمصاعب التي نشبت حيث توقف التوسع يمكن أن نراها في التقارير حول اضطرابات العنف التي انفجرت بين الفلاحين القاطنين قرب دمشق في نهاية الحملة الصليبية الثالثة[١٥]، والفقر الذي غمر القدس في حياة صلاح الدين وبعد موته على السواء، والشكاوى التي تعالت بعد وفاته بأن «الرواتب في مصر بقيت رواتب بالاسم فقط وليس لها أي معنى»[١٦]. ومن أجل إقامته التوازن مع ذلك، يمكن القول بأن الاقتصاد الذي ينبغي أن يكون مرناً بما يكفي لمواجهة فترات المجاعة والكوارث الطبيعية، يمكن أن يتقبل تبديلاً قصير الأمد. لقد دون وليم الصوري أن السخاء كان واحداً من أخطر أسلحة صلاح الدين[١٧]، وإنه مهما كان هنالك من ضغوط وخيبات أمل فقد نجح دون ريب في هدفه الرئيسي وهو جمع «مواد» الحرب المؤلفة من الرجال والمؤن والمال.

كان السخاء سلاحاً في صراع السلطة، متحالفاً مع الدبلوماسية، على صعيدي التعامل الشخصي والتعامل بين الدول. ومع أن صلاح الدين كان يتميز بمقدرته على معالجة أمور رجاله، فإنه واجه في هذا الحقل مصاعب جمة. وتبقى علاقته، في هذا المجال، مع نور الدين مثار إعجاب إذ لم تشبها أية ثغرة على الإطلاق. وكانت خصوماته السابقة مع القاضي كمال الدين قد سويت حبياً وبسخاء. كذلك لم يكن من المعقول أن يرفض انخراط خصم مثل قطب الدين في

خدمته أو أن يترك الزعفراني يعمل في خدمته. أما لماذا لم يستطع أن يستعيد رفيقه القديم جرديك فذلك أمر غريب. وفي أواخر سيرتـه نرى أن توقيف كوكبـوري وارتداد سنجر شاه كانا نكستين. ولكن من جهة ثانية، وحين نأخذ بعين الإعتبار المصاعب المتشابكة نرى أن علاقاتـه العـائلية كانـت ناجحـة. ولا بد من الإعتراف بأنه كان على وشك قطع الصلة مع تقي الدين حين جرى أستدعاؤه من مصـر في العام ٥٨٣/ ١١٨٦، وكانت نزعة تقي الدين نحو الإستقلال ما أبعده وأقعده فيما بعد عن الجهاد. وكان تورانشاه مصدر إحراج في مسألة بعلبـك، كمـا سبـب له طغتكين إحراجاً وخيبة أمل في اليمن. وسرت شائعات عديدة عن وجود تذمر لدى تورانشاه وناصر الدين محمد بن شيركوه. ولكن على الرغم من ذلك كان الأيوبيون يعملون كوحدة عائلية ناجحة ولم يهدد تماسكهم أي خطر جدي إلا بعد وفاة تقي الدين.

كانت مناورات صلاح الدين الدبلوماسية على جبهة أعرض، مفتوحة لجميع التأويلات. وتجدر الإشارة أن حجم المراسلات الدبلوماسية كان ضخماً حقاً. ويجب أن ننظر إلى المبادلات الناقصة التسجيل كجزء من عملية متواصلة، كان الهدف الرئيسي منها جمع المعلومات. ويمكننا أن نجد الشواهد على ذلك في بعثة العيسى إلى معسكر البهلوان خارج خيلاط، وفي تبادل الرسائـل مع الصـليبيين. علاوة على ذلك، ينبغي ألا تؤخذ عروض صلاح الدين التـي وردت في رسائلـه بحرفيتها بل على أنها حدود قد وضعها للتفاوض لا يجوز تعديها. لذلك نجده في أوقات مختلفة يتفاوض مع البيزنـطيين وريمونـد صاحـب طرابلس، وكونـراد دو مونتفرا، وعلى ما يبدو، غي دو لوزينيان ضد الفرنجة. ويضاهي الزحف المشترك على الموصل الذي اقترحه على عماد الدين زنكي ما كتبه إلى الامبراطور إسحق والي كونراد. فلم يكن عرضه بإقامة اتحاد هجومي سوى مجرد منـاورة. إذ أنـه تخلى فيما بعد عن ذكر أي شيء حول هذا الموضوع حين عقد إتفاقية مع كونراد. وابتعـاده عن كل من إسحـق وريمونـد كرجلين، لا تؤثـر عليه صداقتيهمـا أو عداوتيهما، يمكن اعتباره حقيقياً إلى الحد الذي كان يُحتمل عنده أن يكون مستعداً للموافقة على الحياد. وينبغي في ضوء هذا الأسلوب ألا نذهب بعيداً فيما يتعلق بالاقتراحات في أنه خطط لحملة دبلوماسية واسعة النطاق بعيدة الأثر ترمي إلى عزل فرنجة الساحل بواسطة معاهدات تعقد مع المدن الإيطالية ومع البيزنطيين.

وينطبق تفسير مماثل على ما يبدو أنه سياسة ظرفية تظهر في بعض رسائله. فإشاراته إلى وفاة أملرك مثلاً، كانت للاستهلاك الخارجي والداخلي، ولا يمكن اعتبارها بأنها تبدي أي مشاعر شخصية. وللسبب نفسه، ينبغي ألا تفسر التهاني المرسلة إليه بعد الاستيلاء على القدس وكأنها تظهر بأن نجاحه قد استمال خصومه. والدعوة إلى الحرب المقدسة والتبرير الذاتي المستمر لرسائله إلى بغداد هي أمثلة على البيان المفرط حيث يظهر فيه كل شيء بصيغ متطرفة. وكل التناقضات الداخلية كانت تموه أو يجري تجاهلها. ومهما يكن من أمر فيجب على الأقل تبرئته من تهمة السخرية.

إن سلطة صلاح الدين كانت ترتكز في الدرجة الأولى إلى القوة العسكرية وقد تميزت بقدرتها على تزويد المجتمع بقوة دفاعية جاهزة ضد التهديدات الخارجية. غير أنها أصيبت بسوء الإدارة وسببه التنظيم المفكك لإمبراطورية صلاح الدين. فعيذاب مثلاً التي كانت في السابق جزءاً من ممتلكات صلاح الدين في مصر، أصبح بإمكان ابن جبير وصفها في العام ٥٧٩/ ١١٨٣ بأنها «شبه مستقلة»[١٨]. ورغم جميع انتصارات صلاح الدين في شرقي الفرات، فقد كان بمقدور الفاضل أثناء مرض صلاح الدين أن يشدد على وجوب انتقاله من حران إلى بلاده[١٩]. وربما أمكن تفسير هذه التصرفات على أنها تجاذب بين القوة الدافعة بعيداً عن المركز والقوة الجاذبة إلى المركز أي لمراكز النفوذ. كذلك يمكن تفسيرها خلافاً لما كان واقع الحال في العالم البيزنطي ـ العربي القديم حيث كانت المؤسسات المتوازية كالمدارس والكليات والمستشفيات تحت إشراف بيرقراطي حذر وذلك بسبب تدفق قبائل «الفرنجة» والأتراك والأكراد التي جذبت إلى هذه المراكز[٢٠]. وإن التكيف مع هذه الجماعات الحربية واستيعابها سيؤثر على المجتمع بأسره. وقد نشط صلاح الدين طيلة حياته العسكرية والإدارية إلى تنمية هذه الطاقة البشرية غير المنضبطة وتوجيهها إلى الخارج. وقد فشلت المحاولة. وينبغي أن تدرس نتائجها، بالإضافة إلى المشكلات الأخرى التي تكمن جذورها في هذه الحقبة وبخاصة تأثير حروب صلاح الدين على الحياة الإقتصادية والنتائج الإجتماعية.

إن أفعال صلاح الدين، في هذا المجال هي التي لها صلة بالموضوع أكثر مما لشخصيته صلة. غير أن الأبحاث المتطلعة الأوسع والأشمل والتي هي خارج

نطاق سيرة الرجل، ينبغي أيضاً أن تأخذ بالحسبان ما يكمن وراء ميزانية النجاح والفشل، ونوعية الفكر، ومن ثم مقياس الأصالة والإبداع لدى الرجل نفسه. فعماد الدين يرسم صورة ثابتة لبطل كانت حياته مرتكزة على احتقار ومرتكزة إلى تكريس الذات للحرب المقدسة «التي يكون التخلي عنها خطيئة ليس لها من مبرر أمام الله»[٢١]. وكم أخطأ أناس من حوله في هذا المجال!

كان ابن شداد برفقة صلاح الدين في يوم من أيام الشتاء قرب ساحل عكا أثناء الحصار الافرنجي. ولم يكن ابن شداد قد رأى البحر إلا منذ مدة وجيزة، وقد أرهبته الأمواج إلى درجة دفعته إلى كتابة ما يلي: «لو قال لي قادر: إن جزت في البحر ميلاً واحداً ملكتك الدنيا، لما كنت أفعل واستسخفت رأي من ركب البحر رجاء لكسب دينار أو درهم واستحسنت رأي من لا يقبل شهادة راكب بحر.

«فبينما أنا في ذلك إذ التفت إلي، رحمه الله، وقال: أما أحكي لك شيئاً؟ قلت: بلى. قال: في نفسي، إنه متى ما يسر الله تعالى فتح بقية الساحل قسمت البلاد، وأوصيت وودعت وركبت هذا البحر إلى جزائرهم أتتبعهم فيها حتى لا أبقي على وجه الأرض من يكفر بالله، أو أموت»[٢٢].

إن صلاح الدين الذي اعترض على إشارة شعرية إلى الأوراق الفضية «لأن الأوراق خضراء»[٢٣] يتبنى بوضوح طريقة «الإنسان البسيط» وتعكس صفته التقليدية أحد وجوه الإسلام كقوة اجتماعية استيعابية. وهنا يكون اللاتقليدي، مثل فلسفة السهروردي الصوفية أمراً خطيراً، إذ لا يوجد القاسم المشترك بينهما في العقل بل في الانفعال. وكان صلاح الدين نفسه، كما رأينا رجلاً عاطفياً، فقد رأيناه يبكي حين توفي تقي الدين، وحين أعيد الطفل الفرنجي إلى أمه في حصار عكا. وربما كان يعجب، على نحو ذي معنى، بهذين البيتين من الشعر:

«سنة تمضي، وتتبعها سنة أخرى.
«وشهر يعود، ثم شهراً آخر»[٢٤].

إن التعبير البسيط عن هذه الفكرة التقليدية يلتف حول أمر تافه، ولكنه يرمي إلى أرضية مشتركة من الانفعال الذي يمكن أن يحدد من غير فكر. وإن هذا السخاء من الشعور المنبثق من هذه الأرضية هو الذي أعطى الصليبيين وحروبهم صفة جديدة. فقد أعجب المسلمون بالفرنجة الذين كانوا يقاتلون ليس من أجل المال أو من

الخوف، أو بسبب الإكراه من قبل الحاكم، ولكن بمحض «الحماس الديني»[٢٥]. في حين أنه من جهة أخرى، لو لم يكن المسلمون من غير دينهم، لقال عنهم الفرنجة أنه لم يخلق في الرجال أفضل منهم. وهذا بدوره هو الأساس للأسطورة الغربية التي رفعت صلاح الدين إلى مصاف هكتور وإينياس وقيصر.

إن ذلك، بالتأكيد، ما أفاد في شرح الكثير مما يمكن أن يعرف عن صلاح الدين نفسه، فلا يمكن النظر إليه على أنه مجدد. لقد كان استراتيجياً وتكتيكياً جيداً، وإدارياً مبسوط اليد، ورجلاً ذا نصيب من الأخطاء والدوافع المختلفة. أضف إلى أن سمعته في التاريخ والأسطورة ترتكز إلى تماثله مع الإنفعال التقليدي. ويبدو في كل ما فعل أنه حافظ على موقع «وسط» لا متطرف. وسيطرت عليه الفضائل التي جذبته لكونها هي ذاتها تقليدية. ولم يكن مهتماً بتمحيص مثله العليا، أو أن يتساءل ولو بشكل ظاهري إلى أي مدى كان متقيداً بها. لقد كانت هذه المثل جزءاً من التراث الإسلامي تقبلها وحاول أن لا يحيد عنها.

وليس من المستغرب أنه فشل في كسب أعدائه من المسلمين إلى جانبه، ولكنه ترك انطباعاً عظيماً لدى الفرنجة. أما في ما يتعلق بأعدائه فقد كتب ابن شداد يقول: «كلا، لقد كنت أسمع من بعض الناس بأنهم يتمنون فداء من يعز عليهم بنفوسهم. وما سمعت هذا الحديث إلا على ضرب من التجوز والترخص إلا ذلك اليوم، فإني علمت من نفسي ومن غيري أنه لو قُبل «الفداء» لفدي بالنفس»[٢٦].

الهوامش

هوامش الفصل الأول

(١) أنظر بوجه خاص:

Gibb, The Arabic Sources for the life of Saladin; Elisséeff, Nur ad- Din sq. Sauvaget and cahen, Introduction to the History of the Muslim East. أ ـ

وهي رواية لم تذكرها المصادر في: تاريخ ابن أبي الهيجا، حيث يدعي المؤلف أنه كان معاصراً لصلاح الدين. (قارن المخطوطات المصرية، القاهرة، دون تاريخ القسم الثاني، التاريخ ج ٣٠ ص ٥٦).

(٢) سنا البرق الشامي جـ ١، باعتناء ششن، والقسم غير المنشور من هذا المؤلف يشار إليه بـ(سنا البرق للنبراوي.

(٣) شك الكاتب «جب» في الثقة بابن الأثير واعتبره (محامي الشيطان) ضد صلاح الدين في المصادر العربية التي تناولت سيرة صلاح الدين، هو أمر مهم؛ ولكنه يمنح عماد الدين ثقة مبالغ فيها.

(٤) قارن A. H. Helbig, Al - Qadi al-Fadil, Berlin 1909 (القاضي الفاضل، وزير صلاح الدين).

(٥) الفاضل: الدر النظيمة.

(٦) مخطوط: نوري عثمانية، استانبول رقم ٣٧٤٥، تبين تفاصيل السيرة الذاتية ويذكر فيها أن المؤلف ترك الموصل ليخدم الأفضل، ويضم المخطوط رسالة نسبها الناسخ إلى عمارة اليمني.

(٧) مخطوط أيا صوفيا رقم ٤٢٩٩.

(٨) In Search of Cultural History, 39.

(٩) قارن: Minorsky, The Prehistory of Salakin

(١٠) أبو شامة، ٥٣٥ ـ ٦.

(١١) ميشال السوري ١٨، ١٠: ٣٢٥.

(١٢) أبو شامة ٥٣٩.

(١٣) قارن ابن أبي الهجاء ٢٠١.

(١٤) مخطوط كمبردج ١٢.

(١٥) مخطوط رقم ٢٥٧٥٧: ٣٩.

(١٦) مخطوط ٧٤٦٥: ٥، وقارن حماسة أبي تمام ٢: ٣٦٢.

(١٧) مخطوط ميونخ ١١٣.

(١٨) الوهراني ٢٢٨ .
(١٩) ابن شداد ٣٤.
(٢٠) البنداري ٣٤٩.
(٢١) الوهراني ٢٢٨ .
(٢٢) رحلة ابن خبير ٢٢٨ وما يلي .
(٢٣) (يوميات ريتشارد الأول) Itinerary of Richard I, 71 وقارن: النعم على تاريخ وليم أسقف صور The Latin Continuation, 59 .
(٢٤) أسامة بن منقذ ١٥٤ .
(٢٥) ميونخ ١٢٢ .
(٢٦) قارن: Lapidus, Muslim Cities in the Later Middle Ages, 90 نشرت بالعربية: مدن اسلامية في عهد المماليك، الأهلية للنشر، ١٩٨٧. Ritter, Irrational Solidarity Group .
(٢٧) وليم أسقف صور ٩٢٥. وقارن Napoleon, Guerre d'Orient, 2: 41
(٢٨) قارن: ابن الأثير ١٢ : ٢٥ .
(٢٩) أسامة بن منقذ: ٨٤.
(٣٠) ٢٥٧٥٧: ١٥، القلقشندي ١٣ : ١٨، أيضاً توب قابو ٦٥، ليدن ٢٠٧ .
(٣١) حول أهمية مركز بني الداية، أنظر لاحقاً.
(٣٢) قارن لاحقاً .
(٣٣) حول خلفيات هذا الإنحطاط قارن: Ehrenkreutz, 13 Sq
(٣٤) الوهراني: ٤ .
(٣٥) أنظر الهامش ٣٢.
(٣٦) الوهراني: ٤ .
(٣٧) التتمة ٦١.
(٣٨) وليم أسقف صور ٨٩٣.
(٣٩) ابن شداد ٤٠ .
(٤٠) ابن الأثير ١١: ٢٩٨.
(٤١) أبو شامة ٤١٨ .
(٤٢) المصدر نفسه .
(٤٣) ابن الأثير ١١: ٢٩٩.
(٤٤) مخ ٢٥٧٥٧: ١٥.
(٤٥) تاريخ الأتابكة ١٢٦ .
(٤٦) أبو شامة ٤٢١، قارن أيضاً، خطط المقريزي ١: ٣٣٨.
(٤٧) ابن الأثير ١١: ٢٩٩ .
(٤٨) عن تفاصيل القتال، أنظر أبو شامة ٤١٩ وما يليها، خطط ١: ٣٣٨.
(٤٩) قارن أبو شامة ٤٠٢، القلقشندي ١٠: ٣١٠.
(٥٠) أبو شامة ٤٢٠ .
(٥١) قارن: الهامش ٤٢ .
(٥٢) ابن الأثير ١١: ٣٠٠، وحول تحصينات بلبيس راجع، خطط ١: ١٧٤.
(٥٣) أبو شامة ٤٢٣ .
(٥٤) قارن: البنداري ٦١ أبو شامة ٤٢٣.

(٥٥) قارن: ابن الأثير ١١: ٣٠٠، وليم الصوري ٨٩٢.
(٥٦) سبط ابن الجوري ٢٩٥، شفاء القلوب ١٠.
(٥٧) ٥٤٣ للهجرة.
(٥٨) أبو شامة ٤٠٨.
(٥٩) حول ولدي شيركوه قارن: خريدة ١: ١٩٣.
(٦٠) جب: ٤ وما يليها يتفق مع رواية ابن أبي طي (أبو شامة ١: ١٠٠). وانظر أيضاً: أهرنكروتز: ٣٢، وقارن سبط ابن الجوري ٣٢٧ و «دولة الأكراد»: ١.
(٦١) رحلة ابن جبير ٢٩٨ (صاحب الشرطة).
(٦٢) أبو شامة ١: ١٠٠، شفاء القلوب ١٥.
(٦٣) يوميات ريتشارد الأول ٧٢، التتمة ٦٠.
(٦٤) الوهراني ٢٨.
(٦٥) البنداري ٢٢٢.
(٦٦) وليم الصوري ٩٠٢.
(٦٧) المصدر نفسه ٩٠٣.
(٦٨) ابن شداد ٣٧.
(٦٩) وليم الصوري ٩٠٥.
(٧٠) أبو شامة ٤٢٤.
(٧١) قارن أبو شامة ٣٣٩ وما يليها.
(٧٢) ابن الأثير ١١: ٣٢٤، ٣٢٦.
(٧٣) ٢٥٧٥٧: ١٥.
(٧٤) وليم الصوري ٩٢٥، وحسب هذه الفقرة، فإنه حين كانت معركة البابين جمع شيركوه ما بين ١٠ و ١١ ألفاً من الأعراب.
(٧٥) أبو شامة ٤٢٤.
(٧٦) وليم الصوري ٩٠٨.
(٧٧) البنداري ٦٢.
(٧٨) وليم الصوري: ٩٠٤.
(٧٩) المصدر نفسه ٩٠٥.
(٨٠) أبو شامة ٤٠٠.
(٨١) المصدر نفسه ٤٢٥.
(٨٢) قارن، فخ، القاهرة ٣٤.
(٨٣) أبو شامة ٤٢٦.
(٨٤) المصدر نفسه ٤٢٥.
(٨٥) وليم الصوري ٩١٨.
(٨٦) المصدر نفسه ٩٢١.
(٨٧) أبو شامة ٤٢٦.
(٨٨) مخ ٧٣٠٧: ١٠٣.
(٨٩) أبو شامة ٤٢٦.
(٩٠) وليم الصوري ٩٢٥.
(٩١) سبط ابن الجوزي ٢٦٩.

(٩٢) ابن الأثير ١١ : ٣٢٥.
(٩٣) البنداري ٦٣.
(٩٤) أبو شامة ٤٢٦.
(٩٥) مخ ، لايدن ، الكتاب الثالث في الإفتخار.
(٩٦) أبو شامة ٤٢٦ ؛ وليم الصوري ٩٢٥ قدر رجال شيركوه بـ ١٢ ألفاً من الأتراك و ١٠ ـ ١١ ألفاً من الأعراب وقدر أنه كان مع أملرك ٣٧٤ فارساً وعدد من التركوبولية الذين وصفوا بأنهم لا نفع لهم في الحروب ، كما وصف المصريون أنهم لا جدوى منهم وهم مخنثون.
(٩٧) البنداري ٦٣.
(٩٨) عمر بن عبد العزيز بن العديم «سوق الفاضل» ٣.
(٩٩) ابن الأثير ١١ : ٣٢٦.
(١٠٠) وليم الصوري ٩٢٨.
(١٠١) تاريخ ٣ : ١ : ٨٩.
(١٠٢) وليم الصوري ٩٢٨.
(١٠٣) المصدر نفسه ٩٢٩.
(١٠٤) المصدر نفسه ٩٣٤.
(١٠٥) المصدر نفسه ٩٣٨.
(١٠٦) خطط ١ : ١٧٤ ، ويضيف المقريزي أنه كان بإمرة صلاح الدين ١٠٠٠ فارس.
(١٠٧) وليم الصوري ٩٣٣.
(١٠٨) المصدر نفسه ٩٣٢.
(١٠٩) أبو شامة ٤٢٧.
(١١٠) وليم الصوري ٩٣٣.
(١١١) المصدر نفسه ٩٣٤.
(١١٢) البنداري ٦٤.
(١١٣) ابن شداد ٣٨.
(١١٤) البنداري ٦٤.
(١١٥) خطط ١ : ٣٣٩.
(١١٦) وليم الصوري ٩٣٦.
(١١٧) المصدر نفسه ٩٣٧.
(١١٨) المصدر نفسه ٩٣٨، خطط ١ : ١٧٥.
(١١٩) وليم الصوري ٩٣٨.
(١٢٠) خطط ١ : ١٧٥ ، وحسب ابن مصال ٤٢٨ . القي القبض على ابن مصال.
(١٢١) أبو شامة ٤٢٨.
(١٢٢) قارن سابقاً.
(١٢٣) المقدمة ، شذرات من هنا وهناك.
(١٢٤) أبو شامة ٣٨٣.
(١٢٥) البنداري ٦٦.
(١٢٦) أبو شامة ٣٩٤.
(١٢٧) ابن شداد ٣٩.
(١٢٨) البنداري ٧٠.

(١٢٩) وليم الصوري ٩٤٥.
(١٣٠) المصدر نفسه ٩٤٨.
(١٣١) أبو شامة ٤٣٠.
(١٣٢) ابن الأثير ١١: ٣٣٥.
(١٣٣) ابن شداد ٣٩.
(١٣٤) أبو شامة ٣٨٩.
(١٣٥) البنداري ٧٤.
(١٣٦) حول هذا الإسم قارن أبو شامة ٤١٥، ٤٣١، ٤٣٤، ٤٥٥.
(١٣٧) أبو شامة ٤٣١.
(١٣٨) ابن الفرات ٤: ١: ٢٣.
(١٣٩) أبو شامة ٤٣١.
(١٤٠) ابن الأثير ١١: ٣٣٦.
(١٤١) وليم الصوري ٩٥١.
(١٤٢) قارن أبو شامة ٤٣٢؛ خطط ١: ٣٣٩.
(١٤٣) خطط، الفقرة المقتبسة أعلاه.
(١٤٤) قارن أبو شامة ٢: ٣٣.
(١٤٥) قارن ابن الفرات ٤: ١: ٣٣.
(١٤٦) الخطط ١: ٣٣٩.
(١٤٧) البنداري ٧٤، أبو شامة ٤٣٣.
(١٤٨) وليم الصوري ٩٥٣: أبو شامة ٤٣٣.
(١٤٩) وليم الصوري ٩٥٣.
(١٥٠) الخطط ١: ٢١٤.
(١٥١) أبو شامة ٤٣٢.
(١٥٢) أبو شامة ٣٩١.
(١٥٣) البنداري ٧٤.
(١٥٤) وليم الصوري ٩٥٤.
(١٥٥) ابن الأثير ١١ : ٣٣٨؛ أهرنكروتز (٥١) يعتقد ان شيركوه تردد، لأنه رأى أن في الحملة مجازفة. ولكن عماد الدين يذكر حماس شيركوه (البنداري ٧١، ٧٥) والملاحظة التي أبداها نور الدين (أبو شامة ٣٩٤): «إن تأخرت أنت عن المسير إلى مصر، فالمصلحة تقضي ان أسير أنا بنفسي إليها» ينبغي أن تفهم على أنها تشديد على أهمية هذا التحرك.
(١٥٦) البنداري ٧٥.
(١٥٧) وليم الصوري ٩٥٠، قارن البنداري ٧٦.
(١٥٨) ابن الفرات ٤: ١٠٤، ٢٦ ـ ٧.
(١٥٩) وليم الصوري ٩٥٥. وحول القصة، أنه حين وصل شيركوه إلى صور، أرسل شامة شمس الخلافة ليسأل أملرك إطلاق بعض المال، قارن أبو شامة ٤٣٤ حيث قال أملرك: «أنا أعلم انك رجل عاقل وأن شاوراً ملك، وإنكما سألتماني أن أهبكما هذا المال العظيم إلاّ لأمر قد حدث».
(١٦٠) ابو شامة ٤٣٤.
(١٦١) وليم الصوري ٩٥٦.
(١٦٢) ابن الأثير ١١: ٣٣٩. (قرأ: ربيع الثاني بدلاً من جمادي الثاني).

(١٦٣) قارن أبو شامة ٤٣٥.
(١٦٤) البنداري ٧٨.
(١٦٥) أبو شامة ٣٩٨.
(١٦٦) قارن أبو شامة ٣٩٨ ـ ٩، ابن الأثير ١١: ٤٣٠، سبط ابن الجوري ٢٧٧.
(١٦٧) البنداري ٧٨.
(١٦٨) أبو شامة ٤٣٥.
(١٦٩) قارن ابن الأثير ١١: ٣٣٩، أبو شامة ٣٩٦.
(١٧٠) أهرنكروتز ٥٧.
(١٧١) قارن، خطط ٢: ٩٢، ٣٧٨، حول سيرة مسرور، الخادم الذي ترقى إلى رتبة قائد حلقة عند صلاح الدين.
(١٧٢) قارن، المخزومي ٤٤.
(١٧٣) قارن سابقاً.
(١٧٤) وليم الصوري ٩٥٧.
(١٧٥) هناك تناقض في تواريخ موتهم، أنظر البنداري ٨٥، أبو شامة ٤٥٥ أهرنكروتز (٥٨)، ابن الفرات ٤: ١: ٣٣.
(١٧٦) ابن الأثير ١١: ٣٤٠ قارن لابيدوس «مدن إسلامية» بالإشارة إلى القاهرة في القرن الرابع عشر «في أكثر هذه الأحداث... لا نرى شكلاً من أشكال التأييد الشعبي أو مقاومة الحكم ولم يكن لعامة الناس إرادة خاصة (١٦٥) وأنظر أيضاً ١٨٤.
(١٧٧) خطط ١: ٣٣٩.
(١٧٨) رحلة ابن جبير ٥٤.
(١٧٩) أبو شامة ٤٣٩.
(١٨٠) المكان نفسه.
(١٨١) قارن ابن الفرات ٤: ١: ٥٤.
(١٨٢) ابن شداد ٤٠.
(١٨٣) أبو شامة ٤٣٨.
(١٨٤) مخ لايدن (الكتاب الثاني: في الرثاء).
(١٨٥) ابن الأثير ١١: ٣٤٣ يذكر مطامح أمراء نور الدين في مصر في الحصول على قيادة الجيش والوزارة الفاطمية.
(١٨٦) ابن الأثير ١١ ٣٤٣٠؛ أهرنكروتز (٦٧).
(١٨٧) الوهراني ٥١.
(١٨٨) البنداري ٨١.
(١٨٩) أبو شامة ٤٠٧.

هوامش الفصل الثاني

(١) وليم الصوري ٩١٣.
(٢) المصدر نفسه ٩٢٥.
(٣) البنداري ٢١٤.
(٤) تاريخ ٣: ١: ٨٧.

(٥) قارن سابقاً (الفصل الأول).
(٦) ابن شداد ٤٠.
(٧) ابو شامة ٤٤٠.
(٨) يوميات ريتشارد الأول ٧٣، وقارن (التتمة) ٦١.
(٩) القلقشندي ١٠: ٩١.
(١٠) أبو شامة ٤١٠.
(١١) ٢٥٧٥٧: ١٥.
(١٢) أبو شامة ٤٥٥.
(١٣) المكان نفسه.
(١٤) ابن الأثير ١١: ٣٤٤، أبو شامة ٤٠٨، تاريخ أتابكة الموصل ١٤٣، أهرنكروتز ٧٢، ٧٦.
(١٥) أبو شامة ٤٤٠.
(١٦) أبو شامة ٤٤١.
(١٧) قارن ابن الفرات ٤: ١: ٦٦.
(١٨) أبو شامة ٤٠٧.
(١٩) البنداري ٨٤.
(٢٠) في وصف القصر. قارن، خطط: ١ ٣٨٤.
(٢١) قارن، البنداري ٨٢، أبو شامة ٤٥٠، خطط ٢: ٢.
(٢٢) قارن البنداري ٨٣، وحول عدد الفاطميين ٤٠ ألف فارس و ٣٠ ألف راجل من السودان، قارن خطط: ١: ٩٤.
(٢٣) بالنسبة لهذه العبارة، قارن: حماسة أبي تمام ١: ٤١.
(٢٤) أبو صالح ٩٢.
(٢٥) خطط ٢: ٣، ٢٠.
(٢٦) قارن ابن الفرات ٤: ١: ٦٩ وما يليها.
(٢٧) البنداري ٨٤، ابن الفرات ٤: ١: ٧١.
(٢٨) أبو شامة ٤٥٢.
(٢٩) أبو صالح ٩٢.
(٣٠) البنداري ٨٤.
(٣١) Nicetas 208.
(٣٢) المصدر السابق ٢٧٨.
(٣٣) المصدر نفسه ٢٠٩.
(٣٤) المصدر نفسه ٢٠٨.
(٣٥) وليم الصوري ٩٦١، وقارن ابن مماتي ٣٣٩.
(٣٦) ٢٥٧٥٧: ١٥، خطط المقريزي ١: ٢١٤ حيث يجعل الرقم أكثر من ١٢٠٠ مركب.
(٣٧) البنداري ٨٨.
(٣٨) قارن القلقشندي ٢: ٣٨٥.
(٣٩) ابن شداد ٤١.
(٤٠) قارن Rohricht, Regesta 122
(٤١) Cinamus 279.
(٤٢) وليم الصوري ٩٦٤ وما يليها.

(٤٢) خطط ١ : ٢١٥ .
(٤٣) خطط ١١ :٣٥٢.
(٤٤) ابن الأثير ١١ : ٣٥٢ .
(٤٥) وليم الصوري ٩٦٤.
(٤٦) البنداري ٨٧.
(٤٧) Nicetas 214.
(٤٨) وليم الصوري ٩٦٩ .
(٤٩) Nicates 216.
(٥٠) المصدر نفسه ٢١٢ .
(٥١) وليم الصوري ٩٦٦.
(٥٢) Nicetas 210, 214.
(٥٣) نفسه ٢١٣ .
(٥٤) وليم الصوري ٩٦٩.
(٥٥) Nicetas 217.
(٥٦) وليم الصوري ٩٦٩.
(٥٧) Nicetas 219.
(٥٨) ٢٥٧٥٧ : ١٥ .
(٥٩) خطط ١ : ٢١٥ .
(٦٠) أبو شامة ٤٦٠ .
(٦١) ابن الأثير ١١ : ٣٥٢ .
(٦٢) أبو شامة ٤٦٥ .
(٦٣) البنداري ٨٩.
(٦٤) ابن الأثير ١١ : ٣٥٢ .
(٦٥) خطط ١ : ٤٦ .
(٦٦) ابن الفرات ٤ : ١: ٦٩ .
(٦٧) حول ذهاب العادل إلى مصر مع شيركوه وصلاح الدين ، قارن : ابن خلكان «أبو بكر محمد الملك العادل» .
(٦٨) قارن البنداري ٩٢.
(٦٩) البنداري ٩١ .
(٧٠) ميخائيل السوري ١٨ : ١٠ : ٣٣٨.
(٧١) البنداري ٩٢ .
(٧٢) وليم الصوري ٩٧١ وما يليها .
(٧٣) ابن الأثير ١١ : ٣٥٥ .
(٧٤) أبو شامة ٤٨٢ .
(٧٥) قارن البنداري ٩٤.
(٧٦) البنداري ٩٦ .
(٧٧) قارن ابن الأثير ١١ : ٣٦٥.
(٧٨) ابن الأثير ١١ : ٣٦٥ .
(٧٩) للحصول على تفاصيل إضافية عن إقطاعات طورانشاه قارن : أبو شامة ٤٨٨ ، أهرنكروتز ٨٢.

(٨٠) وليم الصوري ٩٧٣.
(٨١) أبو شامة ٤٨٩.
(٨٢) وليم الصوري ٩٧٥.
(٨٣) المصدر السابق ٩٧٨.
(٨٤) قارن الطرسوسي (بودلي) هانتختيون، ٢٦٤، ورقة ٢٠٥.
(٨٥) حول مصطلح «اطلب» قارن:

Lyons and Riley - Smith, Ayyubids, 1. 217.

حيث يجعل رقم ٢٠٠ رجل غير مقبول في هذه الفترة، وقارن: أبو شامة ٢: ٩، ابن شداد ٧١٠١
(٨٦) أبو شامة ٤٨٩.
(٨٧) وليم الصوري ٩٧٧.
(٨٨) خطط ١: ١٨٥، أبو شامة ٤٨٦.
(٨٩) القلقشندي ٧: ٢٧.
(٩٠) واضح خطأ هذا التاريخ (البنداري ١٠٨)، وأن (ربيع الثاني) يجب أن تقرأ (ربيع الأول).
(٩١) حسب مؤلف «تاريخ ميافارقين»: (١٣٥) إن هذه القافلة تركت دمشق ومعها ٧٠ ألف جمل كما قيل، في ٣١ كانون الأول، وضمت أبناء طورانشاه وإخوته مع زوجاتهم وخدمهم. وهذا يوحي بأن صلاح الدين عاد إلى القاهرة في آخر شباط، وأن شهر جمادي الأول الذي أعطاه كلب من ابي شامة ٤٨٦ في خطط ١: ١٨٥ هو أفضل من «جمادي الثانية» الذي أعطاه البنداري ١٠٩.
(٩٢) قارن أهرنكروتز ٨٤.
(٩٣) الوهراني ٩٥ ـ ٩٦.
(٩٤) خطط ١: ٣٥٩.
(٩٥) أبو شامة ٤٩٨.
(٩٦) البنداري ١١٤.
(٩٧) للحصول على رواية كاملة، أنظر: Ehrenkreutz: Saladin's Coup d'état in Egypt
(٩٨) أبو شامة ٤٩٣.
(٩٩) ابن الفرات ٤: ١: ١٥٧.
(١٠٠) المصدر نفسه ٤: ١: ١٥٧.
(١٠١) أبو شامة ٤٩٩، وسبط ابن الجوزي ٢٩٠.
(١٠٢) أبو شامة ٤٩٤.
(١٠٣) ابن الأثير ١١: ٣٧٠.
(١٠٤) خطط ١: ٣٥٨.
(١٠٥) أبو شامة ٤٤٠.
(١٠٦) هناك تناقض في هذا التاريخ أنظر أبو شامة (٥٠٤) والبنداري.
(١٠٧) ابن الأثير ١١: ٣٦٩.
(١٠٨) أبو شامة ٤٩٩.
(١٠٩) بالإمكان التوسع في التفاصيل، قارن: أهرنكروتز ٨٥ما يليها، حيث يتحدث عن عظمة الخلافة الفاطمية.
(١١٠) خطط ١: ٨٦ وأنظر القلقشندي ١٣: ٥٤ حيث تم صدور قانون لتغيير السنة الخراجية بحيث تتفق مع السنة الشمسية.

هوامش الفصل الثالث

(١) ٢٥٧٥٧ : ١١٤.
(٢) البنداري ١١٢.
(٣) المكان نفسه.
(٤) البنداري ١١٧.
(٥) ابن الأثير ١١: ٣٧١ وما يليها.
(٦) وليم الصوري ٩٩٣.
(٧) البنداري ١١٨؛ اهرنكروتز (١٠٥) يشير إلى هزيمة كبرى على أيدي «إعراب معادين» لكن عماد الدين لا يؤيد ذلك. والمقريزي في السلوك ٤٤ يتحدث عن خسارة خمسة آلاف حيوان.
(٨) ابو شامة ٥٠٦ [والحديث عن زعانف كبيرة للسمك غير موجود في هذا المكان].
(٩) خطط ١٠: ٤٢٧، قلقشندي ٣: ٣٥١.
(١٠) البنداري ١٤٩، وقارن خطط ١: ٤٣٥ حول الكنوز الفاطمية.
(١١) للحصول على تفصيل هذه الضرائب، قارن: خطط ١: ١٠٤.
(١٢) أبو شامة ٥٢٢ - ٣.
(١٣) ميونخ ٩٣.
(١٤) القلقشندي ٣: ٤٧٠.
(١٥) المقريزي، السلوك ٤٥.
(١٦) خطط ١: ١٠٨.
(١٧) رحلة ابن جبير ٤٢.
(١٨) خطط ١: ١٠٨.
(١٩) رحلة ابن جبير ٦٢ وما يليها.
(٢٠) قارن Robinson and Smith, Biblical Researches in Palestine 1. 43 حيث لا ينسب الأهالي اضطهادهم إلى الباشا (محمد علي)، بل إلى عماله ووكلائه، ويفترضون أن الباشا في حال معرفته بتذمر الفلاحين، فإنه سيرفع الأذى عنهم.
(٢١) قارن ابن مماتي ٧٨، القلقشندي ٣: ٢٨٥.
(٢٢) أنظر جب ١٠.
(٢٣) للحصول على تفاصيل حول الوضع النقدي، أنظر: Ehrenkreutz, The Crisis of dinar in the Egypt of Saladin P. 103, حيث يشدد على الصعوبات الناجمة عن نقص الذهب لدى صلاح الدين.
(٢٤) L'Economie Royale 492.
(٢٥) النابلسي ١٨.
(٢٦) خطط ١: ٩٧.
(٢٧) المصدر نفسه ١: ٨٥.
(٢٨) ابن مماتي ٣٣٦ ما يليها.
(٢٩) حول إقطاعات الأيوبيين، أنظر: Poliak, The Ayyubid feudalism; Rabie, The Financial System of Egypt 26 Sq. حيث يعزو إلى صلاح الدين اتباعه نظاماً وراثياً على مثال نور الدين (قارن خطط ٢: ٢١٦) وقارن: Ostrogorsky, Pour L'histoire de la feodalite bysantine, 83; Bloch, Feudal Society, 196.
(٣٠) المخزومي ١٠٠.
(٣١) ابن مماتي ٢٠١ وما يليها، وقارن قلقشندي ٣: ٤٥٠.

(٣٢) المخزومي ٥١.
(٣٣) ابن مماتي ٣١٩.
(٣٤) المخزومي ٧٧.
(٣٥) النابلسي ٢٤.
(٣٦) المخزومي ١١٣.
(٣٧) Rabie, The Financial System of Egypt.
(٣٨) توب قابو ١٤٥.
(٣٩) ٢٥٧٥٧ : ١٢.
(٤٠) توب قابو ١٢٦.
(٤١) المخزومي ١٠٣.
(٤٢) خطط ٢ : ٣٦٧.
(٤٣) ابن العديم، عمر بن عبد العزيز، مخ ٤.
(٤٤) ابن مماتي ٦٦.
(٤٥) القلقشندي ١ : ٤١.

هوامش الفصل الرابع

(١) برق ٣: ١٠٦ ب.
(٢) أبو شامة ٥٠١.
(٣) أبو شامة ٥٠٧.
(٤) السلوك ٢٥ ـ ٤٨.
(٥) أبو صالح ٥.
(٦) السلوك ٤٦.
(٧) ٢٥٧٥٧ : ١٥.
(٨) أبو شامة ٢: ٧١.
(٩) ٧٤٦٥: ٦٥.
(١٠) القلقشندي ٦: ٥٠٦.
(١١) أبو شامة ٥٣١.
(١٢) القلقشندي ٦: ٥١١.
(١٣) قارن ابن الأثير ١١: ٣٨٧.
(١٤) قارن، أبو صالح ٢٦٥
(١٥) ابن الأثير ١١: ٣٨٦.
(١٦) قارن سابقاً: أنظر البنداري ٧٥.
(١٧) أبو شامة ٥٢٤.
(١٨) البنداري ١٢٣. كما يذكر عماد الدين، فهذا مقتبس بتصرف من بيت لأبي تمام (الديوان ١ : ٧١).
(١٩) البنداري ١٣٠.
(٢٠) قارن وليم الصوري ٩٩٤.
(٢١) البنداري ١٢٥.
(٢٢) البنداري ٢٩٩.
(٢٣) وليم الصوري ١٠٤٦؛ قارن ويفل يكتب عن الحرب العالمية الأولى، «حملات فلسطين»، ١٣:

«كان هم بدو سيناء مرة أخرى أن ينتزعوا الربح لأنفسهم لقاء خدمة كمرشدين أو جواسيس لأقرب أو أفضل من يدفع المال لهم، أو بالنهب بدون تمييز على الإطلاق، متى سنحت الفرصة».
(٢٤) البنداري ١٢٦.
(٢٥) ابن الأثير ١١: ٣٩٣.
(٢٦) المصدر نفسه ١١: ٣٩١.
(٢٧) يراجع بالنسبة إلى الإعفاء من الضرائب لجذب التركمان القلقشندي ١٣ : ٣٦.
(٢٨) Nicetas 227.
(٢٩) البنداري ١٣٤.
(٣٠) ابن الأثير ١١: ٣٩١.
(٣١) أبو شامة ٥٤٤.
(٣٢) قارن البنداري ١٣٨.
(٣٣) ابن الأثير ١١: ٣٩٣.
(٣٤) وليم الصوري ٩٩٥.
(٣٥) أبو شامة ٥٥٨.
(٣٦) أبو شامة ٥٥٩.
(٣٧) البنداري ٢٩٨.
(٣٨) أبو شامة ٥٥٢؛ البنداري ٣٤٩.
(٣٩) ٢٥٧٥٧ : ١٥.
(٤٠) أبو شامة ٥٥٢.
(٤١) أبو شامة ٥٥٣.
(٤٢) ابن الأثير ١١: ٣٩٦.
(٤٣) القلقشندي ٥: ٣٧.
(٤٤) الرحلة ١٣٣ - ١٣٤.
(٤٥) ابن الأثير ١١: ٣٩٧.
(٤٦) برلين ٥١.
(٤٧) كمبردج ١٧.
(٤٨) أبو شامة ٥٦١؛ قارن أيضاً رسالة فاضلية إلى نور الدين مذكورة في أبو شامة ٥٦٢.
(٤٩) ابن الأثير ١١: ٣٩٩، يذكر كلاً من المسيحي المجهول الإسم وزين الدين علي؛ يشير عماد الدين إلى «جندي» و «الخريدة» (٣: ١٠٣) وإلى زين الدين في «برق» (قارن البنداري ١٤٨، أبو شامة ٥٦٠)؛ ابن أبي طي يُسمي ابن مصال (أبو شامة ٥٦١).
(٥٠) أبو شامة ٥: ٢.
(٥١) قارن لاحقاً.
(٥٢) الوهراني ١٩١.
(٥٣) ابن الأثير ١١: ٤٠٢.
(٥٤) المصدر السابق ١١: ٣٧٢.
(٥٥) ابن شداد ٤٧.
(٥٦) أبو شامة ٤٧.
(٥٦) أبو شامة ٤٤٢.
(٥٧) ٢٥٧٥٧: ٨.

(٥٨) كمبردج ١٧.
(٥٩) ابن الأثير ١١: ٤٠٣.
(٦٠) وليم الصوري ١٠٠٠.

هوامش الفصل الخامس

(١) قارن المقريزي، السلوك ٤٨.
(٢) البنداري ١٦١.
(٣) قارن ابن الأثير ١١: ٤٠٦ ـ ٧.
(٤) البنداري ١٥٤، وكلمة خادم تطلق على الخصيان، المخزومي ١٠٦.
(٥) وليم الصوري ١٠٠٠.
(٦) البنداري ١٥٦، أبو شامة ٥٨٩.
(٧) أبو شامة ٥٩٤.
(٨) قارن، البنداري ١٥٥.
(٩) ٢٥٧٥٧: ٨.
(١٠) ٢٥٧٥٧: ٦، قارن البنداري ١٥٦ أبو شامة ٥٨٧.
(١١) البنداري ١٥٦.
(١٢) ٧٤٦٥: ٢١٥، قارن أبو شامة ٥٩٤.
(١٣) ٢٥٧٥٧: ١٤٦، قارن أبو شامة ٥٩٦.
(١٤) القلقشندي ٧: ١١٥.
(١٥) ٢٥٧٥٧: ١٤٦.
(١٦) ٢٥٧٥٧: ١٥.
(١٧) البنداري ١٧٠.
(١٨) المصدر نفسه.
(١٩) السلوك ٥٦.
(٢٠) البنداري ١٧٢.
(٢١) أضاف صلاح الدين تفاصيل تأكدت لديه من قبل أحد الأسرى.
(٢٢) قارن، السلوك ٥٧، ابن الأثير ١١: ٤١٤.
(٢٣) ابن شداد ٤٨.
(٢٤) لايدن، «الكتاب الثالث في الإفتخار».
(٢٥) ميونخ ١٤.
(٢٦) البنداري ١٦١ وما يليها.
(٢٧) نفسه ١٦٥.
(٢٨) قارن ابن شداد ٤٩.
(٢٩) أبو شامة، ٥٩٦.
(٣٠) ابن الأثير ١١: ٤٠٦.
(٣١) ابن الأثير ١١: ٤٠٦.
(٣٢) جب ١٢، قارن ٧٤٦٥: ١٧٠.
(٣٣) البنداري ١٦٨ ـ ٩.
(٣٤) ابن الأثير ١١: ٤١٥.

هوامش الفصل السادس

(١) البنداري ١٦٧ .
(٢) ابو شامة ٦٠٢.
(٣) قار ن ٧٤٦٥: ٣.
(٤) قار ن ابن الأثير ١١: ٤١٦ .
(٥) ٢٥٧٥٧: ١٤٥.
(٦) ٧٤٦٥: ٢٢٢.
(٧) شفاء القلوب ١١ .
(٨) لايدن «الكتاب الرابع في الرثاء».
(٩) ابن الأثير ١١: ٤١٦.
(١٠) ٧٤٦٥: ٢٢٢.
(١١) بحسب مؤلف «تاريخ ميافارقين» (١٠٩)، جاء ابن المقدم ليلاقي صلاح الدين في داريا. يضيف بإقناع أقل، أن الريحان زارته أيضاً.
(١٢) البنداري ١٧٧ .
(١٣) وليم الصوري ١٠١٢ ـ ١٣ .
(١٤) ابن شداد ٥٠.
(١٥) أبو شامة ١٧٧، ٢ .
(١٦) قارن كتاب الفتح ٤٥٦ .
(١٧) ٧٤٦٥: ٢٢٢.
(١٨) ٧٤٦٥: ٢٢٠.
(١٩) المكان نفسه .
(٢٠) ٧٤٦٥: ٢٢٢.
(٢١) المكان نفسه .
(٢٢) ٧٤٦٥: ٢٢٠.
(٢٣) المكان نفسه .
(٢٤) البنداري ١٧٨ .
(٢٥) ٧٤٦٥: ١٢٢.
(٢٦) ٧٤٦٥: ٢٢٢.
(٢٧) أبو شامة ٦٠٧.
(٢٨) البنداري ١٧٩ .
(٢٩) أبو شامة ٦١٢.
(٣٠) ٢٥٧٥٧: ١٤١ .
(٣١) ميونخ، ٧٤٦٥: ١٢٢ ـ ١٣٥ .
(٣٢) توب قابو ٦٢.
(٣٣) ٢٥٧٥٧: ١٤١ .
(٣٤) أبو شامة ٦٠٧.
(٣٥) أبو شامة ٦٠٨.
(٣٦) رحلة ٢٥٠.

(٣٧) ٢٥٧٥٧ : ١٤٧ .
(٣٨) ٢٥٧٥٧ : ١٤٦ .
(٣٩) أبو شامة ٦٠٩.
(٤٠) ابن الأثير ١١: ٤١٨.
(٤١) البنداري ١٨١.
(٤٢) ٢٥٧٥٧ : ١٤٣ .
(٤٣) قارن ٢٥٧٥٧: ١٤٣ .
(٤٤) قارن البنداري ١٨٢؛ أبو شامة ٦١١.
(٤٥) وليم الصوري ١٠١٦ .
(٤٦) المصدر السابق ١٠١٧ .
(٤٧) ٢٥٧٥٧ : ٧١.
(٤٨) أبو شامة ٦١٤.
(٤٩) البنداري ١٨٢؛ الرسالة ٢٥٧٥٧ : ١٢٨ تذكر بأنه ثمانية عشر يوماً. يبدو أنه خطأ من الناسخ.
(٥٠) ٢٥٧٥٧ : ١٢٨ .
(٥١) أبو شامة ٦١٢.
(٥٢) أبو شامة ٦١٢.
(٥٣) البنداري ١٨٣.
(٥٤) ٢٥٧٥٧ : ١٢٨ .
(٥٥) ٢٥٧٥٧ : ١١٢ .
(٥٦) ابن الأثير ١١ : ٤٢؛ أبو شامة ٦٣٧.
(٥٧) توب قابو ١١٠.
(٥٨) البنداري ١٨٧ .
(٥٩) قارن ، هامش ٢٩ .
(٦٠) أبو شامة ٦٣١.
(٦١) قارن الفصل الثاني .
(٦٢) قارن ابن شداد ١٥٦.
(٦٣) موصل ٤٩ .
(٦٤) قارن هامش ٤٢ .
(٦٥) أو قرأ مصالحه بدل مصالح .
(٦٦) ٢٥٧٥٧ : ١٤٤ .
(٦٧) في النص قطب الدين وهذا خطأ من الناسخ كما يبدو.
(٦٨) موصل ٤٩ .
(٦٩) البنداري ١٨٨.
(٧٠) ابن الأثير ١١ : ٤٢١.
(٧١) موصل ٤٩ .
(٧٢) قارن أبو شامة ٦٣٩؛ وليم الصوري ١٠١٨.
(٧٣) موازياً لهذا من فترة ليست مختلفة قارن : Tarn, Hellenistic Military and Naval Developments 24 إلى حين أن ممالك مستقرة تشكلت ثانية، وساد نوع من الحروب حيث الهدف لم يكن إبادة العدو، بل فرض الإستسلام عليه ثم ضمه.

(٧٤) قارن ابن الأثير ١٢ : ٣٢.
(٧٥) موصل ٤٩ .
(٧٦) توب قابو ١١٠ .
(٧٧) البنداري ١٩٠ .
(٧٨) موصل ٤٩ .
(٧٩) قارن أبو شامة ٦٣٩ .
(٨٠) أبو شامة ٦٣٩ .
(٨١) موصل ٤٩ .
(٨٢) قارن الفصل السابع .

هوامش الفصل السابع

(١) موصل ٤٩ .
(٢) قارن ويفل «الحملات الفلسطينية»، ٦٢ «فوق الرمال الناعمة لصحراء سيناء ٢٥٠٠٠ ميلاً ـ قطعت معظمها مشياً ـ، كانت يوماً «منهكاً للفرسان». مشي أبطأ تعني أن مؤناً أكثر كان يجب أن تحمل .
(٣) ٢٥٧٥٧ : ١٥ .
(٤) قارن القلقشندي ١٠ : ١٣٥ في موضع آخر، القلقشندي ١ : ١٩٤ ، وجد الخليفة يقتبس من القرآن الكريم (٤٩ : ١٧): «يمنون عليك أن أسلموا فلا تمنوا علي إسلامكم».
(٥) موصل ٤٩ .
(٦) إشارة «سبط» إلى العمليات ضد الحشاشين (٣٢٩) تاريخها ٥٧٠ هـ (آب ١١٧٤ ـ تموز ١١٧٥) لاحظها «جب» (١٧) واهرنكروتز (١٤١) لم يشير إليها عماد الدين ولم تذكر في الرسائل .
(٧) البنداري ١٩٤ .
(٨) وليم الصوري ١٠١٨ ـ ١٠١٩ .
(٩) البنداري ١٩٣ .
(١٠) ٢٥٧٥٧ : ١٤٤ .
(١١) البنداري ١٩٥ .
(١٢) قارن أبو شامة ٦٤٨ .
(١٣) ابن الأثير ١١ : ٤٢٧ .
(١٤) البنداري ٢٠٠ .
(١٥) أبو شامة ٦٤٨ .
(١٦) موصل ٦٩ .
(١٧) ابن شداد ٥١ .
(١٨) توب قابو ٦٣ .
(١٩) ٢٥٧٥٧ : ١٣٦ .
(٢٠) أبو شامة ٦٦٣ .
(٢١) توب قابو ٦٣ .
(٢٢) ابن شداد ٥١ ، قراءه تدميراً بدل تدبيراً .
(٢٣) البنداري ٢٠١ .
(٢٤) ابن الأثير ١١ : ٤٢٩.

(٢٥) المصدر السابق ١١: ٤٢٨.
(٢٦) أبو شامة ٦٥٣. «جب» (١٨) أصاب في ملاحظته أن إشارة ابن أبي طيّ إلى دور طورانشاه في المعركة، خاطيء. هذا ليس خطأ في النص، لأن القرينة تظهر أن طورانشاه هو المقصود، ولكن نفترض أن الخطأ هو خطأ ابن أبي طي.
(٢٧) البنداري ٢٠١.
(٢٨) أبو شامة ٦٥٢.
(٢٩) ابن الأثير ١١: ٤٢٨.
(٣٠) ٢٥٧٥٦: ٨٦.
(٣١) البنداري ٢٠٤.
(٣٢) أبو شامة ٦٥٥.
(٣٣) ابن الأثير ١١: ٤٢٩.
(٣٤) أبو شامة ٦٥٥.
(٣٥) البنداري ٢٠٨.
(٣٦) المصدر السابق.
(٣٧) وليم الصوري جزء ١، ٣٠٥.
(٣٨) البنداري ٢٠٩.
(٣٩) ابن الأثير ١١: ٤٣٠.
(٤٠) أبو شامة ٦٦١.
(٤١) البنداري ٢١١.
(٤٢) أبو شامة ٦٥٩.
(٤٣) البنداري ٢٠٩.
(٤٤) نفسه ٢١٢.
(٤٥) نفسه ٢١٤.
(٤٦) أبو شامة ٦٥٧؛ تفاصيل هرب قطب الدين قايماز، قارن ابن الأثير ١١: ٤٢٤.
(٤٧) أبو شامة ٦٦٢.
(٤٨) البنداري ٢١٦.
(٤٩) قارن أبو شامة ٦٦٢.
(٥٠) «فلان ـ علاّن» و «هلم جرّا» وضعت بديلاً لأسماء العلم في المخطوطة.
(٥١) ميونخ ٤٠.
(٥٢) هناك غموض في المخطوطة وربما كان مكان هذه الجملة في رسالة أخرى. رغم ذلك فإنها تظهر ثانية إهتمام صلاح الدين بالاعلام.
(٥٣) ابن العديم ٢٩.
(٥٤) ابن الأثير ٦١: ٤٣١.
(٥٥) أبو شامة ٦٦٩ قارن ابن شداد ٥٢.
(٥٦) البنداري ٢١٧.
(٥٧) ابن الأثير ١١: ٤٣١.
(٥٨) البنداري ٢١٨.
(٥٩) ابن الأثير ١١: ٤٣٦.
(٦٠) أبو شامة ٦٦٩.

(٦١) وليم الصوري ١٠٢٠. تاريخ هذه الغزوة لعام ١١٧٥ (قارن غروسية: «تاريخ الصليبيين» ٢: ٦٢٧) لا يمكن قبوله، لأن صلاح الدين نفسه كان وقتئذ في دمشق أو بالقرب منها.
(٦٢) وليم الصوري ١٠٢١.
(٦٣) ابن الأثير ١١: ٤٣٧.
(٦٤) قارن ابن الأثير ١١: ٤٣٧، البنداري ٢١٩.
(٦٥) وليم الصوري ١٠٢٢.
(٦٦) نفسه ١٠٢٣.
(٦٧) المكان نفسه.
(٦٨) ابن الأثير ١١: ٤٣٧.
(٦٩) خريدة ٢: ٢٣٢.
(٧٠) البنداري ٢٢٥.
(٧١) نفسه ٢٣١.
(٧٢) ابن الأثير ١١: ٤٣٦.

هوامش الفصل الثامن

(١) ميونخ ١٩؛ ما يمكن أن يؤول كتحليل لقوة عامة الشعب في دورهم كمنتجين للثروة. قارن المخزومي ٢٨.
(٢) ٢٥٧٥٧: ٨.
(٣) ٢٥٧٥٧: ١٠٨.
(٤) البنداري ٢٣٩.
(٥) ميونخ ٢.
(٦) أبو شامة ٦٨٩.
(٧) البنداري ٢٤١.
(٨) باريس ١٠.
(٩) القاهرة ٤١ ـ ٤٢.
(١٠) الفتح ٨١.
(١١) خطط ٢: ١٩٤ (قارن أيضاً ٥١٥).
(١٢) وليم الصوري ٩٦٠.
(١٣) لتفاصيل إضافية قارن «جب» ٤٤، أهرنكروتز، «صلاح الدين في تاريخ البحر الأبيض المتوسط البحري» ١٠٠ وما يتبع.
(١٤) المقريزي (خطط ١: ٢٣٣) يذكر أنه قامت ثورة فاطمية في قفط سنة ٥٧٢ هـ. (تموز ١١٧٦ ـ حزيران ١١٧٧) ذهب نتيجتها ٣٠٠٠ من السكان قتلاً من قبل العادل. هذا يؤكده جزئياً رسالة (لايدن الكتاب الثالث في الإفتخار) والتي تشير إلى ثورة في مصر العليا يقودها أحد الثوار (الخارجين) فاطمي ادّعى «الإمامة» هاجم قوص؛ ولكنه هزم وقتله حاكمها صارم الدين يرنقش.
(١٥) ميونخ ٢٩.
(١٦) خطط ٢: ٩٣.
(١٧) البنداري ٢٤٤.
(١٨) ميونخ ٣٣.

(١٩) نفسه ٢٨.
(٢٠) نفسه ٥٣.
(٢١) وليم الصوري ١٠٣٠ وما يليها.
(٢٢) البنداري ٢٣٣.
(٢٣) كسابقه ٢٣٧.
(٢٤) كسابقه ٢٣٤.
(٢٥) كسابقه ٢٣٥.
(٢٦) الوهراني ٨١.
(٢٧) نفسه ١٠٦.
(٢٨) نفسه ١٠٤ ـ ١٠٥.
(٢٩) نفسه ٦١ وما يتبع.
(٣٠) نفسه ٦٨.
(٣١) نفسه ٦٧.
(٣٢) نفسه ٥٥.
(٣٣) نفسه ٢٠٧.
(٣٤) ديوان ابن عنين ٢١٠.
(٣٥) نفسه ١٨٢.
(٣٦) نفسه ١٣٠.
(٣٧) نفسه ٢٣٦.
(٣٨) نفسه.
(٣٩) ديوان ٩٤.
(٤٠) الوهراني ٧٦.

هوامش الفصل التاسع

(١) وليم الصوري ١٠٣٧.
(٢) ٢٥٧٥٧ : ١٥٢.
(٣) ميونخ ٣٥.
(٤) برق ٣: ٧ ب؛ البنداري ٢٥٢؛ أبو شامة ٦٩٧.
(٥) وليم الصوري ١٠٤٣.
(٦) خطط ٢: ٨٦. يجب إستعمال هذه الأرقام بحذر. القلقشندي ٤: ١٦، يذكر عادة إخفاء أعداد الجيش. المقريزي (خطط ١ ـ ٩٥). بعد أن أعطى رقم «١٢,٠٠٠ لا غير» لجيش صلاح الدين، يلاحظ أن جندياً واحداً ربما كان عنده ١٠٠ خادم، يفترض أن يكون بعضهم من ذوي القدرة العسكرية.
(٧) وليم الصوري ١٠٤٠.
(٨) نفسه ١٠٤٣.
(٩) البنداري ٢٥٥. سبط (٣٤٢) ودولة الأكراد (٣).
(١٠) حتى هذا يقدر على مسافة ست ساعات سيراً من عسقلان.
(١١) ابن الأثير ١١: ٤٤٢، البنداري ٢٥٥.
(١٢) وليم الصوري ١٠٤١.

(١٣) ابن شداد ٥٣.
(١٤) وليم الصوري ١٠٤٥.
(١٥) ابن الأثير ١١: ٤٤٢.
(١٦) البنداري ٢٥٦؛ حول موقع تقي الدين المعتاد عند الجناح الأيمن، قارن خطط ١: ٢١٧.
(١٧) إن تأثير خلفية عماد الدين الأدبية على أسلوبه يجب أن توضع في الميزان حين تقدير دقته أو صحته. بالنسبة إلى العبارة التي ينسبها لتقي الدين (غدٌ يا أحمد، فإن العودَ أحمد، بنداري ٢٥٦)، قارن الحريري ٣٩٨.
(١٨) وليم الصوري ١٠٤٣.
(١٩) المصدر نفسه ١٠٤٥.
(٢٠) أبو شامة ٧٠١.
(٢١) وليم الصوري ١٠٤٦.
(٢٢) البنداري ٢٦٠.
(٢٣) نفسه.
(٢٤) القلقشندي ٨: ٢٩١.
(٢٥) برق ٣: ١٩.
(٢٦) ٢٥٧٥٧: ١٥٠ الخبر المقتبس عن المقريزي (سلوك ٦٥) من قبل إهرنكروتز (١٥٩) أن الجنود الأكراد كانوا ملامين لهزيمتهم، لا تجد تثبيتاً في المراجع المعاصرة، ولكن لها أهميتها لإظهارها كيف يُفْصل صلاح الدين عن خلفيته الكردية في تقليد لاحق (قارن القلقشندي ٤: ٣٤٣ حول قصة مذبحة جماعة من الأكراد).
(٢٧) البنداري ٢٦٦؛ برق ٢٥ آ.
(٢٨) قارن ميونخ ٣.
(٢٩) البنداري ٢٦٦.
(٣٠) وليم الصوري ١٠٣٦.
(٣١) البنداري ٢٦٦.
(٣٢) ٢٥٧٥٧: ١٥٣؛ قارن أبو شامة ٧٠٦.
(٣٣) البنداري ٢٦٩.
(٣٤) ابن العديم ٣٦.
(٣٥) وليم الصوري ١٠٤٧.
(٣٦) قارن ابن شداد ١٧٧.
(٣٧) قارن ابن العديم ٣٧.
(٣٨) البنداري ٢٦٨.
(٣٩) ابن شداد ٥٣.
(٤٠) ٢٥٧٥٧: ٧٠ جب «المراجع العربية لحياة صلاح الدين» ٦١ ينتقد ابن الأثير بسبب «الإهمال... أو الخطأ المقصود».
(٤١) البنداري ٢٧٠.
(٤٢) نفسه ٢٨٠.
(٤٣) نفسه ٢٨٢.
(٤٤) برق ٣: ٤٦ ب.
(٤٥) نفسه، ٣: ٤٢ آ.

(٤٦) نفسه ٣٨ ب .
(٤٧) البنداري ٢٧٤ .
(٤٨) ميونخ ٧ .
(٤٩) نفسه ٢٩ .
(٥٠) البنداري ٣٢٠ .
(٥١) برق ٦٢ ب .
(٥٢) البنداري ٢٩٨ .
(٥٣) نفسه ٣٠١ .
(٥٤) نفسه ٢٩٩ .
(٥٥) أبو شامة ٢ : ٢ .
(٥٦) البنداري ٣٠٧ .
(٥٧) المكان نفسه .
(٥٨) قارن ابن الأثير ١١ : ٣٧٨ .
(٥٩) ٧٣٠٧ : ٦٥ .
(٦٠) ميونخ ١٠١ .
(٦١) البنداري ٣٠٩ .
(٦٢) برق ١٠٥ آ .
(٦٣) البنداري ٣١٠ .
(٦٤) برق ١٠٣ ب .
(٦٥) موصل ٧٦ .
(٦٦) برق ١٠٣ ب .
(٦٧) وليم الصوري ١٠٥٠ .
(٦٨) البنداري ٣١٤؛ المسافة أكثر من ٥٠ ميلاً (٨٠ كلم) .

هوامش الفصل العاشر

(١) برق ٤٨ ب .
(٢) القلقشندي ٧ : ٩٠ .
(٣) بالنسبة لاسمها قارن خطط ٢ : ٤٦٢ .
(٤) البنداري ٣١٧ .
(٥) برق ١١٨ ب .
(٦) البنداري ٣٢١؛ برق ١٢١ ب .
(٧) الوهراني ١٨٧ .
(٨) البنداري ٣٢٣ .
(٩) برق ١٢٢ أ .
(١٠) البنداري ٣٢٣ .
(١١) برق ١٣٧ ب .
(١٢) قارن برق ١٣٧ ب؛ بنداري ٣٣٢؛ أبو شامة ٢ : ٩ .
(١٣) وليم الصوري ١٠٥٣ .

(١٤) برق ١٢٥ ب.
(١٥) بنداري ٣٢٤.
(١٦) وليم الصوري ١٠٥٤.
(١٧) موصل ٧٥.
(١٨) وليم الصوري ١٠٥٥.
(١٩) عن رواية عماد الدين قارن برق ١٢٨ أ وما يتبع؛ بنداري ٣٢٦.
(٢٠) توب قابو ٨٦.
(٢١) وليم الصوري ١٠٥٠، عن سقوط الحصن راجع برق ١٣٨٩ ب، بنداري ٣٣٣ توب قابو ٨٦.
(٢٢) وليم الصوري ١٠٥٩.
(٢٣) برق ١٤٥ ب.
(٢٤) أبو شامة ٢ : ١١.
(٢٥) الوهراني ١٨٧.
(٢٦) السلوك ٦٩.
(٢٧) قارن الوهراني ١٨٢ وما يتبع للتفاصيل المذكورة في هذا المقطع.
(٢٨) توب قابو ٨٦.
(٢٩) ٢٥٧٥٧ : ٣٦.
(٣٠) بنداري ٣٤١.
(٣١) وليم الصوري ١٠٦٣.
(٣٢) بنداري ٣٤٥.
(٣٣) وليم الصوري ١٠٦٢.
(٣٤) بنداري ٣٤٢.
(٣٥) ابن الأثير ١١ : ٤٥٩.
(٣٦) نفسه ١١ : ٤٦٠.
(٣٧) موصل ٧٨.
(٣٨) وليم الصوري ١٠٦٤.
(٣٩) بنداري ٣٤٥.
(٤٠) نفسه ٣٤٧.
(٤١) ابن الأثير ١١ : ٤٦٥.
(٤٢) قارن خطط ١ : ٦٠.
(٤٣) ميونخ ٣٢.
(٤٤) ابن الأثير ١١ : ٤٦٣.
(٤٥) بنداري ٣٥٧.
(٤٦) قارن أبو شامة ٢ : ١٧.
(٤٧) القلقشندي ١٠ : ١٣٥.
(٤٨) أبو شامة ٢ : ١٧.
(٤٩) ابن شداد ٥٤.
(٥٠) البنداري ٣٤٧.
(٥١) كسابقه ٣٤٨.
(٥٢) ابن أبي طي، أبو شامة ٢ : ١٨.

(٥٣) ابن الأثير ١١ : ٤٦٩ .
(٥٤) شفاء القلوب ١١ .
(٥٥) بنداري ٣٤٩ .
(٥٦) المقريزي ، السلوك ٧١ .
(٥٧) الوهراني ١٨٢ .
(٥٨) توب قابو ٥٥ .
(٥٩) قارن البنداري ٣٥٣ .

هوامش الفصل الحادي عشر

(١) أبو شامة ٢ : ١٩ .
(٢) خطط ٢ : ١٢٤ .
(٣) قارن «السلوك» ٧٣.
(٤) نفسه ٧١.
(٥) نفسه ٧٤.
(٦) قارن ، المخزومي ١١١ .
(٧) ٢٥٧٥٧ : ٩٣.
(٨) السلوك ٧٢.
(٩) اقتباس . خطط ١ : ١٨٥ .
(١٠) سنا ٢٠٩.
(١١) نفسه ٢١٠ .
(١٢) نفسه ٢١١ وما يتبع .
(١٣) برلين ٥٦ .
(١٤) موصل ٧٣.
(١٥) قارن برلين ٤٧ .
(١٦) اقتباس أبو شامة ٢ : ٢١ .
(١٧) أبو شامة ٢ : ٢١ .
(١٨) اقتباس أبو شامة ٢ : ٢١ .
(١٩) ابن الأثير ١١ : ٤٧٣ .
(٢٠) ابن العديم ٤٦ .
(٢١) اقتباس سناء ٢٠٧ .
(٢٢) اقتباس سناء ٢٠٨؛ قارن أبو شامة ٢ : ٢٣؛ ابن واصل ١١٠ .
(٢٣) باريس ٦٦؛ قارن أبو شامة ٢ : ٢٤ .
(٢٤) باريس، أبو شامة في الفقرة التي اقتبست.
(٢٥) أبو شامة ٢ : ٢٣.
(٢٦) راجع سناء ٢١١ .
(٢٧) راجع سلوك ٧٧ .
(٢٨) قارن خطط ١ : ٤٠٧.
(٢٩) ابن شداد ٥٥ .

(٣٠) قارن ابن العديم ٤٨ ـ ٤٩.
(٣١) ابن العديم في الفقرة التي اقتبست.
(٣٢) ابن الأثير ١١: ٤٧٤.
(٣٣) قارن ابن العديم ٥٢.
(٣٤) وليم الصوري ١٠٨٧.
(٣٥) سناء ٢١٨، اقتباس أبو شامة ٢: ٢٧.
(٣٦) وليم الصوري ١٠٦٣؛ بالنسبة للشروط التقليدية لمثل هذه الاتفاقيات التي تشمل الحياة والعقارات والسلع التجارية، قارن القلقشندي ١٤: ٥٨، ٦٧.
(٣٧) اقتباس أبو شامة ٢: ٢٦.
(٣٨) سناء ٢١١؛ أبو شامة ٢: ٢٧.
(٣٩) قارن شعر لمجهول في حماسة أبي تمام (٢: ٧١) لنسبته إلى عبد الله القشيري، قارن قول على قول، ٢: ٣٢٧.
(٤٠) باريس ٤٢؛ اقتباس، جزئي، ميونيخ ١١١؛ ٢٥٧٥٦؛ ١٠١ أبو شامة ٢: ٢٨.
(٤١) وليم الصوري ١٠٨٧.
(٤٢) سناء ٢١٩؛ قارن أبو شامة ٢: ٢٨.
(٤٣) وليم الصوري ١٠٩١.
(٤٤) تفسير ١٠٨٧.
(٤٥) الشكل البديل، القرين في الوهراني ١٦٢.
(٤٦) ٢٥٧٥٧: ٩.
(٤٧) وليم الصوري ١٠٨٩.
(٤٨) ٢٥٧٥٧: ٩.
(٤٩) وليم الصوري ١٠٩١.
(٥٠) ٢٥٧٥٧: ٩.
(٥١) سناء ٢٢١.
(٥٢) للمزيد من التفاصيل، قارن وليم الصوري ١٠٩٢ وما يتبع؛ باريس ٤٢.
(٥٣) سناء ٢٢٢.
(٥٤) نفسه ٢٢٤.
(٥٥) قارن وليم الصوري ١٠٩٧.
(٥٦) نفسه ١٠٩٦.
(٥٧) باريس ٥١.
(٥٨) وليم الصوري ١٠٩٨.
(٥٩) قارن وليم الصوري ١١٠٠؛ أرسل الفرنجة أسطولاً من ٣٣ سفينة كبيرة، ولكن المصريين غادروا قبل وصوله.
(٦٠) ابن شداد ٥٦.
(٦١) سناء ٢٢٧؛ برق ٥: ٦ آ؛ أبو شامة ٢: ٢٩.
(٦٢) ابن الأثير ١١: ٤٨٢.
(٦٣) باريس ٦٣؛ ٢٥٧٥٧: ٥٦.
(٦٤) باريس ٤٢؛ ميونيخ ١١١.
(٦٥) باريس ٥٦، ٢٥٧٥٧، ٢٢.

هوامش الفصل الثاني عشر

(١) باريس ٢٨ .
(٢) سناء ٢٢٧؛ برق ٥ : ٧ب .
(٣) ٢٥٧٥٧ : ٦٢ .
(٤) ابن شداد ٥٨ .
(٥) ابن الأثير ١١ : ٤٨٢ .
(٦) سنا ٢٢٧؛ قارن أبو شامة ٢ : ٣٠ .
(٧) قارن ابن العديم ٥٦ .
(٨) باريس ١٢؛ ٢٥٧٥٧ : ٢٧؛ قارن أبو شامة ٢ : ٣١ .
(٩) اقتباس أبو شامة ٢ : ٣٠ .
(١٠) البنداري ٣٣٠ .
(١١) سنا ٢٣٩ .
(١٢) ابن الأثير ١١ : ٤٩١ .
(١٣) سنا ٢٤٣ .
(١٤) ابن الأثير ١١ : ٤٨٤ .
(١٥) ٢٥٧٥٧ : ٥؛ برلين ٤١ .
(١٦) نور ٥٢ .
(١٧) سنا ٢٣٠ .
(١٨) المكان نفسه .
(١٩) الرحلات ٢٣٩ .
(٢٠) ابن الأثير ١١ : ٤٨٤ .
(٢١) عن التفاصيل ، قارن ابن العديم ٥٩ .
(٢٢) قارن وليم الصوري ١١٠١ وما يتبع .
(٢٣) وليم الصوري ١١٠٦ .
(٢٤) سنا ٢٣٠ .
(٢٥) ابن الأثير ١١ : ٤٨٥ .
(٢٦) سنا ٢٣٠ .
(٢٧) ابن شداد ٥٧ .
(٢٨) المكان نفسه .
(٢٩) باريس ٥٦ .
(٣٠) ابن الأثير ١١ : ٤٨٥ .
(٣١) المكان نفسه .
(٣٢) قارن سنا ٢٣١؛ أبو شامة ٢ : ٣٢ .
(٣٣) ابن الأثير ١١ : ٤٨٦ .
(٣٤) عن هذا وعن تفاصيل المفاوضات قارن سنا ٢٣١ وما يتبع .
(٣٥) ابن الأثير ١١ : ٤٨٧ .
(٣٦) قارن سنا ٢٣٥؛ أبو شامة ٢ : ٣٣ .
(٣٧) ابن الأثير ١١ : ٤٨٧ .

(٣٨) ابن شداد ٥٧ .
(٣٩) قارن باريس ١٠ .
(٤٠) قارن ٢٥٧٥٧ : ٣٦ .
(٤١) قارن ابن شداد ٥٧؛ «جب» (٣٥ حاشية ١) يخطىء في مرتبة سعد الدين ويفترض أنه منح إقطاع سينجار وأن رواية ابن شداد غير صحيحة . لكنها تجد تثبيتاً في ميونيخ ١٣٧ .
(٤٢) ابن الأثير ١١ : ٤٨٨ .
(٤٣) قارن برق ١٤ ، ٢٣ آ .
(٤٤) باريس ١٠ .
(٤٥) نفسه ١١٠؛ موصل ٦٦ .
(٤٦) ابن الأثير ١١ : ٤٨٨ .
(٤٧) باريس ١٧؛ توب قابو ٤٨ .
(٤٨) ٢٥٧٥٧ : ٩٦ .
(٤٩) ٢٥٧٥٧ : ٣٦ .
(٥٠) قارن ٢٥٧٥٧ : ٢٩ .
(٥١) باريس ١١٣ ، لايدن ١٣ .
(٥٢) سنا ٢٤٢ ، أبو شامة ٢ : ٣٥ .
(٥٣) ابن الأثير ١١ : ٤٩٠ .
(٥٤) الرحلات ٥٩ .
(٥٥) خطط ٢ : ٨٦ .
(٥٦) باريس ١١٣ ، لايدن ١٣ .
(٥٧) الرحلات ٦٠ .
(٥٨) خطط ٢ : ٨٦ .
(٥٩) باريس ١١٤ .
(٦٠) قارن سنا ٢٤٣؛ باريس ١١٤؛ ٢٥٧٥٧ : ١٣١ .
(٦١) الرحلات ٥٩ .
(٦٢) برق ٤٣ب ، قارن القلقشندي ٤ : ١٥٥ .
(٦٣) ٢٥٧٥٧ : ٢٩ ؛ أبو شامة ٢ : ٣٦ .
(٦٤) برلين ٥٤ ، أبو شامة ٢ : ٣٦ .
(٦٥) أبو شامة ٢ : ٣٦ .
(٦٦) ٢٥٧٥٧ : ٢٩ .
(٦٧) قارن ابن شداد ٥٨؛ ابن الأثير ١١ : ٤٨٨ وما يتبع؛ سناء ٢٣٨ .
(٦٨) برق ٥٥ أ .
(٦٩) سنا ٢٤٧؛ دولة الأكراد ٧ ـ ٨ يبالغ بدون شك بأعداد التعزيزات المصرية ، ذاكراً أن عددهم بلغ ٥٠٠٠ .
(٧٠) برلين ٥٧ .
(٧١) برق ٥٦أ .
(٧٢) كسابقه ٥٧ب .
(٧٣) ٧٤٥٦ : ١٩٧ .
(٧٤) برلين ٥٧ .

(٧٥) قارن سنا ٢٤٨ .
(٧٦) وليم الصوري ١١١٣ .
(٧٧) قارن ، الخريدة ١ : ١٩٧ .
(٧٨) سنا ٢٤٥ .
(٧٩) نفسه ٢٤٨ .
(٨٠) ٢٥٧٥٦ : ١٠ ، قارن أبو شامة ٢ : ٤٠ .
(٨١) برلين ٥١ .
(٨٢) ابن الأثير ١١ : ٤٩٣ . «جب» (٣٦ حاشية ٢) يشك بتفسير ابن الأثير .
(٨٣) سنا ٢٤٩ .
(٨٤) أن التاريخ الذي نقله أهرونكروتز (١٨١) هو ٦ أيار ، لا يمكن أن يتفق مع التاريخ المذكور في رسالة (باريس ١٩ ، ميونيخ ١١٣) أرسلت من سروج السبت ٧ أيار (١٢ محرم) .
(٨٥) اقتباس أبو شامة ٢ : ٣٩ .
(٨٦) برق ٦٤ ب .
(٨٧) ميونخ ١٣٧ .
(٨٨) كسابقه ١٢٦ ؛ أبو شامة ٢ : ٤١ .
(٨٩) ميونيخ ١٢٣ ؛ باريس ٣ .
(٩٠) ميونيخ ١١٣ ، باريس ١٩ ، برق ٣٤ أ ؛ أبو شامة ٢ : ٤٩ .
(٩١) ميونخ ١١٧ .
(٩٢) قارن ميونخ ١٢٩ ، برلين ٦ .
(٩٣) برلين ١٠ .
(٩٤) برق ٧٩ أ .
(٩٥) قارن ابن العديم ٦٣ وما يتبع .
(٩٦) برق ٨٠ أ .
(٩٧) برلين ٦٩ .
(٩٨) برق ٨٠ ب .
(٩٩) وليم الصوري ١١١٣ وما يتبع .
(١٠٠) برلين ٦٤ .
(١٠١) سناء ٢٥٧ ؛ قارن الديوان لأبي تمام ١ : ٩٣ .
(١٠٢) ابن العديم ٦٦ .
(١٠٣) ابن الأثير ١١ : ٤٩٧ .
(١٠٤) ابن العديم ٦٧ .
(١٠٥) توب قابو ١٩ .
(١٠٦) ابن العديم ٧١ .
(١٠٧) سناء ٢٦٠ ؛ برق ٩٦ ب ؛ للتأريخ قارن ابن شداد ٦٠ ، أبو شامة ٢ : ٤٤ ؛ «جب» ٣٨ ؛ أهرنكروتز ١٨١ .
(١٠٨) قارن ابن العديم ٦٩ .
(١٠٩) أبو شامه ٢ : ٤٤ .
(١١٠) برلين ٧٥ .
(١١١) نفسه ٥٦ .

(١١٢) ميونخ ١٤٠.
(١١٣) برلين ٥٨.
(١١٤) نفسه ٧٥.
(١١٥) أبو شامة ٢: ٤٣.
(١١٦) ميونخ ١٤٠.
(١١٧) اقتباس أبو شامة ٢: ٤٣.
(١١٨) ابن الأثير ١١: ٤٩٧.
(١١٩) ابن العديم ٦٨.
(١٢٠) ابن واصل ١٤٣.

هوامش الفصل الثالث عشر

(١) قارن سابقاً الفصل السادس.
(٢) أبو شامة ٢: ٤٦.
(٣) سناء ٢٥٩؛ برق ٨٩ ب.
(٤) اقتباس أبو شامة ٢: ٤٦.
(٥) أبو شامة، في الفقرة التي اقتبست.
(٦) برق ٨٩ ب.
(٧) ميونخ ١٣١؛ باريس ٣٦؛ برلين ٨٣؛ أبو شامة ٢: ٤٨.
(٨) برلين ٧٢.
(٩) نفسه ٧٨.
(١٠) اقتباس أبو شامة ٢: ٤٩.
(١١) ميونخ ١٤٠.
(١٢) ٢٥٧٥٧: ٣٠؛ برلين ٣٨؛ أبو شامة ٢: ٤٧.
(١٣) برلين ٤٤.
(١٤) برق ١٠٠ وما يتبع.
(١٥) توب قابو ٩٧.
(١٦) قارن وليم الصوري ١١١٥.
(١٧) باريس ٧٧.
(١٨) نفسه ٧٠.
(١٩) سناء ٢٦٥؛ برق ١١٢ أ.
(٢٠) وليم الصوري ١١١٨.
(٢١) نفسه ١١٢٢.
(٢٢) سناء ٢٦٦؛ برق ١١٢ ب.
(٢٣) وليم الصوري ١١١٩.
(٢٤) قارن ابن شداد ٦٢.
(٢٥) وليم الصوري ١١٢٠.
(٢٦) نفسه ١١٢٣.
(٢٧) قضاة ٧: ١٢.

(٢٨) وليم الصوري ١١٢٣.
(٢٩) سناء ٢٦٦.
(٣٠) برق ١٤٤ أ.
(٣١) وليم الصوري ١١٢٤.
(٣٢) باريس ٧٢.
(٣٣) سناء ٢٦٧؛ برق ١١٧ أ.
(٣٤) اقتباس أبو شامة ٢، ٥٢؛ قارن ابن العديم ٧٥.
(٣٥) سناء ٢٦٨؛ برق ١١٨ أ.
(٣٦) وليم الصوري ١١٢٤.
(٣٧) سناء ٢٦٨؛ برق ١١٨ ب؛ وليم الصوري (١١٢٩) يذكر عن ٨ راجمات ست منها في داخل المدينة واثنتان خارجها. ان هذا الرقم كافياً للحصار يبرهن عليه من الرقم ٩ راجمات الذي اقتبس لحصار الكرك الثاني (قارن ص ٢١٧).
(٣٨) ٢٥٧٥٧، ٣٣؛ يظهر عماد الدين (سنا ٢٦٧) تقي الدين أنه رافق صلاح الدين للكرك، ولكنه أوجز روايته.
(٣٩) وليم الصوري ١١٢٦؛ تهمل المصادر العربية الرواية أن صلاح الدين لم يقذف البرج الذي نزل فيه الزوجان الشابان.
(٤٠) برق ١٢٦ ب.
(٤١) ابن العديم ٧٤.
(٤٢) سنا ٢٦٨؛ برق ١١٨ ب.
(٤٣) برق ١٢٦ ب.
(٤٤) سنا ٢٧٠؛ برق ١٢٦ ب.
(٤٥) قارن سنا ٣٢١.
(٤٦) أبو شامة ٢ : ٥٣.
(٤٧) ٧٤٦٥ : ٢.
(٤٨) ٧٤٦٥ : ٣.
(٤٩) ٧٤٦٥ : ١٠؛ الاقتباس القاضلي (خطط ١ : ١٠٠)
(٥٠) سنا ٢٧٣، برق ١٣٠ ب.
(٥١) ابن الأثير ١١ : ٤٩٩.
(٥٢) برق ١٣٤ أ.
(٥٣) ٧٤٦٥ : ٢٤.
(٥٤) ابن العديم ٧٧.
(٥٥) ابن شداد ٦٤.
(٥٦) سنا ٢٧١، برق ١٢٨ ب.
(٥٧) ٧٤٦٥، ٢٠؛ موصل ٨٠.
(٥٨) سنا ٢٧٣؛ برق ١٣٠ ب.
(٥٩) سنا ٢٧٢؛ برق ١٢٩ ب.
(٦٠) سنا ٢٧٣ وما يتبع؛ برق ١٣٠ ب وما يتبع.
(٦١) قارن رفض صلاح الدين هدايا من بكتيمور في سينجار سنة ١١٨٢.
(٦٢) سنا ٢٨٨.

(٦٣) ابن الأثير ١١ : ٥٠٤ .
(٦٤) ٧٤٦٥ : ٢٠؛ موصل ٨٠.
(٦٥) السلوك ٨٧.
(٦٦) اقتباس سنا ٢٧٧ .
(٦٧) سنا ٢٧٨ .
(٦٨) السلوك ٨٤.
(٦٩) ابن شداد ٦٦.
(٧٠) ابن واصل ١٥٧.
(٧١) سنا ٢٧٨ .
(٧٢) أبو شامة ٢ : ٥٥ ـ ٥٦ .
(٧٣) سنا ٢٧٩ .
(٧٤) الرحلات ٢٩٨ وما يتبع.
(٧٥) سنا ٢٨٠ .
(٧٦) إرنول ١٠٥ .
(٧٧) سنا ٢٨٠ .
(٧٨) الرحلات ٢٩٩ .
(٧٩) سنا ٢٨٠ .
(٨٠) ٧٣٠٧ : ٢٧ .
(٨١) ابن شداد ٦٧.
(٨٢) سنا ٢٨١ ـ «أرسل صلاح الدين [أجراء] فرسانه لنابلس ـ استولى الجيش على غنائم ـ في طريقه راجعاً، توقف عند سبسطيه ـ واجتمعت قواتا عند الفوّار» .
(٨٣) قارن رسالة اقتبست من قبل راؤول دي شنو، ٢ : ٢٧ .
(٨٤) السلوك ٨٤.
(٨٥) الرحلات ٣٠٠ وما يتبع.
(٨٦) سنا ٢٧٩ .
(٨٧) ابن الأثير ١١ : ٥٠٩ .
(٨٨) سنا ٢٨١ .
(٨٩) نور ٥٢ .
(٩٠) ابن الأثير ١١ : ٥٠٩ .
(٩١) سنا ٢٨٢ .

هوامش الفصل الرابع عشر

(١) السلوك ٨٥.
(٢) الرحلات ٣٠٩.
(٣) كمبردج ٢٣؛ أن تنسب الرسالة للفاضل ربما كان صحيحاً نسبة للهجتها أو أسلوبها وبنوع خاص للإشارة بعدم الرضى عن أعمال تقي الدين؛ من جهة أخرى، ليس من إثبات آخر أن الفاضل ذهب لحماه في هذه المناسبة .
(٤) ميونغ ٢٢ .

(٥) ٧٤٦٥، ٣٨، ٤؛ موصل ٨٤.
(٦) قارن ابن شداد ٦٧.
(٧) قارن ابن شداد ٦٧.
(٨) قارن لاحقاً.
(٩) سناء ٢٩٣.
(١٠) ٧٤٦٥، ٤٥.
(١١) ٧٤٦٥، ٤٦.
(١٢) ٧٤٦٥، ٥٠.
(١٣) سناء ٢٩٤ وما يتبع.
(١٤) ٧٤٦٥، ٤٦ (٢).
(١٥) ابن الأثير ١١ : ٥١١.
(١٦) سناء ٢٩٥.
(١٧) ابن شداد ٦٨.
(١٨) ٧٤٦٥، ١٧٤.
(١٩) ابن شداد ٦٨.
(٢٠) فشل في محاولاته للمدينتين الأولبين، ولكنه ثبت نفسه في خرتبرت. نصح صلاح الدين بالحاح أن يسترجع آمد، لأن مستشاريه كانوا يشكون في «سلوك والنوايا الخفية» (سناء ٣٠٣) لأولئك الذين كانوا مسؤولين عن وريث نور الدين، سقمان. أرسل ابن الفراش بناء على نصيحته وقدم سُقمان لصلاح الدين من قبل الوزير القوام ثم ثبت في ملكيته لحصن كيفا وآمد.
(٢١) سناء ٢٩٧.
(٢٢) نفسه ٢٩٧ وما يتبع.
(٢٣) ابن الأثير ١١ : ٥١٢.
(٢٤) ابن العديم ٨١.
(٢٥) سناء ٣٠٩.
(٢٦) «جب» (٤٢ حاشية ١) يفضل التاريخ الأقدم للحدث. يرفض الإقتراح الذي يتبناه اسين العبري (التاريخ السرياني ٣١٩) أنه كانت هناك محاولتان.
(٢٧) سناء ٢٩٩ : نص ابن واصل (١٦٧) يعطي «غرب».
(٢٨) سناء ٢٢٩.
(٢٩) كسابقه ٣٠٠.
(٣٠) ميونخ ١٩.
(٣١) سناء ٣٠٠. قارن ابن الأثير ١١ : ٣٧٨.
(٣٢) ابن الأثير ١١ : ٥١٣.
(٣٣) قارن سناء ٣٠٢.
(٣٤) سناء ٣٠١.
(٣٥) اقتباس سناء ٣٠٢.
(٣٦) ابن الأثير ١١ : ٥١٥.
(٣٧) سناء ٣٠٤.
(٣٨) معجم البلدان ٥ : ٢٣٧.
(٣٩) سنا ٣٠٥

(٤٠) نفسه ٣٠٦.
(٤١) ٧٤٦٥: ٥٠.
(٤٢) ٧٤٦٥: ١٥٦.
(٤٣) ٧٤٦٥: ١٥٨.
(٤٤) ٧٤٦٥: ١٥٤.
(٤٥) ميونخ ٧٢.
(٤٦) سنا ٣٠٣.
(٤٧) نفسه ٣٠٧.
(٤٨) نفسه ٣٠٨.
(٤٩) ابن شداد ٦٩.
(٥٠) قارن ٧٤٦٥: ١٦٢.
(٥١) المكان نفسه.
(٥٢) سنا ٣٠٨.
(٥٣) ابن شداد ٧٠.
(٥٤) سنا ٣٠٨.
(٥٥) ميونخ ٧٠.
(٥٦) سنا ٣٠٨.
(٥٧) ميونخ ١١.
(٥٨) نفسه ٥٩.
(٥٩) ٧٤٦٥: ١٧٠.
(٦٠) ٧٤٦٥: ١٧٢.
(٦١) ٧٤٦٥: ١٦٧.
(٦٢) ميونخ ٨٨.
(٦٣) نفسه ٤٥.
(٦٤) سنا ٣١١.
(٦٥) ٧٤٦٥: ١٦١.
(٦٦) سنا ٣١٧.
(٦٧) ٧٤٦٥: ١٦٦.
(٦٨) ٧٤٦٥: ١٦٣.
(٦٩) ٢٥٧٥٧: ١١٧.
(٧٠) ٧٤٦٥: ١٦٤.
(٧١) سنا ٣١٣.
(٧٢) الفاضل، إقتباس أبو شامة ٢: ٦٧.
(٧٣) قارن ابن الأثير ١١: ٥١٨.
(٧٤) ابن الأثير، في الفقرة التي إقتبست؛ بالنسبة إلى رواية دس السم له من قبل إمرأته، أخت صلاح الدين؛ قارن ابن أبي الهيجاء ١٨٢.
(٧٥) ابن شداد ٧٠.
(٧٦) قارن ميونخ ٦٥. بالنسبة للحملة الأخيرة، قارن المتنبي ديوان (برلين ١٩٦١) ٥٧٩.
(٧٧) ميونخ ٨٣.

(٧٨) اقتباس أبو شامة ٢ : ٦٤.
(٧٩) ابن شداد ٧٠.
(٨٠) ابن العديم ٨٣.
(٨١) اقتباس أبو شامة ٢ : ٦٥.

هوامش الفصل الخامس عشر

(١) سنا ٣٢٣.
(٢) ابن الأثير ١١ : ٨١٥.
(٣) القرآن الكريم ١٠ : ٤.
(٤) سنا ٣٢٤.
(٥) نفسه ٣٢٥.
(٦) نفسه.
(٧) ميونخ ٢٦.
(٨) قارن ميونخ ٧٢.
(٩) قارن ميونخ ٦٣.
(١٠) ميونخ ٥٧.
(١١) التفاصيل هنا وفي الفقرة التالية مستقاه من سنا ٣٢٥ - ٣٢٦.
(١٢) ابن الأثير ١١ : ٥٢٥.
(١٣) ابن شداد ٧٢.
(١٤) سنا ٣٢٧.
(١٥) المكان نفسه.
(١٦) المكان نفسه، وقارن سنا ٣٢٢.
(١٧) اقتباس أبو شامة ٢ : ٧٠.
(١٨) القرآن الكريم ١١ : ٨٠.
(١٩) ابن الأثير ١١ : ٥٢٤.
(٢٠) سنا ٣٢٨.
(٢١) نفسه ٣٣٥.
(٢٢) قارن تفسير الوهراني للفقه كعلم (١٠١).
(٢٣) ميخائيل السوري الثامن عشر، ١٠ : ٣٩٨.
(٢٤) سنا ٣٣٠.
(٢٥) نفسه ٣٣١.
(٢٦) نفسه ٣٥٠، أبو شامة ٢ : ٨٠.
(٢٧) سنا ٣٣٧ وما يتبع، ابن الأثير ١١ : ٥٢٦.
(٢٨) «التتمة» ٦٤ وما يتبع؛ عن رواية هذه الأحداث قارن «رايلي - سمث» «فرسان القديس يوحنا في القدس وقبرص» ٨١.
(٢٩) «التتمة» ٦٦.
(٣٠) سنا ٣٣٨.
(٣١) المكان نفسه.

(٣٢) سنا ٣٣٩.
(٣٣) نفسه ابن الأثير ١١: ٥٢٧.
(٣٤) «التتمة» ٥٨.
(٣٥) ميونخ ٨٣.
(٣٦) الإشارة هنا إلى أم جميل بنت حرب التي رمت حطباً أمام النبي ﷺ.
(٣٧) ميونخ ٧١.
(٣٨) اقتباس أبو شامة ٢: ٧٥.
(٣٩) قارن ميونخ ٨٤.
(٤٠) «فتح» ١٠٤.
(٤١) سنا ٣٤٢.
(٤٢) سنا في الفقرة التي أقتبست، قارن ابن الأثير ١١: ٥٣١.
(٤٣) مجهول؛ Libellas, 5.
(٤٤) نفسه ٦.
(٤٥) يوميات ريتشارد الأول، ٧٠.
(٤٦) Libellas, 5.
(٤٧) قارن سناء ٣٤٢؛ ابن الأثير ١١: ٥٣١.
(٤٨) نور ٣.
(٤٩) «التتمة» ٦٧.
(٥٠) ميونخ ٨٤.
(٥١) ابن شداد ٧٥.
(٥٢) ٧٤٦٥: ٢٠٩.
(٥٣) ٧٤٦٥: ٥٤، عن هذا الحادث قارن «براند»: «البيزنطيون وصلاح الدين» ١٦٨ ـ ١٦٩.
(٥٤) ابن الأثير ١١: ٥٢٧.
(٥٥) «التتمة» ٦٧.
(٥٦) قارن ميونخ ٨٢.
(٥٧) ابن شداد ٧٥.
(٥٨) «فتح» ١٥.
(٥٩) باريس ٩٠.
(٦٠) سنا ٣٤٢: ابن الأثير ١١: ٥٣١.
(٦١) اقتباس «التتمة» ٨٠.
(٦٢) قارن «التتمة» ٧٢.
(٦٣) ميونخ ٨٤؛ لكن قارن رسالة اقتبسها أبو شامة ٢: ٨٢ والتي تشير، دون ذكر محدد للوقت، أن غالبية الأمراء كانوا يحبذون دخول المعركة.
(٦٤) «نور» ٥.
(٦٥) ابن الأثير ١١: ٥٣٢.
(٦٦) كسابقه ١١: ٥٣٣؛ قارن سنا ٣٤٤ ـ «حياة الناس ليست مضمونة . . . يجب أن أدخل في معركة».

هوامش الفصل السادس عشر

(١) سنا ٣٤٣.
(٢) ابن شداد ٧٦.
(٣) «فتح» ١٠٥.
(٤) نور ٥.
(٥) المكان نفسه.
(٦) قارن سنا ٣٤٤.
(٧) باريس ٩٠؛ توب قابو ٢٩.
(٨) قارن .Estoire d'Eracles, 52
(٩) ابن الأثير ١١: ٥٣٣.
(١٠) قارن .Libellus 68
(١١) «فتح» ٢٢.
(١٢) اقتباس «التتمة» ٨١.
(١٣) يجب التنبيه هنا أن «جبّ» يميل إلى التخمين حين يكتب (٥٣) أن ابن الأثير «يصوّر ببراعة موقف ريموند بحق، على الأقل في الجزء الأول من الحجة».
(١٤) قارن: .Libellus 69, Continuation 103
(١٥) قارن أبو شامة ٢: ٨٢.
(١٦) باريس ٩٠، توب قابو ٢٩.
(١٧) .Prawer, la bataille de Hattin
(١٨) باريس ٩٠، توب قابو ٢٩.
(١٩) باريس. توب قابو في الفقرة التي اقتبست.
(٢٠) قارن: .Ansbertus 4
(٢١) «برور» في «معركة حطين» يعلق على قابلية عقر وفشل الخيل في هذه الفترة؛ إشارة إلى سلاح الفرسان عند الفرنجة تجدها في ابن شداد ١٥٠.
(٢٢) سناء ٣٤٨.
(٢٣) كسابقه ٣٤٥.
(٢٤) كسابقه ٣٤٥ وما يتبع؛ «فتح» ٢٢ وما يتبع.
(٢٥) .Libellus 71
(٢٦) قارن نور ٥؛ وليم الصوري، حين يكتب عن معركة أنطاكية في الحرب الصليبية الأولى يذكر: «على عادتهم كانوا يشعلون النار في القش» (الجزء الأول ص ٢٩٢).
(٢٨) قارن .Ansbertus 3
(٢٩) .Libellus 71
(٣٠) قارن ابن الأثير ١١: ٥٣٥، «فتح» ٢٤.
(٣١) «التتمة» ٧٠.
(٣٢) نور ٥.
(٣٣) باريس ٩٠؛ توب قابو ٢٩.
(٣٤) نور ٥.
(٣٥) ابن الأثير ١١: ٥٣٦.

(٣٦) سناء ٣٤٨.
(٣٧) عن هذه الرواية قارن ابن شداد ٧٨.
(٣٨) «التتمة» ٧١.
(٣٩) ابن الأثير ١١ : ٥٣٧.
(٤٠) سناء ٣٥٠.
(٤١) نور ٥.
(٤٢) المكان نفسه.
(٤٣) سنا ٣٤٩.
(٤٤) ابن شداد ٧٧.
(٤٥) «فتح» ٢٧.
(٤٦) أبو شامة ٢ : ٨٢.
(٤٧) سنا ٣٤٩ وما يتبع؛ قارن «فتح» ٢٨.
(٤٨) «التتمة» ٧١.
(٤٩) باريس ٩٠؛ توب قابو ٢٩.
(٥٠) قارن أبو شامة ٤ : ٨٢؛ «خطط» ٢ : ٢٣٤ يضع عدد قوة الفرنجة ب ٥٠ ألف.

هوامش الفصل السابع عشر

(١) سنا ٣٥٣.
(٢) اقتباس أبو شامة ٢، ٨٦، عن إشارة حول القاسم ابن المهنا، أيضاً Zambaur, Manuel de Geneolgie, 114. قارن، القلقشندي ٤: ٣٠٠.
(٣) سنا ٣٥١.
(٤) ابن الأثير ١١: ٥٣٩.
(٥) سنا ٣٥٣.
(٦) ابن الأثير ١١: ٥٣٩.
(٧) كسابقه ١٢ : ٢٥؛ الإقتباس ليس بالضرورة موثوق به، ولكن يمثل ما يمكن الإعتقاد به عن صلاح الدين.
(٨) Ansbertus 4 sq.
(٩) سنا ٣٥٥.
(١٠) ابن الأثير ١١: ٥٤١.
(١١) ابن شداد ٨٠.
(١٢) سنا ٣٥٦.
(١٣) ابن الأثير ١١: ٥٤٣.
(١٤) «فتح» ٣٧.
(١٥) «التتمة» ٧٤.
(١٦) «فتح» ٣٩ وما يلي.
(١٧) سنا ٣٥٨.
(١٨) ابن شداد ٨٠.
(١٩) «فتح» ٤٤.

(٢٠) قارن «التتمة» ٧٣، حاشية ١٦٣.
(٢١) نفسه ٧٣.
(٢٢) ابن الأثير ١١: ٥٤٤.
(٢٣) سنا ٣٦٠.
(٢٤) المكان نفسه.
(٢٥) سنا ٣٦١.
(٢٦) ابن الأثير ١١: ٥٤٥.
(٢٧) توب قابو ٩٨.
(٢٨) حسام الدين إبراهيم المهداني، قارن سنا ٣٦١.
(٢٩) قارن سنا ٣٦٢.
(٣٠) وليم الصوري الجزء الأول، ص ٣٨٣.
(٣١) ابن الأثير ١١: ٥٤٦، وما يتبع؛ ابن شداد ٨١؛ سنا ٣٦٤.
(٣٢) سنا ٣٦٣.
(٣٣) «التتمة» ٧٥؛ هذا ما ردده صلاح الدين، الذي كتب آن اللاجئين فكّروا أن الكنيسة (كنيسة القبر المقدس) ستتوسط مع الله لأجلهم (القاهرة ١٥؛ القلقشندي ٦: ٤٩٦).
(٣٤) Libellus 87.
(٣٥) وليم الصوري الجزء الأول، ص ٣٦٠.
(٣٦) ابن الأثير ١١: ٥٤٨.
(٣٧) Libellus 88.
(٣٨) كسابقه ٨٩؛ قارن «خريدة» ١: ١٥٨ السطر من أبيات الشاعر الأديب القيسراني موجه إلى نور الدين.
(٣٩) قارن القاهرة ١٥؛ القلقشندي ٦: ٤٩٦، (باريس ٧٩؛ توب قابو ١٠٣؛ ٢٥٧٥٧: ١١٩).
(٤٠) عن الرقم ٣٠٠٠٠ قارن أبو شامة ٢: ٩٢؛ للرقم ٥٠٠٠ قارن سنا ٣٦٥؛ حسب ما يقوله ابن جبير (رحلة ٣٠٦) كان قد قدم إقتراح مماثل من قبل المسلمين قبل الإستيلاء على صور من قبل الصليبيين ولكنه لم ينفذ.
(٤١) «فتح» ٥٥.
(٤٢) Continuation, 75.
(٤٣) Libellus, 90.
(٤٤) «فتح» ٦٠.
(٤٥) سناء ٣٦٨.
(٤٦) «فتح» ٥٥ وما يتبع.
(٤٧) ابن الأثير ١١: ٥٥٠.
(٤٨) «فتح» ٦٠.
(٤٩) سنا ٣٧٤.
(٥٠) توب قابو ١٣٧.
(٥١) ٧٣٠٧: ٨٩.
(٥٢) القاهرة ١٥.
(٥٣) سنا ٣٦٨.
(٥٤) فتح ٦٣؛ سنا ٣٦٩؛ كان بين الوعاظ فريد الدين علي.
(٥٥) القاهرة ١٥.

(٥٦) «فتح» ٦١ وما يتبع ؛ سنا ٣٦٩؛ ٣٧١.
(٥٧) «فتح» ٦٩، قارن وليم الصوري، الجزء الأول ص ٣٣٤ لإقتراح قدمه المسلمون أيام الحملة الصليبية الأولى «لنقض كنيسة القيامة من أساساتها، وتدمير القبر المقدس الكائن في داخلها تدميراً كاملاً. تأملوا أن هذا العمل سيمنع حشد الحجاج العظيم الذي كان يحج إلى هناك».
(٥٨) «فتح» ٦٠ - ٦١.
(٥٩) نفسه ٥٥.
(٦٠) نفسه ٥٦.
(٦١) ابن شداد ٨٢.
(٦٢) سنا ٣٧٤ - ٣٧٥.

هوامش الفصل الثامن عشر

(١) قارن ٧٤٦٥: ١٨٠.
(٢) قارن «التتمة» ٧٨.
(٣) سنا ٣٧٦.
(٤) ابن شداد (٨٣) يضع تاريخ قدومه في ٢١ تشرين الثاني، لكن عماد الدين يرى أنه جاء بعد ذهاب صلاح الدين للتل (سناء ٣٧٦).
(٥) «فتح» ٧٩.
(٦) ٧٤٦٥: ١٨٢.
(٧) ٧٤٦٥: ١٨٠.
(٨) سنا ٣٧٩.
(٩) «فتح» ٩٦ وما يليها.
(١٠) نفسه ٩٧.
(١١) اقتباس أبو شامة ٢: ١٢٢.
(١٢) «فتح» ٩٩.
(١٣) ٧٤٦٥: ١٨١.
(١٤) «فتح» ٩٩.
(١٥) ٧٤٦٥: ١٨٣.
(١٦) التتمة ٨٨.
(١٧) «فتح» ٨٠.
(١٨) نفسه ٨١.
(١٩) سنا ٣٨٠.
(٢٠) قارن سنا ٣٨٣.
(٢١) ابن الأثير ١١: ٥٥٦.
(٢٢) «فتح» ٨٨.
(٢٣) قارن «يوميات ريتشارد الأول» ٨١.
(٢٤) «فتح» ٨٩.
(٢٥) حسب ما ذكره ابن شداد (٨٢) فإن الفرنجة الذين تركوا القدس، ذهبوا لصور، لكن اللاتيني صاحب «التتمة»، (٧٥) روى أنه سمح لهم بأن يختاروا الإسكندرية من حيث يمكنهم الإبحار إلى أوروبا أو إنطاكية.

(٢٦) ابن الأثير ١١ : ٥٥٥ .
(٢٧) De Bourienne, Memoirs of Napoleon 158.
(٢٨) قارن سنا ٣٨١ .
(٢٩) قارن سنا ٣٨٣؛ أيضاً .
(٣٠) نور ٤٤ .
(٣١) قارن ابن الأثير ١١ : ٥٥٩ .
(٣٢) سنا ٣٩٢ .
(٣٣) قارن «فتح» ١٠١؛ أبو شامة ٢ : ١٢٣؛ ابن أبي الهيجاء ١٨٧ .
(٣٤) ابن الأثير ١١ : ٥٥٩ .
(٣٥) قارن برلين ٦٤ .
(٣٦) «فتح» ١١٧ .
(٣٧) المكان نفسه؛ هذه العبارة موجودة تقريباً حرفياً في «التتمة» .
(٣٨) قارن «فتح» ١١٠ .
(٣٩) «فتح» ١٢٨ .
(٤٠) نفسه ١٣٠ .
(٤١) قارن «فتح» ١٣٢ .
(٤٢) ٧٣٠٧: ٢٤ .
(٤٣) اقتباس أبو شامة ٢ : ١٢٨ .
(٤٤) «فتح» ١٤١ .
(٤٥) ابن الأثير ١٢ : ١٠ .
(٤٦) كسابقه ١٢ : ١١ .
(٤٧) «فتح» ١٤٦ .
(٤٨) ابن شداد ٩٢ .
(٤٩) ابن الأثير ١٢ : ١٥ .
(٥٠) «فتح» ١٥١ .
(٥١) ابو شامة ٢ : ١٣١ .
(٥٢) ابن الأثير ١٢ : ١٧ .
(٥٣) «فتح» ١٥٣ .
(٥٤) اقتباس أبو شامة ٢ : ١٣١ .
(٥٥) اقتباس أبو شامة ٢ : ١٣٢ .
(٥٦) ابن شداد ٩٣ .
(٥٧) توب قابو ٣٧ .
(٥٨) «فتح» ١٥٧ .
(٥٩) ٧٣٠٧: ٢٨ .
(٦٠) ابن شداد ٩٤؛ «فتح» ١٥٨ .
(٦١) فتح ١٥٧؛ يوميات ريتشارد الأول ١٤٣ .
(٦٢) ابن شداد ٩٤ .
(٦٣) نفسه ٩٥ .
(٦٤) اقتباس أبو شامة ٢ : ١٣٤ .

(٦٥) ابن الأثير ١٢ : ٢٠ .
(٦٦) «فتح» ١٦١ .
(٦٧) ابن الأثير ١٢ : ٢٢ .
(٦٨) «فتح» ١٦٦ .
(٦٩) اقتباس أبو شاقة ٢ : ١٣٦ .
(٧٠) ابن شداد ٩٦ .
(٧١) «فتح» ١٦٦ .
(٧٢) اقتباس أبو شامة ٢ : ١٣٦ ، القلقشندي ٧ : ٢٣ .
(٧٣) ٧٤٦٥ : ٦٢ .
(٧٤) ٧٤٦٥ : ٧١، موصل ٤٣ .
(٧٥) ٧٤٦٥ : ٦٥ .
(٧٦) ٧٤٦٥ : ٧٦ .
(٧٧) ٧٤٦٥ : ٦٥ .
(٧٨) ٧٤٦٥ : ٦٩ .

هوامش الفصل التاسع عشر

(١) اقتباس أبو شامة ٢ : ١٣٧ .
(٢) ابن شداد ٩٨ .
(٣) ابن الأثير ١٢ : ٢٧ .
(٤) المكان نفسه .
(٥) توب قابو ٣٤ .
(٦) «التتمة» ١١٠ .
(٧) ابن شداد ٩٨ .
(٨) ٧٤٦٥ : ٥٢ .
(٩) ابن الأثير ١٢ : ٢٩ .
(١٠) «فتح» ١٨٢ .
(١١) المكان نفسه .
(١٢) ابن شداد ١٠٠ .
(١٣) نفسه ١٠١ .
(١٤) «فتح» ١٨٠ .
(١٥) ابن شداد ١٠٣ .
(١٦) «التتمة» ١١٣ .
(١٧) المكان نفسه .
(١٨) قارن «فتح» ١٨٦؛ ابن شداد ١٠٤ .
(١٩) «فتح» ١٨٨ .
(٢٠) ابن شداد ١٣٠ .
(٢١) ابن شداد (١٠٤) بيّن سبب اتخاذ طريق أخرى على أساس أن هذه الطريق هي الوحيدة التي تتسّع للجيش .
(٢٢) «التتمة» ١٤٤ .

(٢٣) اقتباس أبو شامه ٢: ١٤٣.
(٢٤) ابن شداد ١٠٥.
(٢٥) ٧٤٦٥: ٨٠؛ موصل ٤٦.
(٢٦) ٧٤٦٥: ٩٠؛ موصل ٣.
(٢٧) عماد الدين اقتباس أبو شامة ٢: ١٤٣.
(٢٨) نفسه، اقتباس أبو شامة، ٢: ١٤٣.
(٢٩) «فتح» ١٩١؛ يحاول عماد الدين تجاهل صعوبة حقيقية (قارن أيضاً ص ١٦٩).
(٣٠) ابن شداد ١٠٦.
(٣١) نفسه ١٠٧.
(٣٢) ٧٤٦٥: ٩٠؛ موصل ٣.
(٣٣) نور ١٩.
(٣٤) ٧٤٦٥: ٩٦.
(٣٥) قارن فتح، ٢٠٠.
(٣٦) ابن شداد ١١١؛ «فتح» ١٩٨.
(٣٧) «فتح» ١٩٨.
(٣٨) Ambroise, L'Estoire 1.2997 Sq.
(٣٩) ابن شداد ١١١.
(٤٠) نفسه ١١٢.
(٤١) «فتح» ٢٠٧.
(٤٢) ابن شداد ١١٣.
(٤٣) قارن «فتح» ٢٠١ وما يتبع.
(٤٤) ٧٤٦٥: ١٠٠.
(٤٥) ٧٤٦٥: ٨٥.
(٤٦) قارن ابن شداد ١١٤؛ «فتح» ٢٠٩.
(٤٧) أبو شامة ٢: ١٤٦.
(٤٨) «فتح» ٢١٠.
(٤٩) نفسه ٢١١.
(٥٠) نفسه ٢١٢.
(٥١) المكان نفسه.
(٥٢) فتح ٢١٦.
(٥٣) نفسه ٢١٦ وما يليها.
(٥٤) نفسه ٢١٩.
(٥٥) المكان نفسه.
(٥٦) ابن شداد ١١٥.
(٥٧) قارن «فتح» ٢٢١.
(٥٨) قارن ٧٤٦٥: ٨٧.
(٥٩) ٧٤٦٥: ٩٧.
(٦٠) فتح ٢١٤.
(٦١) نفسه ٢٣٠.

هوامش الفصل العشرين

(١) «فتح» ٢٣٤ .
(٢) نفسه ٢٣٣ .
(٣) نفسه ٢٣٩ .
(٤) قارن ٢٥٧٥٧ : ٣٦ .
(٥) البنداري ٢٣٦ .
(٦) «فتح» ٢٤٣ .
(٧) قارن شفاء القلوب ، سنة ٥٨٦هـ .
(٨) ابن الأثير ١٢ : ٤٥ .
(٩) ابن شداد ١٢٠ .
(١٠) Continuation, 12 .
(١١) «فتح» ٢٤٣ .
(١٢) قارن «فتح» ٢٤٧؛ أبو شامة ٢ : ١٥٤ .
(١٣) قارن ٧٣٠٧ : ٥٨ ، ٢٥٧٥٦ : ٦٨ .
(١٤) اقتباس أبو شامة ٢ : ١٥١ .
(١٥) اقتباس أبو شامة ٢ : ١٥٧ .
(١٦) اقتباس أبو شامة في الفقرة إلى اقتبست .
(١٧) ميونخ ٤٤ ؛ باريس ٨٧؛ اقتباس أبو شامة ٢ : ١٥٧ .
(١٨) ابن الأثير ١٢ : ٥٠ .
(١٩) Continuation, 123 .
(٢٠) «فتح» ٢٦٧ .
(٢١) نفسه ٢٦٣ .
(٢٢) نفسه ٢٦٢ .
(٢٣) ٧٤٦٥ : ١٠١ ؛ لا يجب أن يُؤخذ هذا كهفوة من الناسخ . لتقرأ «المَأن»، إذ أن الفاضل يتصرف بالجذر «أمينة» .
(٢٤) Continuation, 125 .
(٢٥) أبو شامة ٢ : ١٥٤ .
(٢٦) Continuation, 125 .
(٢٧) «فتح» ٢٥٧ .
(٢٨) ٧٤٦٥ : ١٠١ ، أيضاً ٢٥٧٥٦ : ٨٠ .
(٢٩) يوميات ١٢٠ .
(٣٠) معطاة هنا صحيحة في «التتمة اللاتينية» كابن أخت (١٢٦).
(٣١) «فتح» ٢٧٢ .
(٣٢) نفسه ٢٧٤ .
(٣٣) ٧٤٦٥ : ١١٣ .
(٣٤) ١٣٥ توب قابو .
(٣٥) «فتح» ٢٧٩ .
(٣٦) نفسه ٢٦٥ .

(٣٧) اقتباس أبو شامة ٢ : ١٥٧؛ ابن شداد ١٢٧ .
(٣٨) اقتباس «فتح» ٢٦٦ .
(٣٩) Continuation, 128 .
(٤٠) ابن شداد ١٣٧ .
(٤١) «فتح» ٢٨٧ .
(٤٢) ٧٤٦٥ : ١٠٦ .
(٤٣) ابن شداد ١٣٥ .
(٤٤) نفسه ١٣٨ .
(٤٥) اقتباس أبو شامة ٢ : ١٦٦ .
(٤٦) ميونخ ٨١ .
(٤٧) «فتح» ٢٩٠ .
(٤٨) نفسه ٢٩٢ .
(٤٩) نفسه ٢٨٧ .
(٥٠) اقتباس أبو شامة ٢ : ١٧٦ .
(٥١) قارن ميونخ ٢٩ .
(٥٢) أبو شامة ٢ : ١٧١؛ قارن أيضاً القلقشندي ٦ : ٥٢٦، جودفروا ـ ديمونبين، «رسالة من صلاح الدين إلى خليفة الموحدين» ٢٨٩ وما يتبع .
(٥٣) ابن شداد ١٤٤ .
(٥٤) «فتح» ٢٩٨ .
(٥٥) المكان نفسه .
(٥٦) ابن الأثير ١٢ : ٥٦ .
(٥٧) قارن ابن شداد ١٤٥؛ ابن الأثير ١٢ : ٦٠، وما يتبع .
(٥٨) ابن شداد ١٤٥ .
(٥٩) ابن الأثير ١٢ : ٦١ .
(٦٠) نفسه ١٢ : ٦٢ .
(٦١) ابن شداد ١٤٦ .
(٦٢) اقتباس أبو شامة ٢ : ١٦٧ .
(٦٣) L'Estoire, I: 4001 .
(٦٤) ابن شداد ١٤٧ .
(٦٥) نفسه ١٤٨ .
(٦٦) L'Estoire, I: 4023 .
(٦٧) ابن شداد ١٤٩ .
(٦٨) L'Estoire : 4070 .
(٦٩) ابن شداد ١٤٩ .
(٧٠) نفسه ١٥٠ .
(٧١) نفسه ١٤٧ .
(٧٢) نفسه ١٥١ .
(٧٣) نفسه ١٥٣ .
(٧٤) «فتح» ٢١٢ وما يتبع .

(٧٥) اقتباس أبو شامة ٢ : ١٦٦ .
(٧٦) ٧٤٦٥ : ٢٩٢؛ موصل ٤ .
(٧٧) ميونخ ١٠٤ .
(٧٨) نور ٢٣ .
(٧٩) في اللغة العربية «أنطاكية»؛ عن هذا الإبهام، أنظر حاشية ٥٤ من الفصل التالي .
(٨٠) قارن ابن شداد ٢٢٠ .
(٨١) ٧٤٦٥ : ١٠٧؛ قارن أبو شامة ٢ : ١٨٥ .
(٨٢) ابن الأثير ١٢ : ٦١.
(٨٣) ابن شداد ١٥٦ .
(٨٤) المكان نفسه .
(٨٥) ابن شداد ١٥٨ .
(٨٦) اقتباس أبو شامة ٢ : ١٨٣ .
(٨٧) قارن «فتح» ٣٢٩ .
(٨٨) قارن أبو شامة ٢ : ١٧٨ .
(٨٩) ابن شداد ١٥٧ .
(٩٠) ابن الأثير ١٢ : ٦٥ .
(٩١) ابن شداد ١٦١ .
(٩٢) «فتح» ٣٣٧ .
(٩٣) ابن شداد ١٦٤ .
(٩٤) «فتح» ٣٤٢ .
(٩٥) ابن شداد ١٩٩ .
(٩٦) اقتباس أبو شامة ٢ : ١٩٦ .
(٩٧) اقتباس أبو شامة ٢ : ١٨٦ .
(٩٨) اقتباس «فتح» ٣٤٦ .
(٩٩) اقتباس «فتح» ٣٤٩ .
(١٠٠) «فتح» ٣٤٨ .
(١٠١) ابن شداد ١٦٦ .
(١٠٢) التتمة ١٤٠ .
(١٠٣) ابن شداد ١٦٦ .
(١٠٤) نفسه ١٦٨ .
(١٠٥) نفسه «فتح» ٣٥٢ .
(١٠٦) عز الدين ارسال .
(١٠٧) «فتح» ٣٥٣ .
(١٠٨) ابن شداد ١٦٨ .
(١٠٩) المقريزي، السلوك ٩٤ .
(١١٠) أبو شامة ٢ : ١٨٧ .
(١١١) ابن شداد ١٧٠؛ أمبرواز (١ : ٥٢٠٤) يعطي الرقم ٢٠٠٠ نبيل ، ٥٠٠ من رتبة أدنى، و «التتمة» (١٤١) تعطي الرقم ٢٠٠ فارس و ١٠٠٠ رجل من رتبة أدنى و ٥٠٠ من الفرنجة كانوا أسرى في عكا.

(١١٢) امبرواز يعارض هذا (١ : ٥٢٠٧) الذي يقول أن الشروط لم تسْرِ على الأملاك .
(١١٣) ابن شداد ١٧١ .
(١١٤) المكان نفسه .
(١١٥) «فتح» ٣٥٨.

هوامش الفصل الحادي والعشرين

(١) ابن أبي الهيجاء ٢٠١ .
(٢) «فتح» ٣٥٨.
(٣) «فتح» ٣٦٨.
(٤) المكان نفسه .
(٥) التتمة ١٤٢ .
(٦) «فتح» ٣٥٩.
(٧) التتمة ١٤١ .
(٨) «فتح» ٣٥٩.
(٩) ابن شداد ١٧٣ .
(١٠) اقتباس أبو شامة ٢ : ١٨٩ .
(١١) ابن شداد ١٧٣ .
(١٢) ابن الأثير ١٢ : ٦٨.
(١٣) ابن شداد ١٧٣؛ «فتح» ٣٧١.
(١٤) التتمة ١٤٢ .
(١٥) ابن شداد ١٧٤ .
(١٦) كسابقه .
(١٧) ابن شداد ١٧٥ ـ هذا كان التبرير الذي قدّم عن ذبح نابليون أسراه في يافا. ولاحظ «غروسيه» (تاريخ الحروب الصليبية ٢ : ٦١): «هذا العمل البربري الذي لا مثيل له، أحدث في بلاد الإسلام ضجة كبيرة» .
(١٨) أنظر: يوميات رتشارد الأول ٢٣٠ ، أيضاً ابن شداد يقدم رواية واضحة أنظر أيضاً: Stevenson. The Crusaders in the East 345, 361.
(١٩) ابن شداد ١٧٥ .
(٢٠) «فتح» ٣٧٦.
(٢١) ابن شداد ١٧٥ .
(٢٢) نفسه ١٧٨ .
(٢٣) اقتباس «فتح» ٣٧٨ .
(٢٤) ابن شداد ١٧٩ .
(٢٥) نفسه ١٨٠ .
(٢٦) «فتح» ٣٨٠ .
(٢٧) «امبرواز» ١ : ٦٠٢٥؛ «يوميات ريتشارد الأول» (٢٣١) يؤرخ يوم وفته بيوم الزحف السابق .
(٢٨) «فتح» ٣٨١ .
(٢٩) قارن «فتح» ٣٨٦؛ قارن أبو شامة ٢ : ١٩١ .

(٣٠) ابن شداد ١٨٢ .
(٣١) نفسه ١٨٤ .
(٣٢) «امبرواز» ٦١٣٧ وما يتبع .
(٣٣) نفسه ٦٢١٢ .
(٣٤) اقتباس أبو شامة ٢ : ١٩١ .
(٣٥) Grousset, 2:78 .
(٣٦) «امبرواز» ٦٨٩٨ .
(٣٧) نفسه ٦٨٧١ .
(٣٨) ابن شداد ١٨٥ .
(٣٩) المكان نفسه ، طبعاً من غير الممكن تحديد مجرى النهر بدقة في ذلك الزمن.
(٤٠) قارن أبو شامة ٢ : ١٩٣ .
(٤١) «فتح» ٣٨٥ .
(٤٢) نفسه ٣٨٩ .
(٤٣) ابن شداد ١٨٦ .
(٤٤) المكان نفسه .
(٤٥) «فتح» ٣٩٠ .
(٤٦) ابن شداد ١٨٧ .
(٤٧) «يوميات ريتشارد الأول» ٢٤٧ .
(٤٨) ابن الأثير ١٢ : ٧١ .
(٤٩) ابن شداد ١٨٨ .
(٥٠) L'Estoire I:7097 .
(٥١) ابن شداد ١٩٠؛ «فتح» ٣٩١ .
(٥٢) اقتباس «خطط» ٢ : ٢٤ .
(٥٣) «فتح» ٣٩٢ .
(٥٤) ابن شداد (٩)؛ يقول النص أن فيليب توفي بسبب المرض في أنطاكية - ربما مثال آخر في الخلط والتشويش بين أنطاكية وإيطاليا أو انطاليا (قارن الفصل السابق، هامش ٧٩) .
(٥٥) ابن شداد ١٩٤ .
(٥٦) نفسه ١٩٥ .
(٥٧) نفسه، عن الزواج المختلط في القرن الحادي عشر بين الأميرات المسيحيات والحكام المسلمين قارن ليفي - بروفنسال تاريخ اسبانيا الإسلامية ٢ : ٢٤١ - ٢ .
(٥٨) «فتح» ٣٩٤ .
(٥٩) ابن شداد ١٩٦ .
(٦٠) نفسه ١٩٧ .
(٦١) المكان نفسه .
(٦٢) ابن شداد ٢٠٢ .
(٦٣) إغفال بيروت في النص في ابن شداد (٢٠٣) ربما كان خطأ من الناسخ .
(٦٤) L'Estoire I:8700 .
(٦٥) ابن شداد ٢٠٢ - ٢٠٣ .
(٦٦) «فتح» ٣٩٨ .

(٦٧) نفسه ٤١٣ .
(٦٨) L'Estoire 1:7631 .
(٦٩) اقتباس أبو شامة ٢ : ١٩٤ .
(٧٠) «فتح» ٢٣١ .
(٧١) قارن «التتمة» ٨٢.
(٧٢) قارن امبرواز ١ : ٧٦٩١ «التتمة» ١٤٦ .
(٧٣) ابن الأثير ١٢ : ٧٥.
(٧٤) «امبرواز» ١ : ٧٩٣٣.
(٧٥) «يوميات ريتشارد الأول» ٢٦١ .
(٧٦) «خطط» ١ : ١٨٠؛ قارن، المقريزي، السلوك ١١١ .
(٧٧) «فتح» ٣٩٩.
(٧٨) نفسه ٤٠١ .
(٧٩) ابن شداد ٢٠٥ .
(٨٠) نفسه ٢٠٦ .
(٨١) نفسه ٢٠٧ .
(٨٢) نفسه ٢٠٦ .
(٨٣) نفسه ٢٠٧ .
(٨٤) قارن امبرواز، ١ : ٨٨٨٥.
(٨٥) ابن الأثير ١٢ : ٧٨.
(٨٦) «فتح» ٤٢٢ .
(٨٧) اقتباس، أبو شامة ٢ : ١٧٨ .
(٨٨) «يوميات ريتشارد الأول» ٣٠١ .
(٨٩) «فتح» ٤٢٣ .
(٩٠) ابن شداد ٢١١ .
(٩١) المكان نفسه .
(٩٢) ابن شداد ٢١٢ .
(٩٣) المكان نفسه .
(٩٤) L'Estoire 1:9817 .
(٩٥) «فتح» ٤٢٤ .
(٩٦) ابن شداد ٢١٣ .
(٩٧) L'Estoire 1:10269 .
(٩٨) «فتح» ٤٢٥ .
(٩٩) وايفل (الحملات الفلسطينية ١٣١ - ١٣٢) .
(١٠٠) «فتح» ٤٢٥ .
(١٠١) ابن شداد ٢١٥ .
(١٠٢) نفسه ٢١٤ .
(١٠٣) «امبرواز» ١ : ١٠٣٤٠ وما يتبع .
(١٠٤) ابن الأثير ١٢ : ٨٢.
(١٠٥) ابن شداد ٢١٤ .

(١٠٦) كتاب الإشارات ٣.
(١٠٧) ابن شداد ٢١٥.
(١٠٨) قارن أبو شامة ٢: ١٣٧.
(١٠٩) قارن ابن شداد ٢١٨.
(١١٠) ابن شداد ٢١٥.
(١١١) نفسه ٢١٦.
(١١٢) أبو شامة ٢: ١٩٩.
(١١٣) L'Estoire 1:10208.
(١١٤) تفاصيل هذه المحادثات مقتبسة من ابن شداد ٢١٨ وما يتبع.
(١١٥) عن رواية ابن شداد حول القتال في يافا راجع ابن شداد، ٢٢٢ وما يتبع.
(١١٦) نص ابن شداد (٢٢٣) يذكر «يد»؛ القراءة الصحيحة هي «يزك» نجدها في ابن أبي الهيجاء (٢٠٤).
(١١٧) ابن الأثير ١٢: ٨٤.
(١١٨) L'Estoire 1:11111.
(١١٩) ابن شداد ٢٢٧.
(١٢٠) نفسه ٢٢٨.
(١٢١) نفسه ٢٢٩.
(١٢٢) نفسه ٣٠.
(١٢٣) «فتح» ٤٣٥.
(١٢٤) ابن شداد ٢٣٢.
(١٢٥) نفسه ٢٣٤.
(١٢٦) نفسه ٢٣٥.
(١٢٧) نفسه ٢٣٦.
(١٢٨) «يوميات ريتشارد الأول» ٣٣١.
(١٢٩) ابن شداد ٢٣٦.
(١٣٠) نفسه ٢٣٧.
(١٣١) قارن أبو شامة ٢: ٢٠٥.
(١٣٢) موصل ٦٨.
(١٣٣) ابن شداد ٢٣٨.
(١٣٤) نفسه ٢٤٢.
(١٣٥) تفاصيل مرض صلاح الدين الأخير مقتبس عن ابن شداد ٢٤٣ وما يتبع.

هوامش الفصل الثاني والعشرين

(١) اقتباس أبو شامة ٢: ١٣٨.
(٢) البنداري ٢٨٧.
(٣) نفسه ٣٠٦.
(٤) نفسه ٣٥٢.

(٥) ميونخ ١١٣ .
(٦) أبو صالح ٢٠٤ .
(٧) الوهراني ١٨٢ .
(٨) قارن ابن شداد ٢٣٩ .
(٩) أنظر سابقاً.
(١٠) البنداري ٣٢٢.
(١١) اقتباس البنداري ٢٩٨ .
(١٢) اقتباس البنداري ٢٧٩ .
(١٣) توب قابو ٧٥.
(١٤) اقتباس أبو شامة ٢ : ١٧٧ .
(١٥) أنظر سابقاً.
(١٦) ٧٤٦٥: ١٣٧ .
(١٧) أنظر سابقاً.
(١٨) الرحلات ٧١.
(١٩) راجع سابقاً.
(٢٠) قارن التشابه في التفاصيل والطابع بين رواية ما جرى من محادثات بين أتراك تقي الدين وسكان طرابلس في ليبيا (أبو شامة ٢ :٣٨) ووصف نيستاس (٣٩٧) عن الاستيلاء على تسالونيكي من قبل اللاتين.
(٢١) ٧٤٦٥: ٢٢٢ .
(٢٢) ابن شداد ٢٢ .
(٢٣) اقتباس أبو شامة ٢ : ٢١٠ .
(٢٤) المؤلف هو كمال الدين الشهرزوري (قارن سناء ٣٩٨) .
(٢٥) ٧٤٦٥: ٨١.
(٢٦) ابن شداد ٢٤٦.

المصادر

المصادر العربية والشرقية

- ابن أبي الهيجاء.
- تاريخ ابن أبي الهيجا، مخطوط الأحمدية (تونس) رقم ٤٩١٥.

ابن الأثير، علي بن محمد
- الكامل في التاريخ، بيروت ١٩٦٥.
- التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، باعتناء طليمات، القاهرة، بدون تاريخ.

ابن جبير، محمد بن أحمد
- رحلة ابن جبير، مجموعة تذكار جب، ليدن ١٩٠٧.

ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد
- المقدمة، القاهرة ١٨٦٧.

ابن خلكان، أحمد بن محمد
- وفيات الأعيان، القاهرة، ١٨٨٢.

ابن شداد، بهاء الدين يوسف بن رافع
- النوادر السلطانية، سيرة صلاح الدين، باعتناء الشيال، القاهرة، ١٩٦٢.

ابن العبري، أبو الفرج، تاريخ، ترجمة برج، لندن ١٩٣٢.

ابن العديم، عمر بن أحمد
- زبدة الحلب من تاريخ حلب، باعتناء سامي الدهان، دمشق، ١٩٦٨.

ابن عنين، محمد بن نصر الله
- ديوان ابن عنين، باعتناء خليل مردم، دمشق ١٩٤٦.

ابن الفرات، محمد بن عبدالرحيم
- تاريخ الدول والملوك، جـ ٤، باعتناء الشماع، البصرة، ١٩٦٧.

ابن مماتي، الأسعد
- قوانين الدواوين، باعتناء عطية، القاهرة ١٩٤٣.

ابن واصل، محمد بن سالم
- مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، باعتناء الشيال، القاهرة ١٩٥٧.

أبو تمام، حبيب بن أوس
- الديوان، باعتناء عزام، القاهرة ١٩٥١ - ٧.
- ديوان الحماسة، نسخة مصورة عن طبعة ١٣٣١هـ، ١٩٦٩.

أبو شامة، عبد الرحمن بن اسماعيل.
- كتاب الروضتين في أخبار الدولتين جـ ١، ق ١ - ٢، باعتناء أحمد وزيادة، القاهرة ١٩٥٦.
- الجزاء ١ - ٢، القاهرة ١٨٧٠ [استخدم المؤلفان الجزء الثاني فقط كمصدر].

أحمد بن يوسف بن علي الأزرق
- تاريخ ميافارقين، مخـ المتحف البريطاني. OR 5803

أسامة بن منقذ
- كتاب الاعتبار، باعتناء فيليب حتي.

الحريري، القاسم بن علي
- مقامات الحريري، بيروت، ١٩٦٥.

ساويروس ابن المقفع، تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية، القاهرة ١٩٦٨ - ٧٠

سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، حيدر آباد ١٩٥١.

أبو صالح الأرمني، كنائس مصر وأديرتها، أوكسفورد ١٨٩٥.

الطرسوسي، م. بن علي
- تبصرة أرباب الألباب، مخطوط (بودلي) هونتغن ٢٦٤.

عماد الدين، محمد بن محمد الكاتب الأصفهاني
- البرق الشامي جـ ٣، مخطوط (بودلي) بروسه ١١، جـ٥ مخطوط (بودلي) مارش ٤٢٥.
- سنا البرق الشامي، اختصار البنداري، باعتناء رمضان شش.
- دراسة نقدية لمختصر البنداري عن كتاب البرق الشامي لمؤلفه عماد الدين كتبها النبراوي (أطروحة غيره منشورة في جامعة كمبردج).
[طبعت في القاهرة ١٩٧٠، بعد إعداد هذا الكتاب].
- كتاب الفتح (الفتح) القسي في الفتح القدسي، لايدن ١٨٨٨.
- خريدة القصر وجريدة القصر، ١ - ٣، باعتناء شكري فيصل، دمشق ١٩٥٥ - ٦٤.
- ديوان رسائل الكاتب الأصفهاني، مخطوط نوري عثمانية (استانبول) رقم ٣٧٤٥، منسوبة إلى عماد الدين.

عمر بن عبد العزيز بن العديم، سوق الفاضل في مناقب القاضي الفاضل.
- مخطوط عارف حكمت (المدينة المنورة) رقم ٤١٠.

الفاضل، عبد الرحمن بن علي
- الدرر الناظمة من ترسل عبد الرحيم، باعتناء ع. بدوي، القاهرة، دون تاريخ
مخطوطات لأعماله:

برلين الغربية	رقم ١٢٦٤
المتحف البريطاني	رقم ٧٣٠٧ - ٧٤٦٥ - ٥٧٥٦ - ٢٥٧٥٧
كمبردج	رقم ٢٣٢
لايدن	رقم ٢٨٧
الموصل	رقم ٩٣٣
ميونخ	رقم ٤٠٢
باريس	رقم ٦٠٢٤ المخطوطات العربية
توب قابو	٢٤٩٧
	قارن أيضاً الفاتيكان ٩٤٦

القلقشندي، أحمد بن علي
- صبح الأعشى، ١٤ مجلداً [مع الفهارس]، القاهرة ١٣٢٢ - ٤هـ.
الكرمي، حسن سعيد، قول على قول، بيروت ١٠٦٨.
- مجهول: شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، مخطوط المتحف البريطاني ٧٣١١.
- منسوب إلى أحمد بن إبراهيم الحنبلي، محمد كرد علي: الشاميون والتاريخ.
- مجلة التجمع العمالي العربي بدمشق. المجلد ٢٧ (١٩٤٢)، ١٠١.
محمد بن إبراهيم بن محمد الأنصاري
- تاريخ دولة الأكراد ودولة الأتراك، مخطوط مكتبة هيكيموغلو باشا رقم ٦٩٥.
المخزومي، علي بن عثمان
- كتاب علم الخراج، مخطوط المتحف البريطاني ٢٣٨٣٤
المقريزي، أحمد بن علي
- الخطط المقريزية (المواعظ والاعتبار) طبعة مصورة عن طبعة القاهرة ١٩٥٣ - ٤.
- السلوك، باعتناء زيادة جـ ١ ق ١، القاهرة ١٩٥١.
- إتعاظ الحنفا، مخطوط أحمد الثالث (استانبول) ١١١ رقم ٣٠١٣.
[طبع هذا الكتاب في القاهرة باعتناء الشيال].
ميخائيل السوري
- التاريخ، باعتناء شابو، باريس ١٨٩٩ - ١٩١٠.
النابلسي، عثمان بن إبراهيم
- تاريخ الفيوم، باعتناء موريتز، القاهرة ١٨٩٩.
الهروي، أبو الحسن علي بن أبي بكر
- الإشارة إلى معرفة الزيارة، باعتناء ج. و د. سورديل، دمشق ١٩٥٣.
الوهراني، زكي الدين محمد بن محمد
- مقامات الوهراني ومناماته ورسائله، القاهرة، ١٩٦٨.
ياقوت بن عبد الله الحموي
- معجم البلدان، بيروت، ١٩٥٥.

المصادر الأجنبية

- Amari, M.: **I diplomi arabi del R. Archivio Fiorentino.** Florence 1863.
- Ambroise: **L'Estoire de la Guerre Sainte,** ed. G. Paris, Paris 1897.
- Anon.: **Chronicon Terrae Sanctae seu libellus de expugnatione,** ed. H. Prutz. Danzig 1876.
- Ansbertus: **Gesta Frederici Imperator is in Expeditione Sacra.** Monumenta Germaniae Historica: Scriptores, 1892.
- Bloch, M.: **Feudal Society,** trans, L. A. Manyon. London 1961.
- Bourrienne, F. de: **Memoirs of Napoleon Bonaparte** (trans.), London 1905.
- Brand, C.M.: «The Byzantines and Saladin. 1185-1192: Opponents of the Third Crusade», **Speculum,** XXXVII (1962), 167-181.
- Cinnamus, John: **Epitome Historiarum,** Corpus Scriptorum HistoriaeByzantinae, Bonn 1836.
- Continuation of William of Tyre: **Die Lateinische Fortsetzung Wilhems von Tyrus,** ed. M. Salloch, Leipzig 1934.
- Ehrenkreutz, A.S.: «The Crisis of dinar in the Egypt of Saladin», **JAOS,** LXXVI (1956), 178-84.

  «The palace of Saladin in the naval history of the Mediterranean Sea in the middle ages», **JAOS,** LXXV (1955), 100-16.
  «Saladin's coup d'état in Egypt», **Medieval and Middle Eastern Studies in Honor of Aziz Suryal Atiya,** ed. S.M. Hanna, Leiden 1972.
  Saladin, State University of New York Press, 1972.
- Elisséef, N.: **Nur ad-Din, un grand prince musulman de Syrie au temps des croisades (511-569 H. 1118-1174),** 3 vols., Damascus 1967.
- Ernoul: **Chronique d'Ernoul et de Bernard le Tresorier,** ed. L. de Mas-Latrie, Paris 1971.
- **Estoire D'Eracles,** Recueil des Historiens des Croisades: Historiens occidentaux 1, 2.
- **Field Service Pocket Book,** pt 2, Government of India Central Publication Branch, Calcutta 1928.
- Gaudefroy-Demombynes, M.: «Une lettre de Saladin au calife Almohade», **Mélanges René Basset,** Paris 1925.

- Gibb, H.A.R.: «The Arabic Sources for the Life of Saladin», **Speculum, XXV (1950).**

The Life of Saladin, Clarendon Press, Oxford 1973.

- Gombrich, E.H.: **In Search of Cultural History,** The Philip Maurice Deneke Lecture, Clarendon Press, Oxford 1969.
- Grousset. R.: **Histoire des Croisades et du Royaume Franc de Jérusalem,** 3 vols., Paris 1934-6.
- Heyd. W.: **Histoire du commerce du Levant au moyen âge,** Leipzig 1923.
Itinerarium Peregrinorum et Gesta Regis Ricardi, ed. W. Stubbs, Rolls Series, London 1964: trans, **Itinerary of Richard I,** Bohn, London 1848.
- Lapidus I.M.: **Muslim Cities in the Later Middle Ages,** Harvard University Press, Cambridge, Mass., 1967.
- Lévi-Provençal, E.: **Histoire de l'Espagne Musulmane,** 2 vols., Paris and Leiden 1950.
- Lyons, U. and M.C., and Riley-Smith, J.: **Ayyubids, Mamlukes and Crusaders,** Heffer, Cambridge 1971.
- Minorsky, V.: **Studies in Caucasian History,** London 1953.
- Napoleon: **Guerre d'Orient: Campagnes d'Egypte et de Syrie,** Paris 1847.
- Nicetas Choniates: **Historia,** Corpus Scriptorum Historia Byzantinae, Bonn 1835.
- Ostrogorsky, G.: **Pour l'histoire de la féodalité byzantine,** trans, H. grégoire, Brussels 1954.
- Poliak, A.N.: «The Ayyubid feudalism», **JRAS** (1939), 428-32.
- Prawer, J., «La bataille de Hattin», **Israel Exploration Journal,** XIV (1964), 160-79.
- Préaux, C.: **L'Economie Royale des Lagides,** Brussels 1939.
- Rabie, H.: **The Financial System of Egypt, A.H.** 564-1741 A.D. 1169-1341, Oxford University Press, 1972.
- Raoul de Diceto: **Ymagines historiarium,** ed, W. Stubbs, Rolls Series, London, 1876.
- Riley-Smith, J.: **The Knights of St. John in Jerusalem and Cyprus 1050-1310,** London 1967.
- Ritter H.: «Irrational Soidarity Groups», **Oriens, I** (1948).

- Robinson, E., and Smith, E.: **biblical Researches in Palestine, Mount Sinai and Arabia Petraea,** 3 vols., London 1841.

- Rohricht, R.: **Regesta Regni Hierosolymitani,** Oeniponti, 1893.

- Sauvaget, J.: **Introduction to the History of the Muslim East,** 2nd edition revised by C. Cahen, University of California Press, 1965.

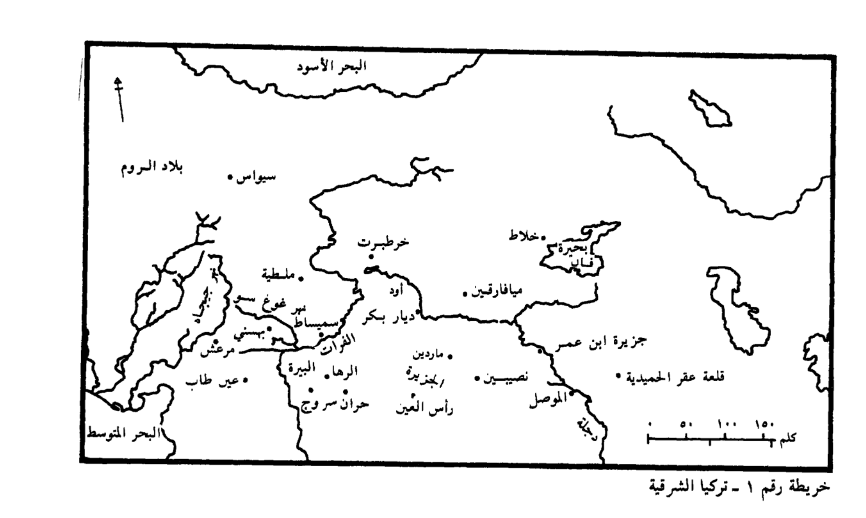
- Stevenson, W.B.: **The Crusaders in the East,** Cambridge 1907.

- Tarn, W.W.: **Hellenistic Military and Naval Developments,** Clees-Knowles Lectures in Military History, Cambridge 1930.

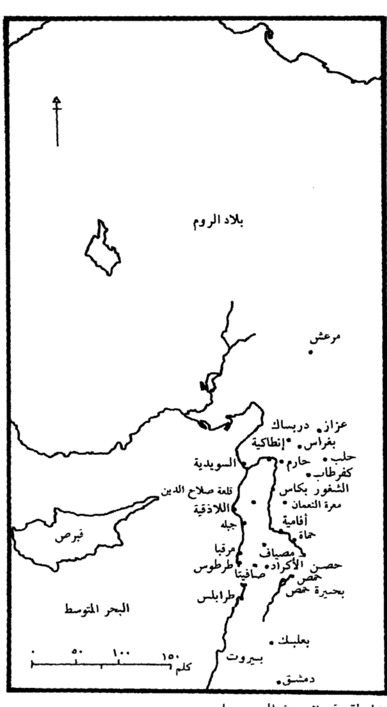
- Wavell, A.P.: **The Palestine Campaigns,** 3rd edition, London 1938.

- William of Tyre: **Historia Rerum in Partibus Transmarinis Gestarum,** Recueil des Historiens des Croisades. Historiens occidentaux, vol. 1, Pt 1, trans. Babcock and Krey.Columbia University Press, 1943.

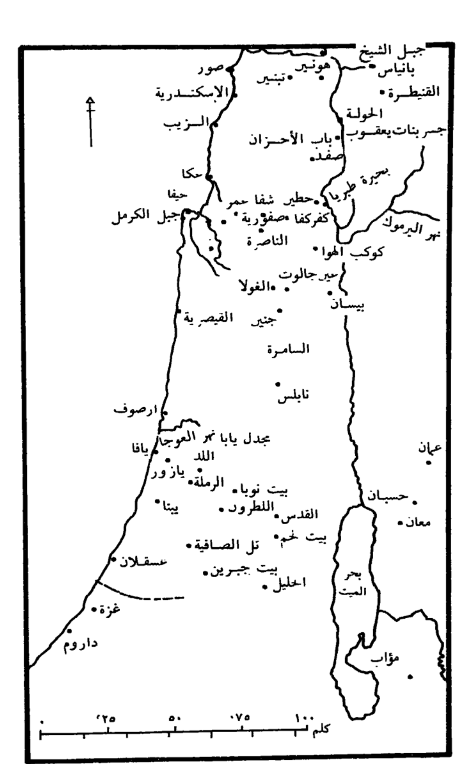
- Zambaur, E de: **Manuel de Généalogie et de Chronologie pour L'Histoire de L'Islam,** Bad Pyrmont 1955.



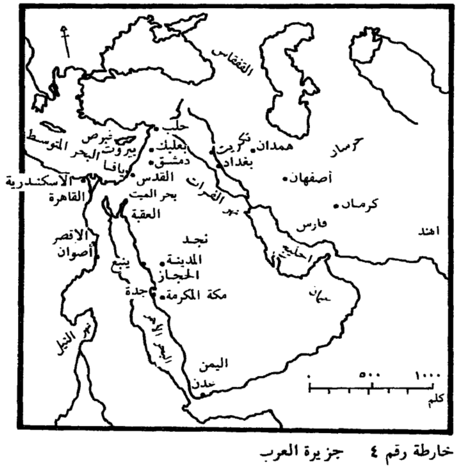
خريطة رقم ١ ـ تركيا الشرقية



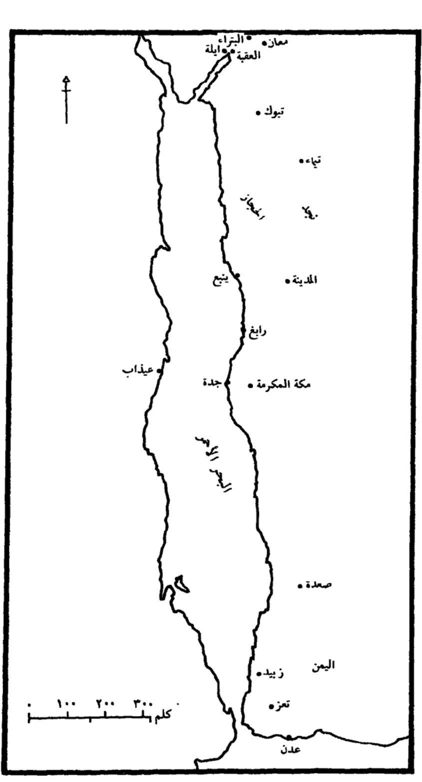
خارطة رقم ٢ شمال سوريا



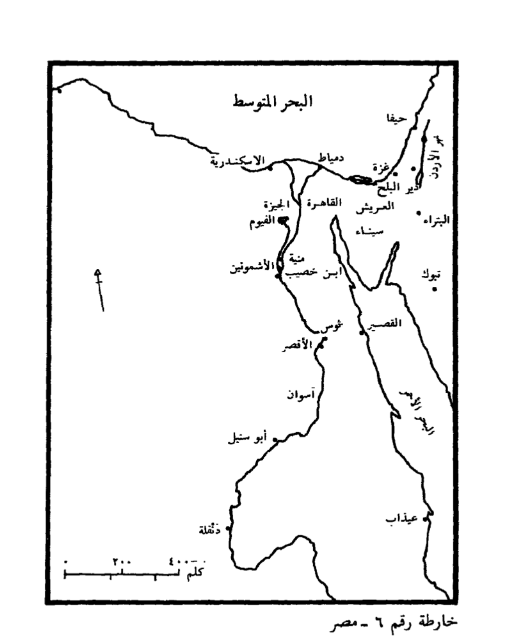
خارطة رقم ٣ ـ فلسطين.



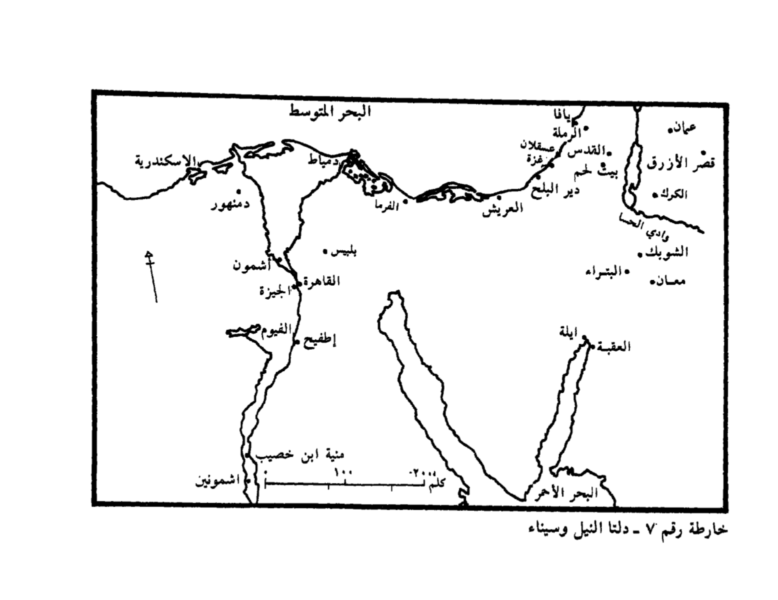
خارطة رقم ٤ جزيرة العرب



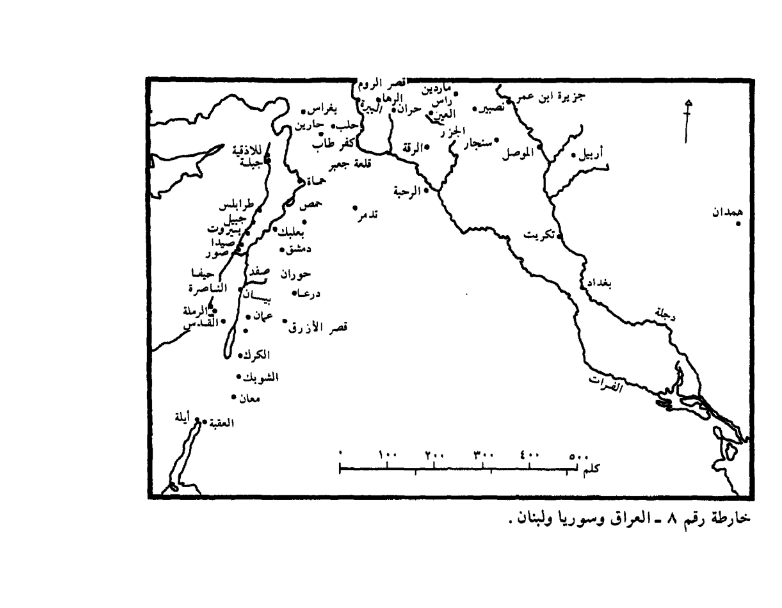
خارطة رقم ٥ ـ غرب الجزيرة العربية



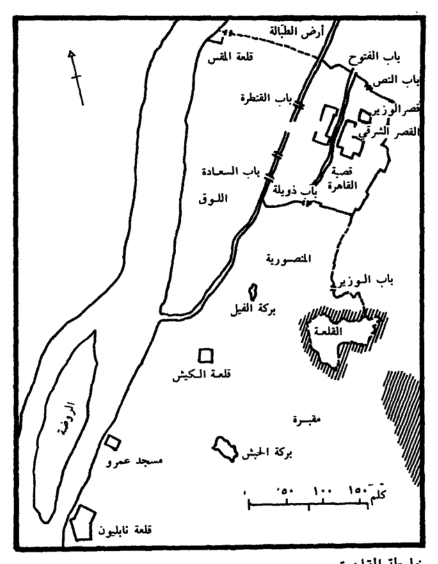
خارطة رقم ٦ ـ مصر



خارطة رقم ٧ ـ دلتا النيل وسيناء



خارطة رقم ٨ ـ العراق وسوريا ولبنان.



خارطة القاهرة

هذا العمل الضخم الذي وضعه المؤرخان البريطانيان ملكوم ليونـز ود. جاكسون يطال جوانب ظلت غـير معروفـة حتـى الآن من حياة صلاح الـدين الأيوبي وجهاده. وقد اعتمد المؤرخان على مصادر عربية جديدة وأخرى غربية، وجاء عملهما على قدر كبير من الموضوعية.

نقل الكتاب إلى العربية الدكتور علي ماضي، الأستاذ في الجامعة اللبنانية، وراجعه المؤرخ الدكتور نقولا زيادة واستاذ التاريخ في الجامعة اللبنانية الدكتور فهمي سعد.